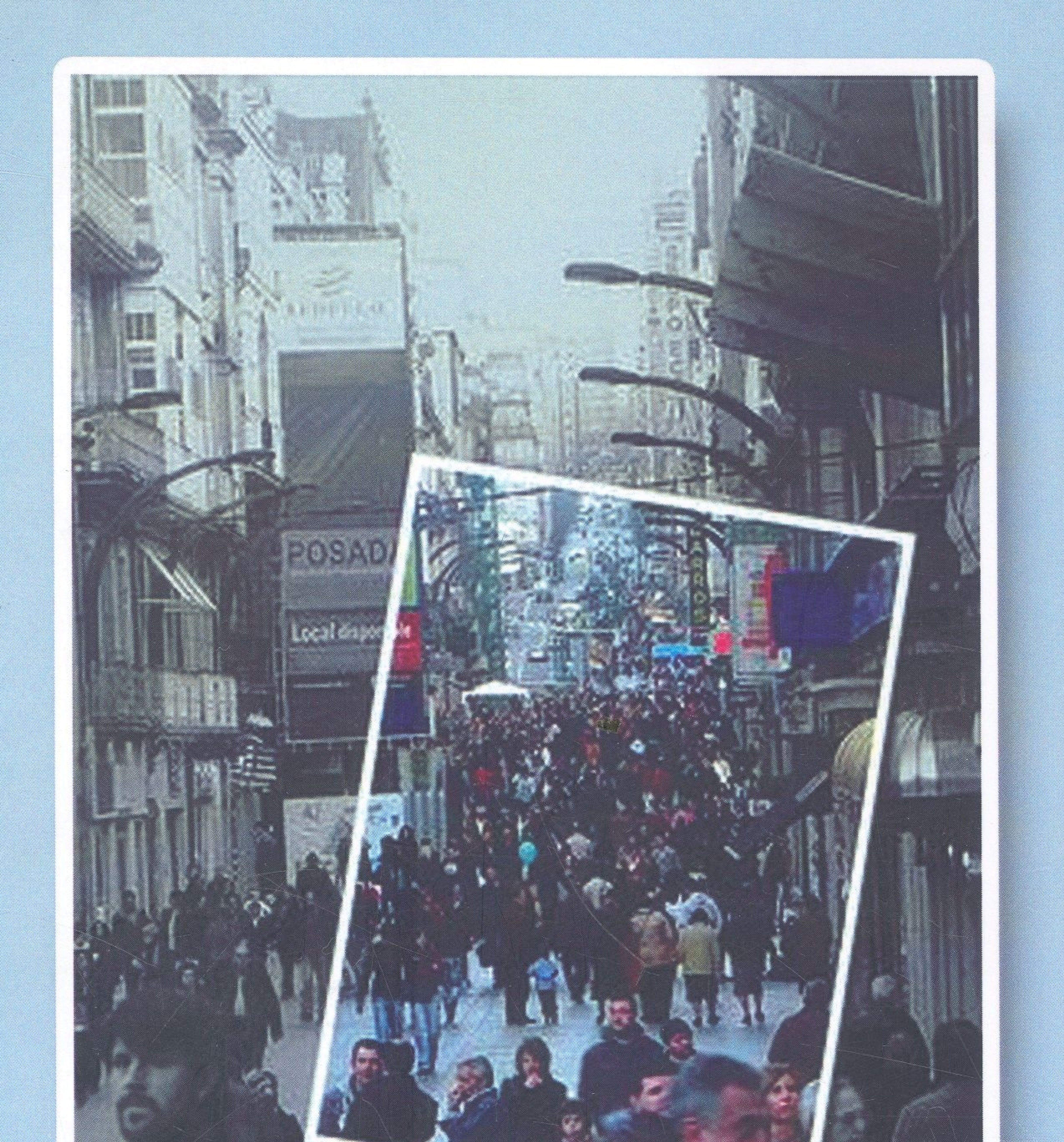
المشروع القومى للترجمة
المركز القومى للترجمة



البحث الميدانى الإثنوجرافى فى العلوم الاجتماعية

تأليف
روبرت إيمرسون
راشيل فريتز
لندا شو

ترجمة
هناء الجوهرى

مراجعة وتقديم
محمد الجوهرى

1460



1

إهـــــــداء ٢٠١٠
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

البحث الميدانى الإثنوجرافى
فى العلوم الاجتماعية

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد: 1460
- البحث الميدانى الإثنوجرافى فى العلوم الاجتماعية
- روبرت إيمرسون وراشيل فريتز ولندا شو
- هناء الجوهرى
- محمد الجوهرى
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

Writing Ethnographic Fieldnotes

By: Robert M. Emerson, Rachel I. Fretz,
and Linda L. Shaw

Copyright © 1995, by the University of Chicago
Licensed by the University of Chicago Press, Illinois, USA
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.
E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com **Tel.:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

البحث الميدانى الإثنوجرافى
فى العلوم الاجتماعية

تأليف: روبرت إيمرسون
راشيل فريتز
لندا شو
ترجمة: هناء الجوهرى
مراجعة وتقديم: محمد الجوهرى



2010

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

البحث الميداني الإثنوجرافي في العلوم الاجتماعية؛
تأليف: روبرت إيمرسون، راشيل فريتز، لندا شو؛
ترجمة: هناء الجوهري؛ مراجعة وتقديم: محمد الجوهري
ط١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠
٤٥٦ ص؛ ٢٤ سم
١- البحوث الاجتماعية.
(أ) فريتز، راشيل (مؤلف مشارك)
(ب) شو، لندا (مؤلف مشارك)
(جـ) الجوهري، هناء (مترجمة)
(د) الجوهري، محمد (مراجع ومقدم)
(هـ) العنوان ٣٠٠,٧

رقم الإيداع ٢٠١٠/٥٣٨١

الترقيم الدولي I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 957 - 5

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

هذه السلسلة

بقلم: أ.د.فيصل يونس

في العلوم الاجتماعية المعاصرة، كما في غيرها من العلوم، يتسارع معدل التقدم في النظرية والمنهج، ويزداد تراكم المعلومات التي تكشف عنها الدراسات يومًا بعد يوم. وفي نفس الوقت، نجد أن معظم هذه المعارف، مكتوب بلغات أجنبية أهمها الإنجليزية. وقد أصبح الاطلاع على الدراسات الأجنبية في العلوم الاجتماعية ضرورة قصوى، بدونها لا يمكن للباحث في هذه العلوم أن يحيط بالتطورات المتسارعة في مختلف ميادينها، ولا يمكن له بالتالي أن يقدم بحوثًا حديثة مستندة إلى معرفة دقيقة بآخر نتائج البحوث. وفي الوقت نفسه تواجهنا مشكلة أساسية كلما طلبنا من تلاميذنا في الدراسات العليا أن يقرءوا بلغات أجنبية. وتتمثل هذه المشكلة في نقص ملحوظ في مستوى التمكن من هذه اللغات، وينعكس ذلك في شكل صعوبات في فهم المصطلحات العلمية في تخصصاتهم، وفي متابعة عمليات تطوير وصياغة المفاهيم، ومتابعة القضايا المنهجية المركبة في الميدان، إذ تحتاج هذه جميعًا إلى معرفة متعمقة باللغة الأجنبية.

كذلك نلاحظ فقراً شديداً في الكتب المترجمة التي تولى عناية خاصة لقضايا المنهج والنظرية في العلوم الاجتماعية، بحيث لا يجد الطالب الكتب الجيدة التي تقدم له المفاهيم النظرية الحديثة في الميدان، ولا تناقش الجوانب المختلفة للمناهج وأساليب البحث غير المألوفة للباحثين.

ويترتب على كل ذلك ضعف شديد في إعدادهم العلمي للقيام ببحوث متميزة فيما بعد. كذلك يترتب على ذلك أنهم، كما يكتبون بالعربية، لا يقرءون إلا بالعربية بحوثًا تستند إلى توجهات نظرية قديمة، ومناهج بحثية تقليدية لا تستفيد من التقدم المذهل الحادث في النظرية والمنهج في العلوم الاجتماعية، كما يترتب على هذا مزيد من الفقر فيما تنتجه المكتبة العربية في هذه المجالات.

وتنطلق هذه السلسلة، التي نشرف بتقديم الكتاب الأول فيها، من هذا الحال الذي وصفناه، لتخدم عدداً من الأهداف:

١- تقديم مجموعة من الكتب الأساسية في العلوم الاجتماعية تركز على النظريات والمناهج المعاصرة في العلوم الاجتماعية المختلفة.

٢- تمكين القراء من فهم هذه التوجهات النظرية والمنهجية واستيعابها، ومعرفة مصطلحاتها باللغة العربية للدارسين، الأمر الذي يساعدهم على التقدم، في مراحل لاحقة، إلى قراءة النصوص الأجنبية في التخصص مسلحين بفهم أعمق للمصطلح والنظرية والمنهج، مما ييسر عليهم استيعابها وفهمها.

٣- أن تتاح هذه الترجمات بأسعار في متناول شرائح الدارسين الأقل دخلاً بما يسهل عليهم الحصول على أكبر عدد منها.

وقد أسهمت مؤسسة "فورد" بدعم كبير لهذه السلسلة، فقد تحملت تكلفة الترجمة وشراء الحقوق، الأمر الذي أدى إلى تخفيض التكلفة. وتبنى المركز القومي للترجمة الفكرة، فإلى المؤسستين نتوجه بالتحية والتقدير.

اللجنة المشرفة على السلسلة :

١ . أ.د. فيصل عبد القادر يونس. أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة (مشرفًا على المشروع)

٢ . أ.د. محمد الجوهري. أستاذ الاجتماع بجامعة القاهرة (عضوا)

٣ . أ.د. مصطفى كامل السيد. أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة (عضوا)

٤ . د.إيمان ميشيل فرج. نائب مدير مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية (عضوا)

٥ . د. شهرت محمود العالم. مساعد مدير المركز القومي للترجمة (عضوا)

٦ . د.أميرة الحداد. أستاذ مساعد – كلية الاقتصاد والعلوم السياسية (عضوا).

٧ . داليا سعد الدين (سكرتير فني)

المحتــويات

(الفصل الثالث)

(الفصل الرابع)

مقدمة الترجمة العربية

محمد الجوهرى

قبل التقديم

نبتت فكرة هذا العمل فى إطار مشروع كبير لترجمة أمهات الكتب العلمية التأسيسية فى مجالات فروع العلوم الاجتماعية، وهو المشروع الذى يجرى تنفيذه فى رحاب المركز القومى للترجمة بالقاهرة. ويتبنى المشرفون على متابعة المشروع نظرة حداثية تؤمن بوحدة وتضافر وتداخل العلوم الاجتماعية، التى كانت تتصارع حتى عهد قريب دفاعًا عن الحدود الفاصلة بين بعضها البعض.

وعلى هذا الأساس تم تشكيل اللجنة الاستشارية القائمة على متابعة المشروع (برئاسة الدكتور فيصل يونس) ومن أعضاء من تخصصات: علم النفس، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا. وهم لا يمثلون تخصصاتهم وحدها، ولكنهم يتبنون تلك النظرة التكاملية إلى العلوم الاجتماعية. ويؤكد ذلك ويدلل عليه اختياراتهم للأعمال التى تقرر فعلاً ترجمتها فى إطار هذا المشروع.

والحقيقة أن مشروعًا كهذا قد تأخر كثيراً، لأن الوطن كان يحتاج إليه أشد الاحتياج على الصعيدين الأكاديمى والاجتماعى/ السياسى العام. فالكتب المقرر ترجمتها (وقد ترجم ثلاثة منها فعلاً، والبقية فى الطريق) يشترط فيها أن تخدم الباحثين فى تلك التخصصات وكذلك طلاب الدراسات العليا فيها. فهذا الفريق يمارس البحث العلمى – بحكم موقعه – وعليه أن يكون متابعًا لأحدث تيارات البحث فى مجاله، ولكن إمكانياته اللغوية الأجنبية قد لا تسعفه، كما أن عملية إيفاد البعثات الدراسية إلى الخارج قد تراجعت بشكل حاد. الأمر الذى يعنى أن تمثل كتب هذا المشروع نافذة أولئك الباحثين

والطلاب على اتجاهات العلم الحديث فى العالم. ولكن كل ذلك لا ينفى أو يتعارض مع أن تتوجه تلك الأعمال المترجمة - فى الوقت نفسه - للجمهور المثقف العام المتابع لثقافة العلم العولى المعاصر.

أما عن رسالة هذا المشروع - على الصعيد الاجتماعى/ السياسى - فتتمثل فى أن يكون نقطة انطلاق وقوة دفع لإنعاش وتشجيع حركة البحث العلمى على كل الأصعدة فيها. وأقصد بالأساس حركة البحث العلمى الاجتماعى داخل الجامعات ومراكز البحوث المتخصصة (سواء على المستوى القومى أو على مستوى الوزارات أو منظمات المجتمع المدنى)...إلخ.

وقد اعتبر كاتب هذه السطور أن مثل هذا المشروع - ونظائره طبعًا - يمكن أن يمثل حجر الزاوية فى إحداث تغيير طال انتظاره: ألا وهو ترشيد القرار السياسى فى الحقول الاجتماعية بالاستعانة بالبحوث العلمية الرصينة. من هنا أقبلت على هذه المهمة تدفعنى آمال ورؤى - كنت أتصورها بعيدة التحقيق - تنصب على اضطلاع البحث العلمى الاجتماعى بدوره فى تنوير عقل مصر المعاصرة وترشيد وتوجيه قرارها فى كل شأن عام.

هذا الكتاب عن الدراسة الميدانية الإثنوجرافية

يضطلع كاتب هذه السطور بمسئولية الإشراف على كتابين - ضمن هذا المشروع - يتناولان كلاهما ميدان مناهج البحث: هذا الكتاب عن العمل الميدانى فى العلوم الاجتماعية، والآخر عن أساليب البحوث الكيفية فى هذه التخصصات نفسها.

ويحمل هذا الكتاب فى أصله الإنجليزى عنوانًا هو: Writing Ethnographic Fieldnotes أى: "كتابة المذكرات الميدانية فى البحث الإثنوجرافى". ومصطلح الإثنوجرافيا مزدوج المعنى، إذ يستخدم بمعنيين مختلفين: أولاً بمعنى البحث الميدانى أو الدراسة الميدانية، وثانيًا بمعنى الدراسة الإثنوجرافية (المونوجرافية). والمونوجرافيــة تترجم بالواحدية

(من Mono = واحد أو واحدى + Graphy = وصف أو دراسة)، أى دراسة الموضوع الواحد أو المجتمع الواحد. وهذا المعنى الثانى لا شأن لنا به فى هذا الكتاب. وإنما مضمون الكتاب وهدفه تعبير وتجسيد للمعنى الأول: الدراسة الميدانية.

الدراسة الميدانية

يقصد بها البحوث التى يقوم بها الدارس الاجتماعى فى منطقة إثنوجرافية أو فى مجتمع محلى. وفى الأنثروبولوجيا المعاصرة لم تعد هذه المنطقة الإثنوجرافية مقصورة بالضرورة على المجتمع المحلى التقليدى القبلى أو القروى، بل يمكن أن تغطى دراسات للمجتمعات الحضرية، أو الصناعية، أو غيرها التى يختارها الباحث لدراستها دراسة مركزة. كما استخدم نفس الاتجاه فى دراسة الثقافات الفرعية وفى إجراء البحوث على مؤسسات داخل المجتمع الصناعى الحديث. ففى حين كان يقال فى الماضى أن الأنثروبولوجيا هى دراسة الشعوب البدائية، والثقافات القبلية الغريبة وغير المعروفة، والمجتمعات المحلية القروية، لم يعد يصح اليوم تعريف البحوث الأنثروبولوجية المعاصرة وفقًا لهذا المعيار، وإنما أصبحت تتميز باستخدام المناهج الأنثروبولوجية المتميزة فى العمل الميدانى وفى التحليل. والحقيقة أن الحدود بين العلوم أصبحت غائمة إلى حد كبير فى مجال دراسة المجتمع الصناعى والحضرى الحديث، وذلك بسبب ظهور قضايا نظرية ومنهجية جديدة بفضل التعاون بين أكثر من تخصص، وتبادل الخبرات بين التخصصات المختلفة. ويمكن أن نلحظ ثمرة هذا التعاون بين التخصصات فى الدراسة الأنثروبولوجية للمجتمعات التقليدية القبلية والقروية، حيث يتزايد اعتماد علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين على نظريات علوم التاريخ والاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها وتفيد منها فى تقديم تفسير ملائم للأنساق الاجتماعية الثقافية المحلية والعلاقات المتبادلة فيما بينها من ناحية، وبينها وبين أبنية القوة القومية والعالمية من ناحية أخرى.

أداة هذه الدراسات الميدانية: والأداة الرئيسية فى الدراسة الميدانية (الإثنوجرافية) هى الملاحظة عموماً، والملاحظة المشاركة بشكل خاص. والملاحظ المشارك - كما توحى التسمية - هو باحث يصبح عضواً فى الجماعة التى يلاحظها، بعكس الملاحظ غير المشارك الذى يراقب الجماعة عن كثب دون أن ينخرط فى مناشط حياتها اليومية. ويشارك الباحث فى نشاط الجماعة بدرجة تتراوح بين قطبى المشاركة التامة وعدم المشاركة. فإما أن يتظاهر بأنه عضو فى الجماعة أو يقدم نفسه إلى المجتمع الذى يدرسه على أنه باحث علمى، ويأمل أن تقبله الجماعة كعضو فيها. ويمكن أن نفترض أن الدرجات المختلفة من المشاركة تنتشر على متصل Continuum يمتد من عدم المشاركة الكلية إلى المشاركة الكلية فى نشاط الجماعة. ويجب أن نلاحظ أنه كلما امتد وجود الباحث فى الميدان كلما زادت درجة مشاركته فى أسلوب حياة الجماعة. وكقاعدة عامة، فإن الباحث الذى يقوم بالملاحظة المشاركة يربط نفسه بالجماعة التى يدرسها لفترة معقولة من الوقت تتراوح بين عدم أسابيع أو شهور وعدة سنوات.

أما الخاصة الثانية التى تسم الباحث الذى يقوم بالملاحظة المشاركة فتتمثل فى أنه يحاول أن يفهم الإطار المرجعى للجماعة التى يدرسها. ويفعل ذلك من خلال مشاركته لأعضاء الجماعة فى نشاطاتهم اليومية من أجل أن يفهم الأشياء كما هى موجودة عليه بالفعل. ولهذا يتعين على الباحث أن يتعلم كيف يعيش - بالتناوب وبطريقة تلقائية - خارج وداخل الجماعة التى يدرسها. فيجب أن يندمج فى الجماعة بدرجة كافية تمكنه من أن يتعرف على أسلوب حياتها. وفى نفس الوقت فإنه لا يستطيع أن يندمج اندماجاً كليًا يفقده القدرة على أن يكتب تقريراً يعبر بدقة عما يحدث داخل الجماعة وسبب حدوثه. فالباحث لا يستطيع أن يندمج بحيث يصبح كل شئ "أمراً عاديًا" لا يستأهل التسجيل. وفى نفس الوقت عليه أن يكون قادراً على أن يعبر عن أنماط السلوك والعلاقات المتبادلة بينها بطريقة موضوعية، دون إصدار أى أحكام قيمية أو متحيزة. والسبب فى وجود هذا الإطار المرجعى المزدوج يكمن فى أن الباحث الذى يقوم بالملاحظة المشاركة يريد أن يفهم الجماعة وأفعالها فى حد ذاتها - بمعنى أن يفهم كيف يعيش الأفراد وكيف يستشعرون وجود ثقافة تربطهم، ويحاول أيضًا أن يفهم الجماعة وأفعالها فى ضوء مجموعة من الفروض أو النظريات الاجتماعية عن طبيعة التفاعل الإنسانى.

ولا يقتصر استخدام طريقة الملاحظة المشاركة على بحوث الاجتماع والأنثروبولوجيا فقط، ولكنها تستخدم بنجاح – وبشكل مستمر – فى بحوث التسويق، ودراسة الحياة فى مؤسسات الأعمال الكبرى للوقوف على مشكلات الإدارة والعمل على الارتقاء بها. هذا فضلاً عن استخدامها فى كل مجالات الخدمات والمرافق العامة كدراسة مؤسسات الإسكان، والصحة، والتعليم.. إلخ.

ولكى لا يبدو هذا التوسيع لمجال الدراسات الميدانية (الإثنوجرافية) نظريًا أو تخيليًا، أورد المؤلفون نماذج للمذكرات الميدانية ومشكلات تدوينها اقتبسوها من مشروعات بحثية حقيقية تمت بالفعل. ولم يقتصر الأمر على إشارة عامة فحسب، ولكنهم أثروا نص الكتاب باقتباسات وفيرة ملأت أغلب فصوله. وتنتمى تلك النصوص – التى ذكرت لتدريب القارئ عليها – إلى تقارير بحوث منشورة فعلاً عن:

- رعاية الأحداث والمنحرفين.
- رعاية الفقراء والمشردين.
- خدمات الإسكان.
- بحوث التسويق والإدارة عمومًا.
- عمليات جمع التبرعات (للحملات الانتخابية مثلاً) (سياسة).
- مؤسسات الصحة العقلية.
- المؤسسات العقابية.
- الخدمة الاجتماعية الطبية.
- المدارس وبعض أنواع المعاهد التعليمية الخاصة.

وخير تأكيد على ذلك كلمات المؤلفين الواضحة فى تعريفهم للجمهور المتوقع لهذا الكتاب:

ونحن نتوجه بكتابنا هذا عن القضايا المتعلقة بكتابة المذكرات الميدانية إلى فئتين من الجمهور العام. وتشمل الفئة الأولى أولئك المعنيين بالإثنوجرافيا والبحث الميدانى لأغراض البحث الأكاديمى أساساً. وهنا نسعى إلى تطوير أدلة إرشادية عملية لكتابة المذكرات الميدانية يمكن أن يستفيد منها طلاب البكالوريوس وطلاب الدراسات العليا فى عدد من فروع الدراسة الأكاديمية. وتشمل هذه الفروع: علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم الفولكلور، والتاريخ الشفاهى، والتربية، وعلم الموسيقى السلالى (المقارن)، التى يحتل فيها البحث الميدانى والمناهج الإثنوجرافية مكانة بارزة. كما تشمل فروعًا أخرى: كالعلوم السياسية، وإدارة الأعمال، ودراسات الاتصال، والتأليف الموسيقى، والرعاية الاجتماعية، والصحة العامة، وهى تخصصات تتيح لدارسيها من الطلاب فرصة اختيار مادة الإثنوجرافيا والبحث الميدانى كخيارات منهجية ثانوية يمكن أن تعينهم فى دراستهم.

العناية بالمناهج والتحليلات اللغوية: وقد ظهر داخل الأنثروبولوجيا الحديثة (المعرفية) نوع جديد من نقد الإثنوجرافيا التقليدية، تمثل فى تأسيس ما يعرف باسم الإثنوجرافيا الجديدة. وهى إثنوجرافيا تأثرت بالمناهج اللغوية كثيراً، وعملت على تطوير أساليب متقدمة ودقيقة لدراسة موضوعات جديدة ومهمة، كموضوع نظم التصنيف Taxonomy (انظر المزيد فى موسوعة علم الإنسان، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩، بإشراف محمد الجوهرى).

ويبنى هذا التوجه الجديد - أى هذه الإثنوجرافيا الجديدة - على تراث الإثنوميثودولوجيا الذى يقوم على توجيه التحليل الاجتماعى إلى دراسة بناء الواقع اليومى والتفاعل الاجتماعى. فترى الإثنوميثودولوجيا أن أهداف الفاعلين الاجتماعيين هى المحور، وتدرس كيف ينشأ الكلام والتنظيم الاجتماعى من التفاعل الاجتماعى، والذى يعتبر العملية التى يقوم الفاعلون من خلالها بتحديد أهدافهم والسعى وراءها وتحقيقها. وهكذا يدرس هذا الميدان الطرق التى من خلالها يصل الفاعلون إلى فهم

وإنتاج أبنية التفاعل الاجتماعى. ولا تعد المعايير الاجتماعية التى تعبر عنها الكلمات انعكاسًا لنظام اجتماعى أخلاقى محدد، بقدر ما هى إنجازات مستمرة فى عملية صياغة الأشخاص (الفاعلين) للتعريفات المرغوب فيها للنظام الاجتماعى.

هذا الكتاب تعويض عن التدريب ميدانياً على البحث

إجادة أساليب البحث الميدانى (الإثنوجرافى) لا يمكن أن تتحقق إلا بالتدريب العملى ميدانيًا عليها تحت إشراف وتوجيه الأستاذ الباحث ذى الخبرة. ويمكن أن يتم هذا الإشراف عبر متابعة الأستاذ الدقيقة والآنية للمادة التى يحصل عليها الطالب/ الباحث من الميدان، ومراجعته لها، وتعليقه عليها، وتوجيه هذا الطالب لسبل تلافى أوجه القصور وتعظيم نواحى القوة فى عمله.

ومن هنا لا يتم تدريس أساليب البحث الميدانى نظريًا فقط، وإنما يكون التدريب العملى جزءًا لا يتجزأ من عملية إكساب هذه الخبرة للطالب وتدريبه على تجويدها والارتقاء بها. ومن أسف أن هذا الأسلوب كان هو المتبع فى جامعاتنا بالنسبة لتدريس مناهج البحث الميدانى، سواء فى الأنثروبولوجيا، أو فى علم الاجتماع، أو الخدمة الاجتماعية، أو فى غيرها من تخصصات العلم الاجتماعى عمومًا. وكان التدريب الميدانى مجالاً لالتقاط وفرز الباحثين الموهوبين وفرصة لاختيار موضوعات لرسائل الماجستير والدكتوراه لطلاب الدراسات العليا (من المعيدين والمدرسين المساعدين وغيرهم) ممن يرافقون الرحلة الميدانية التى يقودها أستاذ أو عدد من الأساتذة.

وطبيعى أن هذا الأسلوب العملى قد شهد تراجعًا حادًا فى العقدين أو الثلاثة عقود الأخيرة نتيجة عوامل متعددة، من أبرزها قلة الموارد المالية المتاحة للإنفاق على مثل هذه الأنشطة المكلفة (من انتقالات، وإعاشة، ومبيت...إلخ)، وكثرة عدد الطلاب فى جميع الكليات وفى كل التخصصات، هذا بالطبع فضلاً عن قلة أعداد أعضاء هيئة التدريس المؤهلين للاضطلاع بهذا النشاط التعليمى الأساسى والمهم فى نفس الوقت.

ولهذا أعتقد أن إخراج مجموعة من الأعمال العلمية المتميزة عن مناهج وطرق العمل الميداني في العلوم الاجتماعية – وهو الأمر الذي يكرس له نفسه مشروعنا هذا – سوف يسهم جدياً في تلافي هذا النقص الخطير في تأهيل طلابنا، خاصة في مستوى الدراسات العليا، للقيام ببحوثهم الميدانية بالكفاءة المرجوة أو قريباً منها.

وفي ضوء هذا يعد الكتاب الذي نقدم اليوم ترجمته للقارئ العربي عملاً رائداً ومهماً في سد ثغرة كبيرة في تعليم العلوم الاجتماعية عموماً، والسوسيولوجية والأنثروبولوجية خصوصاً. ومع أن المشروع – الذي صدر في إطاره هذا الكتاب – يتوجه إلى طلاب الدراسات العليا، إلا أن هذا العمل يمكن أن يفيد منه طالب الليسانس، وطالب الدراسات العليا في نفس الوقت. ولكنه يفترض في قارئه أن يكون قد سبق له دراسة عدة مواد في علم الاجتماع، ومناهج البحث، والأنثروبولوجيا بفروعها وتطبيقاتها، والنظرية الاجتماعية، والنظرية الثقافية...إلخ.

ولهذا تدلنا القراءة المتأنية لهذا العمل على أنه نص تعليمي من الطراز الأول، يلتزم الأصول التربوية لأي كتاب تعليمي. ولعلى أبرز بعض الملامح التي تبرر هذا الحكم:

- التكرار غير الفج لبعض الحقائق والملاحظات الأساسية التي ينبغي ألا تغيب عن بال الدارس.
- العناية بشرح خطط كل فصل، والتمهيد لكل فقرة، ومبررات مثل هذا التقسيم...إلخ.
- وفرة النماذج والنصوص المستمدة من مذكرات ميدانية حقيقية ونصوص بحثية من إعداد باحثين من شتى المستويات: متدربين، ومتخصصين محنكين، وبعض أعلام الأساتذة.
- الحرص على الابتعاد عن مناقشة أي قضايا نظرية معقدة، أو الدخول في جدل حول قضايا المنهج...إلخ.

- مع ذلك لم يدَّع الكتاب فى أى موقف أو فى أى جزئية أى احتكار للحقيقة العلمية، أو أى توجه للدفاع المتحمس عن وجهة النظر التى يتبناها الكتاب. فالعمل الذى بين أيدينا لا يوهم نفسه بأى تأسيس نظرى، ولا يحتكر الخبرة الميدانية لنفسه، ولكنه يكتب بروح مساعدة الدارس المبتدئ على أن يفيد من خبرات من سبقوه. وهذه رسالة علمية بالغة التواضع، ولكنها فائقة السمو.

الموقف النظرى لهذا العمل

يلتزم هذا الكتاب فى عرضه لقضايا ومشكلات تسجيل البيانات الميدانية للدراسة الإثنوجرافية توجهًا نظريًا حديثًا يحدده المؤلفون فى الفصل الأول، ويثابرون عليه على امتداد فصول الكتاب. فهم يبدأون من موقف التفاعلية الرمزية فى رؤية العلاقة بين أفراد مجتمع البحث فى تفاعلاتهم اليومية من ناحية وفى رؤية العلاقة بين الباحث وأفراد مجتمع بحثه من ناحية أخرى. وهى أساليب تأخذ فى اعتبارها منهج تحليل الخطاب، مفتشين فى كل ذلك عن مطلب أساسى يتعين على الباحث الإمساك به وتقديره التقدير الصحيح وهو معنى السلوك ودلالات الفعل ومقاصد كل فاعل من وراء ما يأتيه من تصرفات. فنسق المعنى لدى الفاعل يعمل على عدة أصعدة، بعضها مدرك ومحسوس وواع، وبعضها الآخر خفى لاشعورى غير محسوس. وعلى الباحث أن يتوصل إلى اختراق نسق المعنى المحلى لكى يستطيع نقله على الورق. وعندما ينقله فبحياد وموضوعية حتى يصل إلى القارئ فى صورة أقرب إلى المعنى الحقيقى الفعلى المكتون فى صدر الفاعل. وأخيرًا يأخذ الكتاب القارئ إلى عرض بعض مشكلات كتابة التقرير النهائى للبحث الإثنوجرافى الميدانى الذى يتعين عليه أن يتبنى آليات السرد بأنواعه وأدواته المختلفة. وينبهنا الكتاب دائمًا إلى ضرورة النظرة النقدية الفاحصة التى يجب على الباحث أن يتبناها فى مراجعة مادته الميدانية، وعند تصنيفها، وتحليلها فى متن تقرير البحث النهائى. ولكن بعد أن يكتمل تقرير البحث ويصبح فى يد القارئ يتعرض

فى مرحلة التلقى هذه لدور إيجابى يشارك به هذا القارئ فى صنع النص، عن طريق تلوين فهمه له فى ضوء ذخيرته من الخبرات المعيشية والرؤى النظرية.

والمعروف أن الكثير من العلوم الاجتماعية والثقافية - خاصة تلك التى تدرس التفاعل الإنسانى - تستمد مادة بحثها من الملاحظات والخبرات المعاشة. وهذه التفاعلات هى التى يدون عنها الباحث الإثنوجرافى (الميدانى) ملاحظات سريعة، ويكتب عنها مذكرات ميدانية. وهى التى يلابسها كثير من المزالق والمشكلات وصور التحيز...إلخ.

ولكن هناك اهتمامات بحثية أخرى داخل بعض هذه العلوم الاجتماعية والثقافية تستخدم فى جمع مادتها أدوات أكثر تقنيًا وأشد انضباطًا. إذ يستعين بعضها باستمارات، أو أدلة (رؤوس موضوعات تتسم بالتفصيل والإحاطة بجزئيات كل موضوع)، ووصف وقياس وتصوير (بالصور الساكنة والشريط السينمائى أو شريط الفيديو)، وتسجيل صوتى وتدوين للأنغام الموسيقية والأصوات...إلخ. ومثل هذه الأساليب تكون - كما هو واضح - أكثر انضباطًا من تقارير الملاحظات ومن المذكرات، وأقل إثارة للمشكلات الإجرائية والمنهجية والنظرية.

وسنحاول فى السطور التالية أن نمر سريعًا على تلك المعالم البارزة فى منهج الكتاب، على أمل أن نجعله أقرب للقارئ وأيسر فهمًا وأعمق تأثيرًا.

١- التفاعلية الرمزية

تمثل التفاعلية الرمزية فى نطاق العلم الاجتماعى الحديث إطارًا نظريًا يركز على العلاقات القائمة بين الفاعلين أى الأفراد الإنسانيين. معنى هذا أن التفاعلية الرمزية تهتم بدراسة الوحدات الاجتماعية "الصغرى" (الميكرو) أكثر من اهتمامها بتحليل الوحدات الكبرى (الماكرو) داخل البناء الاجتماعى، وهو التحليل الذى نلمسه فى

الماركسية أو فى النزعة الوظيفية. الأمر المهم بالنسبة لسياق هذا الكتاب الذى بين أيدينا، أن التفاعلية الرمزية معنية بالطريقة التى يتبعها الأفراد الاجتماعيون القادرون فى تشكيل عالمهم الاجتماعى الذى يعيشون فيه، وفى فهم حقيقته. وتعتمد التفسيرات التى تقدمها بحوث التفاعلية الرمزية عادة على التسجيل التفصيلى للحياة اليومية، الذى يتم عن طريق الملاحظة بالمشاركة أو الملاحظة غير المشاركة، وهى نفس أدوات ومناهج البحث الإثنوجرافى (الميدانى) التى يتناولها كتابنا هذا.

ولذلك لا نعجب عندما يؤكد مؤلفو هذا الكتاب صراحة وبوضوح تبنيهم لرؤى التفاعلية الرمزية كموقف نظرى فى تناول قضية هذا الكتاب، وفى تشخيص ما يعن لهم من مشكلات وما يقدمونه للقارئ من نصائح وحلول. تقول مقدمة الكتاب: "ونحن فى هذا الكتاب نزعم أننا ننطلق من فهم تفاعلى تفسيرى للإثنوجرافيا مستمد من تقاليد مدرسة التفاعلية الرمزية والإثنوميثودولوجيا سعيًا وراء التوصل إلى توجه متقن للمذكرات الميدانية وعمليات كتابتها. ومن الواضح أن ما نقدمه هنا ليس سوى مدخل واحد من بين مداخل كثيرة ممكنة".

ومما يدلل على توفيق المؤلفين فى هذا الاختيار اهتمام تلك النظرية بدراسة السياق الاجتماعى للتفاعل، والتركيز على قضية المعنى فى سياق التفاعل، سواء كان هذا التفاعل بين فردين فى جماعة أو بين باحث إثنوجرافى ومبحوثيه فى مجتمع آخر.

يؤكد ذلك ما ذهب إليه جورج هربرت ميد من أن الذات أو الأنا، أو هويتنا الشخصية ووعينا بأنفسنا، ليس لها وجود مستقل عن علاقاتنا الاجتماعية بالآخرين. فهى تتكون وتتغير باستمرار نتيجة أفعالنا تجاه الآخرين، واستجاباتهم لأفعالنا، وتوقعاتنا لتلك الاستجابات (أى من خلال تفاعلنا الاجتماعى مع الآخرين). ويقارن ميد بين الاتصال بين أفراد البشر والاتصال بين الكائنات غير الإنسانية. ففى الاتصال بين الأحياء غير الإنسانية، يستجيب الحيوان لأنماط السلوك (أو الإيماءات) الصادرة من فرد غيره، عن طريق تحويره لإيماءاته الخاصة به. أما ما يتميز به الاتصال الإنسانى – فى نظر ميد – فيتمثل فى أن الفرد من البشر لا يقتصر على مجرد

الاستجابة للإيماءة، وإنما يستجيب كذلك للعلاقة القائمة بين هذه الإيماءة وذلك الباعث أو تلك الحادثة التى دفعت الطرف الآخر أو حفزته إلى القيام بتلك الإيماءة. والأهم من كل شئ، أن الفرد من بنى الإنسان يتصرف هذا التصرف من موقع الفاعل الأصلى. فالفرد يحاول - فعلاً - أن يفهم لماذا يتصرف غيره بالشكل الذى يتصرف به. وهكذا تصير الإيماءة ذات طابع رمزى، ومن ثم تصبح ذات معنى، وخاصة عندما يكون المرء متعاطفاً مع موقف الطرف الآخر، ومع دوره، وميوله.

وقام بلومر - فى سعيه لتبسيط فلسفة ميد - بتقديم التفاعلية كبرنامج للبحث فى العلم الاجتماعى، عن طريق التركيز على الطريقة التى يتبعها أفراد المجتمع فى التفاهم حول معنى المواقف الاجتماعية الشخصية التى يشتركون فيها. ويميل أصحاب النزعة الوظيفية، مثلاً، إلى التسليم بأن الأدوار والمعايير الاجتماعية لها وجود سابق على وجود الفرد. ويتصف هذا الوجود بالموضوعية التى تميز كافة الظواهر الاجتماعية التى تقيد السلوك الاجتماعى وتحدده. وليس للفاعل الاجتماعى الفرد القادر إلا تطبيق القواعد المناسبة (أو أن يختار الدور المناسب) فى موقف معين. وعلى النقيض من ذلك، يؤكد التفاعليون الرمزيون أهمية العمل الذى يتوجب على الفاعلين الاجتماعيين القيام به - ليس فى إقرار ما لموقف معين من معنى ودلالة لهما وجود سابق على الفرد - وإنما فى دعم الفهم المشترك لموقف معين، مما يترتب عليه الوصول إلى اتفاق عام على الأدوار والمعايير المختارة. وبناءً على ذلك فالمجتمع ليس له وجود موضوعى مستقل عن الفاعلين الاجتماعيين، وإنما يتم تشكيله والحفاظ عليه من جانب الفاعلين أنفسهم ومن خلال التفاعل بينهم.

وفى ستينيات القرن العشرين، قام إرفنج جوفمان - فيما كتبه من أعمال - بتطوير شكل من أشكال التفاعلية الرمزية يهتم اهتماماً خاصاً بالتفاعل المباشر الذى يتم وجهاً لوجه(*).

(*) راجع المزيد فى موسوعة النظرية الثقافية، المفاهيم والمصطلحات الأساسية، ترجمة هناء الجوهرى، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩.

٢- منهج تحليل الخطاب

يفيد الكتاب من منهج تحليل الخطاب الذى ينظر إلى صور التفاعل الميدانى التى يلاحظها الباحث بوصفها خطاباً، وليس مجرد حواراً بين متحدثين. إنما الخطاب مفهوم هنا - كما فى اللغويات مثلاً - بوصفه الطريقة التى يتم بها التأليف بين العناصر اللغوية (هى هنا مادة العلاقات التفاعلية) لكى تشكل نظاماً للمعنى يكون أكبر من حاصل جميع أجزائه.

ويرى فوكو أن هناك عدداً من الممارسات والمؤسسات الاجتماعية (مثل: مؤسسات التعليم، والسياسة، والدين، والقانون) التى تتكون من عدد من أشكال الخطاب وتقع فى إطارها، ويعنى بها طرق التحدث عن مجال الخبرة الاجتماعية. ويعد الخطاب، وفقًا لهذه الرؤية، وسيلة لإنتاج المعنى وتنظيمه ضمن سياق اجتماعى معين. وهكذا تكون اللغة مفهوماً أساسياً فى نطاق هذه الرؤية، لأن اللغة هى التى تجسد أشكال الخطاب. وبهذا الاعتبار، يؤلف الخطاب "صيغة منطقية"، وهذا يعنى أن أشكال الخطاب تعد بمثابة أساليب دالة أو كاشفة لطريقة التنظيم الدقيق للخبرة البشرية بالعالم الاجتماعى فى صورة لغة، ومن ثم تؤلف هذه الأشكال الخطابية أنماطًا للمعرفة.

وتحمل فكرة ليوتار عن "أجناس الخطاب" بعض أوجه الشبه مع فكرة فوكو عن الصيغ المنطقية. ومن أفكار ليوتار المهمة فى سياق كتابنا هذا أنه يعتبر الخطاب أمراً جوهرياً لا غنى عنه فى تنظيم المعنى، وذلك على الرغم من أن الوحدات الأساسية للغة (أى العبارات) ليست - فى حد ذاتها - ذات طبيعة "منطقية" (فالعبارة يجب تصنيفها ضمن جنس معين من أجناس الخطاب حتى يمكن ترميزها ومن ثم يمكن إعطاؤها معنى معيناً).

والأمر المشترك بين تصورات الخطاب فى أعمال بعض المشاهير مثل فوكو وليوتار، هو تلك الفكرة التى ترى أن اللغة، حال اعتبارها خطاباً، تكون ضرورة حيوية خاصة عندما نحاول فهم قضايا الثقافة والمجتمع. زد على ذلك، أن التحليل العقلانى

للأبنية الاجتماعية يصبح أمراً مشكلاً عند الأخذ بهذا الاتجاه الخاص بأجناس الخطاب. وهكذا يرى ليوتار أن تعدد أجناس الخطاب إنما هدفه العمل على منع التأكيد على أولوية أى جنس بعينه منها، وذلك فيما يتصل بإثبات ما ينبغى اعتباره صحيحًا منها. فلأن جميع أجناس الخطاب منظمة وفقًا لغايات معينة، ولأن الغايات متعددة، فإنه يترتب على ذلك تعذر القول بأن جنسًا بعينه من أجناس الخطاب يملك الكفاءة للقيام بمهمة وضع الأساس لسرد شامل يحقق هذه الغاية.

٣- مشكلة المعنى

كل ذلك يضعنا قريبين من مشكلة المعنى فى البحث الاجتماعى عمومًا، وفى البحث الميدانى (الإثنوجرافى) على وجه الخصوص. إذ تثير مشكلة المعنى فى بحوث العلوم الاجتماعية مشكلة عصية، فى ماضى العلم البعيد، وحتى أيامنا، وإلى ما شاء الله. وهى تبدأ مع مرحلة جمع المادة من أفواه الناس، خاصة عندما كان الباحث الأنثروبولوجى غريبًا عن الجماعة وعن لغتها، ثم استمرت قائمة بعدما أدرك الباحثون أن قضية الترجمة من لغة إلى أخرى هى قضية عبور ثقافى تحف به المخاطر من كل ناحية، وليست أمرًا ثانويًا قليل الشأن. ولما كان المشتغل بالبحث الميدانى يجمع مادته من ملاحظة حياة الناس فى تفاعلاتهم اليومية ومن "مقابلة" "إخبارييه"، أى الحديث مع مصادره، فإنه يجد نفسه فى قلب مشكلة المعنى الأنثروبولوجية.

ذلك أن موضوع المعنى يرتبط فى علمنا بمشكلة التفسير أو الترجمة بين اللغات وبين الثقافات المختلفة. وهناك صعوبات عدة ومتنوعة فى نقل الباحث للمعنى، لم تخل منها الأعمال النظرية الكبرى فى الأنثروبولوجيا مثلاً، ولا البحوث المونوجرافية ذات المستوى الرفيع. ومن هذه الصعوبات مشكلة التغلب على تحيز الباحثين الناجم عن التمركز حول السلالة (أو المركزية الإثنية)، أو الحواجز التى تعوق عملية الاتصال والفهم بين الباحثين والإخباريين للتوصل إلى فهم مرض وفقًا لمرجعية المبحوث Emic فى ثقافة غريبة. وبمعنى آخر التوصل إلى معنى العناصر الثقافية لدى الفاعل فى

داخل نسق ثقافى معين. ومن الصعوبات الأخرى المرتبطة بهذا الموضوع أن المعانى ليس لها مدلول واضح محدد على الدوام. كما أنها ليست بالضرورة إرثًا مشتركًا لدى جميع أبناء ثقافة معينة. فقد نتقيد بمعايير سلوكية مشتركة ونشارك فى نظم اجتماعية عامة، ومع ذلك نفتقد إجماع الرأى حول معانى أفعالنا.

ومن المشكلات الرئيسية الأخرى مشكلة العلاقة بين الفهم وفقًا لمرجعية المبحوث Emic والفهم وفقًا لمرجعية الباحث Etic، أى بين وجهة نظر المشارك وتحليل الباحث الأنثروبولوجى، إذ تتضمن الأنماط المختلفة من النظريات الأنثروبولوجية مستويات ودرجات مختلفة من الارتباط بين التفسير الأنثروبولوجى ومعانى الإخباريين أو الواقع النفسى. وعلى سبيل المثال، نجد أن البنيوية لا تتطلب أن يكون للنموذج الأنثروبولوجى واقع نفسى لدى الإخبارى، نظرًا لأنه يفترض أن الإخباريين لن يكونوا على وعى بالبناء العميق أو الأساسى للثقافة. ومن وجهة أخرى تدرس النظرية الماركسية العلاقة بين المعانى والتفسيرات الشعبية والتحليل الموضوعى للظواهر الاجتماعية والتاريخية فى ضوء مفهوم الإيديولوجيا. ويستخدم المصطلح هنا لوصف عملية فرض معتقدات وقيم معينة بواسطة جماعة أو طبقة مسيطرة، أو بواسطة المجتمع ككل، وهو فرض يشوه بشكل منظم الظروف الموضوعية للحياة الاجتماعية والاقتصادية. لذلك نجد أن الماركسية على عكس البنيوية، ترى أن النماذج العلمية الشعبية والاجتماعية يمكن أن تتوافق أو تتطابق عن طريق عملية التربية السياسية وتنظيم الجماعات التابعة فى المجتمع، وكعملية مصاحبة للممارسة الثورية.

ويؤكد مؤلفو هذا الكتاب رؤيتهم العصرية لقضية المعنى بالقول: "لقد دعونا بقوة إلى كتابة المذكرات الميدانية بطرق من شأنها أن تحيط بشكل فعال بمعانى أفراد مجتمع البحث وتصورها: وجهات نظرهم، فهمهم لما يجرى، اهتماماتهم، وأصواتهم. ولكى ينجز الكاتب ذلك بكفاءة يجب عليه أن يفهم بوضوح أنه فى الحقيقة إنما يعيد عرض وتصوير معانى المبحوثين.

ولكن ثمة مشكلة واضحة تطفو على السطح عندما نتبين أن معانى المبحوثين ليست أشياء فى ذاتها، وإنما هى تصورات أو مفاهيم لشئ ما: لماذا يتعين أن يكون لمعانى المبحوثين أولوية على أى تفسير آخر يمكن أن يقدمه الباحث الميدانى (الإثنوجرافى)؟ وهنا نجدد إيماننا وتمسكنا بأن المذكرات الميدانية والدراسات الإثنوجرافية المكتملة لابد حتمًا وبالضرورة أن تصلنا عن طريق شخص الباحث ومن خلاله، وكذلك من خلال خبراته، ووجهة نظره وأولوياته النظرية. ولكن وجهة نظر الباحث وأولوياته النظرية ليس معطيات مسبقة، أو مسلمات جاهزة، ولكنها تتشكل وتتأثر بفعل العلاقات التى كونها مع الناس الذين يحاول أن يفهم عوالمهم الاجتماعية".

٤- كتابة التقرير الميدانى وتقاليد السرد

موضوع كتابة تقرير البحث الميدانى فى كثير من تخصصات العلوم الاجتماعية ليس - كما قد يبدو للبعض - بالأمر البدهى أو اليسير. إذ يقوم على مزاوجة بين السرد القصصى - بالمعنى الفنى الدقيق للسرد - كما يتذرع بالتحليلات النظرية والشواهد الميدانية، وبيانات من الوثائق والسجلات، وأخيرًا - وليس آخرًا - أقوال الإخباريين وأفراد مجتمع البحث. ويوقف الكتاب الفصل الرابع بأكمله على موضوع: "خلق المشاهد على الورق"، الذى يؤكد مطلعه "أن الكتابة كلها، حتى وإن بدت كتابة وصفية مباشرة، عبارة عن بناء وتركيب ينشئه الكاتب. فالكاتب من خلال اختياره للكلمات ومنهج التنظيم، يقدم صورة مختلفة للعالم. والكتابة بوصفها نشاطًا انتقائيًا وإبداعيًا، تقوم بوظيفتها دائمًا باعتبارها مرشحًا (فلتر) أكثر من كونها مرآة تعكس واقع الأحداث".

ويزيد المؤلفون هذه القضية إيضاحًا بشرح محتويات هذا الفصل الذى أرادوا فيه: "إلقاء الضوء على العلاقات القائمة بين اهتمام الباحث الإثنوجرافى بأقوال الناس وأفعالهم، والأغراض المباشرة لاسترجاع تلك اللحظات إلى الذاكرة، وأساليب الكتابة التى اختارها لتقديمها وتحليلها. وبطبيعة الأمر، لا توجد طريقة من طرق الكتابة تمكن

الباحث الميدانى (الإثنوجرافى) من استيفاء الكتابة عن الحياة بنفس الدقة التى تقع بها أحداثها، أو حتى بنفس الدقة التى يتذكر بها الباحث تلك الأحداث. ففى أحسن الأحوال، يقوم الباحث الميدانى "بإعادة خلق" ذكرياته فى صورة مشاهد مكتوبة تصف بصدق حياة الناس من خلال التفاصيل المنتقاة والمتكاملة. ولكنه يستطيع - عندما يتقن استعمال طرق وصفية معينة - أن يكتب ملاحظاته المستوفاة بسهولة أكثر فى تلك الاندفاعة الأولى لتدوين كل شئ على الورق؛ كما أنه يستطيع أن يصف بكفاءة أكبر تلك المشاهد التى ينتقيها بحدسه وبداهته باعتبارها ذات دلالة خاصة. وسواء أكان يستوفى الكتابة عن المشاهد الرئيسية أولاً أم يعود إليها من بعد ليستوفى التفاصيل، فإن تعلمه لاستراتيجيات الكتابة الوصفية سوف يمكنه من إبداع تلك المشاهد بكتابتها على الورق فى صورة نابضة بالحياة ومستوفاة تماماً".

ويخلص هذا العرض إلى إبراز الملامح التى تميز السرد الوارد فى المذكرات الميدانية عن السرد (القصصى) الفنى بالتأكيد على أن: "الباحثين الإثنوجرافيين يكتبون الحكايات التى يوردونها فى مذكراتهم الميدانية بحيث تعكس خبرتهم اليومية، ولا يقومون بصياغة بارعة لقصص فنية مليئة بالتشويق والإثارة. وهم يعتمدون على ما استقر من أعراف السرد التى ترتب الأحداث حتى يستطيع القارئ تخيلها، والتى تظل بالرغم من ذلك أمينة على المعنى المباشر لهذه الأحداث: إلا أنه كثيراً ما يحدث لفهم الباحث لأى حادثة أن يتقلب ويتطور أثناء مواصلته لكتابة مذكراته وإعادة قراءتها. وعن طريق تأمله فى التأويلات البديلة (المختلفة) للحكاية فى ضوء بحثه المستمر، يترك الباحث هذه الحكاية قابلة للمزيد من الأسئلة الواضحة. لذلك يلتزم الباحثون الميدانيون - وبصورة مؤقتة فقط - بتلك الصيغة التى يكتبون بها قصتهم فى ذلك اليوم، وذلك لأن هذا "الشئ الذى حدث" قد يتغير تغيراً كبيراً. وبهذا الشكل، فإن كل حكاية ميدانية تربط بين غيرها من الوقائع والحكايات داخل مجموعة من المذكرات الميدانية وتعلق عليها أيضاً. وبهذا المعنى، فإن كل حكاية - باعتبارها صيغة أو صورة ضمن صيغ أو صور مغايرة كثيرة - تظل دائماً ذات نهاية مفتوحة".

كذلك تتداخل الكتابة العلمية لتقارير البحوث الميدانية مع مجالات وتخصصات شتى يلفت الكتاب نظرنا إلى ميدان منها، قد لا يتبادر إلى ذهن الكثيرين، هو تخصص الدراما. فالباحث المدقق وهو يسطر تقرير العلمي يفيد من هذا التخصص في رسم وتصوير الشخصيات التي لاحظها وعاش معها في مجتمع بحثه. فهذه الشخصيات هم أبطال الحدث الذي يقوم الباحث بعرضه على قرائه من خلال استعراضه لتلك الشخصيات.

يقول الكتاب: "يصف الباحثون الميدانيون الأشخاص الذين يقابلونهم بالاستعانة باستراتيجية تعرف بتصوير الشخصيات. وبينما نجد أن الوصف البسيط لملابس الشخص وحركاته لا يزودنا إلا بالحد الأدنى من الإحساس بهذا الفرد، فإن الكاتب يستطيع أن يقدم صورة أكثر اكتمالاً لكائن إنساني من خلال إظهار الطريقة التي يتبعها هذا الشخص في كلامه، وتصرفه، وتعاملاته مع الآخرين... فهذا الأسلوب يؤدي إلى تقديم الشخصيات باعتبارها كائنات اجتماعية تماماً، من خلال الأوصاف التفصيلية للملابس، والكلام، والإيماءات، وتعبيرات الوجه؛ وهي الأمور التي تتيح للقارئ أن يستنبط سماتهم الشخصية. وهكذا تظهر السمات والخصائص الشخصية في سياق التفاعل مع الآخرين، لا من خلال تقديمها كصفات للأفراد لا رابطة بينها. وبهذا الشكل، فإن تصوير الشخصيات يعتمد على مهارات الكاتب في وصف وتسجيل التصرفات، وفي تقديم الحوار".

ولا يقتصر الأمر على تصوير الشخصيات الواردة في الوصف الميداني، ولكن المؤلف يلتفت كذلك إلى التمييز بين تلك الشخصيات، سواء من حيث الأهمية والدور، أو من حيث تكرار الظهور...إلخ. فيقول: "... لا يحتاج الفرد الذي سبق معرفته جيداً في الفقرات السابقة؛ لا يحتاج إلى تقديم واف في كل مرة يظهر فيها في مشهد ما. بل حتى في حالة الشخصية الرئيسية، يقتصر الكاتب على وصف أفعاله وتصرفاته وسماته ذات الصلة بالتفاعل الجاري حدوثه. وبتعبير آخر، لا يقتصر اهتمام الباحث الميداني على صفات هذا الفرد بل يهتم – إلى جانب ذلك – بمرات ظهوره السابقة

وبالتأثير النسبى لها فى تلك المرحلة من تطور الأحداث. وليست كل فقرة تسجيلاً جزئياً فحسب، فمع تراكم الملاحظات، سيلاحظ الباحثون الميدانيون أنهم قد جمعوا من الملاحظات ما يكفى لتقديم بعض الأشخاص باعتبارهم أفراداً معروفين جيداً (أى شخصيات "مكتملة")، وتقديم أشخاص آخرين باعتبارهم شخصيات معروفة بدرجة أقل (أى شخصيات "مسطحة") وتقديم عدد قليل من الأفراد باعتبارهم أنماطاً كسائق الحافلة أو الشرطى (أى شخصيات "مألوفة" Stock)".

٥- مشاركة القارئ فى صنع النص

من ملامح الإطار النظرى المميز لهذا العمل الانتباه إلى مشاركة القارئ فى صنع النص النهائى للدراسة الميدانية. وهذا الملمح مؤشر على تأثير مؤلفيه بنزعتى ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية، التى تفسح للقارئ مكاناً أساسياً فى عملية توليد المعنى. وهو كذلك التزام بالرؤية الأحدث لقواعد السرد الذى لا ينسى العلاقة بين كتاب الأعمال السردية وجمهورهم.

ومن بين المفكرين المرتبطين بنزعة ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية، سعى رولان بارت إلى إحداث قطيعة مع النموذج العلمى الذى تأخذ به النزعة البنيوية، واستبدل بها التأكيد على أهمية دور القارئ فى توليد المعنى. هذا فى الوقت الذى يتسم فيه نقاش جان فرانسوا ليوتار لما هو بعد حداثى بالنظرة التى ترى أن أشكال السرد تتصف بشئ من التعددية وعدم التجانس، لا يمكننا التغلب عليه عن طريق اللجوء إلى أحد أشكال "ما فوق السرد". أو أنساق التفسير الكبرى). وبناءً على ذلك، فإن مكونات شكل سردى معين لا يمكن الحكم عليها بنفس المقاييس المتبعة مع غيره من الأشكال السردية. والظرف ما بعد الحداثى – بدوره – يعد فى نظر ليوتار ذلك الظروف الذى يجسد زوال أشكال السرد الكلية واستبدالها بعدد كبير من أشكال السرد المحدودة التى ترفض ادعاء اتصافها بصفة الشمولية أو العمومية.

ويختتم الكتاب هذه النقطة بخلاصة (انظر الفصل السابع: أفكار للتأمل: بين المبحوثين والقراء) بصياغة متميزة لتصور دور القارئ فى صنع النص عن طريق تأويله. "إن القراء قد يستطيعون فهم أشياء لم يقصد الباحث أن يكشف عنها صراحة. إذ الواقع أن مشاركة القارئ فى صنع النص يمكن أن تكون سلاحًا ذا حدين فى ذلك النوع من التقارير الإثنوجرافية المبنية على مقتطفات من المذكرات الميدانية. فمن ناحية يشارك القراء بشكل مباشر فى المشاهد الاجتماعية المعروضة، ولذلك يستطيعون أن يحكموا بسهولة على التحليل الذى تقدمه الدراسة، على الأقل فى القالب الذى يعرضه المؤلف، ومن ثم يمكنهم استخلاص رؤى مختلفة من المذكرات الميدانية التى يقرأون مقتطفات منها.

فالقراء يستطيعون أن يكونوا فى نهاية الأمر إحساسهم الخاص من واقع تلك المقتطفات، مع أن الباحث صاحب المذكرات الميدانية هو الذى أبدعها، وانتقاها، ونسقها داخل النص. ويحاول الباحث الميداني - من خلال اختيار المذكرات الميدانية بسبب تأثيرها البلاغى أو على أساس وظائفها الدلالية والنظرية - يحاول من خلال ذلك أن يتصور مسبقًا مدى التفسيرات التى قد يتوصل إليها القارئ. ومع ذلك تظل المذكرات الميدانية الأصلية قابعة داخل التحليل، تتيح لأى قارئ أن يستمع بوضوح إلى أصوات أفراد المجتمع، وأن يعايش - بالنيابة عنهم - تصرفاتهم ويتخيل معهم تفسيراتهم لها. إنه يتأكد لنا فى النهاية أن القارئ - كما يبدو - له رأى حاسم فى الأمر".

٦- التوجه النقدى (الانعكاسى)

الانعكاسية هى خاصية تأمل الذات، والنظر فيها (ومراجعتها). ومن هنا فإن أى نظرية اجتماعية أو ثقافية انعكاسية هى تلك التى تتأمل اتجاهها الفكرى الخاص بها وتركيبتها الخاصة بها بوصفها إبداعًا ثقافيًا. ويتمسك الكتاب الذى بين أيدينا بهذا التوجه النقدى الذى يحرص على تأمل نفسه وتفحص أعماله قبل أن يطرحها على الآخرين، ثم من خلال طرحها على الآخرين.

ويرجع الفضل إلى عالم الاجتماع الكبير الفن جولدنر (١٩٢٠-١٩٨١) الذى قدم الأطروحة الأساسية والجوهرية لعلم الاجتماع الانعكاسى فى كتابه الشهير "الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى" (١٩٧٠). وقد ناهض جولدنر فيه الرأى القائل بأن العلم بعامة، والعلم الاجتماعى بخاصة، يهتم بإنتاج الحقائق الموضوعية، ذاهبًا إلى أن المعرفة لا تنفصل عن العارف، وأن علم الاجتماع يرتبط أوثق الارتباط بالسياق السياسى والاقتصادى الاجتماعى الذى يوجد فيه. ومن ثم فإنه يصبح من المهم الوعى بهذا الارتباط وبدور علم الاجتماع كجزء من الطريقة التى ننظر بها إلى أنفسها وإلى مستقبلنا.

ويستمد التوجه النقدى (الانعكاسى) جذره الثانى من الإثنوميثودولوجيا. وتشير فكرة الانعكاسية عند أصحاب هذا المذهب إلى أن إحساسنا بالنظام إنما هو نتيجة لعمليات محادثية، أى عمليات تتخلق أثناء الكلام. ومع ذلك فنحن نعتبر أننا نصف النظام القائم حولنا فعلاً. وفى رأى أصحاب الإثنوميثودولوجيا أن وصف الموقف معناه أننا نخلقه فى الوقت نفسه. وهذا هو بالضبط تشخيص لحالة الباحث الميدانى الذى يقوم بوصف الموقف، والذى يؤكد له مؤلفو هذا الكتاب أنه بهذا الوصف يساهم فى خلق هذا الموقف، فى عقله كما فى عقول قرائه.

يوضح ذلك تأكيد الكتاب على أهمية وعى الباحث الميدانى كمؤلف – من خلال كتابة المذكرات الميدانية وتحليلها – بدوره وبمسئوليته عن رواية حكاية الناس الذين درسهم، لأنه فى الكتابة يعيد تصوير عالم حياتهم اليومية. وهو فى أدائه لهذه المهمة يجب أن يتذكر باستمرار كيف أن عملية الكتابة هى تشييد للمعنى وللمعرفة.

وبهذا المعنى فإن الوعى عند تحديد اختيارات الكتابة يولد تقديرًا واهتمامًا كبيرين بالانعكاسية (التوجه النقدى) فى البحث الإثنوجرافى (الميدانى). وتتضمن الانعكاسية إدراك أن وصف الواقع ليس مجرد مرآة لهذا الواقع، وإنما هو يصور ما يصفه على أنه واقعى أساسًا. معنى ذلك "أن مفهوم الانعكاسية يقر أن النصوص لا تمثل رواية بسيطة وواضحة لتنظيم للواقع مستقل عن أى شىء، بل إن النصوص نفسها داخلة تمامًا فى عملية "خلق الواقع" "Reality - Construction".

وتحرص الأعداد المتزايدة من التحليلات النقدية للدراسات الإثنوجرافية التي تركز على موضوع الانعكاسية؛ تحرص على تناول البناء البلاغي أو الفروض المسبقة السياسية والثقافية غير المعلنة للدراسات الإثنوجرافية المكتملة، لكي توضح كيف يصور الباحث الميداني ثقافة أخرى، ويطور خطاً تحليلياً متميزاً، أو يصوغ وجهة نظر مقنعة أو حكاية جذابة فى التقرير العلمي المنشور".

ويختتم الكتاب بموقف واضح يقول: وتعد الانعكاسية (النقد المتأمل) ذات أهمية محورية بالنسبة لأمرين: الأول هو كيف نفهم عوالم الآخرين، والآخر هو كيف نفهم مشروع الباحث. فعندما نستخدم الانعكاسية فى فهم عوالم الآخرين تساعدنا على أن نتبين أن تلك العوالم لا تتشكل بفعل متغيرات أو بنى (جمع بنية) موجودة فوق - أو خارج - هؤلاء الناس، وأنها ليست سوى أنساقًا للمعنى تم بلورتها وصياغتها خلال العلاقات وبواسطتها. ومن هنا فإننا حين نستخدم الانعكاسية - واعين - على أنفسنا كباحثين، سوف نجد أن العدسات النقدية (الانعكاسية) هى التى تساعدنا على أن نتبين وأن نقدر أن تصويرنا لعوالم الآخرين ليس - ولا يمكن أن يكون - وصفًا من خارج تلك العوالم. وإنما هى تبلورت وتأسست وتطورت من خلال علاقاتنا مع أولئك الذين قمنا بدراستهم. ومن هنا فعندما نستخدم العدسة النقدية (الانعكاسية) لكى ننظر بها إلى أنفسنا، سوف نفهم مشروعنا العلمى الذى أنجزناه على نفس الأسس التى فهمنا بها أولئك الذين درسناهم.

تقــديم المؤلفــين

شهدت السنوات الأخيرة تأكيد كثير من الإثنوجرافيين على أهمية "التدوين" بالنسبة لعملهم. ويبدو ذلك في الوصف الذى قدمه جيرتز Geertz (١٩٧٣) للكتابة بأنها "تمثل لب الوصف "المكثف" فى الإثنوجرافيا". كما يبدو فى الدراسة التحليلية التى أجراها جوسفيلد Gusfield (١٩٧٦) فى السبعينيات للدعائم الأسلوبية للعلم ذات التوجه المستقبلى. ثم جاءت بعد ذلك مجموعة الأعمال التى حررها كليفورد وماركوس Clifford and Maecus عام ١٩٨٦ بعنوان ثقافة التدوين: الملامح الشعرية والسياسية فى الإثنوجرافيا، ودراسة فان مانين Van Maanen بعنوان حكايات الميدان (١٩٨٨)، ودراسة أتكنسون Atkinson بعنوان الخيال الإثنوجرافى (١٩٩٠)؛ كل تلك الأعمال وغيرها أولت اهتمامها الأساسى لموضوع الكتابة الإثنوجرافية.

ومع ذلك لم تزل المعالجات التى تناولت الكتابة الإثنوجرافية جزئية فى نظرتها: فهى جميعًا تنطلق من الملاحظات الميدانية المكتوبة فعلاً، ثم تتجه لفحص أمور كالخاصية الأسلوبية لمثل تلك الملاحظات، أو شكلها البنائى العام، أو الدراسات الميدانية المكتملة المبنية على تلك الملاحظات. ومن شأن ذلك أنه يتجاهل المناسبة الأساسية للتدوين الإثنوجرافى – وأعنى كتابة المذكرات الميدانية. وهكذا يتجاهلون موضوعًا أساسيًا فى إعداد الدراسات الميدانية، ألا وهو فهم الكيفية التى يجلس فيها الملاحظ/ الباحث ليحول جزءًا من تجاربه المعاشة إلى نص مكتوب فى المقام الأول.

والحقيقة أن معظم التحليلات التى تناولت "الملامح الشعرية فى الإثنوجرافيا" (Clifford and Marcus 1986) كانت تعالج الأوصاف المنمقة للحياة الاجتماعية التى تقدمها الأعمال المونوجرافية المنشورة. ولكن مثل هذه النصوص الجاهزة قد تم إنشاؤها

وصياغتها من تلك الشذرات الصغيرة غير المترابطة من الكتابات المستخرجة من المذكرات الميدانية. كما أن كثيراً من هذه النصوص العلمية المنشورة قد سبق إعدادها قبل تطوير أى رؤية إثنوجرافية شاملة. وفضلاً عن ذلك فإن الملاحظات الميدانية فى الأعمال الميدانية المكتملة يعاد تنظيمها وكتابتها، ويتم الانتقاء من بينها وقولبتها لخدمة بعض الأغراض التحليلية. ولذا فإنها تبدو فى أشكال مختلفة أشد الاختلاف وتحمل مضامين عديدة تختلف معانيها اختلافاً كبيراً عن الملاحظات الأصلية التى سبق أن أعدها الباحث الإثنوجرافى فى الميدان. من هنا يتعين القول: أن كتابة المذكرات الميدانية – وليس الكتابة المصقولة للدراسات الإثنوجرافية – هى التى تمثل لب عملية كتابة الدراسات الميدانية فى صيغتها النهائية.

ويلاحظ – على مستوى الممارسة المنهجية – أن الباحثين الميدانيين قد أهملوا بنفس القدر موضوعات كيفية كتابة المذكرات الميدانية. فنجد الأدلة الخاصة بالعمل الميدانى (التى تحمل عنوان "دليلك إلى ...") تقدم زخماً من النصائح حول كيفية الاقتراب من أشخاص أغراب ينتمون إلى ثقافات وبيئات مختلفة، وإقامة علاقات معهم. ولكنها لم تقدم – سوى بشكل عارض – النذر اليسير من التعليقات حول كيفية تسجيل الملاحظات الميدانية، وما الذى يتعين تدوين ملاحظات عنه...إلخ[1]. ويمكن القول أن الباحثين الميدانيين عموماً لم يولوا اهتماماً وثيقاً ومنظماً لكيفية كتابة الملاحظات الميدانية فى مشروعات علمية بعينها. كما أنهم لم يضعوا فى اعتبارهم كيفية تدريب الباحثين الميدانيين المبتدئين على كتابة ملاحظات ميدانية أكثر حساسية وإفادة وحفزاً لمزيد من البحث. وبدلاً من ذلك نجد أدلة العمل الميدانى توجه نصائح عملية مباشرة بخصوص كيفية التعامل مع الملاحظات الميدانية الموجودة من أجل تنظيم وكتابة الدراسات الإثنوجرافية فى صورتها النهائية. فعلى سبيل المثال قدم ستروس Strauss فى أحد أعماله (١٩٨٧) وفى عمل آخر مع زملائه (Strauss and Corbin 1990) معالجات تفصيلية حول كيفية تصنيف الملاحظات وكيفية استخدام الرموز فى كتابة النصوص النهائية للدراسات الميدانية، ولكن هذا التركيز الأساسى على الترميز يفترض سلفاً أن الباحث الميدانى قد أتم كتابة مجموعة من المذكرات الميدانية،

وهو يواجه الآن مهمة تحليلها وتنظيمها واستخراج دلالاتها ومعانيها. ولم تذكر هذه الأدلة شيئًا عن كيفية كتابة الإثنوجرافيين لهذه المذكرات الميدانية أصلاً، أو كيف أعدوا تلك المذكرات وكتبوها على نحو مختلف. وبالمثل نجد ثلاثة أدلة عملية للبحث الميداني - فيترمان Fetterman (١٩٨٩)، وريتشاردسون Richardson (١٩٩٠)، وولكوت Wolcott(١٩٩٠) - تولى اهتمامها الأول والأساسي لموضوع إعداد وكتابة التحليلات الميدانية النهائية بطرق وأساليب تفترض سلفًا وجود مجموعة من المذكرات الميدانية.

غير أننا بدأنا نشهد فى السنوات القليلة الماضية بدايات توجه بعض الإثنوجرافيين إلى تدارك هذه المشكلة، حيث أخذوا يولون عناية جادة لطبيعة المذكرات الميدانية واستخداماتها. ففى عام ١٩٩٠ ظهر المجلد الذى حرره سانجيك Sanjek بعنوان المذكرات الميدانية: قوام علم الأنثروبولوجيا، ويضم مجموعة من الأوراق العلمية التى كتبت كإسهامات فى ندوة حول "ماذا يفعل الأنثروبولوجيون بالمذكرات الميدانية، وكيف يتعاملون معها، وكيف أن الاتجاهات نحو تصميم المذكرات الميدانية واستخدامها قد تتغير بالنسبة للباحث الفرد خلال مسيرته العلمية" (Sanjek 1990b: XII). وتشمل هذه المجموعة عرضًا تاريخيًا موسعًا "للممارسات المتبعة فى كتابة المذكرات الميدانية" فى الأنثروبولوجيا فى العالم الغربى (Sanjek 1990d)، هذا بالإضافة إلى تحليلات للاستخدامات البحثية والشخصية للمذكرات الميدانية، ومعناها ودلالاتها بالنسبة لدارسى الأنثروبولوجيا (Jackson 1990b; Sanjek 1990c; Ottenberg 1990). كما تحوى تحليلات للمذكرات الميدانية كوسيلة لوصف الثقافات والتعبير عنها (Clifford 1990; Lederman 1990). وتتضمن أخيرًا تحليلات تتعلق بأساليب قراءة مذكرات الآخرين الميدانية واستخدامهم لها (Lutkehaus 1990).

وفى الوقت ذاته بدأ أتكنسون - فى مؤلفه الخيال الإثنوجرافى (١٩٩٠) - يفحص الخصائص النصية للإثنوجرافيا السوسيولوجية الكلاسيكية والمعاصرة. وعلى الرغم من تركيزه على البناء الأسلوبى للدراسات الميدانية المكتملة، فإن أتكنسون قد أولى عناية لأهمية تحليل المذكرات الميدانية، ومشددًا على أن: "المذكرات الميدانية مازالت -

حتى اللحظة – تعد وثائق خاصـة" غير متاحة للتحليل، ومن ثم أخذ يلح فى التأكيد على ضرورة القيام فى المستقبل بدراسات متعمقة "للسمات الأسلوبية للمذكرات الميدانية من وجهة نظر مؤلفين بعينهم أو حسب رؤية بعض المدارس السوسيولوجية" (١٩٩٠:٥٧). وهكذا نجده يتخذ خطوة أولية فى هذا الاتجاه بتحليل المادة المستخلصة من اثنين من المذكرات الميدانية التى نشرت أصلاً فى مؤلف جنكر Junker بعنوان العمل الميدانى: مقدمة إلى العلوم الاجتماعية (١٩٦٠).

وهناك ثمة عدد من العوامل المسئولة عن ذلك الإهمال للمذكرات الميدانية الذى استمر طويلاً، وإن كان قد أخذ ينقشع مؤخراً. ويمكن القول بادئ ذى بدء أن الإثنوجرافيين غالبًا ما يستشعرون نوعًا من الارتباك أو الحرج بشأن المذكرات الميدانية. فكثيرون منهم ينظر إليها – فيما يبدو – على أنها نوع من المحاولات المبدئية غير المكتملة التى تقع خلف الكواليس، قد يشوبها شئ من القذارة، وقليل من الشك، وأنها ليست من الأمور التى يمكن الحديث عنها صراحة وتحديداً. كما أنهم يعدون المذكرات الميدانية قادرة على كشف الجانب الشخصى للباحث، يشوبها قدر كبير من الفوضى وعدم الترتيب، مما يجعلها غير صالحة لإطلاع الجهور عليها. ولهذا الأسباب وغيرها، لا يتاح للدارسين الوسيلة للاطلاع على المذكرات الميدانية بصورتها الأصلية الخام قبل التحرير، وليس أمامهم سوى نصوص الدراسات الميدانية المكتملة بما تحتوى عليه من مذكرات ميدانية تم انتقاؤها وإعادة تنظيمها. ونتيجة ذلك فإن معرفة الكيفية التى يدون بها الباحثون مذكراتهم الميدانية تظل خفية وغامضة إلى حد كبير.

وعلى النقيض من ذلك نجد المراحل الأخيرة من الكتابة الإثنوجرافية، التى تتركز حول إنتاج الدراسات المونوجرافية الإثنوجرافية المكتملة، تتبنى توجهًا أكثر ميلاً إلى الناحية النظرية وأقل اتساماً واضحًا بالطابع الشخصى. وبعد أن يتمكن الدارس الإثنوجرافى من تجميع قدر كاف من المذكرات الميدانية التى توفرت له، فإنه ينسحب من الميدان محاولاً أن ينسج من محتوى تلك المذكرات موضوعًا إثنوجرافيًا متكاملاً. وعند هذه النقطة، فإنه يتعامل مع المذكرات الميدانية بوصفها بيانات ذات طابع غير

شخصى إلى حد بعيد، وكأشياء يمكن دراستها والإفادة منها وإعادة ترتيبها فى إطار تطوير حكاية تروى لجماهير أخرى. إن القضايا والإجراءات التى تميز هذا الطور من أطوار الكتابة الإثنوجرافية - التصنيف وتطوير بؤرة التحليل الأساسية.. إلخ - هى أقرب إلى العمل النهائى المنشور، ومن ثم فإنها تكون أكثر صلاحية لكى تقدم للآخرين.

وعلاوة على ذلك فليس هناك إجماع بين الباحثين الإثنوجرافيين على أنواع الكتابة التى يمكن أن نسميها "مذكرات ميدانية"، ومتى وكيف يتعين كتابة هذه المذكرات، وتقدير قيمتها للبحث الميدانى. إن هذا الاختلاف فى وجهات النظر - الذى قد يبلغ حد التضارب أحيانًا - حول طبيعة المذكرات الميدانية وقيمتها من شأنه أن يحبط اعتبارات الوعى الذاتى فيما يتعلق بكيفية كتابة هذه المذكرات.

ويمكن القول - أولاً - أن لدى الباحثين الميدانيين تشكيلة منوعة من أشكال التسجيل المدون التى ترد على أذهانهم عندما يشيرون إلى "المذكرات الميدانية". فقد تبين من واقع قائمة جرد حديثة (Sanjek 1990c) أن الباحثين الإثنوجرافيين قد جاءوا فى أعمالهم على ذكر كل المسميات الآتية: "الملاحظات المبدئية" Headnotes، "الملاحظات التخطيطية (المسودات)" Scratch Notes، "المذكرات الميدانية الحقيقية" Fieldnotes Proper، "سجلات الملاحظات الميدانية" Fieldnotes Records، "النصوص" Texts، "اليوميات" Journals and Diaries، و"الخطابات والتقارير والأوراق" .Letters, Reports, Papers هناك إذن مدى واسع من التنوع فيما يطلقه الإثنوجرافيون على المذكرات الميدانية. فبعض الباحثين الميدانيين - مثلاً - يرون أن المذكرات الميدانية هى الكتابات التى تسجل ما عرفوه ولاحظوه عن أنشطة الآخرين وأفعالهم وتساؤلاتهم وأفكارهم. ويؤكد باحثون آخرون على التمييز الحاد بين التسجيلات المتعلقة بما يقوله المبحوثون ويفعلونه - أى "بيانات" العمل الميدانى - من ناحية وبين المذكرات التى تجسد أو تعبر عن أفكارهم وردود أفعالهم. كما أن هناك اختلافات عميقة أيضًا بين أولئك الذين يشددون على التمييز بين الكتابات التى يقدمها المرء عن الآخرين (أى المبحوثين) والكتابات التى

يقدمها عن نفسه: فالبعض يرى أن المذكرات الميدانية لا تصدق إلا على النوع الأول فقط (أى كتابات الباحث عن المبحوثين)، وأن النوع الثانى (أى كتابات الباحث عن نفسه) ليست سوى يوميات. على الناحية الأخرى يصر الفريق الثانى على التمييز بين المذكرات الميدانية، والمادة الميدانية، بحيث تعد المذكرات مجرد تسجيل لردود أفعال الباحث فى الميدان، وقائمة موجزة (أو مشفرة) بالموضوعات التى يتعين التركيز عليها، أو هى محاولة تمهيدية للتحليل...إلخ (Jackson 1990b: 7).

يلاحظ ثانياً أن الباحثين الميدانيين قد يكتبون مذكراتهم الميدانية بطرق مختلفة أشد الاختلاف. فكثير منهم يؤلف مذكراته الميدانية بوصفها "سجلاً لتتابع الأحداث الجارية يقوم بتدوينها فى نهاية كل يوم" (Jackson 1990b: 6). ولكن ثمة باحثين آخرين يميزون بين مثل هذه "المذكرات الميدانية الحقيقية" و"سجلات الملاحظات الميدانية" التى تتضمن "معلومات منظمة فى شكل موضوعات منفصلة عن الملاحظات التى تسجل تتابع أحداث العمل الميدانى" (Sanjek 1990c: 101). وفضلاً عن ذلك يحاول بعض الباحثين الميدانيين كتابة ملاحظات دقيقة بمجرد مشاهدتهم للوقائع التى يدرسونها بقدر الإمكان، وأولئك هم الذين نجدهم عادة يجلسون لكتابة مذكرات كاملة ومفصلة كل مساء. من ناحية أخرى نجد فريقاً آخر من الباحثين يقوم بتدوين تسجيلات أولية أقل تفصيلاً، فيملأون مذكراتهم بملاحظات ميدانية مكتوبة بخط اليد لكى يتم "استكمالها" بشكل دقيق ونهائى عقب مغادرة الميدان. ومع ذلك مازال هناك فريق ثالث من الباحثين يرجئون كتابة القدر الأكبر من ملاحظاتهم لحين مغادرتهم الميدان حيث يشرعون عندها فى كتابة تقرير إثنوجرافى متماسك.

ونلاحظ ثالثاً وأخيراً أن الباحثين الميدانيين ليسوا على رأى واحد فيما إذا كانت المذكرات الميدانية مصدراً للفهم أو عائقاً فى سبيل الوصول إليه. فبينما يراها البعض أنها بمثابة لب المشروع البحثى، يذهب البعض الآخر إلى أنها يمكن أن تقدم بعض الدعم للباحث الميدانى يساعده على مواجهة الضغوط وأشكال القلق التى يعانيها بسبب معيشته فى عالم مختلف بينما هو يحاول أن يفهمه من الخارج. بل إن هناك من يؤمن

أن المذكرات الميدانية تعوق الفهم المتعمق. وقد كتب جاكسون (١٩٩٠ b: 13) نقلاً عن أحد الأنثروبولوجيين "[بدون المذكرات الميدانية] توجد فرصة أكبر للتخطيط، وترتيب الأفكار والمفاهيم – اللهم بعض الاستثناءات القليلة – وتنظيم أنصاف الحقائق الملتبسة التى تجدها فى بياناتك الميدانية".

وخلاصة القول أن الإثنوجرافيين قد أخفقوا فى أن يتناولوا عن كثب عمليات تدوين المذكرات الميدانية. وبينما ينجم هذا الإخفاق جزئيًا عن اختلاف الرؤى حول ماهية هذه المذكرات، فإنه ينجم أيضًا عن عدم الاتفاق بشأن المهارات التى تتطلبها الملاحظة والكتابة الإثنوجرافية، وكيف يمكن اكتساب المهارات الضرورية اللازمة لذلك. فهناك من ناحية موقف متطرف، حيث يزعم كثير من الباحثين الميدانيين أنه يكاد يكون بوسع أى شخص متعلم ومغامر أن يذهب ببساطة إلى الميدان وأن يجرى بحثًا ميدانيًا، وإن كانت ثمة حاجة إلى أى مهارات فنية، فإنه يستطيع أن يتعلمها وهو فى موقع الأحداث على طريقة "اسبح أو اغرق". وهناك على الناحية الأخرى موقف ليس أقل تطرفًا يؤمن أصحابه أن البحث الإثنوجرافى، وخاصة كتابة المذكرات الميدانية، يقوم على مواهب وقدرة على الإحساس ممنوحة من الله ولا يمكن تعلمها على أية حال. ويذهب البعض – مثلاً – إلى أنه لا يمكن أن يصبح باحثًا ميدانيًا مميزًا إلا أولئك الذين لديهم قدرات ومواهب خاصة كقدرات ارفنج جوفمان(*). فالتدريب لا يضيف شيئًا لأولئك الذين لديهم مهارات فطرية.

(*) يعد جوفمان E. Goffman (١٩٢٢–١٩٨٢) أشهر علماء الاجتماع الذين اهتموا بدراسة الوحدات الاجتماعية الصغرى خلال ستينيات وسبعينيات القرن الماضى. ويتمثل الإسهام الرئيسى لجوفمان فى توضيح طبيعة النسيج الذى تنتظم به المجتمعات عبر تراكيب من التفاعلات الإنسانية. فطور عددًا من الكتابات التى تساعدنا على أن نرى ذلك. كما أن كتاباته تحدت جفاف علم الاجتماع الذى يعتمد على المناهج الدقيقة والذى يفتقر إلى المادة الواقعية العيانية. حيث أكد مرارًا أن نظام التفاعل هو الجسر بين الاهتمامات الماكرو والاهتمامات الميكرو فى الحياة الاجتماعية وفى علم الاجتماع. انظر المزيد فى مارشال، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهرى وزملاؤه، المركز القومى للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠١٠. (المراجع)

ولكن فى مقابل هذا الموقف هناك باحثون آخرون يسلمون - فيما يبدو - بأن عناصر البحث الميدانى يتعين تعلمها، كما أنه من الممكن تعلمها، ولكنهم يستثنون كتابة المذكرات الميدانية من هذه المهارات القابلة للتعلم. فهم يرون أن كتابة المذكرات تتميز بقدر من الفردية العميقة والطابع الشخصى على نحو يجعلها تستعصى على التعليم الرسمى. فكل ما يفعله الباحث مع أفراد الجماعة التى يدرسها، وطبيعة فهمه لتلك التفاعلات، وكيفية وصفه لها وحديثه عنها سوف تختلف من باحث فرد لآخر. ولذا فإن الباحثين المختلفين سوف يكتبون ملاحظات غاية فى الاختلاف، وذلك تبعًا لطبيعة تخصص الباحث، واهتماماته النظرية، ونمط شخصيته، ومزاجه، وخصائصه الأسلوبية. ومن المفترض أن كتابة المذكرات الميدانية تأبى طريقة التعليم الرسمى، لأن الأحاسيس والمعانى التى تميز الكتابات التى يقدمها الإثنوجرافيون إنما تتولد مما لديهم من "المعرفة الضمنية"(**) والخبرات المباشرة، وهذه ليست بالأمر المتاح فى كتب المحاضرات بشكل واضح.

إننا نرفض كلاً من طريقة "اسبح أو اغرق" فى تدريب الباحثين الميدانيين، وكذا الاتجاه القائل بأن الإثنوجرافيا لا تقوم على مهارات خاصة أو مهارات غير تلك التى يتعلمها الشخص فى كليته الجامعية. وموقفنا أن كتابة المذكرات الميدانية ليست مجرد ثمرة للحساسية والأفكار الفطرية، وإنما تقوم إلى جانب ذلك على مهارات يتم اكتسابها بالتعلم وصقلها بمرور الوقت. بل إننا نؤمن فى الواقع أن المتخصصين فى الإثنوجرافيا بحاجة إلى شحذ هذه المهارات، وأن نوعية العلم الإثنوجرافى سوف تتحسن بالاهتمام الواعى بكيفية كتابة المذكرات الميدانية.

(**) يشير مصطلح المعرفة الضمنية Tacit Knowledge إلى المعرفة الروتينية التى نكتسبها من حياتنا اليومية، ومما تمارسه خلالها من أنشطة. ويمثل هذا المفهوم حجر الزاوية فى فينومينولوجيا ألفريد شوتز، حيث يشير إلى ذلك الكم المتراكم من المعرفة المسلم بها والتى نعتمد عليها فى أفعالنا، والتى لا تكون - فى الظروف الطبيعية - محلاً للتساؤل. وهذه هى الفكرة الأساسية التى اعتمد عليها بيتر برجر وتوماس لاكمان فى نظريتهما العامة عن المجتمع. واهتم بالمفهوم اهتمامًا واسعًا ومكثفًا علماء الإثنوميثودولوجيا، كما تبناه أنتونى جيدنز فى نظريته عن الصياغة البنائية. انظر المزيد فى: موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص ١٣٧٣-١٣٧٤. (المراجع)

كما نؤمن فضلاً عن ذلك أن بوسع الإثنوجرافيين تخطى المأزق الناجم عن اختلاف تصوراتهم عن المذكرات الميدانية، وذلك عن طريق تدقيق وتوضيح الفروض الأساسية والالتزامات التى يتمسكون بها حول طبيعة الإثنوجرافيا بوصفها مجموعة من الأنشطة الخاصة بالبحث العملي والكتابة. فمثل هذه الفروض الأساسية والالتزامات ذات دلالات مباشرة بالنسبة لكيفية فهم طبيعة المذكرات الميدانية وطريقة كتابتها. ولو أن أحداً نظر - مثلاً - إلى الإثنوجرافيا بوصفها مجرد تجميع لبيانات يمكن "العثور عليها" أو "اكتشافها" بواسطة أى باحث وبنفس الطريقة، فإنه يصبح من الممكن - منطقيًا - أن نفصل بين "النتائج" والعمليات التى تتبع التوصل إلى تلك النتائج، وأن نفصل كذلك بين "البيانات" و"ردود الأفعال الشخصية". كما نؤمن أيضًا أن الرأى القائل بأن المذكرات الميدانية التى تتجمع نتيجة الفهم الحدسى والبصيرة التحليلية العميقة، إنما يعكس التزامًا نظريًا بالحرص على رؤية "الصورة الكاملة" وتحديد أنماط النشاط الأساسية، وليس مجرد متابعة العمليات والأمور الروتينية يومًا بيوم. وتفترض هذه النظرة - بدورها - أن تحقيق هذه الميزات يمكن أن يصبح سرابًا ضائعًا بسبب "المزيد من الحقائق" أو "المزيد من التفاصيل".

كما يمكن أن نلاحظ أنه فى حين تكون الأدلة الشاملة لكتابة المذكرات الميدانية وهمية أو غير عملية، فإنه من الممكن تطوير أدلة محددة تكون مناسبة لفهم البحث الميدانى فهمًا دقيقًا محدداً. ونحن فى هذا الكتاب نزعم أننا ننطلق من فهم تفاعلى تفسيرى للإثنوجرافيا مستمد من تقاليد مدرسة التفاعلية الرمزية(*)

(*) التفاعلية الرمزية Symbolic Interactionism نظرية اجتماعية تركز اهتمامها على طرق تكوين المعانى خلال عملية التفاعل الاجتماعى. وهى تضع فى المحل الأول من اهتمامها تحليل معانى الحياة اليومية، عن طريق الملاحظة المباشرة عن قرب، وزيادة درجة الألفة الحميمة مع أفراد الجماعة المبحوثة، ثم تعتمد على ذلك فى الوصول إلى فهم للأشكال الأساسية للتفاعل الإنسانى. وللنظرية أربعة محاور رئيسية هى: يلقى المحور الأول الضوء على طرق تفاعل البشر بالرموز باعتبارها سمة مميزة لهم. ويدور المحور الثانى حول طبيعة عملية التفاعل وتجلياتها، والثالث يهتم بإلقاء الضوء على العالم الاجتماعى بوصفه يقوم كلية على التفاعل. بينما تحرص - رابعًا - على الاهتمام بما وراء تلك الرموز والعمليات والتفاعلات لكى تحدد الأنماط أو الأشكال الأساسية للحياة الاجتماعية، انظر المزيد فى: موسوعة علم الاجتماع، المرجع السابق، ص ص ٤٣٦-٤٤٠. (المراجع)

والإثنوميثودولوجيا(*) سعياً وراء التوصل إلى توجه متقن للمذكرات الميدانية وعمليات كتابتها. ومن الواضح أن ما نقدمه هنا ليس سوى مدخل واحد من بين مداخل كثيرة ممكنة. إذ نجد الباحثين الميدانيين الذين يؤمنون بالتزامات ذات توجه وضعي، أو يستلهمون مدارس أخرى داخل الإثنوجرافيا يتناولون كثيراً من القضايا والإجراءات التى نناقشها بشكل مختلف أشد الاختلاف. ومع ذلك فإننا نأمل أن يكون ما نوصى به مفيداً ومحفزاً لأى باحث يشرع فى إجراء بحث ميداني وكتابة مذكرات ميدانية.

ونحن – فوق هذا – نسعى فى هذا الكتاب وراء هدف آخر: إزالة الغموض حول كتابة المذكرات الميدانية، وإعطاء اهتمام واضح لعمليات تحويل الملاحظات والخبرات الميدانية إلى نصوص يمكن تفحصها والحكم عليها. ولكى نقوم بذلك نرى أنه من المهم النظر فى طرق العمل التى تمارس فعلاً، أى تأمل المذكرات الميدانية "غير المكتملة"، وليس النظر فى المذكرات المنقحة التى تم نشرها، ونمعن النظر فى كيفية تأليف مثل هذه المذكرات، وإعادة كتابتها، وإعدادها فى صورة نصوص نهائية مكتملة. ولهذا نركز هنا على كتابة المذكرات الميدانية بمعناها الحقيقى، آخذين بعين الاعتبار مجموعة منوعة من القضايا التقنية، والتفاعلية، والشخصية، والنظرية التى تتصل بمثل هذا النوع من الكتابة. كما أننا سوف نتناول العمليات والخطوات الإجرائية المتعلقة بالعمل فى المذكرات الميدانية بدءاً من كتابة ملاحظات تحليلية وانتهاء بإعداد التقارير الإثنوجرافية النهائية التى ستطرح على جمهور عريض.

إن غايتنا ليست غاية عملية فحسب، ولكننا نهدف أيضًا إلى جسر الهوة التى تفصل بين الأفكار الموجودة فى كتب الإثنوجرافيا وبين الممارسة العملية المتبعة فعلاً فى البحوث الإثنوجرافية (الميدانية). ونأمل أن تؤدى الدراسة الدقيقة للممارسات

(*) الإثنوميثودولوجيا Ethnomethodology هى نظرية وكذلك نوع من النقد الذاتى لعلم الاجتماع التقليدى. ويشير تحليل المصطلح إلى تركيزه على نوع من المعرفة البدهية أو الإدراك العام المتاحة لعضو الجماعة عن مجتمعه فى شتى النواحى. ولقد نهضت الإثنوميثودولوجيا على خلفية فلسفية متنوعة تشمل الفينومينولوجيا، وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، وعلوم اللغة...إلخ. راجع المزيد فى المرجع السابق، ص ص ٨٧–٩٢. (المراجع)

المستخدمة فعلاً فى كتابة المذكرات الميدانية إلى تحسين فهمنا لطبيعة الإثنوجرافيا، وذلك بلفت الانتباه إلى العمليات الأساسية المتصلة بتحويل الأحاديث والملاحظات والخبرات إلى نصوص مكتوبة. ومن الأمور المضللة أن نحاول فهم عملية تحويل الخبرة إلى نص مكتوب بالاقتصار على تحليل التقارير الإثنوجرافية النهائية والمذكرات الميدانية التى قامت عليها تلك الدراسات. فهناك فارق كبير بين المشكلات والعمليات المتعلقة بكتابة التقارير الأولية - غير المصقولة - حول الملاحظات والخبرات وبين تلك المتضمنة فى المذكرات الميدانية التى تمت مراجعتها، وانتقاء محتوياتها، وتحريرها، وإعادة النظر فيها من أجل إنتاج تقرير علمى إثنوجرافى نهائى. والمذكرات الميدانية المنشورة ليست مجرد مذكرات تم صقلها وتدقيقها، ولكنها أيضًا نصوص تم انتقاؤها بعناية فائقة لأنها يجب أن تكون وثيقة الارتباط بالموضوعات المحددة التى تدور حولها الدراسة الإثنوجرافية فى مجملها. على خلاف هذا نجد أن المذكرات الميدانية غير المكتملة التى تكتب بشكل أقرب إلى مواكبة الأحداث التى تعبر عنها، تكون غير متبلورة أو متكاملة نظريًا، وغير متسقة فى تعبيرها أو غرضها، كما أنها قد لا تكون دائمًا حاسمة تمامًا من الناحية الأسلوبية.

وقد تولد اهتمامنا بقضايا كتابة المذكرات الميدانية من خبراتنا السابقة فى تدريس البحث الميدانى لطلاب البكالوريوس وطلاب الدراسات العليا. ففى أوائل ثمانينيات القرن العشرين بدأ اثنان منا - هما: روبرت إيمرسون، ولندا شو -تدريس مقرر عن طرق البحث الميدانى لطلاب مرحلة البكالوريوس فى جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس. وقد صمم هذا المقرر كمقرر تدريب عملى يركز على المذكرات والخبرات الميدانية التى يصفها الطلاب. إذ يحرص المقرر أشد الحرص على أن ينزل الطلاب إلى بيئة طبيعية (أى إلى "الميدان" - بلغة العلم الإثنوجرافى) ويبدأو مباشرة فى كتابة مذكراتهم الميدانية حول ما يشاهدونه ويسمعونه. بالإضافة إلى اعتمادنا فى تعليمهم ذلك على المناقشات الجماعية المركزة لمجموعات صغيرة من الطلاب. فقد كنا نخصص جانبًا من وقت المحاضرة للنظر المتعمق فى صفحة أو صفحتين من محصلة "مذكرات الطلاب خلال الأسبوع" - وهى عبارة عن أجزاء مختارة لتوضيح موضوعات أساسية فى مجال

العلاقات الميدانية، وكتابة الاستراتيجية البحثية، أو التركيز على بلورة جوانب الرؤية النظرية. وطوال تدريس المقرر، كان الطلاب يطرحون أسئلة لا نهاية لها حول كتابة المذكرات الميدانية، بدءاً بموضوعات من قبيل "ما الذى عساى أن أكتب عنه؟" وانتهاء بمشكلات حول "كيف أكتب هذا كله فى تقرير نهائى؟". وظل إيمرسون وشو يلتمسان دائماً خبرة أعضاء هيئة التدريس بجامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس فى كتابة البرامج الخاصة بمقررات مناهج البحث الميدانى ويطلبون نصائحهم فى هذه الأمور. لقد التقوا براشيل فريتز - أستاذة الفولكلور وصاحبة الخبرة الميدانية الواسعة فى أفريقيا. وقد قادتهما هذه الاستشارات إلى اتخاذ قرار التعاون فى إعداد مقرر دراسى عن موضوع: كتابة المذكرات الإثنوجرافية الميدانية جنباً إلى جنب مقرر طرق البحث الميدانى الموجود فعلاً.

ولقد بدأت هذه المسودة المخطوطة تتشكل بينما كان الفريق يقوم بتدريس تلك المقررات كجزء من البرنامج فى منتصف ثمانينيات القرن العشرين فى جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس. وكان الطلاب فى هذا البرنامج يشاركون فى دورات التدريب المقيم(*)، بينما كانوا مسجلين فى ثلاثة مقررات هى: طرق البحث الميدانى، والكتابة الإثنوجرافية، ومقرر اختيارى (كالأمراض العقلية، وضبط الجريمة، ودراسات النوع الاجتماعى - الجندر - ، والسلالة، والإثنية فى المدارس). وكان ثمة قدر كبير من التكامل المحكم بين مقرر طرق البحث ومقرر الكتابة، فضلاً عن موضوع يتسق مع المهمة يضم القراءات والواجبات الميدانية. وكنا كقائمين بالتدريس نقوم بعقد لقاءات منتظمة لمناقشة المشكلات التى تواجه طلابنا والخطوات الناجحة التى يحققونها. بعد ذلك قمنا بتجميع خبراتنا فى حل المشكلات، وأخذنا نتبادل الرأى حول أفضل الأساليب للعمل مع

(*) التدريب المقيم Internship فترات من التدريب المكثف التى يقيم فيها الطلاب فى موقع التدريب، أو على مقربة شديدة منه توازى الإقامة. ويكون ذلك بهدف تحقيق المعايشة الكاملة مع المجتمع المراد التعرف عليه، وربما العمل فيه مستقبلاً، بأدنى حد ممكن من المؤثرات الخارجية. وهذا النظام مستخدم فى تدريس علوم الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والطب بفروعه، ورعاية الفئات الخاصة...إلخ. (المراجع)

الطلاب الذين تعلموا أن يُخضعوا خبراتهم فى عالم الواقع للتحليل السوسيولوجى. وهكذا تم تطوير الأفكار التى تمثل لب المسودة المخطوطة منذ ذلك الحين كثمرة لتلك اللقاءات والعمليات الجماعية.

ولقد قدم جونكر فى كتابه "العمل الميدانى: مقدمة إلى العلوم الاجتماعية (١٩٦٠) نموذجًا لتجميع مواد كتابنا وعرضها. فكتاب "العمل الميدانى" كان ثمرة تجميعات من البيانات الميدانية، هى "حالات تمت مقابلتها أثناء العمل الميدانى" وقد تم تأليفه فى جامعة شيكاغو فى إطار مشروع نظمه إيفريت هيوز(*) لإجراء دراسة حول "كيفية ممارسة العمل الميدانى أثناء العمل الميدانى" (Hughes 1960: v). وقد تضمن هذا المشروع "حصيلة ما تعلمناه خلال قيامنا بتعريف مئات من الطلاب ماهية العمل الميدانى وكيفية القيام به" (ص VII). كذلك حرصنا على تزويد فصول كتابنا هذا بنصوص من بعض المذكرات الميدانية "الخام" أملاً فى توضيح بعض الأساليب المفيدة فى كتابة المذكرات الميدانية، والبدائل المتاحة لذلك.

ونحن فى كتابنا هذا نعتمد اعتماداً كبيراً على المذكرات الميدانية والاقتباسات من النصوص الميدانية التى كتبها كل من طلاب البكالوريوس وطلاب الدراسات العليا الذين درسوا معنا مقررات البحث الميدانى والكتابة الإثنوجرافية بجامعات كاليفورنيا لوس أنجلوس، وسان ماركوس، وكورنيل. وقد يعترض البعض على الاستعانة بالمذكرات الميدانية للطلاب استناداً إلى أنها ليست كتابات من إعداد باحثين مدربين

(*) إيفريت هيوز Everett Hughes (١٨٩٧-١٩٩٤) أمريكى درس فى الولايات المتحدة ومارس التدريس فى كندا وفى بلاده، حيث انتهى به المطاف أستاذاً بجامعة شيكاغو. ورأس لفترة جمعية الأنثروبولوجيا التطبيقية. يعد هيوز تلميذاً لكل من ويليام توماس وروبرت فاريس وروبرت بارك. من أشهر أعماله كتابه "كندا فى تحول" (١٩٤٣) الذى يعد من أهم المؤلفات التى تناولت سوسيولوجيا الأقليات وجماعات الأغلبية. وينهض هذا العمل على دراسات ميدانية كثيفة. ومن أعماله المهمة: "حيث يلتقى الناس. دراسة للحدود العرقية والإثنية (١٩٥٢)، وكتابه "مقدمة فى العلاقات العرقية" (١٩٥٦). هذا عدا عدد كبير من المقالات العلمية المهمة فى "المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع". (المراجع)

طبقًا للأصول المهنية. ويأتى تفضيلنا لاستخدام مذكرات الطلاب – فى جانب منه – باعتبارها تعكس الأسلوب الذى بدأنا به إعداد هذا الكتاب: حيث بدأنا بقراءة تلك الكتابات والتعليق عليها، وتوضيحها، وإبراز تلك العناصر التى بدت لنا ولفتت انتباهنا كمذكرات ناجحة، ومثيرة، واتجهنا إلى جمع نماذج محددة منها حول موضوعات معينة لاستخدامها فى عملية التدريس. ولكننا، بالإضافة إلى ذلك، نرغب فى إزالة الغموض الذى يكتنف موضوع المذكرات الميدانية، إذا نجحنا فى أن نوضح بجلاء ما يمكن أن يحققه الطلاب، مثلهم مثل الذين سيقرؤون هذا الكتاب ويستعينون به. وأخيراً، فإننا كنا نشعر فى نهاية كل فصل دراسى ونسعد بمدى الجودة، والإثارة، والتلقائية التى تتسم بها المذكرات الميدانية التى كان يقدمها طلابنا حول الأحداث العادية والاستثنائية فى شتى البيئات الاجتماعية.

وإلى جانب المذكرات الطلابية، اعتمدنا كذلك على نماذج من مذكراتنا الميدانية الخاصة غير المنشورة، التى كنا قد كتبناها خلال إجرائنا لعدد من المشروعات البحثية المختلفة. ومن بين تلك المشروعات دراسة روبرت ايمرسون حول أطراف التقاضى الذين يطلبون إصدار أوامر قضائية للحد من العنف الأسرى، وقد أجريت أواخر ثمانينيات وأوائل تسعينيات القرن العشرين[٢]، والدراسات الحقلية الإثنوجرافية التى قامت بها راشيل فريتز حول رواية القصص لدى قبائل الشوكوى Chokwe فى زائير فى أعوام ١٩٧٦، ١٩٧٧، ١٩٨٢ و١٩٨٣، وفى زامبيا خلال عامى ١٩٩٢/١٩٩٣[٣]، وأخيراً البحث الميدانى الذى أجرته ليندا شو حول الخدمات الطبية النفسية التى تقدم للمرضى العقليين فى أوائل ثمانينيات القرن العشرين.

ونحن نتوجه بكتابنا هذا عن القضايا المتعلقة بكتابة المذكرات الميدانية إلى فئتين من الجمهور العام. وتشمل الفئة الأولى أولئك المعنيين بالإثنوجرافيا والبحث الميدانى لأغراض البحث الأكاديمى أساساً. وهنا نسعى إلى تطوير أدلة إرشادية عملية لكتابة المذكرات الميدانية يمكن أن يستفيد منها طلاب البكالوريوس وطلاب الدراسات العليا فى عدد من فروع الدراسة الأكاديمية. وتشمل هذه الفروع: علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا،

وعلم الفولكلور، والتاريخ الشفاهي، والتربية، وعلم الموسيقي السلالي (المقارن)(*)، التي يحتل فيها البحث الميداني والمناهج الإثنوجرافية مكانة بارزة. كما تشمل فروعًا أخرى: كالعلوم السياسية، وإدارة الأعمال، ودراسات الاتصال، والتأليف الموسيقي، والرعاية الاجتماعية، والصحة العامة، وهي تخصصات تتيح لدارسيها من الطلاب فرصة اختيار مادة الإثنوجرافيا والبحث الميداني كخيارات منهجية ثانوية يمكن أن تعينهم في دراستهم.

كما نتوجه في هذا الكتاب أيضًا إلى بعض فئات الجمهور التي تدرك أن لها ثمة روابط - ولو قليلة - بالإثنوجرافيا. ومن هذه الفئات أولئك الذين يمارسون التعليم التجريبي (عن طريق ممارسة التجربة) ويقدمون تعليمًا من خلال أداء الخدمات. إن رفع مستوى الطلاب وفق نظام التعليم من خلال العمل، والتعليم التجريبي يقتضي

(*) علم الموسيقى السلالي (المقارن) Ethnomusicology هو الدراسة الثقافية المقارنة للأنساق الموسيقية في المجتمع، وللعلاقة بين الموسيقى والعوامل الثقافية أو الاجتماعية. وقد استخدم أصحاب نظريتي الانتشارية والدوائر الثقافية المعلومات الموسيقية لتدعيم فروضهم. وأثر بواس على تلاميذه بتشجيعهم على تسجيل المعلومات الموسيقية والفنية الأخرى، كمصدر للمعلومات الثقافية، إلى جانب استكشافه العلاقة بين الظواهر الموسيقية والثقافية. وسيرًا على نهج بواس قام هيرسكوفيتس بدراسة العلاقة بين الموسيقى والثقافة في بعض مجتمعات العالم الجديد وأفريقيا. وقد أوضحت الدراسات التي أعقبت ذلك للموسيقى الأفريقية والأفروأمريكية الطابع الشديد المحافظة لأشكال موسيقية معينة، التي لا تتغير حتى في حالة انتقالها إلى بيئات جديدة تمامًا. حاول آلان لوماكس، الذي درس الرقص من منظور ثقافي مقارن، أن يحدد "المناطق الموسيقية" على مستوى العالم تحديدًا دقيقًا، كما حاول أن يضع نظامًا للتدوين الموسيقي يمكن أن يصلح لكل الثقافات، الذي عرفه باسم القياس المقطعي في الموسيقى (١٩٧٧). كما ربط بين التعبير الموسيقي والنمط الثقافي بوجه عام، وكذلك درجة التدرج الطبقي الاجتماعي، التي يعتقد أن هناك علاقة متبادلة بينها وبين درجة تعقيد النظام الموسيقي. وقد تأثرت الاتجاهات الحديثة في علم الموسيقى السلالي تأثرًا كبيرًا بالنماذج والطرق اللغوية، حيث استخدمت بعض نماذج اللغويات البنيوية من أجل فهم الأشكال الموسيقية في بيئات ثقافية معينة. وقد انتهى ماكليود Mcleod في عرضه لميدان علم الموسيقى السلالي (١٩٧٤) إلى أن الموسيقى بوجه عام نظام صوتي فائق التنظيم كثير الإطناب يرتبط دائمًا بالشعائر ويتسم بأنه شديد التأثر بالسياق. وتتراوح وظائف الموسيقى واستخداماتها بين الشعائر والترويح وتشتمل على التعبير عن تضامن الجماعة أو الإبداع الشخصي، وكذلك التعبير عن القلق، أو الاحتجاج أو الصراع. انظر المزيد في موسوعة علم الإنسان، مرجع سابق، ص ص ٤٠٢-٤٠٣. (المراجع)

توزيعهم على مؤسسات لخدمة المجتمع أو تدريبهم فى مؤسســـات مختلفة. وقد يواجهون فى هذه الأماكن صعوبات عملية فيما يتعلق بأداء الأنشطة المعتادة فى عالم الواقع، وهنا يتعين الربط بين هـذه الخبـرات وبين بعض تخصصـات الدراسة الأكاديمية التقليدية.

ويمكن القول أن العامل الحاسم فى خلق التكامل حتى تلك المرحلة كان النشرة النقدية غير الدورية (Batchelder and Warner 1977). غير أننا نلاحظ أن النشرات غير الدورية المعروفة فى ميدان التعليم عن طريق أداء الخدمات لا ترحب إلا بالكتابات التى تدور حول تصورات الطلاب ومشاعرهم أكثر مما تشجع على الكتابة عما يفعله الآخرون ويقولونه. كما أن مثل هذه النشرات لا تشجع الطلاب عادة على أن يكتبوا بإسهاب أو بالتفاصيل الحقيقية لملاحظاتهم. فهى تميل إلى "التركيز على الأزمات والأمور الطارئة"، وإلى تركيز اهتمامها على الأمور الدراماتيكية واللافتة للنظر وليس على وقائع الحياة اليومية والأمـــور الروتينية؛ ومن ثم فإنها لا تنتهى إلا إلى تقارير بالغة العمومية أو أوصاف وروايات تحكى عن "الأحداث الطارئة" منتزعة من سياقها، الأمر الذى من شأنه أن يؤدى إلى إجهاض التأمل السليم للعمليات اليومية وفهمها فهمًا متعمقًا.

أما نحن فنؤمن أن كتابة المذكرات الميدانية كفيلة بأن تقوى وتعمق من تكامل الخبرة مع المعارف التى يتلقاها الطلاب فى قاعات الدراسة، وذلك على نحو يفوق ما تقدمه النشرات غير الدورية. كما أن كتابة هذه المذكرات الميدانية من شأنها أن تشجع طلاب التعليم التجريبى على الملاحظة بشكل أكثر دقة ومنهجية لكل الأمور التى تعرض لهم، سواء كانت يومية معتادة أو طارئة، والاهتمام بأنشطة الآخرين وهمومهم بشكل وثيق كما لو كانت شئونهم هم أنفسهم. فضلاً عن ذلك فإن كتابة المذكرات الميدانية بصورة منظمة، ومواكبة للأحداث تهيئ الوسيلة التى تيسر لنا أن نفهم بوضوح توافق المتدرب مع ظروف بيئية محددة. كما أن هذه المذكرات تسمح بالتوثيق الدقيق لمدى هضم المتدرب - صراحة أو ضمنًا - للتعليمات والتوجيهات التى قيلت له عما تعد أمورًا مهمة، وكيفية أداء المهام التى يتعين القيام بها بشكل صحيح. وتعتبر هذه

التعليمات آلية أساسية لتنشئة المبتدئين على التعامل مع أى بيئة معينة. كما أن مثل هذه التعليمات تميط اللثام عن المهارات والمعارف الخاصة بالعمل والأولويات الحقيقية، والفروض، والالتزامات تجاه تلك البيئة أيضاً.

ومن الواضح أن نقاط التوتر ستظل قائمة بين ممارسة البحث الإثنوجرافى الميدانى وبين التعليم التجريبى. فنلاحظ مثلاً أن كتابة المذكرات الميدانية الموسعة ربما تتطلب المزيد من الالتزام بأصول البحث العلمى أكثر مما هو مألوف لدى كثير من الطلاب الذين يدرسون عن طريق التجربة، الذين يكونون مدفوعين – فى بادئ الأمر على الأقل – بالرغبة فى خدمة الآخرين أو تقدير الإغراءات والفرص المرتبطة بمسار مهنى معين. ومع ذلك فمن الممكن إقناع هذا الفريق – وكل أصحاب هذا التوجه – بأن الإثنوجرافيا يمكن أن تمدنا بفهم أعمق للعمليات الشخصية، والعملية، والتنظيمية التى يحتمل أن يواجهها المتدرب فى الميدان، ولذا فإن المدخل الذى نطوره هنا للمشاركة الميدانية والكتابة عنها سوف يسهم كثيراً فى خلق أرضية مشتركة من شأنها أن تؤدى للتقارب بين أسلوبين فى الفهم والعمل طالما ظلا متباعدين. وسوف يتحقق ذلك بتزويدنا بالأداة التى تستطيع تحويل الخبرات المعاشة إلى صورة مكتوبة يمكن عرضها فى قاعات الدرس ومناقشة أثرها على مختلف قضايا الحياة الاجتماعية والفكرية (Bleich 1993).

لقد أوقفنا أنفسنا فى هذا الكتاب على مهمة محددة: وهى أن نختبر العمليات المختلفة للكتابة الداخلة فى إنتاج واستخدام المذكرات الميدانية الإثنوجرافية. ومن هنا فإننا لا نزعم أن هذا الكتاب يمكن أن يمثل وحده مدخلاً للتعريف بإجراء البحث الإثنوجرافى الميدانى. كما نؤكد على وجه الخصوص أننا لم نتطرق لمعالجة أية تفصيلات حول الأسس النظرية العميقة للإثنوجرافيا أو التعقيدات والمآزق التى تكتنف التنفيذ الفعلى لمشروعات العمل الميدانى. وإنما نحن نحاول أن نقدم استكمالاً وتتمة للعروض العامة الموجودة فعلاً حول أسس البحث الإثنوجرافى والإجراءات المتبعة فيه(٤). وسنقدم تلك الإضافة من خلال التحليل المتعمق للقضايا العملية المتصلة بكتابة

المذكرات الميدانية واستخدامها. كما أننا ندرك - فضلاً عن هذا - إلى أى مدى توجد ثمة رابطة لا تنفصم بين كتابة المذكرات الميدانية من ناحية والالتزامات المنهجية والنظرية للباحث من ناحية أخرى.

ولقد جرى تنظيم الفصول التالية على نحو يعكس اهتمامنا المزدوج بتعليم كيفية كتابة المذكرات الميدانية من ناحية، وحرصنا - من ناحية أخرى - على فهم الصلة بين هذه الممارسات وبين البحث الإثنوجرافى من منظور عام وشامل. وسوف ننطلق من فكرة الاعتماد على خبرات الطلاب وممارساتهم الحقيقية التى تراكمت فى ثنايا تعليمهم كيف يكتبون المذكرات الميدانية، ولم نعمد إلى تقديم نموذج مثالى إرشادى يوضح: "كيف ينبغى أن تكتب" هذه المذكرات. وبعد تقديم فكرة عامة عن طبيعة المذكرات الميدانية ومكانتها فى البحث الإثنوجرافى، تبدأ الفصول المتتابعة تغطى - خطوة بخطوة - العمليات والممارسات المتعلقة بكتابة المذكرات الميدانية، وكيفية التعامل معها والإفادة منها. ويختتم كل فصل بفقرة عنوانها: "أفكار للتأمل" تدور حول دلالات الممارسات والعمليات التى نكون قد فرغنا من مناقشتها بالنسبة للقضايا العامة والأكثر شمولاً للنظرية والمنهج فى ميدان الإثنوجرافيا.

ولقد بدأنا فى الفصل الأول بالحديث عن المكانة المحورية التى يحتلها موضوع كتابة المذكرات الميدانية بالنسبة للبحث الإثنوجرافى، وتحديد الفروض والالتزامات التى يستند إليها المدخل الذى نتبناه. ويتناول الفصل الثانى الوضع المميز للباحث الميدانى، الذى يتمثل فى مشاركته فى الحياة الطبيعية للجماعة التى يدرسها وملاحظته لما يجرى فيها من أجل أن يقدم تقارير مكتوبة عن الأحداث التى يلاحظها هناك. ومن ثم يولى هذا الفصل عنايته للموضوعات المتعلقة بتدوين عبارات موجزة أو ملاحظات فى أثناء وجود الباحث بالميدان. ويعالج الفصل الثالث الإجراءات التى تتبع لكتابة المذكرات الميدانية، إما من الذاكرة، أو من واقع مسودات مكتوبة سابقًا. ويناقش الفصل الرابع الاستراتيجيات المختلفة للكتابة عن الصور التى يشاهدها الباحث، ووصف الأحداث التى تمت

ملاحظتها، وتنظيم الأوصاف المفصلة، وكتابة أفكار تحليلية أولية عن تلك المشاهد. ونتناول في الفصل الخامس أساليب كتابة المذكرات وتطوير أساليب تحليل ما تعنيه هذه الأحداث بالنسبة للمشاركين فيها لنقلها إلى القارئ. ويدور الفصل السادس حول المذكرات الميدانية الطويلة "المكتملة"، آخذًا في الاعتبار كيفية قراءة المذكرات، وتصنيفها، وترميزها، وكيفية البدء في كتابة التحليلات. ويتأمل الفصل السابع اختيارات الباحث الإثنوجرافي بشأن كيفية تنظيم وكتابة التقارير الميدانية الدقيقة، المنقحة، التي تتسم بالتماسك، والتي يمكن أن تقدم إلى جمهور عريض. وأخيرًا، نتأمل في الفصل الثامن حاجة الكتابة الإثنوجرافية إلى الموازنة بين المتطلبات والاهتمامات التي غالبًا ما تتعارض – أي تعارض الولاء للأفراد المبحوثين مع الولاء تجاه القراء المتوقعين – والتأمل الواعي لعملية كتابة تقارير مدونة على الورق، مع الإحساس الواجب بالمعاني والدلالات المحلية لتلك الأحداث لدى أفراد مجتمع البحث ومراعاة الجوانب التحليلية للعمل العلمي.

كما نود أن نعبر عن الامتنان لبرنامج الدراسات الحقلية في جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس لتشجيعه ودعمه لبرنامج رعاية المبتدئين الذي انبثق عنه هذا الكتاب. كما أننا مدينون بشكر خاص لجين بيرمول، وروب شامر، وبارڤن كاساي. ونود أن نشكر أيضًا هؤلاء الزملاء لما قدموه من تعليقات واقتراحات على مسودة الكتاب: تيموتاي دياموند، ديانا دوجاو، شيللي فيلدمان، جان فرودسين، جورج جادا، دوايت جيلز، كلوديا إنجرام، مايكل جوتز، جاك كاتز، سوزان ماكوين، أنيتا ماكورميك، ميلڤين بولنر، أنيتا بومرانتز، أماندا باول، جوديث ريشلين كلونسكي، مايك روز، روث م. ستون، كارول وارين، راندى وودلاند ومراجعين غير معروفين بمطبعة جامعة شيكاغو. كما نشكر محرر هذا العمل ريتشارد ألين الذي أنذرنا بأننا "سنواجه أوقاتًا صعبة"، وقد صدق ما وعد، بطرق عدة حثنا فيها على توضيح اهتماماتنا الأساسية وعلى بلورة حججنا وتدقيقها.

وفى الختام، نود أن نشكر طلابنا بمقررات البحث الميدانى الذين تكرموا بالتصريح لنا باستخدام مذكراتهم الميدانية وتقاريرهم الإثنوجرافية كأمثلة ونماذج توضيحية وهم: كارين أبل، تيرى أندرسون، جيم أنجل، إرين أرتجيانى، بن بت - زورى، نانسى س. بلوم، بول براونفيلد، جنيفر شيروسكى، ربيكا كليمنتس، كابونيا كراوفورد، جون كروس، ماريا إسترادا، جولى فينى، روبرت جاروت، موريشيو أ. جورماز، هيذر جوثرى، ديفيد هيليارد، سوزان هيرسن، رونالد كوفاسن، شون ليمون، وندى لين، ستورم لايدون، فرانشيسكو مارتنيز، مارتا مويس، ديانا نيتا، فيل أوكاموتو، بلير بالى، كرستين رينز، ليزا رافيتسن، جوانا سابوريتو، كرستين شيفر، جو شويرمان، كليف سبانجلر، لاكشمى شرينيفاس، مارثا ستوكس، كاترين تاتار، لورا مايلز فال، لندا فان ليوفين، كارينا والترز، ديفيد ويلان، نيكولاس وولفنجر، وتيرى يونج. ونقدم شكراً خاصاً لكل من ليسا هولز ومارثا ميلليسون ليس فقط لأنهما قد سمحتا لنا باستخدام مقتطفات من مذكراتهما الميدانية، وإنما لأنهما قد أمدتانا "بانطباعات طلابية" بعد قراءتهما للمسودة الأولى لمخطوطة الكتاب.

الفصل الأول

المذكرات الميدانية فى البحث الإثنوجرافى

يتضمن البحث الميدانى الإثنوجرافى دراسة الجماعات والأفراد وهم يمارسون حياتهم اليومية. ويتطلب تنفيذ مثل هذا البحث نوعين مختلفين من المهام. فالباحث الميدانى يدخل، أولاً، إلى بيئة اجتماعية ويحاول أن يتعرف على الناس الذين يعيشون فيها، والأغلب ألا تكون تلك البيئة معروفة للباحث من قبل بشكل وثيق. ويشارك الباحث فى الأمور اليومية الروتينية لأطراف ذلك الموقف. ويطور بمرور الوقت علاقات مستمرة مع الناس فى هذا المجتمع، ويلاحظ كل ما يدور فيه لحظة بلحظة. والواقع أن مصطلح "الملاحظة المشاركة" غالبًا ما يستخدم لتشخيص هذا المدخل الأساسى للبحث. ولكن الباحث، من جهة ثانية، يدون بشكل منتظم ومنهجى كل ما يلاحظه وكل ما يقف عليه من معلومات أثناء مشاركته فى جولات الحياة اليومية للآخرين. وهكذا ينشئ الباحث الميدانى سجلاً مكتوبًا تتراكم فيه هذه الملاحظات والخبرات. ويشمل هذان النشاطان المترابطان جوهر البحث الإثنوجرافى ألا وهو: المشاركة الشخصية المباشرة فى عالم اجتماعى لم يكن معروفًا من قبل، وإعداد تقارير مكتوبة عن هذا العالم يصور فيها مثل هذه المشاركة. وسوف نتناول فى الفقرات التالية بشكل مفصل كلاً من هذه الأنشطة، لكى نستخلص دلالاتها وأهميتها بالنسبة لكتابة المذكرات الميدانية.

المشاركة الإثنوجرافية

يلتزم الإثنوجرافيون بالنزول إلى الميدان الحقيقى الذى ينوون دراسته وأن يقتربوا ما أمكنهم من أنشطة الآخرين وخبراتهم اليومية. ويتطلب هذا "الاقتراب" فى حده الأدنى درجة من القرب الجسدى والاجتماعى من مجالات الحياة اليومية للناس ولأنشطتهم. ويتعين على الباحث الميدانى أن يكون قادراً على اتخاذ أوضاع فى قلب المواقع والأحداث الرئيسية فى حياة الناس لكى يلاحظها ويفهمها. ولكن "الاقتراب" يتضمن مكوناً آخر له دلالة أبعد وأكثر أهمية: فالإثنوجرافى ينشد الانغماس العميق فى عوالم الآخرين لكى يفهم خبراتهم المهمة وذات المغزى. ويستطيع الباحث الميدانى، بواسطة هذا الانغماس أن يرى من الداخل كيف يمارس الناس حياتهم، وكيف يؤدون أنشطتهم المعتادة على مدار اليوم، وما الذى يعدونه ذا معنى، وكيف يترجمون ذلك فى أفعالهم. وهكذا فإن الانغماس يمنح المشتغل بالعمل الميدانى إمكانية الانخراط فى تيار حياة الناس، ويزيد من حساسيته للتفاعل والعمل معهم.

كما يلاحظ – فضلاً عن ذلك – أن هذا الانغماس يمكن الباحث الميدانى من أن يعايش بنفسه – مباشرة وبقوة – الروتين والظروف المعتادة التى يمارس الناس فى ظلها حياتهم اليومية العادية، والقيود والضغوط التى تتعرض لها هذه الحياة. ويصر جوفمان (Goffman 1989: 125) بقوة على أن البحث الميدانى يعنى "إخضاع نفسك، وبدنك، وشخصيتك، ووضعك الاجتماعى، لمجموعة الظروف والملابسات التى تؤثر فى حياة مجموعة من الأفراد، بحيث يصبح بوسعك أن تنفذ جسدياً وإيكولوجياً إلى نطاق استجاباتهم لوضعهم الاجتماعى، أو أوضاع عملهم، أو وضعهم السلالى". ومن ثم، فإن الانغماس يعنى أمرين فى البحث الميدانى، هما أن تكون مع الناس الآخرين لترى كيف يستجيبون للأحداث لحظة وقوعها، وأن يعايش الباحث بنفسه هذه الأحداث والظروف التى تؤدى إلى حدوثها.

ويبدو جلياً، أن الانغماس الإثنوجرافى هو الذى يحول دون إجراء البحث الميدانى حيث يكون الباحث ملاحظاً سلبياً منفصلاً عن الناس، فالباحث الميدانى لا يستطيع أن يكون

قريبًا من حياة الأفراد الذين يدرسهم إلا عندما يشارك بإيجابية فى أمور حياتهم يومًا بيوم. كما أن مثل هذه المشاركة تتطلب حتمًا درجة ما من إعادة التنشئة الاجتماعية(*). فالباحث الميدانى عندما يشارك جماعة من الناس حياتهم اليومية "فإنه يدخل فى مصفوفة المعانى لدى مبحوثيه، ويشاركهم أنشطتهم المنظمة، ويشعر بالالتزام بقواعدهم الأخلاقية" (Wax 1980: 272-73). ويستطيع الباحث من خلال مشاركته الكاملة والإنسانية – قدر الاستطاعة – فى طريقة أخرى للحياة، أن يعرف ما هو مطلوب منه لكى يصبح عضواً فى هذا العالم الجديد، وأن يعيش الأحداث والمعانى بطرق تقترب من خبرات أطرافها[1]. والحقيقة أن بعض الإثنوجرافيين يسعون إلى القيام بالبحث الميدانى وذلك بأن يفعلوا وأن يصبحوا – بقدر الإمكان – كل ما يتعين عليهم أيًا كان الموضوع الذى يدرسونه. فالاثنوجرافيون، مثلاً، أصبحوا مهرة فى أداء الأنشطة التى يسعون إلى فهمها (Lynch 1985؛ Diamond 1993) أو يشاركون – عن إيمان واقتناع – فى أنشطة الكنائس أو الجماعات الدينية (Jules - Rosette 1975; Rochford 1985) على أساس أنهم عندما يصبحون أعضاء فى هذه الجماعات فإنهم يكتسبون قدرة على رؤية وفهم تلك الجماعات وأنشطتها. كما أن بعض القرويين قد يسندون دوراً معيناً لباحثة ميدانية، كأن تكون أُختًا أو أُمًا فى أسرة ممتدة، مما يلزمها بأن تشارك وأن تعيد تنشئة نفسها اجتماعيًا حتى تستطيع الوفاء بما تتوقعه منها الجماعة المحلية (Fretz n.d.).

ولا يستطيع المشتغل بالميدان وهو يدرس الآخرين من خلال المشاركة الإيجابية فى حياتهم وأنشطتهم، أن يحاول البقاء على الهامش متجنبًا أى مخالفة(*)[2].

(*) إعادة التنشئة Resocialization باب مهم من أبواب دراسة التنشئة الاجتماعية، وتعنى إعادة تعلم المعايير والجزاءات الثقافية عند العودة إلى النظام الاجتماعى من قبل أولئك الذين تركوا هذا النظام طوعًا أو كرهًا (مثل المسجونين الخارجين إلى الحياة العادية، أو العائدين من سفر خارجى) حتى يمكنهم أن يصبحوا مقبولين مرة أخرى وبصورة كاملة داخل النظام. وتسمى عملية تكيف الباحث الميدانى المقيم فى مجتمع بحثه أيضًا إعادة تنشئة اجتماعية له، حيث يتوجب عليه استيعاب معايير الجماعة التى سيعيش بينها وأن يفهم خريطة الأدوار الاجتماعية، ليعرف طبيعة دوره، وما يرتبط به من وظائف وتوقعات. (المراجع)

(*) حرفيًا: أن يبقى كذبابة على الحائط.

فلا يوجد باحث ميداني يمكنه أن يكون محايداً تماماً، وملاحظًا منفصلاً، وخارجًا ومستقلاً عن الظاهرة التي يلاحظها (Pollner and Emerson 1988). ولكنا نؤكد مع ذلك أن الباحث الميداني عندما ينخرط في حياة المبحوثين وشئونهم، فإن منظوره الخاص "يبقى مضفراً مع الظاهرة التي لا تملك خصائص موضوعية مستقلة عن منظور القائم بالملاحظة ومناهجه" (Mishler 1979: 10). ولا يمكن للإثنوجرافي أن يستوعب كل شيء، ولكنه يستطيع من خلال معايشته لأفراد المجتمع أن يطور منظورات معينة بانخراطه في بعض الأنشطة والعلاقات أكثر من سواها. وعلاوة على هذا، فإن الباحث الإثنوجرافي قد يتعرض لتغيير أولوياته ووجهات نظره، ذلك أن إقامته علاقات مع المبحوثين قد تخضع لاعتبارات سياسية محلية خاطئة(*). والخلاصة أنها ليست مهمة الإثنوجرافي أن يحدد "الحقيقة"، وإنما عليه أن يكشف عن الحقائق المتعددة التي تتجلى في حياة الآخرين[٣].

وعلاوة على هذا، فإن وجود الباحث الإثنوجرافي في الميدان ستكون له حتمًا بعض المعاني والتداعيات بالنسبة لمجريات الأحداث، حيث أنه لابد وأن يتفاعل مع المبحوثين مما يترتب عليه بالضرورة أن يؤثر فيهم[٤]. ويرتبط "الحضور المؤثر" للباحث غالبًا بتأثيرات ردود الفعل (ويقصد بها تأثير مشاركة الباحث على كيفية سلوك الأعضاء وحديثهم)، ويتعين ألا ينظر إليها على أنها "تفسد" ما يلاحظه الباحث وما يقف عليه من معلومات. بل إن هذه التأثيرات هي المصدر الحقيقي لتلك المعلومات والملاحظة (Clarke 1975: 99). ولا تؤدي الصلات التي تربط بين الباحث الميداني وبين

(*) لا يمكن أن تجرى إقامة علاقات بين الباحث وأفراد – أو جماعات – من مجتمع بحثه بطريقة تلقائية وعفوية، وإنما يتعين أن تخضع للحساب وتقدير أثرها على مسار بحثه. فإقامة علاقة من امرأة أو عدة نساء في مجتمع محافظ أمر مدمر لعلاقاته بالجماعة الأكبر، وارتباطه بأشخاص منبوذين من المجتمع المحلي، أو تلوك سمعتهم الألسنة، أو مختلفي العقيدة أو الأعمار...إلخ كل ذلك مما يتعين على الباحث أن يزنه جيداً لكي لا يؤثر بالسلب على عمله. والقاعدة العامة أن تكتسي علاقة الباحث بأفراد مجتمع بحثه طابعًا إنسانيًا أقرب إلى الحياد، فالنفور الواضح أو التعاطف الشديد وإسقاط الكلفة تماماً كلاهما يسيئ إلى عمله، وقد يتسبب في إخفاقه، وتسجل كتب البحث الاجتماعي شواهد عديدة على ذلك. انظر مثلاً: محمد الجوهري، طرق البحث الاجتماعي، ط٦، القاهرة، ٢٠٠٩. (المراجع)

أفراد مجتمع الدراسة إلى إحداث إرباك أو تغيير جسيم فى الأنماط المتبعة للتفاعل الاجتماعى بقدر ما تكشف عن الأسس التى يقيم عليها الناس علاقاتهم الاجتماعية والمصطلحات التى يستخدمونها لوصفها والتعبير عنها. فعلى سبيل المثال، فى قرية يرتبط فيها الناس بروابط القرابة، قد يتقبل الناس باحثًا ميدانيًا ويدمجونه فى عائلة معينة وينسبون إليه مصطلحًا قرابيًا يوضح حقوقه ومسئولياته تجاه الآخرين. إن العلاقات المباشرة التى يقيمها الباحث الميدانى مع أفراد مجتمع بحثه لا تنتقص مما يمكن أن يجمعه من معلومات، وإنما يمكن أن تزوده بمفاتيح مهمة لفتح مغاليق كثير من الأمور، حيث يصبح بإمكانه أن يتعرف ويفهم الأسس المعنوية الضمنية (المستترة) التى لا تكون متاحة غالبًا من خلال أساليب الملاحظة أو المقابلة وحدها[٥]. معنى هذا أنه يتعين على الباحث الإثنوجرافى ألا ينظر إلى ردود الفعل من جانب المبحوثين على أنها أمور سلبية يجب التحكم فيها بعناية أو تجنبها، وإنما عليه أيضًا أن يصبح حساسًا ومدركًا للكيفية التى ينظر بها الآخرون إليه ويتعاملون معه[*].

ومن شأن تقدير التداعيات الحتمية لوجود الباحث الميدانى أن ينزع أى ميزة خاصة عن أدائه لعمله متخذًا دور الملاحظ الهامشى المتباعد (المنفصل) "غير المتطفل"، والتى طالما كانت تجسد المثل الأعلى الضمنى للباحث فى البحث الميدانى. ويؤيد كثير من الإثنوجرافيين المعاصرين أدوار المشاركة الواسعة والإيجابية (Adler, Adler, and Rochford 1986) التى يؤدى بها الباحث فعلاً الأنشطة المحورية فى حياة المبحوثين. وطبقًا لهذه النظرة، فإن تحمل بعض المسئوليات الحقيقية عن أداء بعض الوظائف والمهام الحيوية، على نحو

(*) ومع ذلك تؤكد كتب المنهج فى العلوم الاجتماعية أن الملاحظة الظاهرة تنطوى دائمًا على بعض عناصر تشويه الموقف (الذى نقوم بملاحظته) بسبب وجود الباحث داخل هذا الموقف. ولو قام الباحث بالمشاركة - فمارس الملاحظة المشاركة - فقد يسلك على نحو من شأنه أن يغير من مسار الموقف ونتائجه. بل إن مجرد وجوده كملاحظ منفصل، غير مشارك، يمكن أن يمنع أحد أنماط التفاعل الاجتماعى الذى كان يمكن أن يظهر فى حالة عدم وجوده. ولنتصور حديثًا حميمًا بين فتاة وخطيبها فى داخل سيارة واقفة، هل نستطيع أن ندرس أحاديث هذين الخطيبين بوضع ملاحظ فى المقعد الخلفى للسيارة؟ راجع المزيد فى كتابنا السابق الإشارة إليه عن طرق البحث الاجتماعى والمراجع الواردة هناك. (المراجع)

ما يوجد فى التدريب المقيم على أداء الخدمات العامة؛ من شأنه أن يتيح للباحث فرصًا خاصة كى يكون قريبًا، ومشاركًا، وملمًا بخبرات حياة فى مجتمع لم يكن يعلم عنه شيئًا. إن كلاً من المتدرب المقيم الذى يتحمل مسئوليات حقيقية فى مجال العمل، أو الباحث الذى يشارك مشاركة إيجابية فى حياة القرية، ينغمس فى أنشطة محلية ويتلقى تنشئة اجتماعية مناسبة لممارسة تلك الأنشطة ويصبح قادرًا على اكتساب التعاطف مع الأساليب المحلية للسلوك والإحساس.

وأخيرًا، فإن المشاركة الوثيقة، والمستمرة فى حياة الآخرين تحفز إلى فهم البنية الحقيقة للحياة الاجتماعية من خلال انسياب العمليات المختلفة. كما أن الباحث الميدانى يرى من خلال المشاركة المباشرة واللصيقة كيف يتصدى الناس لشتى أشكال الفوضى وعدم اليقين، وكيف تتولد المعانى أثناء الأحاديث والممارسات الجمعية، وكيف تتغير صور الفهم والتفسير بمرور الوقت. واستنادًا إلى هذه الطرق جميعًا، فإن من شأن اقتراب الباحث الميدانى من حياة الناس وأنشطتهم اليومية أن يعلى من حساسيته للحياة الاجتماعية كعملية.

* * *

تدوين الوقائع المعاشة/الملاحظة

لا يمكن للباحث الإثنوجرافى أن يصبح عضوًا فى وضع اجتماعى بنفس المعنى أو القدر الذى يكون عليه أعضاؤه "الطبيعيون"، حتى لو قدر لهذا الباحث أن يعيد تنشئة نفسه اجتماعيًا بشكل مكثف(٦). كما أن الباحث الميدانى يخطط عادة لمغادرة الموقع بعد أن يمكث فيه فترة محدودة نسبيًا، وتصطبغ خبرته بالحياة المحلية وتتلون وفقًا لمدى السرعة فى ترك المكان. والنتيجة التى تترتب على ذلك، "أن القائم بالعمل الميدانى لا يشارك فى حياة الجماعة بنفس القدر من الالتزام أو الخضوع للقيود التى يتقيد بها أبناء المجتمع المدروس" (Karp and Kendall 1982: 257). كما أن الباحث الميدانى يتوجه

إلى رؤية كثير من الأحداث المحلية ليس بصفتها "حياة حقيقية" وإنما بوصفها موضوعات لاهتمام بحثى محتمل، وكأحداث قد يقع اختياره عليها ليكتب عنها ويحتفظ بها فى مذكراته الميدانية. وهكذا، فإن التزامات الباحث الإثنوجرافى بالبحث والكتابة هى التى تؤهله للانغماس فى العمل الميدانى، ولكنها تجعل منه شخصًا خارجيًا بالنسبة للجماعة Outsider، قد يكون فى بعض الحالات القصوى مغتربًا ثقافيًا عن المجتمع(٧).

والمذكرات الميدانية هى تقارير تصف الخبرات والملاحظات التى تتجمع لدى الباحث أثناء استغراقه المكثف فى المشاركة. ولكن كتابة التقارير الوصفية عن الخبرات والملاحظات ليست عملية مباشرة وشفافة كما قد تبدو لأول وهلة. ذلك أن كتابة الوصف ليست مجرد الإحاطة الدقيقة بالوقائع التى "جرت ملاحظتها عن قرب وثيق قدر الإمكان، ولا مجرد التعبير بالكلمات" عن الأحاديث التى استمع إليها الباحث والأنشطة التى شاهدها. فالنظر إلى عملية كتابة الأوصاف على أنها مجرد إعداد نصوص مكتوبة تتطابق بشكل صحيح مع ما جرى ملاحظته، إنما يفترض أنه ليس هناك سوى نص "صحيح" واحد فقط لأى حدث بعينه. مع أنه لا توجد فى حقيقة الأمر طريقة واحدة "طبيعية" أو "صحيحة" للكتابة عما لاحظه الباحث من وقائع. فالحقيقة أن مثل هذه الأوصاف تخضع لأمور تتعلق بالإدراك والتفسير، ولهذا السبب يكون من الممكن - وربما من الطبيعى - أن توجد أوصاف مختلفة لنفس الموقف أو ذات الحدث.

ولنتأمل، على سبيل المثال، الأوصاف الثلاثة التالية التى كتبها ثلاثة من الطلاب الباحثين لملاحظاتهم فى طوابير السداد السريع لأثمان المشتريات بثلاثة من محلات السوبر ماركت المختلفة بمدينة لوس أنجلوس. وتشترك الأوصاف الثلاثة فى عدد من الملامح العامة: فهى جميعًا تصف الأحداث من وجهة نظر الملاحظين/ المتسوقين خلال تحركهم فى طوابير الدفع، وهى جميعًا تقدم أوصافًا مادية (جسدية) لأطراف أخرى مهمة فى الطوابير - كالصراف، والمشترين الآخرين - ووصفًا على الأقل لبعض السلع التى اشتروها، كما أنها قد انتبهت بشكل وثيق لبعض التفاصيل السلوكية الدقيقة التى وقعت فى طوابير الدفع. ومع هذا، فإن كلاً من الباحثين الثلاثة قد اتخذ مسلكًا مختلفًا

فى وصف طابور الدفع. فقد اختار كل منهم بعض السمات والأفعال وركز عليها فى وصفه، فى حين تجاهل وهمش سمات وأفعالاً أخرى. كما نلاحظ فضلاً عن هذا، أن هذه الأوصاف قد كتبت برؤى مختلفة، كما أن أصحابها قد صاغوا وقدموا ما حدث فى الطوابير بطرق مختلفة. ويرجع هذا فى جانب منه إلى أن الباحثين قد لاحظوا أناسًا مختلفين ومناسبات مختلفة، ولكنه يرجع فى جانب آخر كذلك إلى أنهم قد تبنوا اختيارات مختلفة للكتابة على نحو ما سنرى فيما يلى:

سوبر ماركت ماى فير

كان يوجد بالصف أربعة مشترين مع مشترياتهم التى يفصل بين كل منها حاجز مستطيل من المطاط الأسود يبلغ طوله ١٨ بوصة(*). وعندما بلغت طاولة وضع المشتريات وضعت أكياس المشتروات المجمدة "على السير"، وتقدمت إلى المحصلة لأحصل من أمامها على أحد الحواجز السوداء كى أفصل به مشترياتى عن مشتريات من أمامى. وكانت المحصلة امرأة فى منتصف الثلاثينيات من العمر تقريبًا، ويبلغ طولها حوالى ٥,٢ قدمًا(**)، سمراء البشرة، ذات شعر مجعد لونه بنى داكن. ولم أستطع أن أسمع صوتها تتكلم، ولكنى استطعت أن أتبين أنها تتحدث بلكنة خاصة. وكانت ترتدى بلوزة بيضاء، بكمين قصيرين، ومئزرا (مريلة) ذات كتف أحمر داكن ويصل طولها حتى منتصف فخذيها. وكانت ترتدى رابطة عنق على شكل عقدة أنشوطية ذات لون أحمر داكن، لا تشبه رابطة عنق الرجل، وأكثر تحرراً وبها زغب كثير. وتضع على صدرها الأيسر شريحة مكتوبًا عليها اسمها باللون الأحمر: "كاندى". "Candy".

(*) ٤٥ سم. (المترجم)

(**) حوالى ١٦٠ سم. (المترجم)

[يلى ذلك وصف للرجلين الأولين فى مقدمة الصف]. وكانت المرأة الواقفة من خلفهما ذات بشرة داكنة وشعر مستقيم لونه بنى داكن مقصوص كقصة شعر الولد الأنيق. وكانت ترتدى "سويتر" لونه أزرق أخضر بفتحة رقبة على شكل ٧ ومقفول بإحكام، وبنطالاً أسود. وكانت مشترياتها تشمل عصائر: علبة من عصير الأناناس وست علب من عصير الطماطم. وكان الشاب الذى يقف أمامى يرتدى قميصًا وردى اللون وبنطالاً قصيراً داكنًا. كان طوله حوالى ٦,٢ قدمًا(*)، ممشوق القوام، ذو شعر أشقر داكن، ويضع فى أذنه اليسرى دبلة من الذهب عيار ١٨ (وهو شاذ فيما أظن). وفى المثلث المخصص لوضع مشترياته كان يوجد كيس من الجزر، وجالون من الحليب كامل الدسم، وعبوة من شرائح لحم الخنزير.

ولم تكن كاندى تستغرق سوى برهة قصيرة مع كل شخص، وتبادر كل عميل بالتحية، ثم تخبره بالمبلغ المستحق عليه، وتقبض منه النقود، ثم ترد الباقى وتضعه على الرف أمام العميل الذى عليه الدور. وقبل أن تعيد كاندى إلى السيدة ذات الشعر الداكن باقى نقودها، استرعى انتباهى أن الرجل ذو القميص الوردى قد تحرك إلى مكانها ربما على مسافة قدم واحد منها، وفى الموضع الذى يتخذه الآخرون عندما يحين دورهم، أمام رف "توقيع الشيك أو الإيصال". (أعتقد أنه مما يلفت النظر أن الناس فيما يبدو كانوا مهتمين بأن يفصلوا بين مأكولاتهم ومأكولات الآخرين أكثر من اهتمامهم بالفصل فيما بين مواقع أجسادهم)...

وعندما وصلت إلى الرف (حيث يتم كل شىء)، قلت "مرحبًا"، وردت كاندى قائلة "مرحبًا" بينما كانت تمرر مشترياتى على جهاز مسح الأسعار...

(*) حوالى ١٩٠ سم. (المراجع)

لقد قدم هذا الملاحظ وصفًا مكانيًا للصف من خلال حديثه عن الناس فردًا فردًا (وخاصة من حيث المظهر الجسماني والملبس) وعن مواد البقالة التي اختاروها وهي موضوعة قبل أن يجري التعامل معها ("وفي المثلث المخصص له كان..."). وفي الواقع، أن التقرير الخاص بهذه الملاحظات قد أشار على استحياء إلى التناقض بين الاهتمام الذي يكرس للفصل فيما بين مواد البقالة الخاصة بمختلف العملاء وقلة الاهتمام - أمام البائعة - بالفصل بين الأجساد حيث يفرغ أحد العملاء من الدفع ويكون على من يليه اتخاذ الأهبة للدفع.

سوبر ماركت رالف في إيستر مورنينج

لقد اتجهت شرقًا إلى مواقع الدفع ومعي ما يخصني من الخس الملعقي(*)، لكي أزين به سلطة الأرز التي أحضرتها لوجبة الإفطار المتأخر، وزجاجة من نوع جديد من النبيذ(**) الذي أحبه، وسوف أضع الزجاجة في الثلاجة خلال نصف الساعة التالي. وعندما اقتربت من أماكن الدفع وجدت أن الخط السريع (خط تحصيل ثمن عشرة أصناف فأقل) سيكون خياري الأفضل. وقد لاحظت أن بولاند Boland كان يجلس خلف الكاونتر عند الآلة الحاسبة - وهو دائمًا شديد المودة معي - فقلت له "مرحبًا، كيف حالك؟".

واتخذت مكاني خلف المرأة التي كانت موجودة هناك. ولقد قامت بوضع أحد الفواصل المطاطية خلف الأشياء التي كانت ستشتريها، وهي إحدى المجاملات الشخصية الودودة التي يمكن أن يجدها المرء في هذا الطابور الروتيني جدًا. ولقد قدرت لها ذلك، وانتويت أن أوجه إليها الشكر (بابتسامة ربما)، ولكنها كانت تنظر للأمام (أي كان ظهرها ناحيته)،

(*) الخس الملعقي Romaine Lettuce: خس ذو أوراق طويلة على شكل الملعقة. (المراجع)

(**) أورد التقرير اسمه التجاري في المتن (وهو: Gewurztraminer). (المراجع)

وأفترض أنها كانت تتأهب لدفع الحساب. لقد قمت بوضع نبيذى والخس على السير، وكان ورائى عميل آخر أو أكثر. وأردت أن أبدى تجاههم أيضًا مجاملة وضع الفاصل المطاطى أمام مشترياتهم. وانتظرت حتى تحرك الطعام الذى أمام طعامى بما يسمح لى أن آخذ الفاصل، الذى كان فى مقدمة المكان الذى توجد فيه الفواصل (هل توجد كلمة لذلك؟ هل اسمه صندوق الفواصل؟). ولكننى لم أرد الخوض بشكل كبير ولافت عبر مواد البقالة التى ليست خاصة بى فألفت بذلك الانتباه إلى. وانتظرت حتى أصبح الفاصل أخيرًا أمامى مباشرة، فأخذته ووضعته أخيرًا خلف أشيائى، وأنا أنظر مبتسمًا للمرأة الواقفة خلفى وأنا أفعل ذلك. لقد نظرت إلىَّ مسرورة، ومتفاجئة قليلاً، وكنت مسرورًا لأنى استطعت أن أفعل هذا المعروف الصغير. لقد كانت امرأة أنيقة شقراء، وكانت تشترى زجاجة من الشمبانيا (ربما تكون أيضًا لوجبة الإفطار المتأخر فى يوم عيد الفصح؟). كانت ترتدى زيًا يشبه زى عيد الفصح، وكان رداءًا قطنيًا، أنيقًا، "مشجرًا". وكانت تبدو صغيرة السن. ربما فى نفس عمرى تقريبًا. وكان طولها أكبر من الطول المعتاد للمرأة، ربما يصل إلى ٥,١٠ قدمًا أو نحو ذلك.

ولم تستغرق المرأة التى أمامى وقتًا طويلاً أبدًا، ولقد تعلمتُ جيدًا كيف أنتظر فى الصفوف وكيف أتذرع بالصبر. عندها رآنى المحصل بولاند، قال لى "مرحبًا! كيف أحوالك؟" أو شيئًا من هذا القبيل...

لقد وصف القائم بالملاحظة عملية التحرك خلال الصف كما خبرها لحظة بلحظة، وصور تقريره مستندًا إلى سلوك الآخرين كما شاهده، وفهمه، وتفاعل معهم. وهذا النمط من الوصف يعطى القارئ مدخلاً فريدًا إلى فكر الملاحظ وعواطفه؛ فمثلاً، بينما يكون الفراغ هو الموضوع، فإنه يوضع فى إطار لا يتعلق بالمسافة وإنما بدلالاته بالنسبة للذات وللمشاعر (كقوله: "لم أرد الخوض بشكل كبير ولافت عبر مواد البقالة التى ليست خاصة بى").

وفى الاقتباس التالى، يغير الكاتب بؤرة اهتمامه من ذاته إلى الآخرين:

سوبر ماركت الولد

... لقد اخترت صفًا طويلاً. وحتى على الرغم من أن المتجر كان هادئًا، فإن منفذ الدفع السريع كان طويلاً. فلقد كان عدد من اشتروا أصنافًا قليلة فى ذلك اليوم عددًا كبيرًا. وكنت أقف خلف رجل لم يكن معه غير رغيف من الخبز. وكانت بجواره عربة صغيرة وقد ظننت أن أحدًا قد تخلى عنها وتركها (كانت تحتوى على عدة أصناف قليلة). وبعد دقيقة حضر رجل "وأوضح" أنها تخصه بأن أمسك بها. وهو فى الحقيقة لم يحاول التأكيد على أنه كان ضمن الواقفين فى الصف من قبل وعاد إليه - فمن الواضح أنه قد نسى شيئًا ما وذهب لإحضاره - ولكنه لم يحاول حتى أن يقف خلفى. ووجدت بى حاجة لأن أسأله عما إذا كان واقفًا فى الصف من قبل، ولكنى لم أشأ أن أنحيه جانبًا. فقال لى نعم إنه كان واقفًا من قبل، وحاولت أن أقف خلفه - حيث كنا نقف ساعتها جنبًا إلى جنب - وقال "وهو كذلك. إننى أعرف مكانك".

والآن أصبحت تقف خلفى سيدة مسنة. وقد وضعت مشترياتها من أصناف البقالة فى عربة صغيرة من تلك التى يميل كبار السن إلى الاستناد إلى عجلاتها فى توصيل أشيائهم إلى المنزل. لقد كانت تقلب صفحات صحيفة National Enquirer، وهى تمسك بقسيمة فى يدها. وقامت بإلقاء النظر على صفحات قليلة من الصحيفة، ثم أعادتها إلى الرف. وتوجهت ببصرى إلى الأمام نحو الشخص الذى انتهى من دفع حساب مشترياته - وكانت امرأة تشخص ببصرها باهتمام لتتأكد من السعر الخاص بكل صنف لدى ظهوره على شاشة جهاز التحصيل.

عندئذ رمقنى الشخص الذى سبق أن أردت الحديث إليه من قبل والذى كان يقف أمامى مباشرة، وكنت أظن أنه قد تخلى عن عربة مشترياته؛ رمقنى بنظرة مندهشة وتجاوزنى. ساعتها كان ينظر إلى محتويات العربة، والتقط بعض الأصناف منها باهتمام ثم أعادها للعربة مرة أخرى. وظننت أنه فيما يبدو يريد شيئًا آخر أو نسى شيئًا أيضًا. ولكنه عاد إلى عربته، واستدعى أحد مستخدمى السوبر ماركت الذى توجه إليه وأشار إلى العربة. وهنا بادر الشاب بسؤال المستخدم: "هل سبق لك أن وجدت عربة متروكة بها كل هذه الأصناف؟" فتردد المستخدم، ويبدو أنه لم يفهم السؤال، وقال لا. فقال له الشاب "انظر ماذا يوجد هنا؟ هذه علبة ألبان للأطفال [علب لبن مجفف للأطفال الرضع]. هذه ليست سوى طعام الفقراء. وانظر إلى هذا [أداة تنظيف نحاسية]؟ إنهم يستخدمونها لتدخين الشيشة". فنظر المستخدم باستغراب. وقال الشاب: "إننى أعجب. هذا شئ مميز جداً لهذه المنطقة". فقال المستخدم: "إننى أعيش هنا وليس لدى علم بذلك". وقال الشاب: "ألم تشاهد القناة ٢٨ الليلة الماضية؟" فرد المستخدم: "لا"، فقال الشاب: "لقد قدموا تقريراً عن المشكلات الداخلية للمدينة". فقال المستخدم وهو يمشى مبتعداً: "لقد شاهدت قناة ناشيونال جيوجرافيك(*) فقط، الساعة التى يقدمها المذيع ماك نيل – ليهرر". وواصل ابتعاده...

وفى غضون ذلك كان الرجل صاحب رغيف الخبز قد انتهى من دفع حسابه. ولما انتظر قليلاً ليأخذ الباقى (الفكة) بادره الشاب قائلاً: "كل هذا الوقت الطويل لدفع ثمن رغيف من الخبز". فرد عليه الرجل قائلاً "نعم"، وأضاف مداعبًا (وهو ينظر إلى المحصل أثناء قوله ذلك، كما لو أنه يريد أن يعرف رد فعله)، "هؤلاء المحصلون بطيئون". ولم يبد المحصل أنه قد سمع

(*) قناة تبثها مجلة National Geographic العالمية الشهيرة، وتبث مواداً ثقافية عن البلاد والمناطق السياحية. (المراجع)

ذلك. وغادر الرجل صاحب رغيف الخبز، وبدأ الشاب الذى أمامى يدفع مشترياته الآن. وقال للمحصل، "ما الخبر، أهذه هى نهاية نوبة عملك؟ أليس لديك روح دعابة؟" فأجابه المحصل "لا. أنا متعب". فقال له الشاب: "إنى أسمعك". وعندئذ قال الشاب لعامل التعبئة: "من فضلك يا "جاكوب" هلى يمكننى أن آخذ شنطة بلاستيك من فضلك؟" (وقد أبدى حرصًا على استخدام اسم عامل التعبئة)؟ فاستجاب "جاكوب" لطلبه، ولكنه لم يظهر علامة أخرى تدل على أنه قد سمع الرجل. بقى الشاب فى انتظار إكمال مهمته. كان جالسًا على السور، وهو يغنى مع الكلمات التى تنبعث من آلة الموسيقى... شيئًا من أغانى بيبو برايسون. وفرغ الشاب من عملية الدفع، فقال لعامل التعبئة شكرًا، وتمنى له عامل التعبئة يومًا طيبًا.

وقال لى المحصل، "كيف حالك؟"...

لقد صور الملاحظ نفسه فى هذه المذكرات منذ البداية صاحب الدور البارز فى الصف، ولكنه استطاع أيضًا أن يترك خشبة المسرح ليلقى الضوء على شخصية أخرى تقول وتفعل أشياء مبهرة أثناء فترة الانتظار لدفع المشتريات. لقد أصبح هذا الصف نموذجًا مصغرًا للمجتمع المحلى، يتميز أولاً بالتفاعل الذى يحدث بين الواقفين فيه، لينضم إليهم عندها أحد العاملين بالمتجر، ويبلغ الأمر ذروته بالتفاعل بين الملاحظ وبين المحصل وعامل التعبئة.

وعلى هذا فإن الوصف الوارد فى المذكرة ليس مجرد عملية تدوين "وقائع ما جرى" بصورة سلبية. وإنما تتضمن هذه الكتابة عمليات إيجابية من التفسير واستخلاص المعنى: كملاحظة بعض الأشياء وتدوينها على أنها "ذات دلالة"، وملاحظة أشياء أخرى ثم تجاهلها على أساس أنها "ليست دالة"، وإغفال أشياء أخرى من المحتمل أن تكون لها دلالاتها، إغفالاً تامًا. ونتيجة لذلك، فإن الأحداث المماثلة (بل حتى الأحداث "ذاتها") يمكن أن توصف لأغراض مختلفة، بدرجات مغايرة من الإحساس والاهتمام.

ويهمنا في هذا الصدد، أن ندرك أن المذكرات الميدانية إنما هي كتابة عن الحياة الاجتماعية والخطاب الاجتماعي. ومن شأن مثل هذه الكتابات أن تخفض الفوضى والاضطراب في الحياة الاجتماعية وتحولها إلى كلمات مكتوبة يمكن مراجعتها، ودراستها، والتفكير بشأنها تارة بعد أخرى. وقد وصف جيرتز (١٩٧٣: ١٩) هذه العملية – التي تمثل في رأيه لب العملية الإثنوجرافية – في الكلمات التالية: "إن الباحث الميداني الذي "يصف" الخطاب الاجتماعي إنما هو يحوله إلى كلمات. وهو بذلك يحولها من مجرد أحداث عابرة – ربما يكون وجودها لحظيًا – إلى تقرير يظل موجوداً في صورته المدونة ويمكن مراجعته وإعادة النظر فيه".

وتمثل المذكرات الميدانية – كوثيقة مدونة – محصلة وانعكاسًا للطرق المتعارف عليها لتحويل الأحداث، والأشخاص، والأماكن التي يشاهدها الباحث إلى كلمات على الورق(٨). وتتضمن عملية التحويل هذه عمليات اختيار لا يمكن تجنبها؛ فالباحث الميداني يكتب عن أشياء وبالتالي "يسقط" حتمًا أشياء أخرى. ولكن الأهم والأكثر دلالة أن المذكرات الميدانية لا تستطيع إلا أن "تصف" أو "تبرز" بعض الأشياء بطرق معينة، "متجاهلة" طرقًا أخرى في وصف الأحداث كان يمكن استخدامها. والواقع أن هذه العروض التي يقدمها الباحث الميداني إنما تعكس وتجسد ما لديه من أحاسيس، ومعان، ودلالات، قد توفر عليها خلال معايشته الأحداث التي يصفها ومشاركته فيها.

وهناك طرق أخرى تعمل كذلك على تخفيض الخطاب الاجتماعي من أحداث حية إلى صورة مكتوبة. فالاستبيانات المسحية، مثلاً، تسجل "إجابات" على أسئلة معدة سلفًا، فتخفض أحيانًا تلك الإجابات إلى أرقام، وأحيانًا أخرى تحافظ على جانب من كلمات المبحوثين ذاتها. أما بالنسبة للتسجيلات المسموعة المرئية، والتي يبدو أنها تسجل وتحفظ كل ما يحدث أمامها من عمليات تفاعل، فإنها لا تستطيع في الحقيقة إلا الإمساك بشريحة من الحياة الاجتماعية التي تتدفق أمامها. فما يتم تسجيله يتوقف في المقام الأول على: متى، وأين، وكيف يكون وضع جهاز الفيديو وكيف يتم تشغيله، وما الذي يستطيع الجهاز أن يسجله أوتوماتيكيًا، وأخيراً كيف يستجيب الأفراد الذين يُسجل لهم لوجود هذا الجهاز.

ثم يحدث مزيد من الاختزال – أو التخفيض – عندما يقدم ذلك القطاع الصغير الذى تم تسجيله من الخطاب الحى فى صورة سطور متتابعة ضمن "نص مدون". ذلك أن الحديث فى المواقف الاجتماعية إنما هو "حدث يتم عبر عدة قنوات"، أما الكتابة فهى "بطبيعتها تتم فى خط واحد، ولذلك لا تستطيع أن تتعامل إلا مع قناة واحدة فقط من تلك القنوات المتعددة فى نفس الوقت. لأنه عليها أن تنتقى وتختار من بين الخطوط العديدة المتاحة للعرض المدون" (Walker 1986: 211).

فالنص المدون – إذن – يختار أبعاداً ومضامين معينة من الخطاب ليضمنها ما هو مكتوب، وفى مقابل ذلك يتجاهل أبعاداً ومضامين أخرى. ومما يتجاهله النص المكتوب مثلاً: الإشارات والتلميحات غير اللفظية بشأن بعض المعانى المحلية كنظرة العين، والإيماءة، ووضع الجسم أو أجزائه. لهذا نجد الباحثين الذين يدرسون أنواع الأداء الشفاهى يبذلون جهداً هائلاً فى وضع نظم تدوين خاصة لتوثيق كل المواد الشفاهية وكذلك جانبًا – على الأقل – من عملية الاتصال غير اللفظية. ولهذا يقال إن نوعية النص الفولكلورى المدون تكون ذات أهمية حاسمة لأنها "تقدم لنا الأداء بوسيلة مختلفة عن تلك التى أُدى بها" (Fine 1984: 3). فالنص المدون ليس بحال من الأحوال أداء حرفيًا للخطاب، لأنه "يقدم لنا ... ترجمة تحليلية وانتقاء معينًا" من الكلام والأفعال (Psathas and Anderson 1990: 75).

معنى هذا أن النص المدون ليس سوى ثمرة قرارات يتخذها المدون باستمرار – ذات طبيعة تفسيرية وتحليلية – بشأن عدد من الأمور الإشكالية، مثل: كيف يحول الكلام الذى ينساب طبيعيًا إلى كلمات محددة بعينها (مثلاً فى مقابل نبرات الكلام الطبيعية)، متى تضع نقطة وسط الكلام لتشير إلى اكتمال عبارة أو جملة (حيث أن الكلام العادى يتدفق دون حدود فاصلة واضحة تفيد مثل هذا التقسيم)، أن تقرر أو تمتنع عن أن تصور فى نصك المدون بعض الأمور مثل: الصمت المؤقت أو السكوت، والأصوات أو الكلمات المتداخلة، أشكال التأكيد على إيقاع الحديث وعلى قوة الصوت، والأصوات أو الكلمات التى يتعذر سماعها بوضوح أو يتعذر فهمها[٩]. ويمكن القول على وجه الإجمال أن جميع وسائل ومعدات التسجيل – بما فيها تلك التى يدعى بعض

الباحثين أنها الأقرب إلى تقديم "تسجيل موضوعي" – تُدخل بالضرورة بعض صور الاختزال على التعقيد الحي للحياة الاجتماعية لا يختلف من حيث المبدأ عن تلك الاختزالات التي تحدث عند تدوين المذكرات الميدانية(١٠).

فإذا سلمنا بوجود شكل من أشكال الاختزال أو التخفيض يلازم أي وسيلة من وسائل التدوين، فإن اختيار وسيلة التدوين إنما يعكس الفروض الأساسية التي يؤمن بها الباحث بشأن الحياة الاجتماعية وكيفية فهمها. فالعمل الميداني وخاصة المذكرات الميدانية تنهض على رؤية معينة للحياة الاجتماعية يعمل البشر – دون هوادة – على تطويرها على نحو إبداعي، وذلك من خلال ما يبذلونه من جهد في بلورة معاني أفعالهم وأفعال الآخرين، وربط كل فعل بمعنى معين. وبهذا المفهوم يمكن أن يكون من المفيد استخدام المقابلة(*) والتسجيل للوقوف على تلك المعاني. ولكن المقابلة لا يمكن أن تكون أداة مفيدة إلا حيث تكون لدى المشاركين (المبحوثين) الرغبة والقدرة على وصف تلك الجوانب من الحياة الاجتماعية. كذلك يمكن أن يقدم جهاز الفيديو تسجيلاً قيمًا لما يقال من كلمات وما يصدر من إيماءات وحركات.

(*) تعد المقابلة (خاصة المتعمقة) واحدة من الأدوات الهامة التي يستخدمها الباحث في العلوم الاجتماعية، كما يستخدمها المواطن العادي أيضًا، فكل فرد منا قد استخدم هذا الأسلوب من وقت لآخر. يبدأ هذا الأسلوب بسؤال شخص ما مجموعة من الأسئلة العامة، وعندما يتلقى إجابته فإنه يتتبع نقاطًا معينة عن طريق طرح أسئلة أكثر تحديدًا، إلى أن يصل إلى حد "فهم" الموضوع برمته. وتعد المقابلة – كأداة استكشافية – أسلوبًا لتحديد نوعية البيانات الهامة لدراسات لاحقة. ولكن مع ذلك فإنه يمكن أن تصبح هدفًا في حد ذاتها – بمعنى أن تصبح أسلوبًا للحصول على بيانات مفصلة عن أنماط من السلوك الاجتماعي أو تفسيرات معينة لهذه الأنماط من السلوك. والمقابلة هي التي تمكن الباحث من أن يسبر أغوار مشاعر فرد معين تجاه ظاهرة اجتماعية معينة وجوانب تعريفه بها، وكيفية ربطه لها بمجالات أخرى في حياته الاجتماعية، فسوف يكشف المبحوثون في الغالب عن أحكامهم بشأن اتجاهات الآخرين، وكيف تؤثر هذه الاتجاهات على اتجاهاتهم الخاصة وسلوكهم الخاص. ويمكن عن طريق المقابلات التعرف على الذكريات المتعلقة بالحوادث الماضية خاصة إذا ما أعطى المبحوثون وقتًا كافيًا لاسترجاع الحوادث الماضية ووضعها في سياق معقول. ويمكن النظر إلى المقابلة المتعمقة على أنها تشبه حملة الصيد، وذلك لأن عالم الاجتماع يجريها للحصول على بيانات عن موضوع لا يعرف عنه سوى القليل، ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يسأل أسئلة مقفلة أو مقننة. (المراجع)

ولكن روح العمل الميدانى تؤكد أنه لكى نفهم التصرفات والأفعال فهمًا كاملاً من منظور أصحابها؛ يتعين على الباحث أن يقترب ويشارك فى قطاع مستعرض من أنشطة الحياة اليومية على امتداد فترة زمنية ممتدة. ويؤكد فان مانن (IX:١٩٨٨) أن "الإثنوجرافيا هى تلك الممارسة المميزة لتصوير الواقع الاجتماعى للآخرين من خلال تحليل خبراته الخاصة التى عاشها فى حياة أولئك الآخرين". والمذكرات الميدانية أداة مميزة لبلورة وتسجيل الرؤى والمعانى التى تثيرها تلك الخبرات الوثيقة الممتدة. وهكذا نلاحظ أن المذكرات الميدانية يمكن – فى بعض الأحيان – أن تسجل بشكل غير مكتمل بعض الرؤى والمعانى التى وقف عليها الباحث الميدانى من خلال انخراطه الوثيق فى عالم آخر، عن طريق ملاحظاته للأنشطة اليومية المعتادة والأزمات الطارئة، ومن خلال المواجهة المباشرة للطوارئ والقيود التى تفرضها الحياة اليومية لجماعة من الناس تختلف عنه. فالحقيقة أن ذلك الانغماس العميق – والإحساس بالمكان الذى يتم به هذا الانغماس ويدعمه – هو الذى يتيح للباحث الميدانى تدوين المذكرات الميدانية المفصلة، الأمينة على مراعاة سياق الأحداث، والتى تتسم بالدراية الصحيحة بأحوال الجماعة؛ وهى المذكرات التى أسماها جيرتز (١٩٧٣) "الوصف المكثف".

كما أن اعتماد المذكرات الميدانية هذا على الخبرات الواقعية يتجلى كذلك فى التغيرات التى تطرأ بمرور الوقت على مضمونها وعلى مرتكزاتها. فالمذكرات الميدانية تنمو من خلال التراكم التدريجى، حيث تضاف المادة التى تدون فى يوم إلى المادة التى تدون فى اليوم التالى. والباحث الميدانى يكتب مذكراته الميدانية الخاصة بأساليب ليست محددة أو مقررة سلفًا، ولذلك لا تكون المذكرات الميدانية تجميعات أو عينات بالصورة التى يمكن أن نجدها فى التسجيلات الصوتية، حيث تكون مسجلة وفقًا لمجموعة من المعايير المحددة سلفًا. فاختيار الأشياء التى تدون فى المذكرات ليست عملية اختيار عينات وفقًا لأسس أو مبادئ محددة سلفًا. وإنما المذكرات – فى الحقيقة – تخضع للحدس فى اختيار مادتها، وتخضع لتغير إحساس الباحث بما عساه يكون مثيرًا أو مهمًا للقراء المتوقع أن يطالعوا الدراسة، أو يكون محركًا للمشاعر، أو يعكس رؤية الباحث لما يراه المبحوثون – الذين يدرسهم – مثيرًا أو مهمًا.

ركائز كتابة المذكرات الميدانية

ثمة أربع ركائز ينهض عليها فهمنا للإثنوجرافيا بوصفها كتابة عن الخبرات المكتسبة من المشاركة:

١- إن الأمور التى تتم ملاحظتها واعتبارها فى نهاية المطاف "بيانات ميدانية" أو "نتائج" لا يجوز الفصل بينها وبين عملية الملاحظة ذاتها.

٢- يتعين على الباحث الميدانى عند كتابة المذكرات الميدانية أن يولى عناية خاصة للمعانى والاهتمامات التى يؤمن بها أفراد مجتمع الدراسة.

٣- تمثل المذكرات الميدانية التى يتم تدوينها بشكل فورى تمثل أساسًا وموردًا لا غناء عنه لكتابة تقارير شاملة متكاملة عن حياة الآخرين واهتماماتهم.

٤- يتعين على مثل هذه المذكرات الميدانية أن تحيط بتفاصيل العمليات الاجتماعية والتفاعلية التى تقوم عليها الحياة اليومية لأفراد مجتمع الدراسة وأنشطتهم.

استحالة الفصل بين المناهج والنتائج

تمثل أساليب المشاركة فى الحياة اليومية للآخرين والتعرف عليها أجزاء مهمة من المناهج الإثنوجرافية. وتحدد تلك "المناهج" ما يتعين على الباحث أن يراه، ويعايشه، ويعرفه. ولكن مع أن المادة الميدانية (أى: "البيانات"، أو "النتائج"، أو "الوقائع") ليست سوى ثمرة للمناهج المستخدمة، إلا أنه لا يمكن فصل المادة عن المنهج المستخدم: فما يخلص إليه الباحث الميدانى يرتبط أوثق الارتباط بكيفية توصله إليه. يترتب على هذا - إذن - أنه لا يجوز تجاهل المناهج التى استخدمت فى جمع تلك المادة. بل إنها يجب أن تمثل مكونًا أساسيًا ومهمًا من مكونات المذكرات الميدانية. لذلك يعد من الأمور الحاسمة أن يسجل الباحث كل ما قام به من أنشطة، وعايشه من ظروف، وما لقيه من استجابات عاطفية، على أساس أن تلك العوامل هى المسئولة عن تشكيل عملية ملاحظة وتسجيل أساليب حياة الآخرين(١١).

وانطلاقًا من وجهة النظر هذه يكون الفصل أو التمييز الحاد بين "البيانات الميدانية" و"الاستجابات الشخصية" من ناحية، و"المذكرات الميدانية" و"اليوميات" أو "دفاتر الملاحظات" من ناحية أخرى (Sanjek 1990c)؛ يكون أمرًا مضللاً أشد تضليل. وطبيعى أن الباحث الميدانى يستطيع أن يفصل بين ما يقوله وما يفعله من ناحية وما يرى الآخرين يقولونه ويفعلونه من ناحية أخرى، وهو يتناول أفعال الآخرين وأقوالهم كما لو كانت عديمة التأثر بأقواله وأفعاله هو[١٢]. ولكن من شأن هذا الفصل أن يشوه عمليات البحث ومعانى "البيانات" الميدانية من عدة نواح.

إذ نلاحظ أولاً أن هذا الفصل يتعامل مع تلك المادة الميدانية بوصفها "معلومات موضوعية"، ذات معان محددة مستقلة تمام الاستقلال عن كيفية استخلاصها أو التوصل إليها، وعمن قام باستخلاصها أو جمعها. وهكذا يعد كل ما يصدر عن الباحث من أفعال ومشاعر واستجابات شخصية؛ يعد مستقلاً ومنبت الصلة بالوقائع والأحداث التى تخص الآخرين (المبحوثين) والتى نطلق عليها اسم "النتائج" أو "الملاحظات" عندما ندونها فى مذكرات ميدانية.

كما نلاحظ ثانيًا أن هذا الفصل يفترض أن الاستجابات والتصورات "الذاتية" يمكن – بل يتعين – التحكم فيها عن طريق فصلها عن التسجيلات "الموضوعية" غير الشخصية.

ونتبين ثالثًا وأخيرًا أن مثل هذا التحكم يعد أمرًا ضروريًا ولازمًا كل اللزوم بسبب النظرة المتدنية إلى الخبرات الشخصية والعاطفية، والتى تمثل – إلى جانب ذلك – "قيدًا" على البيانات الموضوعية، وليست وسيلة لرؤية وفهم العمليات المهمة التى تدور فى مجتمع البحث.

من هذا يتضح أن الربط الوثيق بين المادة المسجلة فى المذكرات الميدانية والمنهج الذى اتبع فى الحصول عليها له عدة مزايا: فهو يشجعنا على أن ننظر إلى "النتائج" ليس بوصفها حقائق مطلقة وثابتة، وإنما بوصفها ثمرة الظروف التى قام الباحث الميدانى "باكتشافها" فيها. كما أنها فضلاً عن ذلك تحول – أو على الأقل لا تشجع الباحث –

على أن يسجل رواية شخص واحد لما وقع من أحداث أو لما يعد مهمًا بوصفه الرؤية "الكاملة" أو "الصحيحة" لمثل تلك الأمور. بل إن "ما حدث من أمور" ليس سوى رواية واحدة أو رؤية واحدة لشخص بعينه هى بنت لحظة معينة ومكان معين تلبية لغرض معين. وبهذه الطرق جميعًا يؤدى ربط المنهج بالمادة المدروسة إلى خلق الممارسة البحثية الميدانية التى تتسم بحساسية للجوانب الظرفية العديدة لواقع حياة المبحوثين.

التماس المعانى الكامنة فى صدور المبحوثين

فى مقابل أساليب البحث التى تركز على سلوك الآخرين دون الالتفات إلى معنى هذا السلوك بالنسبة للمنخرطين فيه؛ فى مقابل ذلك نرى أن مهمة الإثنوجرافيا هى الكشف عن المعانى الكامنة فى صدور المبحوثين ووصفها. من هنا يكون هدف المشاركة – فى النهاية – هو الاقتراب الوثيق من أولئك الذين ندرسهم، باعتبار ذلك السبيل لفهم ما تعنيه لهم خبراتهم وأنشطتهم[١٣].

فعلى الإثنوجرافيين أن يحاولوا كتابة المذكرات الميدانية على نحو يبلور ويحافظ على المعانى لدى المبحوثين. ولكى ينجح الإثنوجرافيون فى ذلك يتعين عليهم أن يتعلموا كيف ينتبهون وكيف يقللون الركون إلى التصورات المسبقة عن حياة المبحوثين وأنشطتهم. وعليهم أن يستجيبوا لكل ما يراه الآخرون مهمًا وعزيزًا من وجهة نظرهم هم. ولكنا نلاحظ أنه فى الوقت الذى تتناول فيه المذكرات الميدانية جماعة أخرى واهتمامات أفرادها وأفعالهم التى نكشف عنها من خلال الانغماس المتعاطف فى حياتهم؛ إلى جانب ذلك تعكس تلك المذكرات بالضرورة – بوضوح – فهم الباحث الميدانى الخاص لتلك الاهتمامات والأفعال. وهكذا نتبين أن المذكرات الميدانية هى وصف مدون ينقل إلينا خبرات أفراد الجماعة واهتماماتهم من خلال عينى الباحث ورؤيته الخاصة. بمعنى آخر إن المذكرات تعرض علينا رؤية الباحث – وليس المبحوثين – لخبرات أولئك المبحوثين وما يدور فى صدورهم من معان واهتمامات.

وقد يبدو لأول وهلة أن الاتجاهات النظرية الإثنوجرافية المهتمة بموضوع "تعدد الأصوات" (Clifford and Marcus 1986:15)، أو بميدان التاريخ الشفاهى وميدان الإثنوجرافيا النسوية (Stacey 1991) وهى جميعًا اتجاهات تنادى "بإتاحة الفرصة للمبحوثين ليتحدثوا عن أنفسهم"؛ يبدو لأول وهلة أن تلك الاتجاهات تستطيع أن تتجنب تدخل الباحث ولعب دور الوسيط تمامًا. ولكنا نجد فى الحقيقة أنه حتى لدى أصحاب تلك الاتجاهات مازال الباحث هو الذى يختار ما سيتم ملاحظته من ظواهر وأحداث، وهو الذى يطرح الأسئلة، وهو الذى يحدد - بصفة عامة - إطار المقابلة وطبيعتها والهدف منها؛ وذلك كله على نحو لا يمكن أن يتفادى التأثيرات الراجعة إلى عملية تدخل الباحث أى لعبه دور الوسيط بين المبحوثين وبين قراء البحث فى النهاية.

الكتابة الفورية للمذكرات الميدانية

فى مقابل الآراء التى تذهب إلى أن المذكرات الميدانية ليست - على أحسن الأحوال - سوى "عكّاز"، وهى فى أسوأ الأحوال ليست سوى غمامة الدابة(*)، فى مقابل ذلك نرى نحن أن المذكرات الميدانية هى التى تزودنا بالوسيلة الأولية والأساسية لكى ندرك بكل العمق كيف توصل الباحثون الميدانيون إلى فهم أفعال وأفكار الآخرين وترجمتها فى كلمات. فالمذكرات من هذه الناحية تمدنا بالفهم الدقيق - المركب مع ذلك - لحياة الآخرين، ونظم معيشتهم وما يرتبط بها من معان.

وقد سلفت الإشارة إلى أن الباحث الميدانى يتوصل إلى فهم أساليب حياة وفكر الآخرين بأن يصبح هو نفسه جزءًا من حياتهم تلك ويستطيع أن يعيش خبراتهم ويعبر عنها بنفس طريقتهم. ولهذا يصبح من الأمور ذات الأهمية الحاسمة أن يسجل بدقة وبالتفصيل عمليات التعلم وعمليات إعادة التنشئة هذه لحظة حدوثها ودون توان.

(*) الغطاء الذى يوضع على عينى الفرس (فى الغرب) أو الجاموسة (عندنا) لكى يحول بينها وبين النظر جانبيًا. (المراجع)

ذلك أن طول مدة البقاء فى ميدان البحث يضعف الرؤى والأفكار التى تكونت لدى الباحث لحظة الاتصال الأولى بتلك الثقافة التى كانت مجهولة بالنسبة له. فالمشاركة الطويلة تعصف بالأفكار التى تبلورت لدى الباحث فى بداية عملية تكيفه واكتشافه تلك الأمور التى تعد مهمة لدى الآخرين، كما أنها تضعف الحساسية التى تكون جلية فى البداية والتى كان يلاحظ بها أنماط الفكر والسلوك الدقيقة وعمليات التوتر الخفية المؤثرة مع ذلك على مجرى الأحداث. معنى ذلك باختصار أن الباحث الميدانى لا يتعرف على اهتمامات الآخرين وأفكارهم دفعة واحدة، وإنما عملية التعرف هذه تكون دائمًا عملية مستمرة لا تتوقف، يضطلع خلالها باكتساب فهم جديد ومتجدد وصقل تصوراته وأفكاره التى سبق أن توصل إليها وبلورها. لذلك يتعين على الباحث أن يسجل تلك العمليات المتجددة والمراحل المتتابعة، لا أن يحاول تركيبها تركيبًا جديداً فى مرحلة متأخرة فى ضوء تفسير نهائى ومكتمل لمعناها وأهميتها. وهنا تمثل المذكرات الميدانية مصدراً متميزًا لتسجيل الخبرات والحفاظ عليها بصورتها الأقرب إلى لحظة معايشتها، وهو الأمر الذى سيعمل فى النهاية على الوصول إلى فهم أعمق وتدبر أدق لتلك الخبرات.

وتصدق نفس الاعتبارات – لذلك يتعين الالتزام بها – عندما نتناول "النتائج" التى توصل إليها الباحث عن أفراد مجتمع بحثه وعن أنشطة حياتهم المعتادة. ومن هنا يكون الحرص على تسجيل تلك الأنشطة لحظة وقوعها أو معايشتها – بقدر الإمكان – للحفاظ على طابعها الفردى التلقائى فى مواجهة عمليات "الصقل" وتقديم صورة متجانسة لذكرى ما حدث. أما فى المذكرات الميدانية التى تدون بشكل فورى ومباشر فتبدو الصورة الجلية للخصائص والملامح المميزة، وسوف تزود الباحث بذكريات وصور واضحة دقيقة عندما يعاود قراءة تلك المذكرات لكى يقوم بترميزها أو تحليلها. كما أن ظهور تلك الملامح الفريدة المتميزة للمذكرات الميدانية فى ثنايا التحليل النهائى سوف يسهم فى صنع نسيج المادة الميدانية بتضاريسها وتبايناتها، فيبعدها عن التسطيح الراجع إلى التعميم.

أهمية تفاصيل العمليات التفاعلية

يجتهد الباحث الميدانى لكى يقيم علاقات وثيقة مع الآخرين يمكن أن تتيح له فرصة فهم حياتهم. وللحفاظ على هذه العلاقات الوثيقة وتصويرها بشكل جيد يتعين على هذا الباحث أن يصف المواقف والأحداث المهمة بكل تفاصيلها. وطبيعى أنه لا يمكن أن تكون هناك معايير ثابتة أو مطلقة تحدد لنا "القدر الواجب من التفصيل". أما إلى أى مدى يجوز للباحث أن يقترب وأن يصف، فإنه يتوقف على تحديد "مقدار أهمية" المواقف والأحداث للبحث. فتلك أمور يختلف مداها حسب الموقف، وتبعًا لشخصية الباحث، وتوجهاته، وتخصصه. ومع ذلك يحرص أغلب الدارسين الإثنوجرافيين على الاهتمام بملاحظة بعض الوقائع عن قرب وبتدقيق ينتبه للتفاصيل (Geertz 1973: 20-23)، كما يحرص عند كتابة مذكراته الميدانية على سرد "ما حدث" بأدق التفاصيل.

وبغض النظر عن هذا الميل إلى "الحرص على التفاصيل الدقيقة"، فإن توجهنا التفاعلى يدفعنا إلى حث الكتاب على التزام التفاصيل الدقيقة والحرص عليها عند كتابة تقارير عن علاقات التفاعل.

- والسبب فى ذلك – أولاً – أن تفاصيل العلاقة التفاعلية من شأنها أن تُكسب الباحث حساسية عند تتبع وتحليل طبيعة التداخل الذى أشرنا إليه بين المادة الميدانية والمنهج الذى اتبع فى الحصول عليها. ولما كان الباحث الميدانى يتوصل إلى معرفة الآخرين عن طريق التفاعل معهم، فإنه يصبح من المهم أن نلاحظ بكل دقة وتفصيل تسلسل الوقائع والملابسات التى تؤدى إلى مثل هذه التفاعلات.

- ثانيًا: من شأن حرص الباحث على تفاصيل التفاعل أن يجعله أقدر على أن يتعرف ويتابع طبيعة العمليات التى تتم فيما يعايشه من أحداث، وأقدر كذلك على أن يبلور ويوضح تفسيرات لإجراءات الأحداث فى الميدان. ومن هنا تأكيدنا على أن البحث الميدانى هو القادر على توثيق الحياة الاجتماعية كعملية، أى

كمجموعة من المعانى التى تنبثق وتستقر بفعل التفاعل الاجتماعى (Blumer 1969). ولذلك فإن الاهتمام بتفاصيل التفاعل الإنسانى يزيد من قدرات الباحث على أن يرى ما يدور وراء الكيانات الثابتة المحددة، بما يتيح فهم الأداء "الفعلى" للحياة الاجتماعية. ولذلك قلنا ونقول إن كتابة المذكرات الميدانية بشكل فورى وبأكبر قدر من التفاصيل لحظة وقوع الأحداث التى تهمنا هى التى ستيسر لنا إعداد وصف مفصل لعمليات التفاعل التى تتم بين أفراد الجماعة الاجتماعية والتى ترسخ الأوضاع الاجتماعية المميزة لتلك الجماعة المحلية.

أفكار للتأمل: كتابة المذكرات الميدانية

وممارسة البحث الإثنوجرافى

البحث الإثنوجرافى (الميدانى) فى جوهره نشاط إيجابى، تتجسد إيجابيته فى محورين اثنين: فمن ناحية يتعين على الباحث الإثنوجرافى أن ينفذ إلى عالم جديد عليه وأن ينخرط فى علاقات جديدة مع أفراده. ثم عليه – من ناحية أخرى – أن يصور فى شكل مكتوب كل ما يجرى أمامه وتحت ناظريه وأن يفهمه على حقيقته بفضل خبراته تلك فى هذا المجتمع الجديد.

ومن اليسير الفصل فصلاً واضحًا بين تلك الأنشطة والمهام، أى بين ممارسة البحث الميدانى من ناحية، وكتابة المذكرات الميدانية من ناحية أخرى. وأخيراً يتعين على الباحث – أثناء وجوده فى الميدان – أن يختار فى كل مرة بين "الاشتراك فى الحوارات التى تتم فى أماكن غير مألوفة" (Lederman 1990: 72)، أو ينسحب ليخلو إلى نفسه فى مكان ما ليدون تلك الحوارات ويكتب وصفًا للأحداث التى شاهدها. وبهذا الفهم "للإثنوجرافيا الحقيقية" كوقت ينفق فى الحديث مع المبحوثين وفى الاستماع إليهم، قد نجد كثيراً من الباحثين الذين لا يبالغون فقط فى هذا التمييز فى المهام، وإنما قد يعمد بعضهم كذلك إلى التقليل من أهمية كتابة المذكرات كمكون أساسى من

مكونات العمل الميدانى. "فالعمل" (أى البحث) و"الكتابة" يجب ألا ننظر إليهما كنشاطين منفصلين متمايزين، وإنما هما نشاطان مترابطان جدليًا ومتداخلان تداخلاً تامًا. فالكتابة تصف ما حدث أثناء المواجهات المباشرة مع الآخرين فى الميدان، فهى بذلك لب البحث الإثنوجرافى وجوهره. وهى - كما يقول جيرتز: "إن الباحث الإثنوجرافى "يكتب" الخطاب الاجتماعى؛ إنه يدونه على الورق" (Geertz 1973: 19). فعملية الكتـابة هذه - أو تدوين المذكرات الميدانية - هى التى تعين الباحث على ما كان يقوم بملاحظته أصلاً، ومن ثم تمكنه من أن يشارك بطرق جديدة، وأن يستمع برهافة أكبر، وأن يلاحظ بعينين جديدتين.

ومع أن الباحثين الميدانيين أخذوا يدركون - بشكل متزايد - أهمية الكتابة لمهمتهم البحثية، إلا أنهم كثيراً ما يختلفون حول تشخيص طبيعة الكتابة وتحديد علاقتها بالبحث الميدانى. فقد وجه بعض علماء الأنثروبولوجيا النقد إلى مفهوم جيرتز عن "الكتابة"، على أساس أنه يتسم - فى رأيهم - بأنه شديد الآلية ومبالغ فى تبسيط الأمر، وأنه يتجاهل أن الإثنوجرافى لا يكتب عن "حدث عابر"، وإنما هو "يكتب عن خطاب أو عن مادة ذات طبيعة محددة وثابتة". ولذلك يرون أن الأجدر أن تسمى الكتابة "تسجيلاً" (Clifford 1990: 57). كما انتقدوا "الكتابة" لأنها أسيرة التصورات المعروفة عن "إثنوجرافيا الإنقاذ"(*)، التى كانت سائدة أيام فرانز بواس(**)، الذى كان شديد

(*) فى بدايات ازدهار العلم الأنثروبولوجى، بوصفه دراسة للثقافات "الأمية" أو "البسيطة" أو "البدائية"...إلخ كانت تسيطر فكرة جمع كل ما يمكن من محتوياتها قبل أن تقضى عليها رياح التغير الاجتماعى العاتية. (المراجع)

(**) فرانز بواس F. Boas (١٨٥٨-١٩٤٢) من أبرز رواد العلم الأنثروبولوجى فى الولايات المتحدة. يتبلور إسهامه الأكبر فى نقده ميل الأنثروبولوجيين الأوائل إلى استخلاص تعميمات غير ناضجة اعتماداً على التاريخ الظنى والشواهد غير المؤكدة، ودافع فى مقابل ذلك بجدارة عن جمع المادة الإثنوجرافية بشكل فاحص ومدقق قبل التوصل إلى وضع أى تعميم. وعلى خلاف المفكرين التطوريين الأوائل الذين أكدوا على أوجه التشابه الثقافية العامة، شدد بواس على حقيقة الاختلافات والخصوصيات فى كل ثقافة كنتيجة لتطورها التاريخى المتميز والمستقل. راجع المزيد فى: شارلوت سيمور- سميث، موسوعة علم الإنسان. المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية، ترجمة مجموعة من الأساتذة بإشراف محمد الجوهرى، الطبعة الثانية، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩. (المراجع)

الحرص على "تسجيل" الثقافات الشفاهية قبل أن تختفى هى ولغاتها وعاداتها (Clifford 1986: 113).

بل إن علماء الإثنوجرافيا طرحوا عدداً من الأساليب البديلة لفهم طبيعة الكتابة الإثنوجرافية. فكثيراً ما نجد علماء الأنثروبولوجيا يستخدمون مصطلح "ترجمة" (أو "الترجمة الثقافية") باعتبار أن تلك الترجمة هى رواية عن ثقافة ما بحيث تكون مفهومة لقراء ينتمون إلى ثقافة أخرى. أما كليفورد (١٩٨٦) وماركوس (١٩٨٦) فيستخدمان مصطلحًا أكثر تجريداً هو "إعداد النص" للدلالة على العملية الأصيلة التى بمقتضاها تقوم الإثنوجرافيا "بترجمة الخبرة إلى نص" (Clifford 1986: 115). أما بعض علماء الاجتماع، وفى مقدمتهم ريتشاردسون (١٩٩٠) فيصفون جوهر الكتابة الإثنوجرافية بأنه "سرد".

ولعله يمكن القول بوجه عام أن تلك الاتجاهات جميعًا تمزج بين كتابة نص الدراسة الميدانية (النهائى) وكتابة المذكرات الميدانية الإثنوجرافية، الأمر الذى يجعلها تخفق فى إلقاء الضوء الكافى على العمليات والملامح الأساسية لإعداد المذكرات الميدانية. ومع ذلك فإن كل اتجاه منها له دلالات وأبعاد تتصل بالكتابة الفورية عن الأحداث التى يعايشها الباحث فى الميدان:

- فنلاحظ – أولاً – أن مصطلح الترجمة ينطوى على عملية إعادة صياغة مجموعة من المفاهيم والمصطلحات من سياق إلى آخر، حيث يبحث الإثنوجرافى عن مفاهيم مقارنة ومصطلحات مناظرة بين السياقين (المنقول منه والمنقول إليه). ومعنى ذلك أن الباحث وهو يدون المذكرات الميدانية إنما يقوم دائمًا بترجمة ما يراه إلى نص مكتوب وتفسيره، حتى ولو كان يكتب تلك المذكرات لنفسه وليس لجمهور عريض. ومن الطبيعى أن هذا الباحث وهو يؤلف النص النهائى لدراسته لا يكتفى بترجمة المفاهيم فحسب، وإنما يقوم بترجمة أسلوب حياة

بأكمله لجمهور يتوقع أن يقرأه فيما بعد، وهو جمهور قد لا يكون على أى دراية بذلك العالم الذى تتحدث عنه الدراسة.

- نلاحظ - ثانيًا - أن مصطلح "السرد" كثيراً ما يعبر بشكل صحيح عن عملية كتابة الخبرات - التى عاشها الباحث فى يومه - فى صورة موضوع فى مذكراته الميدانية. غير أننا نلاحظ أن بعض خبرات الحياة لا تصلح تمامًا للعرض فى إطار قصصى متماسك؛ ومعنى ذلك أن السرد يمكن أن يتعسف فى تضمين علاقة غير محددة أو بعض العلاقات المنفصلة عن بعضها؛ تضمينها فى سياق مترابط متماسك. وهكذا نتبين أنه على الرغم من أن كثيراً من المذكرات الميدانية تحكى وقائع اليوم الذى تتناوله فى صيغة قصصية، إلا أن إعادة ترتيب الوقائع نفسها فى تسلسل تتابعها الزمنى سوف يكشف أن معظم الموضوعات تفتقر إلى بنية عامة تجمعها فى إطار سردى يحمل وجهة نظر محددة.

- ونجد - ثالثًا وأخيرًا - أن مصطلح إعداد النص يركز تركيزاً واضحًا على مجمل عملية تحويل الخبرة المعاشة إلى نص، ليس فقط فى الدراسة الإثنوجرافية النهائية؛ وإنما فى كتابة المذكرات الميدانية على وجه الخصوص. بل إن عملية التحويل إلى نص هذه تتم أثناء عمليات الكتابة المبدئية والمختلفة فى الميدان، قبل أن تحدث فى الدراسة فيما بعد. هذا فضلاً عن أن تلك المذكرات الميدانية تمثل صورة أولى للنص العلمى النهائى.

ويمكن القول إجمالاً أن عملية كتابة المذكرات التى تتسم بالسيولة والاستمرار تذكرنا بكل تلك التصورات الثلاثة جميعًا. ولأن المذكرات ليست أبداً مجرد عملية وصف للعالم، فإنها تمثل شيئًا أكثر من تسجيل الملاحظات. فهى فى جوهرها ترسم صورة لأسلوب حياة من خلال اختيارات الكتابة التى يتخذها الباحث الميدانى، ومن خلال

القصص التى يرويها . فهو من خلال هذه الكتابة ينقل فهمه وتصوراته لجمهور متوقع من القراء لا يعرفون تلك الحياة، ولا هؤلاء الناس، ولا تلك الأحداث. وهو ما يعنى - بوضوح - أن الباحث فى كتابته للمذكرات لا يقتصر فقط على مجرد تحويل الأحداث إلى كلمات. وإنما هذه الكتابة عملية تفسيرية، أو هى أول فعل فى عملية إعداد النص النهائى للدراسة. فكتابة المذكرات الإثنوجرافية التى كثيراً ما تبدو محجوبة عن الأنظار هى أساس عملية إعداد النص، حيث تخلف على الورق عالماً كاملاً من الحيـاة، وحيث تعمل فى النهاية على تشكيل النص الإثنوجرافى النهائى المنشور.

الفصل الثانى

الباحث فى الميدان: مشاركًا وملاحظًا ومدونًا للمذكرات الميدانية

يسعى الباحثون الإثنوجرافيون إلى أن يقدموا – فى نهاية عملهم – وصفًا لما شاهدوه، وسمعوه، وعايشوه فى الميدان. ولكنا نجد أن الباحثين المختلفين – بل ونفس الباحث فى مختلفة مراحل حياته – يحولون تلك الخبرات والملاحظات إلى نصوص مكتوبة بطرق شتى. فبعضهم يغالى فى الانغماس فى الأنشطة المحلية وفى معايشة الآخرين حياتهم، فيؤجلون عامدين الانشغال بمهمة إعداد تسجيل مدون لتلك الأحداث والخبرات. وفى الميدان يقرر الباحث لنفسه: أين يذهب، وماذا يشاهد، وعما يطرح أسئلته، وماذا يقول...إلخ بحيث يستطيع أن يعايش معايشة كاملة تلك الحياة الأخرى بكل اهتماماتها. من هنا قد يشارك فى بعض الأحداث دون حرص كبير – أو دون حرص إطلاقًا – على أن "يدون" ما يراه، أو حتى "يلاحظه" بطريقة محايدة فيها انفصال عما يجرى. ولو أن الباحث الإثنوجرافى الذى يعيش فى ميدان البحث – وليس فى مجرد زيارة – خاصة فى إحدى الثقافات غير الغربية حيث لا تكون له ألفة باللغة وبإيقاع الحياة اليومية؛ هذا الباحث لا يكون أمامه سوى المشاركة بشكل كامل فيما يدور أمامه من أحداث، مرجئًا بذلك كل انشغال بالكتابة فى الميدان بشكل فورى. وقد تجد الباحثة المرأة التى تدرس أوضاع المرأة المحلية فى أفريقيا مثلاً؛ قد تجد نفسها تساعد النساء فى إعداد الخضروات للطهى، وتشترك فى رعاية أطفال الأسرة الصغار،

مما لا يترك لها فسحة كافية من الوقت لإعداد مذكرات ميدانية مفصلة. ولكنها مع ذلك تكتسب من خلال تلك المشاركة القدرة على أن ترى بكل وضوح كيف تؤدى النساء أعمالهن معًا، ويتسامرن أثناء ذلك، ويعتنين بالأطفال. ولعلها يمكن أن تلاحظ فيما بعد، ومن خلال تأملها لما عايشته من خبرات، ما جرى عليها هى نفسها من تغيرات غير ظاهرة بسبب معايشتها أولئك النسوة ومشاركتهن ما يقمن به من أنشطة.

والباحثون الذين يتبعون هذا الأسلوب يعلون من قدر الارتباط بشكل طبيعى بأفراد مجتمع الدراسة، فهم يركزون جهودهم فى الواقع على الوقوف - بشكل كلى ومتعمق - على ما يفعله أولئك الناس فى الحقيقة. من هنا يؤجلون أى استغراق فى كتابة المذكرات الميدانية (وفى الحالات المتطرفة يقللون من هذه الكتابة إلى أدنى حد، أو يتجنبوها كلية) باعتبار أن الانشغال بهذا يمكن أن يضعف الأفكار والرؤى المعاشة التى يمكن أن يتوصلوا إلى معرفتها وفهمها من خلال الانغماس فى عالم اجتماعى آخر(١). وفى مرحلة لاحقة من العمل يتجه الباحث الإثنوجرافى إلى الاضطلاع بمهمة استدعاء خبراته وتأملها تمهيداً للكتابة عنها.

ولكن الباحث الميدانى يمكن - أيضًا - أن يشارك فى الأحداث التى تدور أمامه بطرق تنطوى على الكتابة بشكل مباشر وفورى. ففى مثل هذه الحالات يحرص الباحث على "الحصول على مكان مناسب" يستطيع منه أن يلاحظ الأحداث الطريفة والمهمة بوضوح بحيث يستطيع أن يسجلها على الورق تفصيلاً. ونتيجة لهذا تكون المشاركة فى الأحداث التى تتم بشكل طبيعى موجهة بوضوح نحو كتابة المذكرات الميدانية. وفى الحالات المتطرفة من هذا التوجه يقوم الباحث الميدانى واعيًا بملاحظة الأحداث والوقائع التى يتحتم وصفها لأغراض البحث، ولهذا يتخذ موقفًا من تلك الأحداث يمكنه من أن يلاحظ ويكتب. وقد يتبنى موقفًا واضحًا من الأحداث مضمونه: "ما هى الأشياء المهمة التى يمكن تذكرها والكتابة عنها لاحقًا".

ولكل أسلوب من أسلوبى المشاركة نقاط قوته ونقاط ضعفه. فالأسلوب الأول يتيح فرصة الانغماس الشديد فى الأحداث اليومية والاهتمامات العادية، فيزيد بذلك درجة

انفتاح الباحث على أساليب حياة الآخرين. أما الأسلوب الثانى فقد يمكننا من تسجيل تفاصيل تلك الحياة بكل تفاصيلها وعلى نحو شديد القرب من لحظة وقوع الحدث. ونجد فى الممارسة البحثية أن معظم الباحثين الميدانيين يستخدمون كلا الأسلوبين فى هذه اللحظة أو تلك. حيث نجدهم فى بعض الأحيان يشاركون فيما يدور أمامهم دون تفكير فى الكتابة الفورية عما يحدث، وأحياناً أخرى يركزون على بعض الأحداث لكى يكتبوا عنها. بل إن الباحث قد ينتقل من أسلوب إلى آخر حسب مجرى الأحداث التى تدور أمامه. ففى بعض المواقف الاجتماعية التى يجد الباحث نفسه مشاركاً فيها قد يتبين دلالة نظرية مهمة لإحدى الخبرات أو الممارسات اليومية العادية. وعلى العكس قد يجد أحد الباحثين القائم بملاحظة غير مندمجة مركزاً على الاهتمام بالكتابة وتسجيل ما يجرى؛ قد يجد نفسه فجأة مدفوعاً دفعاً إلى مركز ذلك النشاط مباشرة[٢].

وفى كلا الأسلوبين يكتب الباحثون مذكراتهم الميدانية على نحو وثيق القرب – على نحو أو آخر – من الأحداث التى يعايشها أو يشارك فيها؛ وذلك تأسّياً بروح الإثنوجرافى الذى قال: "الأنثروبولوجيون هم أولئك الذين يكتبون الموضوعات فى نهاية كل يوم" (Jackson 1990 b: 15).

وفى طريقة تجميع الخبرات والحرص عليها يتم إرجاء الكتابة لبضع ساعات أو حتى لعدة أيام، إلى ما بعد أن يترك الباحث الميدان، ويجلس إلى دفتر أوراقه أو إلى كمبيوتره ليكتب عن الأحداث المهمة التى عايشها، وذلك اعتماداً على ذاكرته وحدها[٣]. أما فى أسلوب المشاركة من أجل الكتابة، فإن مهمة الكتابة – أو على الأقل الرغبة فى الكتابة – تبدأ مبكراً عن ذلك. فهى تبدأ مع الباحث وهو فى قلب الميدان، ربما فى قلب المحادثات والسلوكيات التى ينوى الكتابة عنها. وقد لا يكتفى الباحث بعمل بعض المذكرات الفكرية أو "المذكرات الذهنية"[٤] لكى يضمّن بعض الأحداث فى مذكراته المفصلة، ولكنه قد يعمد كذلك إلى تدوين بعض الكلمات أو الجمل المختصرة – فى صورة ملاحظات موجزة أو مذكرات أولية – لاستخدامها عند كتابة المذكرات المفصلة فى النهاية.

كما نلاحظ أيضًا أن الباحثين فى كلا الحالتين يهتمون أكبر الاهتمام بنوعية العلاقات التى يقيمونها مع الناس الذين يودون التعرف عليهم وفهمهم. وبالنسبة للباحثين الذين يفضلون الاقتراب من خبرات الآخرين وعوالمهم وأنشطتهم بطريقة طبيعية وصريحة، نجدهم يحرصون على عدم إقحام الكتابة على هذه العلاقات حتى لا تؤثر على مجراها. وهم بذلك لا يكتفون بالحرص على عدم الانفصال عن عالم الآخرين وخبراتهم، وإنما يفعلونه اعتقاداً منهم أن التزامات عمليات الكتابة والبحث يمكن أن تخلق إحساساً بخيانة أولئك الذين عايشوهم وشاركوهم كل خصوصيات حياتهم.

فى مقابل ذلك نلاحظ أن الباحثين الذين يشاركون لكى يكتبوا، يتابعون مهما عملهم البحثية ويمارسونها صراحة كمكون أساسى من مكونات علاقاتهم مع أفراد مجتمع بحثهم. غير أن هؤلاء الباحثين لا يعدمون لحظات يعانون فيها محنة القلق حول ما إذا كان بوسعهم أن يضمنوا مذكراتهم الميدانية وقائع من حياة أولئك الناس لها طابع الخصوصية أو يمكن أن تحط من قدرهم. كما أن الباحثين من هذا الفريق غالبًا ما يصبحون شديدى الحساسية تجاه ما إذا كان موقف الكتابة وعملية الكتابة يمكن أن يبدو واضحًا للآخرين فيؤثر على طبيعة علاقاتهم بأفراد مجتمع بحثهم.

وسنعمد فى الأجزاء التالية من هذا الفصل إلى التركيز على أسلوب البحث الميدانى القائم على المشاركة من أجل الكتابة، وهو الأسلوب الذى يواجه قضايا الكتابة الفورية والمباشرة فى الميدان. وهكذا يطرح هذا الأسلوب بقوة قضية علاقات التداخل بين الكتابة، والمشاركة، والملاحظة كوسيلة لفهم أى نمط حياة مختلف: فهذا الاتجاه يركز على أهمية تعلم كيف تلاحظ لكى تكتب، كما يسلم بأن المشاهدة نفسها تتشكل وتتأثر بتقدير الباحث لما سيكتبه وكيف سيكتبه. وفى سياق معالجتنا لتلك القضايا سوف نتأمل فى البداية الخيارات التى يواجهها الباحثون فى الميدان عندما يكونون بصدد اتخاذ قرار عن كيف يكتبون الملاحظات فى الميدان، وأين يكتبونها، ومتى. ثم نحاول فى فقرة تالية على ذلك عرض بعض المقترحات حول الأمور التى يتعين

ملاحظتها عندما يشارك الباحث وعينه على كتابة المذكرات الميدانية. بعدها نستعرض عدداً من نماذج الملاحظات الميدانية التى كتبت فى سياقات ميدانية مختلفة، ونناقش – فى ثنايا ذلك – بعض الاعتبارات التى يمكن أن توجه عملية تدوين الملاحظات.

عملية التدوين : كيف، وأين، ومتى

يقوم الباحثون الميدانيون فى سياق اهتمامهم بما يدور أمامهم من أحداث ومشاهد وتفاعلات بتكوين بعض الملاحظات الفكرية عن بعض التفاصيل والانطباعات. والأغلب أن تظل تلك الانطباعات مجرد "ملاحظات فكرية" لا أكثر. وفى بعض الأحيان يعمد الباحث إلى تدوين وصف موجز لتلك الانطباعات، بكتابة بعض الكلمات أو الجمل "المفتاحية" أو التى تذكِّر بالموضوع العام. فتلك الملاحظات السريعة تتوخى ترجمة المشاهدات التى يتعين تذكرها عندما يحين وقت الكتابة على الورق، لذلك لا تكون أكثر من مختصرات سريعة ترمز للأفعال والحوارات. فكتابة كلمة أو اثنتين لحظة وقوع الحدث أو بعده مباشرة سوف تثير ذاكرة الباحث فى وقت لاحق من اليوم، وتمكن الباحث من الإحاطة ببعض الأفعال المهمة وتأسيس أوصاف مثيرة للذاكرة عن الحدث المراد الكتابة عنه. أو أن تساعد الملاحظات الأكثر تفصيلاً على تسجيل بعض الحوارات أو الاستجابات لبعض الأسئلة. ويكون على الباحث الميدانى – خاصة عندما يكون بصدد تعلم لغة جديدة – أن يدون بعض التعبيرات أو المصطلحات الأساسية عند سماعها.

وعن طريق المحاولة والخطأ يطور الباحثون الميدانيون أساليب عملية متميزة لكتابة الملاحظات. ومن الاختيارات المبدئية فى هذا الصدد عملية اختيار الأدوات والمعدات التى سوف يستخدمها فى الكتابة. فهناك كثير من الباحثين الميدانيين الذين يستخدمون مفكرة (بلوك نوت) صغيرة يمكن أن يضعها بسهولة فى جيب سترته أو فى حقيبة يده. بل إن هناك آخرون يفضلون مواد أقل لفتًا للنظر، فيستخدم "فرخ" ورق، يمكنه طيه عدة مرات، ليكتب عليه ملاحظاته عن شتى الموضوعات على جوانبه المختلفة.

ولدى كل كاتب تفضيلاته الخاصة التى توافق مزاجه من حيث أنواع أقلام الكتابة: الرصاص، والجاف، والحبر السائل...إلخ.

والحقيقة أن الباحثين الميدانيين يكتبون الملاحظات بأساليب مختلفة. ولاشك أنه من الأمور المرهقة التى تستغرق وقتًا طويلاً أن يحاول الباحث كتابة كل كلمة يسمعها، أو وصف تفاصيل كل مشهد يراه. ولهذا يطور كل باحث - تقريبًا - نظامًا خاصًا به للرموز والمختصرات. بل إن بعضهم يحرص على أن يتعلم نظامًا رسميًا للكتابة المختصرة، كالاختزال أو الكتابة السريعة. ومثل هذه الإجراءات والأساليب لا تسهم فقط فى تيسير عملية الكتابة السريعة، وإنما تتسم - فوق هذا - بأنها تجعل الملاحظات المكتوبة غير مفهومة لمن يطلب النظر إليها، وبذلك تكون هذه الكتابة المرموزة أو المختزلة وسيلة لضمان سرية تلك الكتابات وحمايتها.

كذلك يتعين على الباحثين الميدانيين أن يقرروا متى، وأين، وكيف سيكتبون ملاحظاتهم. ومثل هذه القرارات قد تكون ذات دلالة هائلة بالنسبة لعلاقات الباحث مع أفراد مجتمع البحث (باستثناء الأمور اليومية الاعتيادية طبعًا). ذلك أن الباحث يبذل جهوداً مضنية لكى يؤسس علاقات قوية مع أفراد مجتمع البحث، إلى حد أنه قد يشارك مشاركة إيجابية فى بعض الأنشطة الأساسية فى حياتهم. ولكنه قد يستشعر وهو يمارس تلك الأنشطة بنوع من الازدواجية العميقة: فهو يحرص - من ناحية - على الحفاظ على دفء اللحظة، وذلك بتدوين الكلمات بمجرد النطق بها ووصف المشاهد لحظة وقوعها، ولكنه قد يشعر - من ناحية أخرى - أن إخراج المفكرة من جيبه وتدوين ملاحظاته قد يدمر حرارة اللحظة، ويبذر بذور الريبة وعدم الثقة فى نفوس المبحوثين. فهؤلاء قد ينظرون إلى الباحث ساعتها كما لو كان همه الأول هتك أسرارهم وتحويل لحظات حياتهم الأكثر دفئًا وخصوصية إلى موضوع للبحث العلمى(٥).

ويكاد كل الإثنوجرافيين يحسون أحيانًا بأنهم ممزقين بين التزاماتهم البحثية ورغبتهم فى التعرف على الحياة الحقيقية لأولئك الناس الذين دخلوا إلى عوالمهم. وهم يحاولون حل هذه القضايا الاجتماعية والأخلاقية الشائكة بأن يتمسكوا بأن تنفيذ

أى جزء من أجزاء البحث بدون العلم الكامل والموافقة الصريحة من جانب المبحوثين يعد خرقًا غير مقبول للمعايير الأخلاقية. ومن هذه الزاوية يجب أن يصور دور المساعدين المحليين (أى الإخباريون)(*) على أنهم يعاونون الباحث - بشكل إيجابى فعال - على أن يقوم بمهمة تعريف العالم الخارجى بحياة أفراد هذا المجتمع وثقافتهم. ومن شأن هذا التعاون المتبادل أن يتيح للباحث طلب الإذن بالموافقة على الكتابة عما يجرى من أحداث ووقائع، وأن يحترم فى الوقت نفسه رغبة الناس فى عدم الإفصاح عن بعض جوانب حياتهم.

ولكن ثمة فريق آخر من الباحثين الميدانيين لا يستشعر هذا الالتزام الصارم بالاستئذان قبل إجراء البحث، أو إخبار أفراد مجتمع الدراسة بنيته تسجيل بعض خبراتهم وأحداث حياتهم. ويبرر البعض هذا الموقف بالإصرار على أن الباحث الميدانى ليس ملتزمًا بالإفصاح عن نواياه، وأن الحياة الاجتماعية كلها تتضمن بعض عناصر التظاهر أو التمويه، حيث لا يوجد إنسان يفصح إفصاحًا كاملاً عن كافة أهدافه العميقة وأنشطته الخاصة. ويرى بعض أفراد هذا الفريق أن الملاحظات والمذكرات الميدانية التى يكتبها الباحث لنفسه ليسجل فيها ما مر به لن تسبب أى أذى مباشر للآخرين.

وطبيعى أن مثل هذا التوجه يتفادى الخوض فى القضايا الأخلاقية والشخصية الشائكة، فيتأجل ذلك إلى حين يتعين عليه فيما بعد أن يقرر ما إذا كان سينشر تلك المادة أو يتيحها للآخرين بطريقة أخرى.

(*) الإخبارى Informant هو الفرد أو الأفراد الذين يزودون الباحث الميدانى بالمعلومات عن أفراد الجماعة التى يدرسها. وقد أصبحت العلاقة بين الإخبارى والباحث محل اهتمام منذ أن تخلت الأنثروبولوجيا عن مسلماتها السابقة الساذجة حول تجانس المجتمع البدائى. ولكى ينجز الباحث عمله الميدانى، ويكتب تقريره عنه، يجب عليه أن يأخذ فى اعتباره طبيعة المقاصد التى يسعى إليها كل من الإخبارى والإثنوجرافى عند تقييم المعلومات الناتجة عن هذه العلاقة. انظر مزيداً من التفاصيل فى: شارلوت سيمور- سميث، موسوعة علم الإنسان، مرجع سابق، ص٧١ وما بعدها. (المراجع)

وأخيراً يحبذ فريق آخر حجب المعلومات الخاصة بأهداف بحوثهم عن أفراد المجتمع المحلى، على أساس أن المعلومات التى سيتوصل إليها البحث سوف تخدم الصالح العام فى النهاية. وأن الباحثين لن يستطيعوا أن يكتبوا وينشروا مادتهم - مثلاً - عن ظروف عمل عمال المصانع غير المسجلين، أو عن حياة المسنين فى دور الرعاية إلا إذا حجبوا نواياهم عن المسئولين الأقوياء الذين يتحكمون فى السماح لأحد بدخول مثل هذه الأماكن.

ورغبة من الباحثين المبتدئين فى تجنب الانتهاك الصريح لثقة المبحوثين وتجنب أى احتمال لحدوث توتر فى العلاقة بهم؛ نجدهم يميلون إلى الاعتماد على إجراءات إخفاء هويتهم أو إخفاء أهداف البحث، فيحجبون حقيقة قيامهم بإجراء بحث، أو يؤجلون تدوين ملاحظاتهم إلى ما بعد تركهم الميدان.

وحيث أن مثل هذه القرارات تمس ضمير الباحث وتتصل كذلك ببعض الاعتبارات البراجماتية، فإننا نوصى الباحث - كسياسة عامة - أن يطلع أفراد مجتمع البحث على حقيقة البحث الذى يجريه، وخاصة منهم من أقام معهم علاقة شخصية. ويلاحظ أن مثل هذا الموقف يجعل تلك العلاقات أقوى وأكثر إخلاصاً، فضلاً عن أن المصارحة تجنب الباحث أية مخاطر وربما أى إحساس بالخيانة قد يستشعره المبحوثون عندما يكتشفون حقيقة ما يفعله. وهذا القلق من نتائج افتضاح حقيقة ما يجرى - إذا ما اكتشف هذا السر الصغير المتعلق بخطط البحث وأهدافه - قد يتصاعد ويسبب للباحث إيذاء بعد فترة من العمل فى الميدان وتكوين عدد من العلاقات العميقة.

ولاشك أن الباحث لن يتجنب تلك العلاقات المثقلة بالتوتر أو الأزمات الأخلاقية تجنبًا تامًا بمجرد إطلاع الناس على أهداف بحثه. فقد يوافق المبحوثون على إجراء البحث، ولكنهم - مع ذلك - لا يعرفون تحديداً مضمون هذا البحث، ولا تفاصيل الخطوات التى سيتخذها الباحث لتنفيذه[٦]. فقد يدركون أن الباحث الميدانى يعتاد كتابة المذكرات الميدانية فى نهاية يوم العمل، ولكنهم مع ذلك يعتادون - فى لحظة - على وجوده، و"ينسون" أنه يقوم بالتدوين. وإلى جانب ذلك نجد أن الأفراد الهامشيين

والعابرين قد لا يكونون على إطلاع بطبيعة البحث وأهدافه رغم الجهود المخلصة التى يبذلها الباحث لإطلاعهم.

وعندما يجرى الباحث عمله الميدانى فى جو من الصراحة والوضوح، فإنه يتمتع بميزة المرونة فى تحديد متى، وأين، وكيف يكتب ملاحظاته الميدانية. وفى كثير من المواقف التى يعايشها فى الميدان يكون بوسعه كتابة ملاحظاته علنًا. ولكن على الباحث وهو يفعل ذلك أن يتصرف بحساسية، فيحاول تحاشى الانتقاص من قدر العلاقات العادية أو الأحداث التى تترى أمامه فى الواقع، أو يتدخل فيها. وعليه إن استطاع أن يشرع فى كتابة ملاحظاته علنًا بمجرد أن يقيم علاقة مع أولئك الذين سيدرسهم. فلو رسّخ لدى الناس دوره "كشخص يدون ملاحظات"، عندها يصبح الانهماك فى كتابة المذكرات أمرًا يتوقعه الناس من الباحث. ويفيد هنا أن يقدم الباحث إيضاحات مبدئية للحاجة إلى كتابة الملاحظات. وهنا يستطيع الإثنوجرافى أن يؤكد على أهمية عنصر الدقة، أى ضرورة تسجيل كل ما يقال تسجيلاً أمينًا. ويقتنع الناس عادة أن مثل هذه المهام تكون مطلوبة من الطلاب الجامعيين، ومن ثم يتقبلون ويتفهمون احتياجات أولئك الباحثين، لأنهم يعتقدون أنهم سيصورون بأمانة كل ما يدور أمامهم من أحداث. وعندما يكون الباحث الميدانى بصدد تعلم لغة جديدة فى ثقافة مختلفة، يستطيع أن يبرر للآخرين قيامه بالكتابة بأنه يدون المصطلحات المحلية كى يتذكرها. وعندما ينطق الكلمة التى يكتبها، قد يتطوع الناس ويطلعونه على مصطلحات جديدة، ويصبحون أكثر اهتمامًا بتعريفه بالمزيد.

وعلى الرغم من أن تدوين الملاحظات قد يبدو للوهلة الأولى أمرًا غريبًا أو مستهجنًا، فإنه عادة ما يصبح – بعد فترة – أمرًا طبيعيًا ومتوقعًا فى عمل الباحث. وفى الاقتباس التالى من إدارة "التطوير الحضرى والإسكان"، قلد المدير وأحد موظفيه – وهما يتمازحان – الباحث الميدانى بتمثيله فى دور من يمد يد "المساعدة" للعملاء.

"دخلت بعد ذلك إلى مكتب "جين"، وهناك ظهر "رامون" وقد بدا مثيرًا. وقال له: إليك هذا. وأومأ لى "جين" لأدون ما سيقول، فأخرجت مفكرتى. "يؤسفنى أننى لا أملك

سوى ثمانى ساعات كى أخصصها لتوفير.." ويبدأ يغنى قائلاً: "أحلام مستحيلة"، بلكنته الأجش الحمقاء... قائلاً: "تفضل بالانضمام إلينا".

هنا كان الباحث الميدانى وقيامه بتدوين المذكرات مادة للتقليد التلقائى المرح(٧).

ولكن حتى لو كان بعض الناس على ألفة برؤية أحد يدون ملاحظاته صراحة فى حضورهم، فإن آخرين قد يشعرون بالضيق عندما يجدون الباحث يخرج مفكرته ويبدأ فى تدوين ما يقولونه ويفعلونه. وقد يحاول الباحثون تجنب التحديات المحتملة فيعمدون إلى تسهيل عملية التدوين الظاهر المكثف باتخاذ موقف هامشى من التفاعلات التى تدور أمامهم. ولكن حتى فى مثل هذه الأحوال قد يواجهون بعض الأسئلة، على نحو ما يتضح فى التعليق التالى الذى كتبه أحد الباحثين الميدانيين الذى كان يقوم بملاحظة جلسات التوسط فى قضايا الطلاق:

> حاولت تدوين بعض المذكرات بأقصى قدر ممكن من التفصيل خلال الجلسات. وجاءت جلستى خلف طرف القضية مباشرة ربما لكى أتمكن من تدوين أكبر قدر من الملاحظات دون تطفل بقدر الإمكان، وليس لأى سبب منهجى آخر. وعلى حين قمت بتدوين كم غزير من الملاحظات (حوالى ٥٠ صفحة فى الجلسة الواحدة) بدا لى أن مسلكى هذا لم يسبب ضيقًا لأى من أطراف قضية الطلاق، إلا أن بعض الوسطاء فى الصلح بدوا منزعجين من تصرفى انزعاجًا شديداً. وأراد أحد الوسطاء أن يعرف كيف "قررت ما يمكن كتابته وما لا يجوز كتابته". وفى اجتماع هيئة أخصائيى محكمة الطلاق جلس نفس هذا الوسيط قريباً منى مباشرة محاولاً أن يسترق النظر إلى ما كتبت فى ملاحظاتى".

وإزاء حساسية هذا الموقف والمواقف المشابهة، يتعين على الباحث الميدانى أن يعتمد على مهاراته التفاعلية وعلى لباقته فى تقرير مدى ملاءمة تدوين الملاحظات بشكل فورى من عدمه(٨).

ونلاحظ فضلاً عن ذلك أنه حتى بعد أن يعتاد الناس على تدوين الملاحظات صراحة، فإنه قد تكون لديهم توقعات محددة حول طبيعة الأحداث والموضوعات التى يتعين تسجيلها. وقد يطرحون أسئلة حول قيام الباحث أو عدم قيامه بتسجيل أحداث معينة، وربما يشعرون بالإهانة أو استخفافه بهم إذا لم يقم بتسجيل ملاحظات على ما يفعلونه أو ما يعتبرونه هم أموراً مهمة. وعندما نتأمل الاقتباس التالى الذى أعده نفس الباحث الذى كان يدرس جلسات الوساطة فى حالات الطلاق، ويدور حول قيامه بتدوين ملاحظات علناً أثناء مقابلته أحد وسطاء الصلح، وذلك بشأن إحدى الجلسات التى كانا قد فرغا تواً من حضورها:

"بعد أن فرغنا من لقاء قمنا فيه باستخلاص المعلومات حول القضية... بدأت الوسيط (المحامية) تضع المكياج على عينها، بينما كنت أنا مشغولاً بتدوين بعض الملاحظات. عندها رمقتنى بنظرة ساخرة مشمئزة وقالت لى: "هل تكتب هذا أيضاً!" مشيرة بذلك إلى واقعة تزيّنها".

وهكذا نتبين أنه حتى فى حالات التدوين العلنى يجب أن نحرص على أن يكون مسلكنا متوائماً مع سياق التفاعل الدائر.

على أن التدوين العلنى للملاحظات قد لا يزعج فقط علاقة الباحث بأولئك الذين يشهدون عملية الكتابة، إنما قد يؤدى التدوين كذلك إلى صرف انتباه الباحث نفسه عن الاهتمام الدقيق بما يدور حوله من أحاديث وأنشطة. ففى مثل هذه الأحوال سوف يفوت الباحث – حتماً – الانتباه إلى التعبيرات الخاطفة، والحركات الدقيقة غير الملحوظة، بل حتى صرف انتباهه عن بعض المضامين المهمة للتفاعلات الجارية حوله بسبب انكبابه على مفكرته يكتب. كما أن تدوين الملاحظات علناً قد يكون غير ملائم لأسباب أخرى عدا تلك. ففى بعض المواقف قد تؤدى مشاركة الباحث فى التفاعل الدائر إلى استغراقه إلى الحد الذى يحول بينه وبين التوقف لتدوين ملاحظاته. ولذلك يتعين عليه فى مثل هذه الحالات أن يعتمد بدرجة أكبر على ذاكرته، ويركز بدلاً من ذلك على الوقائع الجارية حوله وعلى بعض العبارات الحاسمة التى يمكن فيما بعد أن تفجر

استعادة صورة كاملة للحدث أو المشهد. ونلاحظ أيضاً أنه فى بعض البيئات التى لا يجيد القراءة والكتابة فيها إلا عدد قليل من الأفراد، أو أنهم ليسوا معتادين الكتابة إلا فى مناسبات نادرة، فى مثل هذه البيئات يكون الباحث الذى يقوم بالتدوين - بدلاً من أن يشارك فى حفل ليلى راقص للقرية - قد يعد مقصراً فى الحفاظ على العلاقات الاجتماعية، وهى تهمة جسيمة فى قرية متلاحمة شديدة الترابط.

وإزاء كل هذه الظروف وغيرها يكون على الباحث الميدانى الذى اعتاد كتابة ملاحظاته علناً أن يعمد أحياناً إلى تدوينها عندما يخلو إلى نفسه، بعيداً عن أعين أولئك الذين يدرسهم. وعليه بعد أن يفرغ من معايشة موقف أو واقعة أو حديث أن ينتظر حتى يمكنه أن يلتمس مكاناً يخلو فيه إلى نفسه كى يدون جمله أو عدداً من الجمل التى يمكن أن تذكِّره فيما بعد. وقد يكون من المفيد له - فى الغالب - أن يتبع نفس الأساليب التى يلجأ إليها أفراد مجتمع البحث لأخذ "استراحة قصيرة" أو "الاستئذان للمغادرة". وقد أشار بعض الباحثين الميدانيين إلى أنهم كانوا يلجأون إلى بعض الأماكن الخاصة: كالحمام (Cahill 1985)، أو قاعة طعام لا أحد فيها، أو بئر السلم، أو غرفة الخزين بالبيت حيث يقومون بتدوين بعض الملاحظات بعيداً عن أعين الناس. ويمكن للباحث - إذا سمحت له الظروف - أن يتردد على مثل هذه الأماكن بين الحين والآخر، بفاصل قد يصل إلى نصف الساعة أو نحو ذلك، أو يلجأ إليها فقط مباشرة فى أعقاب حدث ذى أهمية خاصة. وهناك كذلك بعض الباحثين الذين يتجنبون تماماً تدوين الملاحظات فى العلن فى مكان الأحداث، ويقومون بعد مغادرة الميدان مباشرة باستخراج مفكرتهم ليكتبوا مذكرات مختصرة تذكرهم بالوقائع أو الكلمات أو ردود الفعل المهمة التى ينوون تضمينها فى مذكراتهم الكاملة فيما بعد. ويتيح هذا الأسلوب للباحث أن يحدد الموضوعات التى لا يريد أن ينساها متجنباً فى الوقت نفسه أن يلفت النظر إليه.

ولكن الباحث الإثنوجرافى يستطيع أن يدون ملاحظاته بطرق وسط بين الأساليب العلنية والخفية، خاصة عندما تصبح عملية تدوين الملاحظات جزءاً من مهمته أو من دوره. فأولئك الأشخاص الموجودين فى مجتمع البحث قد لا يعلمون صراحة أن الباحث

يكتب ملاحظات لأغراض بحثية. ففى بعض الأحوال يستطيع المتدرب فى أحد مكاتب الاستشارات القانونية - مثلاً - الذى يكلف بكتابة بعض الملاحظات فى مقابلات العملاء؛ هذا المتدرب يستطيع أن ينتهز هذه الفرصة لكى يدون بعض الملاحظات البحثية. وقد ذكر هذا الطالب - المتدرب - أنه عندما لم يصرح بأنه يدون ملاحظات بحثية، لم يكن المحامى ولا العملاء يعلمون أنه يجرى بحثاً. ومع أنه ليس هناك الكثير من الأعمال التى تتيح - بنفس هذه السهولة - كتابة الملاحظات، إلا أن الباحث يستطيع فى أحوال أخرى كثيرة أن يجد طرقًا تبدو طبيعية لتدوين ملاحظاته. فالباحث مثلاً يتعرف على جماعة ما من خلال اكتساب عضويتها. من ذلك مثلاً الباحث الذى يضطلع بدور المتدرب المستجد فى عضوية جماعة معينة، يسمح له - بل قد يُنتظر منه - أن يدون بعض الملاحظات، قد تكون تلك المادة التى يدونها هى البذرة الأولى لمذكراته الميدانية.

ولذلك نقول إن الاستراتيجيات التى تحدد لنا كيف، وأين، ومتى ندون الملاحظات تتغير بمرور الوقت الذى يمضيه الباحث فى الميدان، وتبعًا لمختلف العلاقات التى تنشأ بين الباحث وأفراد مجتمع البحث. بل إنه يحدث - حتى بعد أن يتمكن الباحث من إقامة علاقات شخصية قوية - أن تستجد بعض المواقف فى مجتمع البحث حيث يصبح تسجيل أى شئ علنًا أمراً غير لائق أو غير ملائم للمقام. عندها يكون الإمساك بالمفكرة مصدر إزعاج عميق لكل من الباحث وأفراد المجتمع المحلى[١٠]. ونشير بهذه المناسبة إلى أحد طلاب الإثنوجرافيا الذى كان يقوم بدراسة مكتبة الجامعة، واستطاع أثناء ذلك أن يقيم علاقات ودودة مع موظفى المكتبة - الذين أفصح لهم صراحة عن أمر البحث الذى يجريه - ولكنه مع ذلك أشار فى مذكراته إلى الواقعة التالية:

> جاءتنى إحدى عاملات التحصيل الشابات فى المكتبة بعد أن رأتنى فى دورتين من دورات الملاحظة. ووجهت لى - بطريقة رقيقة - سؤالاً إذا ما كنت "جاسوساً" أعمل لحساب أصحاب المكتبة المنافسة داخل حرم الجامعة،

أو أننى ربما أتجسس عليهم لحساب إدارة الجامعة. عندها حاولت أن أخفف من حدة الموقف بمزحة، فأخبرتها أننى لا أتجسس إلا لحساب علم الاجتماع. ولكنها لم تفهم المزحة، بل إنها زادت الموقف سوءاً.

وفى أحوال أخرى قد يضيق الناس - فى مجتمع البحث - بالباحث الذى يدون ملاحظات، لأن علاقتهم بتجربة الكتابة كجزء من الحياة اليومية علاقة ضعيفة. فنجد فى الثقافات الشفاهية خاصة أن ملاحظة الناس والكتابة عنهم تبدو أمراً على جانب كبير من الغرابة. وفى أحوال أخرى ترتبط الكتابة فى أذهان الناس بأشياء غير سارة، فيجدون فى كتابة الملاحظات تعدياً على خصوصياتهم، وقد يعدونها شيئاً خطيراً. وقد حدث فى إحدى المناسبات أن أصبح عجوز من قرية فى زامبيا شديد التردد فى أن يتابع الحديث، بعد أن بدأ الباحث الميدانى يكتب اسم ذلك العجوز على ورقة صغيرة لكى يتذكره ليس إلا. ثم علم الباحث فيما بعد أن الموظفين الحكوميين أيام الحكم الاستعمارى كانوا يمرون على البيوت ويسجلون الأسماء لحصر دافعى الضرائب، ولقيد بعضهم للعمل فى بعض المشروعات الحكومية.

وأخيراً نقول إنه حتى لو حصل الباحث الميدانى الحصيف على الإذن بكتابة ملاحظاته علناً، فإن عليه أن يبقى شديد الحساسية لهذه الأمور وأن يتجنب تدوين أمور يعدها أفراد الجماعة المحلية سرية، أو محرجة لهم، أو تهتك أسرارهم الخاصة، أو كل ما يمكن أن يثير غضبهم. وفى حالات أخرى قد لا يعترض الناس أنفسهم على الكتابة، بل إنهم قد يحثون الباحث على تدوين بعض الملاحظات عن أمور حساسة. ولكن حتى فى مثل هذه الحالات فعلى الباحث أن يقدر ما إذا كان نشر هذه الأمور - فيما بعد - يمكن أن يسبب لهم حرجاً أو ضرراً. وربما يحسن أن يدون الباحث ملاحظاته فى وقتها ثم يقرر فيما بعد ما إذا كان سيستخدمها عند الكتابة النهائية لتقرير البحث.

والخلاصة أن لحظة إخراج الباحث الميدانى مفكرته والبدء فى تدوين ما يقوله الناس ويفعلوه علناً أمامهم؛ هذه اللحظة ستكون عاملاً حاسماً فى تحديد علاقته بأولئك الناس أنفسهم. لذلك يلجأ الباحثون الميدانيون إلى طرق متباينة أشد التباين لكتابة ملاحظاتهم.

وتؤثر استراتيجيتهم - كما أنها تتأثر - بالبيئة التى يعمل فيها وبالناس الذين يعيشون فيها . ولذلك فإن تقرير متى وكيف تدون الملاحظات يجب أن يراعى سياق مجموع العلاقات بين الباحث وأفراد مجتمع بحثه. ففى بعض المواقف وفى ظل بعض العلاقات قد يكون تدوين الملاحظات علنًا أمرًا لا يمكن أن نوصى به صراحة. وفى مواقف أخرى يقرر باحثون آخرون تدوين الملاحظات الميدانية، ولكن يتعين عليهم - حينئذ - أن يجدوا من الوسائل ما يجنبهم - أو يقلل قدر الإمكان - التفاعلات الخرقاء التى يمكن أن تحدث نتيجة لذلك. وليس من المفيد ولا من الممكن أن نحدد مقدمًا "طريقة مثلى" وحيدة. فهنا كما فى سائر جوانب العمل الميدانى تدلنا التجارب الناجحة على ضرورة أن يظل الباحث منفتحًا ومرنًا وعلى استعداد دائمًا لتغيير أساليبه إذا ما سببت إيذاء الناس.

المشاركة من أجل التدوين

إن اتخاذ قرار بشأن تدوين الملاحظات من عدمه يفترض - أولاً وقبل كل شئ - الاتفاق مقدمًا على تحديد الأمور التى ستتم ملاحظتها ثم الكتابة عنها . ووسط الأحداث المتدفقة فى الميدان نجد بعض الباحثين الميدانيين يتسمون عادة بالتردد وعدم اليقين فيما يتعلق بما يتعين عليهم أن يولوه اهتمامهم فى الميدان وملاحظته كموضوعات يمكن أن يكتبوا عنها فيما بعد. وقد استطعنا التوصل إلى تحديد عدد من الإجراءات التى يمكن أن توجه الباحثين الميدانيين إلى كيفية النظر والملاحظة تمهيداً للكتابة فيما بعد[11].

أولاً: على الباحث الميدانى أن يبدأ بتدوين ملاحظاته عن انطباعاته هو الأولية. وتشمل تلك الانطباعات كل ما يصل للفرد عن طريق الحواس: كطعم الأشياء، والروائح، والأصوات التى يصادفها فى البيئة الطبيعية، وشكل المكان والإحساس به وبالناس الذين يعيشون فيه. كما تشتمل تلك الانطباعات أيضًا الحديث عن تفاصيل البيئة الطبيعية: كالحجم، والمساحة، والضوضاء، والألوان، والمعدات، والحركة، أو الحديث عن الناس الذين يعيشون فيها: كأعدادهم، ونوعهم (ذكور/إناث)، وانتماءاتهم العرقية، ومظهرهم،

وأزيائهم، وحركتهم، وتصرفاتهم، ودرجة إحساسهم. فتسجيل مثل هذه الانطباعات يفتح الطريق أمام الباحث لممارسة عمله في ذلك المجتمع، الذى قد يبدو طاغى التأثير. ويلاحظ أن دخول الباحث إلى ثقافة غريبة عنه لا يعرف لغتها ولا عاداتها يمكن أن يثير تحديات خاصة من هذه النواحى. ورغم كل شئ يستطيع الباحث أن يشرع فى استيعاب الأصوات والمناظر الغريبة عنه من خلال الكتابة عنها(١٢).

كما أن تسجيل تلك الانطباعات الأولى – التى كثيراً ما تتسم بالعمق – يحافظ عليها، ذلك أن الباحث قد يفقد الحساسية لبعض الخصائص المميزة للبيئة بسبب ألفته بها بعد طول الملاحظة. والباحث الذى يألف البيئة التى يدرس فيها، بل حتى ولو حصل فيها على مكانة راسخة – كعامل أو مقيم – يفقد القدرة على هذا الإحساس البكر بتلك الانطباعات الأولى. ومع ذلك يستطيع الباحث فى مثل هذه الأحوال أن يستعيد تلك الانطباعات الأولى بشكل غير مباشر بملاحظة أى قادم جديد إلى المجتمع، ومراقبة كيف يتعلم، ويتكيف، ويتفاعل مع أفراده.

ثانيًا: يستطيع الباحث الميدانى أن يركز على ملاحظة الأحداث أو الوقائع الأساسية. وربما يتعين عليه أن يعتمد فى البداية على خبرته وحدسه فى اختيار الوقائع التى سيركز عليها وسط تيار النشاط المتدفق من حوله. وهنا يمكن للباحث أن يفتش بعناية عن شئ يمكن – مثلاً – أن يثير الدهشة أو يخالف التوقعات، حيث يركز فى ملاحظته له على: تفاصيل الحدث، وأشكال الإحساس، والانطباعات، والتفاعلات الشفاهية وغير الشفاهية على السواء.

كما يستطيع الباحث أن يعتمد على خبرته الشخصية بالأحداث التى يمكن أن تسعد الناس فى المجتمع، أو تصدمهم، بل حتى تغضبهم لكى يحددوا لأنفسهم الموضوعات التى يجدر بهم الكتابة عنها. فرد فعل الباحث العنيف إزاء حدث معين قد يعنى أن آخرين فى المجتمع يستجيبون على النحو نفسه. وقد يحس – فى أحوال أخرى – بمشاعر شديدة التناقض، حيث يشعر بتعاطف شديد نحو ما يشاهده فى الميدان فى نفس الوقت الذى يحس فيه بنفور من هذا الشئ نفسه. وربما تعكس هذه المشاعر – فى الوقت نفسه – ضغوطًا متناقضة على أفراد مجتمع البحث.

على أن الاستفادة من ردود الفعل الشخصية بشكل مفيد يتطلب قدراً من العناية والتدبر. ونجد كثيراً من الباحثين الميدانيين المبتدئين الذين يدونون مثل هذه الخبرات، ولكنهم يميلون إلى الحكم على أفعال أفراد المجتمع - سواء كان بالإيجاب أم بالسلب - على أساس معايير الآخرين وقيمهم. ولكن الحكم المسبق على الأحداث من وجهة نظر الآخرين يجعل من الصعب زرع التفاهم المتعاطف، والتعرف على أهمية تلك الأحداث في أعين أبناء المجتمع المحلى (قارن حول ذلك مزيداً من المناقشات في الفصل الخامس من كتابنا هذا). لذلك يجب أن يدرك الباحث إدراكًا واضحًا احتمال أن أفراد مجتمع البحث - خاصة أولئك الذين ينتمون إلى ثقافات متباينة - يستجيبون للأحداث الجارية بأساليب متناقضة أشد التناقض. من هذا مثلاً أن باحثًا ميدانيًا في إحدى قرى قبيلة الشوكوى Chokwe قد يستجيب بانتباه شديد لملاحظة رجل غائب عن الوعى نتيجة تخديره بمشروب من الأعشاب قبل مثوله أمام محكمة بتهمة ممارسة السحر، ولكنه يتبين بعد ذلك عندما يجد الآخرين يضحكون على المشهد أنهم يعلمون أن هذا الرجل سرعان ما سيستعيد وعيه.

وبرغم ذلك لا يجوز للباحث الميدانى أن يندفع إلى الموقف المتطرف الآخر فيحاول أن يتعامل مع ردود الفعل الشخصية القوية بإنكارها أو إسقاطها تمامًا من مذكراته الميدانية. بل إننا نوصى الباحث أن يسجل كل مشاعره، ثم يعود فيسترجع تلك الخبرة ليزيد من حساسيته بخبرات أفراد المجتمع الآخرين. هل يستشعر الآخرون نفس مشاعر الدهشة، أو الصدمة، أو السعادة، أو الغضب تجاه حدث معين؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هى الظروف التى تحيط بكل استجابة من هذه الاستجابات، وكيف يتعامل المتأثرون بذلك الحدث وبأولئك الأشخاص مع مثل هذه المواقف؟ وسواء كان الباحث يجرى دراسته فى ثقافة أجنبية أو محلية، فعليه ألا يتوقع أن يستجيب أفراد المجتمع الذى يدرسه بنفس طريقته.

ثالثًا: بعد ذلك يجدر بالباحث الميدانى أن يتجاوز ردود فعله الشخصية، وأن يلاحظ برهافة وانفتاح مواقف أفراد المجتمع مما يعدونه هم "مؤثراً" أو "مهمًا". ويلاحظ هنا أن أنواع الأفعال والتفاعلات والأحداث التى تستأثر باهتمام الناس فى حياتهم

العادية قد تقدم للباحث تفسيرات لخلفيات ذلك الاهتمام. فالباحث لابد أن ينتبه كل الانتباه للأشياء التى تكون ذات مغزى ودلالة لأفراد مجتمع بحثه. من ذلك تحديداً: ما هى الأشياء التى يتوقفون أمامها ليتطلعوا إليها؟ ما هى الموضوعات التى تدور حولها أحاديثهم وثرثرتهم؟ ما هى العوامل التى تفجر لديهم استجابات عاطفية قوية؟ إن "المتاعب" أو "المشكلات" هى العامل المؤثر فى إثارة مشاعر الاهتمام العميق أو العواطف القوية، ولذلك عليه أن يفتش عن أنواع المشكلات الموجودة فى ذلك المجتمع. ويبحث فى: كيف يفهم أفراد مجتمع البحث مثل هذه المتاعب أو المشكلات، وكيف يفسرونها، ويتعاملون معها؟ وبمناسبة وقوع مثل هذه "الحوادث" أو "المتاعب" يجب أن يسجل الباحث الميداني: "من فعل كذا"، "ما هى ردود أفعال الآخرين". إذ يستطيع أن يزيد من معرفته بالمجتمع عن طريق تدوين ما يفعله الآخرون وردود أفعالهم، وذلك على أساس أنه إذ يعمل فى بيئة غير معروفة له يركز انتباهه على أفعال الآخرين لكى يستطيع فيما بعد تقليدهم ومشاركتهم. واستراتيجية المتابعة التى نوصى الباحثين بها بشدة هى الحديث مع المشاركين فى الواقعة والمشاهدين لها عن انطباعاتهم بشأنها.

وبهذه الطريقة لا يقتصر اهتمام الباحث على ملاحظة أنشطة أفراد المجتمع المحلى، وإنما يحرص بنفس القدر على معرفة المعانى الخاصة التى ترتبط بتلك الأنشطة فى نظرهم. فعليه أن يحرص على معرفة المعانى والآراء المحلية ويدققها، ليس عن طريق طرح الأسئلة المباشرة عما تعنيه الأمور الجارية لهم، وإنما بشكل غير مباشر حيث يستخلصها من تأمل وملاحظة آرائهم واهتماماتهم التى تتجسد فيما يدور بينهم من تفاعلات طبيعية تلقائية. من هنا يهتم الباحث الميدانى بالالتفات عن كثب إلى ألوان التقييم والتمييز – مثلاً – التى يبديها أفراد المجتمع فى أثناء ممارستهم الأنشطة اليومية المعتادة. وسوف يلاحظ أن بعض الذين يمارسون عملاً من الأعمال يقابلون دائمًا بين العمال "الجيدين" والعمال "السيئين" بالتعليق على سلوك كل فريق. وبملاحظة الباحث لمثل هذه التقييمات والتعليقات يقف الباحث على الأمور التى يعدها أفراد المجتمع ذات أهمية. يضاف إلى ذلك أنه سيلاحظ عن كثب كيف يطلقون مثل هذه الأحكام والتصنيفات على عمال بعينهم. ومن خلال ذلك يعرف كيف تعد مثل هذه السمعة الشخصية مصدراً لإلمامه بمعانى السلوك وحقيقة الرؤى.

وبهذا المعنى لا يقتصر الباحث فى رؤيته تلك على مفاهيم أفراد المجتمع بوصفها مقولات ثابتة جامدة، ولكنه يحرص على أن يتبين كيف يطبقون تلك المفاهيم فى سياق العلاقات والتفاعلات اليومية فعلاً. ويتطلب ذلك ألا يقتصر الباحث على وصف التفاعلات، وإنما يحرص كل الحرص على أن يدون فى ملاحظاته: "متى، وأين، وفى رأى من" صدر مثل هذا المعنى. فأولئك الذين يملكون مسئوليات إشرافية (كالمشرفين، والعمال، والموظفين، والعملاء مثلاً) قد يصفون أحد العمال بأنه "جيد" (أو "سئ")، وهم غالبًا ما يفعلون ذلك استناداً إلى بعض معايير التقييم. ومن ثم فإن المفاهيم والأحكام المحلية نادراً ما تصدر على الإطلاق وبشكل عام، ولكنها تعكس مواقف معينة واهتمامات ذات طبيعة عملية، وتلك هى التى يتعين أن يضع الباحث يده عليها بوضوح فى مذكراته المدونة.

ولذلك عندما ينزل الباحث إلى مجتمع البحث لأول مرة عليه أن "يلقى شباكه" على مجال واسع، فيلاحظ – وعينه على الكتابة – مدى واسعًا من الأحداث والتفاعلات. ومع ذلك فليس من الضرورى أن يعد الدخول إلى مجتمع البحث للمرة الأولى مناسبة سرية معزولة لن يكون لها تأثير يذكر على كل ما ستتم ملاحظته لاحقًا. وإنما الصحيح أن ملاحظة بعض أنوا ع الأحداث والكتابة عنها تؤذن وتؤشر بما ستجرى ملاحظته ووصفه بعد ذلك. كما أن تعريف حدث معين بأنه جدير بالملاحظة من شأنه أن يقود إلى تحديد ما إذا كانت هناك أحداث أخرى مشابهة ومن ثم تكون هى الأخرى جديرة بالملاحظة. وبعد أن تتقدم مسيرة العمل الميدانى وتزداد تركيزاً على مجموعة من القضايا، غالبًا ما يتجه الباحث الميدانى واعيًا إلى جمع مجموعة من الأحداث والتفاعلات التى تنتمى إلى "نفس النمط"، ويجتهد للبحث عن أشكال الانتظام أو الأنماط التى تحكمها.

وحتى عندما يكون الباحث الميدانى بصدد البحث عن أمثلة إضافية لنفس الحدث فلابد أن يكون – فى نفس الوقت – منفتحاً على أشكال مختلفة لنفس الحدث والاجتهاد فى البحث عنها، حيث ستكون بمثابة تنويعات أو استثناءات من النمط الظاهر. وكثيراً ما يشعر الباحثون الميدانيون المبتدئون بالإحباط لدى اكتشافهم وجود تلك التنويعات

والاستثناءات، خوفًا منهم أن تؤدى تلك الاستثناءات من النمط التى لاحظوها إلى إثارة الشك فى سلامة فهمهم لمجتمع البحث. على أن اكتشاف مثل هذه التنويعات والاستثناءات يجب ألا يسبب لهم أى خوف، وإن كان يتعين أن يؤدى هذا الاكتشاف إلى حث الباحث الميدانى على أن يعدل من فهمه السابق لمجتمع البحث، أو يعمقه أو يجمع عنه المزيد من التفاصيل لتدقيقه. فنجد الباحث الميدانى راغبًا – مثلاً – فى أن يحدد ويتعمق الأسباب أو الظروف المحتمل أن تكون مسئولة عن هذا الاختلاف أو هذا التنوع: هل الأفعال المختلفة هى محصلة ميول وطبائع المشاركين فيها، أو هى نتيجة اختلاف فهمهم للموقف بسبب اختلاف أوضاعهم فى المجتمع المحلى؟ أو قد يبدأ الباحث الإثنوجرافى فى مساءلة نفسه كيف توصل أساسًا إلى إثبات هذا التشابه والاختلاف. وقد ينتهى إلى أن يدرك أن الواقعة التى بدت مختلفة لأول وهلة هى فى حقيقتها مشابهة للوقائع الأخرى على المستوى الأعمق. وبهذه الطريقة يؤدى اكتشاف ما بدا للوهلة الأولى – على الأقل – فروقًا واختلافات إلى إثراء الوصف وزيادته تماسكًا، ويشجع على إجراء تحليلات أكثر حصافة ورسوخًا فى التقرير النهائى للدراسة الميدانية. (انظر المزيد فى الفصل السابع من كتابنا هذا).

والخلاصة أن الاهتمام البحثى الإثنوجرافى يقوم على الموازنة بين توجهين مختلفين. أن يحرص الباحث – بشكل خاص – عند دخوله إلى مجتمع البحث للمرة الأولى أن يحدد السمات البارزة التى يستخلصها من انطباعاته الأولى واستجاباته الشخصية. غير أنه مع ازدياد مشاركته فى حياة المجتمع المحلى يصبح أكثر حساسية فى رصد اهتمامات ووجهات نظر أفراد ذلك المجتمع. وبذلك سوف يصبح أكثر إدراكًا وفهمًا لكيفية وصف أفراد ذلك المجتمع لعالمهم، والاعتبارات الخاصة بهم التى حكمت هذه الرؤية خدمة لأغراضهم واهتماماتهم. ومن هنا يتعين أن يعتمد الباحث الميدانى الحساس على استجاباته هو فى تحديد الأمور التى يمكن أن تعد مهمة لأفراد المجتمع، وأن يفضل تشخيصهم ومفاهيمهم "الداخلية" على آرائه هو "الخارجية" (خارجية بالنسبة للمجتمع – المترجم).

نموذجان إيضاحيان للملاحظات المدونة

سنقدم فيما يلى نموذجين إيضاحيين لكى نقرب للقارئ كيف يدون الباحثون الميدانيون – فعلاً – ملاحظاتهم الميدانية السريعة وكيف يفيدون منها فيما بعد فى إعداد مذكراتهم. ويركز كلا النموذجين على مشاهد، وأفعال تم ملاحظتها، وحوارات، دون أى تقييم أو تفسير نفسى. ويتناول الباحثان – صاحبا هذين النموذجين – التفاعل الذى حدث فى مجتمع بحث كل منهما بطريقتين

مختلفتين أشد الاختلاف، فقدما ملاحظات بأحاسيس مختلفة وتفاصيل ذات دلالات تفسيرية متباينة.

إنهم ليسوا جيدين تماماً

تركز المذكرة الميدانية التالية على لقاء مع المتعهد المتوقع أن يقدم فرقة موسيقى روك أسبانية فى أحد النوادى الليلية:

جورج جالس إلى إحدى الموائد

لا يقدمنى لأحد (للتعارف – المترجم)

لا يتكلم الآن إلا الأسبانية

دردشة سأل خلالها أحد الحضور: من العازفين؟

رد شخص آخر: "إنهم ليسوا جيدين تماماً"

اعتذار (عن ـــــــ).

ترصد تلك الملاحظات السريعة عدداً من الوقائع التى جرت فى النادى الليلى، منها مكان جلوس جورج، وأنه غيّر لغة حديثه إلى الأسبانية بعد أن كان يتحدث بالإنجليزية من قبل. ويتضح من خلال ذلك المسار العام للأحداث: جورج لم يقم بتعريف

الحضور بشخص الملاحظ (الباحث)، الذى وصل إلى النادى برفقته، تدور دردشة يشترك فيها بعض الحضور، أحدهم (لم تحدده المذكرة) يسأل "عن العازفين" (لعل اسم الفرقة الموسيقية قد ذكر أثناء ذلك، ولكن الباحث احتفظ به فى ذاكرته على أساس أنه سيتذكره ولذلك لم يسجله)، أحد الحضور (ليس الباحث طبعًا) يلقى بتعليق يقيّم فيه الفرقة الموسيقية، ويسجل الباحث أن تلك الملاحظة كانت بمثابة "اعتذار" (لأنه هو الذى دعا الباحث إلى النادى الليلى)، وبذلك تعرض لنا المذكرة السياق التفاعلى بما يسمح لنا بتقدير أهميته.

"يمكنك أن تستدعى طبيبه"

تدور المذكرة السريعة التالية حول امرأة كانت تسعى لاستصدار قرار بالحجز على صاحبى البيت الذى تسكن فيه، كان أحدهما قد غاب عن حضور جلسة المحكمة. ورفض صاحب البيت الحاضر فى الجلسة شهادة المرأة بأن صاحب البيت الآخر الغائب "صحته طيبة وتسمح له بالمشى"، ومن ثم فكان يجب عليه المثول أمام المحكمة:

> (قال صاحب البيت الحاضر)(*): يمكنك أن تتصل هاتفيًا بطبيبه فى جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس، وهو يمكن أن يؤكد لك ذلك.
>
> (القاضى): أنا لا أتصل هاتفيًا بأحد على الإطلاق، المحاكم لا تعمل بهذه الطريقة، إما أن يكون إثبات ذلك بالأوراق أو (شخصيًا).

تقدم تلك المذكرة السريعة جزءًا صغيرًا من حوار بين صاحب البيت المدعى عليه (فى السطرين الأولين) والقاضى (فى السطور الثلاثة الأخيرة. انظر المذكرة الكاملة المعتمدة على هذه الملاحظات السريعة فى الفصل الثالث من كتابنا هذا). تعكس المذكرة اهتمام الباحث بإصرار القاضى على اتباع الإجراءات القانونية: فهو

(*) تحديد شخصية المتكلم بين القوسين ليس واردًا فى الأصل، وأثبتناه لجعل النص أيسر فهمًا للقارئ. (المترجم)

كقاض ("الحاكم") لا تحقق بنفسها فى ادعاءات الخصوم، وإنما الخصوم هم المسئولون عن تقديم أى أدلة فى قاعة المحكمة. لاحظ أن الباحث لم يدون سوى الكلمات التى قيلت، أما شخص المتكلم فلم تحدده المذكرة، وإنما يمكن معرفته من المضمون أو من ذاكرة الباحث. وتمثل الكلمات المدونة اقتباسات حرفية، كتبت بنفس نصها قدر الإمكان. الاستثناء الوحيد من ذلك نجده فى السطر الأخير، إذ يبدو أن الباحث لم يسمع نص الكلمات التى أنهى بها القاضى عبارته (وذلك بسبب تدوينه الحوار السابق بنصه)، وهذه الإضافة هى: "شخصياً" (التى وضعناها بين قوسين).

المذكرات كوسائل مساعدة للذاكرة: أىّ كلمات وأىّ جُمل ؟

إن كل واحدة من المذكرات السريعة التى عرضنا لها فيما سبق هى عبارة عن "كلمة أو عبارة [مكتوبة] لإنعاش الذاكرة لتثبيت ملاحظة ما أو تذكر شئ قاله شخص ما" (Clifford 1990: 51). فهى بمثابة مقدمات للمذكرات الكاملة التى سيتم تدوينها فيما بعد، لذا فهى تسجل مقاطع أو شذرات من حديث أو فعل يمكن للباحث الميدانى أن ينطلق منه فى رسم صورة مشهد اجتماعى عايشه، فيتذكر وقائعه، وما قيل أثناءه من تعبيرات ومصطلحات محلية، ووصف للحاضرين وأنواعهم، والحوارات التى دارت بينهم، وما أجراه هو نفسه من أحاديث مع بعضهم.

على أن تدوين الملاحظات السريعة ليس مجرد عملية كتابة، ولكنه عبارة عن توجه عقلى أيضاً. فتعلم كيفية تدوين التفاصيل التى يمكن أن تظل شديدة الوضوح والتى يمكن تحويلها بسهولة إلى تقارير وصفية مكتوبة تنبض بالحياة؛ إنما هو ثمرة لتخيل تلك المشاهد مكتوبة على الورق. فكتابة الملاحظات السريعة التى تثير الذاكرة وتحركها يتطلب أن نتعلم ماذا يمكن أن يُكتب وكيف يُكتب. ونعتقد أن الوصايا التالية يمكن أن تفيد فى جعل كتابة الملاحظات السريعة مفيدة عند تدوين المذكرات الميدانية التى تتصف بالحيوية والوضوح:

أولاً: دوّن بسرعة تفاصيل ما تعتبره المكونات أو العناصر الأساسية للمشاهد أو التفاعلات التى تمت ملاحظتها. فالباحثون الميدانيون يسجلون بشكل فورى مقاطع أو شذرات من الأفعال والكلمات التى يمكن أن تكون بمثابة نقط ارتكاز عند الكتابة لاحقًا عن تلك الأحداث بقدر ما تسعف التفاصيل. وقد رأينا - مثلاً - كيف أن الباحث الميدانى الذى كان يدرس فرقة موسيقى الروك الأسبانية دون فى ملاحظاته السريعة أن المتعهد الذى رافقه إلى النادى الليلى "أصبح الآن لا يتكلم سوى الأسبانية"، مع أنه كان يتحدث الإنجليزية من قبل، فلم يعد يشارك فى دردشة عامة فى النادى. ولكن الباحث سجل أيضًا عبارة أساسية مباشرة قالها أحد الحاضرين: "إنهم ليسوا جيدين تمامًا" وبجوارها مباشرة كلمة "اعتذار"، كى تذكره بالسياق والمعنى الذى قيلت فيه هذه العبارة.

ثانيًا: تجنب أن تصدر أحكامًا - ذات طابع تعميمى - تصف فيها أفراد المجتمع وأفعالهم. ذلك أن كثيراً من الباحثين الميدانيين المبتدئين يميلون - فى بداية عملهم - إلى كتابة كلمات تعبر عن انطباعات وآراء تكون مناسبة أكثر لكتابة ملخصات تقويمية، وليس لكتابة تقارير تفصيلية متماسكة. فمن الأمور التى تمثل إشكالية للباحث الميدانى أن يصف أسلوب أحد العاملين بأنه "عديم الكفاءة". فمثل هذه الملاحظة الملتبسة ذات الطابع التقويمى يرجح ألا تثير سوى ذكرى غامضة غير محددة عندما يجلس ذلك الباحث لاحقًا لكتابة وصف كامل لذلك المشهد الاجتماعى. ومثل هذه الملاحظات لا تدلنا بشئ عن أسلوب أفراد المجتمع فى التعرف على أداء العامل وتقييمه. وبالمثل نجد أن الملاحظة التى تقول إن المراقب المدرس "يلقى دروسًا عن مزايا المدرسة"، وأن التلميذ "شديد الطاعة - فهو موافق دائمًا"، وذلك فى ثنايا ملاحظته لمقابلة الحكم على التلميذ وتقدير قبوله من عدمه؛ هذه الملاحظات يعيبها المبالغة فى التعميم. ولهذا تكون مثل هذه الأحكام العامة غير مفيدة عند الجلوس لكتابة تقارير دقيقة مفصلة عن طبيعة اللقاء بين المدرس والتلميذ، وحقيقة حديثهما وسلوكهما معًا.

ثالثًا: دون فى ملاحظاتك التفاصيل الحسية الملموسة عن الأحاديث والأفعال. إذ يلاحظ الباحثون الميدانيون التفاصيل العيانية لوقائع الحياة اليومية التى توضح الوصف أكثر مما يقرر النص عن سلوك الناس (راجع المزيد فى الفصل الرابع من هذا الكتاب). وبتضمين مثل هذه التفاصيل فى الملاحظات السريعة، تصبح قادرة على تزويدنا بتسجيل للكلمات، أو العبارات أو الحوارات التى قيلت فعلاً، والتى يود الباحث أن يحفظها بأدق صورة ممكنة. فلا يكفى مثلاً أن نصف شعوراً عاطفيًا متفجراً بأنه مجرد "كلمات غاضبة". وإنما يتعين على الباحث الميدانى أن يدون الكلمات التى تفوه بها الناس فعلاً، مصحوبة بالتفاصيل الحسية كالإيماءات، وتعبيرات الوجه وغيرها مما يوحى بأن الخبرة العاطفية للمتحدث كانت تعبر فعلاً عن "الغضب". وتدوين تلك الكلمات من شأنه ألا يساعد على تذكر تفاصيل ما حدث فحسب، وإنما كذلك استعادة الظروف الخاصة أو السياق الذى تمت فيه مثل: من كان حاضراً، ماذا قال أو فعل كل منهم، ماذا حدث قبل ذلك الكلام أو بعده مباشرة...إلخ. وهكذا يمكن أن تستخدم تلك الملاحظات السريعة فى إعادة تصوير السياق أو التسلسل الفعلى للأحاديث، أو الموضوعات، أو الأفعال فى مناسبة معينة.

ويحاول بعض الباحثين الميدانيين المبتدئين أحيانًا تشخيص الدوافع أو الحالات (الذهنية والنفسية) الداخلية عند تسجيلهم للأفعال التى يلاحظونها. فإذا شاهدوا مثلاً علاقة غاضبة، تجدهم ميالين إلى التركيز على مصدر أو سبب هذا الفوران العاطفى، بأن يرجعونه عادة إلى دافع معين (من قبيل إحساس معين مسيطر على الفرد "كعدم الأمان" مثلاً) هو الذى أثار أحد الطرفين أو كليهما. إلا أن مثل هذه التفسيرات التى تتخذ الطابع السيكولوجى لا توضح إلا حالة واحدة فقط من جملة من الحالات الداخلية التى يحتمل أن تكون رافقت مثل هذا السلوك الغاضب أو ساعدت عليه. من ذلك مثلاً أن الغضب يمكن أن يكون ناتجًا عن شعور بالإحباط، أو التعب، أو خسارة صراع محلى على القوة، أو غير ذلك من العوامل الخفية. ولذلك نؤكد أن: الباحث الميدانى الذى شهد حدثًا معينًا لا يستطيع بحال من الأحوال أن يحيط بالعوامل المسئولة عن حدوثه[١٣].

إن الباحثين الميدانيين لا يتجاهلون العواطف، بل إنهم يلاحظون عن كثب عواطف كثيرة: كالغضب، والحزن، والفرح، والسعادة، والاشمئزاز، والوحدة، ولكنهم يفعلون ذلك بمقدار ما يعبر الناس عن تلك العواطف ويلاحظها رفاقهم فى المجتمع. وقد كتب أحد الباحثين الميدانيين - فى المثال التالى - يصف الآثار العاطفية لتكرار رفض طلبات العملاء بشكل روتينى: "بالاضطرار إلى قول لا"، وهم العملاء الذين يترددون على إدارة الإسكان فى حاجة ماسة إلى مسكن:

> "قالت لى "لورا" وهى جالسة فى كسل إلى مكتبها واضعة رأسها بين يديها: "إننى أشعر أحياناً أننى أخذل الناس، هل تفهمنى؟" فأنا مضطرة لأن أقول لا فى أغلب المرات. وهذا الموقف جزء أساسى من هذا البرنامج الذى نعمل فيه. وهو أمر يؤثر فيك نفسيًا (كيف؟) إننى لم أدرس علم النفس دراسة متخصصة، ولكنى أحس أن هذا الموقف يؤثر فىّ نفسيًا" (ثم اتجهت ببصرها إلى الناحية الأخرى)".

هنا لا يكتب الباحث الميدانى ليشرح لماذا تعانى موظفة إدارة الإسكان هذه العواطف ولماذا صرحت بها (على الرغم من أنها تؤكد بنفسها على سمة مميزة لعملها، وهو: "الاضطرار إلى قول لا فى أغلب المرات")، وإنما لكى يوضح لنا كيف عبرت تلك الموظفة عن مشاعرها. وهو لم يكتف بأن يوضح ذلك بإيراد مقتطفات من حديثها بنص كلماتها، وإنما بتزويدنا بتفاصيل نابضة بالحياة لجلستها ووضع جسدها ("جالسة بكسل"، "واضعة رأسها بين يديها") وكذلك بملاحظة حركة عينيها التى تؤكد هذا الشعور.

ولذلك يتعين على الباحث عندما يشهد أحداثًا اجتماعية أن يركز جهده على استخدام أحاسيسه فى معرفة كيف يفهم الآخرون ما حدث وكيف يقيمـوه، وكيف يقدرون الحالات النفسية الداخلية ويتعرفون على الدوافع السيكولوجية. فالتدوين المفيد لابد وأن يعكس ويدعم عملية كتابة تقارير وصفية مفصلة ومتماسكة للتفاعلات التى تمت، وليس للدوافع الفردية التى حركتها.

رابعًا: دوّن التفاصيل المحسوسة التى قد تنساها بسرعة، ولكنك تعدها ملاحظات رئيسية على المشهد الذى حدث. فالملاحظات السريعة أداة الهدف منها تيسير تذكر المشاهد والأحداث عند إعداد المذكرات النهائية الكاملة ووضعها فى سياق عام واحد. ولأن الملاحظات السريعة يجب أن تساعد الباحث الميدانى على إنعاش ذاكرته، فإن عليه أن يعرف أى التفاصيل يمكنه أن يذكرها بمنتهى الوضوح، وأيها يحسن أن يضمنه ملاحظاته السريعة، خاصة تلك الملامح والسمات التى تُنسى بسرعة. وهكذا يأتى الوقت الذى يطور فيه الباحث الميدانى أسلوبه فى تدوين الملاحظات السريعة، الذى يعكس قدراته الخاصة على التذكر، سواء كانت أمورًا بصرية، أو حركية، أو سمعية. فنجد بعضهم يركز على محاولة تسجيل أجزاء من مشاهد أكبر لإثارة الذاكرة، بينما البعض الآخر يكاد لا يدون إلا الحوارات فقط، ويركز فريق ثالث على تسجيل التعبيرات غير الكلامية بالصوت، أو الإيماءة، أو الحركة، وآخرون يهتمون بتسجيل تفاصيل اللون والشكل... وهكذا. وعن طريق المحاولة والخطأ يتوصل الباحث الميدانى إلى معرفة أكثر الأمور والتفاصيل التى تساعده على تذكر خبراته الميدانية عندما يحين الوقت ليجلس إلى مكتبه لكتابة المذكرات الكاملة.

إن الملاحظات السريعة تهدف - إذن وعلى وجه العموم - إلى تذكير الباحث الميدانى بما حدث فى لحظة زمنية معينة، فهى بذلك ترسم له حدود ما يتعين عليه أن يسجله بشأن الأحداث التى يتوجب عليه أن يتذكرها. من ذلك الوصف الذى قدمته باحثة ميدانية - كانت تقوم بالتدريس فى برنامج لتنمية المواهب - لمجموعة من الأحداث التى وقعت خلال ملاحظتها الأطفال وهم يلعبون فى الملعب الرملى بالحديقة. وقد دونت الباحثة فى ملاحظاتها السريعة عبارة لم تضمنها مذكرتها النهائية هى: "تم فرش ثلاثة جوالات من الرمل على أرضية الملعب الرملى". وعند مناقشتها لاحقًا بشأن تلك الملاحظة الأولية علقت بقولها: "لقد قدرت أنها ليست على جانب من الأهمية بحيث أضمنها فى مذكراتى النهائية. لأننى فكرت أننى لم أكتبها إلا لكى أتذكر بصورة أوضح كل وقائع ذلك اليوم.. ماذا حدث تحديدًا"[١٤].

خامساً: يمكن أن تستخدم الملاحظات السريعة لإبراز الانطباعات والمشاعر العامة، حتى ولو كان الباحث الميدانى غير متيقن من أهميتها لحظة كتابته عنها. ففى بعض الأحيان يكون لديه مجرد حدس غامض حول كيفية كون شئ ما مهمًا أو أسباب أهميته. ومن الممكن أن تشير تلك المشاعر الحدسية إلى عنصر حاسم قد يمكنه مستقبلاً أن يفهم كيف "تتناغم" الأحداث مع بعضها مكونة أنماطًا ذات معنى. من ذلك مثلاً ما دونته الباحثة – فى وقت لاحق – من ملاحظة فى برنامج تنمية المواهب بشأن أحد التلاميذ تقول فيها: "لقد عبرت نيكول عن ثقتها بى"، ولكنها قررت ألا تضمنها مذكراتها النهائية، مبررة ذلك بقولها: "لقد كانت هذه الملاحظة محصلة إحساس عام تبلور فى نفسى على امتداد ذلك اليوم... فعندما كتبت تلك الملاحظة لم أستطع أن أتذكر واقعة بعينها يمكننى أن أوردها بدقة". ولكن الحقيقة أن تلك الملاحظة كانت ملاحظة عقلية، حفزتها فيما بعد إلى أن تتبين (ومن ثم تسجل) الواقعة التالية كمثال يوضح أن "الأطفال يثقون فى معلميهم":

> فى إحدى المرات جلست نيكول على مقعد الأرجوحة دون أن تكون مرتدية حذاءها، وطلبت منى أن أدفعها لتتأرجح. ولكنى قلت لها إننى لن أدفعها إلا بعد أن تقوم وتذهب لترتدى حذاءها. عندئذ ترددت نيكول لبرهة ونظرت نحوى. ولكنى كررت لها طلبى، وأخبرتها إننى سأحتفظ لها بالأرجوحة خالية إلى أن تحضر. بعدها نزلت نيكول من على مقعد الأرجوحة، وارتدت حذاءها. وعندما عادت إلى الأرجوحة، امتدحت لها استماعها للنصح وأخذتها فى أحضانى. ثم دفعت كرسى الأرجوحة بها لتتأرجح فى الهواء. ثم تبينت بعد ذلك أن هذه الواقعة إنجاز مهم حققته نيكول، خاصة وأنها اعتادت ألا تستجيب لنصائح المعلمين(١٥).

إن تفكير تلك الدارسة فيما إذا كان يحسن أن تكتب تلك الملاحظة فى مذكراتها النهائية أم لا هو الذى جعلها حساسة بشكل خاص لقضية الثقة. وهكذا كانت تلك الملاحظة العابرة حافزاً لها لملاحظة وتدوين "واقعة ملموسة" تدلل على مسألة "الثقة" هذه.

وخلاصة القول أن الباحث الميدانى يضع - أثناء مشاركته حياة المجتمع - فى اعتباره تدوين الملاحظات السريعة، ولكنه ينظر - فى نفس الوقت - إلى الأحداث التى يعايشها كموضوعات يمكنه أن يكتب عنها فيما بعد. فالباحث هنا - مثله مثل أى كاتب آخر - يسعى إلى أن يتعرف على مادة تصلح للكتابة، فيشاهد ويسمع ما حوله باعتباره مادة وصفية ستدون على الورق. فمعرفة كيف يلاحظ لكى يسجل مذكراته قضية أساسية بالنسبة للمشهد الذى يجرى وللأوراق التى ستكتب فيما بعد. فدارسو الإثنوجرافيا يتعلمون كيف يلاحظون بحواسهم لكى يكتبوا عن ذلك لاحقًا: وذلك بأن يتذكروا الحوارات والحركات كما يفعل الممثل، ويروا الألوان، والأشكال، والمواد المكونة، والعلاقات المكانية كما يفعل المصور أو الرسام، وأن يحسوا بالحالات المزاجية، والإيقاعات، ونغمات الصوت كما يفعل الشاعر. فالتفاصيل التى تلتقطها الحواس تتحول إلى ملاحظات مدونة بأفعال إيجابية لا سلبية، وأهداف حسية لا تحليلية، وبنصها الحرفى لا بحوارات موجزة.

أفكار للتأمل: التدوين وهامشية الباحث الميدانى

مع أن الهدف الأول للبحث الميدانى هو الانغماس فى حياة الناس فى مجتمع معين ومعايشة خبراتهم اليومية، إلا أن الباحث الميدانى لابد وأن يظل حتمًا شخصًا "خارجيًا" - من عدة نواح - عن عالم هؤلاء الناس الذين يدرسهم. فالانغماس ليس اندماجًا، والباحث الذى يسعى لكى "يكون قريبًا" من الآخرين لا يمكنه فى العادة أن يصبح واحدًا منهم، وإنما يظل باحثًا مهتمًا ببعض القضايا البحثية ومتابعتها، ولو أنه يفعل ذلك على مقربة وثيقة من متطلبات الحياة اليومية لأولئك الناس، وخبراتهم عنها واستجاباتهم لها (Bittner 1988, Emerson 1987)[١٦]. وهكذا يظل الباحث الميدانى غريبًا - ولو جزئيًا على الأقل - عن عالم مبحوثيه، مع أنه يشاركهم أغلب جوانب حياتهم اليومية. وقد لاحظ الطالب دارس الإثنوجرافيا الذى كان يعمل فى المكتبة أن

إغراء اندماجه كواحد "داخلي" من الجماعة كان إغراء قويًا، وأنه بات من الصعب عليه أن يظل محافظًا على موقفه ووضعه كباحث:

> مرت بى أوقات كنت أتمنى أن أصبح حرًا فى الاستماع إلى أحاديث الآخرين أو مراقبة أنشطتهم، ولكن الأصدقاء والمعارف كانوا "يصرفوننى عن ذلك"، حيث يظهرون ويرغبون فى الحديث معى، وأنا غير قادر على مجاراتهم. كما كنت قلقًا من ناحيتى - بعد أن تعرفت بشكل أفضل على بعض العاملين فى المكتبة - أن تتسبب سماتهم الإنسانية المحببة للغاية فى أن تفقدنى منظورى السوسيولوجى. لم أعد أحب الإحساس بأننى أدرسهم، كنت أشعر أننى أستغلهم.

ويستجيب الباحثون الميدانيون لمثل هذه التوترات بعدة طرق مختلفة. فالبعض يحاول الحفاظ على توجهه كباحث ملاحظ منفصل عن أفراد مجتمع بحثه، الذين يحبهم ويحترمهم، محاولاً أن يفصل التزاماته البحثية عن تعلقه الشخصى ببعض الأفراد(١٧). ولكن بعضهم الآخر يجد نفسه عاجزًا عن أن يتخذ موقف الملاحظ المنفصل عاطفيًا على الدوام من أناس يشعر بالانجذاب نحوهم وتجاه أحداث ينخرطون فيها بالضرورة. ويعمد مثل هؤلاء الباحثين إلى أخذ استراحة من العمل البحثى، سواء ضمنيًا أو بوعى تام من الباحث، حيث يتوقف عن ملاحظة و/ أو كتابة المذكرات الميدانية عن جوانب معينة - يحددها هو - من خبراته الميدانية، ولكنه يستمر فى أداء مهمته البحثية بالنسبة لبقية الجوانب.

وهناك أخيرًا بعض الباحثين الذين يقررون أن العلاقات التى كونوها فى الميدان أقيم وأدوم من أى ثمرة قد يحققها البحث العلمى، ومن ثم ينتهى بهم الحال إلى التخلى عن المشروع كنشاط بحثى تخليًا تامًا.

ولكن الباحث الميدانى سيظل غريبًا طالما - وبمقدار - حفاظه على الالتزام بالمشروع الخارجى لدراسة وفهم حياة الآخرين، وذلك فى مقابل المشروع الداخلى أن

يعيش الحياة على نحو أو آخر. فعندما يعيش فى قرية لفترة طويلة فقد يشعر أنه منغمس فى بعض العلاقات اليومية الحميمة بوصفه جارًا - مثلاً - لبعض الناس، أو حتى كفرد فى أسرة من أسر ذلك المجتمع. ففى مثل هذه المناسبات قد يشارك الناس حياتهم الاجتماعية العادية "بشكل طبيعى"، دون نية الكتابة عنها أو تأملها وتحليلها. ولكن هذا الباحث نفسه يمكن أن يشارك فى بعض المناسبات الاجتماعية بنية ملاحظتها وجمع بيانات عنها. هنا تكون مشاركة الباحث مبنية على التزام أساسى عام بأن يحول مضمون حياة الناس وتفاصيلها الدقيقة إلى وصف مدون ثم إلى مادة علمية فى النهاية. وهكذا تفرض الجهود المبذولة فى الملاحظة من أجل الكتابة عن الخبرات والأحداث التى يشارك فيها الباحث؛ تفرض الموقف الإثنوجرافى المتميز. ومعنى ذلك أنه يمكننا القول أن غربة الباحث تتخلق وتستمر تحديداً بسبب كتابة المذكرات الميدانية، ذلك أن هذه المذكرات تعكس وتجسد ذلك الموقف الوثيق والحميم اجتماعيًا والمنفصل تجريبيًا[١٨].

وتتجلى هذه الهامشية الإثنوجرافية عادة على مستوى التفاعل عندما يكف الباحث الميدانى عن أداء ما يفعله الآخرون، ويبدأ الكتابة عن تلك الأفعال علنًا وصراحة. وبهذا المعنى يكون تدوين الملاحظات السريعة نشاطًا إثنوجرافيًا حاسمًا ومؤثرًا فى عواقبه، فهو يعلن ويؤكد علنًا الالتزامات العلمية للباحثين الميدانيين ومن ثم مكانتهم كأشخاص "خارجيين" بالنسبة للجماعة، أى أشخاص يعيشون فى نفس المجتمع لهم أهداف ومهام تختلف عن أهداف أفراد المجتمع الآخرين ومهامهم[١٩]. إن تدوين الملاحظات الميدانية لا تذكّر الإثنوجرافيين بموقعهم الاجتماعى الهامشى فى مجتمع البحث، وإنما تسهم فى بلورة هذه الهامشية، وتغذية مشاعر العزلة والاغتراب المتنامية.

ولهذا ينبغى ألا يفاجئنا أبدًا أن نلاحظ أن كثيراً من الباحثين الميدانيين - بدءاً بالدارسين الشبان ووصولاً حتى الممارسين المحنكين - يراودهم شعور عميق بالازدواج تجاه مسألة الملاحظات الميدانية. فتلك الملاحظات تتدخل فى التأثير على تفاعلاتهم مع

الناس فى مجتمع البحث، وتخلق صعوبات فى وجه التفاعل مع الآخرين فى أثناء ملاحظة ما يدور من أحداث والكتابة عنها. بل إن الطلاب الباحثين الذين يعودون من الميدان دون تدوين أية ملاحظات يؤكدون غالبًا أن التدوين فى الموقع كان سيؤدى إلى إشعار الآخرين بالضيق. لقد أدرك هؤلاء الطلاب بشكل مباشر عواقب تدوين الملاحظات فى صرف انتباههم واغترابهم عن الآخرين.

والواقع على أية حال أن أغلب الإثنوجرافيين يحاولون الموازنة بين هذه الاتجاهات والمناورة على نحو ما، فيشاركون أحيانًا دون أن تراودهم أدنى فكرة عن تدوين شئ عما يدور أمامهم، وفى أحيان أخرى ينسحبون إلى مكان خاص ليكتبوا ملاحظاتهم بعيدًا عن أعين الناس. وفى أحيان ثالثة يعمدون إلى تدوين ملاحظاتهم الميدانية علنًا أمام الآخرين. والحقيقة أن المشكلات العملية المرتبطة بالكتابة تنجم عن مثل هذه الضغوط المتعارضة. فالميل إلى التعرف على الأحداث اليومية – إما بصفة مشارك "طبيعى"، أو بصفة باحث – يتجلى بكل وضوح فى الكتابة: إما كتغير فى وجهة النظر، أو فى أنواع التفاصيل التى تعد مهمة للكتابة. بل إن مكان وزمان تدوين الملاحظات السريعة يتوقف على اندماج الشخص فى لحظة معينة كمشارك أو كملاحظ. وسواء كان الباحث جارًا لبعض الناس فى القرية أو "متدربًا مقيمًا" على وظيفة، فإن التوتر بين الدور اليومى الذى يراعى اعتبارات الواقع الراهن وبين الهوية الإثنوجرافية المتطلعة إلى المستقبل؛ هذا التوتر يفصح عن نفسه فى الخيارات العملية لدى تدوين الملاحظات السريعة أو عند كتابة المذكرات الميدانية النهائية.

والخلاصة أننا نجد فى أغلب الظروف الاجتماعية أن الكتابة عما يحدث وقت حدوثه هو عمل غريب يؤدى إلى تهميش صاحبه، إذ أنه يسم الكاتب بسمة الملاحظ، لا المشارك الذى يؤدى دوره العادى كاملاً. ولكن بصرف النظر عن ردود أفعال الآخرين، فإن المشاركة من أجل الكتابة تقود صاحبها إلى أن يتبنى التوجه العقلى للملاحظ، وهو موقف عقلى يدفع بصاحبه إلى خارج المشهد والأحداث لكى يكون قادرًا على

تقدير "صلاحيتها كمادة يمكن أن يكتب عنها". ولعل هذا هو السبب الذى يدفع بعض الإثنوجرافيين إلى محاولة إسقاط موضوع الكتابة من تفكيرهم تمامًا، بأن يؤثروا أسلوب الانخـراط الكـامل فى الخبرات المعيشية عند ممارستهم العمـل الميدانى. ولكن مثل هذه الاستراتيجية إنما ترجئ أثر الكتابة فى تهميش الباحث، ولا تتخلص منه كلية، ذلك أن الخبرات التى ينخرط فيها الباحث لابد وأن تتحول فى نهاية المطاف إلى ملاحظات، ثم تختزل بعد ذلك إلى نص مكتوب.

الفصل الثالث

تدوين الملاحظات الميدانية (القسم الأول)

من الميدان إلى المكتب

بعد ساعات يقضيها الباحثون الميدانيون فى المشاركة فى الأحداث التى تجرى فى مجتمع البحث، وفى رصدها وملاحظتها، وربما فى تسجيل بعض المذكرات السريعة الموجزة عنها، يعود معظمهم إلى مكاتبهم وكومبيوتراتهم أو آلاتهم الكاتبة للبدء فى تدوين ملاحظاتهم فى مذكرات ميدانية مكتملة. وعند هذه اللحظة، تصبح الكتابة هى البؤرة المحددة والنشاط الرئيسى للبحث الإثنوجرافى: إذ أن الباحث، ولفترة مؤقتة بعيداً عن الميدان، يجلس متفرغًا لأداء مهمة تحويل ما فى ذاكرته وما فى مذكراته السريعة الموجزة من معلومات إلى تقارير مكتوبة من شأنها أن تحافظ بقدر الإمكان على ما لاحظه، ويرى الآن أن له دلالته وأهميته.

وسوف نهتم فى هذا الفصل بعمليات تدوين الملاحظات الميدانية الكاملة؛ ومن هنا سيكون تركيزنا على الطريقة التى يتبعها الإثنوجرافيون فى مباشرة المهام المعقدة لتذكر الملاحظات الميدانية، واستيفاء تفاصيلها، واستكمال ثغراتها والتعليق عليها، وذلك فى سبيل إعداد تقرير مكتوب كامل للمشاهد والأحداث التى عاينها.

الباحث على مكتبه

تتطلب كتابة المذكرات الميدانية قدراً من الوقت الذى يركز فيه الباحث عمله بدون الاشتغال بشئ آخر. فالوقائع التى استغرق حدوثها دقائق معدودة قد تستغرق من الباحث الميدانى عدة ساعات لتدوينها، فهو يحاول أن يتذكر بصورة دقيقة من الذى فعل كذا، وماذا قال، ووفقًا لأى ترتيب، كما يحاول أن يصوغ ذلك كله فى كلمات وفقرات متماسكة. وفى الواقع، تذهب إحدى القواعد الإثنوجرافية العامة إلى أن كل ساعة يقضيها الباحث في المراقبة أو المشاهدة تتطلب منه ساعة أخرى ليكتب عنها. وبمرور الوقت، يطور الباحثون الميدانيون نوعًا من الإيقاع من شأنه أن يحدث توازنًا بين الوقت الذى يقضونه فى الميدان والوقت المخصص لكتابة المذكرات. وفى بعض المواقف، قد يحد الباحث الميداني من طول الوقت المخصص للملاحظة، وذلك من أجل أن يتيح لنفسه فسحة كافية للكتابة عند مغادرته الميدان. ويؤدى تقليل أو تحديد وقت الملاحظة بهذه الطريقة إلى تقليل احتمال نسيان الباحث الميدانى لما حدث أو إصابته بالإرهاق النفسى بسبب ما يتوقعه من قضاء ساعات فى ترتيب المذكرات الميدانية. وبهذه المناسبة نوصى الباحثين المبتدئين، أن يتركوا الميدان بعد ثلاث ساعات أو أربع - قدر الإمكان - لكى يبدأوا فى كتابة المذكرات الميدانية.

وفى مواقف أخرى قد يكون من الصعب على الباحث الميدانى أن ينسحب من الميدان ليقوم بالكتابة. فعلماء الأنثروبولوجيا الذين يعملون فى ثقافات أخرى (أجنبية) يقضون - بصفة عامة - أوقات النهار كلها فى الملاحظة ثم يخصصون ساعات الليل للكتابة. ويتوجب على الباحثين الميدانين الذين يقومون بأدوارهم كعاملين منتظمين(*) أن ينهو يوم العمل كاملاً قبل أن يغادروه لكتابة المذكرات. وفى كلتا الحالتين، تتطلب فترات الملاحظة الطويلة فترات أطول للتدوين، وقد تتطلب اتباع استراتيجيات مختلفة

(*) للمتدربين - مثلاً - بنظام "المتدرب المقيم"، كطبيب الامتياز أو النائب فى المستشفيات فى نظام التعليم الطبى. وفى العلوم الاجتماعية تتضمن دراسة بعض فروعها - كعلم النفس والاجتماع والخدمة الاجتماعية - قضاء فترات تدريب محددة، يمارس فيها الدارس مهام ممارس المهنة (تحت إشراف طبعًا). (المراجع)

لجعل كتابة الملاحظات عملاً أيسر في التنفيذ. مثال ذلك، أن الباحث الميداني الذي سبق له - في مذكراته الأولى - أن كتب تقريراً وصف فيه أساليب العمل اليومية المتكررة والإيقاع المنتظم للأحداث اليومية، أن يركز في مذكراته التالية على الأحداث المهمة التي طرأت ذلك اليوم فقط. وبوصول الباحث إلى هذه المرحلة، يتبين له أن الفترات الطويلة التي قضاها في الميدان عادت عليه بالفائدة، إذ أتاحت له فرصًا أكبر لملاحظة الأحداث ذات الأهمية.

وهناك ثمة احتمال آخر: فقد يجد الباحث الميداني الذي يضطلع بمسئوليات عمل منتظم أن مما يفيده أن يخصص ساعات معينة للملاحظة وكتابة المذكرات السريعة الموجزة، معطياً الأولية لهذه الملاحظات عند كتابته للمذكرات الميدانية الكاملة. ويتيح تنويع هذه الفترات المخصصة للملاحظة؛ يتيح الفرصة لاستكشاف أنماط مختلفة للنشاط على مدار اليوم. ولاريب أن على الباحث، أثناء اتباعه هذه الاستراتيجية، أن يتابع كتابة مذكرات عن الأحداث التي يتكرر وقوعها في الأوقات الأخرى.

ولعل الأمر الذي يمثل أهمية أكبر من مسألة كم من الوقت يقضيه الباحث في الميدان، إنما هو توقيت كتابة المذكرات الميدانية. ذلك أن البشر، بمرور الزمن، ينسون وتفقد خبرتهم عمقها؛ ولهذا تكون المذكرات التي تتم كتابتها بعد عدة أيام من الرصد الميداني أميل إلى الاختصار وإلى فقدان التفاصيل الثرية ذات الفروق الدقيقة. لذلك نحث الباحثين بشدة على أن يجلسوا إلى مكاتبهم ويكتبوا مذكراتهم الميدانية الكاملة - بقدر الإمكان - بعد فراغهم من يوم (أو أمسية) البحث.

يقدم التدوين الفوري للمذكرات الميدانية عقب مغادرة الموقع صوراً ذهنية أكثر صدقًا وأشد تفصيلاً، على نحو يفيد تمامًا من اندماج الباحث الميداني في أحداث ذلك اليوم ومن انفعاله بها. ولاريب أن تدوين المذكرات الكاملة عقب مغادرة الميدان مباشرة يتيح للباحث أن يتخفف من الحمل الذي عاد به من هناك. إذ يكون من الأسهل على الباحث في هذه الحالة أن يركز أفكاره وطاقاته في العمل المرهق في المراجعة، والتذكر، والكتابة. وعلى العكس من ذلك، يذكر الباحثون الذين يؤجلون كتابة المذكرات الميدانية

الكاملة أنه، بمرور الوقت، تأخذ الخبرات التى عايشوها فى الخفوت تدريجيًا، كما تصبح كتابة المذكرات الميدانية الكاملة عبئًا ثقيلاً على النفس، بل قد تشكل معاناة رهيبة.

ومع ذلك، فإن الباحث الميدانى كثيراً ما يستحيل عليه أن يجد الوقت الذى يدون فيه مذكراته الميدانية الكاملة عقب مغادرته للميدان مباشرة. فالساعات الطويلة من الرصد والمشاهدة، أو العمل أحيانًا حتى الساعات المتأخرة، مثلاً، قد تتركه فى حالة من التعب الشديد الذى يعجز معه عن كتابة المذكرات. وفى ظل هذه الظروف يكون من الأفضل له أن يحصل على نوم كاف بالليل يستطيع بعده أن يتفرغ للكتابة أول ما يستيقظ فى الصباح. ولكن هذا الوضع قد يكون مستحيلاً أحيانًا: فربما يستغرق حدث من الأحداث التى تقع فى إحدى القرى عدة أيام وليال، مواجهة بذلك الباحث الأنثروبولوجى بخيار بين أن ينام بين أبناء القرية خارج مقر إقامته، أو يتركهم لبعض الوقت - من حين لآخر - لكى يستطيع النوم، ثم ينهض ليدون مذكراته.

وسواء أتمت كتابة المذكرات الميدانية الكاملة مباشرة عقب العودة من الموقع، أو بعد ذلك بقليل، فإنه ينبغى على الباحث الميدانى أن يتوجه مباشرة إلى الكومبيوتر أو الآلة الكاتبة، من غير أن يتكلم مع أصدقائه المقربين عما حدث، إلى أن يفرغ تماماً من استكمال كتابة المذكرات الميدانية. ذلك أن بإمكان مثل هذا الكلام "عما حدث اليوم" أن يسلب كتابة المذكرات فوريتها السيكولوجية، أى طزاجتها ونضارتها، كما يسلب الباحث تلك الراحة النفسية التى يشعر بها بعد الكتابة المباشرة، إذ تصبح كتابة أحداث اليوم تكراراً مملاً لسردها وليس تدفقًا للمشاعر تعقبه راحة النفس[١].

ويستخدم الباحثون طائفة من الوسائل المختلفة فى تدوين المذكرات الميدانية الكاملة. فبينما توفر الآلة الكاتبة لكثير من الباحثين الكلاسيكيين الأداة المثالية، يكتب البعض مذكراتهم الكاملة بخط اليد على أوراق دفاتر القطع الصغيرة أو فى "المفكرات". ويفضل الباحثون المعاصرون، بدرجة كبيرة، استعمال جهاز كومبيوتر مزود ببرنامج قياسى لمعالجة الكلمات. إذ لا تقتصر مزايا كتابة المذكرات باستعمال برنامج معالجة

الكلمات على ما له من سرعة عظيمة (وسوف يلاحظ مستعملو الآلة الكاتبة البطيئة مكاسب جمة من سرعة الكومبيوتر ودقته)، بل يضاف إلى ذلك أنها تيسر إجراء التعديلات على الكلمات، والعبارات، والجمل فى أثناء الكتابة دون تشويه صفحات الكتابة بحيث تستعصى على القراءة. كما أن المذكرات الميدانية المكتوبة على الكومبيوتر يسهل إعادة ترتيبها؛ فمن الممكن، مثلاً، إضافة أحداث أو حوارات فى مكانها المناسب عند تذكرها بعد الفراغ من الكتابة. وأخيراً فإن استخدام برنامج معالجة الكلمات فى كتابة المذكرات الميدانية يسهل عملية ترميزها وتصنيفها عندما يتفرغ المرء أخيراً لكتابة التقرير النهائى للدراسة الميدانية.

والباحث الذى يكون قد أمضى فى الميدان فترة طويلة، ولم يعد يتوفر له إلا وقت محدود عقب ذلك مباشرة ليقضيه فى كتابة المذكرات الميدانية يكون أمامه بدائل متعددة. فهو، أولاً، قد يكتب ملاحظات شاملة، معتمداً على ما تحويه هذه الملاحظات من تفاصيل لتأجيل كتابة المذكرات الميدانية الكاملة، على أن يكون هذا التأجيل لمدة محدودة فى أغلب الأحيان[٢]. والبديل الثانى أن يسجل الباحث مذكراته الميدانية على شريط تسجيل صوتى. ويستطيع المرء أن يملى مذكراته الميدانية على نحو أسرع نسبياً، بل إنه يستطيع أن يمليها على شريط التسجيل أثناء قيادته لسيارته فى طريق عودته من الموقع الميدانى إلى منزله. ومع أن إملاء المذكرات بهذه الطريقة يحافظ على ما فيها من انطباعات وملاحظات حية عقب مغادرة الباحث للميدان، إلا أن ذلك لا يعفيه – فى نهاية الأمر – من نسخها فى صورة مكتوبة، وهو عمل يستنزف الوقت، وذو تكاليف كبيرة. وفى نفس الوقت لا يستطيع الباحث أن يرجع بسهولة إلى تلك المذكرات المملاة على شريط التسجيل لكى يراجعها أو يستعين بها فى تخطيط الخطوات التالية له فى الميدان.

وموجز القول، أنه ينبغى على الباحثين المبتدئين ألا يندهشوا إذا شعروا بازدواج عميق فى أحاسيسهم عند كتابة المذكرات الميدانية. فمن ناحية، قد يبدو تدوين المذكرات الكاملة، بعد القيام بعمل مثير للمشاعر أو مستنزف للطاقة على امتداد ساعات طويلة؛ قد يبدو بعد ذلك عبئاً مملاً وزائداً. ومن ناحية أخرى، قد تتسبب كتابة المذكرات

الميدانية فى شعور الباحث براحة نفسية نتيجة لشعوره بأنه عبر عما يشعر به، كما قد تقوده إلى بعض الأفكار التأملية العميقة. فرؤية الأمور الجذابة والمدهشة والاستماع إليها على امتداد اليوم تجعل الباحث الميدانى، فى نهاية الأمر، قادراً على الجلوس إلى مكتبه، وتأمل الأحداث، ثم إعادة بعثها للحياة أثناء تحويله إياها إلى سجل مكتوب دائم. وقد تؤدى كتابة المذكرات الميدانية إلى نوع من تدفق الأفكار والانطباعات عندما يقوم كاتبها بمراجعة أحداث اليوم ويستعيد شعوره بجاذبيتها ونضارتها.

التوجه الشخصى والجمهور

فى كتابة المذكرات الميدانية

يتطلب الجلوس لكتابة المذكرات الميدانية الكاملة ابتعاداً عن المشهد الميدانى واتجاهاً نحو "صياغة ذلك المشهد على الورق"، أى نحو عالم البحث وعالم الكتابة. وبابتعاد الباحث عن الميدان، فإن معاناته لا تقتصر على مجرد اختيار ما يدونه، بل يقرر بجانب ذلك كيفية عرض وتوصيل ما قد رآه ولاحظه. وعلى حين يكون بعض ما يتخذه من قرارات من النوع الصريح المباشر نسبيًا، تكون بعض قراراته الأخرى من النوع الضمنى، وذلك انطلاقًا من التوجه الشخصى الخاص الذى يتبناه الباحث فى كتابته للمذكرات الميدانية، أى انطلاقًا من توجه الكاتب وميوله إزاء الموضوع أو البشر الذين يدرس أحوالهم. وسواء أكان الباحث الميدانى متأثرًا - أساسًا - برؤية فكرية موجودة فى مبحث علمى ما أو بالتزاماته الشخصية والأخلاقية والسياسية، فإنه يعبر صراحة عن هذا التوجه الشخصى الأساسى فى نغمة أو لهجة مميزة يمكن سماعها والإحساس بها فيما يختار الكتابة عنه فى كافة ما يدونه من مذكرات ميدانية.

وفى الأساس ينبثق التوجه الشخصى للباحث - فى العمل الميدانى وفى كتابة المذكرات - من نظرته العامة للحياة. فالخبرات السابقة، والتعليم، والمواقف الفكرية التى يلتزم بها الباحث تؤثر على التوجه الشخصى للباحث الميدانى فى كتابته للمذكرات؛ إذ أن هذه المؤثرات تجعله من قبل أن يباشر عمله يشعر، ويفكر، ويتصرف مع الناس

بأساليب نمطية بدرجة أو بأخرى. وسواء أكان هذا التوجه نابعًا من موقف خاص له صلة بالنوع الاجتماعى للباحث أو بمواقفه الاجتماعية، أو الثقافية، أو الفكرية، إلا أن مهمة الباحث الميدانى لا تقتصر على التفاعل مع أفراد مجتمع البحث والتجاوب معهم انطلاقًا من هذا التوجه، بل يضاف إلى ذلك أنه يكتب مذكراته الميدانية عن طريق رؤيته للأحداث وفهمها وفقًا لهذا التوجه نفسه. وتظهر آثار هذا التوجه الشخصى الأساسى فى المذكرات الميدانية على نحو ضمنى يحتاج إلى فطنة لإدراكها: وتتراوح هذه الآثار بين الطريقة التى يتبعها الباحث فى توحده العاطفى مع (أو تباعده عن) مبحوثيه ومن ثم يكتب عنهم بتعاطف (أو عكس ذلك)، وأنواع الأنشطة المحلية التى تستلفت انتباهه بحيث يستفيض فى وصفها بالتفصيل، وأخيراً الأسلوب الذى يتبعه فى إعطاء أولوية لبعض الموضوعات ولأهميتها، ومن ثم يكتب باستفاضة عن أى حدث يرى أن له صلة بموضوع بحثه.

وعن طريق إدراكه الذاتى الواعى بتوجهه الأساسى، قد يتمكن الباحث الميدانى من كتابة المذكرات الميدانية التى تلقى الضوء جليًا على بعض القضايا والرؤى التى أتاحها هذا التوجه. أضف إلى ذلك أن إدراكه هذا (لتوجهه الشخصى) قد يجعله أكثر حساسية للأساليب التى يشكل بها توجهه هذا تفاعلاته الرئيسية مع الآخرين. مثال ذلك، أن الباحث إذا كان رجلاً ذا ميول جنسية طبيعية، فإنه عندما يكتب الصيغة النهائية لمذكراته الميدانية عن مدرسة للشبان اللوطية والفتيات السحاقيات، نجده يهتم عادة بالكتابة عن الوسائل التى يتبعها هؤلاء الطلبة فى الضغط عليه حتى يفصح لهم عن ميوله الجنسية، وفى مراقبتهم لردود أفعاله على ما يتلفظون به من نكات وكلمات يستفزونه بها. أما إذا كان الباحث ذا ميول لوطية فإنه – وهو فى نفس هذا المجتمع – يصبح لماحًا للطرق التى يتبعها هؤلاء الطلاب فى إضفاء الطابع الجنسى على حكاياتهم المتعلقة بخبراتهم عندما يصفون هويتهم الجنسية المثلية فى دردشاتهم اليومية. وفى الواقع، يبدأ الباحث فى هذه الحالة بالسؤال والكتابة عن دردشات الطلاب المتصلة بأنشطتهم الجنسية، على نحو ما يبدو فى المذكرة الميدانية الآتية:

مـهلاً، قلت ذلك مقاطعًا إياه فى أثناء حكايته. "أين كان هذا؟" فـأجاب آدم قـائلاً: "هنـاك، فى الكتب التى تتـحدث عن السـيرك". فسـألتـه وأنـا أمـيل بجسمى للأمام وعلى شفتى ابتسامة خفيفة: "وماذا كان يفعل"؟. فأجاب آدم: "كان فى جولة له"... وسألت جون قائلاً: "ماذا كان مقصد تلك الجولة؟"(*). فـأجاب قـائلاً: "إنه مكان لعقد اللقـاءات". فقلت وفى كلامى نبرة تدل على شيء من الاضطراب(**): "وهل هذا المكان موجود فى أحد مـتاجر بيـع الكتب؟". فقال كلاهما مؤكداً صحة قولى: "نعم".

وكلمـا زاد اعتـراف البـاحث الميـدانى بالعـوامل المؤثرة على توجـهـه الشـخـصى الأساسى إزاء البشر الموجودين فى مـجتمـع البحث، كلمـا زادت قدرته على اخـتـبـار واستـعمال الآراء والأحكام التقديرية التى يقوم موقـفه هذا بتجليتـها له فى أثناء كتـابة المذكرات الميدانية. زد على ذلك، أنه يكون أقدر على تجنب الوقـوع فى أى تصور يمكن أن يسـيطر - لاشـعوريًا - على رؤيتـه للأحداث. ويتم له ذلك - مـثلاً - عن طريق تـجنبه للتعبيرات التقييمية أو عن طريق تركيزه على رؤية أفراد المجتمع للأحداث.

وبمضى الباحث قدمًا فى بحثه الميدانى، قد يتعرض توجهه الشـخـصى إزاء الناس وإزاء القضـايا المطروحة للبحث للتـغير. ونظراً لأنه يتـعلم - من خلال تفاعلاته مع أفراد مـجتمع البـحث - أن ينظر إلى الأنشـطـة، والأحـداث، والقضـايا بأسـاليب جـديدة، فقد تعيد هذه الأمور تعديل آرائه المسبقة، وقد يعيد توجيـه نفسه فى مواجـهة الآخرين. وبعد أن يقوم البـاحث بإعادة تعديل توجـهه الشـخصى إزاء أفـراد مجتمع بحثه، فإن من الأرجح أن يكتب مـذكراته الميدانية بأسـاليب لا تقتصـر على تجليـة آراء الأعضـاء،

(*) تسمية فيها تمويه لإخفاء معناها الحقيقى على من هم خارج الموقف، أما من ينتمى إلى ثقافة الجنسية المثلية فيفهم أنها "جولة" لاصطياد رفيق. ومثل هذه الأماكن تكون معروفة لأفراد تلك الفئة. (المراجع)

(**) اضطراب الباحث يدل على عدم فهمه للسياق - بسبب استخدام مسميات فيها تمويه - لأنه فهم "اللقاء" على أنه "اجتماع". وهذا مجرد نموذج من حالات مماثلة لا حصر لها من احتمالات سوء الفهم التى يواجهها الباحث فى الميدان. والتى قد تكون لها عواقبها على عمله. (المراجع)

بل تقوم – كذلك – بالكشف عن تأثره المستمر بما يتعرض له من إعادة تنشئته اجتماعياً. وبمرور الزمن، يغلب أن يتغير ما لدى الباحث الميدانى من آراء شخصية والتزامات فكرية، فيتبدل موقفه عند كتابة المذكرات الميدانية كلما تكررت رؤيته للأحداث واستجابته لها على نحو يشبه رؤية أفراد المجتمع واستجابتهم.

ومن العناصر الأساسية الأخرى التى تتحكم فى التوجه الشخصى للباحث، وتعبر عن نفسها فى المذكرات الميدانية المدونة، العنصر المتمثل فى جمهور القراء المستهدف أو المحتمل. ذلك أن الطريقة التى يكتب بها الباحث الميدانى عن الأحداث التى يرصدها ويلاحظها ترتبط – فى كثير من الأحيان – بمسلمات ذهنية غير معترف بها تتعلق بمن يكتب لهم الباحث. فنحن فى بداية الأمر ندخل فى اعتبارنا القراء الحقيقيين المتوقعين، ثم بعد ذلك نلتفت إلى ما للجماهير الأكثر انتشاراً من أهمية كبرى قد تخفى على الكثيرين.

وفى أغلب الأحوال، يقوم الباحث بكتابة المذكرات الميدانية مباشرة لنفسه كقارئ مستقبلى لها. وتتيح هذه المرحلة التى يغيب فيها القارئ الحقيقى للباحث أن يكتب باسترخاء يبدل أساليبه من حين لآخر كما يحلو له، فينتقل من حالة إلى حالة، ومن جمهور (متصور) إلى جمهور آخر دون اهتمام (فى هذه المرحلة) بالاتساق أو الترابط بين المعانى. وبهذا المعنى، فإنه ينبغى أن تكتب المذكرات الميدانية بطريقة منطلقة من أى قيد ومسترسلة. وعندما يحين وقت عرض المذكرات الميدانية على قارئ آخر – وعادة ما تُعرض فى صورة ورقة بحثية أو مقالة علمية أكثر استيعاباً وشمولاً – فإن بإمكان الباحث الميدانى حينئذ أن يسيطر على هذه العملية، إذ يستطيع أن ينتقى، ويركز على، ويراجع أى ملاحظات قبل أن يطرحها على الآخرين لقراءتها. وبوصفه قارئًا مستقبليًا لمذكراته الميدانية، يتوقع الباحث أن تكون قراءته القادمة هذه قراءة تفصيلية من أجل تصنيف وتحليل هذه المذكرات للإفادة بها فى ورقة بحثية أو فى مقالة علمية.

كما أن المذكرات الميدانية تُكتب بطرق مختلفة اعتماداً على تقدير المدى الزمنى المستقبلى الذى يكون - بعده - الباحث الميدانى نفسه قارئًا لها. فالباحثون الميدانيون من الطلاب - مثلاً - قد يكتبون المذكرات لأنفسهم كقراء لها فى المستقبل القريب، كأن يكون عند نهاية الفصل الدراسى عندما يحين وقت إعدادها فى صورة ورقة بحثية نهائية. أما الباحثون ذوو الخبرة فيتخيلون أنفسهم كقراء لمذكراتهم الميدانية فى مستقبل أبعد من ذلك، مدركين أنه ينبغى أن تحتوى المذكرات على التفاصيل والخلفية الكافية لفهمها بعد ذلك بعدة سنوات، عندما تكون الجدة التى تتسم بها الخبرة الميدانية قد خفتت أو تلاشت.

ومع ذلك، فإن الفرد الذى يجمع بين كونه باحثًا وكاتبًا قد يكون فى ذهنه، من الناحية العملية الواقعية، قراء حقيقيون غيره. فالباحثون من الطلبة خاصة ملزمون بأن يقدموا مذكراتهم الميدانية بصفة منتظمة لأحد المدرسين الجامعيين وبأن يكتبوا مذكراتهم لتقديمها لهذا القارئ. وبالمثل، فإن من شأن الباحثين الميدانيين العاملين بمشاريع بحثية جماعية (Douglas 1976) أن يكتبوا مذكراتهم ليقرأها زملاؤهم الباحثون ومعاونوهم. وهنا قد يكتب الباحثون الميدانيون، وهم مدركين وجود قراء حقيقيين فى أذهانهم، فيوجهون تقاريرهم صراحة إلى معارف واهتمامات هذا الجمهور. ومن النتائج المعروفة لكتابة المذكرات - حال استحضار هؤلاء القراء فى الذهن - تزويدها بمزيد من التفاصيل المتعلقة بالخلفية والسياق والهادفة لجعل المذكرات الميدانية أقرب للفهم والاستيعاب. وبرغم كل ذلك ينبغى على الباحث أن ينتهج فى الكتابة طريقة حرة ومسترسلة مع الحرص على تنويع أساليب التناول، وألا يحاول الكتابة ملتزمًا بالاتساق فى الفكرة وفى الأسلوب الذى يكتب به[٣].

ويلاحظ أن النتائج المترتبة على افتراض جمهور القراء المتخيل والمؤثرة على طريقة كتابة المذكرات الميدانية أكثر خفاءً وتعقداً من نظيراتها المتعلقة بتخيل جمهور القراء الحقيقيين[٤]. ذلك أن التوجه الشخصى للباحث الميدانى فى أثناء كتابته لمذكراته الميدانية يتضمن محاولة توصيل أمر ما عن العالم الذى قام برصده وملاحظته إلى جماهير خارج نطاق هذا العالم وليست لها ألفه به. وبهذا المعنى تكون المذكرات الميدانية

موجهة – أساسًا – إلى أشخاص أغراب على نحو أو آخر. بل إن المذكرات الميدانية تختلف – من هذه الناحية – عن كتابة المذكرات الشخصية اليومية (اليوميات). إذ لا تقتصر المذكرات الميدانية على كونها مجرد استجابات شخصية لكاتبها، ولا على أن المقصود منها إظهار وعيه الذاتي ورؤيته الشخصية، فهي في جوهرها تقارير تكتب وفق أسس محددة تخضع لأطر وطرق تنظيم لكي يقرأها أي جمهور أوسع نطاقًا مختلف إلى حد ما.

ويتخيل كثير من الباحثين الميدانيين جمهوراً من المثقفين والمتعلمين ويكتبون لهم، بل إنهم قد يصوغون مذكراتهم الميدانية وفي أذهانهم أنها ستنتشر في نهاية الأمر. وقد تحتاج هذه الأنواع من المذكرات لشئ من الصقل والتهذيب، إلا أن هدف الكتابة أن تكون مفهومة لجمهور المثقفين والمتعلمين الذين ليس لديهم معرفة عن البشر ولا عن العادات الاجتماعية التي تتحدث عنها المذكرات. وبمقدار ما يكون الباحث/ الكاتب واعيًا بأنه يكتب لجمهور عريض وبعيد، بقدر ما تكون مذكراته أكثر ثراء؛ إذ أنها سوف تقدم المزيد عن الخلفية، والسياق، والتفاصيل.

وليس معنى هذا أن المذكرات الميدانية وهي في صورتها الأولية "الخام" تكون مفهومة مباشرة للقراء المتخصصين أو لغيرهم من القراء الغرباء عن هذا المجال. فالمذكرات الميدانية حشد تراكمي من الكتابات التي يعتمد فيها معنى الأجزاء الأخيرة على ما سبق كتابته في أولها. فليس مطلوبًا مثلاً في المذكرات الأخيرة وصف البشر أو الأحداث التي سبق تقديمها في المذكرات الأولى. بل إن هوية الأفراد المشاركين في أحداث معينة قد لا تكون واضحة للقراء من خارج هذا المجتمع نظراً لكتابة أسماء الأفراد المذكورين بصورة مختصرة ولافتقاد الكاتب للمعلومات التي لا يمكنه تحصيلها إلا بعد اندماجه اجتماعيًا في مجتمع بحثه(٥). فبدون إضافة التفاصيل الضرورية لتوضيح الملحوظة الميدانية وعرضها داخل سياقها العام، لن تصبح مفهومة فعلاً لأي امرئ آخر غير كاتبها. وهكذا، فإن المذكرات الميدانية، والمكتوبة في صورة مداخل متراكمة، تكون ذات نهايات مفتوحة، مما يتيح للباحث أن يدرج فيها ما يجدّ من معلومات ورؤى، كما تكون متصفة بالاستمرارية القابلة للاستكمال والتي تتطلب مراجعتها فيما بعد.

والراجح أن أغلب الباحثين، عندما يكتبون مذكراتهم الميدانية، يتنقلون فى تصورهم للقراء المتوقع أن يقرأوا من جهة وبين غيرهم من المتخصصين من جهة أخرى. مثال ذلك أن الباحث الميدانى عندما يكتب مستعملاً صيغة المتكلم، عن اندماجه المباشر فى الأحداث التى تقع فى موقع دراسته، أو عند تأمله لاستجاباته الانفعالية أو لأفكاره الحدسية المتعلقة بالخطوات القادمة التى يتعين عليه اتخاذها فى الميدان؛ فى هذه الحالة قد يفترض ذلك الباحث أن هذه التقارير لن يقرأها سواه، ومن ثم فلا ضرورة لأن تكون مفهومة له. وعلى العكس من ذلك، عندما يشرع الباحث فى الكتابة النهائية عن حدث كانت له "أهمية" شديدة عند أفراد مجتمع البحث، ويرجح أنه "سوف يأتى ذكرها فى التقرير النهائى للدراسة الإثنوجرافية"، عند ذلك قد يجتهد الباحث كثيراً لتكون كتابته كاملة مفصلة.

وموجز القول، أن التوجه الشخصى للباحث بجانب ما يتخيله فى ذهنه من جمهور سيقرأ له تسهمان بدرجة كبيرة فى اختياره – قبل الشروع فى الكتابة – للطريقة التى يكتب بها مذكراته، حتى ولو ظهر هذان العاملان بصورة بارزة عندما يقوم الباحث الميدانى – واعيًا – بإعداد ذلك النص لتقديمه لجمهور عريض. ذلك أن كتابة المذكرات الميدانية تتضمن القيام بسلسلة من الخيارات المتشابكة فى كل دقيقة يقضيها الباحث فى الكتابة أثناء استخلاصه لفحوى خبرته ومعالجته لها. ولا تقتصر هذه الخيارات على ما يتعين عليه النظر إليه وكتابة ملحوظة سريعة عنه أحيانًا، بل تشمل كذلك تحديد من هم الذين سيكتب لهم مذكراته النهائية، وتحديد طريقة هذه الكتابة. وبالنسبة للطالب الذى يدرس الإثنوجرافيا، يكون هذا الجمهور – فى العادة – أحد المدرسين، الذى يتولى قراءة هذه المذكرات والتعليق عليها، وذلك على الرغم من أن الجماهير الأكثر بعداً – كالقراء المتخصصين فى نفس الفرع العلمى – قد يكون لهم كذلك تأثير حتى فى هذه المرحلة. ذلك أن هذه الجماهير المستهدفة والمتوقعة وكذلك الالتزامات الفكرية التى تمثلها تظل ذات حضور مؤثر يمثل عبئًا على عاتق كل باحث ميدانى.

عملية الكتابة النهائية

قد تبدو الكتابة النهائية – للوهلة الأولى – عملية سهلة بالنسبة للباحث الميدانى. وقد يبدو الأمر وكأن هذا الباحث يستطيع – مع بذل قدر كاف من الوقت والطاقة – أن يجلس ويسجل ملاحظاته دون الكثير من الانتباه لعملية الكتابة هذه. وعلى الرغم من أن حصول الباحث على قدر كاف من الوقت والطاقة لوضع ذكرياته على الورق أمر يأتى فى مقدمة اهتماماته، إلا أننا نرى أن بإمكان الباحث الميدانى أن يفيد من التفكير فى عدة أنواع من الاختيارات فى الكتابة. ونناقش فى هذه الفقرة الأنواع التالية من الاختيارات: "الأغراض والأساليب المتعددة"، "استرجاع الذكريات من أجل الكتابة"، "تحويل الملاحظات السريعة إلى مذكرات ميدانية كاملة"، "الأصوات ووجهات النظر المتعددة"، و"الوقت الفعلى وأوصاف اللحظة النهائية"، وذلك باعتبار أن هذه الأنواع تؤثر على عملية الكتابة.

الأغراض والأساليب المتعددة

للباحثين الميدانيين أغراض متعددة من وراء كتابة مذكراتهم الميدانية، وتعمل هذه الأهداف على تشكيل اختياراتهم وأساليبهم فى الكتابة(٦). ويتمثل أشد الأغراض إلحاحًا فى تسجيل الخبرات وهى لما تزال غضة جديدة. لذلك يسارع الباحثون إلى كتابة كلمات عجلى مندفعة "فيفرغونها على الورق"، فتقرأ مذكراتهم وكأنها نوع من الفضفضة أو التنفيس عما فى الصدر، لا كنصوص مصقولة وصالحة للنشر. ونظراً لعلم الباحث الميدانى أن الأحداث القابلة للتذكر تتعرض للتلاشى والاختلاط بغيرها من الأحداث التالية بمرور الوقت، فإنه يستخدم الصياغات والأساليب التى ترد على ذهنه بكل يسر، وتكون أكثر راحة وإنجازاً فى ذلك الوقت. إذ لا يتعين عليه الاهتمام كثيراً بالاتساق، كما أن بإمكانه الانتقال من أسلوب لآخر، ومن موضوع لآخر، ومن فكرة لغيرها من الأفكار، وذلك بمقدار سرعة أصابعه فى الدق على مفاتيح الآلة الكاتب أو لوحة الكومبيوتر.

وفى تلك الكتابة الأولية، يركز الباحث الميدانى على المشهد الذى يتذكره أكثر من تركيزه على الكلمات والجمل. ذلك أن التركيز المبكر جداً على الكلمات يخلق فى نفس الباحث "مراجعًا داخليًا" يشتت انتباهه بعيداً عن المشهد المستعاد ويوقف التعبير المتدفق عن الذكرى التى استعادها الذهن. فالهدف من الكتابة هو وضع أكثر ما يمكن وضعه على الورق وبأقصى قدر من التفاصيل وبأسرع ما يمكن، مع تأجيل أى تقييم أو مراجعة إلى وقت لاحق. وقد علقت إحدى الطالبات الباحثات على إحدى النقاط حول كتابتها النهائية للمذكرات فقالت: "قد أفرغ من توى من كتابة المذكرات على الكومبيوتر، ثم أعود إليها فيما بعد فأقرر أن ما كتبته ليس هو بالضبط ما أريد أن أعبر عنه بهذه الصياغة، أو أقرر أنه لا يعبر عن حقيقة شعورى آنذاك. أما الآن، فكل ما أحب عمله هو أن أدون المذكرات مباشرة ثم أعود إلى مراجعتها فى وقت لاحق".

ويحرص الباحثون الميدانيون – فى كتابتهم النهائية – على الاحتفاظ بنوع من التوازن بين استيفاء التفاصيل وتدوين أساسيات ما حدث. وكما قال أحد الطلبة الباحثين أثناء صراعه لوصف أحد الأحداث:

> والآن سأتوقف هنا وأعود فيما بعد للكتابة، لأننى أعلم ما أحاول قوله ولكن لا يتيسر لى الإفصاح عنه... وهكذا يتبقى القليل الذى يتعين أن أكتبه فوق ما كتبته، بيد أن علىَّ أن أفكر فى كيفية كتابته، لذلك فأنا الآن على وشك ترك هذا الأمر. إننى عند كتابة المذكرات الميدانية أقتصر على محاولة تدوينها كلها، ثم أعود لمراجعتها من البداية إلى النهاية، ثم أتركها فترة وأعود إليها بعد ذلك لأرى إن كان ما كتبته هو فعلاً ما كنت أعنى قوله، أو إن كان بإمكانى أن أقوله بطريقة أفضل، أى بطريقة أوضح.

قد يدون الباحثون الميدانيون كل ما يرد على بالهم من كلمات ثم يقومون فيما بعد ليختاروا من الصياغات ما هو أكثر تأثيراً على النفس وأنسب للمعنى. وينفذ كثير من الكتاب جولة عملهم الأولى بسرعة، عالمين أنهم سوف يضيفون إليه بعض الإضافات، أو يصقلون أسلوبهم فى التعبير، أو يعيدون تنظيم الفقرات فى وقت لاحق.

لذلك، ينبغى فى تلك الدفقة الأولى للكتابة، ألا يكون للعثور على أفضل الكلمات أو العبارات التى تقنع جمهوراً متوقعاً؛ ينبغى ألا يكون لها تلك الأهمية التى تتسبب فى إبطاء تدفق الكلمات وانسيابها على الورق.

ويمكن القول على وجه الإجمال أنه رغم حرص الباحثين على بلورة طائفة من الأساليب والاستراتيجيات لكتابة المذكرات الميدانية، فإننا نحبذ الكتابة الأولية التى تشبه فى تلقائيتها الحوارات التى تدور بين الناس عن خبراتهم اليومية، مع إجراء تغييرات فى الموضوع وفى نقطة الاهتمام الرئيسية من شأنها أن تُظهر التحولات التى حدثت فى اهتمامات الكاتب؛ والتى تتجلى فى صور مختلفة من حيث اللغة وأنماط الجمل، تعكس التحولات فى أصوات الأفراد حين يتكلمون؛ كما تظهر فيما يمليه الاندفاع السريع فى الكتابة من تقلب فى التعبيرات وافتقاد للترابط الصارم بينها. وتعطى مثل هذه الكتابة انطباعاً بأنها غير مصقولة تماماً نظراً لأن المذكرات فى هذه المرحلة من الإعداد لم تراجع بعد لتكون مهيأة للقراء.

بعد "التدوين على الورق"، يستطيع الباحثون أن يولوا مزيداً من الاهتمام بالأغراض الأخرى لكتابة المذكرات الميدانية. فبعد أن يفرغ الباحث الميدانى من كتابة فقرة ما من الفقرات التى يكتبها كل يوم، قد يعاود قراءة ما كتبه بعد فترة قصيرة، ملحقاً به ما يرى إلحاقه من العبارات والتعليقات الإضافية(٧). وقد تصف هذه الإضافات إحدى الخبرات التى مر بها بأقصى ما يمكن من التفصيل والاكتمال، أو تبرز وتعبر عن فهم الباحث الميدانى لمعنى تلك الخبرة أو لأهميتها؛ أو يحاول واعياً أن يقنع القارئ - المتوقع مستقبلاً - ليرى تلك الخبرة بطريقة معينة.

وقد تتسبب هذه الأغراض والإضافات المختلفة فى إحداث تغييرات أسلوبية مميزة فى بعض المذكرات الميدانية. أما مجرد التدوين المباشر على الورق، فيؤدى إلى كتابة منسابة ولكنها مشتتة غير مترابطة؛ ويؤدى التفكير والتمعن إلى إفراد فقرة تكون حافلة بالتعليقات والأسئلة؛ فإذا تخيل الكاتب فى ذهنه صورة قارئ مهتم يرغب فى معرفة المزيد، فإن هذا يحثه على كتابة مذكرات ميدانية أكثر استفاضة وحيوية.

استرجاع الذكريات من أجل الكتابة

يبدو أن الباحثين يعتمدون على عدد قليل من الطرق القياسية لاسترجاع وتنظيم أحداث اليوم عند كتابة المذكرات الميدانية الكاملة. وتتمثل إحدى الاستراتيجيات فى تتبع المرء لأنشطته وملاحظاته وفقًا لترتيبها الزمنى، مسترجعًا منها الأحداث الجديرة بالاهتمام داخل هذا التسلسل الزمنى الذى لاحظها وعايشها فيه. وهناك استراتيجية أخرى تتمثل فى البدء "بموضوع لافت" أو واقعة ذات موقع بارز بسبب ما لها من حيوية أو أهمية خاصة، ومعالجة هذه الحادثة بأقصى ما يمكن من التفصيل، ثم يعقب ذلك أن يُدخل الكاتب فى اعتباره ما يتصل بها موضوعيًا من الأحداث، أو الوقائع، أو العلاقات المهمة الأخرى. أو ربما يركز الباحث - وعلى نحو أكثر منهجية - على الوقائع ذات الصلة ببعض النقاط الخاصة اللافتة للاهتمام من أجل استدعاء الحوادث ذات الدلالة. وكثيراً ما يجمع الباحثون بين الاستراتيجيات المختلفة أو يستعملونها واحدة بعد أخرى، متحركين عبر فترة عملهم جيئة وذهابًا على نحو يشبه الحركة داخل تيار الوعى.

وكما سبق أن أكدنا فى الفصل السابق، فإن الباحثين الميدانيين لا يقدمون فى كل الأحوال تقارير مختصرة وسريعة لما حدث فى مجتمع البحث قبل أن يجلسوا لكتابة المذكرات الميدانية الكاملة. وفى ظل هذه الظروف، فإن استرجاع الباحث لما شاهده من أحداث ليكتب عنها يبدأ من ذاكرته فقط. وهنا قد يكتفى الباحث الميدانى بأن يختار منطلقًا ما - أى يختار واقعة أساسية، مثل بداية يومه فى الميدان - ثم يشرع فى الكتابة. أو قد يبدأ باستعراض أحداث اليوم، حادثة فحادثة، ثم يتخذ قراراته فى كل جزئية ليحدد ما إذا كانت هذه الحادثة أو تلك جديرة بالاهتمام. وأخيراً، فإن الباحث الميدانى، عند بدئه لجلسة الكتابة النهائية، قد يستعمل أيًا من هذه الإجراءات فى بلورة قائمة أو مخطط تمهيدى للأحداث والموضوعات التى يتعين عليه تغطيتها.

وقد تسير كتابة المذكرات الميدانية من واقع الملاحظات السريعة الموجزة (أو بالاعتماد على قائمة بالموضوعات تم بلورتها أثناء الإعداد للكتابة) فى مسار مختلف.

فإذا كانت الملاحظات المدونة فى الميدان شديدة التركيز والإحاطة، فبالإمكان استعمالها فى تنظيم المذكرات الميدانية: فكل ما على الباحث الميدانى عمله هو أن يعود إلى بداية الملاحظات السريعة التى دونها ذلك اليوم، وأن يتحرك جيئة وذهابًا داخل هذا النظام المسجل، مضيفًا بعض التفاصيل ورابطًا بين الأجزاء المنفصلة من الملاحظات السريعة بالاعتماد على الذاكرة. وبهذا المعنى، فإن الملاحظات المدونة فى الميدان تقوم بإحكام عملية الكتابة، إذ توفر للباحث رابطة يرجع بها إلى الميدان. لذلك يعتمد الباحثون على ما فى مذكراتهم السريعة من كلمات أو عبارات محورية لينعشوا بها ذاكرتهم. ومع ذلك، فإن الأمر لا يقتصر على أن مجرد الاعتماد على المذكرات السريعة، سيمكن الباحثين الميدانيين من أن يتذكروا "كل شئ". كل ما فى الأمر أنهم بفضل هذه الملاحظات الميدانية يشعرون بمزيد من الاطمئنان إلى قدرتهم على استرجاع تلك المشاهد التى وجدوها جديرة بالاهتمام أثناء وجودهم فى الميدان، وعلى الكتابة عنها.

تحويل الملاحظات الموجزة إلى مذكرات ميدانية كاملة

إن إعداد المذكرات الميدانية الكاملة بالاعتماد على الملاحظات الموجزة ليست عملية آلية. ذلك أن على الباحث الميدانى أن يستخرج معنى ما من تلك النتف والقطع المتناثرة من المعلومات مع قيامه بإعادة تجميع الأحداث، والوقائع، والخبرات التى تستثيرها فى نفسه هذه الملاحظات الميدانية. ويجب أن نفهم الوصف الناتج عن هذه العملية باعتباره مجموعة منطقية، ومعقولة، من الوقائع والخبرات، حتى لو لم يفهمها إلا مستمع واحد هو الباحث الميدانى نفسه.

وفى أثناء كتابة المذكرات الميدانية من واقع الملاحظات الميدانية الموجزة، يتحرك الباحث الميدانى جيئة وذهابًا بين هذه المذكرات وبين إعادة تجميع سائر الأحداث التى وقعت، والتى تقدم صورة أكثر استيفاءً وثراءً. ولتقدير أهمية هذه العمليات، لاحظ أوجه الخلاف والتباين فى المحتوى أو المضمون، وفى الصياغة Texture وفى مدى القابلية للفهم بين الملاحظات الموجزة الأولية والمذكرات الميدانية الخاصة بسماع أقوال أطراف

الدعوى فى إحدى المحاكم التى تنظر التماساً مقدماً لإصدار أمر مؤقت فى نزاع قضائى بين مالك بيت ومستأجره لمنع المستأجر من الانتفاع بالبيت الذى يقيم فيه.

الملاحظات الموجزة[٨] :

[الدعوى رقم]

سنو، مارسيا توماس المحامى – الإيدز – مايك ميرفى

وكيل قانونى

- هل أنت مستعدة لإقامة الدعوى ضد هذا الشخص؟
- أحدهما أو (كلاهما).
- جرعات كبيرة من العلاج الكيماوى.
- أظن أنه لن يحضر هنا أبداً.
- أعلم أنه بصحة جيدة تمكنه من المشى.
- لقد حضر عندى (أعاد السخان) – متى؟
- تستطيع أن تطلب طبيبه فى التليفون فى جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس وسوف يؤكد كل ذلك.
- أنا لا أطلب الناس على التليفون.
- المحاكم لا تعمل بهذه الطريقة.
- يجب كتابة الموضوع على الورق أو (عرضه شخصياً).

- لقد أعاد إلىّ السيد إم M سخانى.
- لقد كان يمشى.

- دعينى أكون واضحًا.
- إنك لا تريدين إقامة الدعوى ضد واحد فقط من هذين الفردين؟
- إننى أريد إقامة الدعوى ضد (لا، ولكن).
- إذا كان هو حارسه القضائى - كلاهما - ولكن.

- وضح خفايا هذا الأمر.
- الدائرة رقم ١٠ - القا(ضى) بركوف
- مسز سنو، انتظرى لمجرد..

المذكرات الميدانية الكاملة

مارسيا سنو فتاة ذات شعر يميل للطول، مجعد، وله لون بنى داكن، فى العشرينيات من عمرها، ترتدى ملابس عادية غير رسمية مكونة من بلوزة زرقاء وبنطلون. لا توجد فى أصابعها دبلة الزوجية، إلا أنها برفقة رجل ذى هيئة قريبة من الشباب، ويرتدى نظارة. وروبرت توماس فى الأربعينيات من عمره، ذو شعر بنى خفيف، وشارب كثيف، يرتدى سُترة ذات مربعات حمراء وسوداء.

يبدأ القاضى بسؤال ر.ت. R.T. (أى: روبرت توماس) عما إذا كان معه محام؛ فأجاب بالإيجاب، غير أنه غير موجود بالمحكمة. وهو يشرح قائلاً إن شريكه فى النشاط التجارى، مايك ميرفى، والمعين فى هيئة TRO، غير موجود اليوم؛ فهو مريض بالإيدز،

وهو فى حالة مرضية سيئة جداً. "أنا وكيله القانونى"، لذا فإننى أستطيع أن أمثل مصالحه. ق.) .لأى القاضى) يسأل م.س. .M.S (أى مارسيا سنو): "هل أنت مستعدة للاستمرار فى الدعوى ضد هذا الشخص وحده؟" تجيب م.س. .M.S بأنها تريد إقامة الدعوى ضد هذين الشخصين كليهما. ر.ت. .R.T (أى: روبرت توماس) يشرح - عندئذ - قائلاً إن م.م. .M.M (أى: مايك ميرفى) قد أصيب بمرض الإيدز منذ مدة ثلاث سنوات، وأنه يتلقى "جرعات كبيرة من العلاج الكيماوى"، ويضيف قائلاً: "لا أظن أنه سوف يحضر هنا أبداً". ق. .ل يسأل م.س. عن المصدر الذى عرفت منه أن م.م. هو هذا المريض. م.س. تتردد، ثم تقول: "أنا أعلم أنه بصحة جيدة تسمح له بالمشى"، لقد رأيته يمشى عندما أعاد السخانات التى سرقها هو وصاحبه. ق. .ل: ومتى كان ذلك؟ (لا أستطيع سماع إجابتها). ر.ت: إنه مصاب بالإيدز منذ ثلاث سنوات، وهو فى حالة مرضية سيئة جداً. "وبإمكانك أن تتحدث تليفونياً مع طبيبه فى جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس وبإمكانه أن يؤكد هذا": ق. .ل: "ليست مهمتى أن أستدعى الناس على التليفون. إن المحاكم لا تعمل بهذه الطريقة. يجب أن يتم هذا الأمر على الورق أو يتم الإشهاد عليه شخصياً". يكرر ر.ت. قوله أن م.م. مريض جداً، وأن عليه أن يقوم برعاية أمره، وأن حالته لا تتحسن. إلا أن م.س. تعترض مرة ثانية على ذلك، قائلة من جديد: "إن السيد ميرفى أعاد لى السخانات، وقد كان يمشى على قدميه حينئذ...".

ق. .ل (أى القاضى - المترجم) ينظر فى هذه اللحظة إلى م.س. قائلاً: "دعينى أكن واضحًا - إنك لا تريدين إقامة الدعوى ضد واحد فقط من هذين الشخصين؟" ترد م.س. (الآنسة سنو - المترجم): "لا. إنما أريد إقامة الدعوى ضدهما كليهما. ولكن إذا كان هو وكيله القانونى"، فبإمكانى أن أتابع الدعوى اليوم. يوافق ق. .لعلى ذلك، قائلاً أنه سوف يدع قاضياً آخر "يحل غموض هذه الدعوى"، ويتخلى عن نظرها بإرسالها إلى الدائرة رقم ١٠، التى يحكم فيها القاضى بركوف. تستدير م.س. و ر.ت. لمغادرة قاعة المحكمة، غير أن ق. .ل يقول: "يا آنسة سنو، انتظرى دقيقة واحدة فقط إلى أن يستلم سكرتير المحكمة الملف الخاص بك". تنتظر م.س. قليلاً، ثم تستلم الملف وتخرج من قاعة المحكمة فى رفقة الرجل".

وبمقارنتها بالملاحظات السريعة الشديدة الانتقائية، الجزئية، والموجزة، فإن هذه المذكرات الميدانية الكاملة تروى تفاصيل قصة مترابطة الأجزاء، خطوة فخطوة، لتصف ما رصده الباحث فى قاعة المحكمة. ويتكون الجانب الأكبر من هذه القصة من تفاصيل استكملها الباحث من ذاكرته. "فالخلفية" المختصرة لهذه الدعوى والموجودة فى الملاحظات السريعة، مثلاً، أصبحت "مجسدة حية" فى تعبيرات وصفية مستوفاة نسبياً للشخصين المتقاضيين (وليس للقاضى أو لغيره من هيئة موظفى المحكمة القانونيين). أضف إلى ذلك أن هذه المذكرات تروى قصة عن موضوع خاص، هو المشكلات الناجمة عن غياب واحد من الطرفين المدعى عليهما، ومن الأسئلة التى يثيرها القاضى حول هذا الغياب، ومن تتابع ردود الأفعال الصادرة من المدعية والمدعى عليه. ومع ذلك، فإن هذه القصة تفتقد عناصر أساسية (من ذلك أن هذه الدعوى تتضمن نزاعًا قانونيًا يتصل بالعلاقة بين مالك ومستأجر)، كما تحتوى على عناصر ليس لها معنى مفهوم (مثل تعليق "مارسيا" على أن هذه المدعى عليه الغائب "أعاد لها السخانات التى سرقها هو وشريكه").

ولنتأمل كذلك استعمال الاقتباسات المباشرة فى التنقل بين الملاحظات السريعة والمذكرات الميدانية. فالكلمات التى سجلت فعلاً (فى الملاحظات) حين سماعها هى فقط التى كتبت فى صورة اقتباسات، بينما أعيدت صياغة جزء من الكلام المباشر الذى فات الباحث فى ذاك الوقت، فكتبه بعبارة جديدة بعيداً عن الاقتباسات المباشرة. وهكذا نرى أن الملحوظة التى أبداها القاضى – والتى دونها الباحث فى مفكرته هكذا: "يجب أن يتم هذا الأمر كتابة أو (شخصيًا) – قد كتبت فى المذكرات الميدانية هكذا: "يجب أن يتم هذا الأمر كتابة، أو يتم بالإشهاد عليه شخصيًا". والممارسة الشائعة فى هذا الصدد توجب على الباحث – فيما يتصل بالكلام الذى لم يقيد بنصه ساعة سماعه – إما أن يقدمه فى صورة اقتباسات غير مباشرة أو يعيد صياغته فى عبارة جديدة. (انظر المزيد فى الفصل الرابع من كتابنا هذا).

وبصورة عامة، لا تعد كتابة المذكرات الميدانية - من واقع مفكرة الملاحظات السريعة - نوعًا من التذكر المباشر واستكمال التفاصيل، وإنما هى عملية شديدة الحيوية يتم بها رسم صورة متماسكة نسبيًا لتسلسل الأفعال التى تمت وأسباب الإثارة التى يحفل بها المشهد أو الشخصية (انظر المزيد فى الفصل الرابع). وأثناء تحويل الملاحظات السريعة والملحوظات الرئيسية إلى مذكرات كاملة مستوفاة، يكون الباحث الميدانى مشتغلاً فعلاً بنوع من التحليل المبدئى الذى يرتب به الخبرات، جامعًا بين بلورة أنماط التفاعل واكتشافها. ولا تقتصر هذه العملية على تقرير "ما الذى يتعين إدراجه"، بل تشمل كذلك تقرير "ما الذى يجب استبعاده أو إسقاطه"، من الملحوظات الرئيسية ومن الموضوعات المقيدة فى مفكرة الملاحظات. وبهذا الشكل، فإن الباحث، عند كتابته للمذكرات الميدانية الكاملة، قد يتذكر بصورة واضحة وقائع معينة، أو يكون لديه ملاحظات موجزة عنها، ولكنه يقرر - نظرًا لعدد من الأسباب - ألا يضمنها فى هذه المذكرات. فقد تبدو هذه المادة محتوية على أمور أو مسائل هامشية بالنسبة للأنشطة الرئيسية فى مجتمع البحث، أو يبدو له أن الأعضاء المشاركين فيها لا أهمية لهم، أو أن الباحث نفسه غير مهتم بها.

ومع ذلك، فإن الباحث، سواء كان يقوم بتدوين المذكرات الميدانية اليومية بشكل فورى، أم كتبها فى وقت لاحق أثناء وجوده فى الميدان، فإنه قد يرى أهمية فى الملاحظات السريعة أو الرئيسية التى بدت فى أول أمرها عديمة الأهمية أو الطرافة إلى حد أنها لا تستأهل إدراجها فى المذكرات الميدانية الكاملة. ومن شواهد ذلك أن الطالبة التى كانت تدرس الإثنوجرافيا، والتى أسقطت أثناء كتابتها للمذكرات الكاملة الإشارة إلى ملاحظة كانت قد أثبتت فيها: "توصيل ثلاثة أكياس من الرمل" ووضعهم فى ملعب الأطفال الرملى فى برنامج تنمية المواهب (انظر الفصل الثانى)، عادت واكتشفت أهمية هذه الواقعة ووجدتها ذات مغزى، وذلك أثناء متابعتها الكتابة والتفكير فى مشاهدات ذلك اليوم:

الآن أعود بذاكرتي، حينما تحصلنا على الرمل، كان يومًا حارًا فعلاً، لذلك فقد ساعدتني الملاحظات السريعة على أن أتذكر، لأن الجو كان فى الخارج من الحرارة بدرجة جعلت "كارين"، المدرسة، تقول إن بإمكان الأطفال أن يخلعوا أحذيتهم أثناء لعبهم فى صندوق الرمل. لقد أصبحت هذه قاعدة صارمة فعلاً يتوجب العمل بها، لأنه لم يكن مسموحًا للأطفال أن يخلعوا أحذيتهم فى أى مكان آخر. وكل ما هو مسموح لهم هو أن يسرعوا بالخروج من صندوق الرمل ويذهبوا إلى ساحة وقوف السيارات، وبهذا الشكل فإنها كانت فعلاً قاعدة صارمة يتوجب العمل بها. كما أننى عايشت واقعة تتعلق بهذا الأمر.

تخلص الطالبة/ الباحثة فى التعليقات المذكورة هنا إلى أن تقدر (وتنشئ) رابطة بين أكياس الرمل الثلاثة الجديدة، والتى جاءت على ذكرها فى ملاحظاتها وبين ما اعتبرته أمرًا بعيد الدلالة فيما يتعلق بفرض القواعد وتحقيق الضبط فى هذا الموقع، وبتقديرها لأهمية هذه الرابطة، رأت أن تدرج واقعة توصيل الرمال فى مذكراتها الكاملة. أضف إلى ذلك، أن هذا التركيز على مسألة فرض القواعد وتحقيق الضبط قد قادها إلى مراجعة ذاكرتها بحثًا عن أحداث أو "وقائع ذات صلة بالموضوع". وهنا تتذكر "واقعة عن هذا الأمر"، مشيرة إلى نيتها أن تأتى على ذكر هذه الواقعة بالتفصيل فى مذكراتها الميدانية الكاملة.

ونظرًا لوجود عدة سبل تتغير بها "الدلالة"، بحيث تظهر فى أثناء كتابة المذكرات تدعونا إلى التفكير فى دلالات الأحداث، فإننا نحث الدارسين على أن يكتبوا عن أكبر عدد يمكنهم الكتابة عنه من هذه الأحداث "الثانوية" القليلة الشأن، حتى لو بدت غير جوهرية أو كانت أهميتها فى تلك اللحظة ذات دلالة غامضة. إذ إن هذه الأحداث قد تشير إلى عمليات هامة ذات صلة بأحداث أخرى، أو لها صلة بأفكار تحليلية فى طور التبلور، قد لا يتوصل الباحث إلى تبين دلالتها إلا فى وقت لاحق. وحتى عند كتابة قصة عن حادثة واحدة متماسكة نسبيًا، فإنه ينبغى على الكتاب أن يدرجوا فى تقريرهم الأنشطة والتعليقات التى تبدو فى ظاهرها خارجة عن الموضوع، إذ قد يؤول أمرها إلى أن تزودنا بأفكار أساسية تساعدنا على فهم الفعل الرئيسى.

الأصوات ووجهات النظر المتعددة

لا يقتصر الباحث - عند كتابة المذكرات الميدانية - على تذكر المشهد وتخيله، فهو بجانب ذلك يعرض هذا المشهد من زاوية مختارة تلقى الضوء على بعض ملامحه أكثر من الأخرى. وينجم هذا العرض المتحيز إلى زاوية معينة - فى جانب منه - عن الاهتمامات النظرية لتخصص الباحث، كما ينجم - فى جانب آخر - عن طبيعة مشاركته فى مجتمع البحث، كأن ينجم مثلاً عن الوضع الذى اختاره لنفسه فى هذا المجتمع، وعن توحده العاطفى مع خبرات بعض أفراد ذلك المجتمع. لذلك فإن الإثنوجرافى عند قيامه بالكتابة، يعيد تشكيل الذكريات - التى تنعشها الملاحظات السريعة والرئيسية - على نحو يُؤثر بعض منظورات الملاحظة على غيرها من المنظورات، ويُؤثر بعض خبرات الأعضاء على ما سواها من خبرات.

إن ميول الباحث الانتقائية فى مشاركته فى مجتمع البحث، وفى عملية تركيب ذكرياته، إنما تتدعم بكون الباحثين الميدانيين - شأنهم شأن سائر الكتاب الذين يروون وقائع وحكايات - لابد أن يعرضوا روايتهم من خلال وجهة نظر معينة. وفى العرف العلمى يعنى مصطلح "وجهة النظر" المنظور الذى كتبت منه الأحداث، أى من خلال عيون من رأوا الأحداث، وكذلك من خلال أصوات من وصفوها. وتشير وجهة النظر إلى المنظور الفكرى الذى من خلال تروى القصة، والذى من خلال رؤيته سوف تقدم الشخصيات، والأفعال، والمشهد العام، والأحداث للقارئ. وعلى الرغم من أن المؤلفين قد طوروا أساليب مختلفة ومعقدة لرواية القصة، فإن أغلب الفروق العامة بين هذه الأساليب هى الفروق الموجودة بين وجهة نظر المتكلم، ووجهة نظر الغائب ووجهة النظر التى تدعى العلم بكل شىء (Abrams 1988: 144-48).

وجهة نظر المتكلم

إن نمط الكتابة الذى يأخذ بأسلوب المتكلم "يحصر وجهة النظر فيما يعرفه الراوى، أو يُخبر به، أو يستنتجه، أو يستطيع اكتشافه عن طريق الحديث مع الشخصيات الأخرى" (Abrams 1988: 146). وفى المذكرات الميدانية يكون الشخص الأول وهو "أنا"

– الذى يروى القصة – هو الباحث نفسه. ولأن هذا المنظور يساعد مساعدة كبيرة على حث الكاتب على سرد ما يخصه من خبرات، واستجابات، وتعليقات، وسرد ما صدر عن الغير من الأفعال والأقوال، فإننا نتصور أن الباحث يكتب فى الغالب بأسلوب المتكلم. وفى أثناء كتابة المذكرات الميدانية بأسلوب المتكلم، يقدم الباحث تفاصيل ما قد شاهده وعايشه وما يتذكره فى ذلك الوقت انطلاقًا من منظوره الفكرى الخاص وبصوته هو.

ويكون أسلوب الكتابة بطريقة المتكلم فعالاً خاصة عندما يكون الباحث كذلك عضواً من أعضاء الجماعة التى يدرسها. ذلك أن رؤيته للأحداث من خلال عينيه يتيح لنا أن نرى وجهة نظر شخص ينتمى لهؤلاء الناس ومطلع على تصرفاتهم، وذلك بعد غربلتها من خلال اهتماماته كباحث ميدانى. بالإضافة إلى ذلك، يتيح العرض من وجهة النظر بأسلوب المتكلم للباحث أن يقدم المسار الطبيعى للخبرات والمشاهد منظوراً إليها من خلال وجهة نظره كمشارك.

وتوضح لنا المذكرة الميدانية التالية، والمكتوبة بأسلوب المتكلم، هذه الملامح. ففى هذا النص المقتبس، تحكى عاملة – مكلفة بأعمال المراقبة فى متجر لبيع النظارات الفاخرة – واقعة مزعجة عن التحرش الجنسى من قبل أحد ملاك المتجر:

> فى فترة قريبة من منتصف اليوم، وأنا واقفة فى القسم الأمامى من المتجر مع "ريتشارد"، أحد الملاك، و"آل"، المدير، والذى كان منهمكًا فى عمله قرب باب المتجر، اقتربت وتناولت نظارة شمس لتجربتها، وقلت "أوه! إنها نظارة رائعة". وعندما هممت بنزع إطارها البلاستيكى الموضوع لتأمينها ضد السرقة، عندها سمعت ريتشارد يغمغم بشىء كأنه يقول: "لا" ليخبرنى أن هذه النظارة لا تناسبنى. لاحظت أن النظارة ماركتها "لونيت" Lunettes، التى ينتجها مصنع فى.فى. أو. VVO للنظارات، ودهشت لأننى لم أشاهد هذه النظارة قبل ذلك، كما أدهشنى سرعة ريتشارد فى الحكم بأن هذه

النظارة لا تناسبنى. خلعت النظارة وسألت ريتشارد: "ما رأيك؟". نظر إلىّ، وقال: "إن لك صدراً رائعًا حقيقة، أليس كذلك؟". ولكنى اعتقدت أنه قال: "إن لك ذوقًا رائعًا، أليس كذلك؟"(*)، لذلك قلت: "نعم، إنها رائعة" وأنا أنظر لنفسى فى المرآة (وأعتقد كذلك أننى حينما لا أضع نظارتى لا أستطيع الرؤية، وكذلك لا أستطيع السمع. لقد قمت بإعادة تشكيل كلمات ريتشارد كما نطق بها – وليس حسب تفسيرى أنا لها ساعتها – وذلك من واقع العبارة التى قالها بعدها وأوضحت لى ما كان يقصده). نظرت إلى ريتشارد، فقال: "إنه حقًا صدر رائع". قلت فى صوت خفيض: "أوه" (تعبيراً عن الاستنكار والاشمئزاز– المترجم) (الآن أسترجع فى ذهنى ما قاله فى جملته الأولى، وأدرك أننى أخطأت فى سماعى لملاحظته التى يبدى فيها أن لى ذوقًا رائعًا فى اختيار النظارات. ربما أكون قد سمعته على وجه صحيح – إلى حد ما – فى المرة الأولى، ولكنى أعدت صياغته بوصفه كلامًا غير الذى قاله، إن الرفض والإنكار يعيدان التوازن للإنسان). استمر قائلاً: "إنهما حقًا مكتنزتان وبارزتان – مكتنزتان فعلاً، مشيراً فى هذه اللحظة بيديه كما لو كان يتحسس ثديين. لقد صعقت، وأطبقت ذراعىّ على صدرى (لقد فعلت ذلك بطريقة لاشعورية، ولم أدرك إلا بعد الجملة اللاحقة التى قالها ريتشارد أننى تصرفت بهذه الطريقة التى تشير إلى الحماية). استمر قائلاً: إنك تجيدين التمويه تمامًا. وضم ذراعيه قائلاً: "لم أرك أبدا تخجلين". ثم أخذ ينفخ صدره كما لو كان يختال (كما لو كان يرينى ما اعتدت عليه من سلوك أو ما يتوقع منى أن أفعله عادة). قلت فى صوت خفيض: "إن هذا أمر لا يليق".

(*) بسبب التشابه الصوتى بين نطق كلمتى taste و tits التى عدلناها إلى "صدر" لاعتبارات اللياقة. (المراجع)

لم تقتصر الباحثة الميدانية فى استخدامها أسلوب المتكلم فى الكتابة على إطلاعنا على ما قاله هذا الجانى، ريتشارد، وما قالته وما فعلته هى كرد فعل لذلك؛ ولكنها استطاعت كذلك أن تكشف عما شعرت به وفكرت فيه أثنـاء مرورها بتلك التجربة: "لقد صعقت...". ففى هذا المثل الخاص بالملاحظات البذيئة التى أُدرجت فى حوار لولاها لكان حواراً لا غبار عليه، ويكشف تعبير هذه الباحثة الميدانية عن مشاعرها بالنزوع للانسحاب وحمايتها لنفسها، وبطريقة أتم وأوفى مما يستطيع أن يفعله أى تسجيل مجرد لكلمات هذا الرجل. إننا ندرك بوضوح كم كانت ملاحظته – بالنسبة لها – مقززة ومهينـة. ولو فرضنـا أن كتبت هـذه المذكرة الميدانية بأسلوب الغـائب (أو الشخص الثالث) لافتقد القارئ الرؤية الداخلية للباحثة، أى أفكارها ومشاعرها الباطنية وهى تتغير أثناء حدوث الواقعة. ولما كشفت هذه المذكرة الميدانية كيف أن إصرار هذا المالك على تكرار تلك الملاحظة المهينة، قد جعلها تغير سمعها السابق لهذا التعليق و"تطبق بذراعيها على صدرها" فى "إشارة للحماية". فهذا التكرار – الذى يدل على الإصرار – يبرز ما فى هذه التعليقات من إهانة ويجعلها إهانة حادة لا يمكن أن تخطئ هدفها.

زد على ذلك أنه باستعمال أسلوب المتكلم، تستطيع المذكرة الميدانية أن تقدم صورة شاملة لكل من خبرة كاتبها كطرف فى ذلك الموقف وتأملاتها كباحثة ميدانية كاتبة. مثال ذلك، أنها تعيد تشكيل خبرتها عن التحرش الجنسى وتقدمها لنا حتى نرى كيف أنها عايشت هذه الخبرة فى أول الأمر بصفتها بائعة تتحدث إلى مالك المتجر، وتخطئ فيما تسمعه من كلامه فتظن أنه يقول لها: "إن لك ذوقًا رائعًا". وهى ملاحظة أكثر ملاءمة لعلاقة العمل التى بينهما ولمهمتها فى عرض النظارات على الزبائن. بيد أننا نسمع كذلك تعليقها على خبرتها هذه – بدلاً من أن يأتى هذا التعليق فى إشارة جانبية وهى تكتب هذه المذكرة الميدانية – فيما يتصل بالسبب الذى جعلها فى مبدأ الأمر تخطئ فى سماع التعليق المهين: "ربما أكون قد سمعته على وجه صحيح – إلى حد ما – ولكنى أعدت صياغته بوصفه كلامًا غير الذى قـاله؛ إن الرفض والإنكار يعيدان التوازن للإنسـان".

وجهة نظر الشخص الثالث (الغائب)

على الرغم من أن تلك المذكرات الميدانية المكتوبة من وجهة نظر المتكلم، تتيح للباحث الميدانى أن يعبر عن أفكاره ومشاعره تعبيراً جيداً، فإن الهدف الأساسى لعلم الإثنوجرافيا يتمثل فى وصف ما يفعله وما يقوله الآخرون. لذلك تعد الكتابة باستعمال الضمير الغائب فعالة - بصفة خاصة - فى نقل أقوال الآخرين وأفعالهم. ونقترح أن يكتب الباحث كثيراً من مذكراته الميدانية انطلاقًا من هذا المنظور ليسجل ما يرى الآخرين يفعلونه ويقولونه.

على أن كتابة المذكرات الميدانية بمضير الغائب لا تقتضى أن يتجنب الكاتب تماماً استعمال ضمير المتكلم، أو أن يغيِّب ذكره لنفسه فى مذكراته دائماً. إذ يستطيع الكاتب، وفى أثناء كتابته للروايات الواردة فى مذكرته الميدانية على لسان الغائب؛ يستطيع أن يدرج نفسه كمراقب مشارك فى المشهد، وأن يأتى إلى جانب ذلك على ذكر ردود أفعاله الشخصية بصيغة المتكلم. مثال ذلك، أن الباحثة الميدانية راشيل فريتز Rachel Fretz، وفى أثناء ملاحظتها ومشاركتها فى طقوس "الموكاندا" Mukanda (وهى طقوس وشعائر لتكريس الصبيان عند دخولهم مرحلة الرجولة) فى إقليم كابومبو، بولاية شمال غرب زامبيا؛ كانت فريتز كثيراً ما تكتب مذكراتها الميدانية التى تصف فيها أنشطة الآخرين(٩). وتعد هذه الأوصاف - أساسًا - تقارير مكتوبة بضمير الغائب، وذلك بالرغم من أنها تضمنها أحيانًا منظورها الشخصى (مستخدمة ضمير المتكلم). من شواهد ذلك، النص المقتبس الآتى الذى تُمعن فيه النظر فيما يفعله الآخرون، ولكنها تدرج أحيانًا جملاً تبدأ بضمير المتكلم "أنا" عند روايتها للحظات التى لها فيها مشاركة فعالة وعند وصفها لردود أفعالها:

> فى أصيل ذلك اليوم سمعنا النساء والأطفال يصرخون وكأن "ليشى" Lyishi قد حضر، وقد جرينا [أنا وباحث آخر] [نحو مركز القرية] وقد حملنا كاميراتنا معنا. لقد كان سبب هذه الضجة "كالولو" Kalulu، وهو شخص يلبس قناعًا على هيئة فأر. وهو شخص مشهور رشيق القوام

يرتدى تنورة من الحشائش وقميصاً من الحشائش حول رقبته. ويرتدى على ذراعيه وساقيه البذلة العادية المصنوعة من الألياف، وفوق ذلك كله يلبس "أوفرولاً" محكمًا يشبه شكل الشبكة. والقناع الذى يرتديه عبارة عن وجه صغير مصبوغ بألوان بيضاء وحمراء، وله أذنان كبيرتان مصنوعتان من القماش. أطلق صيحة خنفاء (كأنها صادرة من الأنف) قائلاً: "وا، وا". وهى تشبه صوت بكاء الطفل. وأخذ يحجل حول الساحة ويعدو عدواً وئيداً فى اتجاه الأطفال. عندئذ أمر الزعيم النساء بأن يرقصن معه، لذلك دعت ابنته دى. .D بعض النساء والأطفال فاجتمعوا معًا وأداروا ظهورهم للفأر (الرجل المتنكر فى قناع الفأر) "كالولو"، وأخذوا فى الغناء والرقص. وكان "كالولو"، بين الفينة والأخرى، يطارد امرأة أو طفلاً وهو يجرى فى شئ من الكسل والتوانى. ثم حدث فجأة أن تناول سوطه الصغير وجرى منطلقًا نحو إحدى الفتيات الصغيرات وضربها به. أسرعت الطفلة بعيداً وهى تصرخ وأخذ الفأر يجرى متجهًا إلى منزل جى. .J وسرعان ما عادت الطفلة بعد ذلك.

ويبدو أن الزعيم دعا فى هذه اللحظة "جون" ووجه إليه بعض التعليمات، وذلك لأن جون ذهب بعدها ليعثر على الطفلة "كيانز" Kianze، تلك الصبية ذات الثمانية أعوام والتى تعيش مع ن. .N (فهذه الطفلة حفيدتها). وقبض بشدة على ذراعها وظل ممسكًا به، ثم أخذ يجرها وهى تصرخ واتجه بها نحو كالولو، الفأر، الذى وصل للإمساك بها.

أخذت تصرخ وهى تجرى متجهة إلى الناحية الأخرى، فذهب جون وراءها مرة ثانية وقبض بشدة عليها ثم جذبها بعنف متوجهًا بها إلى الفأر. وبدت كيانز، وهى تتلفت برأسها يمينًا وشمالاً، مرعوبة رعبًا شديداً وهى تصرخ والدموع تنهمر على وجهها. (وقد شعرت بالرعب وأنا أرقب هذا المشهد). وفى هذه المرة أخذ الفأر يضربها بشدة وهى تجرى صارخة حتى دخلت بيتها. وجرى هذا الرجل ذو القناع وراءها ودخل البيت. ولكنها تمكنت – كما أُخبرت بذلك لاحقًا – من أن تختبئ تحت أحد الأسرة.

بعد ذلك، أسرع كالولو فى الجرى وراء "جنجا" Jinga وأمسكها ورفعها بين ذراعيه. استمرت جنجا فى الصراخ، إلا أنها لم تبد فى نفس درجة الرعب كما أنها لم تبك. وقد قال أحدهم بعد ذلك أن ن. .N [وهى جدتها] صرخت فيه لتستعيدها منه، لذلك بدأ هذا الرجل ذو القناع فى حمل الطفلة نازلاً بها على الطريق المؤدى إلى معسكر موكاندا.

أثناء ذلك لاحظت أن آنا Ana [الصبية الأخرى] قد اختفت. (قال لى أحدهم إنها انطلقت مسرعة فدخلت فى الأجمة واختبأت). وقد بدا أن الفأر ظن أنها مختبئة فى بيتها، لذلك بدأ فى مطاردة أمها، "نيانا" Nyana، التى جرت مسرعة فدخلت البيت وأغلقت الباب خلفها بعنف. ونظراً لأن الباب كان من خشب صلب، لم يستطع الفأر أن يفتحه بالضغط عليه...

(والحق أن "كالولو" الفأر شخص مخادع يأخذ فى اللعب والرقص ثم يهاجم الناس بغتة). وفى اليوم التالى سألت "جون" عن سبب إمساكه بكيانزا وجنجا؛ فقال إن سبب ذلك أنه كان من المفروض أن تذهبا إلى المدرسة، ولكنهما كانتا تغادران البيت دون أن تتوجها فعلاً إلى المدرسة بانتظام. وبعد برهة قصيرة أخذ الرجل ذو القناع يجرى بسرعة على طريق الموكاندا Mukanda، وعدت للمنزل، وأنا لا أزال مذهولة من معاملة الرجل ذو القناع لهاتين الفتاتين.

رغم أن هذه الباحثة الميدانية ركزت فى كتابتها لهذه المذكرات الميدانية أساسًا على الآخرين – الراقص ذو القناع، والفتاتان اللتان تصرخان، والجدة – إلا أنها تأتى أحيانًا على ذكر مظاهر تجاوبها مع الفتاتين المذعورتين – فى صورة ملاحظات بضمير المتكلم "أنا" – ضمنتها تقريرها. ولو أنها كانت قد سجلت بالحرف الصرخات المنطلقة من هاتين الفتاتين المذعورتين ومن الجدة عندما كانت تستغيث بأحد لينقذ حفيدتها، لكانت قد زادت من الإحساس بهذه المطاردة التى صورت من زاوية تشبه اللقطات المقربة المباشرة. مع ذلك، فإنه نظراً لأنها كانت تقوم ببحثها فى مجتمع يتحدث بلغة

تشوكوى Chokwe المستعملة فى منطقة متعددة اللغات، ولأن هؤلاء الناس خصوصاً كانوا يتكلمون بلغة اللوندا Lunda ولغة اللوفال Luvale، فإنه لم يكن بإمكانها أن تقدم اقتباسات بنصها الأصلى. لذلك، فإن توصيفاتها تسجل ما صدر عن المتكلمين بلغة كيتشوكوى Kichokwe من أفعال، وصرخات، بجانب ما كانوا يذكرونه لها من أخبار. والحقيقة أنه يتعين على الباحث الميدانى ألا يكتب إلا ما يشاهده من أفعال الآخرين وما يسمعه من أقوالهم، كما ينبغى أن يستعمل صيغة الكلام المنقول إليه مما حكاه له الآخرون.

عندما يتتبع الباحث عن كثب أنشطة شخص ما على مدى فترة من الزمن، فإنه يستطيع أن يكتب انطلاقًا من ضمير الغائب وحده، يحصر فيها توصيفاته على ما رآه هذه العضو، وما فعله، وما قاله. وقد يكتب الباحثون الميدانيون - عن وعى - انطلاقًا من وجهة نظر شخص شارك بشكل مباشر فى المشهد أو فى العمل. وقد يقومون بذلك عن طريق وصفهم لحدث معين من الموقع الذى كان ذلك الشخص يتخذه فعلاً، وذلك عن طريق انتقائهم للتفاصيل التى يبدو أن هذا الشخص قد لاحظها فعلاً، وعن طريق إدراجهم للكلمات التى وصف بها هذا الشخص ذلك الحدث. مثال ذلك، أن الكاتب - فى روايته لمعركة أو نزاع بين الوالدين من وجهة نظر الأطفال - قد لا يقتصر على السرد باستعمال كثير من كلمات الأطفال عن هذا النزاع، وإنما يورد كذلك التفاصيل التى قد لا يلاحظها إلا الطفل، كالأصوات المرتفعة، والحركات الدالة على التهديد والوعيد، والحجم الضخم لتلك النزاعات. ورغم أن الباحث قد ينتهى إلى بعض الاستنتاجات المتصلة بأفكار الأطفال ومشاعرهم، إلا أنه ينبغى عليه أن يقيِّم هذه الاستنتاجات من واقع ما يمكن مشاهدته من تعبيرات الوجه، والإيماءات، والكلام، ثم يصف هذه الأمور من منظور الطفل.

يستطيع الباحث عندما يكتب بضمير الغائب أن يزيد إحساسه بأفكار أحد أفراد المجتمع، كما يتيح له ذلك مناقشة المسائل والقضايا التى تهم هذا الشخص. مثال ذلك أن الباحث فى أثناء دراسته لوسائل العلاج التقليدية فى إحدى الثقافات الأفريقية،

قد يتتبع الأنشطة التى يقوم بها أحد المعالجين على امتداد اليوم: ذاهبًا معه لتحضير أدويته، وجالسًا بجانبه وهو يعالج مرضاه، كما يجلس إليه بعض الوقت بعد أدائه لواجباته (Yoder 1982). ومن شأن استمرار الباحث الميدانى فى الاندماج الشديد فى الأنشطة التى يقوم بها أحد أفراد المجتمع ووصفه بعد ذلك لاهتمامات هذا الشخص، وما يفعله، وما يقوله؛ من شأن ذلك أن يجعل الباحث أقدر على إدراك رؤى وأفكار هذا الفرد. ومع ذلك لا ينبغى لهذا الباحث أن يحدد دوافع هذا المعالج أو يحاول وصف ما يفكر فيه. بل عليه أن يقصر مذكراته الميدانية على ما شاهد هذا الطبيب المعالج يفعله وما سمعه يقوله فعلاً. والواقع أن كتابة العبارات حرفيًا (كما نطق بها قائلوها)، بجانب ما يصاحبها من إيماءات وتعبيرات الوجه، تعد من أكثر الوسائل فعالية فى تصوير آراء وأفكار الشخص.

ومن الواضح أن الباحث الميدانى الذى يأخذ بالفعل أوضاعًا مختلفة للملاحظة ويشارك الآخرين حياتهم بتعاطف، يستطيع أن يكتب بكفاءة أكبر باستخدام ضمير الغائب، وأن يسجل الأصوات المتعددة التى سمعها فى مجتمع البحث(١٠). مثال ذلك أن الباحث الميدانى، فى كتابته لمذكراته عن تجربته فى طابور الدفع فى أحد محلات البقالة، قد يصف ما يجرى من أنشطة – فى أوقات مختلفة – انطلاقًا من الموقع والمنظور الخاص بكل من: البائع الذى يقبض، وعامل المتجر، والزبون الذى يتلقى الخدمة، والزبائن الآخرين الذين ينتظرون دورهم فى طابور الدفع. فعن طريق التسجيل الأمين لما يحكيه هؤلاء الأطراف من روايات وما يجرى بينهم من حوارات، يمكن سماع أصواتهم وأفكارهم بصورة شديدة الوضوح.

وجهة النظر ذات المعرفة الكلية

بإمكان الباحث الميدانى – أيضًا – أن يكتب مستعملاً ضمير الغائب ولكن مع تبنيه لوجهة نظر كلية المعرفة. وفى وجهة النظر هذه يفترض الكاتب أن لديه "قدرة خاصة على فهم أفكار الشخصيات"، ومشاعرهم، والدوافع التى تحركهم، وعلى فهم ما

يصدر عنهم من أقوال وأفعال ظاهرة (Abrams 1988: 145). والباحث الذى يكتب من وجهة النظر هذه يستعمل نبرة "موضوعية" وأسلوباً فى تسجيل الأحداث كأنها "روايات واقعية" (Van Maanen 1988). وعند تبنى الكاتب لهذا التوجه الفكرى الذى يزعم المعرفة بكل شىء، فإنه يستطيع التحرك بحرية بين زمن وآخر وبين مكان وآخر، كما يستطيع التنقل بسهولة بين الشخصيات. والواقع أنه باتخاذ الكاتب لمنظور فكرى كلى المعرفة نجده لا يقصر وصفه على ما يمكن مشاهدته من حركات وأقوال تصدر عن الشخصيات، بل يشمل كذلك أعمق ما يدور فى بواطنهم من أفكار، ومشاعر ودوافع. ولأن وجهة النظر هذه تضع الكاتب موضع الملاحظ المحايد - فوق الأحداث أو خارجها - فإنه يستطيع بفضل ذلك أن يصف الشخصيات وما يصدر عنها من أفعال برؤية أقرب إلى الرؤى الملهمة التى تعلم الأسباب السابقة والعواقب النهائية.

ولو أن الباحثة التى درست طقوس وشعائر الموكاندا Mukanda فى زامبيا تبنت منظوراً كلى المعرفة، لكانت قد روت وقائع ما حدث فى الليلة السابقة على هذه الطقوس من رقص شديد السخونة، وضرب للطبول، وغناء اشترك فيه أهل القرية جميعاً. ولعلها كانت ستصف عندئذ مشاعر الصبيان الصغار - وربما كانت هذه المشاعر مشاعر الخوف والإثارة - وهم منتظرون ليُدفع بهم عند الفجر إلى المعسكر ليُختنوا. ومن المؤكد أن الشخص ذو القناع الذى كان يرقص على إيقاع دقات الطبول كان سيلفت انتباهها كذلك، ولكانت قد وصفت بذلته المنسوجة بألياف الرافيا(*) وما وضعه على قناعه من زخارف سوداء وحمراء. وانطلاقاً من ذلك المنظور المطلق، فلعلها كانت ستصف عملية الختان التى تجرى فى معسكر الصبيان الموجود بعيداً فى الأجمة، فى حضور الآباء والإخوة والأعمام. (ولكان من اللازم أن تعتمد فى توصيفاتها لذلك المكان المقصور على نوع اجتماعى معين - وهم الذكور - على المقابلات مع بعض أولئك الأشخاص). ثم لعلها كانت ستعود بعد ذلك إلى الأمهات والنساء الأخريات، والأطفال الموجودين

(*) الرافيا Raffia: هى ألياف نخيل مدغشقر. (المترجم)

فى القرية، لتسجل ما يدور من غناء ومن طقوس صب الماء على رؤوس الأمهات، فضلاً عن وصفها لما يشغلهن من أفكار – سواء أكانت أفكار توتر أو سرور – وهن ينتظرن أن يسمعن من قائد المعسكر أن عملية ختان أبنائهن قد تمت بنجاح.

ولكن الواقع فعلاً أن الباحثة لم تكتب مذكراتها الميدانية بمثل هذا النهج الكلى المعرفة، وذلك بالرغم من أنها وصفت – بالفعل – كثيراً من هذه التصرفات الطقوسية كما عاينتها أو كما أخبرها بها أشخاص آخرون. بل إنه كان سيصبح من المحال عملياً بالنسبة لها كتابة تقرير شامل لكل الجوانب بدون تخصيص ساعات كثيرة لإجراء مقابلات شخصية مع الناس للوقوف على طبيعة الأحداث التى عجزت عن مشاهدتها بنفسها، ومناقشتهم فيما يشغلهم من اهتمامات ومشاعر تتصل بهذه الأمور. هذا فضلاً عن أن التوجه الفكرى التفاعلى التأويلى يناهض – بصفة عامة – استعمال أى منظور فكرى كلى المعرفة فى كتابة المذكرات الميدانية. فالأسلوب الكلى المعرفة يدمج خبرة الباحث الميدانى التى اكتسبها بمشاركته فى الأحداث بالأقوال التى يخبره بها الناس؛ ويحجب العمليات المعقدة للكشف عن أنواع الفهم المختلفة لمعنى حدث ما؛ كما يختزل ويخلط الرؤى المتعددة فيحولها إلى روايات يلقيها صوت واحد عليم بكل شىء؛ ويتجاهل التأويلات الممكنة اللازمة للوصول إلى صيغة للتوفيق بين الروايات المتباينة لنفس الحدث أو ترتيبها فى سلم الأولوية(١١).

التأليف بين وجهات النظر، والتفريق بينها

بصرف النظر عن وجهة النظر التى سيتم تبنيها فى كتابة المذكرات الميدانية، فإن الباحثين الميدانيين الأمناء يحافظون دائماً على أن تكون كتابتهم محصورة فى نطاق ما رأوه وسمعوه، متمسكين بالتفاصيل الفعلية التى شاهدوها والروايات الفعلية التى تلقونها. ولهذا، فإن الكاتبة سواء كتبت بضمير المتكلم، أو بضمير الغائب، أو تبنت وجهة النظر ذات المعرفة الكلية، فإن كتابتها تنبع حتماً من الخبرات التى عايشتها؛ إذ أنها تقدم – حتماً – ما تعرفه عن خبرات الآخرين وعن فهمها لها. إلا أن درجة

انخراط الباحثة فيما يقوم به الناس من أعمال، يشكل - بطريقة ضمنية - المنظور الذى من خلاله يمكنها الكتابة عن بعض الأحداث. فالاندماج يتيح للكاتبة أن تكتب من منظور "قريب" وأن تقدم التفاصيل كما يراها أحد أفراد المجتمع، كما يمكنها أن توصل صوت هذا الفرد عندما تستعمل نفس الكلمات التى نطق بها. وعلى النقيض من ذلك وحتى عند الكتابة باستعمال ضمير المتكلم، يبرز أمامنا فى الغالب منظور "بعيد" - حسيًا أو عاطفيًا - يتجلى فى التوصيفات شديدة العمومية التى تقدم بنبرة تشبه لغة التقارير.

ويمكن للمذكرات الميدانية كذلك أن تتحرك متنقلة بين منظور وآخر، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن الباحثة تنقل اهتمامها - دائمًا - بين نفسها والآخرين. وينبغى أن تقيم المذكرات الميدانية توازنًا بين حساسية الباحثة لرؤية الناس للأحداث، وما يتكون لديها كملاحظة من تصورات وردود أفعال إزاء هؤلاء الناس. ويتجلى هذا التنقل جيئة وذهابًا - بين النفس والآخرين - بصورة يسيرة فيما يظهر من أصوات ووجهات نظر متغيرة.

من ناحية، يهتم الباحث الميدانى بالأحداث ويكتب عما تعنيه عند أفراد المجتمع. فنجده يولى اهتمامًا خاصًا للأحداث الروتينية التى تحدث بصفة متكررة فى ذلك المجتمع؛ وذلك حتى لو كان الناس يأخذونها مأخذ التسليم ولا يبدون من الاهتمام الواضح إلا قدرًا يسيرًا، ذلك أن هذه الأحداث تشغل مقدارًا كبيرًا من وقتهم وطاقتهم. كما يهتم الباحث الميدانى بالقضايا أو الوقائع التى تبدو ذات أهمية أو دلالة خاصة عند أفراد مجتمع البحث. والهدف من هذا الاهتمام يجمع بين اكتشاف ما هى هذه القضايا، وتمييز المعانى الخاصة التى يربطها أولئك الأفراد بهذه القضايا. ولتحقيق هذا الهدف، يستعمل الباحث الميدانى عادة قدرًا محدودًا من التعبيرات المكتوبة بضمير الغائب، ولكنه يكثر من الاقتباسات التى نطق بها الأعضاء حتى يجعل أصواتهم مسموعة.

ومن ناحية ثانية، لا يستطيع الباحث أن يتجاهل مشاركته الشخصية فى المشاهد التى يقوم بملاحظتها، وفى قيامه بهذا الرصد، وفى تدوينه النهائى لها. ونحن نتوقع

ألا يقتصر الأمر على أن يكون حضور الباحث مرئيًا فى ثنايا التقارير الوصفية اليومية، بل أن يكون حضوره مسموعًا كذلك. وهكذا نرى أن الهدف ليس مجرد رسم صورة للحياة اليومية والاهتمامات التى تشغل الآخرين، وإنما رسم صورة لهذه الحياة ولتلك الاهتمامات كما يراها، ويفهمها، وينقلها هذا الباحث. وفى هذه الجزئية – مثلاً – يدرج الباحث الميدانى الملامح اللافتة والأحداث التى تكون غير متوقعة، أو التى تتناقض مع ما هو معتاد عليه، أو التى تتولد عنها ردود أفعال انفعالية قوية. وفى كتابته لمثل تلك المذكرات الميدانية، كثيراً ما يستعمل صيغة المتكلم لأنه يركز على ردود أفعاله إزاء الأحداث والناس. وبإدراجه لنفسه فى هذه التفاعلات، فإننا نجده يكتب بلسانه ونقلاً عن الآخرين.

والخلاصة أن الباحث يمكن أن يكتب عن موضوعات معينة من وجهة نظر واحدة، ولكن المذكرات الميدانية فى مجموعها تتنقل بين أكثر من وجهة نظر. فتتنقل من وصف الأحداث التى شوهدت من موقع واحد، وفى لحظة زمنية معينة، ومن منظور واحد، إلى التوصيفات الأشمل التى تنطلق من وجهات نظر أخرى.

الوقت الفعلى وأوصاف اللحظة النهائية

يواجه الباحثون الميدانيون – فى كتابتهم للتقارير الوصفية – خياراً من نوع آخر مؤداه: هل يصفون حادثة ما فى "الوقت الفعلى" لوقوعها من منظور المعرفة الكاملة أو الجزئية عنها، أم يصفونها بالنظر إليها من نقطة النهاية التى تتوافر فيها المعرفة الأكثر اكتمالاً؟

وفى أوصاف الوقت الفعلى للحدث، يسعى الكاتب لرسم صورة للأحداث مقتصراً على استعمال ما يعرفه عنها وقت وقوعها؛ لهذا يحاول الكاتب أن يتجنب استعمال المعلومات التى سوف تصل إلى علمه فى النهاية ولكنها حتى لحظة كتابته – فى الوقت الفعلى للحادثة – لا تكون متوافرة لوصف ما حدث فى لحظات سابقة. وسنحاول –

من باب التوضيح – أن نتأمل كيف يستبعد الوصف التالى للحظات الشروع فى مهمة فى أحد الشوارع التى يرتادها العاطلون والسكارى؛ يستبعد ذكر المعانى الأساسية إلى أن يكتشفها الكاتب فعلاً فى وقت لاحق:

> كانت المنطقة المحيطة بالكنيسة، بما فيها هذا الزقاق، كانت كلها تغص بالناس، وبصورة تفوق ما كانت عليه الأحياء السكنية المجاورة. وربما كان ثمانون فى المائة من هؤلاء الناس من السود؛ وكان نحو تسعين فى المائة منهم من الذكور. وكانوا يرقدون، أو يجلسون أو يقفون جميعًا حول الجدران الزرقاء اللون للكنيسة... يعطى الأفراد الواقفون على الجانب الأيسر لباب الكنيسة الانطباع بأنهم فى طابور انتظار: فقد كانوا جميعًا يقفون على مسافات موحدة تقريبًا، وظل نفس هؤلاء الأفراد واقفين فى هذا الطابور على امتداد الساعات العديدة التى كنت أتجول فيها حول الكنيسة. وعندما قرأت لاحقًا النشرة التى أصدرتها الكنيسة، عرفت أنه من الأرجح أن هؤلاء الأفراد ينتظرون فى الطابور ليحصلوا على خدمة المبيت فى الكنيسة. فقد ذكرت النشرة أن "تذاكر المبيت" تسلم فى الساعة ١٢,٣٠ بعد الظهر وأن هذا الطابور قد تشكل منذ وقت مبكر. ومن الأمور التى لفتت انتباهى، أنه كان يوجد خلف الكنيسة عدد من الناس الواقفين فى طابور تبينت أنه طابور الغداء، وقد كانوا أكثر عدداً من الواقفين فى طابور المبيت.

تحتفظ هذه الرواية المسجلة فى الوقت الفعلى بخبرة الكاتب الخاصة برؤيته لتجمع من الناس وبعدم اكتمال معرفته بما كانوا يعملونه. وتعبير "كانوا واقفين فى طابور" لا يستعمل – مبدئيًا – لوصف المشهد، ولكنه مذكور كاكتشاف تم أثناء قيام الباحث بعمله. وقد اجتهد الوصف لتحديد المبررات الأولية لوصف هؤلاء الناس بأنهم "واقفون فى طابور"، مثال ذلك قول الكاتب عنهم أنهم واقفون على "مسافات موحدة" وأنهم مستمرون هكذا طوال الوقت. ويصف الكاتب بشكل واضح صريح اكتشافه لاحقًا "للغرض" المستهدف من هذه الأنشطة، وهو الحصول على "تذاكر المبيت" التى تتيح

للمرء أن يقضى الليل فى الكنيسة؛ ففى هذه اللحظة فقط يصف الكاتب هذا التجمع بأنه "طابور المبيت".

وعلى خلاف ذلك، قد يعمد بعض الباحثين الميدانيين الآخرين إلى وصف الأحداث بالاستعانة الكاملة بالمعلومات التى عرفوها وفهموها فى نهاية الأمر. ويدرج هذا الإجراء "الحقائق" وفهم تلك المعلومات الذى اتضح فيما بعد، وذلك بغرض وصف أو تصوير الأحداث التى جرت فى المراحل المبكرة للبحث. مثال ذلك، أن الملاحظ فى وصفه لاجتماع عمل رسمى - باستعمال هذه الطريقة - يمكنه منذ اللحظة الأولى لكتابة مذكراته أن يصف المشاركين فى هذا الاجتماع ذاكراً إياهم بالاسم والوظيفة، وذلك بالرغم من أنه لم يعلم هذه الأمور إلا أثناء انعقاد هذا الاجتماع.

ويمكن القول بصفة عامة أن هذا الإجراء المتبع فى الكتابة عن الأحداث باستعمال معلومات لم يتحصل عليها الباحث إلا عند إحدى "لحظات النهاية"، فيستخدمها كمصدر لوصف أمور وقعت فى لحظات سابقة. فنحن عندما نلاحظ مشاهد جديدة، كثيراً ما نستعمل ما توصلنا إلى معرفته فى آخر الأمر من معلومات فى وصف الأحداث والدلالات التى لم نفهمها فى بادئ الأمر أو فهمناها فهماً جزئياً أو غير صحيح. بل إن الملاحظة تتضمن عمليات مستمرة من إعادة تأويل الأحداث الماضية Retrospective Interpretation (أو إعادة التأويل الرجعى)، حيث يستطيع الملاحظ أن يبلور بصورة أكثر وضوحاً وتحديداً، ما بدا له - فى لحظة سابقة - مبهماً، أو ملتبساً، أو شديد الاختلاط والتشويش (Garfinkel 1967). كما أن التقارير الميدانية المكتوبة قد تتضمن أمثال تلك العمليات المتعلقة بإعادة التأويل الرجعى (أو إعادة تأويل الأحداث الماضية).

مثال ذلك، أن الباحث الميدانى الذى يقوم بملاحظة مشاهداته فى إحدى الحافلات، قد يسجل فى مذكرته أن "امرأة مجنونة" قد صعدت إلى العربة وأخذت تتحدث مع السائق. فإذا كان "جنون" هذه المرأة لم يتضح إلا عندما تكلمت مع السائق ومع الركاب الآخرين، فإن ملاحظة الباحث هذه تمثل نوعاً من الحكم التقييمى المستنتج من سلوك

تفاعلى متصل؛ أما وصفها بأنها "مجنونة" بمجرد ظهورها لأول مرة فى المشهد فإنه يحجب هذه العمليات، ويجرد هذه الرواية المكتوبة من ذكر أى مبرر للطريقة التى بدا بها الاضطراب واضحًا على هذه المرأة عند رؤية الباحث لها. ومن ناحية ثانية، قد يرجع الأمر إلى أن المظهر الخارجى لتلك السيدة وما بدر منها من سلوك فى أول الأمر قد جعل "جنونها" يبدو واضحًا للباحث "للوهلة الأولى" (وربما جعله واضحًا كذلك لأى مواطن أمريكى يعيش فى المدينة ويشارك أهلها قيمهم الثقافية). وفى هذه الحالة فإن وصف هذه المرأة بأنها "مجنونة" فى أول الكلام مباشرة، يثير قضية تتصل بكفاءة الوصف أكثر من اتصالها بالتأويل الرجعى؛ فكلمة "مجنونة" مصطلح ذو طابع تقييمى حاد كان ينبغى أن يصحبه وصف لكل ما يمكن رصده من سمات واضحة تبرر إصدار مثل هذا الحكم فى أول الأمر. ويمكن القول بصفة عامة، أن المذكرات الميدانية التى تتسم بالكفاءة فى الوصف من شأنها أن تمكن القارئ من تمييز المعلومات الأولية عن تلك المستخلصة من إعادة التأويل الرجعى.

وتعتبر بعض هذه العمليات الخاصة بإعادة التأويل الرجعى أمرًا لا مفر منه عمليًا. فنحن، لأغراض كثيرة، لا نهتم سواء فى التأويلات المبدئية التى يفسر فيها الملاحظ سلوك الناس، والقائمة على معلومات شديدة النقص والقصور، أم بمجرد معرفة الطريقة التى فهم بها هذا الباحث حقيقة من هم هؤلاء الناس وماذا يمثلون وماذا يعملون. ومع ذلك توجد أوقات ومناسبات قد يرغب فيها الباحث الميدانى فى الحفاظ على الفهم المبدئى – مهما كان خطؤه – وبالعملية الفعلية لتحديد المعنى وذلك بعد تصحيح مثل هذا الفهم.

ونصادف إحدى هذه المناسبات عندما يرغب الباحث الميدانى فى تسليط الضوء على المسار الطبيعى للتجربة التى يرصدها. مثال ذلك، أن الرواية الخاصة بواقعة التحرش الجنسى التى سبق ذكرها فى موضع سابق من هذا الفصل تستعمل التعليق الذى أدلى به المالك لاحقًا لتعيد تركيب ما سمعته الكاتبة فعلاً من تعليقه البذئ الأول بقولها عنه إنه التعليق "الذى لابد أنه قاله". وتُرغم هذه الوسيلة الكاتبة على الرجوع إلى

الوراء لشرح كيف أمكن لمثل هذا "الخطأ السمعي" أن يحدث، مؤكدة بذلك الانفصال والتناقض بين "ما حدث فعلاً" و"ما شعرت به الملاحظة الكاتبة". والبديل عن هذا أن تقدم الكاتبة هذه الواقعة بالصورة التى عايشتها بها تماماً: فتسجل التعليق الأول للمالك هكذا: "إن لك ذوقًا رائعًا، أليس كذلك؟"، ثم تشير بعد ذلك إلى الطريقة التى تسبب بها تعليقه الثاني الذى قال فيه "إن لك صدراً رائعًا" فى تغيير مضمون ما سمعته من قبل. ومن شأن هذا الإجراء الوصفى أن يتيح للقارئ مشاركة الباحثة فى صدمتها بطرق تعكس - بصورة أدق - التكشف التدريجى لهذه التجربة لحظة فلحظة.

وقد يرغب الباحث الميدانى كذلك فى تقليل درجة إعادة التأويل الرجعى من أجل أن يسلط الضوء على مسار تجربته الذى انتهى به إلى تحديد المعنى. فبالعودة إلى مثالنا السابق: لو كان الباحث الميدانى مهتمًا بكيفية معرفة المشاركين فى اجتماع عمل بهوية المشاركين الآخرين فيه، لكان من المحتمل وقتها أن يركز على مجرد وصف كيفية توصله هو إلى معرفة هوية هذه الشخصيات، وذلك بأن يكتب مذكراته بطريقة تحافظ على القصور المبدئى فى الوقوف على معلومات محددة بهذا الشأن. وتسمح هذه الإجراءات الوصفية للقارئ أن يشارك على الأقل فى جزء من الخبرة الفعلية للباحث/ الكاتب فى اكتشاف المعنى. كما أنها تضع الباحث/ الكاتب فى قلب عملية تقرير المعنى وتوضيحه، وتنزع بذلك عن هذا الوصف موضوعيته. فالوصف الذى تناول "طابور تذاكر المبيت" الموجود خارج كنيسة فى الشارع الذى يزدحم بالعاطلين والسكارى، وكيف آل أمره إلى أن يكتشف بهذه الطريقة، يدل على أن هذا الباحث/ الكاتب قام بدور المفسر الإيجابى للعالم الاجتماعى الذى يدرسه.

وموجز القول، أن الكاتب، سواء أكان يكتب بأسلوب "الوقت الفعلى" بغرض اكتشاف ما يجرى، أم كان يكتب بنمط الحكى بأسلوب "اللحظة النهائية"، فإنه يتعلم من خلال كتابته عن تجربته. ذلك أنه أثناء تقدم الباحث فى خطوات الكتابة النهائية "للمذكرات الميدانية"، يقوم بتمثل تجربة ما ويبدأ - بهذا الشكل - فهمها: فهو يفهم تلك اللحظة عن طريق استعماله لبديهته وحدسه فى انتقاء التفاصيل، وإبرازها، وترتيبها.

وعن طريق البدء فى تقدير ما بين هذه التفاصيل من روابط يربطها بالخبرات التى سبق له أن رصدها ووصفها، ويتبين ما بين هذه التفاصيل وتلك الخبرات من وجوه التباين والاختلاف. ومن هذه الناحية تكون كتابة المذكرات الميدانية أكثر من مجرد عملية تذكر أمر ما ثم تدوينه على الورق. بل إن كتابة المذكرات الميدانية تعزز التعلم وتعمق فهم الباحث لما شاهده وسمعه فى الميدان[١٢]. وخاصة عندما يكون الباحث بصدد دراسة أسلوب من أساليب المعيشة التى ليس له سابق معرفة بها، إنما يفيد من الكتابة عن خبراته، وذلك لأنه من خلال الكتابة يتعلم أن يفهم ما بدا له، فى مبدأ الأمر، غير عادى وشديد الوقع على النفس. بل إن كثيراً ما يرغب الباحثون الميدانيون فى الكتابة عن ذلك، لأنهم يدركون أن الكتابة طريقة من طرق الرؤية، وأن الخبرة التى عايشوها لم تحفظها الكتابة فحسب، وإنما ألقت عليها ضوءاً زادها وضوحاً وجلاء.

أفكار للتأمل: أنماط الكتابة وأنماط القراءة

إن اعتبار المذكرات الميدانية نوعًا من التقارير الوصفية إنما يترجم بالأساس تصورها كنوع من الكتابة البسيطة المباشرة. ولكن إذا اتفقنا على أن الوصف يتضمن ما هو أكثر من التطابق التام بين الروايات المكتوبة وبين ما يجرى من أحداث، فمعنى ذلك أن المذكرات الميدانية لابد وأن تثير مشكلات معقدة ومحيرة. ويقوم التقرير الوصفى على أساس مشاركة الباحث/ الكاتب فى مجتمع البحث، ولكن لا يمكن أن يوجد شخصان يشاركان ويفهمان مجتمعًا معينًا بنفس الطريقة تمامًا. وفوق ذلك، تشهد الحياة الاجتماعية من الأمور والأحداث الجارية ما يفوق قدرة الباحث على ملاحظته، ثم أنه من المستحيل تسجيل كل ما أمكن ملاحظته. ولا مناص من أن يتضمن الوصف التفصيلى عدداً من النظريات ، والأغراض، والاهتمامات، ووجهات النظر المختلفة. ومن هنا تقوم المذكرات الميدانية على توصيفات هى أقرب إلى مجموعة من الحكايات التى تصور شرائح من الحياة تصويراً تفصيلياً حيًا، منها إلى ترجمة شاملة، أو حرفية، أو موضوعية[١٣].

على أنه يتعين على الباحث الميدانى أن يتجنب الانسياق والتورط فى تعقيدات التوصيفات التفصيلية للمذكرات الميدانية أثناء كتابته الفعلية لهذه المذكرات. لذا عليه أن يشرع فى الكتابة وفقًا "لنمط كتابة" معين، فيصوغ فى كلمات يدونها على الورق ما شاهده وما سمعه بأسرع وبأدق ما يمكنه. وبالعمل وفقًا للنمط الذى سيتبناه فى إنتاج النص، يحاول الباحث الميدانى "التدوين" بأدق وأوفى ما يمكنه التدوين، مع تجنبه للوعى الذاتى المفرط بعملية الكتابة ذاتها. فهو يظل قريبًا من الأحداث التى يناقشها، مستعيداً استثارة انفعاله السابق بتلك الأحداث، ومستمراً فى مهمة الكتابة عنها قبل أن تخبو ذاكرته. فالباحث الكاتب يحاول أن "يحيط علمًا دقيقًا ويرسم صورة واضحة لما يدور حوله"، أو بتعبير أدق، يحاول أن يقدم تقريراً مفصلاً عن مشاهداته وخبراته "بما يدور فى ذلك المجتمع". وفى هذه المرحلة يكون الإفراط فى التأمل وإعمال الفكر سببًا فى تشتيت الذهن أو حتى إصابته بالشلل، فالمرء حينئذ يحاول الكتابة بدون مراجعة، ويحاول تقديم وصف مفصل بدون أن يساوره القلق على الأهمية التحليلية له أو الروابط التى تصلها جزئياته ببعضها، كما يحاول وصف ما قد حدث بدون المغالاة فى التأمل الواعى المقصود.

ولا يستطيع الباحث الميدانى إلا فيما بعد - وبمجرد أن يتم إنتاج النص فعلاً - أن يرجع رجوعًا حقيقيًا للوراء ليبدأ فى إعمال عقله فى التعقيدات التى تغلغلت فى الوصف الوارد فى مذكراته الميدانية. ذلك أنه بدون توافر المذكرات الميدانية المفصلة تفصيلاً تامًا لا يستطيع الباحث أن يتبنى نمطًا للقراءة ويبدأ التأمل فى كيف أن هذه الروايات تمثل ثمرات قراراته الشخصية التى كانت مضمرة فى نفسه غالبًا، والمتعلقة بطريقة مشاركته فى الأحداث ووصفه لها. وهذا يعنى أنه بدون وجود المذكرات الكاملة فى اليد، لا يكون هناك معنى للنظر إلى هذه الكتابات كنصوص تمثل ثمرات مقتضبة، وجزئية، ومنحازة (لمنظور معين) لأساليب الباحث فى المشاركة، وتحديد المسار والكتابة. ففى هذه اللحظة فقط يستطيع الباحث أن يشرع فى تناول المذكرات الميدانية باعتبارها بنى (جمع بنية) متماسكة، وأن يقرأها باحثًا عن الطرق التى تخلق بها هذه المذكرات الواقع لا أن تكتفى بتسجيله فقط.

ويتمثل أحد الفروق الأساسية بين العمل فى البداية وفقًا لنمط كتابة معين، والعمل الذى يتم فى وقت لاحق وفقًا لنمط قراءة تأملى؛ يتمثل فى موقف الباحث الميدانى من مسألتى "الدقة" و"التطابق" بين الرواية المكتوبة والأحداث التى تحكى عنها تلك الرواية. ففى لحظة الكتابة يتوجب على الباحث أن يحاول تحقيق تماثل شديد بين الرواية المكتوبة وخبراته ومشاهداته "لما حدث بالفعل". فالمهمة المباشرة لكتابة الوصف الوارد فى المذكرات الميدانية هى إنشاء رواية مفصلة، ودقيقة، وشاملة لما عايشه من خبرات. ولكن بمجرد أن تُكتب المذكرات، يفقد معيار التماثل هذا وضوحه وأهميته. ذلك أن "ما حدث فعلاً" يتعرض لعملية ترشيح (فلترة) التى تحدث من خلال شخص الباحث ومن خلال عملية التدوين على الورق. وهكذا يتولى النص الناجم عن هذه الكتابة "تثبيت" حقيقة اجتماعية معينة، ولكن بطريقة تجعل من الصعب تحديد علاقتها بالحقائق (الأخرى) الموجودة خارج هذا النص. وقد يحاول القراء أن يتبينوا هذه العلاقة عن طريق الاستشهاد بما يعرفونه من معلومات بناء على أنهم "كانوا هناك" (فى ذلك المجتمع أو نحوه- المترجم) أو بناء على ما لديهم من خبرة بحقيقة اجتماعية مشابهة. إلا أن القراء مقيدون أشد تقييد بما هو مدون على الورق. فهم فى العادة يفتقرون إلى أى وسيلة فعالة للوصول إلى فهم "ما حدث فعلاً" من غير اعتماد على هذه الرواية المكتوبة. وعلى ذلك، فإنه بقراءة النص المكتوب وفقًا لهذا النمط، يصبح ممكنًا وملائمًا أن نمارس التأمل الواعى والنقدى للطريقة التى أسهمت بها خيارات الكتابة فى وضع نصوص خاصة وحقائق نصية معينة.

الفصل الرابع

تدوين الملاحظات الميدانية (القسم الثانى)

خلق المشاهد على الورق

إن اعتبار تدوين المذكرات الميدانية أمراً لا يزيد عن وضع ما سمعه وشاهده الباحث الميدانى على الورق، ليعطى الانطباع بأنه عملية شفافة؛ فوفقًا لهذا التصور، يقوم الباحثون الميدانيون بنقل صورة "مرآة" للواقع المدروس فيما يكتبون من مذكرات. فهم يقدمون بذلك وصفًا خاليًا من البلاغة المتقنة، أو الاستعارة الدقيقة أو السرد المعقد والمشوق. كما يعطى هذا التصور انطباعًا بأن كتابة الوصف التفصيلى لا تحتاج إلا إلى ذاكرة حادة ومجهود أمين.

ويؤكد تصور مخالف للتصور السابق أن الكتابة كلها، حتى وإن بدت كتابة وصفية مباشرة، عبارة عن بناء وتركيب ينشئه الكاتب. فالكاتب من خلال اختياره للكلمات ومنهج التنظيم، يقدم صورة مختلفة للعالم. والكتابة بوصفها نشاطًا انتقائيًا وإبداعيًا، تقوم بوظيفتها دائمًا باعتبارها مرشحًا (فلتر) أكثر من كونها مرآة تعكس واقع الأحداث. من ناحية ثانية، لم يصل الباحثون الميدانيون، إلا مؤخرًا، إلى قبول هذا التصور، وإلى إدراك أنه حتى *الدراسات الميدانية "الملتزمة بالنزعة الواقعية"* عبارة عن تركيبات تعتمد على طائفة من الأنماط الأسلوبية المتعارف عليها. يشهد لذلك أن فان مانين (Van Maanen 1988: 47) قد عرَّف "الحياد المدروس" بوصفه العرف الجوهرى فى *الإثنوجرافيا الواقعية*، فمن خلال هذا العرف "يتظاهر الراوى بأنه يقوم بدور الموصل المحايد،

الذى يختلف عن المبشرين، ورجال الإدارة، والصحفيين وعن أعضاء الثقافة التى يدرسها أنفسهم، والذين لا يخجلون من واقعهم؛ يقوم هذا الراوى بتقديم بيانات موضوعية إلى حد ما ملتزمًا بأسلوب فكرى مدروس لا يلوثه الانحياز الشخصى، أو الأغراض السياسية، أو الأحكام الأخلاقية".

وكما هو الحال مع الدراسات الميدانية المكتملة، فإن المذكرات الميدانية الوصفية تعتمد هى الأخرى على طائفة من أعراف الكتابة. فالباحثون الميدانيون ينشئون ما فى مذكراتهم الميدانية من أوصاف باستخدام ما ينتقونه ويتذكرونه ويريدون إبرازه من أحداث ومشاهد. وسواء أكان الأمر يتعلق بواقعة، أو حدث، أو إجراء روتينى، أو علاقة تفاعل، أو صورة مرئية، فإن الباحثين يعيدون بناء كل مرحلة من تطور الأحداث باستخدام التفاصيل المنتقاة التى يتذكرونها أو التى سبق لهم أن قيدوها فى مذكراتهم السريعة الموجزة: كالكلمات، والإيماءات، وحركات الجسم، والأصوات، والمشهد الخلفى... وما أشبه ذلك. وفى أثناء قيامهم بالكتابة، يقومون بإلقاء مزيد من الضوء على أفعال وأقوال معينة بقدر أكبر مما يفعلونه مع الأفعال والأقوال الأخرى، وذلك لكى يقدموا إحساسهم بخبرة ما فى صورة واضحة. وبتعبير آخر، يقوم الباحثون الميدانيون بخلق المشاهد على الورق من خلال الأوصاف المفرطة فى انتقائيتها والمعبرة عن ميولهم الشخصية والمتعلقة بالتفاصيل التى رصدوها من قبل ثم أعادوا استحضارها فى ذاكرتهم. وهذه المشاهد - وأعنى بها اللحظات التى أعيد خلقها على الورق - تمثل ما للباحثين من مدركات حسية وذكريات عن بعض شرائح الحياة، بعد أن تكون مهاراتهم الكتابية الوصفية قد أدت إما إلى زيادة قيمتها وإما إلى تشويشها.

وفى هذا الفصل نلقى الضوء على العلاقات القائمة بين اهتمام الباحث الميدانى بأقوال الناس وأفعالهم، والأغراض المباشرة لاسترجاع تلك اللحظات إلى الذاكرة، وأساليب الكتابة التى اختارها لتقديمها وتحليلها. وبطبيعة الأمر، لا توجد طريقة من طرق الكتابة تمكن الباحث الميدانى من استيفاء الكتابة عن الحياة بنفس الدقة التى تقع بها أحداثها، أو حتى بنفس الدقة التى يتذكر بها الباحث تلك الأحداث. ففى أحسن الأحوال،

يقوم الباحث "بإعادة خلق" ذكرياته فى صورة مشاهد مكتوبة تصف بصدق حياة الناس من خلال التفاصيل المنتقاة والمتكاملة. ولكنه يستطيع - عندما يتقن استعمال طرق وصفية معينة - أن يكتب ملاحظاته المستوفاة بسهولة أكثر فى تلك الاندفاعة الأولى لتدوين كل شىء على الورق؛ كما أنه يستطيع أن يصف بكفاءة أكبر تلك المشاهد التى ينتقيها بحدسه وبداهته باعتبارها ذات دلالة خاصة. وسواء أكان يستوفى الكتابة عن المشاهد الرئيسية أولاً أم يعود إليها من بعد ليستوفى التفاصيل، فإن تعلمه لاستراتيجيات الكتابة الوصفية سوف يمكنه من إبداع تلك المشاهد بكتابتها على الورق فى صورة نابضة بالحياة ومستوفاة تماماً.

ونحن نبدأ هذا الفصل أولاً بتناول استراتيجيات الكتابة المستخدمة فى تصوير شرائح من الحياة تم رصدها وتذكرها وكتابتها فى المذكرات الميدانية، كما أننا نمعن النظر، بصورة خاصة، فى الاستراتيجيات التى تستخدم فى وصف مواقع البحث الأساسية، وتلك المستخدمة فى تقديم الحوار الذى يدور بين الناس، وفى أساليب تصوير شخصيات الأفراد أو الشخصيات الرئيسية التى يرد ذكرها فى النص المدون.

ثانياً، نحن نقدم عدداً من الخيارات الخاصة بتنظيم التقارير والبيانات الواردة فى المذكرات الميدانية: أى الاسكتشات (أى: المسودات أو المخططات المؤقتة)، ثم نقدم بعد ذلك شكلين من أشكال السرد، وهما الأحداث - أو الوقائع - Episodes والحكايات الواردة فى الملاحظات الميدانية. (ورغم أننا نتناول استراتيجيات التصوير واستراتيجيات التنظيم بصورة منفصلة، إلا أنه عند كتابة المذكرات الميدانية بالفعل يقوم المرء بالجمع بينهما معاً فى نفس الوقت).

ثالثاً، نقوم بإلقاء الضوء على عدد من استراتيجيات التحليل خلافاً للكتابة الوصفية، تتيح الفرصة للتأمل أثناء الكتابة من خلال الملاحظات أو الكلمات الجانبية والتعليق على المذكرات الميدانية المدونة. ولا يقتصر التأمل فى المذكرات الميدانية على أنه يحث الباحث الميدانى على تخيل المشاهد بصورة أوضح فى المرة التالية التى يرى فيها أحداثاً مماثلة، بل إنه بجانب ذلك يسهل تعقب الصلات المتبادلة المحتملة بين الأحداث المروية فى المذكرات الميدانية.

وعلى امتداد الفصل، نركز توصياتنا على زيادة وعى الباحثين الميدانيين بالخيارات المتاحة لهم فى الكتابة. من ذلك مثلاً أن الباحثين الميدانيين الذين يقومون بهذا العمل لأول مرة لا يشق عليهم عادة كتابة النتف السريعة عن التفاعلات العابرة. إلا أنهم كثيراً ما يكونون غير متأكدين من طريقة الكتابة عن المشاهد الرئيسية الأكثر تعقيداً، وذلك عن طريق ترتيب التفاعلات وفقًا لتعاقب حدوثها، وتصوير الشخصيات، وتسجيل الحوار، وإيراد فعل ما أو حادثة ما بتفاصيل حسية نابضة بالحياة. ونظراً لأن قدراتهم لا تسعفهم على كتابة التعليق أثناء وقوع الحدث، فإنهم يغفلون عن ملاحظة الروابط الواضحة التى يتعين عليهم متابعتها. ولكن رغم أننا نقدم عدداً كبيراً من التوصيات والأمثلة المحددة، إلا أننا لا نحاول فرض أى أسلوب "صحيح" أو استيفاء كافة اختيارات الكتابة التى قد يستعملها الباحث الميدانى. ومع ذلك، فإننا نرى أن الأسلوب الذى يتبعه المرء فى الكتابة يؤثر فى الغالب على طريقته فى تخيل ما يمكن كتابته. فالباحث الملتزم بأسلوب "موضوعى" فى الكتابة مقدم بصيغة غير مباشرة (أى بضمير الغائب) وبتعبير محايد غير متحيز، سوف يغفل العامل الإنسانى فى أغلب الأحوال، كما أن من المرجح أن يسقط من عرضه التفاصيل المختلطة المتداخلة للخبرة الإنسانية (والتى تكون فى أغلب الأحيان هى الأكثر جاذبية وتشويقًا). لذلك فإن تعلم الكاتب لأن يتخيل المشاهد بوصفها كتابة تفصيلية حية مسجلة على الورق يعد التزاماً بأسلوب وصفى حى للكتابة بنفس مقدار كونه التزامًا بالأمانة الفكرية فى تسجيل الحقائق على نحو يتسم بالاستيفاء والدقة.

كتابة المذكرات المفصلة: تصوير المشاهد

يتمثل الغرض الرئيسى للباحث الميدانى فى وصف عالم اجتماعى معين ووصف البشر الذى يعيشون فيه. إلا أن الباحثين المبتدئين كثيراً ما يكتبون مذكرات ميدانية تفتقر إلى التفصيل الكافى والنابض بالحياة. فمن خلال استعمال الباحث الميدانى لأسلوب فى التعبير قائم - بغير قصد - على الإيجاز والأحكام التقييمية، يخفق فى تقديم وصف مناسب لما شاهده وعايشه. وتُمكن الاستراتيجيات التالية الكاتب من أن

يقدم صورة متماسكة للحظة التى شاهدها ورصدها، وذلك بفضل استعماله للتفاصيل الحية. وهذه الاستراتيجيات هى: الوصف، وعرض الحوار، وتصوير الشخصيات. وسوف يتضح فيما سنورده من نصوص مقتبسه عديدة، أن الباحثين الميدانيين كثيراً ما يدمجون فى كتابتهم عدة استراتيجيات معًا.

الوصف

يستعمل مصطلح "الوصف" بأكثر من طريقه. وكنا على طول الكتاب وحتى الآن نشير إلى كتابة المذكرات الميدانية باعتبارها كتابة وصفية، وذلك فى مقابل طريقة المعالجة التحليلية[١]. وهنا نشير بمزيد من التعيين إلى الوصف باعتباره وسيلة لتقديم صورة، من خلال تفاصيل حسية محددة للمشاهد، والمواقع، والأشياء، والأفراد، والأفعال المهمة والأساسية التى قام الباحث الميدانى بملاحظتها. وبهذا المعنى، تكون كتابة الصور الوصفية مجرد جزء واحد مما يقوم به الباحث الميدانى من سرد لأحداث يوم العمل.

ويتطلب الوصف، باعتباره أحد استراتيجيات الكتابة، استعمال تفاصيل ملموسة محددة وليس تعميمات مجردة، واستعمال صور حسية وليس نعوتًا تقييمية، كما يتطلب الفورية، لكى يحيط بالتفاصيل التى تقدم عن قرب. وينصح جوفمان (Goffman 1989: 131) الباحثين الميدانيين بأن يكتبوا بتدفق وعفوية، مستعملين أحيانًا الصيغ اللغوية للصفات والظروف (ظرف الزمان وظرف المكان) لنقل التفاصيل. من ذلك مثلاً التفاصيل التى تقدم اللون، والشكل، والحجم لخلق صور مرئية، أما غير ذلك من التفاصيل الخاصة بالصوت، ونبرة الكلام، وارتفاع الصوت وجهارته فتوحى بالصور السمعية؛ وثمة غيرها من التفاصيل التى تصف الرائحة والأريج، وهى التى تعيد خلق الصور الشمّية؛ كما أن التفاصيل التى تصور الإيماءات، والحركات، وأوضاع الجسم، وتعبيرات الوجه هى التى تنقل الصور الحركية. ورغم أن الصور المرئية هى التى تتسيد كثيراً من الكتابات الوصفية، فإن الباحثين الميدانيين يدركون أنهم كثيراً ما يجمعون بين هذه الأنواع المختلفة من الصور عند كتابتهم لوصف كامل.

وعند كتابة مشهد ما، يتخير الكاتب تلك التفاصيل التى تخلق على الورق صورة مكتوبة بأقصى قدر من الوضوح والحيوية. ويعنى ذلك أنه لن يحقق نجاحًا عظيمًا فى مهمة الوصف إلا عندما يتخير التفاصيل تبعًا لصلتها بغرض ما وانطلاقًا من وجهة نظر معينة. مثال ذلك، أن الكاتب يكتسب رؤية أوضح للتفاصيل التى ينبغى عليه إبرازها إذا اجتنب وصف موقع المكتب (المحدود) لرصد مشاهداته، ووصف – بدلاً من ذلك – البيئة الكبيرة للمكتب باعتبارها مكانًا للعمل يعج بالفوضى، وكما قد ينظر إليه من وجهة نظر السكرتيرة التى تناضل فى مواجهة ما يسببه لها رئيسها من لخبطة واضطراب فى كل يوم. ومع ذلك، فكثيراً ما يجلس الباحث الميدانى إلى مكتبه ليكتب عن مشهد لم يفهمه بعد على الوجه الصحيح. والواقع أن الباحث المبتدئ كثيراً ما يواجه مأزق عدم معرفته بما هو الأهم؛ لذلك يقتصر غرضه – فى ظل هذه الظروف – على تسجيل الانطباع الذى يشعر به فى ذاك الوقت. وبسبب حاجة الباحث الميدانى – فى المستقبل – إلى تذكر ما لخبراته من سمات مادية وانطباعات حسية، كثيراً ما نجده يصف الموقع، والأوضاع الاجتماعية، ومظاهر الشخصيات، بل قد يصل به الأمر إلى أن يصف الأحداث الروتينية اليومية.

وفى كثير من الأحيان يتخير الباحثون الميدانيون بعض التفاصيل ليصفوا الجو المحيط بموقع ما أو بيئة معينة، وهو أمر يعد هاماً لفهم ما سيقع من أفعال فيما بعد. مثال ذلك، أنه أثناء القيام بالعمل الميدانى الأولى فى إحدى قرى جنوب شرق زائير، قد تمعن الباحثة فكرها فى تذكر الترتيب المكانى والعلاقات الاجتماعية كما سبق لها أن شاهدتها حتى حينه. لذلك فقد تصف فى مذكراتها الميدانية كيف أن جميع المنازل تطل على منطقة مفتوحة ممهدة، وأن الساحة الكبيرة التى يتردد عليها الرجال تقع فى وسط هذه المنطقة؛ وأن النساء يقمن بطهى الطعام أمام منازلهن باستعمال وقود من الأخشاب، وهن يحملن أطفالهن فى أحيان كثيرة على ظهورهن حال قيامهن بأعمالهن، التى يساعدهن فيها بعض الفتيات الصغيرات، وأن بعض الرجال والصبيان يجلسون تحت إحدى الأشجار الموجودة فى هذا الفناء بالقرب من رجلين آخرين يصنعان السلال. فالطريقة التى تتبعها الباحثة فى رؤيتها لتلك التفاصيل ولأسلوب وضعها داخل

سياقها أثناء عرضها للبيئة المحيطة بالتفاعلات الاجتماعية؛ هذه الطريقة تكون مسئولة - إلى حد ما - عن تحديد التفاصيل التى تختارها الباحثة لتخلق منها تلك الصورة المرئية لقرية صغيرة فى وقت الأصيل.

وينبغى على الباحث الميدانى كذلك أن يصور مظاهر الشخصيات التى تشكل جزء من المشاهد الموصوفة، وذلك كى يعرض الإطار الذى تتم فيه الأفعال والأحاديث. مثال ذلك، أن ليندا شو Linda Shaw، فى أثناء دراستها لنزلاء دار ترعى المرضى النفسيين وتوفر لهم الطعام والإقامة، ودراستها للطريقة التى يتبعونها فى التكيف مع الظروف، وصفت واحداً منهم كان غيره من نزلاء هذه الدار يظنون أنه شديد "الجنون" بشكل ملحوظ، فكتبت:

> كنت أنا "وروبرت" جالسين عند المسئول عن هذه الدار نتحدث فى ذلك المساء عندما أخذ نزيل جديد اسمه "بروس" فى المرور أمامنا مرات كثيرة. لقد كان رجلاً طويلاً فى غاية النحافة، وله شعر أشيب أشعث يصل إلى كتفيه ولحية كثيفة طويلة. وقد سمعت أنه لم يتخط الثلاثينيات من عمره، ومع ذلك فقد كان يبدو وكأنه شاخ قبل الأوان بطريقة ذكرتنى بذلك النوع من الكوارث التى تنزل بكثير ممن ينامون فى الشوارع بسبب تعرضهم للظروف القاسية. وكان يرتدى معطفًا طويلاً، متربًا، ذا لون رمادى بنى به مجموعة كبيرة من قطع القماش الزاهية الألوان التى خيطت بظهره قريبًا من مكان الكتف. وكان يرتدى هذا المعطف فوق بنطلون جينز أزرق وقميص تى شيرت أبيض على صدره بقع أشبه ببقع القهوة. وبجانب مظهره الأشعث، بدا (هذا النزيل) "بروس" فى غاية الهياج والقلق وهو يذرع هذه الدار جيئة وذهابًا من أقصاها إلى أدناها. وقد كان يمشى فى تبختر واختيال، كما كانت خطواته واسعة جداً، بينما رأسه محنية إلى صدره ووجهه خال من أى تعبير، وذراعاه تتأرجحان فى رخاوة وهو يصنع بهما قوسًا كبيراً فى الهواء، وكأنهما مصنوعتان من المطاط. وفى إحدى المرات التى كان "بروس" يمر فيها بنا، علق "روبرت" قائلاً: "إن هذا الرجل مجنون فعلاً. لا تقولى لى أنه من الممكن إعادة إدماجه فى المجتمع".

فهنا تقدم هذه الباحثة الميدانية وصفًا تفصيليًا لوافد جديد على هذه الدار كى تهيئ الجو اللازم لفهم ما قاله أحد النزلاء من تعليق وصف به هذا الشخص بأنه بلغ من الجنون حدًا يجعله غير قادر على أن يعيش خارج هذه الدار.

ورغم أن وصف المظهر الخارجى قد يبدو عملاً سهلاً فى مبدأ الأمر، إلا أن كثيراً من الباحثين يجدون - فى الواقع - صعوبة فى تقديم هذا الوصف بطرق حية جذابة. وينبع جزء من هذه المشكلة من أننا حينما نرصد الناس الذين لا نعرفهم شخصيًا، فإننا ننظر إليهم - بداءة - بطرق نمطية جامدة إلى حد بعيد. فنحن مطبوعون على أن نلاحظ الغرباء ونصفهم وفقًا لنوعهم الاجتماعى، ولعمرهم، ولعرقهم، جنبًا إلى جنب الصفات الأخرى الخاصة بمظهرهم البدنى(٢). لذلك فإن الباحثين الميدانيين المبتدئين يميزون بين الشخصيات دائمًا من خلال النوع الاجتماعى. وكثيراً ما يجمعون بين واحد أو اثنين من الملامح المرئية، فيقولون: "امرأة شابة" أو "فتى يافع يرتدى قميصًا مشجراً"، أو "امرأتان من أصول لاتينية(*) ومعهما طفل صغير"، أو "امرأة فى الأربعينيات"، أو "رجل أبيض ذو شعر بنى أو أشقر متوسط الطول". والواقع أن كثيراً من الملاحظات الميدانية تعرض الشخصيات باعتبارها قوالب مرئية Visual Cliches، بالاعتماد على تفاصيل مستهلكة كثيرة الاستعمال، ويتم ذلك عادة بطرق تستشهد بما هو شائع من الأنماط الجامدة: فأمين المكتبة الذى فى منتصف العمر يوصف بتبسيط شديد بأنه "رجل أصلع يرتدى نظارة سميكة"، ويوصف أحد الفتيان الموجودين فى قاعة للشباب بأن له "شعر أملس يغطى قفاه"، ويوصف المحامى بأنه "يرتدى بذلة مخططة بأقلام رفيعة" وأنه "يحمل حقيبة أوراق". ولا يقتصر أمر هذه القوالب على أنها تزيد من جعل الكتابة عملاً مضجراً، بل تتجاوز ذلك إلى أن تحجب عن الكاتب، وبشكل خطير، رؤية الصفات التى يتميز بها الشخص الماثل أمامه.

(*) المقصود عادة الانتماء إلى أصول مهاجرة من بلاد أمريكا اللاتينية. (المراجع)

وكثيراً ما يكون وصف مظهر الشخصية وصفًا "تصنيفيًا" وذا نمط جامد نتيجة لأسباب أخرى كذلك: إذ لا يعتمد الباحثون الميدانيون اعتماداً كبيراً على هذه القوالب من أجل أن ينقلوا مظاهر الآخرين إلى القراء المتوقعين، ولكن ليضعوا علامة على (وبذلك يقدموا تفسيراً عن) "من يفعل ماذا"، وذلك فى ثنايا الرواية الواردة فى مذكراتهم الميدانية. مثال ذلك، أن أحد الباحثين الميدانيين استعمل عبارة "الفتى ذو القميص المشجر" عدداً من المرات ليحدد الشخصية التى يتكلم عنها عندما كان يصف بعض الأحداث المتقلبة والمتشابكة التى تدور على قارعة طريق يسكنه أناس من أصول لاتينية. لذلك لا يقدم مثل هذا الوصف الأولى تفاصيل كثيرة عن مظهر هذه الشخصية، بل يكتفى بوسمه بعلامة معينة حتى نستطيع تمييزه ومتابعته خلال التقرير اللاحق.

ومع ذلك، فإن الباحث الميدانى يتوجب عليه أن يدرب نفسه على ملاحظة ما هو أكثر من تلك المؤشرات الشائعة الدالة على التصنيفات الاجتماعية العامة، وأن يلتقط الصفات المميزة التى سوف تمكن القراء المتوقعين مستقبلاً (سواء أكان هؤلاء القراء هو نفسه فى حالة معاودته قراءة الملاحظات أم كانوا غيره ممن سيقرأون النص النهائى)؛ تمكنهم من أن يتخيلوا الكثير مما شاهده ومما عايشه من خبرات. ذلك أن الصورة الحية المبنية على المشاهدة الفعلية تصور تفاصيل خاصة عن البشر والمواقع بقصد جعل هذه الصورة قابلة للتخيل بوضوح. مثال ذلك، أن باحثًا ميدانيًا وصف رجلاً موجوداً فى شارع يتردد عليه المتعطلون والسكارى فقال عنه: "رجل مستلق على ظهره ليس فى فمه أى أسنان أمامية ولذلك يتكلم بلثغة". ووصف باحث آخر صبياً فى أحد فصول الصف الثالث بقوله: "كان يهز مقعدته ويتلاعب بقسمات وجهه ليلفت الانتباه إليه" عند دخوله لحجرة الدراسة متأخراً. فمثل تلك الصور تستعمل تفصيلات لترسم لوحات أكثر تحديداً وأكثر حيوية، كما تتجنب ذكر الملامح الغامضة والنمطية الجامدة بقدر الإمكان.

وبإمكان الباحثين الميدانيين كذلك أن يكتبوا توصيفات أحفل بالحيوية عن طريق وصفهم لطريقة ارتداء الشخصيات للملابس. ويصور الاقتباس التالى ملابس امرأة من خلال صورة محددة وحسية فيقول:

اليوم كانت "مولي": وهي أنثى بيضاء، ترتدى سترتها الحافلة بالرسوم والألوان الأفريقية. وكان بمقدمة السترة عدد قليل من المربعات التى تحتوى على صور مطبوعة لمعالم القارة الأفريقية بألوان حمراء، وصفراء، وخضراء، وسوداء. وقد وضعت أعلى هذه السترة تمثالاً ذهبيًا لأسد يهوذا (رمز العائلة الملكية الأثيوبية). وكانت الأكمام لامعة – حيث كانت مخططة بأقلام حمراء، وصفراء، وخضراء. وعلى ظهر السترة صورة "بوب مارلى" وهو يغنى مستعملاً الميكروفون. وهو رجل أسود شعره مضفر فى خصلات سوداء طويلة وله لحية صغيرة. ومكتوب باللون الأحمر أعلى ظهر السترة كلمة "راستافارى" Rastafari.

فهذا التوصيف يضع اهتمام الباحث الميدانى بالهوية الإثنية والانتماء الإثنى موضع الصدارة. فالجملة الاستهلالية، والتى تقول: "اليوم كانت "مولى"، وهى أنثى بيضاء، ترتدى سترتها الأفريقية الحافلة بالرسوم والألوان"، تبرز تباينًا غير متوقع: فمولى بيضاء، ومع ذلك فإنها ترتدى قطعة من الملابس التى يربطها الباحث بالثقافة الأمريكية – الأفريقية. وتلفت عبارة "السترة الحافلة بالرسوم والألوان الأفريقية" الانتباه إلى صفات معينة لهذه السترة (تتصل بالألوان، والعلامات المميزة – أو الشارات – والرموز) وتتجاهل غيرها من الصفات التى يمكن ملاحظتها، كالخامة المصنوعة منها، أو ملمسها، أو طرازها، أو نظافتها أو منشأ صناعتها، مثلاً. معنى ذلك أن هذا التوصيف يضع هذه السترة فى إطار كونها شيئًا يعلن بصراحة عن الانتماء الأمريكى – الأفريقى لمن ترتديها(٣).

كما نلاحظ فضلاً عن ذلك أن النص بدلاً من أن يكتفى بمجرد إخبار القارئ بما يفكر فيه الباحث، يستعرض مظاهر الانتماء للأمريكيين الأفريقيين فى تفصيل مباشر، وذلك من خلال الأفعال والصور. قارن بين هذه الاستراتيجية فى الوصف بالنص المستخلص (الافتراضى)(*) التالى وما به من تصوير تقييمى يطلق التعميمات بدلاً من

(*) بمعنى أنه من خيال مؤلف الكتاب يفترض فيه استراتيجية أخرى فى الوصف. (المراجع)

ذكر التفاصيل الخاصة: "اليوم، كانت مولي، وهي فتاة بيضاء ترتدي - من قبيل الإصرار على تأكيد هويتها - سترتها الأفريقية البراقة. وهي تسعى دائمًا للفت الأنظار إليها بهذه الملابس وتسير في تبختر وتباه كأنها من السود". فهذا النص المختصر لا يعتمد فحسب على إحدى الصفات الغامضة (وهي صفة البرّاقة)، ولكنه، إلى جانب ذلك، يحجب ذكر التصرفات باستعماله للكلمات التقييمية الدالة على الأحوال والأفعال (مثل: من قبيل الإصرار، وتسير في تبختر وتباه، وتسعى للفت الأنظار) والعلامات التصنيفية (كما هو ظاهر في التعبير: "كأنها من السود").

ونظرًا لأن الباحث الميداني يرغب في تصوير مشهد ما لقارئ ما، فهو لا يكثف التفاصيل، ويتجنب ذكر الصفات وصيغ الفعل الدالة على الأحكام التقييمية، ولا يسمح أبدًا لعلامة بأن تنوب عن التوصيف. ورغم أن كافة أنواع الكتابة تقتضي تقسيم التفاصيل إلى مجموعات مع التمييز بينها، إلا أن الباحث يقاوم الدافع الذي يجعله، وبدون أن يدري، يَصِم الآخرين وفقًا لما تلقاه من تصنيفات جاءته من بيئته الثقافية الخاصة. ومع ذلك لا يكفي اجتناب التعبيرات التقييمية. ففي التوصيفات تعكس نبرة صوت الكاتب، وبما لا يمكنه تفاديه، موقفه الشخصي من الأفراد الذين يصف حالتهم. فموقف "أنا أحسن منك" (أي: اعتقاد الكاتب أنه أفضل من هذا الفرد) أو تحويل الآخر إلى شيء أو موضوع (بوصفه بأنه شخص شاذ الطباع، أو أجنبي، أو من طبقة دنيا، أو من ثقافة أقل تحضرًا)؛ إن أيًا من هذين الموقفين "يفصح عن نفسه" دائمًا بشكل ضمني: فالاتجاه العام للكاتب، والذي قد يظهر في إحدى زلات اللسان، يظهر جليًا فيما يختاره من كلمات وما يعقده من مقارنات غير مباشرة، بل قد يظهر فيما يستعمله من إيقاعات صوتية كتلك الإيقاعات الصوتية المتقطعة التي تتسم بها الردود الجافة الدالة على الرفض والاعتراض. لذلك ينبغي على الباحث - القادر على أن يتأمل ذاته وأن يراجعها - أن يدون أحكامه صريحة فيما يكتبه من تعليقات جانبية. إلا أن أفضل علاج لمثل هذه الميول القوية إلى التقييم هو أن يتذكر الباحث الميداني دائمًا أن مهمته تتمثل في كتابة الوصف الذي يؤدي إلى فهم متعمق للعوالم الاجتماعية للآخرين.

وبالإضافة إلى وصف البشر، والأماكن، والأشياء، ينبغي على الباحث الميداني - كذلك - أن يصور المشهد من خلال التصرفات والأفعال أساسًا. مثال ذلك، أنه ينبغي عليه أن يصور ما يصدر عن الشخصية من كلام، وإيماءات، وأوضاع جسمانية، وحركات. وعلى خلاف وصف مظهر الشخص، يقوم عرض *الصور المتتابعة للتصرفات* بتسليط الضوء على دور الشخصية في التأثير على عالمها؛ فالشخصية تتصرف داخل موقف أو وضع ما - استجابة لظرف معين أو كرد فعل للتفاعلات مع الآخرين - بطرق تشكل ما سيقع مستقبلاً من تفاعلات. ومن خلال التصرفات تتحرك الشخصيات خلال المكان والزمان؛ لذلك يهدف الكتاب إلى وضع أيديهم على *الصفة الفعالة للتصرف* وما له من حركة مستقبلية بحيث يمكن القول: لقد حدث أمر مهم.

ويركز الحوار التالي بين مدرس وتلميذ على تصرفات التلميذ وردود أفعال المدرس عليها داخل فصل دراسي خاص "بالصم وضعاف السمع":

> يسير "بوبي" داخلاً، مترنحًا من جانب لآخر، يتلفت حوله. يسأله المدرس من أين جاء، ويغمغم "بوبي" بكلام غير واضح. ثم يأخذ طريقه متجهًا إلى الكومبيوتر وهو يقول إنه يريد أن يشتغل عليه. ولكن المدرس يرد قائلاً: "لا، أريد منك يا "بوبي" أن تجلس هنا وأعرف ما إذا كنت قادرًا على اللعب معنا أم لا". يجلس "بوبي" عند أحد أطراف لوحة [لوحة اللعبة]. يلاحظ وجود شق في اللوحة، فيطويها رافعًا إياها وهو يتساءل قائلاً: "لماذا تضعون شقًا في هذه اللوحة؟". يتجهم المدرس ويقول له بجفاء: "إنها مصنوعة هكذا. أعدها إلى مكانها". يستمر "بوبي" في تحريك قطع اللعبة التي أمامه. يقول له المدرس: "حسنًا يا "بوبي"، لماذا لا تذهب للعمل على الكومبيوتر". يقوم "بوبي" مسرعًا ويتوجه للكومبيوتر حيث يجلس إليه ويبدأ العمل فورًا.

فهنا يقدم الكاتب ذلك التتابع الذي سارت وفقه التفاعلات، والذي يكاد يخلو تمامًا من أي تفصيل وصفي لمظاهر الشخصيات. غير أنه يصور المشهد عن طريق وصفه للتصرفات بترتيب وقوعها الزمني، مستعملاً صيغ الأفعال المباشرة التي تتيح للقارئ

أن يرى الحركة بين أطراف التفاعل. فنحن نشعر شعوراً واضحًا بتلك الحركة من التصرفات التى استعمل الكاتب فى التعبير عنها صيغًا حية نابضة. مثل قوله: يسير داخلاً، ومترنحًا، يتلفت حوله، ويسأل، ثم يأخذ طريقه، ويجلس ويقول له، ولا يتعاون، ويتحرك، ويقوم مسرعًا، ويبدأ العمل.

وقد جرى العرف على أن يقدم الكتاب أى تصرف من التصرفات وفقًا لتسلسل جزئياته خلال الزمن. ففى المشهد السابق، يتم ربط التفاعلات بصورة واضحة لدرجة أن الكاتب لم يستعمل إلا كلمة واحدة تدل على الانتقال – وهى كلمة "ثم". وفى حالة ما يكون المشهد أطوال من المشهد المذكور، أو يكون مشهداً يضم تصرفات ذات ترابطات متبادلة أقل وضوحًا، يحتاج الكاتب لتوجيه القارئ باستعمال العلامات الدالة على الانتقال ليشير بها إلى التغيرات فى الزمن، والمكان والشخص أثناء التتابع التدريجى لتفاصيل التصرف. ويضع الكُتّاب التصرفات فى ترتيب معين (كأن يقولوا: الأول، والثانى، والثالث مثلاً)، كما يميزون تغيرات الفعل باستعمال الكلمات الدالة على الانتقال (بكلمات مثل: الآن، وثم، وفيما بعد، وبعد ذلك، وفى الصباح التالى مثلاً). كما أنهم يحددون موقع حدوث الفعل باستعمال علامات دالة على الموقع (ككلمة: هنا، وهناك، ووراء، وخلف مثلاً). وفى الاقتباس التالى يقوم باحث – يدرس عيادة خارجية لعلاج المرضى النفسيين – بربط التصرفات من خلال استعماله للعبارات الانتقالية (كقوله: "بينما كان مستمراً فى كلامه") وللكلمات الانتقالية (كقوله: "ثم" و"بينما"):

> جلست على المقعد الخشبى وسط القاعة. وبينما أنا جالس مترقبًا لأمر يلفت انتباهى سمعت مدير العيادة يصرخ بشدة قائلاً: "اخلع ملابسك فى الحمام". قال ذلك وهو يغلق الباب المفضى إلى حجرة الحمام... وكان يقف منتظراً خارج باب حجرة الحمام، والمدير يتحدث إلى "روبرتا"، إحدى العاملين المكلفين برعاية أحوال المترددين على العيادة. وحينئذ تقترب "كارين" منهما ومعها طفل صغير متسخ اسمه "سميرف" Smurf وجدته بالخارج. وتقول متحدثة مع المدير: "انظر إليه، ما أجمله، أعطه قبلة"، إلا أن المدير لا يوليها

> أى اهتمام. وبينما هو يتكلم مع روبرتا، يلقى نظرة خاطفة على ما حوله فيلاحظ أننى أرقبهم. وعندما التقت عيناى بعينيه، فتح ذراعيه متوجهًا نحو "كارين" وطلب منها أن يحتضنها، فأخذت "كارين"، وبطريقتها الخجول المعتادة، تقهقه فى ضحكة بلهاء بينما تستجيب له فتحتضنه.

فى هذه الفقرة الموجهة لإبراز التصرفات السلوكية، يركز الكاتب على الحركة: جلس، يغلق، تقترب، يلقى نظرة، يفتح، التى تتوزع فيها الأقوال: مثل "المدير يصرخ بشدة" "اخلع ثيابك فى الحمام". وفى رصدهم وتسجيلهم لأفعال الناس، ينظر الباحثون الميدانيون المهتمون بالتفاعلات الاجتماعية إلى الفعل والقول كملمحين مترابطين "لسلوك" الناس. فهم هنا يكتبون عن "الكلام" باعتباره جزء من "التصرفات" التى تصدر عن الناس.

الحـــوار

يقوم الباحثون الميدانيون كذلك برواية الحوار، وهو الأحاديث التى تجرى فى حضورهم أو التى يقرر أفراد مجتمع البحث أنهم أجروها مع غيرهم وذلك بأقصى ما يمكنهم من الدقة. فهم يستعرضون الحوار من خلال تقديم اقتباسات مباشرة وغير مباشرة، ومن خلال الكلام المروى عن آخرين، وعن طريق إعادة صياغة مثل هذا الكلام. ونرى أنه لا ينبغى وضع أى كلام بين علامات الاقتباس إلا العبارات التى نقلت حرفيًا بالفعل؛ أما غيرها من العبارات فينبغى أن تسجل باعتبارها اقتباسات غير مباشرة أو عبارات مروية أعيدت صياغتها.

ويشرح المثال التالى كيف أن الاقتباسات المباشرة، وغير المباشرة، والكلام المروى؛ كيف تعمل معًا لنقل الحوار الجارى بين طرفين:

> قبل دقيقة أو نحوها من مغادرتى للمكان، تحدثت إلى "پولى" Polly، تلك المرأة السوداء القائمة على حراسة المدخل الأمامى للمدرسة. وبينما كنا

نتحادث مرت بنا صبية سوداء، ترتدى سترة ذات لون أزرق داكن. أشارت "پولى" إليها وسألتنى قائلة: "هل سبق أن رأيت تلك الصبية؟". أخبرتها أننى رأيتها، فأسرت إلى "پولى" بأن تلك الصبية قد تشاجرت معها. وقالت "پولى" إن الفتاة كانت قد حاولت مغادرة المدرسة بدون إذن وأنها بدأت الجدال والنزاع معها فى هذا الأمر. وقالت إن الناظر كان يمر بالمكان وأنه حاول أن يعالج هذا الإشكال. وردت الصبية قائلة: "هذه مدرستى. وإنكم لا تستطيعان التحكم فىَّ!". ثم قالت عن الناظر إنه "إم. إف. M. F. أبيض"(*). وأخبرتنى "پولى" قائلة: "فى العادة يكون الـ إم. إف. أسود، ولكنها غيرت هذا التعبير". وقالت إن تلك الصبية "تعانى من ظروف شخصية سيئة"، وهزت رأسها.

إن كتابة هذا الحوار باعتباره اقتباسًا غير مباشر بالأساس، تحافظ على ذلك الانسياب المتدفق بين أطرافه، والذى يتسم به هذا التفاعل الكلامى. أما ما يتناثر خلاله من اقتباسات مباشرة فإنها تضفى مزيداً من الحيوية على هذا الحوار وتمنحه شيئًا من المباشرة. وعن طريق التمييز الواضح بين كل من الاقتباس المباشر، والاقتباس غير المباشر، والكلام المروى يمكننا أن نعرف كيف تتضافر كلها معًا:

- الاقتباس المباشر: "هل سبق أن رأيت تلك الصبية؟".
- الاقتباس غير المباشر: أخبرتها أننى رأيتها.
- الاقتباس غير المباشر: ... فأسرت إلىَّ "پولى" بأن تلك الصبية قد تشاجرت معها. وقالت إن الفتاة حاولت مغادرة المدرسة بدون إذن وأنها بدأت الجدال والنزاع معها فى هذا الأمر. وقالت إن الناظر كان يمر بالمكان وأنه حاول أن يعالج هذا الإشكال.
- الكلام المروى والمباشر: وردت الصبية قائلة: "هذه مدرستى. وإنكما لا تستطيعان التحكم فىَّ!" ثم قالت عن الناظر إنه "إم. إف. أبيض".

(*) الحرفان الأولان للفظة سباب قاسية Mother Fucker آثرنا عدم ترجمتها. (المترجم)

- المباشر: "فى العادة يكون الـ إم. إف. أسود، ولكنها غيرت هذا التعبير".
- غير المباشر: قالت إن تلك الصبية.
- المباشر: "تعانى من ظروف شخصية سيئة".

ويقترب الاقتباس غير المباشر من شكل الحوار بصورة أشد مما تفعله إعادة صياغة الكلام بألفاظ أخرى. ذلك أن إعادة صياغة هذا الحوار مع "يولى" بألفاظ أخرى قد يحافظ على مضمونه الأساسى. إلا أن الباحثة، عند قيامها بإعادة صياغة الحوار بألفاظ أخرى، تترجم الكلام بكلماتها هى وتشرع فى تلخيص معناه بسرعة بالغة. مثال ذلك، أن أحد أشكال إعادة صياغة الجزء الأخير من هذا الاقتباس قد يُقرأ هكذا: "قردت الصبية على الناظر وشتمته بألفاظ... فقد كانت تعانى من ظروف شخصية سيئة". فهذا الشكل من إعادة الصياغة يحول دون تذوق نكهة الدردشة والإفضاء بالأسرار، كما أنه يعجز عن الجهر الصريح بما قالته هذه الطالبة للناظر من تعليقات قد تكون فى هذه الحالة غير مسموعة.

ويعد ما يقدمه المبحوثون من توصيفات وما يروونه من "حكايات" عن خبراتهم مؤشرات لا تقدر بثمن لآرائهم فى الحياة وتصوراتهم لها (انظر الفصل الخامس من كتابنا هذا) كما ينبغى تسجيلها أو توثيقها حرفيًا حال ما أمكن ذلك. وتقوم كتابة هذا الحوار باعتباره "حكاية" رويت حرفيًا للباحث الميدانى؛ تقوم بالحفاظ على نوعين مختلفين من المعلومات. فهى، أولاً، تبين أن "شيئًا ما قد حدث" بين طالبة ما، وحارسة ما، والناظر. وثانيًا، تقدم هذه الرواية الحرفية إحساس الحارسة بهذا الشىء. أما بالنسبة لرواية الحارسة، فإن هذه الملاحظات الميدانية تطلعنا على الكثير عن شخصية الراوى وعن همومها أكثر مما تدلنا عن تلك الصبية ومشكلتها.

وتعد كتابة الحوار عملاً أكثر تعقيداً من مجرد تذكر الكلام أو إعادة كتابة كل كلمة حرفيًا. فالناس تتكلم فى دفعات قصيرة من التدفق، وفى نتف من الكلمات. وهم ينطقون إحدى العبارات بالتأكيد على بعض كلماتها، بل يكملونها أحيانًا بإيماءة ما، أو بتعبير من تعبيرات الوجه، أو بهيئة من هيئات الجسم. وهم يبعثون برسائل

معقدة من خلال ما يظهرونه من تعبيرات لفظية وغير لفظية متضاربة، ومتناقضة فى ظاهرها وساخرة، كما يحدث فى حالة التهكم بالآخرين أو عند إفحامهم بالردود الجافة. لذلك يتعين على الباحثين الميدانيين أن يسجلوا معانى ما يستنبطونه من التعبير البدنى المصاحب للكلمات كالإيماءة، والحركة، وتعبيرات الوجه، ونبرة الصوت. زد على ذلك أن الناس لا يتبادلون أدوارهم فى الحوار بسلاسة: فهم يقاطعون بعضهم، وتتداخل كلماتهم فى بعضها، ويتحدثون فى نفس الوقت، ويردون على التعليقات والهمهمات التى تجرى أثناء الكلام. ويمكن وضع هذا التبادل للأدوار أثناء الحوار على صفحة الورق عن طريق كتابة الكلام المتداخل بين أقواس.

وبالرغم من أن الإحاطة الدقيقة بالحوار فى المذكرات الموجزة والملاحظات الميدانية النهائية تتطلب بذل مجهود كبير، إلا أن الباحثين لديهم عدد من الأسباب التى تبرر استعمالهم للكلام المقتبس حرفيًا فى إضفاء مذاق طيب على ملاحظاتهم الميدانية. فإن مثل هذا الحوار ينقل للقارئ صفات الشخصية، ويبرز التصرف، ويزودنا بمفاتيح لفهم المكانة الاجتماعية للمتحدث، وهويته وأسلوبه الشخصى، واهتماماته. ويتيح الحوار للباحث الميدانى أن يحيط بدقة بما ينطق به المبحوث من ألفاظ وتعبيرات على نفس الهيئة التى استعملت فيها فعلاً فى مواقف معينة. أضف إلى ذلك أن الحوار قد يشير إلى بعض الملامح الرئيسية لإحدى الرؤى الثقافية للعالم. والاقتباس التالى مأخوذ من مناقشة جرت أثناء حصة فى التاريخ الأمريكى - الأفريقى:

> سأل دستون Deston، وهو رجل أسود عقص شعره على طريقة جيرى Jheri؛ سأل الآنسة دوبوا Dubois قائلاً: "ما معنى خائن؟ أسمع أنك إذا تكلمت مع شخص أبيض - فإنك تخونين، وأنك إذا خرجت مع فتاة بيضاء - فإنك تخونين". أجابت أن بعض الناس "يغالون فى تناول هذا الأمر". وقالت إن الخائن يمكن أن يكون مدرسًا أو شخصًا يعمل فى مطاعم ماكدونالدز. ثم عرّفت الخائن بأنه "شخص ما أكثر ما يشغله هو كسب المال... وليس له ولاء عرقى، ولا إخلاص للناس".

هنا يستعمل الكاتب الاقتباس المباشر للإحاطة بالحوار المتبادل بين الطرفين عن الهوية العرقية، كما أنه يحافظ على مصطلح أساسى نطق به أحد أفراد مجتمع البحث.

وحيث أن مثل هذا الاقتباس الحرفى يقنع القارئ بأن شخصًا ما "كان موجودًا هناك" (فى ذلك المجتمع) وأنه سمع هذا الكلام بوصفه واحدًا من أهالى هذا المكان، فإن ذلك قد يغرى الكاتب بتجاوز ما يتذكره من الكلام. ومع ذلك، فإننا نحث الكاتب على تقييد الاقتباسات حرفيًا قدر ما يستطيع فى المذكرات الموجزة. وهو موجود فى الميدان بقدر الإمكان، ثم يقوم بعد ذلك بوضع علامات الاقتباس على تلك العبارات التى كتبها فعلاً فقط. فلا يقتصر أمر هذا الاتساق على مجرد تحاشى الوقوع فى الخطأ العارض فى تقديم هذا الحوار، بل يضاف إلى ذلك أنه يجعل الباحث الميدانى أكثر يقظة وانتباهًا عند عرض وجهات نظر الأعضاء.

وتصبح تلك القضايا والاختيارات الخاصة بكتابة الحوار أمورًا معقدة عندما تختلف اللغة المحلية للمبحوثين عن لغة الباحث. ولاشك أن درجة إجادة الباحث فهم تلك اللغة المحلية هى التى تحدد حجم استعمال الاقتباس الحرفى. من ذلك مثلاً، أنه عندما يقوم الباحث الميدانى بكتابة بحث بلغة ثانية (غير لغته الأم)، فلن يقتصر الأمر معه على أنه كثيرًا ما سيفوته ما قاله أحدهم نظرًا لأنه لم يفهم كلمة معينة من كلامه، بل إنه كذلك سوف يجد صعوبة فى الالتزام بالانسياب والتدفق الحرفى للحوار حتى لو فهم معناه فعلاً. وعن طريق عمله مع مساعد من أبناء البلد وقيامه بمراجعة ما يكتبه للتأكد من أنه يفهم ما يقوله الناس فهمًا صحيحًا، يمكنه أن يعوض عن بعض من تلك الصعوبة. وتظهر مشكلات مشابهة لذلك عند قيامه بالعمل مستعملاً اللغة الإنجليزية فى موقع به عدد كبير من اللغات الخاصة بأصحاب مهن وحرف معينة، أو فى موقع آخر به تعبيرات مقصورة على بعض الجماعات كاللغة العامية مثلاً(*). وعندما يعجز الباحث

(*) قريب من ذلك موقف الباحث الميدانى المصرى عندما يجرى بحثًا فى منطقة حدودية أو منعزلة أو ذات لهجة متميزة لا يألفها ولا يستطيع التقاطها بسهولة، ناهيك عن أن يتمكن من تسجيل الحوارات بالسرعة المطلوبة، ولذلك يستعين بإخباريين من أهل المجتمع الذى يدرسه. (المراجع)

عن متابعة الكلام، فإنه يعيد صياغته بطريقة بقدر ما يستطيع ويدرج فيه أحيانًا نتفًا من الكلام الحرفى الذى سمعه أو تذكره بوضوح.

وكرد فعل لتلك الصعوبات اللغوية، يقوم كثير من الباحثين بتدعيم مذكراتهم الميدانية بأشرطة تسجيل صوتية. كما أنهم قد يقومون بإعداد تسجيلات صوتية بغية الاحتفاظ بتسجيل صوتى مفصل بقدر الإمكان للحوار الذى يجرى بصورته الطبيعية حتى يتمكنوا من متابعة بعض القضايا الفكرية الخاصة. مثال ذلك، أن الباحثين الميدانيين المهتمين بدراسة الأنماط المتواترة للتفاعل بين الموظفين والعملاء المترددين على مكان العمل قد يبذلون جهوداً خاصة للقيام بتسجيل بعض هذه اللقاءات – على الأقل – على أشرطة تسجيل صوتية[٤]. ومع ذلك، فإن معظم الباحثين لا يعتبرون التسجيلات الصوتية الشكل الأساسى أو الوحيد للبيانات، بل يستعملونها كواحدة من بين طرق أخرى عديدة للإحاطة الدقيقة بما تعنيه الأحداث والخبرات عند أفراد مجتمع البحث.

وعلى سبيل الإيضاح نتأمل فيما يلى كيف كانت راشيل فريتز تستخدم فى عملها التسجيلات الصوتية لجلسات سرد الحكايات بين شعب الشوكوى فى إقليم باندوندو فى زائير. فقد سجلت على الأشرطة الصوتية، ثم دونت جميع التعبيرات اللفظية التى نطق بها كل من الرواة وأفراد الجمهور، وذلك لأن المستمعين يساهمون مساهمة فعالة فى جلسة سرد الحكايات. وفيما يلى نص مقتبس من بداية إحدى هذه الجلسات، حيث يقوم الراوى الشاب "ن. .N" بأداء دوره أمام الجمهور (ورمزه ج) المكون من نساء ورجال وأطفال فى إحدى الليالى وهم مجتمعين حول النار (نقلاً عن كتاب فريتز تحت الطبع الآن):

ن: فى يوم من الأيام كان يوجد عدد من الصبيان الصغار، أنا وفرناندو وفونجا وشامونا.

ج: هل هذه حكاية تتضمن أغنية جميلة؟

ن: كانوا أربعة أشخاص. قالوا: "آه. هيا بنا نصطاد".

بيا pia(*)، لقد تجولوا فى كل مكان بيا(*)، لقد تجولوا فى كل مكان.

ج: حسنًا.

ن: لقد سلكوا هذا الطريق وذاك الطريق، وتجولوا فى كل مكان. ولكنهم لم يجدوا ما يصطادونه. "هيا بنا نعود: هيا بنا نمضى". ثم رأوا كوخًا كبيرًا. وبداخل الكوخ وجدوا إناء مليئًا بالعسل.

- "يا أصدقائي، هذا العسل، مبا mba(**)، من الذى وضعه هنا؟"
- قال: "من؟".
- قال آخر: "من؟".
- [قال آخر]: هيا بنا نمضى. لا نستطيع أن نأكله.
- ثم، تقدم فونجا وقال: "آه! إنكم مضطربون فعلاً. وحتى بالرغم من أنكم فى غاية الجوع، إلا أنه لا يجوز لكم تناول هذا العسل؟".
- "أيها الطفل الصغير إن الرجل الذى وضع هذا العسل هنا ليس حاضراً. وأنت ترى أن هذا البيت مبنى بالضلوع المأخوذة من أجسام البشر، وتقرر أن تأكل هذا العسل".
- وقال [فونجا]: "أخرج هنا. سوف آكله أنا. انصرف عنى فوراً. انصرف الآن". أخذ شيئًا من العسل، وأكله.
- "هل سننتظره؟ سوف ننتظره".
- لقد جاء سريعًا. "هيا بنا نمضى".

(*) كلمة من اللغة المحلية. (المترجم)

(**) كلمات من اللغة المحلية بعضها مكتوب ترجمته بجواره. (المترجم)

- ليانا، ليانا، ليانا liata(*)، ساروا متجهين إلى الأمام إن أمامنا طريق طويل. وقد جئنا قادمين من مسافة بعيدة". لقد وصلوا ووجدوا، آه! كايانذا(*) [يا إلهى] وجدوا نهراً عظيماً.
- "يا أصدقائى، ما هذا؟".
- "يا أصدقائى، أرأيتم مثل هذا النهر العظيم. من أين ينبع؟".
- قال: آه! من يستطيع أن يرد على ذلك؟".
- "إننا لا نستطيع أن نرى من أين ينبع ولا أين يصب".
- هيا بنا نعبر النهر. وسأكون أولكم فى عبوره".

الغناء الأول

ن: أوه پاپا. إى Eee(*)، پاپا، إنه أنا الذى أكل العسل.

ج: هذا النهر العظيم الذى خلقه الله، لابد أن أعبره.

ن: پاپا! إى(*)، پاپا، أنا أخوض فى الماء.

ج: هذا النهر العظيم الذى خلقه الله، لابد أن أعبره.

ن: پاپا! إى، پاپا، أنا لم آكله.

ج: هذا النهر العظيم الذى خلقه الله، لابد أن أعبره.

ن: پاپا! إى، پاپا، أنا أعبر متجهاً إلى الجانب الآخر.

ج: هذا النهر العظيم الذى خلقه الله، لابد أن أعبره.

(*) كلمات من اللغة المحلية بعضها مكتوب ترجمته بجواره. (المترجم)

يتضمن تدوين مضمون حفلة ما الإحاطة بكل ما نطق به الراوى من كلام ويمظاهر تجاوب المستمعين معه (وهذا يتطلب فى أحوال كثيرة مساعدة أحد الناطقين باللغة المحلية) وذلك رغم وجود أمثال لتلك الأصوات المتداخلة كنباح كلب أو صراخ طفل. كما يقتضى التسجيل الدقيق - كذلك - انتباهًا شديدًا لإيقاع الكلام وما يتخلله من وقفات، وذلك لكى تؤدى عملية الترقيم (بعلامات الاقتباس) والتوقفات الموجودة داخل الكلام إلى إعطاء صورة للأسلوب الذى يتبعه الراوى فى سرده للحكاية .(cf. Hymes 1991; Tedlock 1983)

إلا أن نسخ وترجمة شريط التسجيل الصوتى لا يعدو أن يكون جزءًا من الجهود التى تبذلها الباحثة للتعرف على جلسات سرد الحكايات وفهمها. فهى - بجانب ذلك - تكتب مذكرات ميدانية شاملة تصف فيها الموقف المحيط بالجلسة، والمشاركين فيها[٥]. من ذلك مثلاً أنها دونت فى ملاحظاتها أن جلسة سرد الحكايات انعقدت حول النار فى قاعة الزعيم فى اجتماع عائلى غير رسمى يضم الزعيم، وزوجاته السبعة، وأبناءهن وأحفادهن. وقد لاحظت أن النساء كن يشاركن - على الأخص - فى إنشاد الأغانى المتضمنة فى الحكاية وبالتجاوب مع الراوى بالهتاف وإطلاق التعليقات. كما سجلت الباحثة حواراتها مع هؤلاء المشاركات، وسجلت التعليقات الشائعة التى أدلى بها أبناء شعب الشوكوى فيما يتصل بسرد أمثال تلك الحكايات، والتى يسمونها بيشيما Yishima. وقد اكتشفت أنه فى هذه الجلسة، يعلم المستمعون أن البيت المصنوع من الضلوع المأخوذة من أجسام البشر قد يكون بيت أحد السحرة، وأن تناول عسله عمل محفوف بالمخاطر لأنه سيصيبهم بشئ من سحره، وأن النهر الذى ظهر فجأة معترضًا طريقهم هو نهر أنشأه هذا الساحر، وأن فونجا الذى أكل العسل سوف يموت غريقًا - بالتأكيد - كنتيجة لعدم امتثاله لكلام أخيه الأكبر. كما علمت الباحثة أن الأغنية التى تكرر ترديدها، والتى أنشدت أربع مرات أثناء الجلسة، خلقت نوعًا من التوتر بين الأمل والذعر فيما يتصل بعواقب أكل العسل، وبين الإيمان بأن ذلك النهر طبيعى قد خلقه الله ("هذا النهر العظيم الذى خلقه الله") والخوف من أن يكون من صنع الساحر ("إى، بابا، إنه أنا الذى أكل العسل").

وعلى ذلك، فإن تدوين (أى تفريغ) الكلام المسجل على أشرطة التسجيل الصوتية ليس وسيلة مباشرة أو بسيطة لتوثيق حدث ما. إذ يحتاج الباحث الميدانى إلى أن يلاحظ ويستمع إلى ما هو أكثر من الكلمات، ويحتاج إلى إلقاء أسئلة كثيرة للمتابعة والحصول على المزيد من التفاصيل، وإلى كتابة كل ما تعرف عليه. ونتيجة لهذا، تستعمل معظم البحوث الميدانية مجموعة من عمليات التسجيل الصوتى والترميز والتصنيف، والتى تجمع بين المذكرات الميدانية والتسجيل الصوتى والمرئى[٦].

تصوير الشخصيات

يصف الباحثون الميدانيون الأشخاص الذين يقابلونهم بالاستعانة باستراتيجية تعرف بتصوير الشخصيات. وبينما نجد أن الوصف البسيط لملابس الشخص وحركاته لا يزودنا إلا بالحد الأدنى من الإحساس بهذا الفرد، فإن الكاتب يستطيع أن يقدم صورة أكثر اكتمالاً لكائن إنسانى من خلال إظهار الطريقة التى يتبعها هذا الشخص فى كلامه، وتصرفه، وتعاملاته مع الآخرين. فالباحث يقدم أدق صورة شخصية للأفراد المذكورين فى سياق الكلام وهم يشرعون فى ممارسة أنشطتهم اليومية، وليس الاقتصار فقط على كتابة قائمة بسماتهم الشخصية. فلا يمكن أبداً أن يكون التعريف بالسمات الشخصية لامرئ ما أن يكون مؤثراً بقدر ما تؤثر إظهار الطريقة التى يتبعها فى حياته. فهذا الأسلوب يؤدى إلى تقديم الشخصيات باعتبارها كائنات اجتماعية تماماً، من خلال الأوصاف التفصيلية للملابس، والكلام، والإيماءات، وتعبيرات الوجه؛ وهى الأمور التى تتيح للقارئ أن يستنبط سماتهم الشخصية. وهكذا تظهر السمات والخصائص الشخصية فى سياق التفاعل مع الآخرين، لا من خلال تقديمها كصفات للأفراد لا رابطة بينها. وبهذا الشكل، فإن تصوير الشخصيات يعتمد على مهارات الكاتب فى وصف وتسجيل التصرفات، وفى تقديم الحوار.

وفى المجموعة التالية من المذكرات الميدانية، تصف "لندا شو" لقاء لها مع زوجين يعيشان فى الجزء المخصص للمطبخ فى إحدى الشقق الموجودة بمصحة نفسية تقدم

خدمات الإيواء والرعاية لنزلائها. وتؤكد الزوجة - خصوصًا - على أهمية الجهود التى يبذلانها لخلق بيئة "طبيعية" فى هذا المكان، وعلى ما يشعران به من عدم جدوى ما يقومان به من عمل(٧):

ذهبت مع "تيرى Terry" و"جيى Jay" اليوم لأنهما عرضا علىَّ أن يريانى الشقة التى خلقاها من تلك المساحة الصغيرة المحولة من مطبخ المصحة والتى أصبحت حجرة لهما. رافقتنى "تيرى" من مكان لآخر، مبدية فخرًا كبيرًا وهى ترينى كيف أنهما خصصا مساحة لغرفة النوم فى طرف من أطراف الحجرة، ومساحة لغرفة المعيشة بجوارها، ومساحة للمطبخ بجانب تلك المساحة. وقد أوشكا أن يعدا شقة بأكملها فى هذه المساحة الضئيلة، كما أرتنى بعضًا من ملامح كل "حجرة" بالتفصيل. وهما يقولان إن للسرير حشية أو مرتبة حقيقية، وليست شبيهة بالوسائد الإسفنجية الموضوعة على سائر الأسرة الأخرى. وكان يوجد على أرضية حجرة النوم بساط صغير وجهاز تليفزيون فى مواجهة السرير. ثم أرتنى "تيرى" الدواليب من الداخل، وأشارت إلى الرف الموضوع عليه زجاجات التوابل، وأخذت تعد كل زجاجة على حدة بصوت مرتفع. وأبدت اعتزازًا خاصًا بإناء القهوة الذى تستعمله فى إعداد قهوة الصباح لزوجها، وبموقد يسخنان فيه أحيانًا قطع البيتزا التى يشتريانها حينما يخرجان للنزهة.

وقد بذلت تيرى محاولات شاقة لإظهار كل ما قاما به من عمل لجعل شقتهما مشابهة للشقة التى قد يحصل عليها أى زوجين، ومع ذلك، فإنها كلما اشتدت فى بذل هذه المحاولات كلما اتضح مدى اختلاف حياتهما عن أى حياة عادية فعلاً. وتحدثت "تيرى" عما تشعر به من انعدام الجدوى بالرغم من كل تلك الجهود فتقول: "الواقع أن كل هذه الضجة (التى فى المصحة النفسية)، وكل هذا الصراخ، وكل هذا التوتر أمور تزعجنى. إننى متزوجة ولكننى لا أستطيع أن أكون حتى مجرد زوجة عادية فى هذا المكان.

إننى أريد أن أستيقظ فى الصباح، فأعد وجبة الإفطار لزوجى - مكونًا من فنجان القهوة، والبيض، ولحم الخنزير المدخن، وعصير البرتقال - قبل أن يذهب للعمل، وأن أنظف المنزل، وأن أرعى الأطفال ثم أعد له عشاء وشراباً طيبين أو أى شىء يريده عندما يعود للمنزل. ولكنى هنا، كل ما أفعله أن أقوم من النوم فأعد له فنجانًا من القهوة سريعة التحضير(*). وكما تعلمين، إن الأمر ليس مجرد الفوز بهذه الشقة وحسب، ففيما عدا ذلك لا توجد جدوى لأى شىء".

تظهر "تيرى" أمامنا كفرد إنسانى مكتمل، حيث تكشف أفعالها وأقوالها عن شخصيتها. وقد بذلت ما فى وسعها لإيجاد الطريقة الطبيعية للحياة التى ترغب فيها، ولكنها لا تستطيع الاستمرار فى هذا المكان الذى يشبه مؤسسة ترعى ذوى الاحتياجات الخاصة. ومن خلال أفعالها وأقوالها نلمس بوضوح نضالها بلا طائل وهى تبنى هذا المكان الخاص كملجأ تحتمى به مما هو موجود فى هذه المصحة من العوامل التى تصيب الإنسان بالضعف والوهن.

وقد يحدث أن يقع الكاتب، عند اضطراره للانتهاء من كتابة مذكراته، تحت إغراء استعمال وصف مريح (كأن يقول عن الشخص المبحوث: "شخص معوق" أو "شخص مشرد" أو "أسود/ أبيض/ آسيوى.. إلى آخره) بدلاً من النظرة المتعمقة للمظهر والسلوك الحقيقيين لهذا الشخص. إلا أن مثل هذا التصوير السريع للشخصية يقدم شخصية عادية مبتذلة تظهر فى أحسن الأحوال وكأنها غير مكتملة الإنسانية، وتظهر فى أسوأ الأحوال وكأنها صورة سلبية نمطية جامدة. مثال ذلك، أن طالباً من المتدربين على البحث الميدانى قام، أثناء وصفه للناس فى أحد مراكز التسويق الكبرى (مول)، بتصوير شخصية امرأة عجوز فقال عنها "العجوز ذات الكيس"، وذلك بعد أن لاحظ

(*) القهوة سريعة التحضير Instant Coffee التى تعرف فى بلادنا باسم علامتها التجارية الأوسع شهرة: "نسكافيه". (المراجع)

أنها تغمغم لنفسها أثناء بحثها المرتبك - وهى فى حالة ذهول - عن شىء فى كيس نقودها الرث الكبير الحجم. ولا يقدم مثل هذا الوسم سوى صورة مجملة لنمط باهت للشخصية ويحول دون أن يتنبه الكاتب للتفاصيل والأفعال الأخرى المهمة.

ومع ذلك، فإن الباحث الميدانى يقوم فعلاً بإدراج ما يصدر عن الفرد فى مجتمع البحث من تعليقات وأفعال يحكم فيها على الآخرين بأحكام نمطية جامدة أو يسخر فيها منهم. ويصف الاقتباس التالى طالبًا يقوم، فى مشهد تمثيلى ساخر أمام بعض زملائه، بتقليد ما هو معهود من الإشارات والأوضاع الجسمانية التى تصدر عن شخص "غضوب" من أصل لاتينى:

> وبعد أن مضى الرجل الأبيض وصديقه بعيداً، قال هذا الطالب: "البيوت الجبلية"(*) [يا لها من بيوت] قالها فى لهجة إسبانية ساخرة. ثم أخذ يبالغ فى مشيته: فيباعد بين حذائيه فى خطوات مائلة منحرفة، ويضع ذراعيه حول وسطه فى زاوية بارزة للخارج، وأخذ يميل للخلف... قال واحد من المشاهدين: "إننى أنظر إليكم أيها الأغبياء".

فى هذه المجموعة من الفتيان المازحين، يقوم هذا الفتى المراهق الأبيض بتمثيل دور كاريكاتيرى ساخر لفرد "غضوب" من أصل لاتينى. ويحرص الباحثون على التمييز بين ما للأعضاء من سمات شخصية وسماتهم هم،

وذلك عن طريق تقديم التفاصيل التى توضح فى سياقها ما صدر عن عضو المجتمع المحلى من أقوال وتصرفات انطلاقًا من وجهة نظره هو وليس من وجهة نظر الباحث.

لا يحتاج الفرد الذى سبق معرفته جيداً فى الفقرات السابقة؛ لا يحتاج إلى تقديم واف فى كل مرة يظهر فيها فى مشهد ما. بل حتى فى حالة الشخصية الرئيسية،

(*) مصدر ترجمة Chale Homes: موقع للمصطلحات ذات الأصول الإسبانية على الإنترنت. (المترجم)

يقتصر الكاتب على وصف أفعاله وتصرفاته وسماته ذات الصلة بالتفاعل الجارى حدوثه. وبتعبير آخر، لا يقتصر اهتمام الباحث الميدانى على صفات هذا الفرد بل يهتم - إلى جانب ذلك - بمرات ظهوره السابقة وبالتأثير النسبى لها فى تلك المرحلة من تطور الأحداث. وليست كل فقرة تسجيلاً جزئيًا فحسب، فمع تراكم الملاحظات، سيلاحظ الباحثون الميدانيون أنهم قد جمعوا من الملاحظات ما يكفى لتقديم بعض الأشخاص باعتبارهم أفراداً معروفين جيداً (أى شخصيات "مكتملة")، وتقديم أشخاص آخرين باعتبارهم شخصيات معروفة بدرجة أقل (أى شخصيات "مسطحة") وتقديم عدد قليل من الأفراد باعتبارهم أنماطاً كسائق الحافلة أو الشرطى (أى شخصيات "مألوفة" Stock).

يضاف إلى ذلك أن الاتصالات المستمرة بالبشر توسع - بدرجة كبيرة - من مصادر الباحث الأوفى للكتابة والأكثر ثراء عن الشخصيات. وبعد أن يصبح الباحث فى وضع لا يقتصر فيه على الملامح السطحية التى يراها أى ملاحظ، يستطيع أن يراقب ويكتب عن الصفات التى يصعب اكتشافها، والتى لا تتضح إلا مع اللقاء المتكرر مع الناس وزيادة الألفة معهم. وهنا توجد مشكلة تتمثل فى أن الباحثين الميدانيين كثيراً ما يصفون الشخصيات، حتى الرئيسية منها، عقب اللقاء الأول معهم فقط، تاركين هذا التصوير الأولى للشخصيات على ما هو عليه - بدون تغيير - رغم وصولهم بعد ذلك لمعرفة الكثير عن أولئك الأشخاص. لذلك نود أن نوصى بأخذ الوقت الكافى أثناء السير قدمًا فى خطوات البحث للقيام، بين الفينة والأخرى، بالتمعن فى مظهر ومشاعر الشخصيات الرئيسية ومحاولة الإحاطة بأبعادها بشكل جيد على الورق، وذلك بعد أن أصبحت شخصيات ذات ملامح متفردة وصفات خاصة.

وعادة ما يقوم الباحث بتقديم تصوير مفصل لشخصيات أولئك الأفراد الذين يقومون بدور محورى فى أحد المشاهد. ورغم أن الصورة الكاملة لأى شخص تتكشف بالتدريج على امتداد الوقت من خلال كتابتها فى سلسلة من المذكرات الميدانية، إلا أن كل وصف منها يقدم - على حدة - تفاصيل حية وهامة تظهر صورة الشخصية الأساسية

على أكمل ما يمكن من الإظهار: وذلك من خلال مظهر الشخصية، وأوضاعها الجسمانية، وإيماءاتها، وكلماتها، وأفعالها. وعلى النقيض من ذلك، عند رسم شخصية فرد هامشي، يكتفي بالإشارة إليها بأقل عدد من التفاصيل الضرورية لرؤية ذلك الفرد وهو يقوم بدوره الصغير في ذلك المشهد.

وهناك ثمة عدد من المعايير التي تشكل قرار الباحث فيما يتصل بتحديد أي الشخصيات يكون أساسياً وأيها يكون هامشياً أو ثانوياً. أول هذه المعايير أن الاهتمامات الفكرية للباحث سوف تركز انتباهه على أفراد معينين. مثال ذلك، أن الشخصيات المحورية في دراسة عن العمل بأسلوب الفريق بين "طاقم الدعم" Support Staff (الذي يتحمل العبء الحقيقي لعمل المحكمة - المترجم) في إحدى المحاكم كانوا أفراد السكرتارية والحُجّاب الموجودين في قاعة المحكمة وليسوا المحامين، ولا الشهود، ولا القاضي. كما نلاحظ أن الاستراتيجيات المنهجية تحدد - كذلك - بؤرة انتباه الباحث الميداني. من ذلك، أن استراتيجية لتصوير عالم اجتماعي عن طريق وصف ما به من أنماط تفاعلية متميزة قد يشكل قرار الباحث فيركز على الشخص الذي يقدم - على وجه الخصوص - تجسيداً حياً لنمط ما من تلك الأنماط التفاعلية.

يضاف إلى ذلك أن محورية هذا الشخص ووظيفته في نظر أفراد مجتمع البحث تحددان درجة التفصيل في رسم شخصيته. فإذا توجه الأعضاء الموجودون في مشهد ما إلى شخص بعينه، فلابد إذن من وصف يجعل ذلك الشخص محورياً في هذا المشهد. وبالعكس من ذلك، فإنه حتى هؤلاء الذين قد يمثلون أشخاصاً محوريين في موقع ما لا ينبغي على الباحث أن يوليهم إلا انتباهاً يسيراً في حالة ما إذا كان الأفراد الموجودون في المشهد لا يعطونهم إلا انتباهاً يسيراً كذلك. مثال ذلك، في مشهد يركز على الطلبة وهم يتحادثون أثناء تناولهم الغداء في الفناء المخصص لذلك، فإن "الناظر الذي يسير عبر هذا الفناء وينظر حوله من جانب لآخر" قد لا ينبغي وصفه بمزيد من التفصيل إذا لم يبد على أحد أنه يلاحظه.

كما ينبغى أن تحتوى المذكرات الميدانية على ذكر الباحث الميدانى نفسه باعتباره أحد الشخوص المشاركة فى التفاعلات. أما حضور الباحث الميدانى الذى يقف - بالفعل - جانبًا لمتابعة ما يجرى، هو أمر لا ينبغى تسجيله فى المذكرات إلا للتعريف بالزاوية التى يشاهد منها الحدث. أما الباحث الذى يشارك مشاركة مباشرة فى الأفعال فإنه يصبح، أثناء كتابة المذكرات الميدانية، شخصية ذات صلة وثيقة بالحدث، وخاصة عندما يتعامل معه أحد أفراد الجماعة معاملة واضحة جلية. والواقع أن الباحث قد يلعب دورًا محوريًا فى أحد الأحداث بطرق غير متوقعة. فقد يتحول عن موقفه وتوجهه الشخصى كملاحظ من الخارج ويصبح طرفًا مشاركًا مشاركة كاملة فى هذه التفاعلات. وفى الاقتباس التالى يقوم الطلبة الذين يؤدون إحدى الألعاب التعليمية فى فصل دراسى للصم وضعاف السمع، يقومون بحث بعضهم بعضًا على الكلام. ونظرًا لأن الباحث الميدانى (فى تلك الحالة) كان ولا يزال طول عمره يعانى من نوع من الفأفأة فى كلامه، فمن الطبيعى أن يبدى تعاطفًا مع هؤلاء الطلبة. ورغم كون هذا الباحث الميدانى ليس من طلبة هذا الفصل أساسًا، إلا أنه يصبح شخصية محورية فى إحدى المراحل، وذلك على النحو التالى:

> ظلت لين Lynn تطلب من سيزر Caesar أن ينطق بالإجابات تلفظًا (وليس عن طريق لغة الإشارة). تقول المدرسة: "هذا حسن جدًا يا "لين"... هذه إجابة سليمة. يا "سيزر" ينبغى عليك أن تنطق بالإجابات بنفس هذه الطريقة السليمة حتى نستطيع كلنا أن نفهمك". ينظر "سيزر" متطلعًا إلىّ وقد احمر وجهه قليلاً كما ينظر إلى مكتبه بنصف ابتسامة. تسأله المدرسة (بينما هى تشير إلىّ)، فتقول: "هل تخاف من النطق لأنه هنا؟" يبدو أن "لين" و"جاكى" و"سيزر" جميعًا يجيبون فى نفس اللحظة عن طريق الإشارة بأنه يخاف من سماعى له وهو يتكلم. أقول لسيزر: "لا ينبغى لك أن تخاف مما أفكر فيه. فأنا أيضًا قد عانيت من صعوبة الكلام فى وقت سابق".

بدا "سيزر" مهتماً بما قلته، ولكنه أشار بيده إلىّ مبدياً شيئًا من الشك فى كلامى. وردت المدرسة قائلة: "نعم، لا مشكلة فى الأمر، فأنت تتكلم بشكل جيد. ليس عليك أن تخشى مما يظنه بك أى إنسان. كل ما عليك أن تنطق جملة واحدة، وهو سيخبرك بما إذا كان يستطيع فهمك".

يقول "سيزر" شيئًا وهو على مضض ثم ينظر إلىّ، ولا يزال مطأطئًا رأسه قليلاً كما لا يزال وجهه محمراً. ترتسم ابتسامة باهتة على شفتيه وهو ينتظر إجابتى. لم أكن فهمت كلمة واحدة مما قاله، كما كنت أشعر باليأس. ماذا يحدث لو أنهم سألونى أن أكرر ما قاله؟ أجبت قائلاً: "نعم، هذا شئ جميل. لقد فهمتك". "تلتفت" المدرسة سريعاً إلى "سيزر" وتشير له بالإشارات الدالة على ردى، ثم تسترسل قائلة له إنه ينبغى عليه ألا يكون خائفًا إلى هذا الحد مما قد يظنه فيه الناس. ينظر إلىّ "سيزر" ويبتسم. تستمر اللعبة، ويبدأ "سيزر" فى الإجابة مستعملاً لكل من لغة الإشارة ولغة الكلام. وقد بدأت أفهم بعضاً مما كانوا يقولونه.

من الواضح أن الخبرة السابقة لهذا الباحث وحضوره قاما بدور محورى فى هذا المشهد، كما أن ردود أفعاله المتعاطفة قد أثرت على هذا الوصف تأثيراً جوهرياً. ولو أنه كان قد حاول أن يكتب تلك المذكرات بدون ذكره لنفسه – أى تفاعلاته ومشاعره – لكان هذا المشهد قد أصابه تشويه شديد.

وعندما يصف الباحثون الميدانيون دورهم الذى شاركوا به فى المشاهد، فإنهم يستعملون – بصفة عامة – فى كتاباتهم صيغة المتكلم. ولو أن هذا الملاحظ كان قد وصف هذا المشهد باستعمال صيغة الغائب، مشيراً إلى نفسه بذكر الاسم، لكان هذا الوصف قد فقد قدراً كبيراً من تأثيره:

يقول "سيزر" – على مضض – شيئًا ما وهو ينظر إلى "بول" Paul، وهو لا يزال مطأطئًا رأسه قليلاً، كما لا يزال وجهة محمراً. ترتسم ابتسامة باهتة على شفتيه وهو ينتظر إجابة "بول". يرد "بول" قائلاً: "نعم، هذا شيء

جميل. لقد فهمتك". تلتفت المدرسة سريعًا إلى "سيزر" وتعطيه الإشارة الدالة على رد "بول"، ثم تسترسل قائلة له أنه ينبغي عليه ألا يكون خائفًا إلى هذا الحد مما يظنه فيه الناس. ينظر "سيزر" إلى "بول" ويبتسم. تستمر اللعبة، ويبدأ "سيزر" فى الإجابة مستعملاً لكل من لغة الإشارة ولغة الكلام.

نلاحظ على النص الأول (الأصلى بصيغة المتكلم) حرص الكاتب على ألا يغفل شيئًا مما يمكن رصده من سلوك "سيزر" ("ينظر متطلعًا إلىّ وقد احمر وجهه قليلاً" و"ينظر إلى مكتبه بنصف ابتسامة") ولكن الكاتب لا يصف "سيزر" هنا بالتوتر الراجع إلى الخجل. إلا أننا فى حالة النص المكتوب بصيغة الغائب نفتقد جزء أساسيًا من نضال "سيزر" من أجل أن ينطلق بالكلام. وقد نقل إلينا الباحث الميدانى هذا النضال من خلال تعليقه المتعاطف والذى يفصح فيه عن ذات نفسه (والذى ورد فى النص الأصلى) حيث يقول: "لم أكن فهمت كلمة واحدة "مما قاله"..." ومن خلال ملاحظته التى ختم بها كلامه حيث قال: "وقد بدأت أفهم بعضها مما كانوا يقولونه". ومن خلال ما أبداه الكاتب من انتباه شديد لتفاصيل الأفعال والأقوال، وكذلك من خلال ما أفضى به من مشاعره الشخصية، قد يحس القراء بذلك الخوف من الكلام الذى كان يشعر به "سيزر" فى البداية، وبما أعقبه بعد ذلك من شعوره بالراحة النفسية لأنه تمكن من الكلام، ولأن كلامه أصبح مفهومًا.

كتابة الفقرات المسهبة: التنظيم

لا يقتصر الأمر على أن الباحثين الميدانيين يستطيعون تحسين كتابتهم الوصفية عن طريق تعلم الاستراتيجيات الخاصة بتصوير لحظات الخبرات التى يعيشونها، بل إنهم يستطيعون كذلك أن يكتبوا على نحو أوضح عن طريق تنظيم كتابتهم فى وحدات ذات بناء متماسك. إذ تمكنهم الاستراتيجيات التنظيمية الواضحة من أن يتصوروا فى أذهانهم هذه الوحدات وأن يدونوا - بسهولة أكبر - ذكرياتهم المتشعبة والمتشابكة، فى صورة مجموعة متماسكة من المذكرات الميدانية.

بادئ ذى بدء، قد يجد الباحثون الميدانيون صعوبة فى المثابرة على الانتباه المركز طوال فترة الكتابة. فقد يتذكرون وقائع مشتتة لا رابط بينها ويندفعون فى الكتابة عنها، مقدمين بذلك تفاصيل متناثرة أو شظايا وكِسَراً يتعذر استيعابها، مما يجعل من العسير "رؤية" أو "سماع" شريحة متماسكة من شرائح الحياة، وهو ما يؤدى إلى صعوبة الانتفاع بعد ذلك بتلك المذكرات الميدانية التى كتبوها. أو يظلون يكتبون صفحات عديدة، وهو هائمون على وجوههم خلال حشد لا نهاية له من التفاصيل الثانوية التافهة التى تجعل هى الأخرى قراءتهم اللاحقة وتحليلهم اللاحق للمذكرات الميدانية أمراً عسيراً. ومع ذلك فإن تذكر الباحث لأى مشهد سبق رصده والنظر إليه كسلسلة من مراحل تطور الأحداث، وما يترتب على ذلك من الاحتفاظ بهذه الذكرى كصورة كلية مدركة، سوف يساعد المرء على الكتابة النهائية لمشهد "مكتمل" من كل النواحى. بالإضافة إلى ذلك، فإن الباحثين الميدانيين، وعن طريق اعتمادهم على الاستراتيجيات المتعارف عليها فى تنظيم مذكراتهم، يتمكنون بسهولة من الاحتفاظ بنوع من الانتباه المركز أثناء كتابتهم لجميع التفاصيل التى يتذكرونها.

ويحاول الباحثون الميدانيون فى كثير من الأحيان أن يكتبوا توصيفات مفصلة توثق الأحداث توثيقاً كاملاً من البداية حتى النهاية. فهم يريدون أن يكونوا متأكدين، فيما بعد، من أنهم لم يغفلوا – عن غير قصد – أحد الملامح الهامة لحادثة أو واقعة شاهدوها. ويترتب على ذلك أن الباحثين الميدانيين يكتبون مذكراتهم الميدانية بطرق تدل على أنهم قد سجلوا هذا المشهد "بأكمله". وهم لا يقتصرون فى قيامهم بهذا العمل على إيراد التفاصيل الكاملة، بل يضيفون إلى ذلك الكتابة فى صورة وحدات تحدد البدايات والنهايات وتميز بينها. وتقوم التفاصيل التى يضمها الكاتب فى فقرة واحدة بتكوين هذه الوحدة.

ووفقاً لما جرى عليه العرف، تكتسب الفقرة بناءها المتماسك لأن الكاتب يركز انتباهه على فكرة واحدة أو رؤية واحدة. وهذا يعنى أنه ينظر إلى بعض الأفعال باعتبارها

صورة متكاملة لا تتجزأ (أو "جشتالت")(*) ويركز عليها. وفى أثناء قيامه بالكتابة، يحول انتباهه من إحدى اللحظات التى استعادتها ذاكرته إلى غيرها من اللحظات: مثال ذلك أن يحول انتباهه من شخص إلى شخص آخر أو من نشاط إلى نشاط آخر فى أحد الفصول الدراسية. وكثيراً ما يُستدل على هذه التحولات الطفيفة بانتهاء الفقرة. وعلى ذلك فإن الفقرة، فى معظم المذكرات الميدانية، تقدم مرحلة متماسكة من مراحل الأحداث، كما أنها، بناءً على ذلك، تقوم بتنظيم بنية الوصف[8].

كما أن هناك بعض الباحثين الميدانيين الذين ينسقون كتابتهم بصياغتها فى وحدات موضوعية تتجاوز نطاق الفقرة الواحدة. فهم ينسقون ذكرياتهم على هيئة صور كلية كبيرة عن طريق تركيز انتباههم على امتداد موقف بأكمله أو حادث بأكمله، وذلك حتى تتماسك اللحظات المنفصلة لتخلق وصفًا "كاملاً" لأحد المشاهد. وتصبح هذه الصورة الكلية الكبيرة فقرة مسهبة، قد تضم مجموعة من الفقرات. ورغم أن أكبر وحدات الكتابة هى تلك الوحدة الخاصة بمجمل المذكرات الميدانية لذلك اليوم، إلا أنه كثيراً ما يجد الباحث الميدانى أنه ينسق ذكرياته وملاحظاته الموجزة ليدون عدداً من الوحدات المنفصلة داخل القسم الخاص بذلك اليوم.

وكثيراً ما تكون هذه الفقرات المسهبة – الموجودة ضمن المذكرات الميدانية لأحد الأيام – متعلقة بواقعة أو حدث سجله الكاتب فى مذكراته باعتبار أن لها أهمية خاصة. ويعمد الكثير من الباحثين الميدانيين إلى البدء بكتابة هذه الحوادث أولاً. وفى حالة العمل على الكومبيوتر خاصة، يستطيع المرء أن يرتب تسلسل أنشطة اليوم، ثم يعود

(*) تمثل نظرية الجشطالت التى عرفها علم النفس فى بدايات القرن العشرين، نوعًا من البديل للنظريات الإمبيريقية فى الإدراك والمعرفة. ويشير الجشطالت إلى كل متكامل له قوانينه الخاصة، وهو ليس واقعًا ملموساً، ولكنه بناء يُدرك بالعقل ويُرى بالعين. (والجشطالت كلمة ألمانية تعنى النمط، أو الصورة، أو التشكيل). وتذهب نظرية الجشطالت إلى أن الأداء الوظيفى للأجزاء المختلفة للكيان الاجتماعي يتحدد بسلوك وطبيعة الكل، الذى يعمل على تنظيم الظواهر الاجتماعية والبشرية فى ضوء الوحدات الأكبر للتحليل، وهى بذلك تتعارض مع المذهب الذرى (أو تحليل الكليات فى ضوء جزئياتها المكونة). انظر المزيد فى: موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص١٤٩٧. (المراجع)

أدراجه ليبدأ بهذا الحدث الأساسي. ويقوم الباحث الميداني بالتحايل - بمعنى ما - لتحقيق غرضين متعارضين هما: كتابة كافة الأنشطة بأسرع ما يمكن، والكتابة المستوفاة والنابضة بالحياة لتلك المشاهد التي يستشعر ببداهته أنها أكثر في أهميتها لمشروعه البحثي. وعندما يكون الباحث في مستهل إقامته في الميدان، فإنه يكون أكثر اهتمامًا بتدوين كل شيئ: وكثيراً ما تكون هذه الكتابة مليئة بالنتف المتناثرة والعفوية. وفيما بعد ذلك، وأثناء تقدمه في بحثه، قد يصبح مؤهلاً لأن يكتب فقرات مسهبة عن الوقائع والأحداث التي يختارها باعتبار أنها - بالذات - تكشف عن خبرات أفراد مجتمع البحث. وتتطلب أمثال تلك المذكرات الميدانية تركيزًا مستمراً خلال كتابة الفقرات الطويلة، كما تستفيد من ذلك الجهد الممتاز المبذول في كتابة تتابعات الحدث تتسم بالحيوية، والتفصيل والتماسك.

وعند كتابة مثل هذه الفقرات المسهبة، يتعامل الباحثون الميدانيون مع عدد من الوحدات التنظيمية المختلفة. وفي القسم التالي نمعن النظر في ثلاثة اختيارات: طريقة الاسكتشات (أو الوصف المجمل)، والتي تصف شريحة من الحياة كمشهد تمت ملاحظته، بجانب شكلين من أشكال الفقرات السردية وهما: الوقائع Episodes والحكايات المسهبة التي ترد في المذكرة الميدانية، حيث يروي هذان الشكلان حكاية التفاعلات، والوقائع، والحوادث باعتبارها أفعالاً دينامية في مشهد آخذ في التكشف والظهور بالتدريج.

الاسكتشات (أو الأوصاف المجملة)

في الاسكتش (أو الوصف المجمل) يقوم الباحث الميداني، وهو متأثر بأحد الانطباعات الحسية النابضة بالحياة، بوصف أحد المشاهد من خلال صورته المتخيلة أساسًا. ويشبه هذا الوصف ما يحدث في التقاط الصورة الفوتوغرافية، حيث لا نلمس فيه بشكل ظاهر تعاقب الأفعال. بل على العكس من ذلك يقوم الكاتب - باعتباره ملاحظًا منفصلاً يرصد أحد المشاهد - يقوم بوصف ما يشعر به. ويختلف تقديم لقطة ساكنة

بدرجة أو بأخرى عن كتابة نص سردى، حيث يشعر الكاتب - خلال كتابته للسرد - بالحركة خلال الزمن، وبرواية فعل عقب فعل آخر.

ورغم أن مصطلح "الاسكتش" (أو الوصف المجمل) يستعمل نوعًا من الاستعارة البصرية، إلا أن هذا الشكل من أشكال تنظيم الكتابة لا يعتمد - فحسب - على التفاصيل المرئية، بل يمكنه كذلك أن يضم تفاصيل سمعية وحركية. مثال ذلك، أنه قد لا يكون مظهر طعام معين وإنما الإحساس برائحته هو المعيار الأساسى لاسترجاع ذكريات مزايا هذا الطعام ونقلها على الورق. وفى وصفه للبشر، والمواقع، والأشياء وما أشبه ذلك، يتعين على الكاتب أن يستثير كافة الحواس التى تذكره بتلك اللحظة على نفس الصورة التى أدركها بها. ومع ذلك، فكثيراً ما تسيطر حاسة البصر على الكتابة، وما ذلك إلا لأن الباحث يرصد الموقع وهو على بعد مسافة منه، أو لأنه يريد أن يعطى رؤية إجمالية مختصرة لهذا الموقف. كما أن حاسة البصر تسيطر على الكتابة، وإلى حد ما، لأن اللغة الإنجليزية فيما يتصل بحاسة البصر أكثر تفصيلاً وتطوراً منها فيما يتصل بالحواس الأخرى(٩). لذلك قد يتوجب على الكاتب الإثنوجرافى أن يبذل مجهوداً خاصاً فى استرجاع الصور الحسية غير البصرية وفى الكتابة عنها.

الاسكتش (أو الصورة المجملة) هو بطبيعته المعهودة قطعة من الكتابة المختصرة التى توحد التفاصيل الوصفية المتعلقة بأحد المواقع، أو بأحد الأفراد، أو بواقعة معينة. ونظرًا لأن الاسكتش ذو طبيعة ساكنة أساسًا، فليس فيه أى ذكر للأحداث المتتابعة (التى تقتضيها حبكة القصة) ولا أى تصوير واف للشخصيات. تأمل الاسكتش التالى لسوق موجودة فى أحد الشوارع التى يقطنها ويتردد عليها ذوو الأصول اللاتينية، وهى الصورة التى تركز على شخصية واحدة فى محل صغير لبيع اللعب:

> عجوز من أصول لاتينية منحنية تنظر إلى اللعب المعروضة على الأرض. تحمل خلف ظهرها كيسين من البلاستيك بهما شىء ما، وهى تستعملهما للحفاظ على توازنها وهى منحنية. تلتقط عدداً من اللعب المختلفة تباعًا من على الأرض، رافعة إياها عدة بوصات لتقلبها وتديرها فى يدها، ثم تضعها مكانها بعد ذلك. وبعد دقيقة، تنتصب قائمة وتخرج من المحل فى خطو وئيد.

ويسمح تنظيم التفاصيل في اسكتش (صورة موجزة) بهذه الطريقة، يسمح للكاتب أن يعطى إحساسًا سريعًا بالموقع عن طريق عرضه لصورة مقربة لانجذاب شخصية واحدة بعينها لهذا الموقع.

وكثيرًا ما تشكل الاسكتشات سياقًا للتفاعلات التي ستحدث لاحقًا، واضعة إياها داخل إطار أكبر من الأحداث والوقائع، كما تتيح للقارئ أن يتخيل الموقع أو المشاركين الموجودين داخله على نحو أكثر سهولة. ومع ذلك، فإن هذه الفقرات قد تمثل وحدات مستقلة داخل التقرير المكتوب. وفي الاسكتش التالي، مثلاً، يصف كاتب آخر مشهداً في مدرسة ثانوية أثناء ساعة تناول الغداء، وهي ساعة تخلو من الأحداث المهمة ومن ازدحام الطلبة، ويقدم وصفه على نحو يسجل الطريقة التي يتبعها الطلبة في التكتل في مجموعات:

> رغم أن الجو كان بارداً وعاصفًا، فقد كان نحو مائة من الطلبة السود لا يزالون متجمعين حول بعضهم في الساحة الرئيسية. وفي أقصى اليسار، كان رجل أسود قصير القامة يرتدي سترة سوداء مما يرتديه المشاركون في المباريات الرياضية، كان ينطط إحدى الكرات. وإلى جانبه كان يجلس على إحدى الدكك سبع إناث سود ورجلان أسودان. وبعيداً، عن ناحية اليمين توجد مجموعة من حوالي ثلاثين إلى أربعين طالبًا أسود مزدحمين معًا. وقد أحصيت من بينهم ما يقرب من عشرين يرتدون سترات رياضية مختلفة. وهناك في أقصى الساحة كانت تقف مجموعة أخرى من السود عددها خمس عشرة، أغلبها من الإناث. وفي أسفل الساحة، عند أقصى الجانب الأيمن، كانت توجد مجموعة أخرى من حوالي عشرين من الطلبة السود، نصفهم تقريبًا من الذكور والنصف الآخر من الإناث. كان بعضهم واقفًا، وكان الآخرون جالسين على حائط أسمنتي قصير في مواجهة قاعة المحاضرات. وعلى يمين هذه المجموعة، لاحظت أحد الذكور وهو ينصت إلى جهاز مسجل وراديو محمول (ووكمان) أصفر اللون، وكان هذا الرجل يرقص وحده. فقد كانت ذراعاه تتطوحان، وهو يشد جسمه إلى الأمام كما لو كان يتزحلق على الجليد، بينما قدماه تجريان في نفس المكان.

كان هذا الباحث الميداني معنيًا – بصفة خاصة – بالعلاقات الإثنية، كما كان راغبًا في تتبع مسألة كيف ومتى وأين تم تنشئة هؤلاء الطلاب اجتماعيًا ومع من. وحتى عندما لم يستطع أن يسمع أو يرى بدقة ما كان يفعله هؤلاء الطلاب، فإنه صور هذه التجمعات بأسلوب أشبه باللقطات الفوتوغرافية. وبالرغم من أن هذه الفقرة تضم تفاصيل بصرية وحركية، فإنها تخلق الإحساس بحياة خامدة بلا روح، لا بمشهد تتابع فيه الأحداث.

وبصورة عامة، تفيد الاسكتشات (أو الصور المجملة) في إعطاء القارئ إحساسًا إجماليًا بالأماكن والبشر يكون بمثابة خلفية بالنسبة لما يرد في المذكرات الميدانية من التوصيفات الأخرى. ذلك أن الاسكتشات الوصفية للأفراد الذين يقفون هنا وهناك أو للتعبير الذي تقوله إحداهن وهيأتها الجسمانية التي تبدو بها وهي تنظر إلى امرئ ما، مثلاً؛ هذه الاسكتشات تستطيع أن تكشف ما للعلاقات الاجتماعية من صفات حتى عندما يخلو المشهد – في ظاهره – من وقوع أحداث كثيرة فيه.

الواقعة أو الحدث العارض Episodes

خلافًا للاسكتش (أو الصورة المجملة) والذي يصور حياة جامدة لا حركة فيها في مكان واحد، تروي الواقعة أو الحدث العارض حكاية فعل ما (أو تصرفًا أو سلوكًا) متحركة عبر مساره الزمني. فعند رواية واقعة قصيرة لم تمتد لفترة طويلة من الزمن أو لا تضم شخصيات عديدة، يستطيع المرء أن ينظمها ويكتبها بطريقة مؤثرة على هيئة حدث واحد. ففي رواية الكاتب للحدث يحكي عن واقعة باعتبارها فعلاً أو تفاعلاً مستمرًا، ومن ثم فإنه يكوّن منها فقرة موحدة إلى حد ما. يترتب على ذلك أن الباحثين عندما ينظرون إلى الأفعال باعتبار أنها ذات علاقات متبادلة ومتداخلة، فإنهم كثيرًا ما يكتبون ما يذكرونه عن هذه الأعمال في صور حدث يستغرق فقرة أو فقرتين(١٠).

ويتكون الاقتباس التالي من حدث يستغرق فقرة واحدة يصف فيها الكاتب تعاملاً بين اثنين من التلاميذ أثناء بداية الحصة:

دخلت فتاة سوداء. كانت ترتدى سترة منتفخة بيضاء اللون، وتلبس نظارة، وكان لها شعر أسود مستدق الأطراف ومرتب. جلست إلى يمينى. بعدها دخل "روبرت" وفتى آخر (كلاهما من السود) وجلسا. كانا يأكلان سندوتشات "كنتكى فرايد تشيكنز"، أخرجاها من علبتين صغيرتين ملونتين باللونين الأحمر والأبيض. ظل صديق "روبرت" يلوح بيده مهدداً الفتاة السوداء، ومحاولاً أن يصفعها. وظلت تأمره بصوت غاضب أن يدعها وشأنها. وبعد دقيقة من هذا الموقف قالت المدرسة السوداء لهذا الفتى: "دعها وشأنها، يا أخ". رد الفتى على مسـز "دوبـوا" بابتسامة عريضة ملأت وجهه، وقال: "لا تقلقى إنها شقيقتى". قالت الفتاة وهى تنظر إليه نظرة خاطفة "هُسّ". فعاد ليأكل شطيرة الدجاج.

هنا، يتم عرض تصرفات الطلبة والمدرسة فى ترتيب متسلسل، حيث يبدو كل تصرف وكأنه يتسبب فى إحداث التصرف التالى؛ فالفتاة لها رد فعل على تلويح الصبى لها بالتهديد بالضرب، والمدرسة لها رد فعل عليه، إلى آخره. وهكذا، يتم ربط هذه التصرفات ببعضها، كما أنها تظهر كأنها تفاعل واحد مستمر، مقدمة بذلك واقعة واحدة.

ولا تحتاج كل واقعة لبنائها إلى ذروة (قمة تصاعد الحدث) كما هو الحال فى الواقعة المذكورة آنفًا. وتقوم كثير من الحلقات المدونة فى المذكرات الميدانية على أساس حكاية التفاصيل الدقيقة لروتين يصدر عن شخصية واحدة، أى لتصرفاته اليومية. والواقع أنه يحدث فى كثير من الفقرات أن يجد الباحثون الميدانيون أنفسهم يكتبون – أساسًا – عن الأنشطة اليومية العادية. وفى الاقتباس التالى، مثلاً، تحكى الباحثة الإثنوجرافية عن الطريقة التى يتبعها عدد من الطلاب المختلفين فى فصل دراسى للحصول على دورة فى برنامج ESL فى العمل معًا لإنجاز أحد الأنشطة الجماعية:

كانت إحدى الجماعات مكونة من ستة أفـراد: فتـاتين كوريتين، وصبى كورى، وصبيين مكسيكيين، وفتاة روسية. وكما هو الحال مع

الجماعات الأخرى، رتب أفراد هذه الجماعة كراسيهم فى دائرة صغيرة لتنفيذ النشاط المكلفين به. أمسك إشمائيل (إسماعيل؟)، وهو صبى مكسيكى، بطاقة السؤال فى يده وقرأها لبقية أفراد الجماعة قائلاً: "اذكر خمسة أمور يمكنك أن تفعلها فى لقاء (عاطفى) مع صديقك (أو صديقتك) بتكلفة تقل عن عشرة دولارات أمريكية فى لوس أنجلوس". (كانت إنجليزيته متأثرة بشدة بلهجته المكسيكية، إلا أنهم استطاعوا فهم ما قاله لهم). وقال، وهو واضع كوعيه على المكتب وناظر مباشرة إلى أفراد الجماعة، "حسنًا، هيا". وأخذ يراقبهم دقيقة أو دقيقتين؛ ثم أبدى رأيًا بأن المرء يمكنه أن يذهب لتناول المشروبات فى مقهى "هارد روك" Hard Rock Café. وافق الآخرون بإيماءة من رؤوسهم. عاد إشمائيل ثانية يراقبهم منتظراً أن يسمع اقتراحات أخرى من أفراد الجماعة. قال الصبى المكسيكى الآخر: "الذهاب إلى شاطئ البحر" وقالت الفتاة الروسية: "التزحلق باستعمال القبقاب ذى العجل". أومأ الطلبة الكوريون برؤوسهم موافقين، ولكنهم لم يقدموا آراء أخرى. (أظن أن إشمائيل أخذ يراقب الطلبة الآخرين منتظراً أن يردوا، وذلك بالرغم من أنه كان يبدو عليه أنه يعرف الأجوبة).

فى وصف هذا المشهد الذى يجرى داخل أحد الفصول الدراسية، ملأت الباحثة الميدانية ست صفحات بمجموعات من الأحداث المنفصلة عن بعضها بدرجة أو بأخرى، والتى تصف أحداثًا تجرى خلال تلك الساعة. وبهذا الشكل، استطاعت أن تقدم المجموعات الصغيرة من الطلبة وهم يضطلعون فى نفس الوقت بأنشطة مختلفة. ولا تكون هذه الأحداث فى موقعها المناسب إلا لأنها تقع فى نفس الفصل وأثناء نفس الساعة. وعندما يصف الباحثون الميدانيون تصرفات متزامنة تحدث أثناء ساعة واحدة، مثلاً، فكثيراً ما يدونونها – فى المذكرات الميدانية النهائية – كمجموعة من الأحداث المتفرقة، والتى لا ترتبط بالزمان ولا بالمكان إلا ارتباطًا واهيًا.

وتقف كثير من الوقائع الواردة فى المذكرات الميدانية مستقلة بنفسها، تكاد ألا يكون بينها وبين غيرها من الوقائع أى رابطة. ويدون الباحثون الميدانيون كثيراً من مثل هذه

الفقرات للحديث – فى كل فقرة – عن واقعة مستقلة بنفسها، لأنهم من النادر أن يتمكنوا من تتبع تسلسل الأحداث بجانب العلم بكافة عواقبها وآثارها فى يوم واحد. فقد يكتبون واقعة عن واحدة من حالات التفاعل (أى عن تصرف واحد) لمجرد أنه يتصل بموضوع يهتمون به. وكثيراً ما يكتبون مذكرة ميدانية بدون أن يعلموا ما إذا كانت تلك المذكرة سوف تكون فيما بعد ذات أهمية فى التحليل النهائى الشامل أم لا. كما أن كتابة الأحداث فى صورة حلقات متتابعة زمنيًا سيمكن الباحث الميدانى لاحقًا من العثور على أنماط سلوكية وعلى روابط بين تصرفات البشر مبثوثة خلال مختلفة المذكرات الميدانية العديدة.

حكايات المذكرات الميدانية

أحيانًا ما يقوم الباحثون الميدانيون، فى أثناء كتابتهم لإحدى الفقرات اليومية، برواية سلسلة من الأحداث باعتبارها أحداثًا مترابطة لأنها تقوم بوصف نفس الشخصيات أو نفس الأنشطة. كما قد يتصور الكاتب أن هذه الأحداث مترابطة لأن "شيئًا ما يحدث": فالتصرفات تمضى قدمًا وتتطور بمرور الوقت، كما يبدو عليها أنها تفضى إلى نتائج مباشرة. وعند روايتهم لتلك الأحداث المتتابعة، يعتمد الباحثون على الأعراف المتبعة فى السرد ويكتبون هذه التصرفات الآخذة فى التكشف باعتبارها "حكايات ميدانية". وكثيراً ما تصبح هذه الحكايات أشد وحدات الكتابة إسهابًا فيما يدونه الباحث الميدانى فى مذكراته الميدانية اليومية.

ومع ذلك، فإن كتابة حكايات المذكرات الميدانية تختلف عن الصياغة البارعة للسرد الدرامى. ذلك أن القصص البارعة الصياغة لا تقتصر على وصف الأحداث والتصرفات بترتيب وقوعها الزمنى حتى يتسنى للقارئ متابعتها، بل هى كذلك تحدث تشويقًا داخل هذا الحدث الآخذ فى التكشف تدريجيًا. فهذه القصص تجعل "شيئًا ما يحدث". فالشخصيات تتصرف بطرق لها نتائجها المترتبة عليها، كما أنها تقود إلى نتيجة تطلعنا على بعض جوانب الموقف، وكثيراً ما تكون هذه النتيجة ذات طابع درامى[١١].

ومع ذلك فإن الباحثين الميدانيين يحذرون من فرض بنية سرد موحدة على الأحداث. فأغلب ما يجرى فى الحياة اليومية من وقائع وأحداث لا يقع بنفس طريقة القصص الدرامية التى يتسبب فيها حدث فى خلق الحدث التالى وتنجم عنه نتائج قاطعة، إذ الواقع أن أغلب ما فى الحياة يتكشف تدريجيًا بدون قصد أو تعمد. لذلك يعد وصف الحياة فى شكل سردى كتابة تأويلية إلى حد بعيد. وإذ يفعل الباحث الميدانى ذلك، فإنه قد يبالغ فى تقرير الروابط بين التصرفات وحركتها فى اتجاه الوصول إلى نتيجة معينة. إذ أن جعل جميع الخبرات تتناسب مع المتطلبات الشكلية للقصة قد يصيبها بالزيف والتشويه.

إذن فالباحثون الميدانيون، عمومًا، يكتبون الحكايات التى ترد فى مذكراتهم الميدانية فى صورة سلسلة من الأحداث المترابطة وليس فى صورة سرد موحد. ونحن نقترح عليهم أن يقاوموا الرغبة فى صياغة الأحداث فى صورة تتابعات درامية معقدة أو فى قصص أطيب وقعًا وأكثر إقناعًا: فلا ينبغى لهم أن يراجعوا أو يعيدوا ترتيب التصرفات لجعلها تُفضى (بالضرورة) إلى نهاية معينة أو إلى نتيجة مرتبطة بتصاعد الأحداث؛ ولا أن يضفوا شيئًا من التشويق والإثارة على أحداث الحياة اليومية التى تخلو من هذه الصفة. والأولى من ذلك، أنه ينبغى على الباحثة الميدانية أن تحاول رواية الحدث وهو يتكشف بالتدريج، وذلك حتى تروى الواقعة كما رأتها حال وقوعها. ونتيجة لذلك، تميل الحكايات الواردة فى المذكرات الميدانية إلى أن تكون شبيهة بالحلقات التى تحكى كل منها عن واقعة واحدة. وبذلك تكون بمثابة خيط من القطع الصغيرة من الأحداث مدونة على الورق واحدة تلو الأخرى.

ورغم أن الحكايات الواردة فى المذكرات الميدانية لا تعد قصصًا ذات صياغة راقية أو قصصًا مصقولة، فإنها مع ذلك تتراوح بين كونها وحدات أقل تماسكًا وتكاملاً من ناحية، ووحدات متكاملة بصورة متماسكة من ناحية أخرى. وذلك ضمن الفقرة التى يسجلها الباحث كل يوم. ومن المحتم أن تكون أغلب الحكايات الواردة فى المذكرات الميدانية ذات بنيان غير محكم: ذلك أن الكاتب يقتصر على رواية ما شاهده فقط

وبأقصى ما أسعفته ذاكرته. مثال ذلك أن الباحث الميدانى قد يكتب سلسلة من الوقائع التى تلقى الضوء على عدد من الشخصيات أو التى تركز على توضيح أنشطة متشابهة. فيؤلف بينها ويصوغ منها حكاية ذات وقائع متسلسلة لأنه يتبين أن الترابط بين هذه الأحداث ضعيف. ومع ذلك، فإنه، وهو يقاوم الرغبة الملحة فى كتابة قصة متماسكة، يكتب حلقة بعد أخرى، مدرجًا جميع الأحداث التى رصدها ومازال يذكرها، سواء أكان - أثناء كتابته عنها - يرى كيف تنسجم هذه الأحداث مع بعضها أم لا. وكثيراً ما تظل أهمية إحدى التفاصيل أو الأحداث "العرضية" غير مفهومة بوضوح إلا عند إعادة قراءة هذه الحكاية. وعندما يدون الباحث هذا المشهد على الورق، فإنه ينشئ ما يستطيعه من الصلات فى تلك اللحظة، مستهديًا بإحساسه البديهى بكل ما ينتمى إلى هذه الحكاية، أى مستهديًا بمبدأ: "ماذا يتماشى مع ماذا" "What goes with What".

ولاريب أن الباحث الميدانى قد يميل أحيانًا إلى كتابة حكايات المذكرات الميدانية باعتبارها سردًا ذا بنية أكثر إحكامًا - وذلك لأسباب ميدانية وجيهة تمامًا. ذلك أنه ينبغى على الباحث، عند التزامه بعرض الأحداث وفقًا لتصورات أفراد المجتمع لها، أن يكتب حكايات متماسكة عن الأحداث التى يقوم أولئك الأعضاء بأداء الأدوار فيها، أو يقدمها باعتبارها سلسلة موحدة من الأحداث. مثال ذلك، أن الباحث الميدانى قد يلاحظ أنشطة لها بدايات واضحة إلى حد ما، وأنها تمضى قدمًا بحيث يتسبب حدث فى إيجاد الحدث التالى، كما أن لها نهايات تترتب على تلك الأحداث. ويتم تنظيم العمل فى جلسات كثير من محاكم الجنايات فى المجتمع الأمريكى ليسير وفق هذا الترتيب، ويستطيع الباحث الميدانى أن يكتب بشكل موفق حكايات متماسكة عن هذه الجلسات. وبالمثل، قد يسمع الباحث الناس وهم يروون قصصًا محبوكة ينبغى عليه أن يكتبها كما حكاها هؤلاء الرواة. مثال ذلك، أن الناس يروون لبعضهم البعض حكايات عن خبراتهم التى يعايشونها كل يوم، كما أنهم يروون الوقائع الماضية ردًا على أسئلة الباحثين واستفساراتهم؛ بجانب أنهم يروون الخرافات والأساطير التى سمعوها من كبار السن فيهم. وعند كتابة أمثال تلك الأحداث والقصص، يتخير الباحث الميدانى فى كتابة ما هو ملائم من المذكرات الميدانية التى يكون لها بناء سردى موحد، يؤدى فيه الحدث إلى الحدث الذى يليه وتترتب عليه نتيجة ما(١٢).

ونقدم فى الصفحات التالية، اثنتين من الحكايات المسهبة التى ترد فى المذكرات الميدانية. ورغم أن كلتيهما تقدمان مجموعة من الوقائع كما رآها الباحث وكما تذكرها، إلا أن الحكاية الأولى تقدم الأنشطة التى تقوم بها شخصيتان، وهما ضابط وضابطة شرطة، كما أن الباحث لم يربط بين هذه الأنشطة إلا برباط ضعيف. ولا يتحقق لهذه الحكاية التماسك إلا لأن هذا الكاتب لديه اهتمام موضوعى أساسى بالأنشطة التى يمارسها هذا الضابط وتلك الضابطة، أى أن الأحداث تتماسك عن طريق خيط موضوعى يجمعها معًا. والحكاية الثانية تتوصل، على خلاف الأولى، إلى بنيان سردى أكثر حبكة عن طريق الربط بين مجموعة من الأحداث المتعلقة بأحد نظار المدارس الثانوية وهو يؤدب أحد الطلبة. وبهذه الطريقة تحكى واقعة وحيدة، وهى تتكشف أمامنا تدريجيًا. ويصور الكاتب بوضوح واقعة مدرسية يؤدى فيها أحد التصرفات إلى تصرف آخر؛ وتتحرك هذه الحكاية الواردة فى المذكرات الميدانية من خلال تعاقب للتصرفات، إلى أن تنتهى إلى نوع ما من أنواع الحلول.

فى هذه الحكاية الأولى، يكتب أحد الدارسين الميدانيين عن أحداث لاحظها أثناء ركوبه، ذات ليلة، فى سيارة الدورية مع اثنين من ضباط الشرطة، وهما "سام" Sam "وأليشا" Alisha. وهو يحكى سلسلة من الأحداث المتصلة، وإن كانت متميزة عن بعضها إلى حد ما؛ ورغم أن هذه الحلقات كلها تتصل بأنشطة تقوم بها الشرطة، إلا أنه لا يربطها ببعضها البعض إلا رباط واهٍ ضعيف، كما أنها تحتوى على أمور عديدة مما يمكن أن يندرج تحت عنوان: "أحداث وقعت بالفعل".

(أ) بينما نحن نتجول بالسيارة، كانت "أليشا" تحكى "لسام" عن ضابطات الشرطة فى أحد الأقسام الأخرى. "لا أستطيع أن أصدق ما تفعله هؤلاء النساء والمتدربات، وأكره أن يتسبب تصرفهم فى القول بأن النساء وحدهن هم اللائى يصدر عنهن أشد الأفعال غباءً. وهذا هو الذى يسئ إلى ضابطات الشرطة. لذلك....".

يرد "سام": إنك تعلمين ما هي حقيقة المشكلة، أليس كذلك؟ إن النساء يفكرن بواسطة الجانب الخطأ من المخ".

"ماذا؟"

"إنهن يفكرن من خلال الجانب الخطأ من مخهن".

هنا انفجرت "أليشا" ضاحكة: "أو أن هذا يحدث لأنه ليس لنا قضيب نفكر من خلاله؟"

"لا.. لا.. لا..!"

"هل هذا ما تعتقده يا "سام"؟"

"لا. من المحتمل أنني سوف أحكي لزوجتي هذا الأمر. وسوف ترفض هذه الفكرة بشدة". انحرفنا داخل أحد الأزقة ومررنا بفتى من أصل إسباني في حوالي العشرين. فقال سام: "كان هذا الفتى يسرق إطارات السيارات التي كانت موجودة هنا".

"هل هو من الفتيان راكبي الدراجات؟"

"نعم".

"ربما".

"أوه، أكيد. لقد عادوا إلى هذا المكان، ثم غادروه ولم يعد لهم وجود فيه الآن".

"لا أدري".

"لقد كانوا هنا في الليلة السابقة، الدراجة في مقابل عدة قروش".

"أوه. أترى أنه ينبغي علينا أن نقبض عليهم؟"

"لا، فهم موجودون هنا على الدوام".

(ب) خرجنا من الزقاق وكنا ننتظر حركة المرور لنستدير ناحية اليمين. "أنا ذاهب لأوقف هذه العربة". تطلعت ببصرى وكانت هناك عربة جيب بيضاء ومصابيحها غير مضاءة. تقدمنا مقتربين منها حتى أصبحنا خلفها. مضت السيارة فدخلت فى الحارة المرورية الخاصة بالدوران (ناحية اليمين أو اليسار) فدخلنا فى نفس الحارة كذلك. وبعد أن تغيرت إشارات المرور وأخذنا نمضى مخترقين نقطة التقاطع، أطفأ "سام" الأضواء. دخلت عربة الجيب فى إحدى محطات البنزين... نزل "سام" وسار متجهًا إلى هذه العربة، وسارت "أليشا" فأطلقت ضوء بطاريتها في نوافذ العربة. سارت عائدة لسيارة الدورية ووقفت بجانبى. كان جميع الأفراد الذين فى محطة البنزين يرقبوننا. خرجت الفتاة (وهى بيضاء) من عربتها، وسارت متجهة إلى الخلف، ونظرت إلى الأضواء الخلفية للعربة. تحدث إليها "سام" ثم سار عائدًا إلى عربة الدورية. ركبنا العربة وقال "سام" المصابيح الأمامية للعربة الجيب كانت مضاءة بينما كانت المصابيح الخلفية مطفأة. وقد ترك "سام" هذه الفتاة تمضى فى سبيلها مع توجيه تحذير لها.

(ج) قررنا أن نذهب إلى محل "من ٧-١١"(*) لتناول القهوة. دخلنا المحل وكانت البائعة تعرف "سام" و"أليشا". أعطتهما كوبين من تلك الأكواب الكبيرة، وذهب "سام" وملأ الكوبين بالقهوة. سرت متجهًا إلى الجانب الآخر للمقهى فلم أر أيًا من الأكواب التى تشبه هذين الكوبين اللذين حصلا عليهما، لذلك انتزعت منهما أكبر كوب بصعوبة بالغة وملأته لنفسى. كانت "أليشا" تنظر إلى الممشى الموجود بين الكراسى والموضوع به كل هذا العدد من المشروبات الروحية. أخبرتها أنه ينبغى عليها أن تتناول مشروبًا من ماركة "Tums" لعلاج معدتها. عاد "سام" وقال تعليقًا ما. أجابت "أليشا" إن معدتها مصابة بعسر الهضم وأنها لا تحتاج لتناول أى شىء. حصل "سام" على قطعة حلوى

(*) هذا هو الاسم التجارى للمحل. (المترجم)

من ماركة "Mounds" دفع كل منا ثمن ما اشتراه، وعدنا للعربة، وبدأنا التجول بالعربة ثانية. وأثناء سيرنا بالسيارة، سحب "سام" زجاج النافذة للأسفل وتظاهر بأنه يرمى غلاف قطعة الحلوى من النافذة. فسألته "أليشا" قائلة: "ألم تلقه من قبل؟" قال "سام"، وعلى وجهه ابتسامة كبيرة: "لا"، وأراها غلاف قطعة الحلوى. واستمرت "أليشا" لتشرح لنا أن عندها مبرراً حقيقياً للامتناع عن إلقاء الأشياء على الأرض، خاصة عندما يكون فى نوبة عمل. وأردفت قائلة: "أظن أنه لابد أن نكون قدوة". فكيف يبدو شكلنا عندما يرى أحدهم غلاف قطعة حلوى يطير خارجاً من نافذة سيارة شرطة؟".

(د) بينما كنا نقود العربة خلال منطقة سكنية سمعنا صوت فرقعة أو طلقة رصاص "كراك! كراك!". فكرت مباشرة، هل هى ألعاب نارية؟ راودتنى ساعتها فكرة استعدتها من ذكرياتى الماضية وتبدو كخاطرة سخيفة، وإن كنت لم أسمع من قبل صوت طلقات الرصاص أبداً إلا فى ميدان الرماية، لذلك فإننى أتصور أننى لست معتاداً على افتراض أن شيئًا ما هو صوت طلقات رصاص. قال "سام" شيئًا ما عن عربة لم أرها، وقال إن فى مؤخرتها مصباحًا وحيداً مضيئًا. أخذ يسوق العربة بعنف شديد، وانطلق محركها بأقصى سرعة وطرنا فى اتجاه هذا الشارع مباشرة. ألقت "أليشا" بكوب قهوتها من نافذة العربة، ثم سحبت هى و"سام" مسدسيهما. وقالت لى: "كن مستعداً للانحناء عندما أطلب منك". ثم طلبت أن ننطلق إلى تلك المنطقة فى حال سماع طلقات رصاص. "هذا الوغد يغيب عن ناظرينا". طرنا بالعربة فى الشارع مباشرة. وفى نقطة ما فوجئنا بعربة قادمة نحونا والتقينا بها حيث كانت تسير خلال شارع ضيق تحف بها العربات المركونة على جانبى الطريق. أغلق "سام" فرامل العربة، فأخذت العجلات فى الصراخ الشديد لاحتكاكها بأرض الشارع، وبطريقة ما استطعنا الخروج بها من هذا المكان. وأخذ "سام" فى قيادة العربة بعنف شديد فعدنا مجدداً نطير فى هذا الشارع بلا توقف. اصطدمنا بمطب فطرت من مقعدى. سمعت الأشياء الموجودة فى صندوق العربة ترتطم بسقفه محدثة دوياً عنيفاً.

"أريد أن أعثر على هذه السيارة يا "أليشا"! .

"هل رأيت الأفراد الموجودين داخلها؟

"لا. فلم يكن فيها إلا حمار يسوقها طائرًا، وكانت أضواؤها الخلفية اللعينة مطفأة، ولم أستطع أن أتعرف حتى على نوعها". ظللنا نتجول بالعربة فترة قصيرة وبعدها يئسنا من العثور عليهم. "اللعنة. أريد مجرمًا هذه الليلة، لابد أن نجد مجرمًا هذه الليلة يا "أليشا". أريد أن أصوب مسدسي نحو امرئ ما. أين كل هؤلاء المجرمين؟ لقد نجوا منا بأعجوبة".

"ياه. رغم أننى أثق بقيادتك للسيارة يا "سام"، فقد كان لزامًا على - رغم ذلك - أن أرمى بكوب القهوة من نافذة السيارة. ولعل من اللائق بنا أن نذهب لنرى ما إذا كان لا يزال موجودًا فى ذاك المكان أم لا". [يسخر "سام" من "أليشا" مداعبًا إياها لأنها اضطرت إلى أن ترمى بكوب القهوة خارج النافذة].

"كيف يمكنك أن تتصور أن أخرج مسدسى وأمسك بكوب القهوة فى نفس الوقت؟"

"لقد فعلت ذلك وأنا أقود السيارة".

"إن السبب فى هذا يا "سام"؛ أنك فارس لا يشق له غبار".

فقلت: "أنا بقيت ممسكًا بالكوب بكل قوتى". قلتها مازحًا فضحكا لمزاحى.

"ها أنت تكلمينى عن ضرورة عدم إلقاء المخلفات فى الشارع، ثم تلقين كوب القهوة من النافذة".

"صوِّب لى خطئى إن كنت مخطئة، لقد تبينت خطئى فعلاً بعد ذلك، وقد رجوتك أن تعود حتى أستطيع أن أستعيد كوب القهوة (لألقيه فى مكان حفظ القمامة).

"لا، إنك قلت أمرة: عد وهات كوب القهوة" هذا ما قلتيه فعلاً".

فضحكنا جميعًا.

"ولكن هذه القهوة كان لابد أن توضح فى كوب لكى أحصل عليها".

"أترغبين فى القيام بعمل من أعمال الشرطة وتتعقبين آثار هذا الكوب فى نفس الوقت؟" (كان من المدهش إلى حد ما كيف تحول الجو بهذه السرعة: فمن انفعال وتوتر شديدين إلى ضحك وابتهاج فى خلال دقائق معدودة).

(هـ) بدأ "سام" يتعقب شخصًا كبير السن يرتدى ملابس غريبة ويقود سيارة أمريكية. زاد "سام" من سرعته وطلب من "أليشا" أن تنادى على سائق هذه العربة للاطلاع على سجل مخالفاته وعلى الرخص الخاصة بالعربة. وعندما اقترب "سام" من العربة، رأيت أن لوحة التسجيل المثبتة على السيارة تشير إلى سنة ١٩٩١ (ونحن الآن فى يناير ١٩٩٣). فقال "سام" لسائق السيارة: "هيا أسرع. عد يا قانون تشارلز رقم ٣٦ واسترد مركزك". قال "سام" ذلك وهو يرجو أن تقود لوحة السيارة إلى القبض على صاحب المخالفات الخطيرة التى كان يبحث عنها. ولما اتضحت بيانات لوحة السيارة تمامًا، تأكد لنا أن أجل الترخيص قد انتهى فعلاً. انحرفت السيارة يسارًا تاركة الشارع الرئيسى، وبينما كنا نستدير للحاق بها، أطلق "سام" أضواء السيارة. كان السائق رجلاً أسود. وسلطت "أليشا" ضوء كشافها على المقعد الخلفى للسيارة، وسار "سام" متجهًا إلى نافذة السائق. سلم السائق رخصته ووثيقة تسجيل السيارة. تكلم "سام" مع الرجل لمدة دقيقة ثم سار راجعًا إلى العربة. قال بعد أن دخل السيارة: "هذا أب أمين يفى بما عليه من مسئولية، ولن أحرر بحق أب أمين على واجبه مخالفة قانونية. فقد كان معه سجلات صحية تفيد بتطعيمه لأطفاله الصغار من الأمراض، وكانت موضوعة فى العلبة التى يضع بها قفازه. لذلك فهو ليس تاجر المخدرات الذى نبحث عنه".

"إن مجرد كون الإنسان أبًا لا يعنى أنه لا يبيع المخدرات".

"لم أقصد ذلك. إذ من الممكن أن يكون الآباء بائعي مخدرات، ولكن الآباء الأمناء الذين يفون بما عليهم من مسئولية لا يكونون بائعي مخدرات".

فى هذه الحكاية – الواردة فى المذكرة الميدانية – يقوم اثنان من ضباط الشرطة، وفى أثناء تجولهما بعربة الدورية، بالاستجابة للأحداث التى يشاهدانها تقع خارج السيارة، ومع الموضوعات التى تثار أثناء الكلام داخل العربة. وتكشف وقائع هذه الحكاية ما بين الضابطين من علاقات العمل التى تزعجهما أحيانًا وعلاقات العمل التى تشد أزرهما أحيانًا أخرى. كما تنقل هذه الحكاية ما يسود العمل الروتينى لدوريات الشرطة عادة: كلام عادى لا يتوقف، وقيادة للعربة لا نهاية لها، وفترات قصيرة عابرة لأخذ قسط من الراحة؛ وهو العمل الذى تميزه لحظات من الإثارة أثناء القيام بإحدى المطاردات، والتى تتبدد، بدورها، عندما يعود ضباط الشرطة سراعًا إلى الاندماج فى أنشطة عملهم العادية. ومن الواضح أن هذه التغيرات تثير اهتمام الكاتب، فيسجل تعليقه فى صورة عبارات جانبية يذكر فيها التحول الفجائى لهذين الضابطين من حالة الإثارة الحادة إلى الضحك العفوى التلقائى.

ومن الواضح أن هذه الأفعال توفر المادة اللازمة لكتابة إحدى القصص، أو ربما – إن شئنا الدقة – تقدم المادة الكافية لكتابة عدة قصص يمكن تصورها. فقد تدور هذه القصص عن العمل الليلى لضابطين من ضباط الدوريات الشرطية؛ وقد تكون قصة أخرى عن مصاحبة الباحث الميدانى لضابطى شرطة أثناء قيادتهما لعربة الدورية، والجهود التى بذلها لفهم ما يفعلانه ولماذا يفعلانه، وما يساوره من آمال فى أن يحظى بشىء من القبول لديهما. ولكن ليس من الواضح أبداً أن هذه القصص هى القصص التى كان هذا الباحث الميدانى يقصد روايتها فى لحظة الكتابة. فالأحرى أنه كان مشغولاً بالكتابة التفصيلية "عما حدث" وفقًا لما يتذكره عنه وهو يؤدى هذا العمل عن طريق قيامه بصياغة سلسلة من وقائع الأحداث.

وليست كل تلك الوقائع مرتبطة ببعضها ارتباطًا وثيقًا. فمن الواضح أن الكاتب يربط بعض الأحداث الموجودة فى إحدى الوقائع بأحداث فى وقائع تالية: مثال ذلك، أن مشروبى القهوة اللذين تم شراؤهما من محل (من ٧-١١) فى الفقرة (ج) يقومان بدور رئيسى فى واقعة المطاردة التالية فى الفقرة (د). ولكن لا تظهر روابط صريحة بين الوقائع الأخرى. فرغم أن هذين الضابطين من ضباط الشرطة قد أوقفا عربتين، فلا توجد مؤشرات تدل على أن إيقاف السيارة الثانية كان له صلة بأى شكل بإيقاف السيارة الأولى، وذلك بالرغم من أن القارئ قد يستطيع إلى حد بعيد الإشارة إلى بعض الروابط (مثال ذلك أن الأب الأسود اللون فى عملية الإيقاف الثانية كان من اللازم إخلاء سبيله مع تحذيره، نظرًا لأن المرأة البيضاء فى عملية الإيقاف الأولى قد اكتفى بتحذيرها فقط).

وفى كتابته لهذه الحكاية، يقدم الباحث الميدانى الأحداث عبر تسلسلها الزمنى عن طريق تقسيمه لها إلى حلقات منفصلة؛ وفى الواقع لم يكن الباحث بحاجة إلى استعمال لفظ صريح دال على التتابع الزمنى (مثل: "ثم"، أو "مباشرة"، أو "بعد ذلك") ليدل على الانتقال إلى واقعة جديدة. كما أنه يتجنب استعمال الألفاظ الدالة على التسلسل السببى - كلفظ "لأن" أو لفظ "نتيجة لذلك" أو لفظ "رغم أن" - ليعزز الحدث وليدعم بمزيد من الوضوح الروابط المفضية إلى نتيجة ما. ومن شأن هذه الألفاظ التأويلية - الدالة على التسلسل السببى - أنها تبالغ فى تحديد الأسباب الخاصة بالأحداث. مثال ذلك أن هذا الباحث الميدانى لم يكن يعرف السبب الذى جعل كل شخص يتصرف بهذه الطريقة التى تصرف بها. ولكى يتجنب إقحام تفسيرات من جانبه، اكتفى بوضع الأحداث المترابطة بجانب بعضها ليبين كيف تطور هذا التفاعل. وبصورة عامة ينبغى أن تقتصر الألفاظ الدالة على الانتقال على توجيه القارئ فيما يتصل بزمان الأحداث ومكانها وتتابعها، لا أن تقحم عليه روابط سببية بين الأحداث من شأنها أن تؤدى - على نحو قاطع - إلى نتيجة ما، خاصة عند كتابة حكاية ذات بنية غير محبوكة فى إحدى الحلقات الواردة فى المذكرة الميدانية.

كما أن الباحثين الميدانيين يكتبون – بجانب ذلك – حكايات أكثر إحكامًا وتماسكًا. وفى مثل تلك الحكايات، المعتمدة على المذكرات الميدانية، تكون جميع الوقائع مترابطة ببعضها ترابطًا واضحًا كما يُفضى هذا السرد إلى نهاية معينة أو إلى نتيجة ما. ولنتأمل الحكاية التالية التى يتعقب فيها الباحث الميدانى واقعة واحدة بطلها مستر جونز، ناظر إحدى المدارس الثانوية. وقد قام الباحث بصياغة هذه المذكرة الميدانية على هيئة سلسلة متتابعة من الحلقات، والتى ميزناها بالحروف من (أ) إلى (ط)، وذلك لأغراض تتعلق بمناقشتها فيما بعد:

(أ) بعد أن عاد مستر جونز إلى مكتبه، بدأ فى فحص الأوراق الموضوعة على مكتبه. توجد كومة كاملة من الأوراق الموضوعة جانبًا، والتى تخص أولئك الطلبة الذين ضُبطوا يدخنون السجائر. والتدخين يعد حسب قول مستر جونز انتهاكًا صارخًا للقواعد السلوكية فى هذه المدرسة. "فى المرة الأولى التى تُضبط فيها، تحرر لك مخالفة ويصبح لك سجل. وفى المرة الثانية – وهى سياسة تلتزم بها الولاية الآن – تُفصل فصلاً مؤقتًا". وقد عبرت عن دهشتى لذلك. كما أشار مستر جونز كذلك إلى دهشته وهو يتنهد قائلاً إن "كل الأولاد الذين ضُبطوا يدخنون غائبون اليوم".

(ب) أثناء قيام مستر جونز بفحص ملفاته، تكلم عن "الخربشة والرسم" باعتبارها مؤشرًا آخر على الانحراف. لم أكن على علم بهذا اللفظ لذلك سألته عن معناه. شرح قائلاً إن "الخربشة والرسم" هى الكتابة أو النقش على الحوائط... "فى أغلب الأوقات إذا ضبطناك، فإنك تذهب إلى السجن. وهذا، بالطبع، فى حالة ما إذا استطعنا تحميلك مسئولية هذا العمل. وفى المرة الثانية، إما أن ينقلوا إلى مدرسة أخرى أو يلزموا بأداء خدمات للمدرسة لمدة خمس عشرة ساعة. وفى العادة، يكون العمل الذى نلزمهم بأدائه هو كشط كل الحوائط (التى رسموا عليها نقوشهم). سألت عما إذا كان عدد الطلبة الذين نقلوا إلى مدارس أخرى كبيرًا، أجاب بالإيجاب، وقال "يمكننا أن نرسلهم إلى أى مكان فى المنطقة. الأمر المهم هو نقلهم. وقد أرسلنا عددًا

كبيراً من الفتيان إلى مدارس بعيدة لاتصالهم ببعض العصابات. ويذهب أغلبهم إلى حي "ساوثسايد Southside". ولكننا من ناحية ثانية، نتسلم أيضاً عدداً كبيراً من نفس هذا النمط من الطلبة القادمين من مدارس شمال المدينة. سألته: "وهكذا ينحصر أمر عدد كبير من هؤلاء الطلبة المُشكلين في نقلهم جيئة وذهاباً بين المدارس؟". أجاب قائلاً: "حسناً، الفكرة أنه بمجرد أن يوجد الطالب في بيئة جديدة، فقد يكون أكثر ميلاً لأن يتغير. لذلك فإن بدا الأمر وكأنه ليس بمقدورنا أن نفعل شيئاً من أجله هنا، فإننا نرسله إلى مكان آخر قد يتخلص فيه من بعض المؤثرات السيئة التي يتعرض لها هنا".

(ج) لكنه، وهو يقلب ملفاته، يعثر على ملف كان يبحث عنه ويتوقف. هاهنا تماماً حالة واحد منهم. نعم، ضُبط يدخن للمرة الثانية. هذا يعني الفصل المؤقت. يلتفت إليَّ قائلاً – بطريقة توحي بالثقة – "أتعرف، من الممكن في الواقع تدمير مستقبل الطالب عن طريق فصله مؤقتاً، لأن ذلك قد يؤدي إلى عدم قبوله في أي مكان آخر. ونحن نحاول تعريفهم بأن الأمر خطير". اسم الطالب سوكولوف (أو شيء شبيه جداً لهذا الاسم وله جرْس روسي واضح). يبحث في الجداول ليعرف الفصل الذي يوجد فيه سوكولوف أثناء الفترة الثانية من اليوم الدراسي، واتجهنا إلى هذا المكان مباشرة.

(د) بعد دخولنا حجرة الدراسة التي من المفترض وجود سوكولوف بها، رأيت كل الفتيان ينظرون إلى بعضهم البعض باهتمام. يسأل مستر جونز المدرس، وهو رجل أبيض في منتصف العمر، عما إذا كان يعلم إن كان سوكولوف هنا أم لا. كان لزاماً على المدرس أن يسأل الطلبة عما إذا كان يوجد تلميذ بهذا الاسم. يتطلع كثير من الطلبة بأبصارهم إلى فتى أبيض قصير القامة ذي شعر طويل ويرتدي قميصاً ذوقه غليظ. وقف الطالب وأقر باسمه. ينظر مستر جونز إليه بصرامة ويقول: "هات حقائبك، سوف تكون في حاجة إليها". نسير خارجين من الفصل (في الحقيقة كنت ساعتها أقف وحدي في مدخل الفصل، محاولاً ألا يلحظني أحد بقدر الإمكان).

(هـ) يتكلم هذا الفتى بلهجة روسية. يبدو مذعوراً بمجرد خروجنا من الفصل وسيرنا فى الردهة. يمشى جنبًا إلى جنب مستر جونز ويتطلع ببصره إليه. فى صوت متوسل يسأله قائلاً: "ماذا فعلت؟". يجيب مستر جونز: "ضُبطت تدخن للمرة الثانية. وهذا يعنى أنه لزام علينا أن نفصلك فصلاً مؤقتًا". يُطلق الفتى تنهيدة ساخطة تدل على الإنكار، ثم يأخذ فى البكاء والنحيب، ثم يقول: "ولكن هذا حدث فى الفصل الدراسى السابق. وأنا لم أعد أدخن الآن أرجوك أن تُسدى إلىَّ معروفًا". يأخذ مستر جونز فى شرح الأمر بأن تلك هى سياسة الولاية، ويخبر الطالب بأنه لا يستطيع إلا أن يفصله فصلاً مؤقتًا. يبدأ الفتى فى الكلام عن مسز لوجز Ms. Loges التى "... أخبرته أن هذه السياسة سيتم تغييرها خلال الفصل الدراسى الحالى. وتستطيع أن تسأل جوليو [زميله فى الفصل]. "يبدو على مستر جونز شعور بالإحباط ويقول: "عندى ما يكفينى من الأمور المزعجة. انظر إننى أُنفذ سياسة المدرسة". بعدها تابعنا السير إلى أن وصلنا مكتب حضور الطلبة.

(و) (وأنا فى حالة من التردد حول كيفية التصرف بطريقة لا أبدو بها متطفلاً، جلست على المكتب المواجه لمكتب مستر جونز وأخذت أتصرف كما لو كنت أبحث عن بعض الأوراق الموضوعة على مكتبه. يبدأ الفتى فى هذه اللحظة فى الانتباه إلى وجودى، ويستمر فى النظر إلى دفتر المذكرات الخاص بى). يستمر فى استعطاف مستر جونز أن يُسدى إليه معروفًا. يتساءل مستر جونز قائلاً: "ألا تقرأ عما يفعله التدخين بك؟". يتناول التليفون ويقول له: "إننى أطلب والدتك. هل هى تتكلم الإنجليزية؟" يجيب الفتى بالإيجاب. وبينما يتكلم مع عامل التليفون بالمكان الذى تعمل به والدة الطالب، يحتفظ بنبرته الدالة على ما له من سلطة ونفوذ فى تقديمه لنفسه فيقول: "أنا مستر جونز، مسئول النظام والانضباط فى المدرسة الثانوية. هل مسز "إس" S (سوكولوف) موجودة؟". لم تحضُر الأم لمكان العمل حتى تلك اللحظة.

(ز) يتوسل الفتى بطريقة أهدأ قليلاً، فيقول: "إسد إلى معروفًا". يرد مستر جونز بطريقة تدل على السيطرة والنفوذ، ولكن على نحو أقل شدة، فيقول: "لن أسدى إليك معروفًا. وليس ذلك لأننى لا أعلم ما قالته مسز لوجز". يستمر الفتى فى الاستعطاف، بينما يظل مستر جونز صامتًا لبرهة قصيرة. يخبره الصبى قائلاً: "إن صديقى إيجور Igor، قد فُصل مؤقتًا عند المرة الثالثة". فى نهاية الأمر، يقول مستر جونز: "حسنًا، إنها سياسة جديدة فى هذا العام، لذلك فإننى أفترض أنه قد تكون مسز لوجز قد تلقت معلومات مغلوطة فى هذا الشأن".

(ح) وحال نطقه بهذه الجملة، تدخل الحجرة امرأة آسيوية الملامح فى منتصف العمر قصيرة القامة بدا أنها راضية عما يحدث. (ترانى جالسًا إلى المكتب فيخطر لى على الفور أنه مكتبها. أقوم بسرعة، وأنا أنظر إلى المكتب ثم أعود للنظر إليها). يبدو أنها تعرف تمامًا ما يجرى مع هذا الطالب. تلتفت إليه وتبدأ الكلام قائلة: "لقد كنت تدخن، أليس كذلك؟ حسنًا، ألا تعرف مقدار الضرر الذى يصيبك جراء ذلك؟" تسأله قائلة: "هل يدخن والداك؟" يقول: "نعم، وكذلك أبناء عمومتى وخؤولتى. كل عائلتى". (يبدو عليه الارتياح النفسى بصورة ملحوظة، كما يبدو أكثر رغبة فى الكلام عن الشرور والأضرار المسلم بها للتدخين). يقول: "إننى أحاول الإقلاع عن التدخين، وقد قمت بإنجاز طيب إلى حد ما. ولكنه أمر شاق، أتعلمين ذلك؟". تقول المرأة الآسيوية: "آه، كل ما عليك هو أن تصمم على ذلك. لقد كنت قبل ذلك أدخن". يضيف مستر جونز قائلاً: "وأنا كذلك، كنت أدخن". يومئ برأسه على نحو يوحى بالمكر والدهاء. وفى صوت خفيض يقول مستر جونز لها: "لقد أخبرته أننى لن أفصله هذه المرة لأنه تلقى معلومات مغلوطة. ولكن فى المرة القادمة، سيفصل من المدرسة".

(ط) بعد ذلك، يأذن الناظر له بالانصراف بإشارة خاطفة بيده. ويغادر الفتى المكتب.

فى كتابته لهذه الحكاية، ربط الباحث الميدانى بين الحلقات المنفصلة - أى الأقوال والأفعال - ليُظهر الأحداث وهى تتكشف وتتجلى بالتدريج فى نظام زمنى متتابع. تنتقل القصة من افتتاحية تقدم هذا الحدث للمرة الأولى (حيث يفحص الناظر كومة من مخالفات التدخين)، ثم تسير فى منطقة وسطى تقدم فيها الأحداث وهى تتطور (العثور على طالب منحرف، وتهديده بالعقاب)، وتصل إلى ذروتها عند بلوغها نقطة تحول تتضمن تغيراً فى الحدث (إعطاء الطالب فرصة أخرى)، ثم تصل إلى نهاية تشير إلى نتيجة ما أو تفضى بهذه الأحداث إلى خاتمة مريحة (الإبقاء على الطالب وصرفه من الحجرة).

ولكن رغم أن هذه الحكاية، وخلافًا للحكاية السابقة، تتقدم متجهة إلى نهاية معينة، إلا أن الكاتب لا يلمِّح إلى هذه النتيجة عن طريق دمجها داخل ما يكتبه. فنحن، فى الحلقتين الأخيرتين (ح، ط)، نعلم - فحسب - أن الناظر والمديرة يعملان معًا، وأنها تناقش الطالب بتفصيل كبير فى عادة التدخين. ولعلها أثرت على الناظر ليغير رأيه، وذلك بمجرد حضورها؛ ولذلك، فهو يتغير بعدما تدخل. إلا أننا لا نستطيع البتة أن ندرك معنى واضحاً للسبب الذى جعل الناظر يلين قلبه أو يبدو أن قلبه لان بالفعل. فلعله، فى نهاية الأمر، كان يقصد على الدوام مجرد إخافة الطالب وليس فصله فعلاً. وتقتصر النهاية على كتابة ختام لهذه الحكاية المستقاة من المذكرة الميدانية، وهى نهاية فى اتجاه معاكس للاتجاه المتصاعد لذروة الحدث: حيث يخرج الطالب من المشهد ببساطة. ولكن ختاماً حاسماً آخر لهذه الحكاية يشير إلى الانضباط فى المدرسة أو إلى ما يصدر عن الناظر والطلبة من تصرفات، كان من شأنه أن يشوه هذه الواقعة، إذ يعزو لهؤلاء الأفراد المشتركين فى هذه التصرفات أهمية لا يعزونها هم لأنفسهم، أو يفترض نتائج قد تحدث أو لا تحدث. ولما كان الكاتب ملتزمًا بالصدق فيما يكتبه من ملاحظات، فقد أخمد أى رغبة نفسية فى تقديم صياغة بارعة لختام قاطع حاسم.

وكثيراً ما تؤدى كتابة هذه الحكايات إلى تسليط الضوء على نوع خاص من التوتر يشعر به كثير من الباحثين وهم يكتبون مذكراتهم الميدانية. فالباحث يريد أن يسجل التصرفات كما أدركها فى لحظة مشاهدته وأن يدرج أكثر ما يستطيعه من التفاصيل،

ومع ذلك، فإن الكتابة طريقة للرؤية ولزيادة الفهم، وفى النهاية هى طريقة لخلق المشاهد. والواقع أن الكتابة على الورق تعد عملية من عمليات الترتيب والتنظيم، فالكاتب، وبحكم الظروف، يختار هذا ويدع ذاك، ويصوغ التفاصيل بهذا النظام وليس بذاك النظام، ويخلق نمطًا معينًا يستخرجه من التفاصيل التى لولا عمله هذا لكانت تفاصيل متناثرة أو عشوائية.

إن القص أو سرد الرواية طريقة لرؤية الحياة وتنظيمها تصاغ لهذا الغرض بالذات، ولذلك فقد تؤدى إلى زيادة الشد والتوتر بين محاولة كتابة "كل شئ" وبين خلق شريحة واضحة من شرائح الحياة على الورق. وكلما كان الباحث الميدانى يتصور أن الكتابة أكثر توحداً وتصاعداً فى اتجاه الذروة، كلما اضطر إلى الشعور بضرورة ربط الأحداث ببعضها وباستبعاد أى تفاصيل يجعلها خط بناء القصة هامشية أو لا صلة لها بالموضوع. مثال ذلك، أنه فى القصة الخاصة بتأديب الناظر للتلميذ، نجد أن الحلقة (ب) والمتعلقة بالكتابة والنقش على الحوائط، هى وحدها الحلقة التى لا تتصل مباشرة بخط القصة عن مخالفات التدخين. ولو أن هذا الباحث كان قد كتب تفاصيل أخرى أكثر بعداً عن خط القصة هذا، لكانت هذه الحكاية ذات وقائع أكثر عدداً ولكانت أقل التزاماً بالتماسك الداخلى. فقد تحتوى هذه الحكاية المفترضة، مثلاً، على حوار عابر مع إحدى سكرتيرات المدرسة التى قد تقول – بعد انتهائها من تلقى إحدى المكالمات التليفونية – للناظر: "لقد اتصلت بك زوجتك لتقول إنك نسيت أن تأخذ غداءك"، أو قد تحتوى على أحداث عارضة كطالبة تقف منتظرة بباب المكتب وممسكة ببالون فى يدها. ومع ذلك فإن هذا الباحث لم يدرج فى حكايته أمثال تلك التفاصيل التى ليس لها صلة بالموضوع؛ فحكايته ليس فيها إلا عدداً قليلاً من الفجوات.

وفى روايته للحكاية التى يوردها فى مذكرته الميدانية، يتعين على الباحث الميدانى أن يتحايل فى معالجة تلك الدوافع المتعارضة: وهى أن يدرج حتى الأحداث الهامشية وأن يخلق فى الوقت نفسه سلسلة منظمة من الوقائع التى تروى هذا "الشئ الذى حدث". فلو أنه كتب "كل شيء" بأمانة لكان من الأرجح أنه سيكتب على الورق خليطًا مشوشًا لا معنى له، وإذا بالغ – من ناحية أخرى – فى تقرير الروابط التى تصل

أجزاء قصته، فقد يبعد تفكيره عن تأويلات أخرى ممكنة. وعندما يواجه الباحث الميدانى مثل هذا المـأزق، فإننا نقترح عليه أن يستهدف كتابة الحكايات الميدانية ذات البنية المفككة. وتميل مثل تلك الحكايات إلى أن تكون مكونة من حلقات: فهى تصف أحداثًا يبدو عليها - ظاهريًا - أنها غير جوهرية بالنسبة لما يقع أثناء الواقعة المروية. وقد توجد فجوات بين الحلقات مع غياب الروابط الظاهرة التى تفضى بمجموعة من الأحداث إلى المجموعة التالية لها؛ كما أنها كثيراً ما تبدأ من منتصف الحدث وتنتهى بدون الوصول - بالضرورة - إلى أى نتائج أو حلول.

وتعكس مثل هذه الحكاية الميدانية الإحساس الذى يشعر به الباحث فى لحظة الكتابة. فهى تروى القصة كما فهمها فى ذلك اليوم. إلا أن الأمر لا يقتصر على إدراج كل قصة ميدانية فى فقرة المذكرات (اليوميات) التى يكتبها الباحث فى ذلك اليوم، بل إنها تدرج كذلك ضمن السياق الخاص بالبحث الميدانى الجارى وسياق الملاحظات التى يتم تسجيلها. فالباحث يعود إلى الميدان فى اليوم التالى ليزداد تحققًا من مدى صحة هواجسه المتعلقة بأحداث اليوم السابق. فهو يرى شخصية ما فى مواقف مختلفة بمرور الوقت ويعمق فهمه لما لهذا الشخص من علاقات وأنماط سلوك. وهكذا ومع استمرار الكتابة وتراكم المذكرات الميدانية، قد يبدأ الباحث فى رؤية الحكايات السابقة بطريقة مختلفة عن الطريقة التى رآها بها عندما كتبها. وقد يقوم بإعادة اختبار الروابط الضمنية غير الظاهرة، والثغرات التى لم يفهمها على الوجه الصحيح، والنهايات التى خمنها، وبناء على ذلك قد يسأل نفسه أسئلة تحفزه على المزيد من إمعان النظر عندما يعود إلى الميدان(١٣).

وعلى ذلك، فإن تماسك الحكايات الميدانية مسألة مؤقتة ومشروطة: فقد يتغير فهم الباحثين الميدانيين للأحداث التى سبق لهم روايتها، وذلك عندما يواصلون عملهم الميدانى بعد ذلك. وفى ضوء الملاحظة التالية للأنشطة المتصلة بها والشخصيات التى يتكرر ظهورها من جديد، قد يعيد الباحث تقدير مظاهر الاتصال ومظاهر الانفصال بين الوقائع الواردة فى إحدى الحكايات الميدانية. مثال ذلك، أن كاتب هذه الحكاية، وبعد مشاهدته

للناظر مرات عديدة، قد يؤول به الأمر إلى اعتبار كلام الناظر عن الكتابات والنقوش المرسومة على الحوائط جزئية جوهرية فيما يبدو أنه يشكل - فى النهاية - قصة متماسكة إلى حد ما: فالناظر يتكلم عن الكتابات والنقوش المرسومة على الحوائط باعتبارها انتهاكًا خطيرًا للنظام لكى يؤكد على أن الانتهاكات الخاصة بالتدخين انتهاكات غير خطيرة. وقد يصل الباحث فى هذه الحالة إلى أن يفهم هذه الحكاية وكأنها تلتزم بذلك النمط الشائع وهو: أن مسئولاً يهدد بإنزال العقاب جزاءً على المخالفة؛ وأن الطالب يبدى سلوكًا مهذبًا كما ينبغى عليه؛ ويقدم اعتذاره، ويعد بأن يحسن من سلوكه؛ فيلين قلب هذا المسئول ويدع الطالب ينصرف مع إنذاره. وفى هذه الصورة المغايرة لتلك القصة، لن يفصل الطالب فصلاً مؤقتًا طالما كان متعاونًا.

وعند إعادة النظر فى هذه الحكاية، ينبغى على الباحث الميدانى ألا يقتصر على التأمل فى الروابط الضمنية التى أقامها بين الأحداث، بل عليه - كذلك - أن يعيد التفكير فى الفجوات التى بين الوقائع (وكذلك تلك الموجودة داخل الواقعة). مثال ذلك أن الفجوة الواضحة فى قصة هذا الناظر - والموجودة بين التهديد بالفصل المؤقت وإلغاء هذه العقوبة - تحتمل تأويلات عديدة. فالباحث قد يخمن لها، مثلاً، تأويلاً من التأويلات التالية وهى:

(أ) أن هذا الناظر يعفى الطلبة المدخنين من العقوبة إذا تصرفوا تصرفًا مهذبًا؛

(ب) أن هذا الناظر يذعن - بصورة عامة - لآراء المديرة الآسيوية؛

(ج) أن هذه المديرة الآسيوية تتدخل كثيرًا لصالح الطلاب ذوى الأصول الأجنبية. ولكى يحدد الباحث الميدانى المبررات التى يقيم عليها اختياره لأحد هذه الاحتمالات، ينبغى عليه أن يستزيد من مشاهدة الناظر وهو يؤدب الطلبة.

وأخيرًا، قد يؤدى الاستمرار فى العمل الميدانى وفى كتابة المذكرات إلى تعديل وتصحيح فهم الباحث لنهاية إحدى الحكايات، ويرجع ذلك إلى وجود عنصر من التحكم

فى كل من بدايات الحكايات ونهاياتها. إذ أن الكاتب يبدأ الحكاية عند اللحظة التى سبق له أن بدأ فيها ملاحظة أحد الأحداث، أو أحد الشخصيات الرئيسية، أو أحد المواقف المثيرة للاهتمام. وهو يختم قصته إما عندما تنتهى هذه الواقعة (عندما يأذن الناظر للطالب بالانصراف) وإما عندما ينقل اهتمامه إلى غير ذلك من الشخصيات، أو الأنشطة، أو الأوضاع. ومن حيث المبدأ، فإن خبرة الكاتب واهتمامه يخلقان المؤشرات أو الاعتبارات المحددة للحكاية التى تُكتب فى المذكرات الميدانية. ولكنه عندما يعيد قراءة الحكاية ويفكر فيها قد يفطن إلى أن هذه الحكاية مرتبطة – على نحو معقد للغاية – بالحكايات الأخرى التى تتحدث عن نفس الشخصيات. وتعد النهايات الخاصة بمثابة نقاط للراحة والتقاط الأنفاس. مثال ذلك، أنه رغم وصول قصة دورية الشرطة إلى نهايتها، إلا أن "سام" و"أليشا" واصلا القيام بدوريتهما على امتداد ساعات متعددة فى تلك الليلة وأثناء ما أعقب ذلك من ملاحظات (أجراها الباحث الميدانى المصاحب لهما)؛ وهكذا تستمر القصة على امتداد صفحات أخرى كثيرة(١٤). وفى هذا الصدد، يكون للحكايات الميدانية نهايات مؤقتة، نظراً لأن القصة التى تتحدث عن حياة الناس تستمر متصلة فى اليوم التالى وخلال المذكرات الميدانية.

وموجز القول أن الباحثين الميدانيين يكتبون الحكايات التى يوردونها فى مذكراتهم الميدانية بحيث تعكس خبرتهم اليومية، ولا يقومون بصياغة بارعة لقصص فنية مليئة بالتشويق والإثارة. وهم يعتمدون على ما استقر من أعراف السرد التى ترتب الأحداث حتى يستطيع القارئ تخيلها، والتى تظل بالرغم من ذلك أمينة على المعنى المباشر لهذه الأحداث: إلا أنه كثيراً ما يحدث لفهم الباحث لأى حادثة أن يتقلب ويتطور أثناء مواصلته لكتابة مذكراته وإعادة قراءتها. وعن طريق تأمله فى التأويلات البديلة (المختلفة) للحكاية فى ضوء بحثه المستمر، يترك الباحث هذه الحكاية قابلة للمزيد من الأسئلة الواضحة. لذلك يلتزم الباحثون الميدانيون – وبصورة مؤقتة فقط – بتلك الصيغة التى يكتبون بها قصتهم فى ذلك اليوم، وذلك لأن هذا "الشئ الذى حدث" قد يتغير تغيراً كبيراً. وبهذا الشكل، فإن كل حكاية ميدانية تربط بين غيرها من الوقائع والحكايات داخل مجموعة من المذكرات الميدانية وتعلق عليها أيضاً. وبهذا المعنى، فإن كل حكاية – باعتبارها صيغة أو صورة ضمن صيغ أو صور مغايرة كثيرة – تظل دائماً ذات نهاية مفتوحة.

الكتابة التحليلية أثناء العمل: العبارات الجانبية، والتعليقات، ودفاتر الملاحظات السريعة

نظراً لأن الباحث الميدانى يشارك مجتمع البحث حياته، فلابد له من أن يبدأ فى تأمل وتأويل ما عايشه ولاحظه. وكما سبق أن أشرنا فإن كتابة المذكرات اليومية تؤدى إلى دعم عمليات التفسير والتحليل هذه وزيادة درجة تركيزها. ذلك أن التدوين التفصيلى للمشاهدات اليومية يولّد لدى الباحث تقديراً جديداً وفهماً أعمق لما سبق له أن حضره من مشاهد وأحداث. ففى الكتابة، يتمثل الباحث الميدانى إحدى الخبرات وعن طريق ذلك يبدأ فهمه لها. وهو يفهم هذه اللحظة باستخدامه لبداهته فى اختيار التفاصيل، وفى تسليط الضوء عليها، وفى ترتيبها. كما يفهمها كذلك عن طريق الشروع فى تقدير أوجه الارتباط، أو أوجه الاختلاف والتعارض، بين الخبرات التى سبق له أن لاحظها وكتب عنها. زد على ذلك، أنه قد يبدأ فى إمعان النظر فى الطريقة التى اتبعها فى عرض وترتيب التصرفات والأحداث فى مذكراته، فيعيد قراءة الوقائع والحكايات المختارة بعين ناظرة إلى تأثيراتها البنائية.

ولتسجيل هذه النظرات، والتأملات، والأفكار، ولجعلها متاحة لمزيد من التفكير والتحليل، يتبع الباحثون الميدانيون أنواعاً متعددة من الكتابة التحليلية تتباين تبايناً صارخاً مع الكتابة الوصفية التى سبق لنا أن أكدنا على أهميتها فى هذا الصدد. ونتيجة لأمثال هذه الكتابات، يستطيع الباحث إلقاء نظرة أكثر عمقاً لتعزيز الملاحظات والكتابة الوصفية مستقبلاً، كما يصبح - بناء على ذلك - أكثر تدقيقاً وتعمقاً فى توصيفاته.

وتشمل هذه الأشكال التأويلية والتحليلية للكتابة: العبارات الجانبية، والتعليقات، وكتابة الملاحظات السريعة أثناء العمل. وتمضى هذه الاستراتيجيات التحليلية فى الكتابة قدماً لتتجاوز الكتابة الوصفية التى تشكل القدر الأعظم من المذكرات الميدانية التى يكتبها الباحث. وتعتبر العبارات الجانبية والتعليقات كتابات تحليلية تُذكر عرضاً

أثناء صياغة المذكرات الميدانية؛ فقد يحدث أن يتوصل الباحث إلى فكرة ما وهو يسترجع التفاصيل الخاصة بملاحظة معينة أو واقعة معينة وفى أثناء كتابتها على الورق. أما الملاحظات السريعة التى تدون أثناء العمل فهى ثمرات مجهود أكثر تركيزاً لتحديد وتطوير الأفكار التحليلية الرئيسية أثناء وجود الباحث وهو يعمل فى الميدان ويدون مذكراته الميدانية. وليس من المعتاد أن يكون الدافع إلى كتابة هذه المذكرات السريعة هو الرغبة فى الكتابة التفصيلية عن حادث بعينه. إذ أن الباحث الميدانى، عندما يكون ملتزمًا بتوجه فكرى تحليلى أكثر تماسكًا وترابطًا، يعد المذكرات الفورية عن طريق قراءته لما تم استيفاؤه حديثًا من جذاذات(*) أو من مجموعات من المذكرات الميدانية ليحدد ويبلور تأويلات، أو تساؤلات، أو أفكار رئيسية معينة(١٥). ومن الواضح أن التمييز بين الأساليب الثلاثة المذكورة ليس مطلقًا؛ فالخطوط الواقعة بين العبارات الجانبية، والتعليقات، والمذكرات السريعة كثيراً ما تكون غير واضحة. ونحن نقترح الانتفاع بها باعتبارها أدوات مساعدة على اكتشاف الأشياء، مما قد يؤدى إلى جعل الباحث الميدانى متنبهًا للقيام بكل من التركيز المؤقت والدائم على الكتابة التحليلية أثناء اشتغاله الجاد بكتابة المذكرات الميدانية.

تعد العبارات الجانبية Asides نُتفًا من الكتابة التحليلية التأملية المختصرة التى تقوم – وبأسلوب محكم – بإيضاح أو شرح أو تأويل أو إثارة تساؤلات عن حادثة أو عملية معينة تم وصفها فى المذكرات الميدانية. فالباحث الميدانى يسارع إلى إقحام العبارات الجانبية فى وسط الكتابة الوصفية، فيأخذ لحظة من الوقت ليتجاوب، بصورة شخصية أو فكرية، مع شئ رواه حالاً على الورق، ثم يعود فوراً إلى متابعة مهمة الوصف. وقد تُقحم هذه الملاحظات فى وسط الفقرات الوصفية وتُفصل عنها باستعمال الأقواس، على نحو ما يظهر فى الأمثلة التالية. وفى المثال الأول، يتوقف الكاتب فى عبارة جانبية ليشرح رد فعله فيقول:

(*) أى أوراق تدون فيها ملاحظات عاجلة. (المراجع)

> بينما نقود السيارة أسأل "جورج" عن المدة التى قضاها فى التدريس ويقول لى: "حسنًا، هذه هى السنة الثامنة فى هذه المهنة". أجبت قائلاً "ياه!". (فلم أكن أظن أنه كبير السن لهذا الحد). يبتسم وهو ينظر إلى، ويمضى فى كلامه ليبين المواقع التى مارس فيها التدريس.

وفى الاقتباس التالى يسجل الباحث الإثنوجرافى - فى عبارة جانبية - مشاعره المضطربة عن شخص يتابعه بنظره:

> أدور فى المنطقة، مبتعداً عن مكان المكتب، وأواجه تلك المرأة التى يميل لون شعرها للشقرة والتى لا تزال تبتسم. (لا أستطيع أن أتخلص من الشعور بأنها تحدق فىَّ). "سوف أراك يوم الجمعة" أقول لها ذلك وأنا أمر أمامها خارجًا من الباب الأمامى.

وكثيراً ما يكتب الباحثون الميدانيون عبارات جانبية تتسم بقدر ما من الإحكام والإتقان، قد تطول لتستوعب عدة جمل، بجانب أن الدافع لكتابتها يكون راجعًا لاطلاع الباحث على نص مكتوب بشكل فورى وتكون له صلة وثيقة بالأحداث أو المشاهد التى يصورها ذلك النص المكتوب. وفى المذكرة الميدانية التالية تصف الباحثة الميدانية إحدى اللحظات أثناء أول يوم لها فى مركز للعلاج السريع للأزمات ثم تذكر رد فعلها على هذه الخبرة فى عبارة جانبية مسهبة:

> أثناء صعودى درجات سلم مكتب المركز، لاحظت أن كل درجة - تقريباً - تصدر صوتًا يشبه الصرير أو يشبه الأنين. وفى أعلى السلم تنتصب شماعة قديمة للمعاطف مصنوعة من خشب الصنوبر، وتتكوم عليها كومة من المعاطف. وخلف الشماعة توجد لوحة تحتوى على إعلانات متعددة بها معلومات عن منظمات ومصالح حكومية من مختلف الأنواع. (أثناء تفكيرى فى هذا المشهد وأنا أصعد درجات السلم هذه، يخطر لى أنه لو فرض وكنت أحد المترددين على هذا المركز من المصابين بالاضطراب والقلق لكنت وجدت - بالتأكيد - أن من الصعوبة العثور على معلومات تنفعنى فى وسط هذا الجمهور الذى يفتقد النظام).

وفى تقديمها "لإحساسها الذى استشعرته" تجاه المركز، قامت هذه الباحثة بدمج مدلول المكان المادى فى وصفها، فى نفس الوقت الذى تتيح فيه إمكانية أن يراه الآخرون بشكل مختلف. كما أن العبارات الجانبية قد تستعمل لبيان أمر لولاها لظل خافيًا، أو لتقديم نوع ما من التأمل الشخصى أو التعقيب المفسر لمسألة خطرت على البال فى التو واللحظة. وكثيراً ما يستعمل الباحثون الميدانيون العبارات الجانبية، مثلاً، لنقل "إحساسهم" الصريح بالأحداث أو ردود أفعالهم العاطفية تجاهها، ومن شأن كتابة هذه التعقيبات فى صيغة عبارات جانبية (معزولة بالأقواس عن السياق) أن تحول دون إقحامها داخل التقرير الوصفى.

أما التعليق Commentary فهو تأمل يتسم بمزيد من الإتقان والتوسع، ويتناول حادثة معينة أو قضية ما. ويُكتب التعليق فى فقرة منفصلة ويُعزل عن الملاحظات بكتابته بين قوسين. وتنطوى التعليقات على نوع من تحويل الانتباه من الأحداث التى تقع فى الميدان إلى جماهير من القراء يتخيل الباحث الميدانى أن لها اهتمامًا بشئ لاحظه وكتب عنه بالتفصيل. وإلى جانب ذلك، فإن التعليقات - وخلافًا للمذكرات الميدانية الوصفية - قد تستكشف المشكلات المتعلقة بالنفاذ إلى الأحداث التى تقع فى الميدان أو ردود الأفعال الانفعالية تجاهها، أو قد تقدم تفسيرات مؤقتة لها. ويساعد وضع التعليق فى فقرة منفصلة على تفادى تدوين التفاصيل باعتبارها برهانًا على صحة ما كان الباحث يؤمن به قبل ذلك من مقولات أو يراه من تفسيرات[١٦].

يمكن استعمال التعليقات فى إنشاء سجل لما يخص الباحث الميدانى من أفعال، وخبرات، وردود أفعال أثناء وجوده بالعمل الميدانى، سواء فى الملاحظة المشاركة أو فى أثناء عملية الكتابة التفصيلية. شاهد ذلك أن باحثة - قامت بدور متدرب مقيم - عينت فى هيئة لتقديم الخدمات الاجتماعية كتبت التعليق التالى بعد وصفها الواقعة أحست أنها مثلت نقطة تحول فى علاقتها بموظفى الهيئة:

> بعد دخولى المطبخ، حيث يلتقى فيه الموظفون ببعضهم البعض فى كثير من الأحيان، بدأت إعداد طعامى. سرعان ما دخل عدد كبير منهم المطبخ، وبدأوا يتبادلون الأحاديث فيما بينهم. وقفت جانبًا وأنا أشعر بالحرج، فلم

أكن أعرف تمامًا ما الذى يتعين علىَّ أن أفعله. تبادلت حديثًا قصيرًا لبرهة حتى سألت دى .D، المديرة، قائلة بنبرة صوتها الدراماتيكية المعهودة والعالية بما يكفى لأن يسمعها أى إنسان، قالت: خمنى إلى أين ستذهب أ. .A يوم عيد ميلادها؟ (و أ. هذه موظفة، وكانت حاضرة هى الأخرى) ساد الصمت الحجرة. وعند التفاتى إليها، تنبهت إلى أنها كانت توجه كلامها إلىَّ. فقلت متسائلة: "أين؟" وأنا مندهشة إلى حد ما من أنها كانت توجه كلامها إلىَّ. فقالت بصوت عال: "ستذهب إلى هرشى بارك!" Hershey Park. فقلت "مستحيل!"، وبدأت فى الضحك وأنا أشعر بالارتباك. فصاحت دى .D قائلة: "نعم، سوف تذهب لتُغطِّس جسمها كله فى الشيكولاتة حتى يستطيع أر .R (حبيبها) أن يأكلها!". امتلأت الحجرة بالضحك، ولم أستطع أنا أيضًا أن أمنع نفسى من القهقهة.

(عند ذلك، انفضت الجماعة، وبدأت أثناء عودتى لمكتبى، أشعر أننى أصبحت للمرة الأولى عضوًا مشاركًا فعالاً فى أحد لقاءاتهم التى تتم فى المطبخ. جعلتنى هذه الخبرة أعتقد أنهم كانوا يعتبروننى أكثر من مجرد شخص غريب عليهم. كنت أحاول أن أفهم ما هو المطلوب لأن أكون فى مكانى المناسب هنا، ولاشك أن جانبًا من هذا المطلوب هو أن أشارك فى أحد اللقاءات التى تتم فى المطبخ فى إحدى المناسبات وألا أبدو فوق مستوى أمثال تلك الممارسات).

فى هذا التعليق لا تقتصر الباحثة على تسجيل إحساسها المتزايد بالقبول فى هذا المشهد، بل تقوم بجانب ذلك بالتفكير فى الأهمية المحتملة لتلك "اللقاءات غير الرسمية"، والبذيئة أحيانًا، فى خلق شعور عام بالانتماء بين العاملين فى هذه الهيئة.

وأخيراً، فإن بإمكان التعليقات أن تثير تساؤلات عما تعنيه بعض المصطلحات والأحداث لدى أفراد مجتمع البحث، وأن تقيم روابط أولية بين إحدى عمليات الملاحظة الجارية والمذكرات الميدانية السابقة، وأن تقترح موضوعات أو أماكن يتعين القيام بملاحظتها لاحقًا، وذلك كما يظهر فى الاقتباس التالى:

نادى "م" على "ريتشارد". قال له: تعال هنا أيها الصبى البيتى Homey الصغير". جاء "ريتشارد" ليجلس قريباً من "م". سأل "م" ريتشارد عن شىء ذكره ريتشارد قبل ذلك (لم أستطع أن أسمع ما قاله تماماً).. وهو كلام له صلة برياضة رفع الأثقال. أجاب ريتشارد: "أوه، إنى أستطيع أن أتحدث فى هذا الموضوع ساعات..." سأل "م" "ريتشارد" عما إذا كان يوجد مكان داخل الجامعة يستطيع أن يمارس فيه رياضة رفع الأثقال. رد "ريتشارد" أنه توجد غرفة لرفع الأثقال، ولكن "أصحاب الأطواق" فقط هم الذين يمكنهم أن يستعملوها اليوم. وحينئذ سأل "م" "ريتشارد" عمن هم "أصحاب الأطواق". أجاب ريتشارد بأنهم لاعبو كرة السلة.

(هل كلمة "بيتى" Homey، والتى قد تكون مشتقة من كلمة خادم Homeboy، تعنى شخصاً أدنى منزلة Down من شخص آخر أو شخصاً رقيقاً Cool؟ يبدو لى أن "م"، والذى يظهر أنه لا يعرف "ريتشارد"، كان يريد أن يتحدث معه. ولكى يفعل ذلك، حاول أن يجعل ريتشارد يعلم أن "م" يرى أنه (أى ريتشارد) شخص رقيق؟ ويبدو أن كلمة "بيتى" "Homey" تطلق على الأفراد بصرف النظر عن انتمائهم الإثنى... بدا لى أن تعاملهما مع بعضهما كان يدور حول الاهتمام بنشاط مشترك، وهو رفع الأثقال. أما الحكم على "م" بناء على حجم عضلاته، فهو أمر يتفوق فيه على غيره).

كان هذا الباحث الميدانى يلاحظ الطرق التى يستعمل بها السود مصطلح "رقيق" Cool، ومصطلح "أدنى" Down للإشارة إلى اندماج غير السود فى تجمعاتهم التى لولا ذلك لظلت تجمعات للسود فقط. وفى هذا التعليق يمعن الباحث التفكير فى مصطلحات أخرى يبدو أنها ترتبط بموضوع الاندماج كذلك.

والمذكرات السريعة In Process Memos التى تعد أثناء العمل تكون محصلة كتابة تحليلية مدعمة، وتتطلب الابتعاد لفترة عن عملية الصياغة الفعالة للمذكرات الميدانية. وكثيراً ما تكتب هذه المذكرات السريعة بعد الفراغ من كتابة المذكرات الميدانية اليومية.

وبالرغم من أن الأفكار التى تتولد فى ذهن الباحث أثناء كتابته التفصيلية لفقرات المذكرات الميدانية اليومية قد تؤثر على هذه المذكرات السريعة، إلا أنها تعالج وقائع على امتداد مجموعات متعددة من المذكرات الميدانية. وفى كتابته للمذكرات السريعة، يتخيل الباحث الميدانى فى ذهنه صورة واضحة لجمهور خارجى من القراء، ومن ثم يضع أفكاره وخبراته فى الإطار الذى يجعلها جديرة بإثارة اهتمامهم.

وبإمكان المذكرات السريعة أن تكون نافعة فى معالجة بعض الأسئلة العملية والمنهجية التى منها: ما هو المكان الذى ينبغى على أن أقوم بملاحظته فيما بعد؟ ما هى الأسئلة التى ينبغى علىَّ أن أطرحها لمتابعة هذا الحدث؟ فهذه الأسئلة تساعد على توجيه انتباه الباحث الميدانى، إذ تركز وتوجه مسار الملاحظات والتحليلات مستقبلاً. وقد ساعد طرح مثل هذه الأسئلة باحثة فى ملجأ لرعاية النساء ضحايا العنف؛ ساعدها على تحديد الثغرات الموجودة فى فهمها للطريقة التى يتبعها الموظفون فى هذا الملجأ فى رؤيتهم لعملهم وفى إنجازهم له. وفى هذا تقول:

> إن الأهداف التى ظل الموظفون يتحدثون عنها حتى الآن، والمتعلقة "بنقل وتوصيل مشاعر الاحترام الإيجابية غير المحدودة" للمترددات على الملجأ، و"زيادة احترامهن لأنفسهن"؛ هذه الأهداف تبدو لى غامضة بعض الشيء. إذ كيف يعرف الموظفون متى حققوا مشاعر الاحترام الإيجابية غير المحدودة؟ وهل هى مبنية على تفاعلهم مع العميلة أو امتناعهم عن الحكم على العميلات أو انتقادهن أثناء الاجتماعات التى يعقدها معهن هؤلاء الموظفون؟ سأحاول أن أكتشف كيف يُعرِّف الموظفون الهدف الخاص "بزيادة احترام المرأة لنفسها" وكيف يحاولون تحقيقه. لقد اتضح أن الموظفين لا يرون أن هذا الهدف يتحقق فقط عندما تتخلى النساء ضحايا العنف عن علاقاتهن التى تعرضن بسببها للإيذاء الجسدى. فإن كان تخليهن عن شركائهن الذين يؤذونهن جسديًا هو المؤشر الأساسى لتحقيق زيادة احترام النفس عندهن، فستكون هذه المنظمة فاشلة إلى حد كبير، وذلك لأن معظم هؤلاء النساء

يعدن إلى علاقاتهن التى تسبب لهن الإيذاء الجسدى. ومع ذلك، فإنه بالرغم من أننى علمت ما هو الأمر النقيض لزيادة الشعور باحترام النفس، فإنه لا يزال من المتعين علىّ أن أقف على حقيقة الأمور التى تسهم فى زيادة الشعور باحترام النفس.

فى هذه المجموعة المطولة من التعليقات والتساؤلات، تحدد الباحثة الميدانية أمرين يؤكد موظفو هذا الملجأ على أنهما هدفان يحكمان علاقتهم بالمترددات عليهم، وهما: "نقل أو توصيل مشاعر الاحترام الإيجابية غير المحدودة لهن" وزيادة "احترام المرأة لنفسها". وبعد ذلك تفكر فى الوسائل التى قد تستخدمها لتفهم كيف يمكن أن تطبق هذه السياسات أو القيم العامة فى الواقع الفعلى، وكيف يتم عمليًا تقدير نجاحها أو فشلها فى التفاعلات والتعاملات التى تجرى داخل هذا الملجأ.

فضلاً عن هذا يمكن أن تؤدى المذكرات السريعة إلى بلورة تفسيرات جديدة تكشف عنها الوقائع أو الاستنتاجات اللاحقة، وذلك على النحو التالى:

> منذ عدة أسابيع، كتبت عن إحدى العميلات التى يحكم عليها الموظفون بأنها مثيرة للغضب تمامًا و"مزعجة"، لأنها كانت دائمة الاتصال على الخط التليفونى الخاص بتلقى مكالمات أصحاب الأزمات طوال ساعات الصباح. وبعد فترة تسلط علىّ خاطر بأن الموظفين كانوا يتصورون أن هذه المكالمات غير ضرورية ما لم تكن متعلقة بمخاطر لها صلة مباشرة بالأذى الجسمانى. ومن خلال محاورة جرت اليوم [ومذكورة فى مذكرات سابقة] تحققت من أن هذا الخاطر صحيح ولكنه مفرط فى التبسيط. فبالرغم من أن الموظفين يحكمون على المكالمات التليفونية التى ترد إليهم على خط الأزمات فى آخر الليل بأنها مثيرة للغيظ تمامًا، إلا أنهم يعترفون كذلك بضرورة المحافظة على هذا الحق فى الاتصال للتعامل أساسًا مع حالات العنف الجسدية المباشرة. ولكن حتى إذا كان وضع المتحدثة لا يندرج تحت هذه الفئة، فإنه لم يكن يجوز أن توصف بأنها "مصدر قلق أو إزعاج"، ما لم يكن سبق لها أن اتصلت

تليفونياً مراراً وتكراراً وأصبح لديها من المعرفة بهذه الهيئة ما يكفى ليجعها تدرك الأمور على نحو أفضل. ويبدو أن كل متحدثة ينظر إليها باعتبارها حالة فردية وتعامل وفقًا لهذا التصور. ولم يكن الموظفون يعتبرون أن هؤلاء المتحدثات تليفونيًا مزعجات إلا عندما تصبح مشاكلهن من النوع الذى يستنزف الوقت أو من المشاكل المزمنة.

هنا قامت الباحثة بتطوير تحـ يل أكثر تعقيداً (من خواطرها البسيطة الأولى) وذلك عن طريق تصحيحها وتوسيعها لنطاق رأى تحليلى سابق. وقد ساعدتها الكتابة على توضيح أفكارها وعلى استنباط بعض الفروق الدقيقة أثناء قيامها بالفحص المنتظم للمعلومات الجديدة فى ضوء ما سبق لها أن فهمته.

وكعرف عام فى كتابة التعليقات والمذكرات السريعة، ينبغى على الباحث الميدانى أن يظل متفتح العقل، فيتفادى الجمل التحليلية القاطعة تحوطًا للاحتمالات والبدائل الأخرى. وتكون هذه الكتابات أكثر فائدة عندما تقدم أفكاراً استطلاعية، وتأملات استكشافية، وتساؤلات مفتوحة. مثال ذلك، أن التعبير بكلمات – مثل "من المحتمل"، و"فى الظاهر"، و"يبدو أنه" – يعكس هذه الصفات الموجودة فى التعليقات التى كتبها الباحث الميدانى عن مصطلح "Homey".

قد يشعر الباحث الميدانى بالتردد والتوتر فى تقرير متى يركز على كتابة المذكرات الميدانية الوصفية الشاملة، ومتى يسجل ويطور رؤاه وأفكاره التحليلية. ذلك أن بإمكان كتابة التعليقات التحليلية والمذكرات السريعة أن تحل بسهولة محل الوقت والجهد اللازمين لكتابة المذكرات الميدانية الوصفية الجوهرية. ومع ذلك فإننا كثيراً ما نجد أن الأفكار الجديدة، مثل التفاصيل الوصفية التى تصنع مذكرات ميدانية مفعمة بالحياة تكون عابرة كالوميض، فإذا لم تكتب مباشرة، فإنها سرعان ما "تضيع" أو تظل أفكاراً فطيرة غير ناضجة. لذلك قد يتعين على الباحث الميدانى أن يوازن باستمرار بين الدافع الذى يجعله يكتب الأفكار والرؤى حالما تخطر على ذهنه وبين اضطراره إلى "كتابة كل شىء على الورق" بأقصى ما يمكنه من السرعة والاستكمال وبدون توقف.

وموجز القول أن التأمل والتحليل المستمرين يعدان من الأمور البالغة الأهمية للبحث الإثنوجرافى، حتى عندما يواصل الباحث الميدانى مشاهداته فى الميدان وعندما ينهمك فى كتابة المذكرات الميدانية. ذلك أن كتابة العبارات الجانبية، والتعليقات، والمذكرات السريعة تساعد الباحث الميدانى على القيام بالتحليل التحضيرى فى نفس وقت جمع البيانات الميدانية. وكثيراً ما تقوم مثل تلك الكتابة التأملية بحفز الباحث على بذل المزيد من الاهتمام الدقيق بما يراه، ومن ثم تحثه هذه الكتابة على كتابة توصيفات أكثر تفصيلاً وحيوية. وتقوم الكتابة التحليلية أثناء العمل - هى الأخرى - بزيادة احتمال القيام بأنواع الملاحظات المطلوبة لتطوير ودعم نوع معين من التحليل. وكلما تم تحديد الأفكار التحليلية الرئيسية بصورة أكثر وضوحًا، كلما زادت قدرة الباحث الميدانى على "اختبار" البدائل المختلفة، إذ أنه - حينئذ - يقوم بإجراء تسجيل الملاحظات التى يمكنها تأكيد، أو تعديل، أو رفض مختلف التفسيرات. وتؤدى العبارات الجانبية والتعليقات النظرية، وكذلك المذكرات النظرية الأكثر تفصيلاً ودقة؛ تؤدى إلى إضفاء قيمة على هذه الرؤى والتصورات.

أفكار للتأمل: المذكرات الميدانية كثمرة لاختيارات الكتابة

يتمثل الهدف الأساسى للباحثين الميدانيين - فى كتابتهم للمذكرات الميدانية - فى الوصف وليس التحليل. فالباحث يكتب مذكراته وفى ذهنه غرض محدد هو: تسجيل شريحة من الحياة على الورق. إلا أن هذين اللفظين أو المصطلحين المتباينين - الوصف والتحليل - يشيران إلى نوعين من الكتابة معترف بهما أكثر مما يشيران إلى نشاطين معرفيين منفصلين. وبهذا المعنى، تعد كتابة المذكرات الميدانية عملية "تحليل داخل الوصف". والحق أن جميع التوصيفات تتسم بأنها انتقائية، وهادفة، ومعبرة عن وجهة نظر معينة، وناطقة بصوت كاتبها، وذلك لأنه يتم تأليفها. ولكى يصف الباحث الميدانى الحياة بالتفصيل باتباع هذه الطريقة، فإنه يستعمل الأعراف اللغوية ليخلق مشهداً

متخيلاً. فالإسكتشات (الصور المجملة)، وصور الوقائع تقدم لوحة حية أو تروى حكاية، فهى ترسم لوحات لحياة مجتمع البحث، والبشر، والأحداث، ولا تقدم تفسيرات سببية أو تبرهن على صحة قضية ما.

والكتابة كلها، وبحكم تعريفها، عملية من عمليات التجريد والترتيب: فالكتابة الواضحة تتصف دائمًا بالترابط الداخلي، والذى هو ثمرة اهتمام الكاتب بموضوع الكتابة، واهتمامه كذلك بالقارئ المحتمل. ويبنى الباحثون صرح مذكراتهم الميدانية من خلال عملية يمكن فهمها بقدر أكبر من الدقة إذا استعملنا تعبير "الصياغة التفصيلية" لأفعال الناس وأقوالهم بدلاً من استعمال تعبير "تسجيل" أو "وضع" "Getting Down" هذه الأفعال والأقوال على الورق. ذلك أن الكتاب يصنعون ما هو أكثر من وصف العالم. إذ أنه بمجرد أن يشترك "الباحث الميدانى بوصفه ملاحظًا" مع أفراد المجتمع فى بناء واقع اجتماعى ما، فإن "هذا الباحث بوصفه كاتبًا" يخلق - أيضًا - هذا العالم من خلال اللغة التى يكتب بها.

وقد رأينا فى هذا الفصل أنه حتى وإن تقيد الباحث الميدانى بالتفاصيل الفعلية التى لاحظها وشاهدها، فإنه فى جميع الأحوال يقوم "بخلق" هذا المشهد الذى يصفه. ولا تقتصر كتابة المذكرات الميدانية على معالجة الخبرة من خلال اهتمام الباحث بما يجرى فى الميدان، بل يضاف إلى ذلك معالجة الخبرة من خلال ما يحتفظ به فى ذاكرته وما يختاره من الأساليب الإنشائية عندما يجلس إلى مكتبه. ويتمثل الباحث فى ذهنه ما شاهده من تفاعلات وينتقى التفاصيل ذات الدلالة؛ وعندما يكتب فإنه يجمع تلك التفاصيل فى كل مترابط وفقًا لواحدة من استراتيجيات الكتابة المتعارف عليها(١٧).

ومع ذلك، فإن وعى الكاتب بأعراف الكتابة وتقاليدها لا يعنى أنه يؤدى به إلى أن يكون مبالغًا فى الإبداع البارع عن طريق استعماله للمهارات البلاغية فى الإقناع. بل إن هذا الوعى ليدعو الباحث الميدانى إلى أن يكون أكثر إدراكًا فى انتقائه لاختياراته "الكتابية" عند كتابته الإبداعية لتسجيلات المذكرات الميدانية التى ترسم صورة العوالم

الاجتماعية كما يخبرها الآخرون وكما يتصورونها . تأمل ما تحدثه الكتابة من تأثيرات: إذ لا يقتصر الأمر على أن الموقف النظرى للكاتب يؤثر على اختياراته الإنشائية (أى: اختياراته فى الكتابة)، بل إن العكس يحدث أيضًا، إذ إن اختياراته فى الكتابة تؤثر كذلك على موقفه النظرى. فحتى فى حالة قيام الكاتب بالتقليد غير المقصود لأحد الأساليب "الموضوعية" للعلم الاجتماعى، مثلاً، بما يتصف به من التعبير الدقيق، والرؤية العلمية العامة، واستعمال للكلام غير المباشر (الذى لا يظهر فيه شخص الكاتب ولا ضمير المتكلم - المراجع): نقول حتى فى هذه الحالة، فإن ما يكتبه الباحث من توصيفات يعكس نوعًا من الانجذاب أو الميل نحو هذا التوجه الفكرى - رغم أن هذا الميل يكون دائمًا فى غاية الدقة والخفاء. ولاريب أن أسلوب الكتابة يميل إلى تشكيل رؤية الكاتب. وإن طريقة الباحثين فى النظر إلى ما يجرى فى الميدان لتتبع - فى جانب منها - مما يجدونه جديرًا بالاهتمام "وقابلاً لأن يُكتب" كمذكرة ميدانية. ويترتب على ذلك أنه يتعين على الباحثين المهتمين بالاستقامة العلمية فى بحثهم، أن يبدوا نوعًا من المراعاة الأمينة للطريقة التى تؤثر بها اختياراتهم الكتابية على كل من عملهم الميدانى وتسجيلهم للمذكرات.

وسواء أكانت المذكرة الميدانية مكتوبة بعناية أو مكتوبة كيفما اتفق، فإنها تعكس صورة اختيارات المؤلف: وذلك حين يدرج هذه التفاصيل بدلاً من تلك، أو حين ينظر إلى الأحداث من خلال عين هذه الشخصية أو عين شخصية أخرى، أو حين يرتب تسلسل الأحداث وفقًا لهذا الأسلوب أو ذاك الأسلوب (أو حين يذكرها بصورة عشوائية)، أو حين يكتب وفى ذهنه قراء معينون. فهذه الاختيارات التى يتبعها المؤلف تؤدى، وفى حالة اتباعها لا شعوريًا فقط، إلى توصيفات مكتوبة على الورق بها أنواع معينة من التفاصيل، ووجهة نظر معينة، ونبرة معينة، واتجاه نفسى إزاء الأشخاص الذين يصورهم المؤلف، وصوت مميز. ذلك أن ما يقوم به الباحث يومًا بعد يوم من كتابات يرسم فيها صورًا لمشاهد تتراكم فوق بعضها، وكذلك الاختيارات الكتابية تسلم - كلها - بوجود نوع من التأثير التراكمى: إذ تقوم هذه المذكرات برسم لوحة تصويرية لهذا

العالم من خلال هذه العدسة الخاصة التى يستعملها الكاتب. ولهذا السبب، فإنه بناء على ما يقوم به الباحثون من تحديد لاختياراتهم الكتابية، تصبح طريقتهم فى كتابة المذكرات الميدانية مهمة عند القراء وعند هؤلاء الأفراد الذين تتناولهم تلك المذكرات بالوصف والتحليل، وذلك بسبب ما يكتبه أولئك الباحثون. وسواء أكانت المذكرات الميدانية فى صورة مصادر محفوظة فى ملفات للاستعمال الشخصى للباحث، أم كانت فى صورة كتابات منشورة فى الوثائق النهائية (كالكتب والمقالات)، فإن لها - فى جميع الأحوال - قدرة على التأثير والإقناع.

الفصل الخامس

تتبع المعانى التى يقصدها المبحوثون

قد يبدو للوهلة الأولى أن السعى إلى معرفة المعانى التى يقصدها المبحوثون مسألة لا تتعلق بالكتابة وإنما تتعلق بما يفعله المرء فى الميدان – من طرح للأسئلة ووضعه لنفسه فى الوضع الملائم لسماع الآخرين وملاحظة الأمور التى تشغلهم. ومع ذلك، فإن المعانى التى يقصدها المبحوثون ليست أشياء على حالتها الفطرية يمكن "اكتشافها" بسهولة. بل الأصح أنها أبنية تفسيرية قام الباحث الميدانى بتجميعها معًا ونقلها. ومن المؤكد أن هذه العملية تبدأ بطرح الأسئلة وبذل الاهتمام بماله صلة وثيقة بالأفراد الموجودين فى جماعة محلية ما. إلا أن المفتاح الرئيسى لهذه العملية يكمن فى التصوير الدقيق الحساس لما يعتبره الأفراد المحليون أمرًا ذا مغزى وله معناه، وذلك بصياغة هذا التصوير فى نصوص مكتوبة، ويكمن بعد ذلك فى جعل مشاغل هؤلاء الأفراد واهتماماتهم متاحة للقراء غير المطلعين على عالمهم الاجتماعى. وأخيرًا، فإنه يتعين كتابة مشاغل أفراد المجتمع فى صورة مذكرات ميدانية ثم يتم تضمينها بعد ذلك فى تقارير بحثية ميدانية أكثر شمولاً.

وبإدخال هذه التعقيدات التى تتضمنها عملية الإحاطة بالمعانى التى يقصدها المبحوثون فى الحسبان، لا يكون عجيبًا أن تظهر جهود الباحثين الميدانيين فى القيام بهذه العملية فى صورة جزئية أو غير متسقة، وذلك من خلال طريقتين متباينتين. أولاهما: أن بعض الباحثين الميدانيين يقللون من شأن المعانى التى يقصدها المبحوثون حين يستعيرون أو ينقلون مقولات خارجية فى وصفهم للمشاهد والأحداث المحلية.

ويؤدى هذا النوع من فرض التصورات الخارجية إلى أن يجعل مقاصد المبحوثين مبهمة غامضة. وثانيتهما: أن بعض الباحثين الميدانيين يقدمون تصنيفات جامدة للمصطلحات المحلية. ولكن مهمة الباحث أعقد من هذا بكثير: إذ يتعين عليه ألا يقتصر على فهم مقولات المبحوثين وتوصيلها، بل يتعين عليه كذلك أن يشرح الطريقة التى يتبعها المبحوثون فى استعمال المصطلحات فى بعض مواقف التعامل الخاصة، وكيف يفهم الأفراد المشاركون فى مواقف التعامل هذه المصطلحات ويقيمونها بطرق مختلفة.

وفى هذا الفصل نتعمق فى دراسة الطريقة التى بها تصبح الكتابة الإثنوجرافية حساسة للمعانى التى يقصدها المبحوثون، ومعبرة عنها بأسلوب مفعم بالحيوية. وفى كتابته للمذكرات الميدانية، يجعل الباحث اختياراته الأولى، وربما اختياراته الجوهرية، منصبة على إدراك المعانى التى يقصدها المبحوثون وتقديمها. إلا أن عليه ألا يفقد ذلك الالتزام بوجهات النظر المحلية وهو يكتب المذكرات السريعة فى الميدان أو وهو يصوغ تقرير دراسته الميدانية النهائى فيما بعد - حتى لو تعرض للإغراء بتغيير مقاصد المبحوثين حتى تتحول إلى مفاهيم تحليلية أقرب إلى المفاهيم المألوفة لديه ولدى قرائه. والواقع أن استنباط وتقديم المعانى التى يقصدها المبحوثون قد يكون أحد التحديات الكبرى فى الكتابة الإثنوجرافية، سواء أتمثل هذا التحدى فى الطابع الفورى أو المباشر الذى تتصف به كتابة المذكرات الميدانية المفصلة، أم فى الدرجة الكبيرة من العمومية والتجريد التى تتصف بها كتابة النصوص النهائية للبحوث. لذلك نقدم فى هذا الفصل إيضاحات لا تقتصر على أنها مستمدة من المذكرات الميدانية الأصلية للدارسين الباحثين، بل تتسع لتشمل المذكرات التى كتبت أثناء العمل فى الميدان، بجانب الأبحاث الإثنوجرافية النهائية.

ونبدأ الفصل بالتحقق فى مدى ما تحدثه التقارير التى يكتبها الباحثون - فى أحيان كثيرة - من تعتيم أو إخفاء لمقاصد الأعضاء عن طريق فرض تصورات خارجية على الأحداث. وبعد ذلك نتعمق فى دراسة أساليب الكتابة المستعملة فى توصيل مقاصد هؤلاء المبحوثين. ونبدأ أولاً باقتراح طرق للكتابة عما يعد مهمًا وله دلالة عند المبحوثين؛ ثم نقوم بسبر أغوار المشكلات التى تتضمنها عملية التعبير عن مقاصد الأهالى المحليين.

فرض المعانى الخارجية

تعجز المذكرات الميدانية - بصورة متكررة بشكل لافت - عن التنبه المستمر للمعانى التى يقصدها المبحوثون، إذ تقوم بدلاً من ذلك بفرض مفاهيم ومقاصد (معان) خارجية أو غريبة. ويؤدى فرض المفاهيم الخارجية إلى أن تحتوى المذكرات الميدانية على توصيفات تعجز عن تقدير المعانى والأمور التى تهم الأهالى المحليين (Matza 1969: 15-40)، وهو الأمر الذى يضع الأحداث فى الإطار الذى لا تنتمى إليه (بمعنى أنه يضع الأحداث استناداً إلى مفاهيم ومقاييس تختلف عن تلك المفاهيم والمقاييس التى يستعملها المبحوثون). وبصورة عامة، فإن الباحثين الميدانيين المعنيين بالإحاطة بمقاصد المبحوثين يكونون حذرين من أى شكل من أشكال التصنيفات التى لا تستند على المفاهيم التى يتبناها هؤلاء الأفراد ويستعملونها فعلاً فيما بينهم.

وتنجم حالات العجز عن تقديم تصنيفات المبحوثين (أى تصوراتهم) عن مصادر متعددة:

أولها، أن الباحثين عندما يخطئون فيقعون فى خطأ المركزية السلالية التقليدية، قد يستعيرون مقولة أو معياراً، أو معنى - من إحدى الثقافات أو من أحد الأماكن - ويستعملونه فى وصف الأحداث التى تقع فى بيئة أخرى. مثال ذلك، أن الغربيين، وبناء على توقعاتهم الخاصة المستمدة من ثقافتهم الغربية، عندما يدخلون إحدى دور السينما أو المسرح فى أفريقيا، قد يصفون ما يبديه جمهور المشاهدين من تعليقات على الممثلين بصوت عال بأنها "تقطع سياق العرض" ومن ثم يعجزون عن تقدير قيمة تلك المشاركة كأسلوب مقبول محلياً للتعبير عن تقديرهم لأداء الممثلين. أو قد يستعمل أحد الباحثين معايير خارجية لتقييم حالة الفصول الدراسية الأفريقية فيصفها بأنها "عالية الضجيج" أو "فى غاية الفوضى" متجاهلاً التصورات الفعلية للمدرسين والطلبة فيما يتصل بالطريقة التى يتعين بها إدارة الأنشطة داخل الفصول الدراسية. وكلا هذين التصرفين من جانب الباحثين يشوه صورة سلوك الناس أكثر مما يصفه بما هو عليه فعلاً.

ثانيًا: مصادر العجز عن التقدير الصحيح لتصورات الأعضاء أن يستعمل الباحثون الميدانيون مصطلحًا، أو مفهومًا أو حكمًا تقييميًا تقر به وتستعمله وتحترمه جماعة واحدة في عالم اجتماعي معين؛ قد يستعملوا ذلك في وصف ملامح أو تصرفات جماعة أخرى تعيش في ذلك العالم الاجتماعي نفسه. مثال ذلك، أن الموظفين الذين يعملون في مجال العلاج النفسي قد يفسرون سلوكًا يصدر عن المرضى بأنه "شرود" أو "رفض"، حتى لو كان هؤلاء المرضى يرون أن هذه التصرفات تصرفات شائعة وتحدث في الحياة اليومية. وكثيراً ما يحدث للباحث الميداني الذي يلتقي مصادفة بتصورات مختلفة لنفس الحدث أن يميل إلى قبول إحدى وجهات النظر باعتبارها هي "الصحيحة"، مما يجعله يهمِّش وجهات النظر الأخرى البديلة. مثال ذلك، أنه حدث في أحد المواقف في زامبيا أن قرر أحد المعالجين الروحيين أن رجلاً عجوزاً فوجئ بالعجز عن المشي لأنه قد أصيب بالسحر، وبعد أن قام المعالج بمعالجة الرجل لمدة عام باستعمال الأدوية والتدليك، استطاع أن يشفيه. إلا أن الطبيب الذي يعمل في المستشفى المحلي انتهى – بعد سماعه لهذا التفسير ولقائه لهذا الرجل الذي كان مريضًا – إلى القول بأنه قد أصيب بسكتة نجم عنها إصابته بالشلل. وهنا قد يحدث للباحث الميداني الغربي، وهو يكتب مذكراته الميدانية عن هذا الحدث، أن يشعر بإغراء قوي لتفضيل التفسير "العلمي" لطبيب المستشفى، حتى لو كان هذا التفضيل غير ظاهر تمامًا ومن ثم يصف تفسير المعالج الروحي بأنه "معتقد". وهكذا يعطي الأولوية للتفسير الذي قدمه أحد الأطباء بوصفه "أكثر دقة"، مما يعني ضمنًا أنه أكثر كفاءة.

ثالثًا: قد يتبنى الباحثون الميدانيون موقفًا رافضًا لبعض المعاني التي يتبناها المبحوثون، حيث يتعاملون معها بوصفها أفكاراً معيبة، أو زائفة، أو متناقضة، أو وهمية. مثال ذلك أن إحدى الدارسات الميدانيات العاملات في لوس أنجلوس كانت تقوم بدور الملاحظ في الاجتماعات الأسبوعية لمجموعة دراسية مكرسة لفلسفة إدجار كايس Edgar Cayce. وفي المذكرة الميدانية التالية تصف واقعة رواها أحد أعضاء هذه المجموعة:

فقدت دولورس Dolores كيس نقودها ولم تصب بالرعب. سلمت بالحادث وسألت الله أن يحفظه لها. كما سألته ألا يقع أحد تحت إغراء الاستيلاء على بطاقة هويتها، وبطاقات الائتمان الخاصة بها، ومالها. وفى اليوم التالى عندما كانت ذاهبة إلى عملها سألت الحارس المكلف بالحراسة عما إذا كان الكيس قد أعيد لهذا المكان. والحق أنه أعيد وأنه لم ينزع منه شىء.

وقد فسرت الطالبة الباحثة هذه القصة أول ما سمعتها بأنها تشير إلى طريقة فى فهم مشكلات الحياة اليومية تتسم "بالسلبية" المفرطة، فكتبت تقول:

إن مغزى هذه القصة هو ترك كل شىء فى يد الله... وإنى لأرى أن التسليم والتوجه إلى الله بالدعاء طريقتان سلبيتان جداً لمعالجة وضع طارئ إذا قارناهما بالذهاب إلى الشرطة أو أن يرجع المرء من حيث أتى متتبعًا خطواته السابقة.

فهذا التفسير يرفض "التسليم" و"التوجه إلى الله بالدعاء" باعتبارهما امتناعًا عاجزاً عن الفعل فى أفضل تقدير، أو باعتبارهما من الأوهام المرضية فى أسوأ تقدير. وهذا التفسير – ضمنيًا – يُضاد، ومن ثم يُنكر، دعوى عضو الجماعة بأن كيس النقود قد أعيد وأنه لم يؤخذ منه شىء بسبب دعواتها إلى الله. والنتيجة هى كشف الزيف فى المعتقدات الفعلية لهذه المجموعة الخاصة فيما يتعلق بجدوى التصرف العملى فى الحياة اليومية(1).

رابعًا: قد تصاغ التوصيفات الواردة فى المذكرات الميدانية، وكذلك فى دفاتر الملاحظات السريعة داخل إطار وفقًا لأحد المقاييس التى تحدد ما هو "المفروض أن يكون"، وهو الأمر الناشئ عن القواعد الرسمية أو عن التصورات التى يعتقد الناس أنها تحكم التصرف فى مجتمع ما. مثال ذلك، أن الباحث الميدانى عند ملاحظته لوجود فارق بين تفسير أحد المسنين للمعنى المتوارث لأحد الطقوس ولمشاهده المتتابعة، وبين الأداء الفعلى لهذا الطقس: هذا الباحث قد يصف هذا الطقس بأنه "يتراجع وينحدر"

بدلاً من أن يصفه بأنه قابل للتكيف والتغيير[٢]. وبالمثل، فإن الباحث قد يصف ويحلل تصرف رجال الشرطة وهم يعملون فى الشوارع وفقًا للقوانين الرسمية التى تنظم استعمال القوة؛ وبذلك فإنه يغفل عن دراسة موضوع: كيف يقيِّم ضباط الشرطة الحاليون بعض المواقف التى تحدث فى الشوارع وكيف يقررون متى يستعملون القوة وما هى أنواع هذه القوة[٣]. وفى كلتا الحالتين، يقرر الباحثون - بصورة ضمنية - ما إذا كان من المناسب اعتبار هذه التصرفات منسجمة مع أو منحرفة عن الصورة "التقليدية" أو القوانين "الرسميـــة"، ومن ثم يقـــررون مـا إذا كانت هذه التصرفات (التى فى المثال الأول) سلوكًا طقسيًا "أصيلاً" "حقيقة"، أو إذا كانت (فى المثال الثانى) استعمالاً "مشروعًا" للقوة.

خامسًا: قد يستشهد الباحث فى وصف الأحداث والمواقع بإحدى المقولات النظرية القبلية، والتى تكون فى كثير من الأحيان من المقولات المقدسة فى فرع معين من فروع العلم. مثال ذلك، أن الباحثين السابقين، فى دراساتهم للسرد التقليدى، كانوا يعتمدون اعتمادًا بالغًا على المفاهيم التحليلية "للخرافة" و"الأسطورة" و"الحكاية الشعبية" حتى فى تفسيرهم للموروثات غير الغربية. ومن شأن هذه المفاهيم الأخيرة أن تفرض الأفكار والتصورات التى تتسم بالمركزية الأوروبية فى كثير من الأحيان، وبذلك تسئ تصوير مالشعب ما من موروثات وممارسات خاصة بسرد الحكايات. من هنا يبدى علماء الفولكلور المعاصرون اهتمامًا متزايدًا بتصوير سرد الحكايات عن طريق استعمالهم للمصطلحات والتفسيرات المحلية لدى الجماعة المبحوثة، كما أنهم يصفون كيف يستعمل الناس هذه المصطلحات فى بعض مواقف السرد المعينة[٤].

والواقع أن الباحث الميدانى قد يقوم - بطريقة ضمنية - بفرض هذه المفاهيم تحديدًا عند طرحه لأسئلة خارجية (غريبة عن سياق المجتمع) يرجع مصدرها إلى إحدى أجندات البحث المسبقة أو إلى أحد الأطر النظرية. ولا يقتصر الأمر على أن الباحث قد يفرض أفكارًا معينة عند طرحه الأسئلة على أحد الإخباريين، ولكنه قد يفرض - كذلك - شكلاً غير ملائم من أشكال التعبير به من مظاهر التدخل ما يشوه

إجابات ذلك الإخباري. مثال ذلك، أن الباحث الميداني الذي يطلب تزويده بقائمة بالعناصر التي تتكون منها بعض الأدوية، أو يسأل عن الخطوات السرية المتضمنة في ممارسة أحد الطقوس قد يحصل على قوائم عشوائية بهذه العناصر يراد منها إرضاء هذا الباحث. أو قد يحدث عندما تُطرح على الأفراد أسئلة تفرض عليهم تحليلات وتفضيلات غريبة عنهم، أن يردوا عليها "بردود لا تمثل إجابات" مثل: "نعم" أو "لا" أو "أحيانًا"، خاصة عندما يكونون معتادين على وصف هذه الأحداث المتصلة بالتداوي والعلاج ووصف الأحداث المتصلة بالطقوس من خلال روايتهم لقصة هذه الخبرة[٥]. وخلافًا لذلك، فإن البحث الميداني السليم يقضي بأنه "لابد من استخراج الأسئلة والأجوبة من الإخباريين أنفسهم. (Spradley 1979: 84).

سادسًا وأخيرًا فإن وصف المواقع أو التصرفات المحلية وفقًا لمتغيرات ثنائية قد يتضمن نوعًا من فرض المفاهيم الخارجية. مثال ذلك، أن تقسيم الباحث الميداني للأفراد الموجودين داخل إحدى الحانات إلى فئتين: "الزبائن الدائمين" و"الزبائن غير الدائمين"، قد يغفل أو يتجاهل وجود فروق أخرى أكثر تعددًا واختلافًا يلاحظها أصحاب الحانة وعمالها فيما بين كل واحد منهم والآخر. وبصفة عامة، فإن اختزال الحياة الاجتماعية الدائمة التطور إلى عدد من المتغيرات والتقسيمات الثنائية يؤدي إلى إحداث نوع حاد من نزع المعاني (أو المقاصد) المحلية من سياقها الاجتماعي وإلى تدميرها.

وباستعمال الباحثين لهذه الطرق جميعًا، فإنهم يميلون إلى إنتاج مذكرات ميدانية ودفاتر ملاحظات ميدانية تتجاهل التصورات التي تدور في أذهان الأهالي وتهمشها وتجعلها مبهمة غامضة. وفي الأقسام التالية من هذا الفصل نقترح إجراءات بديلة لكتابة المذكرات الميدانية تتحاشى أمثال تلك الأفكار المفروضة، وتساعد على بلورة التوصيفات والتحليلات التي تكون حساسة للاهتمامات والمعاني (المقاصد)، والمفاهيم المحلية.

تصوير المعانى التى يقصدها المبحوثون

هناك بعض اللحظات المتميزة فى حياة الجماعة التى يمكن أن تلقى الضوء على الطريقة التى يتبعها المبحوثون فى التعبير عن مقاصدهم المحلية، وفى التكيف معها، وفى ابتداعها. ويبدأ الباحثون الميدانيون فى صياغة مقاصد أفراد الجماعة المدروسة بتدقيق النظر "فيما يقوله أولئك الأفراد وفيما يفعلونه" أثناء مثل هذه اللحظات، باذلين اهتمامًا خاصًا بما يستعمله أفراد المجتمع من كلمات، وعبارات، ومفاهيم فى تعاملاتهم اليومية.

مصطلحات أفراد المجتمع فى المخاطبة وإلقاء التحية

تعد الطريقة التى يتبعها أفراد المجتمع فى المخاطبة وفى تحية بعضهم لبعض من أسهل ما يمكن ملاحظته من أنواع الكلام وأشدها كشفًا وإيحاء. ويبدأ الباحثون الميدانيون – فى كثير من الأحيان – بملاحظة وتعلم المصطلحات المناسبة للتخاطب، خاصة عندما يعملون فى إطار ثقافة أجنبية ويستخدمون لغة أجنبية. ففى كثير من المجتمعات، تقوم الطريقة التى يتبعها الناس فى مخاطبة بعضهم لبعض بالكشف عن المكانة النسبية بين طرفى المخاطبة. لاحظ، مثلاً، الفرق بين الألفة الموجودة فى استعمال المتكلم للاسم الشخصى للمخاطب، والاحترام الظاهر فى استعمال الألقاب الرسمية مثل دكتور فلان، أو السيد فلان، أو السيدة فلانة. زد على ذلك، أنه كثيراً ما تدل الطريقة التى يتبعها الأفراد فى تحية بعضهم لبعض – عن طريق استعمال كل من الكلمات ولغة الجسد – على شىء ما يتعلق بما فى تلك العلاقة من "حميمية"، أو "احترام"، أو إذعان، أو عداوة(٧).

مثال ذلك، أن الأفراد فى قرى التشوكوى Chokwe يخاطبون بعضهم بعضًا باستعمال المصطلحات الدالة على القرابة، مثل قولهم "تاتا" "tata" (أى أبى) أو "ماما" "mama" (أى أمى) أو "يايا" "yaya" (أى: القريب الأكبر سنًا من المتكلم والذى هو من

نفس جنسه)، و مواكويثو "mwakwethu" (أى: القريب الأصغر سنًا من المتكلم الذى هو من نفس جنسه)، أو ندومبوامى "ndumbwami" (لأى قريب من الجنس المخالف للمتكلم) (Fretz 1987: 58-65). ويكشف الإنصات لنداءات أفراد شعب آخر لبعضهم البعض عما بينهم من علاقات القرابة، كما يساعد الباحث على التعرف على التوقعات المحلية المتعلقة بالكلام والسلوك المناسبين. مثال ذلك، أن الأجداد والأحفاد فى شعب التشوكوى قد يتبادلون مظاهر الحب والحنان علانية ويضحكون معًا عند ذكر المسائل الجنسية بطريقة تعتبر غير لائقة عند غيرهم ممن تربطهم علاقات مختلفة. وخلافًا لذلك، يحيِّى الأنسباء (أى الأقارب بسبب الزواج) بعضهم بعضًا بطريقة رسمية ومن مسافة تفصل أحدهما عن الآخر (ويتوجب على الشخص الأصغر سنًا أن يتنحى بعيداً عن طريق من هو أكبر منه سنًا) كما أنهم لا يأكلون معًا أبداً. ويحدث مثل هذا فى المجتمع الأمريكى، إذ أن بإمكان مصطلحات المخاطبة والتحية أن تكشف السمات المتميزة للعلاقات الاجتماعية. فقد يكون من الأمور ذات الدلالة فى الفصل الدراسى وفى العيادات النفسية، مثلاً، تحديد ما إذا كان الطلبة يخاطبون المدرسين بأسمائهم الشخصية أم بأسماء عائلاتهم (أى: ألقابهم العائلية) وكذلك تحديد نفس هذا الأمر فى مخاطبة المترددين على العيادة النفسية للعاملين بها. وبنفس الطريقة، قد يزودنا تحديد ما إذا كان الأفراد يتبادلون التحايا أم لا، وتحديد الطريقة التى يتبعونها فى هذا الأمر؛ قد يزودنا ذلك بمؤشرات تدل على ما له أهميته المحلية من أشكال الانتماء الإثنى والافتراق الإثنى Ethnic Disaffiliation. (Anderson 1990: 168-73).

الأسئلة والأجوبة فى الحياة اليومية

يلاحظ أحد الباحثين الميدانيين الأذكياء أنواع الأسئلة التى اعتاد الأفراد المحليون طرحها وأنواع الأجوبة التى جرت العادة على الرد بها. مثال ذلك أنه يحدث فى كثير من المجتمعات الأفريقية أن يحيِّى الأفراد بعضهم ويسألون بعضهم بعضًا الأسئلة المناسبة والأساسية مرات كثيرة فى اليوم، وعلى سبيل المثال، يسأل أفراد

شعب التشوكوى بعضهم بعضًا عن حاله، بما فى ذلك السؤال عن حال أسرته الكبيرة كلها (فيقول: "كيوسى كيو نزيـوو kuci ku nzuwo = "كيـف حالهم فى البيـت؟")؛ كما أنهم يسألون عن صحة المخاطب وصحة عائلته (فيقولون: يوناهندفيوكا، نى؟" "unahindvuka, nyi?" هل أنت بخير؟"). وبإمكان هذه الأسئلة أن تفضى إلى حوارات عن الصحة، أو العمل، أو المشاكل المالية، أو المشاجرات التى تحدث فى العائلة، أو حالات الولادة، أو حالات الوفاة، أو التمتع بالطعام، أو البحث عن الغذاء، أو الاحتفالات الخاصة بالمناسبات. وبإمكان تعلم الباحث لطرح مثل هذه الأسئلة بطريقة مناسبة وإجابته عليها بطريقة صحيحة أن يؤدى إلى حوارات عن القضايا التى يعتبرها شعب التشوكوى أساسية لنجاحهم أو إخفاقهم فى حياتهم اليومية(٨).

ولا يقتصر الباحثون الحساسون لإدراك خبرات أفراد مجتمع البحث ووجهات نظرهم على مجرد الإنصات إلى ما يلقيه أولئك الأفراد من أسئلة، بل يطرحون هم كذلك أسئلة يتعمدون أن تكون ذات نهاية مفتوحة، وذلك بقصد أن يدعوا الأعضاء يستعملون لغتهم الخاصة ومفاهيمهم الخاصة فى الردود عليهم. أضف إلى ذلك أن الباحثين الميدانيين يوجهون هذه الأسئلة لتنصب على الموضوعات التى يشعر أفراد المجتمع أنها ذات معنى، أى أنها مهمة، ولها صلة وثيقة بمسائل الحياة اليومية، ومتماشية مع الطرق التى يعملون ويتكلمون وفقًا لها. وعن طريق قيام الباحث بتوجيه الأسئلة المتعلقة بالأفعال والأقوال التى يتبادل الباحث وأفراد المجتمع ملاحظتها والاستماع إليها عرضًا؛ عن هذا الطريق يكون من المرجح إلى حد بعيد أن تكون أسئلته مفهومة لدى هؤلاء الأفراد. وقد يسأل الباحث أحد أولئك الأفراد سؤالاً عن واقعة شهدها كلاهما، أو عن تفسير لمصطلح استعمله فى نفس هذه اللحظة، أو عن تعليق قاله شخص آخر أثناء حوار ما. وتتيح أمثال تلك الأسئلة للأفراد أن يجيبوا باستعمال صيغ للتعبير مألوفة لهم، جاعلين أجوبتهم داخل سياق مفهوم عندهم وبذلك يبوحون بتصوراتهم – أى يبوح الفرد بموقفه من هذه "المعلومات".

التوصيفات التى تجرى على ألسنة أفراد المجتمع بصورة طبيعية

يبذل الباحثون الميدانيون اهتمامًا شديدًا بالطريقة التى يتبعها أفراد المجتمع أنفسهم فى تمييز ووصف أنشطة، وأحداث، وجماعات معينة. ونظراً لأن الباحث الميدانى يدرك أن الحدث الواحد ليس له معنى واحد، أو ضرورى، أو ثابت لا يتغير، فإنه لا يسلم بأنه يعرف ما هى الدلالة أو الأهمية التى يعزوها أفراد المجتمع للأحداث والأشياء التى تشكل عالمهم. بل يصغى بحرص إلى ما يقوله أفراد المجتمع أثناء ممارستهم لأنشطتهم العادية فيما يتصل "بفحوى أو حقيقة" أمر ما، أو ما يقولونه عن أهمية حدث ما بالنسبة لهم[٩].

وعادة ما يقدم أفراد المجتمع توصيفات تصدر عنهم بصورة طبيعية يصفون بها مجتمعهم عندما يقدمون لأهليهم أشخاصًا غرباء لأول مرة أو عندما يوجهون هؤلاء الغرباء ليتكيفوا مع هذا المجتمع. وينبغى لمثل هذه التوصيفات أن توضع داخل إطار يحصرها فى نطاق معين وعلى نحو واضح محدد، وذلك بقصد إظهار الصفات التى يعتبرها أفراد المجتمع صفات خاصة أو فئة. مثال ذلك أن أحد الموظفين العاملين فى "هيئة الإسكان والتنمية الحضرية" HUD والمسند إليه مهمة دراسة حالة المترددين على هذه الهيئة يصف عمله للباحث ويشير إلى الملامح المتميزة لهذه الهيئة، فيقول:

> "بقدر ما يكون حجم العمل الإدارى كبيراً، يقل ما يتيحه العمل المهنى داخل هذه الإدارة من التمتع بترف التواصل المباشر مع البشر. فإن كنت أقوم بمقابلة نحو ٢٠ أو ٢٥ شخصًا فى اليوم، فلا وقت لدى أتوقف فيه عن العمل. وأنا ملزم بأن أؤدى هذه المهمة، كما أننى ملزم بأن أنتقل منها إلى المهمة التالية. وأحيانًا ما تكون المسألة مسألة أعداد فى الواقع، وهو ما يفسر سبب قيام موظفى الحكومة بأداء أعمالهم بهذه الطريقة التى يتبعونها فى هذا الصدد. نحن إدارة صغيرة، وتتاح لنا أحيانًا متعة الاتصال بالناس، ولكننا نحرم منها فى أحيان أخرى".

فـهـذا الموظف المسند إليه دراسـة حـالة المتـرددين على هـذه الهـيئـة يفـصـح عن اهتمامه بالاتصال الشخصى المباشر مع مقدمى الالتماسات للحصول على مساكن مدعمة بمعونات فيدرالية، إلا أنه يشير فى نفس الوقت إلى أن القيود العملية تجعل - فى بعض الأحيان - مثل هذا الاتصال المباشر نوعًا من "الترف" المستحيل. وبهذا الشكل، فإن وصفه هذا يقوم بما هو أكثر من توجيه الباحث إلى هذا المكان؛ إذ أنه - بجانب ذلك - يبوح بوجهة نظره فى عمله.

كما أن بإمكان التوصيفات التى تجرى على ألسنة أفراد المجتمع بصورة طبيعية أن تظهر على نحو غير رسمى إلى درجة كبيرة أثناء الحديث المستمر عن الأحداث المهمة أو ذات الدلالة فى هذا المجتمع. وفى هذه الحالة، مثلاً، قد يحتاج الباحث الميدانى إلى أن يبذل اهتمامًا بالغًا بالطريقة التى يتم بها تقديم أى وافدين آخرين والطريقة التى بها يتم تعليمهم "كيف يتصرفون". ونظراً لأن الوافدين يتعلمون تفاصيل ما يتعين عليهم عمله، فكثيراً ما يطرحون أسئلة ويقعون فى أخطاء تكشف - ومن خلال جهلهم بها - المعرفة والمهارات الضمنية التى يأخذها معظم أفراد المجتمع القدامى مأخذ التسليم.

ولهذه الأسباب بالذات، قد يحتاج هذا الباحث الميدانى إلى أن يسجل فى المذكرات الميدانية المفصلة كيف تعلم شق طريقه للنفاذ إلى داخل مجتمع ما وللتجول فيه، وذلك لأن أفراد المجتمع كثيراً ما يكيفون الباحثين للاندماج فى حياتهم الاجتماعية ويعلمونهم بنفس الطريقة التى يتبعونها فى تكييف وتعليم أى وافد آخر أو فى تكييف وتعليم أطفالهم: والواقع أنه يحدث فى كثير من المواقف أن تكون عملية التكييف هذه أمراً لا مفر منه. مثال ذلك أنه حدث عندما كانت إحدى الباحثات الميدانيات تعيش لأول مرة فى إحدى قرى شعب التشوكوى Chokwe، أن كل حركة صدرت عنها وهى تتعلم الطبخ فى الهواء الطلق باستعمال موقد يعمل باحتراق الفحم النباتى - وانتهاء بوصولها لتعلم كيف تُقلب القدر بطريقة دقيقة محكمة - حدث أن كل حركة صدرت

عنها كانت محل ضحك، وتعليق، وتصحيح من قبل جاراتها من النساء اللاتى كن يراقبنها ويشاهدن حركاتها. وحيث أن هؤلاء الناس اعتادوا العمل معًا واعتادوا التبسط فيما بينهم حيث يسخر الواحد منهم - مستعملاً أسلوب المزاح - عندما يقع صاحبه فى خطأ ما، فإنهم يستغلون وقوع الباحثة فى الحرج والاضطراب ويمازحونها بقولهم لها أنها تبدو شبيهة بالطفل الصغير. ولم تقتصر هذه الباحثة الميدانية على تعلم السلوك المناسب، بل كانت قادرة، إلى جانب ذلك، على التنبه لنوع التعبيرات - هلى هى من نوع الضحك، أم التأنيب، أم التصحيح - التى من خلالها يقوم هؤلاء الناس بتنشئة الآخرين على أنماط الحياة فى مجتمعهم(١٠).

وتظهر مشكلات خاصة عندما يشاهد الباحث حادثًا معينًا بصورة مباشرة؛ فمن السهل جدًا حينئذ افتراض أنه نظرًا لأن المرء شاهد شيئًا يحدث، فإنه يعلم ما يعنيه هذا الشيء عند الآخرين فى هذا المجتمع. وهنا ينبغى على الباحث الميدانى أن يحاول استكمال وصفه الخاص بالاستماع فى وقت لاحق لطريقة أفراد المجتمع فى الكلام عن هذا الحادث مع الآخرين. وعلى ذلك، فإنه يحسن بالباحث الميدانى الذى شهد مواجهة بين أحد رجال النيابة فى مقاطعة ما وبين أحد مخبرى التحريات من العاملين بالشرطة، وكانت هذه المواجهة تتعلق بتصنيف ملفات الشكاوى والتظلمات؛ يحسن به أن يسجل فيما بعد مذكرات ميدانية يبين فيها بالتفصيل كيف حكى مخبر التحريات "فحوى ما حدث" لأحد زملائه وهما يتناولان وجبة الغداء(١١).

وبالمثل، لا ينبغى للباحث الميدانى أن يسلم بأن ما تتضمنه الوثائق المكتوبة من معان وما تحمله من فحوى أمور واضحة لا خلاف عليها. بل عليه، بدلاً من ذلك، أن يسعى لفهم الطريقة التى يتبعها أفراد المجتمع فى قراءة الوثائق، وفى فهمها، وفى تفسيرها. ومن ثم فإنه ينبغى على مثل هذا الباحث، بدلاً من الاكتفاء بمعالجة تقرير ما باعتباره سجلاً موضوعيًا، أن يدقق النظر فى الطريقة التى يتبعها الموظف فى تلخيص "جوهر" ذاك التقرير أو "خلاصته"، ثم يدرج فى المذكرات الميدانية كلاً مما كان مكتوبًا فى الوثيقة والطريقة التى اتبعها الفرد فى إبداء رد فعله إزاءها.

تأمل، مثلاً، هذه المذكرة الميدانية التى تصف مقابلة شخصية أجراها أحد ضباط المراقبة (الاجتماعية) مع توم Tom، وهو فتى فى السادسة عشر من عمره، من البيض، ومن هواة التزلج على الأمواج، ومقيد بمدرسة خاصة للموضوعين تحت المراقبة (الاجتماعية). وبعد أن نظـرت الباحثـة فى "تقـرير عن مستوى تقـدم الطالب" وارد من هذه المدرسة الخاصة التى يتلقى فيهـا الشـاب دروسه، كتبت المذكرة الميدانية التالية:

> عموماً، لقد تحسن التقرير الخاص بتقدمه قليلاً. إلا أنه أُرسل إلى البيت (أى: السجن) فى أحد الأيام. وقد سألته شلى Shelly عن ذلك.

فهنا تؤكد هذه الباحثة - بدون تمحيص للأمر - أن تقرير المتابعة يدل على أنه "قد تحسن قليلاً"؛ أو بالأصح، أنه نظراً لأن ضابط المراقبة وصف هذا التقرير بعد ذلك بمدة يسيرة بهذه الكلمات، قامت هذه الباحثة - ببساطة - بتبنى هذا الحكم على اعتبار أنه حكمها هى. ويتجاهل هذا الإجراء عملية تفسير تقرير المتابعة، وعملية اكتشاف "التحسن" أو "عدم التحسن" الوارد فى هذا التقرير. كما أن هذا الإجراء يتعامل مع هذا التقرير بوصفه سجلاً واقعياً لسلوك هذا الفتى بدلاً من أن ينظر إليه بوصفه وثيقة غير واضحة المعنى دونت فى مكان وتستعمل الآن فى مكان آخر(١٢). كما يتسبب فى صعوبة تقدير إلى أى مدى كانت عبارة ضابط المراقبة بأن هذا الفتى "قد تحسن قليلاً" قد صيغت خصوصاً من أجل هذا الوضع (أى من أجل رفع الروح المعنوية لهذا الفتى). وبصورة عامة، فإن الباحثة، باتخاذها هذا الاتجاه، تكون قد أخذت بتفسير صدر عن أحد الأفراد، إذ تعاملت معه كحقيقة وليس كمدلول أو معنى تم توليفه فى سياق خاص ولعلة معينة.

ولا يقتصر الباحثون الميدانيون على الإنصات لما يجرى بصورة طبيعية على ألسنة أفراد المجتمع من توصيفات؛ إذ أنهم يستطيعون كذلك أن يستخرجوا هذه التوصيفات من أولئك الأفراد، وذلك عن طريق استدراجهم للآخرين - بحرص شديد - ليتكلموا عما يعد مهماً عندهم(١٣). وعلى ذلك، ينبغى على هذه الباحثة أن تسأل إحدى ضابطات المراقبة فتطلب منها أن تتكلم عما تراه فى تقرير معين أو عما تجده فيه من أمور لها دلالتها.

قصص أفراد مجتمع البحث

قد يقدم أفراد المجتمع للباحثين توصيفات مسهبة لأحداث شاهدوها أو عايشوها بصورة مباشرة، أو لما بلغهم من تصرفات الآخرين (أى. لما بلغهم من "شائعات ونميمة)، حيث يستعملون إحدى استراتيجيات السرد فى تجميع هذه الأحداث، أو الإشاعات، فى صورة قصة شخصية(١٤).

وقد توفر أمثال هذه القصص التى يرويها أفراد المجتمع رؤية ثاقبة لحقيقة الأفراد والأحداث التى تتناولها بالوصف. ومع ذلك، فإن هذه القصص تكون متحيزة دائمًا، وذلك من حيث أنها تُروى لأسباب كثيرة مختلفة، ولأنه يتم تكييفها وتعديلها لتتناسب مع مختلف العلاقات والأوضاع. وبهذا المعنى، فإنها قد توفر رؤية ثاقبة لحقيقة المشاغل الحالية لراويها ولظروفه الراهنة. تأمل، مثلاً، هذه القصة المسهبة التى رواها أحد ضباط المراقبة لأحد الباحثين:

> قال جيم Jim لى: "لقد فاتك هذا الحدث، يا رجل". أجبت قائلاً: "ما الذى حدث؟".
>
> سار جيم إلى آلة البيع ليحصل منها على وجبته الخفيفة المفضلة عنده. ثم بدأ يحكى لى أن والدين لشاب عمره واحد وعشرون سنة قد اتصلا به اليوم تليفونيًا وطلبا منه أن يلقى القبض على ابنهما. وكان هذا الابن قد خرج لتوه من "المنزل" [أى السجن]، وكان من الواضح أنه لم يذهب للحضور فى أول ميعاد لضابط المراقبة معه. وقال أبوه إنه عاد لتدخين مخدر "الكراك"(*) وإلى "التصرفات الفوضوية الحادة". وهو يقضى يومه لا يفعل شيئًا سوى تدخين الكراك، ويفضل البقاء فى الفراش... ولا يقوم من فراشه إلا ليأكل أو

(*) مخدر الكراك Crack شكل من أشكال الكوكايين عالى الإدمان. يصنع عن طريق خلط كمية صغيرة من الكوكايين مع صودا محمصه وماء. وبعد تجفيفه يكسر أو يفتت إلى حصوات صغيرة. ويدخن عادة فى غليون (بايب) خاص به. والكراك مخدر رخيص الثمن نسبيًا وشديد القوة والتأثير. (المراجع)

يذهب إلى الحمام. وقال الأب فى حوار جرى بالتليفون إنه لا ينبغى إعطاء ابنه حق الاختيار ما بين دخول السجن وإعادة التأهيل، وذلك لأنه سيفضل دائمًا اختيار السجن (عند اختيار دخول السجن، يكون بإمكان هذا السجين أن يعود للشوارع فيدخن الكراك مرة ثانية فى بحر شهر واحد فقط).

واصل جيم قوله فحكى لى أنه ذهب إلى بيت الفتى لإلقاء القبض عليه لأنه كان "شخصًا مملاً للغاية"... وعندما وصل، جعل الوالدين يوقعان على جميع الأوراق القانونية. ثم عندما فتح الباب ليقبض عليه، لاحظ جيم أن "مع الفتى ثمرة فراولة (أى بغى تبيع جسدها للحصول على المخدرات وليس المال)". وقد قال إن عملية إلقاء القبض على الفتى جرت بسهولة لأن هذا الابن "كان فى عزلة تامة عن أسرته"، وأنه "فى هذه اللحظة موجود فى البيت (أى: السجن)".

مع أن هذه القصة تتحدث عن فتى تحت المراقبة، إلا أنها تميط اللثام عن ممارسات ومشاغل ضابط المراقبة فى عمله المألوف، وعن مختلف الأبعاد والالتزامات التى تقوم عليها تلك الممارسات والمشاغل[١٥]. وبهذا المعنى، لا ينظر الباحثون الميدانيون إلى القصة التى يحكيها أحد أفراد المجتمع باعتبارها تصويراً حقيقيًا للواقع، ولكن بوصفها تعبيراً عن خبرة هذا المتحدث وتصوراته فى لحظة معينة من الزمن، وحال كونه متوجهًا بحكايته إلى جمهور محدد، ومن أجل أن يحقق أغراضًا معينة. والباحث هو الذى يقيِّم هذه القصص ويوثقها باعتبار أنها تلقى الضوء على خبرة ورؤية أحد أفراد المجتمع.

كما ينبغى على الباحثين أن يبحثوا عن ما حُكى من قصص مختلفة عن نفس الأحداث ويسجلونها. وقد تكون هذه الروايات المختلفة للقصص المذكورة قائمة على قدر ما من نفس التفاصيل، إلا أن من المرجح أن كل رواية منها تشتمل على تفاصيل غير موجودة فى غيرها، وأنها ترتب الأحداث بطرق مختلفة اختلافًا يسيراً، وأنها تقدم تفسيرات مختلفة للدافع والاستجابة. وعلى ذلك، فإن رواية أحد المدرسين لمعركة "حامية"

جرت فى أحد الفصول الدراسية مما يحكيه هذا المدرس لباحث ميدانى، قد تبدو مختلفة جداً عن روايتها الأخرى التى حكاها هذا المدرس فيما بعد لزملائه أثناء تناول وجبة الغداء. وعند كتابة المذكرات الميدانية، ينبغى على الباحثة أن تحتفظ بهذه الفروق إذا أسعدها الحظ بسماع كلتا الروايتين المختلفتين لنفس القصة.

وتقدم الروايات المختلفة للقصة الواحدة رؤية ثاقبة لإدراك الطرق التى يتبعها مختلف أفراد المجتمع فى صياغة نفس الحادث وفى فهمه[١٦]. مثال ذلك، أنه حدث فى دراسة للقصص التى يحكى فيها رواتها خبرتهم الشخصية، والمتعلقة بأحداث الشغب التى وقعت فى لوس أنجلوس فى أعقاب تبرئة رجال الشرطة الذين ضربوا رودنى كنج Rodney King ضرباً مبرحاً؛ حدث فى هذه الدراسة أن قام باحث من الطلبة الأمريكيين السود بإلقاء الضوء على الأصوات المختلفة (أى المواقف والرؤى المختلفة) لبعض الأمريكيين السود وهم يتحدثون عن خبراتهم المماثلة. وفى القصة التالية، مثلاً، يبدى الراوى ابتهاجاً شديداً بروح التآخى بين الأجناس المختلفة و"بروح الجماعة" الذى يشعر أنه يربطه بهؤلاء الذين يساعدون بعضهم فى "الاستيلاء على... هُشْ...، على الممتلكات الشخصية للآخرين"، فيقول:

> "أذكر بعد أن سمعت أن قرارات المحلفين (بتبرئة رجال الشرطة) أصبحت واجبة التنفيذ، وكنت قد سمعت ذلك وأنا فى المدرسة، وأنا فى حالة عدم تصديق، أن.. أن.. أى رجال الشرطة قد عـادوا يمارسون وظائفهم بعد تبرئتهم".
>
> "ثم.. ثم عدت لمنزلى، وكان أصدقائى يمرون بى ولم أكن أعلم أنهم كانوا على وشك الخروج للتظاهر. لذلك خرجت معهم وذهبنا لوسط المدينة، و... وبدأنا فى نهب الأشياء".
>
> "وكل ما أذكره أن هذا التصرف كان ـــــ شبيهاً بمجهود موحد وأن كل الناس كانوا موجودين فى الشوارع. وكان الأفراد الذين سبق لهم أن كانوا من أفراد العصابات المسلحين وغيرهم، كانوا كأنهم يساعدونك على

أن تأخذ الـ ../ هُشْ ـــــــ، تأخذ الممتلكات الشخصية للآخرين. كأن يقولوا لك: "أوه، هل تريد هذا الشيء أيها الرجل؟ هاك هو، سوف أحضره لك لتأخذه". وكان الأمر شبيهًا بشعوري، بـ، بـ، بنوع من روح الجماعة شائعًا في هذا المكان، شعور يصلك بمختلف الأجناس. أعني، أنه كان يوجد إسبان وكل الآخرين، وكنا جميعًا نلوّح بعلامة القوة ونمضي في الاستيلاء على ما نريده. و، يعني ــــــ هذا أساسًا كان ما جرى بعد ما سمعت أخبار تبرئة الشرطة لأول مرة".

وتحدثت جودى Judy، وهى امرأة متزوجة ومن ذوى الأملاك، تحدثت عن أحداث مشابهة وعن تجاربها الشخصية مستعملة ألفاظًا مختلفة جداً فقالت:

"تحدثت مع كثير من جاراتي. و، سألت الـ، هؤلاء اللاتينيين، لماذا تسرقون كل هذه الأشياء، ألا تعلمون أنه عمل ردئ، ألا تعلمون، ألا تعلمون".

"وقد كنت أنا وزوجي قد خرجنا نتمشى. لم يزد الأمر على الخروج للتمشية، وكما تعلم، لم نكن نؤذى أى إنسان، لأنه من اليسير أن تتجول في الشوارع وترى ما يجرى فيها".

"وأعجب الأمور، كما تعلم، أن واحدة من جاراتي، كما تعلم، قالت: "أتعلمين، إن ملابسي موجودة في المغسلة التي تقع في تلك الناحية". ولذلك بدأوا في التوجه إلى تلك الناحية ليروا ما إذا كان أولئك المشاغبين قد عاثوا فسادًا في المغسلة أم لا. وعندما وصلوا إلى ذلك المكان ــــــ وجدوا المتظاهرين قد وصلوا إلى المغسلة. وكانت ملابسها موجودة، وكان قد سبق لصبية مكسيكيين أن استولوا عليها – وأمرهم زوجي بأن "يعيدوا هذه الأشياء إلى هذا المكان". وقالت الجارة لهؤلاء الصبية "إنكم لن تستولوا على ملابسي إنكم لن تستولوا على ملابسي. إنكم لن تستولوا على ملابسي". وكان هذا هو السبب الرئيسي لذهابنا لتلك الناحية".

فى القصة الأولى يُعـرِّف الراوى الأمريكى الأسود نفسه بوصفه مشاركًا فعالاً فى "الاستيلاء على الممتلكات الشخصية"، جنبًا إلى جنب رجال العصابات المسلحين و"الإسبانيين" وغيرهم. وهو يحكى خبرته هذه باعتبارها رباطًا يجمع بين الناس من مختلف الأجناس، أو بمثابة نوع من "روح الجماعة" كان يسود هذا المكان.

وخلافًا لذلك، وابتداءً من مستهل القصة الثانية، تصور راوية أخرى من الأمريكيين السود الاتجاهات المتعارضة للأفراد وهم يمارسون أنشطتهم فى الشوارع، فالبعض يتمشون لمجرد الفرجة، بينما ينهمك غيرهم فى "أعمال السرقة". وقد بدأت بالإخبار عن مشاهدتها للأحداث وعن زجرها الشباب اللاتينيين عن "سرقة كل هذه الأشياء". وبعد ذلك تواصل كلامها بسرد حكاية ما جرى لجارتها التى كادت تكون ضحية لهذه السرقة: حيث تذهب الراوية وزوجها وهذه الجارة للتحقق مما يحدث فى المغسلة الخاصة بهذا الحى ويجدون "واحداً من الصبية المكسيكيين" يستولى على ملابس هذه الجارة، فيصرون على أن يقوم هذا الفتى "بإعادة هذه الأشياء إلى مكانها".

فالقصتان تكشفان الموقفين المختلفين اختلافًا شديداً للراويين إزاء المشاغبين، وتكشفان بصورة أكثر ضمنية، تصوريهما المختلفين لطبيعة حادث الشغب هذا ودلالته. وفى الكتابة عن هاتين القصتين، أشارت الباحثة الميدانية – وهى نفسها مواطنة أمريكية سوداء كانت موجودة أثناء حوادث الشغب المذكورة – أشارت إلى أن هذا المجتمع المحلى الإثنى لم يستجب لهذه الحوادث كمجموعة متجانسة، وإنما عبّر عن عدة آراء مختلفة. والواقع، أنه بالرغم من أن البعض سموا هذه الحوادث "شغبًا" فقد سماها غيرهم "ثورة أو تمرداً" ليعبروا بشدة عن تفسيرهم السياسى لما وقع فى هذه الأحداث من إشعال للحرائق ونهب للممتلكات. وعن طريق توثيقها الدقيق لهاتين القصتين المركبتين، استطاعت هذه الباحثة أن تلقى الضوء على الطرق المختلفة التى يتبعها الناس فى فهم حادث وقع فى مجتمع محلى ما.

المصطلحات والأنماط التى يستعملها المبحوثون وتنميطهم

يولى الباحثون الميدانيون اهتماماً شديداً بالمصطلحات أو العبارات التى يستعملها أفراد المجتمع عادة لتصوير البشر والأحداث. ويقل اهتمام كثير من أولئك الباحثين بالمصطلحات الرسمية والفنية التى تعكس ما تتطلبه البيروقراطية، والعلاقات العامة، والطبقة الحاكمة من رعاية للكياسة والتهذيب، فهم مشدودون إلى المصطلحات الخاصة بالحياة اليومية، والمصطلحات العامية، وتلك التى كثيراً ما تكون مصطلحات مستفزة. وهى جميعاً مصطلحات قد تكون معبرة ونابضة بالحياة أو فظة (مثال ذلك ما ورد عنها أنها "براز" "Shitwork" فى إيمرسون وبولنر ١٩٧٦؛ و"مؤخرة" "Assholes" فى مانين Maanen ١٩٧٨) والتى تعكس وتعبر عن الشئون العملية العادية.

تأمل بعض الأنماط المعروفة بين هؤلاء الذين يعيشون فى أحد دور الرعاية المخصصة لإقامة المرضى الذين سبق إصابتهم بأمراض عقلية (Shaw 1988: 282-320) فمن جهة، يُعرِّف العاملون بهذه الدار – من الأطباء ومساعديهم – بعض النزلاء بأنهم "متوازنون أو متماسكون" أو "متقدمون"، بما يعنى أنه من المرجو انتفاعهم بالعلاج وعثورهم – فى نهاية الأمر – على عمل واستطاعتهم أن يعيشوا حياة مستقلة. ويقارن العاملون بالدار هذا النمط من النزلاء بنمط "الفاشلين" – أى المرضى المصابين بأمراض مزمنة وليس لديهم إلا الحد الأدنى من المهارات والذكاء، والذين يُعتبرون غير قادرين أبداً على الإقلاع عن هذا النظام من الرعاية الصحية العقلية. ومن جهة أخرى، يدرك النزلاء وجود تقسيمات بينهم تقوم على أساس ما إذا كان الواحد منهم يعزز روابطه مع بعض النزلاء الآخرين، أم يميل نحو تطوير الروابط مع العاملين بالدار والفوز برعايتهم وعطفهم. وتضم المجموعة الأولى "المزعجين" "واختصاصى العلاج" و"مُحضِّرى الأرواح" و"الصبية المحبوبون" وهؤلاء الذين يتسكعون مع "مجموعة تعاطى المخدرات". ويطلق النزلاء على زملائهم الذين يميلون للعاملين بالدار ويهتمون بمشاغلهم "الملهمون العجائز" و"أصحاب السلطة والنفوذ". ومن الواضح أن الفروق الموجودة بين هذه المصطلحات المختلفة توحى بوجود فروق هامة بين المشاغل العملية للعاملين بالدار والمجموعات المختلفة من النزلاء.

وينبغى على الباحث الميدانى الذى يسمع أمثال تلك المصطلحات المحلية ألا يفترض أن لكل واحد منها معنى وحيداً ومتميزاً، بل الأولى به أن يدرس ما لها من ظلال المعانى، وما لها من مغزى يختلف بين الأفراد وفقًا لمواقعهم المختلفة داخل هذا المجتمع. مثال ذلك، أن دارسة ميدانية تقوم ببحثها فى دار مخصصة لرعاية الفتيات الجانحات فى مدرسة رايس Reyes للإصلاح سمعت كلاً من العاملين بالدار والنزيلات يتحدثون عن "الهمسات" "Buzzes"، وهو مصطلح يطلق على الرسائل الشخصية التى تكتبها نزيلة لأخرى، والتى كان العاملون بالدار يحظرون كتابتها بوصفها تعبيراً عن الانضمام إلى عصابة ما. وفى الحادثة التالية المسجلة فى دفتر مذكراتها الميدانية، تقدم الدارسة وجهة نظر إحدى النزيلات فيما يتعلق بعمليات البحث أو التفتيش التى يقوم بها العاملون بالدار للعثور على هذه "الهمسات" فتقول:

> ثم بدأت كيت Kate تتحدث عن مدى فرحتها الشديدة بسبب عدم تعرض حجرتها اليوم لأى عملية من عمليات البحث أو التفتيش، وذلك لأنها تتذكر أنها خلال الفترة الرابعة 4th Period ضُبطت فى حجرتها سبع رسائل من "الهمسات".

إلا أن مصطلح "الهمسات" كان له معان أو دلالات تختلف أشد الاختلاف بين العاملين بالدار والنزيلات. فقد كان العاملون يعتبرون رسائل الهمسات شكلاً من أشكال النشاط العصابى الذى قد يشعل حدة التوترات بين أفراد العصابات. وكانت الفتيات يصفن رسائل الهمسات ببساطة على أنها "رسائل حب" ليس فيها ما يدل على انتماء لأى تشكيلات عصابية أو أنشطة عصابية. تأمل، مثلاً، هذه التعليقات المستقاة من دفتر مذكرات تحليلية كتبتها هذه الباحثة الميدانية:

> وصفت ثلاث فتيات من نزيلات الدار رسائل الهمسات بالطرق الآتية:
>
> - كلوديا: "إنها تشبه الرسالة العادية... كرسالة الحب التى نكتبها للأولاد، أو التى يكتبونها لنا".

- كيت Kate: "رسائل غير مشروعة – لا تمر من خلال صناديق البريد ونجازى عليها بأربع وعشرين" [عقوبة الحبس فى غرفهن لمدة أربع وعشرين ساعة].
- داني: "رسالة صغيرة يتم إرسالها لأى فتاة أخرى صغيرة السن فى صورة خطاب مكتوب، وإذا عثر عليها مع واحدة منا، فلابد من أن تكابد عواقبها، كأن تعاقب بالحبس أربع وعشرين ساعة فى حجرتها".

ولا يقتصر أمر هذه التوصيفات على أنها تخلو من أى إشارة إلى العصابات، بل هى إلى جانب ذلك تفيد أن رسائل "الهمسات" لها أهميتها البالغة عند هؤلاء الفتيات لأنها تشتمل على الجانب الأهم المتعلق بما يقوم به العاملون بالدار من عمليات بحث وتفتيش صارمة، كما أنها تعرض الفتيات اللاتى يُقبض عليهن لعقوبة الحبس حسب القواعد المتبعة.

ولاستكشاف وتوصيل المعانى الأوسع، يكون من المفيد بذل الاهتمام بمدى التشابه أو الاختلاف بين استعمال مصطلح ما واستعمالات المصطلحات الأخرى ذات الصلة به. مثال ذلك، أن لشعب التشوكوى مصطلحات خاصة بأنواع مختلفة ومتعددة من "الأقوال أو الأخبار المروية" "Tellings"(١٧). وهم يميزون بين هذه الأقوال عن طريق استعمالهم لمقولات معرفية مختلفة، والتى تتميز عن بعضها بمصطلحات محددة وملامح تعبيرية خاصة كالبيان والأسلوب الأدبى، وعن طريق ممارستهم لسلوكيات اجتماعية مناسبة للأحوال المختلفة(١٨). مثال ذلك، أن مصطلح "كيوتا باندى" "Kuta Pande" يشير إلى محادثة غير رسمية ويدور حول الخبرات الشخصية الحديثة – والتى تروى عادة فى صورة مؤثرة ومبالغ فيها – وذلك عندما يتزاور الناس فى ساعات الأصيل وفى المساء. وإلى جانب ذلك، يشير مصطلح "كولويزا سانجو" "Kulweza Sango" إلى الحديث الذى يدور حول أخبار المجتمع المحلى أو أحداثه التى يعلم الناس أنها وقعت، وكثيراً ما يحكى الناس هذه الأخبار كجزء من التحيات التى يلقونها حين يمرون ببعضهم أو عندما يتزاورون. وخلافًا لذلك، يشير مصطلح "كيوتا ييشيما" "Kuta Yishima"

إلى رواية القصص التقليدية (وكذلك رواية الحكم التقليدية أحيانًا)، والتى يفترض فيها أنها قائمة على أساس أحداث حقيقية عايشها الأجداد وحكوها لغيرهم منذ زمن بعيد. ويصف الناس "الكيوتا بيشيما" باعتبار أنها "وصلت إليهم من الأجداد" وباعتبار أنها "تُحكى لتجعل منا حكماء". إلا أنهم يقرون بأن هذه الأقوال المروية تعد نوعًا من الحقيقة المصوغة فى قالب قصصى، والتى كثيراً ما يتم التدخل فيها وتحويرها أثناء روايتها فى الحفلات لتحقيق أهدافها فى التأثير والإقناع.

إلا أن هذه المصطلحات لا تحيط بصورة كافية بكافة الفروق التى يراعيها شعب التشوكوى. فرغم أنهم لا يستعملون مصطلحات خاصة للدلالة على كل نوع من الأقوال المروية، فإنهم يميزون فعلاً بين نوعين مختلفين من أنواع مصطلح "البيشيما" - وهما الأقوال المختصرة أو الحِكَم، والقصص الطويلة. ويستعمل الأفراد البيشيما القصيرة (أى الحِكَم) فى المحاورات غير الرسمية والرسمية (كما يحدث فى جلسات المحاكم مثلاً) لتأكيد ما يقولونه. وخلافًا لذلك، لا يحكى الناس البيشيما الطويلة إلا ليلاً عندما يجلسون حول النار فى زيارتهم لبعضهم وفى أثناء جلسات الترفيه عن أنفسهم. وفى هذه الأحوال الأخيرة يكون القصاصون مؤلفين مبدعين يتلاعبون بالألفاظ بهدف الفوز بالتجاوب الحماسى من السامعين. وبهذا الشكل يحكى القصاصون المختلفون روايات أو صيغًا مختلفة لنفس القصة، وتختلف نفس الصورة التى يروى بها القصاص قصته فى كل مرة يحكى فيها هذه القصة. وإذا تعرض الأفراد لضغط حتى يميزوا فى كلامهم بين نوعى البيشيما فقد يطلقون اسم "الطوال" ("بيشيما يسوكو" Yishima Yisuku) للتعبير عن القصص، أو "القصار" ("بيشيما يبينجى" Yishima Yipinji) للتعبير عن الحِكَم، إلا أن هذه الفروق لا يتم التعبير عنها بالكلام. زد على ذلك أن الأفراد، فى حالات خاصة، يقومون فعلاً - فى بعض الأحيان - بعمل تمييزات إضافية بين أنواع القصص، حتى بالرغم من أن كل هذه الأنواع معروفة باسم البيشيما. مثال ذلك، أنه عندما يرغب المستمعون فى المزيد من المشاركة فى حفلات الأداء بالغناء مع الراوى، فقد يطلبون سماع "تشيشيما - تشا - ميازو" "Chisjima-cha-Miaso" أى قصة تحتوى على أغنية)، حيث يُدخل الراوى أغنية يتكرر إنشادها داخل حبكة القصة.

والواقع أن على الباحثين الميدانيين أن يتنبهوا لما بين المصطلحات من فروق عارضة وموقفية تبعًا للمناسبات التى تقال فيها هذه المصطلحات، كما يفعلون مع المصطلحات الأكثر شيوعًا وانتشارًا. ورغم أن هذه الفروق قد لا تتضح فى أى ملاحظة أو مقابلة، فإنه بمرور الوقت وعن طريق كتابة المذكرات الميدانية والمذكرات السريعة تزداد هذه الفروق اتضاحًا أمام الباحثين. وعن طريق الالتفات للفروق التى يراعيها أفراد المجتمع بين المصطلحات المتقاربة، يقل احتمال قيام الباحث الميدانى بفرض فهمه لهذه الفروق، والمبنى على رؤيته المتحيزة إثنيًا. وكثيرًا ما يؤدى الانتباه الشديد لاستعمال المصطلحات فى المواقف أو الأحوال المتعددة إلى الكشف عن فروق إضافية داخل المقولات المعرفية التى يبدو على هذه المصطلحات فى بادئ الأمر أنها تشير إليها.

وفى بعض المواقف، ينبغى على الباحثين الميدانيين أن يركزوا على ما يدركه الأعضاء من أنماط رمزية. إذ أن الناس قد يشيرون إلى الأنماط الرمزية باستعمالهم لمصطلحات أو تعبيرات متميزة. مثال ذلك، أن الهيئات الاجتماعية - كالجمعيات الخيرية - تقوم فى العادة بالتمييز بين مختلف أنماط المترددين عليها، وذلك كما ورد فى التحليل الذى كتبته دارسة ميدانية عن ملاحظاتها فى إحدى عيادات الصحة العقلية المحلية:

> يُنظر إلى العميل المزمن على أنه ذو مستوى متدن من حيث القدرة على أداء الأعمال، وأن سلوكه غير اجتماعى، وأن لديه أعراضًا مرضية مترسبة (بمعنى أنه لا يزال يسمع أصواتًا ويرد عليها). وينظر العاملون بالعيادة إلى هؤلاء الأفراد باعتبار أنهم "صعاب المراس" وأنهم "يعيشون فى عالمهم الخاص بهم". وخلافًا لذلك، يُنظر إلى العميل "الواعد" باعتبار أن لديه فرصًا إيجابية لتطور حالته الصحية وأنه يبدى - أحيانًا - "أعراضًا" وقتية مخالفة "للأعراض" المستمرة التى تظهر على المريض "المزمن". وعادة ما يستعمل العاملون بالعيادة مصطلحات فى وصفهم لهؤلاء العملاء مثل أنهم "متعاونون"، و"أذكياء"، و"واعدون". كما يوجد فى هذه العيادة مرضى يُنظر إليهم باعتبار أنهم "يقومون ببذل جهد أكبر من المرضى المزمنين"، وأن لديهم إمكانيات

أكبر، وكذلك لديهم قدرات أكبر. وذلك كما جاء فى وصف جوليان Julian لأحد هـؤلاء المرضى، حيث قالت عنه: "حتى بالرغم من أن سام Sam يصاب بالاضطراب أحياناً، إلا أنه فتى طيب. إنه يحاول أن يكون كذلك، هل تدركين ما أعنيه؟".

وفى تحديدها لأنواع الأنماط الرمزية التى يستخدمها أفراد مجتمع البحث لم تقتصر هذه الباحثة على تفصيل المصطلحات التى يستعملها العاملون فى الإشارة إلى نمط ما، مثل "العميل المزمن"، و"العميل الواعد"، بل أضافت إلى ذلك أنها أدرجت توصيفات النزلاء لمختلف الأنماط فى تقريرها الميدانى فقالت فيه: إن أحد العملاء المزمنين يعانى من أعراض مستمرة، بينما يعد أحد العملاء الواعدين ذكيًا، ومتعاونًا، و"يحاول" أن يتحسن.

التباينات الداخلية

رغم أن الباحثين الميدانيين يسعون جاهدين لاجتناب وصف الأحداث والمجتمعات باستعمال مصطلحات لا تخصها (أى بمقارنتها بمجتمعات ومقاييس أخرى مألوفة للباحثين؛ انظر جيرنج Geering ١٩٧٠)، إلا أنه توجد مناسبات يستعمل فيها أفراد المجتمع أنفسهم مثل هذه الأوصاف. وقد توفر هذه الأنواع من "التبيانات الداخلية"(١٩) رؤى ثاقبة مفيدة لإدراك تصورات الأفراد وأحكامهم التقييمية. مثال ذلك، أن إحدى ضباط المراقبة، فى كلامها مع باحثة ميدانية، قامت بالمقارنة بين مدرسة رايس Reyes للإصلاح ونزلائها من جهة وغيرها من دور رعاية الأحداث المتعددة:

لما كان قد سبق لها أن عملت فى الدور التى يحتجز فيها الأحداث، فقد ذهلت للفروق الموجودة فى مدرسة رايس للإصلاح. ففى مدرسة رايس عاملون أقل صرامة من العاملين بدور الأحداث. "الشىء الخطير هنا هو رسائل "الهمسات" Buzzes، والتى لا تعنى شيئًا فى نظرى". وفى دور الأحداث لا يُسمح باستعمال أقلام الحبر ولا أقلام الرصاص، إلا أنه مسموح بها فى

مدرسة رايس. والمعادن غير مسموح بها في كل من دور الأحداث والمدرسة. وقد أخذت ضابطة المراقبة صفيحة معدنية وجدتها في حجرة كيت Kate خشية أن تستعمل كسلاح....

وقد وصفت الضابطة مدرسة رايس بأنها "مركز إبداع" تتلقى فيه الفتيات الصغيرات "علاجًا". "وهؤلاء الفتيات الصغيرات السن بارعات كل البراعة". أما الفتيان في دور الأحداث فيميلون إلى إخفاء الأشياء في عُلب بودرة الأطفال، ولكن هذا العمل لا يعد أمرًا خطيرًا هنا (أي في مدرسة رايس). وفي دور رعاية الأحداث "هناك دائمًا خطر محتمل الوقوع". ولكن هنا في مدرسة رايس لا يوجد خطر إلا في كون الفتيات يرغبن في التحدث مع الصبيان.

هنا تقوم الباحثة، وهي تدون مذكراتها الميدانية، بإظهار المقارنة التي تعقدها عضوة من العاملين بالدار بين هذه المدرسة الإصلاحية ودار رعاية الأحداث، والكتابة عنها في هذه المذكرات. ويقوم هذا التباين الداخلي بين المدرسة ودار الرعاية بإلقاء الضوء على فروق كثيرة موجودة بين موقعي العمل المذكورين ولها صلة بعمل هذه العُضَوة مثل: قلة اهتمام العاملين بالأخطار المحتملة، وزيادة أشكال الإشراف المتساهلة، وزيادة الجهود المبذولة "لمساعدة" الصغار. وفي مناسبات أخرى، يعقد العاملون المحليون مقارنات مماثلة بين مدرسة رايس ودار رعاية الأحداث، مؤكدين على ما تتصف به الأولى من "ليونة" بالنسبة للأخيرة.

وبالمثل، وفي مجال دوريات الشرطة، كثيرًا ما يعقد الضباط المقارنة بين أفراد الشرطة "الذين يكدون بشدة" وغيرهم من "الخاملين" الذين لا يعملون شيئًا سوى "قضاء وقت الدورية". وقد صور دارس ميداني هذا التباين تصويرًا دقيقًا في المذكرة التالية:

[يستعمل قادة الشرطة مصطلح "المجدين" للإشارة لضابط الشرطة الذي يبحث دائمًا عن الجريمة، وعن "خبطة جيدة"، وعن أي إنسان ليأخذه

إلى السجن. ومصطلح "الخبطة الجيدة" يشير إلى الشخص الذى يؤدى بحث الشرطة عنه إلى "عملية اعتقال سليمة". ويشير مصطلح "الاعتقال السليم" - وكما هو معروف - إلى أغلب عمليات القبض على مرتكبى الجرائم وعلى بعض عمليات القبض على مرتكبى الجنح (والتى منها مثلاً حيازة سلاح غير مرخص). وقد وصف أحد قادة الشرطة بعض عمليات الاعتقال السليمة مؤخراً فقال: "إن النشال الذى قبضت عليه كان شأنه عجيباً. ومنذ أسبوعين قبضت على أحد رجال العصابات ومعه مسدس عيار ٤٥ ملليمتر. وكان يرتدى صدرة (صديرى) مضادة للرصاص، كما كان معه بعض المخدرات. لقد كانت عملية القبض عملاً رائعاً"...].

[وخلافاً لذلك] فإن "المجدين" يصفون "الخاملين" بأنهم يقومون بعمليات اعتقال "حمقاء"، أى أن الواحد منهم يقبض على الأفراد لارتكابهم جرائم لا يعتبرها المجدون خطيرة، فهو يقبض عليهم لمجرد التسجيل فى دفاتر الشرطة. وهذه الدفاتر الشرطية عبارة عن سجلات شهرية عن الضباط العاملين بمركز الشرطة الذين قاموا بمعظم عمليات الاعتقال. أما الخاملون فينظر إليهم باعتبار أنه لا يشغلهم إلا الكم، أى عدد حالات الاعتقال التى يقومون بها، وليس نوعية عملية القبض. وقد علق قادة الشرطة مرة بأنه لا يريد العمل مع ضابط آخر، وهو "آل" AL، لأنه يشعر أن "آل" يقبض على الأفراد "لأتفه الأسباب" - كأن يجد أحدهم سكراناً أو ليس معه رخصة السيارة.

إن ما تتصف به المقارنة المعقودة هنا من أحادية الجانب لهو أمر لافت للنظر بصفة خاصة. فهؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم مصطلح "المجدين" يطلقون مصطلح "الخاملين" على هؤلاء الذين ينسبون إليهم أسلوباً آخر من أساليب القيام بالعمل. وفوق ذلك، فإن هذه المقارنة مشحونة بالأحكام القيمية إلى أقصى حد؛ "فالمجدون" يقومون "بخبطات جيدة" بينما "الخاملون" يعتقلون الأفراد "لأتفه الأسباب" لمجرد إرضاء رؤسائهم فيما يلحون به عليهم من أداء العمل الجاد. ونتيجة لذلك، لا توجد وسيلة للحكم على

ما إذا كان هؤلاء الموصوفون بأنهم "خاملون" يميلون إلى وصف أنفسهم بأنهم يساهمون في تطبيق اتجاه متميز من اتجاهات العمل في دوريات الشرطة، أم لا. وكذلك لا يوجد أي تقدير لوجهة النظر الأخرى إزاء عمل الشرطة والتي قد يعبر عنها هؤلاء الذين يصفون أنفسهم بأنهم "مجدين". فقد يبررون موقفهم بأن أسلوبهم في العمل يعكس خبرتهم ونضجهم، وهما الأمران اللذان يفتقدهما شباب رجال الشرطة العدوانيون، ذوو النزعات الميالة للعنف والحِميْة المفرطة. وفي ضوء ذلك، قد لا تصلح المقارنات الداخلية دائمًا كأسلوب لوصف مجتمع ما ككل، بل الأصح أن مثل تلك المقارنات تنبه الباحث الميداني إلى ملاحظة الفروق التي تصفها جماعات خاصة داخل مجتمع معين بأنها فروق حاسمة ذات دلالة.

أفكار المبحوثين وتفسيراتهم للأمور

ينبغي على الباحث الميداني أن يبحث عن، وأن يسعى إلى نقل ما يطرحه أفراد المجتمع من تفسيرات معقدة لمتى، ولماذا، وكيف تحدث بعض الأمور. والواقع أن الباحث ينحي جانبًا ميوله لتفسير متى ولماذا تقع أحداث معينة، وذلك لكي يسلط الضوء على ما يقدمه أفراد المجتمع من تفسيرات لهذه الأحداث. وبهذه الطريقة يسعى الباحث لاستخراج أو استقطار تصورات المبحوثين للأسباب التي تؤدي لوقوع أحداث معينة.

ومن باب الإيضاح لما سبق، تأمل دراسة لما قام به أحد الفروع المحلية لإحدى لجان العمل السياسي النسوي من أنشطة دعائية شملت الطواف على سائر بيوت إحدى المناطق. فقد كانت هذه اللجنة تسعى للحصول على تبرعات مالية وعلى توقيعات على التماسات تؤيد إصدار تشريع على مستوى الولاية لمصلحة النساء. وكان العاملون في هذه الحملة موزعين على مناطق معينة أو على "مناطق اختصاص" معينة على هيئة فرق، كل فرقة منها مكونة من ٤ إلى ١٤ شخصًا تحت إشراف مدير ميداني، وكانوا يتقاضون نسبة مئوية من التبرعات المالية التي يجمعونها زيادة عن الحد الأدنى المتفق

على جمعه منها. وقد اختلف أولئك الطوافون اختلافًا واسعًا في مقادير التبرعات المالية التي كانوا يجمعونها: فقد عمل بعضهم نوبة عمل كاملة وجمعوا مقدارًا قليلاً من التبرعات أو لم يجمعوا شيئًا، بينما جمع البعض الآخر ممن عمل في نفس المنطقة مئات الدولارات في أمسية واحدة.

وقد تكون هذه الاختلافات قد أغرت الباحثة – بصورة قوية – على تقديم تفسيرها الشخصي للسبب الذي جعل الطوافين يختلفون بهذه الدرجة الحادة في جمع التبرعات المالية. ولكنها بدلاً من ذلك حاولت أن تفهم أهم القضايا التي تشغل أولئك المشتركين في تلك الحملة. وعند طرحها لهذا الموضوع للنقاش، لاحظت أن الأفراد المشاركين في جهود جمع المال كانوا هم أنفسهم مشغولين انشغالاً عميقًا وعمليًا بالفروق الموجودة في أداء فرق الطوافين، كما لاحظت أن التفسيرات التي قدمها هؤلاء المشاركون لتعليل هذه الفروق كانت مختلفة تبعًا لوظيفة كل فرد في هذه المنظمة (إن كان من الفرق المتجولة أم من المشرفين) إذ كان الطوافون يؤكدون على وجود فروق بين "المنطقة الجيدة" و"المنطقة الرديئة"، زاعمين أنه لا يستطيع إنسان أن يجمع مقادير كبيرة من المال عندما يمر على جميع البيوت في المناطق السكنية التي يكون أغلب أهلها رافضين مسبقًا للمهمة التي يقومون بها. وقد كتبت الباحثة عن واقعة في هذا الصدد تقول:

> لقد أمضيت أسبوعًا صعبًا أطوف على جميع البيوت في بيتش سيتي Beach City لم يستطع أحد خلاله أن يجمع مالاً. وكان الفريق المكلف بالطواف يشتكي شكوى صريحة، وكان أفراده يرغبون في التخلي فورًا عن هذه المهمة لأن تلك المدينة كانت منطقة "رديئة"، كما كانوا منزعجين من عدم تجاوب الإدارة مع ما كابدوه من عناء.

أما المشرفون فكانت لهم تفسيرات مختلفة، وكانوا بصفة عامة يشتكون من وجود شيء من العجز في الأساليب التي يتبعها الطوافون. شاهد ذلك، أن الباحثة أوردت – على سبيل المثال – ما صدر عن أحد المشرفين من تعليقات تتصل بكيفية جعل الطوافين يركزون على تحسين مستواهم الضعيف في "الحديث عن المال":

يريد أفراد فرق الطوافين أن ينتقدوا ويلوموا طبيعة منطقة الاختصاص، وذلك لأنها تعد العنصر الأبرز اختلافًا بين الفرق. وهذا التصرف هو أكثر ردود الأفعال طبيعية. إلا أننا نريد أن نجعلهم يدركون أن ثمة عوامل أخرى مؤثرة تعمل عملها أثناء طواف الواحد منهم بالبيوت، مما يمكنهم التحكم فيها. فإن جمع فرد ما عدداً كبيراً من التوقيعات وتحدث مع كثير من الناس ولكنه لم يجمع إلا قليلاً من التبرعات المالية، فمعنى هذا إذن أنه قادر على الاتصال بالناس، وأن علاج الإخفاق فى جمع المال لا يعدو أن يكون مسألة التركيز على مستوى الحديث عن المال.

وقد خاض المشرفون وكبار الطوافين صراعًا متكرراً كان يدور حول تحديد ما هو الرأى الأدق فى تفسير هذا القصور، ومن ثم ماذا يمكن عمله لتخفيف حدة هذه المشكلة. مثال ذلك، أن استراتيجيات الإدارة لتدريب المشرفين أكدت على أهمية الممارسات التى من شأنها منع الطوافين من "لوم منطقة الاختصاص":

نصح أحد المستشارين واحداً ممن يحتمل تعيينه مديراً ميدانياً فقال له: "إذا أساء أحد الطوافين الأداء، فعليك أن تحول بينه وبين إلقائه اللوم على منطقة العمل حتى لو كان منفعلاً. وتصرف وكأنك مانعة صواعق عاطفية (أى: امتص غضبه) ولكن احتفظ بالحزم معه".

قامت مديرة من كبار المسئولين بتنبيه المديرين الميدانيين العاملين معها فقالت: "حينما تجمعون كل الطوافين عند حلول الليل، يجب عليكم أن تقوموا بما يسمى "محادثات الترنك" (أى الحديث المختصر). أى أن تنطلقوا إلى نقطة الانتظار التى يجمع منها أحد الطوافين التبرعات والتوقيعات، ثم تقفون بعيداً عن تلك النقطة قليلاً، ثم تقفزون فجأة لتصلوا إليه وتستخلصوا منه المعلومات المفيدة. فإذا كان قد أحسن العمل، فاسألوه عن الأمور المواتية التى حدثت له مما جعل أمسيته ناجحة. وإذا كان قد أدى عمله على نحو غير مرض فتمهلوا لحظة للاطلاع على صحيفة ساعات العمل الخاصة به

والتى قضاها فى هذه المنطقة، وقوموا بإجراء تحليل سريع للأمور التى جرت فى هذا المكان. فهذا التصرف من شأنه أن يدرب الطوافين على تحليل الأمور التى جرت فى هذه الأمسية بدلاً من إلقائهم اللوم - تلقائيًا - على طبيعة المنطقة".

نلاحظ فى هذا النموذج أن الباحثة الميدانية قد باشرت عملها بأسلوب دقيق عن طريق تتبعها لما لدى "أفراد مجتمع البحث" من آراء وتحليلات. ونظراً لأنها جعلت من هذه التفسيرات العملية - بما تتصف به من تغير فى طبيعتها وفى الدوائر التى تنتشر فيها - بؤرة تركز عليها تحليلها، فقد استمرت فى استكشاف ما لها من استعمالات عملية، وتفاعلية، وتنظيمية.

وأخيراً ينبغى على الباحث الميدانى أن يتنبه إلى أن الأفراد قد يطرحون أكثر من تفسير لحدث ما، كما أنهم، فى الواقع، قد يعبرون عما يبدو للباحث "تفسيرات متناقضة". فكثيراً ما يقوم الأفراد، وخاصة فى المجتمعات المتعددة الثقافات والمتعددة اللغات؛ كثيراً ما يقومون بالتنقل بين اللغات، وبين التوقعات الثقافية، وبين الأطر المختلفة لفهم وتقدير السلوك. وفى أفريقيا المعاصرة تعد هذه المرونة أمراً شائعاً. مثال ذلك أنه يحدث فى إقليم شمال غرب زامبيا أن يختلط ويتزاوج الأفراد من شعوب اللوندا، واللوفال، والتشوكوى، واللوتشازى، والمبوندا. يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الشباب قد أتموا الدراسة فى المدارس الثانوية التى تستعمل اللغة القومية الرسمية، وهى الإنجليزية. وفى هذا المحيط المتعدد اللغات، يستشهد الأفراد - عادة - بالأطر الثقافية المتعارضة. شاهد ذلك، أنه عند التحدث عن حالات المرض والوفاة الناجمة عن "الوانجا" "Wanga" (أى الشعوذة أو السحر)، فإن الشباب كثيراً ما يتنقلون بين الآراء المبنية على المعتقدات الموروثة والتفسيرات الطبية الحيوية التى تعلموها فى المدرسة. فعندما كان رجل يتحدث بلغة الكى - تشوكوى Ki-Chokwe مع الباحث الميدانى وعدد من جيرانه الآخرين، أخذ يتفكر فى سبب ما حدث لإحدى صديقاته من الشابات التى توفيت قبل الأوان، والتى ترافقت مع دعوى العراف المحلى بأنها ماتت بسبب "الوانجا" (أى السحر/ أو الشعوذة).

وفيما بعد، وفى أثناء شرحه لتفاصيل حياتها للباحث ولواحد من أشقائه مستعملاً اللغة الإنجليزية، تكلم عما عانته هذه المرأة من أعراض استمرت زمنًا طويلاً مما يدل على إصابتها بالسل وبالإيدز. ونظراً لأنه لا يرى أن أحد التفسيرين ينفى الآخر، فإنه عند تأكيده على التفسير الأول لم ينف التفسير الآخر: فالوانجا كان سبب الوفاة، وذلك بالرغم من أن السل أو الإيدز كان هو المرض الذى كانت مصابة به. وعندما يدرك الباحث الميدانى أن البشر يعدلون تفسيراتهم للأحداث بسهولة تبعًا لتغير هوياتهم الاجتماعية، أو أوضاعهم، أو لغاتهم، فإنه ينبغى عليه مراعاة الدقة عندما يسجل فى مذكراته الميدانية متى، وكيف، ولمن يشرح الناس أسباب ما فى آرائهم من تغيرات وتقلبات(٢٠).

ما يستعمله المبحوثون من تصنيفات: العمليات والمشكلات

إن ما يجرى على ألسنة أفراد المجتمع من توصيفات، وحكايات، وأنماط رمزية، وما يدور فى أذهانهم من أفكار وآراء، ومهما كانت ثرية ونابضة بالحياة، فإنها لا تقدم إلا منطلقًا للمذكرات الميدانية. ذلك أن ما يُكتب فى تقرير البحث الميدانى النهائى من مذكرات وتحليلات عميقة ومستوفاة لا تقتصر - فيما تتطلبه من شروط - على مجرد دراسة ما يستعمله أفراد المجتمع من مصطلحات، بل تشمل كذلك دراسة متى، وأين، وكيف يستعملونها، وإلى أى مدى يقومون فعلاً بتقسيم أو تصنيف الأحداث والأشياء الموجودة فى الظروف المختلفة.

وبغية إيضاح هذا المعنى، تأمل المذكرة الميدانية التالية التى قدمها دارس ميدانى له خبرة واسعة بالألعاب الرياضية، والتى يعرض فيها تعريفات لمصطلحات تستعمل للدلالة على هؤلاء المشاركين فى "أمسية رياضية مفتوحة" أقيمت فى حرم إحدى الجامعات المحلية:

> فى الأمسيات الرياضية المفتوحة توجد فئات وفئات فرعية مختلفة من الناس الذين يشاركون فيها. وتضم أكبر هذه الفئات: فئة الأفراد العاديين،

وفئة الزوار، وفئة المتنزهين. وداخل هذه الفئات توجد فئات فرعية كثيرة كذلك. ففي فئة الأفراد العاديين يوجد المبتدئون، والرياضيون السابقون (أي: قدامى الرياضيين)، والهواة ذوو المستوى المتقدم. والمبتدئون هم الأفراد الذين لم يسبق لهم مزاولة الألعاب الرياضية، ولم يلتحقوا بصف دراسي فيها، ولم يتلقوا دروسًا فيها، وهم الأفراد الذين اقتصر أمرهم على دخول الملعب ذات يوم لأنهم كانوا يرغبون في ذلك. والهواة ذوو المستوى المتقدم هم الأفراد الذين لم يكونوا قبل ذلك أعضاء في أي فريق رياضي، إلا أنهم التحقوا بصفوف دراسية أو تلقوا دروسًا رياضية، أو كانوا قبل ذلك معتادين على التردد عَرَضًا على الملعب. وأخيرًا، قدامى الرياضيين هم من كانوا يشتركون في المباريات إما على مستوى المدرسة الثانوية أو على مستوى الكلية... والزوار العرضيون طلاب لهم اهتمام قديم بالألعاب الرياضية ويرغبون في التعلم من قدامى الرياضيين.

يقدم هذا الوصف تنميطًا للقادمين إلى هذا الملعب (الجيمنازيوم): فهم مقسمون إلى فئة "أفراد عاديين" (وهؤلاء موزعون بدورهم إلى أنماط فرعية ثلاثة: "المبتدئون" و"الهواة ذوو المستوى المتقدم" و"القدامى"، وفئة "الزوار" والزوار العرضيون. إلا أن هذا التنميط - بوضعه هذا - لا يعرِّف إلا الفئات التي أمكن للباحث الميداني أن يتعرف عليها. وليس واضحًا أن الأفراد الموجودين في هذا المجتمع يطبقون هذه التصنيفات فعلاً على الآخرين (وعلى أنفسهم) أم لا، ولو فرض وأنهم قاموا بهذا التطبيق، فليس واضحًا متى، وأين، وتحت أي الظروف فعلوا ذلك. ومن ثم، فإن المشكلة مع هذا التنميط مشكلة مزدوجة: فنحن لا نعرف ما إذا كان أفراد المجتمع يعرفون ويستعملون مصطلحات كمصطلح "العادي" و"الزائر العرضي" أم لا يعرفونها ولا يستعملونها. والأهم من ذلك - إذا كانوا يستعملونها - أننا لا نعرف على وجه الدقة كيف، ومتى، ولأي الأغراض يستعملونها.

وبالإلحاح على الاهتمام بما يقوم به أفراد المجتمع من استعمال فعلي وظرفي (يرتبط بالمناسبات والظروف) لبعض المصطلحات والفئات الخاصة، فإن القضية هنا

ليست قضية "صحة" أو "واقعية" هذه التصنيفات بالمعنى التقليدى. بل المراد بيانه هو أن أى شىء أو حادث يمكن أن يصنف وفق أساليب متعددة؛ كما أن القول بأن بعض الأشياء/ أو الأحداث يمكن أن تصنف بأسلوب أو بآخر (أى على أساس اشتراكها فى هذا أو ذاك من السمات أو الصفات) ليس مبررًا كافيًا للتوصية باستعمال تصنيف دون غيره. ذلك لأن بإمكاننا دائمًا أن نستدعى أو نتخيل سمات أخرى من شأنها أن تقدم لنا أنواعًا مختلفة كل الاختلاف من التصنيفات(٢١). شاهد ذلك أن المشاركين فى الأمسية الرياضية قد يعترفون فعلاً، فى بعض الأحيان وابتغاء تحقيق بعض الأغراض؛ قد يعترفون بمصطلح "العاديون"، ومصطلح "الزوار"، ومصطلح "الزوار العرضيون" باعتبارها تصنيفات ذات معنى مفهوم. ولكننا لا نستطيع أن نستخرج حكمًا من هذا التوصيف، وذلك لأنه لم يُبذل فيه جهد للتعرف على الطريقة التى يتبعها أفراد المجتمع فعلاً فى كلامهم عن المصطلحات الأخرى وعن تمييزهم لها فى بعض المناسبات الخاصة؛ أى أن هذه الأنماط معروضة هنا بدون سياق التفاعل الذى تستخدم فيه، ومعروضة باعتبارها مناسبة فى كل زمان وفى كل مكان. ونظرًا لأن التصنيفات المتعددة الفئات ممكنة دائمًا (Heritage 1984: 144-50)، فعلى الباحث الميدانى ألا يفرض تصنيفات ما، حتى عند ابتدائه بالتصنيفات الداخلية (التى تسود بين الناس فى المجتمع المبحوث).

إذ الأولى به، وهو متنبه لاحتمال وجود تصنيفات محلية مناسبة، أن يدقق النظر فى الطريقة التى يتبعها أفراد المجتمع فعلاً فى تصنيفهم الأحداث التى تقع فى مناسبات معينة وابتغاء تحقيق أغراض معينة.

إذن، ينبغى ألا تقتصر المذكرات الميدانية على ذكر ما اتفق من المصطلحات الداخلية أو المحلية التى يمكن اكتشافها فى مجتمع معين. إذ أن الواجب الأهم لتلك المذكرات أن تصف بالتفصيل وجوه الاستعمالات الفعلية والظرفية لأمثال تلك المصطلحات. وتقدم الصفحات التالية نموذجين مسهبين للطريقة التى نجعل بها ما يكتبه الباحثون الميدانيون من مذكرات وكتابات أخرى أكثر حساسية وانتباهًا للاستعمالات التفاعلية للتصنيفات التى يتبناها عضو الجماعة فى تعاملاته مع الآخرين.

الحكى بوصفه فعلاً

تُروَى الحكايات لتحقيق أغراض محددة. والواقع أن الناس ربما يروون قصة ما لينقلوا ويدعموا تفسيراً معيناً للأحداث الماضية، أو ليوضحوا حقيقة العلاقات الجارية ليتمكنوا من تشكيل الأحداث المستقبلة. وعلى ذلك، فإن الموضوع الذى تدور عليه القصص يجب أن يتضمن النظر فى نوع الكلام المستخدم فى الحكى، ومع من يتكلم الراوى، والأغراض المعلنة أو الضمنية، بجانب النظر فى المؤثرات الأخرى للسياق الذى يتم فيه الحكى(٢٢).

تأمل الواقعة التالية التى جرت فى زامبيا عندما كانت راشيل فريتز R.Fretz تستعد لمغادرة إحدى قرى التشوكوى التى سبق لها ولمساعدها المحلى، مواتوشى Mwatushi، أن كانا يعملان بها طوال عدة أسابيع (فريتز، فى نص غير مؤرخ). فقد دعا والد مواتوشي زوجته وولده وهذه الباحثة الميدانية إلى منزله للقاء بمناسبة توديعها ولإبداء تمنياتهم الطيبة لها فى سفرها، قالت فريتز:

> حيا بعضنا بعضًا ثم أخذنا نتحدث عن موضوع سفرنا... قال [الوالد والمضيف] إنه كان فى غاية السعادة لأننى جئت للإقامة فى هذا المكان، وأنهم لم يعرفوا إلا أمس فقط أننى فى سبيلى لمغادرة المكان اليوم. ولولا ذلك لكانوا قد تمكنوا من أن يرسلوا معنا شيئًا (على سبيل الهدية). والآن ليس لديهم إلا ثمار البطاطا الحلوة، وربما أمكنهم عندما أعود إليهم فى المرة القادمة، أن يرسلوا معى شيئًا جيداً، كدجاجة مثلاً.

ثم بدأ يحكى، وأخذ صوته يتغير مع إيقاعات الحكى، وانطلق يقول...

"كان يوجد رجل تشيندلى Chindele (أى: شخص أجنبى/ أو أبيض) وكان له خادمان، وعندما عاد إلى وطنه ليتزوج، ترك بيته وكل ما يملكه مع خادميه ليقوما بحراستها له حتى يعود. بعد ذلك مكث الأجنبى فى وطنه مدة أطول مما كانا يتوقعانه، ولهذا قال أحدهما: "دعنا نغادر المنزل،

إنه لن يعود". إلا أن الخادم الآخر قال: "لا، إنه طلب منا أن نبقى هنا إلى أن يأتى". وغادر الخـادم الأول المنزل، وعندما عاد السيد، لم يكن موجوداً إلا خادم واحد ـــــــ".

وتوقف وقال: "آه، لا. لقد أخطأت. إن كلا الخادمين بقيا إلى أن جاء التشيندلى (الأجنبى). وقد جاء ومعه زوجته، وقال: "إننى سعيد جداً أنكما بقيتما هنا إلى أن حضرت، ونظراً لذلك، سوف أعطى لكل واحد منكما هدية صغيرة. إنها مجرد هدية صغيرة لكما تعودان بها إلى قريتكما، وإلى زوجتيكما. إنها هدية صغيرة لأننى استنفدت كل مالى فى الزواج، ولكن أرجوكما أن تأخذا هاتين الحزمتين الصغيرتين من العشب كهديتين". ثم أعطى كل واحد منهما حزمة صغيرة جداً من العشب.

"وهنا قال أحد الخادمين: "لماذا يتوجب علينا أن نأخذ هاتين الحزمتين الصغيرتين جداً إلى بيتينا، فنحن لدينا عشب كثير فى قريتنا". فقال الرجل الآخر: "لا، إنه أعطانا هاتين الحزمتين وطلب منا أن نأخذهما إلى قريتنا". وهكذا سافر الرجلان إلى قريتهما.

"وفى منتصف الطريق إلى قريتهما، قال أحدهما: آه، إن لدينا فى موطننا عشباً كثيراً ثم ها أنا أحمل معى هذه الحزمة الصغيرة. لا، لن أحملها معى. سوف أطرحها جانباً". إلا أن الرجل الآخر قال: "لا، إنى حامل حزمتى إلى القرية". وهكذا مضيا فى طريقهما.

"وعندما وصلا إلى قريتهما، أعطى أحد الرجلين زوجته حزمة العشب وقال: "إنها هدية صغيرة من التشيندلى مكافأة لى على مكوثى فى بيته حتى عاد. هاك إياها. ضعيها فى البيت". وهكذا ادخرت المرأة هذه الحزمة. وفى وقت لاحق بدأت السماء تمطر، وأخذ المطر يتخلل الفتحات الموجودة فى السقف، وعندها تناول الرجل عشبه وأصلح به السقف". وفى هذه الليلة ناما نوماً عميقاً.

"وفى الصباح، قام الرجل الآخر – وهو الذى طرح عشبه جانبًا – قام من نومه ونظر من النافذة. ونادى امرأته قائلاً: "تعالى انظرى بيت قريبنا، وهو الرجل الذى أصلح سقف بيته بالعشب الذى أعطاه له التشيندلى (الأجنبى)".

"فرأيا منزلاً كبيراً له سقف معدنى يتلألأ فى ضوء الصباح وله نوافذ وبه حجرات كثيرة. وفى فناء البيت شاهدا مركبتين، واحدة للرجل وواحدة للمرأة، واللذين خرجا فى هذه اللحظة وهما مرتديان ملابس جيدة".

"وهنا قال الرجل الذى طرح عشبه جانبًا: "يا زوجتى، هيا بنا نعد ماشيين على الطريق إلى حيث ألقيت العشب عسى أن نعود بالعشب ويكون لنا بيت جميل كذلك". إلا أنهما عندما وصلا إلى المكان الذى سبق للرجل أن ألقى فيه بالعشب، وجدا أن الحزمة تناثرت وأن العشب كله قد تحطم".

استمر الأب (الراوى) قائلاً: "وهكذا، فإنه بالرغم من أننا لا نملك الكثير لنعطيه لك – فليس لدينا دجاجة لنرسلها معك – فإننا نعطيك هذه الكلمات البسيطة لتحافظى عليها ولا تطرحيها جانبًا: بارك الله فيك ووفقك فى رحلتك. وحفظك الله حيثما تكونين.

فقلت له: "تواساكويلا" "Twasakwila" (أى: شكراً لك). لقد تلقيت الكثير منكم بالفعل. فقد تلقيت عونًا كبيراً فى عملى، والذى سوف يقوم ابنك وإياى بدراسته عندما نعود راجعين [إلى قريتى]. كما أننى أشكرك على هذه الكلمات التى سوف أحملها معى"...

وهنا قال: "إنه لأمر طيب أن تصطحبى ابننا معك.. وعليه أن يفعل كل ما تأمرينه به. فإن دعوتيه للذهاب معك، فسوف يذهب وإن طلبت منه البقاء، فسوف يبقى مكانه. وأيًا ما تأمرينه به فعليه أن يفعله".

[وبعد كلام كثير قدمته والدة "مواتوشى" أبدت هى الأخرى اعتذارها عن عدم إرسالها دجاجة معى]. ثم قالت: "إذن تفضلى بقبول هذه الهبة الصغيرة". وأعطتنى ورقة نقدية قيمتها ٥٠٠ كواشا [والتى، باعتبارها ثمنًا لدجاجتين، لم تكن هبة صغيرة فى نظرى]... وقلنا لهم: طابت ليلتكم ونعمتم بنوم هنئ". ثم غادرنا الدار].

هذه القصة عبارة عن هدية قدمت إلى الباحثة الميدانية بدلاً من تقديم دجاجة لها، كما أن فيها دعوة لها بسلامة رحلة العودة إلى قرية أخرى تعيش فيها. والوالد يقول ما يفهم منه أن هذه الدعوة التى تبدو فى الظاهر بسيطة بجانب تلك الهبة النقدية، واللتان تشبهان حزمتى العشب فى القصة، قد يؤول أمرهما إلى أن تصبح لهما قيمة رائعة. وهو يعطى الانطباع بأن هديتنا قد تكون ذات نفع عظيم لك، وذلك إذا كان لديك الإحساس المرهف بتلقيها على الوجه الصحيح.

زد على ذلك، أن هذه القصة بمثابة ميزندى Mesinde (أى حكاية رمزية ذات مغزى أخلاقى) يخاطب الناس بعضهم بعضًا من خلالها بشكل غير مباشر (فريتز ١٩٩٤) وتزودنا هنا بسياق نسمع فى ثناياه الحوار التالى عليها. فهذا الأب ينتفع بهذه الحكاية الرمزية فى طرح حوار حول العلاقات المتبادلة. إذ يواصل قوله بالتأكيد على أن ابنه مواتوشى لن يقتصر على العمل بغاية الإتقان من أجل الباحثة واتباع توجيهاتها بدقة، بل إن هذه الباحثة – كذلك – يتعين عليها أن تصير عائلته فى القرية البعيدة التى تعيش فيها فيقول:

"وهكذا فأنا أعهد إليك أن تحافظى عليه.. فالأمر إليك فى نصحه حتى يعيش حياة طيبة. وذلك لأنه وحيد فى ذلك المكان [ليس له أقارب فى القرية التى تسكنها الباحثة وتعمل فيها]، فأنت الآن أمه، وأبوه، وأنت الآن جدته وجده، وأنت أخوه وأخته. والأمر إليك فى الحفاظ عليه".

وتزودنا هذه الحكاية الرمزية بمعان ضمنية لكلمة "الخادم"، إذ توحى بأن من يقيم مع التشيندلى (الأجنبى) سوف (وينبغى أن) يكافأ بنفس ما كوفئ به الخادم المذكور

فى القصة والذى امتثل لتوجيهات سيده بدقة. إلا أن الأب - فى الحوار اللاحق - يعطى الانطباع بأن مواتوشى "ابنه" بوصفه فرداً من عائلة الباحثة سيكون أكثر ارتباطًا وولاءً لها أكثر مما يكون الحال لو أنه مجرد "خادم". من أجل ذلك، يستمر الأب فى كلامه بمناقشة إضافية لعمل مواتوشى فى خدمة الباحثة - معطيًا الانطباع بأنه ربما سيسافر معها فى رحلات طويلة. وبعد تقريره لهذه العلاقات بصورة قاطعة، يطلب الأب من الباحثة هبة ينبغى عليها أن تحضرها معها فى المستقبل فى حالة عودتها من أمريكا لزامبيا. ووفقًا لعادات شعب التشوكوى، لا يقتصر الأفراد الذين تجمعهم روابط وثيقة على تقديم بعضهم الهدايا لبعض، بل إنهم، إلى جانب ذلك، يطلبون من بعضهم، وبأسلوب مهذب، هدايا وخدمات من أجل ترسيخ وتثبيت العلاقة الطيبة بينهم. وباعتبار هذه الحكاية الرمزية شكلاً مهذبًا من أشكال الكلام، فإنها هيأت الطريق، بأسلوب كيِّس لطيف، لما قاله الأب من تعليقات وما التمسه من طلبات.

وموجز القول، أن هذه الحكاية الرمزية - والتى سمعتها الباحثة فى سياق كلام الأب - تقوم بطريقة بارعة ذكية بتعزيز ما أبداه الأب من تعليقات وطلبات مهذبة عن العلاقات المتبادلة، كما تقوم بتدعيم تلك التعليقات والطلبات من خلال ما توحى به من معان ضمنية أخرى. فقصة الأب ليست مجرد هدية مباشرة ودعوة صالحة لسلامة السفر، بل توحى إلى جانب ذلك بوجود علاقة مستمرة. فادعاء الأب بوجود روابط عائلية مع الباحثة ستكون فى الواقع فوائد لها على المدى الطويل. ولكن لولا تنبه الباحثة إلى أن هذا الحكى بمثابة ميزندى (أى حكاية رمزية) خاطبها الأب من خلالها بطريقة غير مباشرة، لما استطاعت أن تسمع ما كان يقوله على حقيقته.

مصطلحات أفراد المجتمع فى تعاملاتهم اليومية

من خلال خبرتها فى عمليات البيع بالعمولة، وجدت دارسة ميدانية أن البائعين الذين "يسرقون الزبائن" دائمًا وبطريقة مكشوفة يطلق عليهم زملاؤهم مصطلح "الثعابين" أو "أسماك القرش"، كما أنهم يكونون - بصورة عامة - عرضة لتشكيلة

متنوعة من أشكال الهجوم، والتوبيخ، والعقوبات التى تنزل بهم جزاء على سلوكهم. وإن من الأمور المغرية بالنسبة لباحثة ميدانية أن تكتفى بإقرار هذه التعريفات التى تطلق على بائعين معينين بوصفهم "ثعابين"، ثم تقارن بين الطريقة التى يتبعونها فى إقناع الناس أو التعامل مع الزبائن، ومع غيرهم من البائعين الذين لا يُصنفون تحت مصطلح "الثعابين". إلا أن الباحثين الميدانيين الذين يسلكون هذا الطريق سيتوصلون إلى توصيفات وتحليلات مبتورة للعلاقات القائمة بين العاملين فى هذه المواقع وليس إلى توصيفات وتحليلات متشابكة تهتم بالفروق الدقيقة بين هذه العلاقات. وسيخفقون، بصفة خاصة، فى محاولتهم التقدير والتوثيق الكافيين للعمليات التفاعلية على النطاق السياسى المحدود، والتى من خلالها يحكم بعض العاملين على غيرهم بأنهم "ثعابين" ويحاولون من خلالها أن يقنعوا زملاءهم فى العمل أن هذا هو الواقع. كما أن هؤلاء الباحثين الميدانيين سوف يخفقون فى التتبع الشامل للمعرفة المحلية ذات التركيب المعقد (جيرتز ١٩٨٣) والتى تعد الأساس الذى يقوم عليه أى استعمال سليم للمصطلحات التى يطلقها أفراد المجتمع فى أحوال أو ظروف خاصة.

ولتوضيح مدى ما يمكن إضافته من العمق والدقة إلى الأبحاث الميدانية عن طريق تدقيق النظر فى الإشكاليات المتصلة بالطريقة التى يتبعها أفراد الجماعة فى استعمالهم الفعلى للتصنيفات المحلية أو الداخلية، نتأمل المذكرة الميدانية التالية التى كتبتها باحثة تعمل بائعة فى متجر لبيع الملابس النسائية الغالية الثمن ذات الطراز الفاخر، والتى قامت بنفسها بدور كبير فى النزاع الذى جرى فى مكان العمل. وتقدم فيما يلى صورة تفصيلية له:

> كنت أساعد امرأة كانت تتسوق مع زوجها، وكان قد سبق لى أن اصطحبتها إلى غرفة الملابس الخلفية حيث كانت تجرب قدراً كبيراً من الملابس. وحينما تجرب زبونة كمية كبيرة من الملابس، فإن جميع الفتيات البائعات يلتفتن إلى هذه الزبونة وإلى من تساعدها. وحينما كنت أساعدها على اختيار ما يناسبها فى غرفة ارتداء الملابس، كان من الواضح أن على زوجها أن ينتظر خارج الغرفة. وعندما خرجت سأل الزوج إلين Ellen – التى تعمل

أمام مكان الدفع (الكاونتر) - عن سترة جميلة معلقة فوق مكان آلة صرف النقود. كانت السترة من ماركة أيسبرج Iceberg، وثمنها ٧١٠ دولارًا، ومرصعة بصورة مرسومة عليها مصنوعة من الخرز لتويتى Tweety وسلفستر. وقد سارع بإخبار إلين بأنه يريد شراءها كهدية لزوجته، وطلب منها أن تلفها قبل أن تخرج زوجته من غرفة تجربة الملابس. وبمجرد أن ظهرت لهما شاهدت إلين تكتب فاتورة الشراء. وقد أثار هذا غيظى. فقد كنت أساعد الزوجة، وهى وزوجها يعدان وحدة واحدة. فإن كنت أساعدها فإننى أساعده أيضًا. قالت إلين إنها لم تكن تعرف أننى كنت أساعد زوجته فى غرفة الملابس الخلفية عندما سألتها عن سبب كونها لم تتح لى أن أساعده. لم أصدقها. كانت هذه البيعة كبيرة بشكل بالغ وكان من السهل عليها أن ترفضها. لذلك، فإنه عندما ظهرت الزوجة ومعها ما يساوى ٥٠٠ دولارًا من الملابس التى تريد شراءها، عند ذلك أشار إلى كل من بات Pat وجين Jane، واللذان يشرفان على الكاونتر، أشار إلىَّ بعيونهما كأنهما لا يستطيعان أن يصدقا ما فعلته إلين فى هذه اللحظة... فقد استولت على زبونى بالخديعة، وقد فهمنا نحن جميعًا حقيقة الأمر.

واجهت إلين وقلت إن ما فعلته كان خطأ، مضمنة كلامى ما يفيد أنها "ثعبان". تحولت إلى وضع دفاعى متوتر. وقالت: "اسمعينى للنهاية وبعدها سوف أنصت إليك". وبعد أن سمعتها حتى انتهت من كلامها، بدأت الكلام لكنها قاطعتنى فى منتصف الجملة التى كنت أقولها، وقالت: "دعينا نذهب إلى "سامى" "Sammie" [المديرة]. وفى خلال ذلك الوقت، أخبرنى بات وجين كلاهما أن هذه البيعة يجب أن تكون كلها خاصة بى (أى لا يحصل على عمولتها أحد غيرى). صعدت للدور العلوى لأتكلم مع "سامى" وحدى أولاً، ثم سألتنى "سامى" عما إذا كنت أرغب عمولة فى هذه البيعة كلها أم فى نصفها. قلت إننى أعتقد أننى أستحقها كلها، ولكننى سأتقاسمها معها إذا أدركت ما وقعت فيه من خطأ. وحينئذ أخبرتها "سامى" بأنه يتوجب عليها أن

تتقاسم العمولة معي. وعندما ذهبت مسرعة إلى إلين لأقول لها إنه لم يكن من اللائق أن تقاطعني وأنا أكلمها قبل ذلك، قاطعتني ثانية وهي تقول: "انتهى الأمر".

بادئ ذي بدء، لاحظ أحادية الجانب الصريحة في هذه الراوية الواردة في هذه المذكرة الميدانية: فكاتبتها لا تأخذ موقف طرف محايد لا صلة له بالموضوع، بل تقدم نفسها بشكل واضح على أنها إحدى بطلتي القصة الرئيسيتين. وهذه الرواية رواية سياسية بشكل صريح، إذ أنها "تقيم الدعوى" التي تتهم فيها إلين بأنها "سرقت زبوني عن طريق الخداع". ويبدو أن هذا الاتهام محل اعتراض، ولو جزئيًا، من جانب إلين، والتي نسب إليها قولها أنها لم تكن تعلم "أنني كنت أساعد زوجته في الغرفة الخلفية" والتي رفضت بوضوح أن تتخلى عن استحقاقها للعمولة(٢٣). وتتجاهل الكاتبة هذه الاحتمالات وهي تعرض ما لها من مبررات خاصة تقيم عليها دعواها، وهذه المبررات هي أنه: ينبغي على أي شخص جدير بالاشتغال بالبيع أن "يعرف" أن الزوج والزوجة بمثابة "وحدة" واحدة، وأن من شأنه أن يتعامل بكياسة ولطف مع الزبون الواعد الذي يجرب كمية كبيرة من الملابس. وقد فسرت الأطراف الأخرى الموجودة بهذا الموقع ذلك الحدث بنفس الطريقة التي فسرته بها الكاتبة؛ كما أن الشخصية التي تمثل السلطة الداخلية قد سوَّت هذا النزاع فعلاً بطريقة تؤكد رواية الكاتبة.

وتقوم الظروف التي جرى وصفها بالتفصيل في هذه الحكاية الواردة في تلك المذكرة الميدانية، تقوم كذلك بلفت النظر إلى أصول التعامل بين الأفراد الذي جرى ليجعل بالإمكان تعريف هذه الواقعة ومعالجتها باعتبار أنها "احتيال". ومع أن هذه الواقعة تنتهي إلى أن يعالجها الأفراد الآخرون الموجودون في هذا الموقع، وفيما يظهر في معاملاتهم مع بعضهم، باعتبار أنها حالة من الحالات التي اصطلح على تسميتها "سرقة زبون". إلا أن هذه النتيجة غير قابلة للتنبؤ بها مقدمًا، إنما تبدو أثناء الظهور التدريجي لهذه المعاملات، أي عندما كان الطرفان المختلفان (وهما الكاتبة وإلين) تتقدمان - بصورة متعاقبة - بمطالبهما وتفسيراتهما وتنشدان العون من زملاء العمل

وتستمدانه منهم. وبصورة عامة، فإن من الأمور الهامة بالنسبة للباحثين الميدانيين أن يبحثوا عما وراء الاستعمال البسيط لمثل هذه المصطلحات التى يتداولها أفراد الجماعة، حتى يتمكن الباحثون من تقديم ما تنطوى عليه هذه العمليات من سمة ضمنية ذات طابع سياسى على النطاق المحلى المحدود. وفى قضية "الاحتيال" هذه، قامت تلك الكاتبة، وبوصفها باحثة ماهرة، بشق طريقها للوصول إلى ما وراء الدعوى المجردة بأن شخصاً آخر "سرق زبوناً" لتبحث الطريقة التى يتبعها البائعون فى تقرير حقوقهم فيما يخص زبائن معينين، ومتى وكيف يتم تجاهل أو تجاوز أمثال تلك الحقوق، وكيف يؤكدون ويعززون هذه الحقوق، وكيف تُبسط الحقوق والتفسيرات المتعارضة وكيف يتم حلها وتسوية الأمر.

زد على ذلك أن هذه الرواية تشير إلى الطريق المفضى إلى تقدير أهمية المعرفة المحلية الشاملة، والمطلوبة لتوجيه اتهامات مقنعة "بالاحتيال". خاصة وأن الادعاء بأن بائعة أخرى "سرقت زبونى" يفترض وجود معرفة سابقة بمجموعة كاملة من الأعراف والممارسات المتعلقة "بأحقية البائع فى الزبائن". وفى غير هذا المكان بدأت الدارسة الباحثة فى تقديم صورة إجمالية لهذه الأعراف والممارسات بالكلمات التالية:

> بعد سؤال الزبونة عما إذا كانت ترغب فى أى مساعدة، تقف البائعة على مقربة منها، فإذا تقدمت نحوها أى فتاة أخرى من البائعات، حينئذ يمكننا أن نرفع صوتنا باسم هذه البائعة. وعندما تنظر إلينا، فيمكننا أن نشير إلى تلك الزبونة، ملمحين إلى أننا قد سبق أن سألناها عما إذا كانت ترغب فى أى مساعدة ومضمنين تلميحنا معنى أنها أصبحت "زبونتنا". فهذه هى الطريقة التى بها نحافظ على أحقيتنا فى الزبون العادى الذى يدخل المتجر قادماً من الشارع.

ومن ثم فإن مصطلح "سرقة زبون" يفترض أن بائعًا ما قد تجاهل - بشكل واضح - هذا النوع من الأحقية المؤكدة. والواقع أن الرواية التى تتعرض لواقعة السترة التى من ماركة أيسبرج لتؤكد كيف أن هذه الجانية المتهمة "كان يتوجب عليها أن تعرف

أن هذه الزبونة قد أصبحت مميزة بعلامة تخصها ومفادها أنه: "عندما تجرب زبونة ما كمية كبيرة من الملابس، فعلى جميع البائعات أن يتنبهن إلى تلك الزبونة وإلى من تساعدها". وبهذا المعنى، فإن المصطلح الذى يستعمله الفرد فى هذه الجماعة يفترض مسبقًا وجود معرفة وعرف خاصين (متفق عليهما داخل الجماعة) كما يقوم بترميزهما، وهما الأمران اللذان تريد الباحثة أن تميزهما وتصفهما بالتفصيل.

ولما كان الباحثون الميدانيون يبذلون اهتماماً شديداً بمقاصد المبحوثين، فإنهم يبدأون بتقدير مدى ما يبذله الأفراد من جهد تفاعلى وسياسى لخلق هذه المقاصد. وبالتصرف وفق هذه الطريقة، يتعلم الباحث الماهر استكشاف المعرفة التى تشكل الأساس الذى تقوم عليه الحقوق والأحكام الضمنية التى يحكم بها الأفراد على الأحداث. وبجانب ذلك، تكشف هذه الأغراض والأحكام - التى تكون فى غالب الأحوال أموراً مستبطنة غير معلنة بصراحة - أن الباحثين الميدانيين لا يستطيعون أن يحددوا مقاصد أفراد الجماعة تحديداً كاملاً من خلال المقابلات أو الاستفسار غير الرسمى. لذلك يتوجب على الباحثين ألا يقتصروا على إدراك المعرفة المحلية بناء على ما يقوله الناس فقط، بل من خلال "كلامهم أثناء التعاملات فيما بينهم"، إنه يتوجب عليهم أن يتنبهوا لما يفعله الأفراد فى علاقتهم بالآخرين حتى يولِّدوا معان ومقاصد خاصة وذات ارتباط بمواقف معينة.

السلالة، والنوع الاجتماعى، والطبقة، والمعانى التى يقصدها المبحوثون

لأن الباحثين الميدانيين ملتزمون ببحث مقاصد المبحوثين وخبراتهم، فإنهم يحرصون على تناول الأهمية النسبية للنوع الاجتماعى، أو السلالة، أو الطبقة فى الحياة اليومية بطرق تختلف اختلافًا له مغزاه عن الاتجاهات النظرية الشائعة التى تطرح فروضًا وتعريفات مسبقة. وحتى بالرغم من أن الباحث الميدانى - شأنه فى ذلك شأن سائر المفكرين النظريين - قد يفترض منذ البداية أن هذه القضايا تعد أموراً

هامة يجب العناية بها دائمًا من أجل فهم الحياة الاجتماعية الحقيقية، فإنها تقرر الأولوية بناء على الطريقة التى يتبعها الأفراد أنفسهم فى التعامل مع قضايا النوع الاجتماعى، والإثنية، والطبقة ضمن الديناميات المتعلقة ببعض الأحوال والأوضاع الخاصة.

وقد تعرض هذا الموقف الفكرى الإثنوجرافى من قضايا النوع الاجتماعى، والإثنية، والطبقة للنقد من نواح مختلفة. ويؤكد أحد الاتجاهات النقدية أن البحث الميدانى لا يستمد شكله ولا جوهره من النظريات التى قد تمكن الباحث الميدانى من الارتفاع فوق مستوى النظرة المحدودة إلى الأحداث المعينة (التى يرصدها فى الميدان - المترجم) وتتيح له الكتابة عن القوى الاجتماعية الأكثر عمومية. ويرى اتجاه نقدى آخر أن المعالجات الميدانية لقضايا النوع الاجتماعى، أو الإثنية، أو الطبقة مقيدة تقييداً بالغًا بالمشاهدات الإمبيريقية: وهذا معناه أن البحوث الميدانية تصف مواقع وأوضاعًا خاصة بسبب كونها معزولة عن الأبنية والقوى الاجتماعية الأوسع نطاقًا والتى لها التأثير الحاسم فى التحديد المسبق للأحداث الخاصة والحياة الفردية.

ومن المؤكد أن كلاً من هاتين النظرتين النقديتين تلقيان الضوء على مجالات يختلف فيها الاتجاه الفكرى الإثنوجرافى من قضايا النوع الاجتماعى، والإثنية، والطبقة عن الاتجاهات النظرية الأوسع نطاقًا. ونظراً لأن الباحثين الميدانيين ملتزمون بدراسة المعانى التى يقصدها المبحوثون وخبراتهم، فإنهم أشد انجذاباً للمفهوم الذى أطلق عليه جيرتز Geertz (١٩٧٦) مصطلح "الخبرة عن قرب"Experience-Near" فى مقابل مفهوم "الخبرة عن بعد" "Experience-Far"، ومن ثم فإنهم - بصورة عامة - يعطون هذه المعانى أولوية على النظريات البديهية المسلم بها مسبقًا. وإذ يُعلى الباحثون الميدانيون من قيمة المحلى والخاص، فإنهم يمعنون النظر فى دقائق الحياة اليومية بأسلوب يتسم بالتركيز بدلاً من النظر إلى الأنماط العامة بأسلوب واسع وشامل. ومن المؤكد أن الإثنوجرافيين يفضلون أن يفهموا التأثير المباشر للأبنية الاجتماعية، وذلك بدلاً من أن يسلموا بأهميتها ونتائجها منذ البداية. ومن النظرة الأولى، يبدو أن

هذا الاتجاه الفكرى المسمى "الخبرة عن قرب" يتسبب فى خلق خلافات بين الإثنوجرافيا والنظريات فيما يتعلق بنتائج الأبنية الاجتماعية الأوسع نطاقًا. ومع ذلك، فإن بعض هذه الخلافات الظاهرية تخف حدتها، بل ربما تختفى، عن طريق تدقيق النظر فى الأساليب المختلفة التى بها يستطيع الباحثون الميدانيون - وينبغى عليهم - أن يجسروا الهوة بين التزامهم بدراسة المعانى التى يقصدها المبحوثون من ناحية، وبين اهتمامهم بقضايا النوع الاجتماعى، والإثنية، والطبقة من ناحية أخرى.

وعلى المستوى المبدئى جداً، ينبغى على الباحث الميدانى الذى له اهتمامات قوية بقضايا النوع الاجتماعى، والإثنية، و/أو الطبقة أن يتحرى الدقة فى اختيار الموقع الذى يجرى فيه بحثه الميدانى والذى يتوقع أن تكون فيه واحدة أو أكثر من هذه العمليات ظاهرة بصفة خاصة. وفى اختياره لموقع ما، ينبغى على الباحث أن يفتش عن بيئة لا يقتصر أمر قضايا النوع الاجتماعى، والتنوع الإثنى أو الطبقى على مجرد كونها شديدة الوضوح، بل حيث تشغل هذه القضايا بال أفراد المجتمع كذلك. ومن أمثلة هذه البيئات بيئة قوات الشرطة التى تشهد أعداداً متزايدة من النساء أو المجندين المنتمين لإثنيات مختلفة، أو المدارس التى بها تجمعات طلابية متنوعة إثنيًا. يضاف إلى ذلك أن على الباحث أن يختار دراسة الأحداث التى من خلالها يعالج أفراد المجتمع هذه القضايا علاجًا مباشراً. مثال ذلك، أن على الباحث الميدانى المهتم بقضايا النوع الاجتماعى أن يتحرى بحث المناسبات التى يقوم فيها الكبار بتعليم الجيل الذى يلى جيلهم. ففى كثير من المجتمعات تركز طقوس الاحتفال بدخول بعض الأفراد فى جماعة جديدة على تعليم الشباب الأدوار والمسئوليات المتعلقة بالنوع الاجتماعى. يشهد لذلك أن شعب التشوكوى فى زامبيا يعتبر أمثال تلك الطقوس - التى منها طقس "الموادى" "Mwadi" الخاص بالفتيات إذا بلغن سن المحيض، وطقس "الميوكاندا" "Mukanda" الذى يؤدى عندما يُختن الصبيان - يعتبرها من الأحداث الهامة فى القرية، والتى تقدم معلومات صريحة عن تصورات النوع فى ذلك المجتمع.

والواقع أن قدرة الباحث الميدانى لا تنحصر فقط فى اختياره لبيئة وأحداث تركز تركيزاً مباشراً على النوع الاجتماعى، أو الإثنية، أو الطبقة، بل إنه ينبغى عليها كذلك

أن تصمم مشروع بحث ميدانى بدقة وإحكام، بحيث يكون وثيق الصلة بإحدى القضايا الفكرية المستمدة من الاهتمامات المشار إليها. ذلك أن الباحثين المعنيين بعملية إعادة إنتاج الفوارق الطبقية عن طريق التعليم المدرسى قد يحتاجون لمتابعة تقدم مجموعة من أبناء الطبقة العمالية على امتداد فترة زمنية داخل مدرسة معينة (Willis 1977). أو ربما يبحثون بصفة خاصة ما يقوم به المستشارون التعليميون من إصدار أحكام متفاوتة على الطلبة أثناء تتبع أولئك المستشارين لمسيرة أبناء الطبقة العاملة وأبناء الطبقة المتوسطة (Cicourel and Kitsuse 1963).

بمجرد أن يوجد الباحث الميدانى فى مجتمع بحث معين، ينبغى أن ينصب اهتمامه الأول على استكشاف مغزى الأمور المتصلة بالنوع الاجتماعى، أو الإثنية، أو الطبقة فى نظر هؤلاء المبحوثين. وتتطلب إحدى الخطوات الأولى فى هذا الاتجاه بذل الاهتمام الشديد بأى مناسبة يتحدث فيها الأفراد حديثًا صريحًا عن و/ أو يتعاملون معاملة مباشرة مع بعضهم على أساس السلالة، والنوع الاجتماعى و/ أو الطبقة. مثال ذلك أنه بدلاً من أن يُسلم الباحث الميدانى بأن الإثنية تعد دائمًا عاملاً سببيًا يترتب عليه ظهور سلوك ما أو وقوع حدث معين؛ بدلاً من ذلك فإنه يسعى لأن يصف - بالتفصيل - أى تفاعل تصبح فيه الهوية الإثنية موضوعًا للاهتمام المشترك. وفى المذكرة الميدانية التالية يصف دارس ميدانى ما حدث عندما قام مدرس فى مدرسة ثانوية للطلبة الأمريكيين السود بفتح باب النقاش فى مسألة العلاقات بين البيض والسود فى حصة دراسية عن تاريخ الأمريكيين السود فقال:

> ثم اختار مستر "بى" .B الطالب دابو Dapo. قال دابو إنه انتقل منذ وقت قريب إلى الوادى، أى إلى منطقة ساوثلاند هيلز Southland Hills بالتحديد. أدى هذا التعليق إلى أن قال الطلبة باندهاش "ياه! ياه!" عدة مرات. صرّ دابو على أسنانه. وقال إن المنطقة التى انتقل إليها هى إحدى "أحياء البيض". وقد حدث له ذات مرة أن كان يسير فى الشارع قريبًا من منزله فمر بطفل صغير أبيض يلعب فى هذا المكان. رأى والدا الطفل دابو،

فأمسكا بالطفل وسحباه إلى داخل منزلهم. كان دابو أقرب إلى الضحك وهو يحكى هذه الواقعة. وقال إنه كان يريد أن يخبر الناس قائلاً لهم: "إننى أسود فعلاً، ولكننى لن أقتلكم". انفجر بعض زملاء الفصل ضحكًا وتحادثوا فيما بينهم. واصل دابو كلامه فقال: "إن أبواى من المولدين(*)... إنهم جميعًا (ويخفض صوته ليقول عبارة جانبية) "إنك لست أسود فى الواقع". إن أقاربى من أبناء العمومة والخؤولة لهم أعين زرقاء وشعر أشقر وكل ذلك...". يواصل كلامه؛ بينما تظهر على صوته علامة القوة والثبات، فيقول: "إننى أسود. إننى إنسان أسود... إننى فخور بأننى أسود".

تنقل لنا هذه القصة عدداً من أبعاد وتناقضات الهوية الإثنية التى لها أهميتها الواضحة عند طالب بإحدى المدارس الثانوية. فنحن نرى، مثلاً، هذه التوترات المعقدة التى توجد بين من يخبره والداه قائلين له: ("إنك لست أسود فى الواقع") ومن هو فى نظر جيرانه وفى نظر زملاء الفصل ("أنا أسود").

ومع ذلك، فإن الأهمية التى يعزوها الأفراد للنوع الاجتماعى، أو السلالة، أو الطبقة قد يتعذر على الباحثين الميدانيين إثباتها بالوثائق، لأن الناس لا يذكرونها دائمًا فى كلامهم بطريقة مباشرة. وقد يشعر الباحث، فى بعض الأحيان، أن الأفراد يتصرفون فى العادة مع بعضهم البعض بطرق "طبقية" أو طرق متأثرة "بالنوع الاجتماعى". ورغم ذلك فإنهم قد يكونون عاجزين عن التحديد الدقيق لكيفية حدوث هذا التصرف بهذا الشكل، أو قد يعجزون عن تسجيل مشاهد خاصة أو تصرفات بعينها أشير فيها إشارات صريحة إلى تلك الأمور الهامة. لذلك قد يكون من الصعوبة الشديدة تعيين هذه المسائل وإثارتها عند كتابة المذكرات الميدانية. وفى أحوال أخرى، قد يتوقع الباحث أن تكون قضية النوع الاجتماعى، أو قضية السلالة، أو قضية الطبقة ذات أهمية عند المبحوثين، إلا أنه يكتشف أنهم يعجزون عن التعبير عن هذه العوامل. وفى مثل هذه الحالات،

(*) الكريول Creole: أى من الذين يجرى فى عروقهم مزيج من دماء الأوروبيين والملونين. (المترجم)

يتـوجب على البـاحث أن يشق طريقـه ليـصل إلى مـا وراء الاسـتـعـمـال الصـريح للمصطلحات ذات الصلة بهذه القضايا، بحيث يقوم بإجراء المزيد من الملاحظات المنظمة حتى يميز أنماط الأنشطة التى تعكس الأهمية النسبية للنــوع الاجتماعى، أو الإثنية، أو الطبـقة.

مثـال ذلك، أن فريتز Fretz، فى دراستـها عن قص الحكايات فى قرية من قرى شعب التشوكوى، كانت تُخبَر دائماً بأنه "بمقدور أى إنسان أن يروى قصص اليشيما Yishima". وفى الواقع، كان يحدث فى أغلب القرى أن تجد الرجال والنساء، والبالغين والصغار يروون القصص وهم جالسين مع أسرهم حول النار. ولكن حدث عندما كانت تقوم ببحثها فى قرية الزعيم الأكبر، أنها لم تستطع بعد الليلة الأولى من إقامتها حيث قامت خلالها إحدى النسـاء برواية إحدى القصص داخل التشوتا The Chota ("المندرة" الكبيرة للزعيم)؛ لم تستطع بعدها أن تجد أى امرأة تقبل أن تحكى قصة. وعن طريق الملاحظة المستـمـرة والتـفكير المتواصل، فطنت فى النهـاية إلى أن الزعيم لا يكتـفى فحسب بالسيطرة المستمرة على عملية سرد الحكايات، بل يطلب كذلك أن يجرى قص جميع الروايات فى "مندرته"، وهى مكان يتلاقى فيه الرجال ليتحادثوا، وتقوم فيه النساء – فى حالة دعوتهن للحضور – بالمشاركة عن طريق المجاوبة والغناء. وعلى ذلك، فإن الأسئلة التى تبحث عن الأدوار التى تقوم بها النسـاء فى سرد الحكايات داخل "مندرة" الزعيم لا تكشف عن تأثير المكانة والنوع الاجتماعى فى "حقوق الأفراد فى قص الحكايات" داخل "مندرة" الزعيم، وذلك لأن الإجابات التى تلقتـها عن هذه الأسئلة لم تكن مرتبطة بقص الحكايات، بل كانت مرتبطة بعوامل أخرى لها صلة بالعلاقات والمواقف الاجتماعية المحلية. ولولا قيامها بتكرار الملاحظة والمقارنة بين المواقف المتشابهة لما استطاعت أن تصل فى النهاية إلى فهم للشبكة المعقدة من التأثيرات الفعالة الموجودة فى هذه البيئة والمتصلة بالمواقف، والنوع، والمكانة[٢٤].

وفى مناسبات أخرى، يوفر حديث خاص بين بعض أفراد المجتمع نقطة انطلاق للباحث يمكن أن يفيد منها فى القيام ببحث أعمق لاكتشاف الأهميـة النسبية للإثنية، أو النوع الاجتماعى، أو الطبقة فى المجــالات الأوسع من الحياة المحليــة. مثال ذلك،

أن مجموعة من الدارسين شرعوا في دراسة العلاقات بين الطلبة في إحدى المدارس التي تضم إثنيات متعددة. وقد عاد أحد أفراد هذه المجموعة بالحديث التالي عن المجموعات المختلفة الموجودة في حرم تلك المدرسة:

حول مائدة الغداء اليوم، جلس عدد من الفتيان يتحدثون، وكانوا قبل ذلك يتسكعون معًا. كنت أظن أن بإمكانهم أن يساعدوني على فهم طبيعة المجموعات المختلفة الموجودة في الملعب المركزي للمدرسة. كانوا يستعملون كثيرًا من المصطلحات التي سبق لي أن سمعتها قبل ذلك في وصف هؤلاء الأولاد. فتكلم فتى منهم عن "المتأنقين" Trendy People، وعن الطريقة التي بها أستطيع أن أعرف الشخص المتأنق إذا رأيت واحدًا منهم. وقال طالب آخر إنه يوجد "جماعة كرة السلة"، وكذلك "جماعة كرة القدم"، ويوجد بعد ذلك فريق "الجوالين" الذين يطوفون مع سائر المجموعات. ثم يوجد "معاونو رجال الأمن" Poses. وهم يقولون إن جماعة معاوني رجال الأمن عبارة عن مجموعة من الطلبة الذين يتسكعون معًا، ويتجولون معًا، وهم يتصرفون كذلك لأن هذا يعطيهم إحساسًا بالانتماء. يقول أحد الفتيان السود: "إنها مجرد مصادفة أن يكون جميع الأفراد الذين معي في مجموعة معاوني الشرطة من السود". وأخذنا نضحك بشدة على هذا الكلام. ويستطرد قائلاً: "لا، لا، إننا جميعًا من نفس الحي". وبعضهم ينتمي إلى عائلات قائمة على الزواج الداخلي (من أبناء السلالة). وهناك أيضًا "فريق السباحة" Swim Team، وهم هؤلاء المدمنون، ويسمون بهذا الاسم لأنهم يتعاطون عددًا كبيرًا من المخدرات حتى إن عيونهم تكون محتقنة بالدم دائمًا، وكأنهم كانوا يسبحون لمدة طويلة. ثم يوجد فريق معاوني الشرطة من حاملي بطاقات الإقامة الخضراء G.C.P (الجرين كارد)، وهم من المكسيكيين الذين يتسللون إلى الولايات المتحدة بطريقة غير قانونية. والفرد "الممتاز" هو الذي يرتدي ملابس أنيقة. وهنا سألتهم، ماذا يحدث لو لم يكن عندك المال الكافي لشراء ملابس أنيقة، هل يعني ذلك أنك لست ممتازًا؟ فردوا: يمكن لك إن كنت صاحب

شخصية متميزة. أما إذا كانت شخصيتك مماثلة لطريقتك في ارتداء الملابس، فانس حكاية التميز هذه. "إن هذا المكان (المدرسة) عبارة عن معرض أزياء".

نرى هنا أن الطلبة يستعينون بتشكيلة منوعة من المقولات (المفاهيم) المحلية فى تمييز وتصنيف بعضهم لبعض. وتشير بعض هذه المفاهيم إشارة صريحة ومباشرة للإثنية، كقولهم: "معاونو الشرطة من حاملى البطاقات الخضراء". كما تُذكر الإثنية بصورة مباشرة من خلال الإشارة إلى مصطلح "معاونى الشرطة"، إلا أن تقدير مدى أهميتها – تحديداً – يبدو أكثر وضوحاً وصراحة: ذلك أن أحد الطلبة المتحدثين عرّف مجموعة معاونى الشرطة التى ينتمى إليها بأن كل أفرادها من السود. وزعم طالب آخر أن بعض معاونى الشرطة ينتمون إلى عائلات قائمة على نظام الزواج الداخلى. على خلاف ذلك يقلل متحدث آخر من شأن الإثنية كأساس لتكوين الجماعة. وأخيراً، لا يتم تعريف أغلب الفئات صراحة وفقًا لأى انتماء إثنى معين، كجماعة كرة السلة، و"المدمنين"، و"الممتازين". وإن من شأن الباحث الموجود فى هذا المجتمع أن يحتاج إلى تتبع ومحاولة التحقق من الإثنيات التى ينتمى إليها الطلبة الذين تتحدد هويتهم تبعًا لانتمائهم لأى من هذه الفئات المختلفة. وسيكون هذا البحث – أساسًا – بمثابة رصد أو ملاحظة للمكانة الإثنية للطلبة المنتمين لكل فئة على حدة، ثم قد يعقب هذا الرصد حديث مع الطلبة عما تم ملاحظته من الأنماط الإثنية.

وبإمكان الباحث الميدانى كذلك أن ينتفع بهذه الواقعة كمنطلق لتعقب واكتشاف الروابط الموجودة بين هذه الفئات الطلابية وبين النوع الاجتماعى أو الطبقة الاجتماعية. ويبدو أن هذا الحديث عن الانقسام إلى مجموعات هو أمر يجرى بين الشبان ويتناول أحوالهم، إلا أن من شأن الباحث الميدانى أن يرغب فى التعرف – تحديداً – على ما إذا كانت أى فئة من هذه الفئات تضم فتيات أم لا، وفى طرح أسئلة أخرى عن التقسيمات المماثلة أو المختلفة بين الطالبات الملتحقات بهذه المدرسة. وهنا بالذات ينبغى على مثل هذا الباحث أن يتتبع أنماط التمييز والاختلاف القائمة على أساس النوع الاجتماعى، وأن يتتبع كذلك مظاهر التكامل والتداخل، الموجودة بين الطلبة والأنشطة التى يقومون بها.

أما معالجة قضايا الطبقة الاجتماعية فهو أمر أشد تعقيداً. فمفهوم الطبقة - إذا قورن بمفهوم النوع الاجتماعى ومفهوم الإثنية - يعد من مفاهيم "الخبرة عن بعد" وليس من مفاهيم "الخبرة عن قرب" (جيرتز ١٩٧٦). ونتيجة لذلك، يندر أن يلتقى الباحثون الميدانيون بأفراد المجتمع فيتحدثون معهم بصراحة عن مصطلح "الطبقة" فى حد ذاتها. إلا أن الأفراد يستعملون عدداً من المصطلحات التى تشير إلى عناصر أو مكونات مفهوم الطبقة الاجتماعية. وهذه الحالة - الخاصة بهذه المدرسة مثلاً - تنطوى، وبصورة مباشرة، على نوع يحدث بصفة طبيعية من "الترتيب المتدرج" للأفراد والذى يعكس أحد الأركان المهمة لمفهوم الطبقة الاجتماعية. يضاف إلى ذلك، أن هؤلاء الطلبة يتبادلون الآراء حول "المال" وحول "الملابس الأنيقة"، وحول هذه المدرسة نفسها بوصفها "معرض أزياء"، معطين الانطباع بأن الدخول التى يحصل عليها آباؤهم وأسلوبهم فى الاستهلاك المظهرى قد يكون لها صلة بالطريقة المتبعة فى تصنيف المرء داخل مجتمع المدرسة. وهكذا ينبغى أن يقوم الباحث الميدانى بعد ذلك بالسؤال عن هذه الأمور وملاحظتها لكى يصف ما يعتبره الطلبة "ملابس أنيقة"، ويصف ما يبذلونه من اهتمام للمبالغة فى استعراض هذه الملابس، ومن أين تأتى تلك الملابس، ومن أين يأتى المال اللازم لشرائها.

الأحداث المحلية والقوى الاجتماعية

أخيراً، بإمكان الباحث الميدانى أن يستعمل عدداً من الاستراتيجيات المختلفة فى محاولة الربط بين الأحداث المحلية والنتائج الخاصة من جهة، والبيئات الاجتماعية البعيدة مكانياً والنتائج البعيدة زمانياً من جهة أخرى. ويستطيع ذلك الباحث - بادئ ذى بدء - أن يبحث عما يوجد داخل هذه البيئة من ارتباطات بالمؤثرات الاجتماعية الخارجية. وينبغى عليه أن يُعنى فى المقام الأول بالكيفية التى يتبعها المبحوثون فى كلامهم عن هذه الكيانات والقوى الخارجية وفهمهم لارتباطاتهم بها. إلا أنه لا يصح له أن يتقيد بالتصورات والمفاهيم التى يعيها أفراد ذلك المجتمع. مثال ذلك أن البحث

الميدانى عن المشردين ينبغى أن يحرص على البدأ باختبار الطريقة التى يتبعها الأفراد الذين يعيشون فى الشوارع فى فهم ظروف حياتهم اليومية والتعامل معها على أساس يتغير يوماً بعد يوم، على أن يشمل هذا الاختبار تناول رؤيتهم لعلاقتهم بالمجتمع الكبير (e.g. Snow and Anderson 1993). كما يتعين على الباحث كذلك أن يلاحظ مختلف الأشخاص، والفاعلين، والمؤسسات التى تتصل اتصالاً مباشراً ومتكرراً بالمشردين، من قبيل: الكنائس المحلية، والفنادق، والأماكن الأخرى التى توفر إقامة مؤقتة، وأن يرصد خطوط التموين الغذائى المنتظمة والترتيبات غير الرسمية مع المطاعم كمصادر للطعام؛ ويرصد علاقات المشردين بضباط شرطة الدوريات والعاملين فى السجون؛ وهيئات الرعاية، والعاملين فى مجال تقديم الخدمات والإغاثة[٢٥]. بعد ذلك ينبغى على الباحث (أو غيره من الباحثين) أن ينتقل إلى اختبار أحوال هذه المؤسسات وهؤلاء القاعلين وظروف عملهم واستمرارهم.

وإن بإمكان الدراسة الميدانية - كذلك - أن تستكشف صلات موضوعاتها بالعمليات الاجتماعية على النطاق الواسع، وذلك عن طريق ملاحظة الأفراد والجماعات وهى تتغير على امتداد الزمن. فالبحث الميدانى المستمر على مدى زمنى طويل يعد ضرورياً للوصول، مثلاً، إلى فهم الطريقة التى يتبعها شباب الطبقة العمالية فى الاستجابة لاتصالاتهم المباشرة بالمدارس والتأثر بها. ويتيح إضافة البعد التاريخى للبحث الميدانى - رغم صعوبة ذلك من الناحية العملية - يتيح للباحث أن يصف فرص الحياة المختلفة وأن يفهم كيف تتشكل هذه الفرص وكيف يتم تحديدها. مثال ذلك، أنه كثيراً ما يقوم الباحثون الميدانيون بدراسة بعض المسارات المهنية (جوفمان ١٩٦١) والعوامل التى تشكلها، سواء أكانت تتضمن التحرك داخل المدارس لتحقيق نتائج حاسمة مختلفة أو التحرك من خلال التعامل معها بمعرفة الشرطة أو المحاكم لبلوغ مصائر مختلفة. لذلك يمكن أن نعزو "النطاق المحدود" - الذى تتسم به كثير من الدراسات الميدانية - مباشرة إلى شئ من النقص فى الاهتمام بالتغير الذى يحدث على امتداد فترات زمنية طويلة، وإلى وجود افتراض لدى الباحثين الميدانيين بأن المرء يمكنه أن ينظر نظرة ليس فيها بعد زمنى إلى جزء واحد من أجزاء الحياة فلا يدخل فى اعتباره التغيرات التى تحدث لهذا الجزء بمرور الزمن.

أفكار للتأمل: استعمال المذكرات الميدانية فى اكتشاف/ أو خلق المعانى التى يقصدها المبحوثون

اقترحنا فى هذا الفصل بعض استراتيجيات لكتابة المذكرات الميدانية التى تجمع المعانى التى يقصدها المبحوثون وتصورها بأسلوب دقيق يقوم على أساس متين. وتتطلب هذه الاستراتيجيات من الباحث الميدانى أن ينحى أفكاره المسبقة عما يعد هامًا، من أجل أن يركز انتباهه على الوسائل المحلية التى يستخدمها الأفراد فى ترتيب وتفسير عوالمهم. وإذا تصرف الباحثون بهذا الشكل فإنهم يفترضون بذلك أن مقاصد أفراد المجتمع نتيجة طبيعية، أى أن الطريقة التى يتصرف بها الأفراد تقوم على أساس تصوراتهم لعوالمهم الاجتماعية المحلية.

وعند القيام بتتبع المعانى التى يقصدها المبحوثون، يبدأ الباحثون الميدانيون بالنظر فى الطريقة التى يتبعها أولئك الأفراد فى وصف وتصنيف الناس والأحداث؛ فهؤلاء الباحثون يحاولون أن يدركوا إدراكًا دقيقًا ما يستعمله أفراد المجتمع من مصطلحات، وعبارات، وتصنيفات، وما يدور فى أذهانهم من أفكار. إلا أن المقولات والمفاهيم المحلية لا توفر سوى نقطة انطلاق؛ ومهمة الباحث الميدانى ليست مجرد تعريف المصطلحات والفئات المعروفة عند أفراد المجتمع، بل هو إلى جانب ذلك يعين بالتفصيل هذه الظروف التى فى ظلها يستعين الأفراد بهذه المصطلحات ويطبقونها فعلاً فى تعاملاتهم مع الآخرين. فلا يوجد مصطلح أو مفهوم ينطبق من تلقاء ذاته على مواقف الحياة الواقعية، فأهميته ومغزاه بالنسبة لظروف معينة لا يمكن تقديرها بشكل مسبق. لهذا السبب ينبغى على الباحث ألا يصف المشاهد الاجتماعية عن طريق تطبيق ما هو معروف للأفراد من مصطلحات ومفاهيم على المواقف والأوضاع من غير أن يعتمد فى ذلك على ما يقوم به أولئك الأفراد من تطبيقات فعلية لهذه المصطلحات والمفاهيم (أى أن عليه الجمع بين المفاهيم وتطبيقاتها الفعلية – المترجم). فالمصطلحات والمفاهيم المحلية يجب استدعاؤها بمعرفة أفراد الجماعة وتطويعها لتلائم كل موقف بعينة. وفى كتابته عن تلك المصطلحات والمفاهيم التى وردت فى الكلام عن الدورة الرياضية

المفتوحة التى سبقت مناقشتها، ادعى الباحث الميدانى الذى يُعرف أحد الأشخاص بأنه "عادى" فى مذكراته الميدانية من غير أن يستند فى هذا التعريف إلى ما يجرى بين أفراد هذه الجماعة من تعامل حقيقى: فهذا الباحث ادعى - وبغير حق - أنه قادر على تطويع المفاهيم لبعض المواقف المعينة.

هناك جملة من الدلالات التى تترتب على الإقرار بأن إدراك الباحث الذى يكتب مذكراته الميدانية عن المعانى التى فى أذهان أبناء المجتمع مطالَب بتوضيح الظروف التى فى ظلها يستدعى هؤلاء الأفراد هذه المعانى وتطبيقها. أولها أنه يجب ألا تحتوى أمثال تلك المذكرات الميدانية على الكلمات والعبارات التى استخلصها الباحث منزوعة من سياقها، بل يتعين أن تتضمن المذكرات بيان مناسبات التفاعل الحقيقية التى تستعمل فيها هذه المصطلحات التى تجرى على ألسنة الأفراد. وعلى ذلك، فإن المذكرات الميدانية التى تفيد فى التعرف على المعانى التى يقصدها المبحوثون سوف تركز بالضرورة على المستوى التفاعلى لا على المستوى المعرفى. ولن تعنى المذكرات بتسجيل الطريقة التى يتبعها الأفراد فى كلامهم عن الموضوعات الاجتماعية المختلفة، بشكل عام وبعيداً عن سياق استخدامها، بل سوف تعنى بالطريقة التى يتبعها بعض أفراد الجماعة فى "تأسيس المعنى" من خلال التفاعلات مع بقية أفراد الجماعة، وبالطريقة التى يتبعونها فعلاً فى تفسير تصرفاتهم وتصرفات الآخرين وفى ترتيب هذه التصرفات جميعها وفقًا لنظام معين.

ويترتب على هذا الكلام بعض الدلالات المنهجية. إذ يبدو أن كثيراً من الباحثين الميدانيين يفترضون أن تتبع المعانى التى يقصدها المبحوثون مرادف للقيام بإجراء مقابلات مع الأفراد للتعرف على ما هو هام فى نظرهم. ولكن الباحثين المتمكنين منهم لا يجمعون المواد ذات الصلة بمعانى المبحوثين عن طريق التركيز على ما يدور على ألسنتهم من كلام منزوع من سياقه، وإنما يجمعون هذه المواد عن طريق التركيز على التعامل الذى يحدث بصورة طبيعية بين الأفراد ويرتبط بوضع أو ظرف معين، وفيه يتم خلق المعانى المحلية واستدامتها. إذ أن كتابة المذكرات الميدانية الحساسة لالتقاط المعانى التى يقصدها المبحوثون ليست - فى الأساس - مسألة طرح للأسئلة، إنما هى

استنتاج لما يشغل بال الأفراد، من واقع أساليبهم فى القول والفعل التى تصدر عنهم فى تشكيلة من المواقف الطبيعية. لذلك، لا تعد طريقة المقابلة الأداة الرئيسية للوقوف على معانى المبحوثين، وخاصة فيما يتصل بسؤال الأفراد مباشرة عما تعنيه المصطلحات لهم أو عما يعد هامًا أو له دلالته فى نظرهم. إنما الإجراء المتميز لتحقيق هذا الغرض هو ملاحظة وتسجيل الأحاديث والتعاملات التى تحدث بصورة طبيعية. والحق أنه قد يكون مفيداً أو لازمًا إجراء مقابلات مع الأفراد لسؤالهم عن طرق استعمال المصطلحات والعبارات المحلية الخاصة وعن معانيها، إلا أن الاهتمام الأشد الذى يشغل بال الباحث يكمن فى الاستعمال الفعلى والظرفى (المرتبط بموقف معين) لهذه المصطلحات فى أثناء التعامل العادى(٢٦).

أخيراً، فإن التركيز على الاستعمالات الظرفية للمصطلحات المحلية فى مواقف التفاعل بين الأفراد يلقى الضوء على حساسية الباحث الميدانى للعمليات المتشابكة المعقدة التى يتضمنها التقدير السليم للموقف والتفسير الماهر، والتى تعد سمة مميزة لاستعمال الأفراد للمفاهيم المحلية. ذلك أن عملية تأسيس المفاهيم التى يستعملها الأفراد ليست ثابتة على الدوام وليست متعالية على الخبرة أو المعرفة، وإنما هى مرتبطة بأوضاع خاصة لأغراض دائمة التغير. والمعرفة المحلية الشاملة والمهارة فى تقدير الموقف أمران داخلان - بالضرورة - فى استعمال الأفراد لهذه التصنيفات. شاهد ذلك فيما يتصل بموضوع الملعب الرياضى (الجيمنازيوم) السابق ذكره، نجد أن الأعضاء الذين كانوا على وشك الشروع فى الاشتراك فى برنامج رياضى معين يقتضى وجود "مراقب" ما، قد يكون لديهم اهتمام عملى بالتعرف على الأشخاص الحاضرين، والتمييز بين مستوى الخبرة ومستوى المهارة لديهم. والحق أن اللاعبات ذوات الخبرة يمكنهن أن يدركن - بنظرة واحدة - مقدار التدريب التى تلقته لاعبة أخرى، من واقع مستوى أدائها وتصرفاتها. ويمكن القول على العموم أن التقدير الدقيق للمعانى التى يقصدها المبحوثون يتطلب معرفة متى وكيف يقوم الأفراد - فعلاً - بإصدار هذه الأحكام، والإلمام بنوعية المعرفة التى يعتمدون عليها فى القيام بهذا الأمر.

الفصل السادس

معالجة المذكرات الميدانية: التصنيف والتعليقات

فى لحظة ما - بعد أسابيع أو ربما بعد أشهر من كتابة المذكرات - يحتاج الباحث الميدانى إلى أن ينسحب عائداً من الميدان، ليتوقف عن الانهماك فى كتابة المذكرات. إذ يتوجب عليه أن يغير اتجاهه فيقفل راجعًا إلى ما سبق له أن أنجزه من سجل مكتوب قاصداً من ذلك تحويل هذه المجموعة من المواد إلى كتابات تخاطب جمهوراً خارجيًا أوسع نطاقًا من جمهور الباحثين. وحينئذ تصبح الجهود المبذولة فى التحليل أكثر كثافة وتركيزاً وشمولاً: فالباحث الميدانى يبدأ فى التمحيص المنظم لكل ما ورد فى الصفحات الكثيرة من الروايات المسجلة فى المذكرات الميدانية والتى تتحدث عن وقائع وأحداث منفصلة وغالبًا ما تكون الصلات بينها واهية، متطلعًا إلى أن يلتقط الخيوط التى يمكن نسجها معًا لتروى حكاية (أو عدداً من الحكايات) عن هذا العالَم الاجتماعى الذى تمت ملاحظته. والهدف النهائى لهذه الجهود هو تقديم تحليل مترابط ومركز يتناول جانبًا من جوانب الحياة الاجتماعية تمت ملاحظتــه وتسجيــله، كما يكون تحليلاً مفهومًا للقراء الذين ليس لديهم دراية مباشرة بهذا العالَم الاجتماعى الذى هو محل البحث.

إن وجهة النظر القائلة بإنتاج تحليلات مترابطة منطقيًا ومركزة من ذلك الكم الضخم من البيانات الواردة فى المذكرات الميدانية، والتى من السهل وصولها حينئذ إلى عدة مئات من الصفحات؛ إن وجهة النظر هذه تفوق طاقة الكثير من الدارسين -

حتى أولئك الذين كانوا يواظبون على كتابة الشروح التحليلية بانتظام. إلا أن الباحثين الميدانيين قد وجدوا أن هذه المهمة يمكن القيام بها بكفاءة عن طريق التنبه إلى عدد من الممارسات المحددة التى يتضمنها تنفيذ خطة التحليل.

ونلاحظ بادئ ذى بدء، أن كتابة المذكرات الميدانية تتطلب القراءة: بمعنى أنه على الباحث الميدانى أن يستوفى قراءة كل المذكرات الميدانية فى مجملها بوصفها مجموعة واحدة، مدخلاً فى اعتباره ذلك السجل الكامل لخبرته الميدانية فى تطورها طوال فترة البحث. فيبدأ فى تدقيق وتنقيح ما سبق أن ارتآه من أفكار وتخمينات، وذلك عن طريق إخضاع هذه المجموعة الضخمة من المذكرات الميدانية للتفكير والتحليل الدقيقين المكثفين.

ثانيًا: يربط الباحث هذه القراءة المدققة باستعماله لعدد من الإجراءات الخاصة بالتصنيف التحليلي للمذكرات الميدانية، وهو الأمر الذى يتم بشكل متصل. وتشتمل عملية التصنيف الإثنوجرافى على القيام بالفرز التفصيلى لبعض المذكرات الخاصة. وفى أثناء تنفيذ هذه العملية، يتغير الموقف الفكرى للباحث من المذكرات: إذ تصبح هذه المذكرات وما تحكى عنه من أشخاص وأحداث، موضوعات نصية – أى موضوعات ضمن نص – (رغم ارتباطها بالذكريات والأفكار الشخصية) يجب إمعان النظر فيها وتجربة تحريرها بالاعتماد على سلسلة من الاحتمالات التى يقدرها الباحث لتحليلها وعرضها.

وعادة ما تسير عملية التصنيف الكيفى التحليلى قدمًا متخذة شكلين مختلفين هما: التصنيف العام، والتصنيف المركز. ففى التصنيف العام Open Coding يقرأ الباحث المذكرات الميدانية سطرًا بسطر لكى يميز ويصوغ أى فكرة – وجميع الأفكار – أو الموضوعات الأساسية أو القضايا التى تطرحها هذه المذكرات الميدانية، ومهما كانت مختلفة ومتباينة. وفى التصنيف المركز Focused Coding يخضع الباحث الميدانى المذكرات الميدانية لتحليل دقيق وتفصيلى لكل سطر من سطورها على أساس الموضوعات التى تم تمييزها بوصفها موضوعات لها أهميتها الخاصة. وهنا يستعمل الباحث

مجموعة أقل عدداً من الأفكار والمفاهيم الواعدة ليجهز الموضوع الرئيسى والموضوعات الأساسية للتقرير النهائى للبحث الميدانى.

إن ما يقوم به الباحث من قراءة شاملة للمذكرات الميدانية وتصنيف محتوياتها سطراً بسطر ليغمر الباحث بعدد كبير من الأفكار، والرؤى الثاقبة، والعلاقات بين الأمور. وأثناء استمراره فى تصنيف المذكرات، يقوم الباحث بتطوير هذه الرؤى عن طريق كتابة التعليقات النظرية Memos. وفى وقت مبكر أثناء القيام بعملية تحليل البيانات، يكتب الباحثون الميدانيون "تعليقات أولية" Initial Memos تتناول مجموعة من الظواهر، أو الموضوعات، أو المفاهيم المنفصلة. وفيما بعد، وفى الوقت الذى يقوم فيه الباحث الميدانى ببلورة معنى أوضح لهذه الأفكار أو الموضوعات الأساسية التى يحتاج إلى تعقبها، تتخذ التعليقات شكلاً أكثر تركيزاً؛ يحقق نوعاً من الترابط والتكامل بين ما كان قبل ذلك قِطَعاً منفصلة من البيانات والنقاط التحليلية. وتسعى هذه "التعليقات التكاملية" لتوضيح الموضوعات الأساسية والمفاهيم التحليلية وللربط بينها.

ونلاحظ أن الأساليب التحليلية التى نقدمها فى هذا الفصل مستمدة بشكل كبير من المناهج التى طورها علماء الاجتماع الذين يتبنون المنحى الفكرى المسمى "النظرية الموثقة" Grounded Theory فى مجال تحليل البيانات الكيفية(١). والمفكرون الآخذون بالنظرية الموثقة يعطون الأسبقية لبلورة القضايا التحليلية وليس التحقق من صحتها. وهم يذهبون إلى أنه إذا قلل الباحث من التزامه بالنظرية التى تعلمها ويسلم بها، فمن الأرجح أن "يكتشف" أفكاراً أو نظريات أصيلة فى البيانات المتوافرة لديه. وعن طريق قيامه بعقد المقارنات المتكررة بين هذه البيانات، يستطيع الباحث أن يطور، ويعدل، ويوسع من نطاق الفروض النظرية بحيث يجعلها متناسبة مع هذه البيانات. وعلى المستوى الفعلى للعمل، يبدأ الباحث بتصنيف البيانات بطرق مفصلة ومنهجية حتى يستطيع توليد المفاهيم التحليلية. وعلاوة على ذلك يقوم بتطوير هذه المفاهيم وتوسيع نطاقها ودمجها فى وحدة متكاملة عن طريق كتابة التعليقات النظرية.

ويصور المنحى الفكرى للنظرية الموثقة التحليل باعتباره عملاً واضح المعالم ومستقلاً إلى أبعد الحدود. وفى سعيهم لتأكيد "اكتشاف" النظرية فى المذكرات الميدانية فى البيانات الكيفية الأخرى، يعالج أصحاب النظرية الموثقة مجموعات البيانات التى سبق جمعها والواردة فى المذكرات الميدانية باعتبارها منطلقات غير مختلف عليها، فهم يفترضون ضمنًا أن بالإمكان تحليل هذه المذكرات الميدانية بمعزل عما قام به الباحث الذى كتبها من عمليات تحليلية وما دونه من تعليقات نظرية. وخلافًا لهذا الرأى، نؤكد أن البيانات لا تقف بمفردها؛ فالأصح أن ينتشر التحليل فى سائر أطوار المشروع البحثى - عندما يقوم الباحث بالملاحظة وتسجيل مشاهداته فى المذكرات الميدانية، وعندما يصنف هذه المذكرات إلى فئات تحليلية، وعندما يصل فى النهاية إلى بلورة الفروض النظرية الصريحة. وبالنظر إلى التحليل وفقًا لهذا الرأى، فإنه يكون تحليلاً استقرائيًا واستنتاجيًا فى وقت واحد، وهو يشبه فى ذلك من يقوم بتأليف لغز ما وحله فى نفس الوقت، أو يشبه نجاراً يقوم بصورة متعاقبة بتغيير شكل الباب ثم بتغيير شكل إطار هذا الباب ليصل إلى تناسب أفضل بين الباب والإطار.

وفى هذا الفصل نقوم ببلورة منحى فكرى معين فى تحليل المذكرات الميدانية يقوم على أساس الأفكار المذكورة. ونبدأ بطرح الطرق الخاصة ببدء تحليل المذكرات الميدانية وهى: القراءة الدقيقة، والتصنيف العام، وكتابة التعليقات الأولية. ثم نمعن النظر فى الإجراءات التى تساعد على القيام بتحليلات أكثر تحديداً ودقة والتى تتمثل فى: التصنيف المركز، وكتابة التعليقات المتكاملة. وعندما نناقش خطوات القراءة، والتصنيف، وكتابة التعليقات، بوصفها خطوات منفصلة فى المعالجة التحليلية للمذكرات الميدانية، فإننا نريد أن نؤكد أن الباحث ليس مقيد تقييداً صارماً بإجراء ما فى وقت ما، ولا هو ملزم باتباع هذه الإجراءات وفقًا لأى ترتيب معين. بل الأولى به أن ينتقل من القراءة العامة إلى التصنيف الدقيق ومنها إلى كتابة التحليلات المكثفة ثم يعود راجعًا مرة ثانية إلى القراءة وهكذا. أو بعبارة أخرى، من القراءة ينبع التصنيف كما تنبع التعليقات المكتوبة التى توجه ثم تعيد توجيه الاهتمام إلى القضايا والاحتمالات التى تتطلب المزيد من قراءة نفس هذه المذكرات الميدانية أو قراءة المزيد من المذكرات الميدانية.

قراءة المذكرات الميدانية كمجموعة موحدة من البيانات

يبدأ الباحث الميدانى تحليله المركز وكتابته بقراءة مذكراته الميدانية بطريقة جديدة، حيث يفكر تفكيرًا دقيقًا ومنهجيًا فيما سبق ملاحظته وتسجيله من وقائع ومشاهدات. وبهذه الطريقة، يعالج الباحث المذكرات الميدانية كمجموعة موحدة من البيانات، حيث يقوم بمراجعة، وإعادة تجريب، وإعادة فحص كل شيء سبقت كتابته، وذلك فى نفس الوقت الذى يسعى فيه – عن قصد وانتباه – لتحديد وبلورة الموضوعات الأساسية، والأنماط، والاختلافات الموجودة داخل هذه المادة المدونة.

إننا نوصى بشدة بقراءة أكبر عدد ممكن من صفحات المذكرات الميدانية قراءة متأنية سطرًا بسطر، وذلك على الأقل إلى أن يبدو على عملية التصنيف أنها لا تأتى بجديد من الأفكار، أو الموضوعات الأساسية، أو القضايا. وقراءة المذكرات بوصفها كلاً واحدًا وبالترتيب الذى كتبت به يمنح الباحث عددًا من الفوائد. أولها أن الباحث الميدانى يستطيع بهذه القراءة أن يدرك التغيرات التى حدثت بمرور الوقت فى علاقاته بهؤلاء الأفراد الموجودين فى الميدان. مثال ذلك، أن الانتقال التدريجى من مشاعر التحفظ إلى مشاعر الألفة والوئام قد لا يتضح إلا عند قراءة تستغرق عدة ساعات لسجل من الأحداث التى وقعت على امتداد أسابيع أو شهور. ثانيها أن الباحث الميدانى يظفر برؤى ثاقبة جديدة عندما يغير تصوره وتفسيره الشخصيين للناس والأحداث عن طريق مراجعته لهذه المجموعة الكاملة من المذكرات. فالتفسيرات والتعليقات الأولية التى صدرت عن الباحث فى مبدأ الأمر، إذا ما نُظر إليها بناء على ما اكتسب بعد ذلك من علم ومعرفة، قد تبدو فى هذه اللحظة تفسيرات وتعليقات ساذجة أو خاطئة. وغالبًا ما يكون هذا التباين بين التصور الأولى والتصور الأخير تباينًا صارخًا عند العمل فى ثقافة ولغة غريبتين تمامًا بالنسبة للباحث. إذ يبدأ الباحث الميدانى فى إعادة تفسير ما تحمله الأحداث والتصرفات من معان ودلالات، مستخدمًا فى ذلك أساليب جديدة. وقد يشعر أن الأفكار والمصطلحات الأجنبية ليس

لها مرادف فى لغته الأم(*). كما أن الأنماط والاتجاهات التى يتبينها الباحث عند قراءة كل المذكرات مجتمعة، قد توحي بتفسيرات أخرى بديلة للأفعال أو الأقوال التى كانت قد فُهمت قبل ذلك بطريقة أخرى. وأخيراً، فإن التعامل مع مجمل المذكرات الميدانية يتيح للباحث أن يستوعب للمرة الأولى، وفى خلال مدة زمنية مركزة نسبيًا، كل شىء استطاع أن يلاحظه ويسجله. وتشجع قراءة المذكرات ككل واحد الباحث على تبين الأنماط وعلى عقد المقارنات. إذ يبدأ فى ملاحظة كيف أن إحدى الواقعات تشبه غيرها من الوقائع الواردة فى المذكرات التى سبق مراجعتها. وبالعكس من ذلك، يبدأ الباحث كذلك فى ملاحظة الفروق الهامة بين الوقائع التى كان يعتبرها قبل ذلك متشابهة.

ويتطلب قيام الباحث بقراءة مذكراته الميدانية قراءة تحليلية، يتطلب منه أن يتناول مذكراته كما لو كان كتبها شخص آخر غريب عنه. والواقع أن كثيراً من الباحثين الميدانيين يتعذر عليهم تحقيق ذلك النوع من الحياد العاطفى الذى يتطلبه أن يُخضع للتحليل هؤلاء الذين انغمس فى حياتهم انغماسًا عميقًا. ويحكى بعض الباحثين الميدانيين عن المشقة التى يشعرون بها عند قيامهم "بالفحص الدقيق تحت المجهر" لحياة الأفراد الذين اندمجوا فى شئون حياتهم اندماجًا عميقًا، والذين يهتمون بهم فى أحوال كثيرة. وبالنسبة لبعض الباحثين، يقترب التحليل من أن يكون عملاً من أعمال الخيانة؛ ويروى كثير من الباحثين الميدانيين أنهم أمضوا عدة أسابيع أو شهور بعد أن توقفوا عن كتابة المذكرات الميدانية قبل أن يستطيعوا البدء بكتابة تحليلاتهم. والواقع أن عدداً من الباحثين الإثنوجرافيين يجدون أن العلاقات مع الأفراد فى مجتمع البحث أصبحت من نوع العلاقات الأولية. وفى هذه الحالة قد يُنحى الباحث هذا المشروع البحثى جانبًا لعدة سنوات، أو حتى يتخلى عنه تمامًا. ويحل بعض الباحثين هذا الصراع عن طريق العمل بالتعاون مع الأفراد الموجودين فى مجتمع البحث، لدرجة أنه قد يحدث أحيانًا أن يشارك واحد من المساعدين المحليين فى الكتابة مع هؤلاء الباحثين.

(*) فى النص الأصلى: فى اللغة الإنجليزية، وقد عدلناها ليستقيم المعنى العام. (المراجع)

ورغم أن ما يستلزمه البحث الميداني من القيام بتحليل عمدى ومقصود قد يساهم فى إحداث مشاعر الجفوة والتباعد، فإن من المفيد تذكر أن فهم ما يجرى من أمور يعد عملاً يشارك فيه أفراد المجتمع، وأنه واحد من الأنشطة العادية والمتوقعة فى الحياة الاجتماعية. وقد يكون من المفيد كذلك أحيانًا أن نتذكر أنه بالرغم من أن ما نقوم به من تحليل لأنماط الحياة الاجتماعية فى الميدان هو فى العادة موجه لجماهير ولأهداف خارج هذا الموقع، فإننا نسعى لنقل فهم تقديرى لهذا العالم الذى ندرسه ولحياة الأفراد الذين يعيشون فيه.

طرح الأسئلة عن المذكرات الميدانية

يبدأ تصنيف المذكرات الميدانية عندما يطرح الباحث على نفسه أسئلة عن أجزاء خاصة من بيانات وردت فى هذه المذكرات. وهو يعتمد فى طرحه لهذه الأسئلة، على طائفة واسعة من المصادر، بما فيها خبرته المباشرة بالحياة والأحداث فى مجتمع الدراسة، وحساسيته لمشاغل وتوجهات أفراد المجتمع، وما يتذكره عن الوقائع الخاصة الأخرى والمشروحة فى مكان آخر من مذكراته، وما سبق له أن تحصل عليه من خبرة ورؤى ثاقبة من عمله بمجتمعات أخرى، والمفاهيم والتوجهات التى اكتسبها من عمله أو من تخصصه العلمى. فلا شئ خارج نطاق الانتفاع به.

إلا أن سر التصنيف الجيد يكمن فى تحويل الإجابات عن هذه الأسئلة إلى نوع متميز من الكتابة – أى إلى كلمة أو عبارة موجزة تستطيع أن تعبر عما هو وارد فى إحدى البيانات، وتشير إليه بأسلوب يربط بينه وبين إحدى القضايا التحليلية ذات النطاق الأعم. ويرتبط هذا النوع من الكتابة ارتباطًا تكامليًا بعمليات التفكير والتفسير التى "يصل" بها الباحث الميدانى إلى عنوان أو فئة يصنف على أساسها. وفى مقابل ذلك، فإن عملية التصنيف – أى صياغة الفكرة أو الخاطرة فى كلمة أو عبارة محددة وموجزة نسبيًا – تساعد على استثارة وتشكيل وضبط تفكير الباحث الميدانى وتأملاته.

وهذه العلاقة الضرورية المتبادلة بين التفكير المتعمق والكتابة تتجلى فى تلك العبارة اللماحة الذكية التى قالها جون فورســتر John Forester (فى مذكرة غير مؤرخة) وهى: "التفكير بأصابعك" (أى التفكير المستند إلى التحسس الدقيق – المترجم).

وقد وجدنا أن أنواع الأسئلة التالية يمكن أن تنفع فى بدء فحص المذكرات الميدانية:

- ماذا يفعل الناس؟ وما الذى يريدون تحقيقه؟
- كيف يقـــومـون، بالضبط، بعمل ذلك؟ مـا هى الوسـائل الخاصـة و/أو الاستراتيجيات التى يستعملونها؟
- كيف يتحدث أفراد المجتمع عن الأمور التى تجرى فى مجتمعهم، وكيف يصفونها، وكيف يفهمونها؟
- ما هى الافتراضات التى يفترضونها؟
- ما الذى أراه يجرى فعلاً فى هـــذا المكـــان؟ ما الذى أتعلمه من هذه المذكرات؟
- لماذا قررت ضم هذه المذكرات؟

تبين هذه الأسئلة، وتطرح، عدداً من الاعتبارات الخاصة المرتبطة باتجاهنا الفكرى فى الإثنوجرافيا (الدراسة الميدانية) وفى كتابة المذكرات الميدانية:

أولاً: تعطى هذه الأسئلة أولوية "للعمليات" أكثر من "الأسباب" أو "الدوافع" النفسية الباطنية. وعلى وجه التحديد، تعنى هذه الأولوية طرح الأسئلة التى تعيِّن ما يجرى من أمور وفقًا لأى ترتيب أو نظام، أكثر من طرح أسئلة "لماذا" التى تستفسر عما يسبب حدوث بعض النتائج أو يؤدى إليها. وبهذا المعنى، فإننا ننظر إلى التصنيف العام باعتباره وسيلة لبلورة التفسيرات أو الموضوعات التحليلية وليس وسيلة للوصول إلى التفسيرات السببية.

ثانيًا: تعكس هذه الأسئلة نوعًا من الحساسية للمشاغل العملية، والظروف، والقيود التى يواجهها الفاعلون ويتعاملون معها فى حيواتهم وتصرفاتهم اليومية. ويتطلب هذا الاهتمام بالعملى أو البراجماتى التنبه للشائع، والعادى، والمسلم به أكثر من البحث فقط أو أساسًا فيما هو نادر أو مثير من التصرفات أو الأحداث.

وأخيرًا: فإن هذه الأسئلة يمكنها أن تساعد فى تحديد مقاصد ووجهات نظر أولئك المبحوثين. ونحن نحاول صياغة الأسئلة التى توضح كيف يرى أفراد الجماعة الحوادث وكيف يشعرون بها، وتوضح ما يرونه هامًا وله دلالته، وتوضح كيف يصورون، ويصنفون، ويحللون، ويقيمون ما يتصل بهم وبغيرهم من المواقف والأنشطة. ومع ذلك، فلتوضيح هذه الأمور، لابد - من حيث المبدأ - أن يقوم الباحث الميدانى بإظهار ما كان يشعر بأنه له دلالته من الأحداث عن طريق سؤاله لنفسه: "لماذا أدرجت هذا الأمر فى مذكراتى الميدانية؟" وحينئذ يكون من المهم التساؤل عما إذا كان يبدو على أفراد الجماعة أنهم ينسبون نفس هذه الدلالة لتلك الأحداث أو الوقائع أم لا، وعلى أى أساس يكون ذلك؟ فهذه الإجراءات تبقى الباحث الميدانى متنبهًا للتعقيدات التى تتضمنها عملية تتبع المعانى التى يقصدها المبحوثون، وبتعبير آخر، تقوم هذه الإجراءات بتذكيره بأنه لا توجد وسيلة "مجردة خالصة" لفهم ما هو هام فى نظر أفراد المجتمع، ولفهم مقاصدهم أو وجهات نظرهم. فالأولى حينئذ أن يداوم مثل هذا الباحث على كتابة "تفسيراته" للأمور التى يشعر أن لها معناها وأهميتها عند المبحوثين.

وسوف تؤدى هذه الأسئلة بالباحث إلى عناوين التصنيف التى يكتبها على هوامش مذكراته الميدانية. والمثال التالى، والمستمد مما كتبته باحثة يقوم بحثها الميدانى بالتعمق فى فحص عملها - كدليل لإرشاد رواد الحفلات إلى مقاعدهم - يوضح هذه العملية:

أنماط الرواد: الوافدون فى ميعاد متأخر يميل رواد حفلات الرقص - فعلاً - للحضور عند ميعاد رفع الستارة تمامًا، لذلك نضطر إلى احتجاز الكثيرين منهم خارج القاعة.

احتجاز بعض الرواد خارج القاعة

ولم تكن هذه الليلة مختلفة عن غيرها.
وأستطيع أن أقول أن لدينا حوالى ٥٠
فرداً منتظرين فى البهو الخارجى طوال
مدة عرض النمرة الأولى.

المنتظرون: غاضبون

... وكان رجل ممن احتجزناهم خارجًا
غاضباً. فقد سبق له دخول القاعة،

أحد الرواد المتأخرين يطالب باستثنائه

ولكنه اضطر للخروج لسبب ما. وعندما
أغلقنا الباب بدأ يصرخ فى عامل الباب.
وقال إنه كان بالداخل قبلاً – وليس مثل
هؤلاء الأفراد الذين جاءوا "متأخرين".
فهو لم يحضر متأخراً ولا ينبغى معاملته
بنفس معاملتهم!

المدير يتدخل

أتى مدير الدار وابتسم وأخبره بصوت
هادئ عن سبب احتجازه

تحويل الملامة إلى شخص أخر

بالخارج – وهو أن الراقصين هم الذين
طلبوا ذلك. هدأ الرجل ولكنه ظل غاضباً.
انتظر بدون أن ينطق بكلمة واحدة،

تهنئة الذين حضروا متأخرين

إلا عندما حضرت. أخذت أدور بين
الحاضرين وأنا أوزع،

شغل اهتمام المتأخرين

عليهم نشرات الحفلة حتى يقرأوا شيئًا
يشغلهم،

صرف الانتباه وإلهاؤهم

وحتى لا يضطر الأدلة (جمع دليل) إلى
تضييع وقتهم فى توزيع النشرات عندما
يهجم هؤلاء الناس على أبوابهم. كما أننى

سألت الناس عما إذا كان بإمكانى أن أخبرهم إلى أى الممرات يتجهون، قاصدة من ذلك أن أخفف من الارتباك الذى يعانى منه مسئولو الأبواب. وعندما وصلت لهذا الرجل وسألته عما إذا كان يريد منى إخباره من أى باب يدخل، قال فى غضب أنه سبق له أن كان بالداخل وأنه يعرف أين يذهب.

الابتسام

كان الآخرون لا يزالون غاضبين. اكتفيت بالابتسام وأخبرتهم بأنهم لن ينتظروا إلا دقائق قليلة.

التهوين من شأن الانتظار

أظن أن تصرفى هذا جعلهم يهدأون قليلاً، وذلك لأن هذه النظرة الغاضبة فارقت وجوههم.

فهذه الباحثة الميدانية ركزت على الموقف العملى لمرشدى الرواد، إذ تتساءل - على نحو ضمنى - عن الطريقة التى يتبعها المرشدون فى فهم وإدراك معنى السلوك والأحداث، وعن الطريقة التى يتبعونها فى التعامل مع بعضهم ومع الرواد. وعلى وجه التحديد، وفى العنوان التصنيفى الذى تقول فيه: "الوافدون فى ميعاد متأخر" قامت بتمييز ما يتعرضون له فى عملهم من عواقب ناجمة عن تأخر بعض حاملى التذاكر فى الحضور عن موعد بدء العرض. زد على ذلك أن عناوين التصنيف التى تقول فيها "احتجاز بعض الرواد خارج القاعة" وعنوان التصنيف الذى تقول فيه "تهدئة الذين حضروا متأخرين" تميز ما يقوم به المرشدون من عمليات خاصة بالتعامل مع الذين يحضرون متأخرين وترويضهم باعتبارها من المشكلات العملية النابعة من طبيعة عملهم. وعند ذلك سألت الباحثة الإثنوجرافية نفسها "كيف" قام المرشدون بأداء هذه الأنشطة فعلاً،

وهو الأمر الذى أدى إلى سلسلة من عناوين التصنيف الأكثر تحديداً فيما يتصل بمعنى "التهدئة" مثل عنوان التصنيف الذى تقول فيه "شغل اهتمام المتأخرين"، و"صرف الانتباه، وإلهاؤهم"، و"الابتسام"، و"التهوين من شأن الانتظار".

وتبدأ هذه العناوين التصنيفية فى تمييز وتفصيل مجموعة من الفروق التحليلية. مثال ذلك، أن العنوان التصنيفى الخاص "بالوافدين فى ميعاد متأخر" يضع اسمًا "لنمط معين من الرواد"؛ وعندما تعرض الباحثة "الوافدين فى ميعاد متأخر" داخل إطار باعتبارهم "نمطًا" فإنما تؤكد أن المجئ فى وقت متأخر حدث عادى روتينى فى هذا الموقع، وأن "الوافدين فى وقت متأخر" يشكلون واحداً من بين طائفة من أنماط الرواد. وبتمييز نمط واحد من أنماط الزبائن، فإن هذا العنوان التصنيفى يرفع من إمكانية وجود أنماط أخرى للرواد، ومن ثم فإنها تطرح السؤال عما يمكن أن تكونه تلك "الأنماط الأخرى من الرواد" بالضبط. وهذا معناه أن تلك العملية عملية جدلية تتكون من طرح السؤال: "إلى أى فئة أعم تنسب هذه الحالة؟" وللإجابة على هذا السؤال، ينبغى على هذه الباحثة الميدانية أن تعتمد على تشكيلة واسعة من الخبرات وأنواع مختلفة من المعارف من قبيل: خبرتها الشخصية كمرشدة، ووعيها بأن التعامل مع من يأتون متأخرين شأن عملى يتعين على المرشدين أن يواجهوه دائمًا، وخبرتها كإنسان حضر إحدى الحفلات فى وقت متأخر، ومعرفتها بالتفكير السوسيولوجى المتعلق بالانتظار كمفتاح لفروق القوة (كما جاء مثلاً فى شوارتز Schwartz ١٩٧٥).

ولكن بينما يكون الرواد المتأخرون لحفلات الرقص نمطًا متوقعًا، فإن العنوان التصنيفى الخاص "بالمنتظرين الغاضبين" يميز نمطًا من أنماط الجمهور، وهو نمط المتأخر الحضور والذى يمثل مصدراً للإزعاج والقلق الشديد. أما الحاشية الخاصة "بمطالبة أحد الرواد المتأخرين باستثنائه" فتميز كلاً من الاستجابات التى يتوجب على المرشدين أن يتعاملوا بها، والمفاهيم والفروق التى يبديها هذا الفرد المتأخر فى الحضور بعينه. أما العناوين التصنيفية التالية، وهى التى وردت فيها هذه العبارات "المدير يتدخل"، و"تحويل الملامة إلى شخص آخر"، و"شغل اهتمام المتأخرين" و"صرف الانتباه وإلهاؤهم" – فتميز أشكالاً إضافية لردود الأفعال "الاحتياطية" التى تمارس

فى المواقف الطارئة. وتتضمن هذه الاستجابات جهود المدير لتهدئة هذا الضيف الساخط، ومحاولات الكاتبة/ الباحثة فى جعل انتباه الرواد المنتظرين ينصرف بعيداً عن هذا التأخير.

إذن فالعناوين التصنيفية تتناول حادثًا محدداً، أو واقعة محددة، أو ملمحاً معيناً وتربطه بغيره من الأحداث أو الوقائع أو الملامح؛ بما يتضمن تمييزه عن غيره من نظائره الذين تجمعهم فئة واحدة كبيرة. وبمقارنة هذا الحدث مع الأحداث الأخرى "المشابهة"، يمكن للمرء أن يبدأ فى تمييز "الأبعاد" التحليلية أو المفاهيم التحليلية. ويستطيع المرء أن يفعل ذلك عن طريق تساؤله عن الفئة الأعم التى ينتسب إليها هذا الحدث، أو عن طريق التفكير فى أحداث خاصة تتناقض مع الحدث الراهن. مثال ذلك، أن من شأن التصرف المتمثل فى "احتجاز الرواد خارج صالة العرض" أن يثير اهتماماً بالموقف المناقض ("كإدخال الرواد المتأخرين إلى صالة العرض أثنــاء الحفلة" مثلاً)، ومن ثم فإنه يدفعنا إلى التماس الملاحظات التى تصف الطريقة التى بها يمكن التحايل لتدبير هذا الأمر.

وبينما تتضمن العناوين التصنيفية المستعملة هنا أموراً تشغل بال أفراد المجتمع ومصطلحات خاصة يستعملونها، فإننا نلحظ كذلك الاهتمام بالمعانى التى يقصدها المبحوثون فى العنوان التصنيفى الذى يقول "أحد الرواد المتأخرين يطالب باستثنائه". فهذا العنوان يحاول أن يشير إلى الفارق الحقيقى الذى يحاول هذا المشاهد أن يظهره فى محاولة منه للدخول لمشاهدة العرض – فقد وصل هذا الشخص بعد أن كان العرض قد بدأ، إلا أنه كان قد سبق له أن دخل فعلاً إلى القاعة قبل وقت العرض، وكان فى هذا الوقت يحاول العودة للدخول، وأنه لهذا السبب "لا يعد متأخراً" وينبغى أن يعامل معاملة تختلف عن معاملة أولئك المتأخرين فى الحضور. وإذا نظرنا إلى استجابات الموظفين (وهم هنا المرشدون)، فإننا نلمس فيها عدم الاهتمام عملياً بهذا الفارق؛ ذلك أن الأمور التى يفترض أنها هامة فى نظر الموظفين لا تتمثل فى اعتبارات العدالة والالتزام بالقواعد (مثل وجوب معاملة المتأخرين الحقيقيين بطريقة مختلفة عن معاملة

أولئك الذين اضطروا إلى مغادرة القاعة للحظات وعادوا بعدها) وإنما تتمثل فى الاضطراب الذى يمكن أن يحدثه دخول أى إنسان فى هذا الوقت قاعة العرض.

ومن خلال قراءة أولية لمذكراتها الميدانية سطراً بسطر، بدأت هذه الباحثة فى تجلية ما يقوم به مرشد الرواد إلى أماكنهم فى حفلات الرقص من أنشطة تقتضيها وظيفته وتخضع للاعتبارات الاجتماعية. وأثناء مواصلتها قراءة مذكراتها، وعند تساؤلها عن: "العمليات التى بإجرائها يُنجز هؤلاء المرشدون عملهم؟" فسوف تستحدث المزيد من عناوين التصنيف، وسوف يكون بعضها بمثابة عناوين إضافية أو تطوير لعناوين كان سبق لها أن وضعتها، بينما توحى غيرها من عناوين التصنيف بموضوعات أساسية وخطوط للتحليل مختلفة تمام الاختلاف. مثال ذلك، أنها بعد أن ميزت "الوافدين فى وقت متأخر" كمجموعة واحدة من الرواد المشاهدين لحفلة الرقص، سوف تمضى قدماً فى قراءة ومراجعة مذكراتها باحثة عن أنماط أو فئات أخرى للرواد. وبالمثل، فإنها بعد أن وضعت العنوان التصنيفى الذى يقول "منتظرين: غاضبون"، والذى يعنى ضمناً أن الشعور بالغضب هو مجرد رد فعل واحد من ضمن الفئة العامة لردود أفعال الجمهور، تستطيع أن تواصل قراءتها لتبحث عن ردود أفعال أخرى. كما يمكنها أن تتساءل قائلة: إن هذا الأمر يحدث الآن، ولكن هل يحدث دائماً؟ وما هى الظروف التى يحدث فى ظلها؟

وبالمثل، قد يميز الباحث نظاماً أو تسلسلاً طبيعياً للأحداث أو المراحل يتألف منه القدر الأعظم من النشاط. وهنا يمكنه كذلك أن يبلور موضوعات أساسية على امتداد هذه الخطوط عن طريق استمراره فى البحث عن الأحداث المتوقعة أو الروتينية التى تمثل إشكالاً فى كل مرحلة، وعن أنواع المهارات والممارسات المستعملة فى التجاوب معها. مثال ذلك، أن الاستراتيجيات التى ذكرت فى العنوان التصنيفى الذى يقول: "شغل اهتمام الرواد"، والعنوان الذى يقول: "صرف الانتباه وإلهاؤهم"، والعنوان القائل: "الابتسام"؛ هذه الاستراتيجيات المذكورة فى هذه العناوين التصنيفية توحى بأن الباحث يفتش عن حالات أخرى لإيضاح القضية العامة المتعلقة بالطرق التى يتبعها

أدلاء القاعة فى التحايل على الأنماط المختلفــة من أفراد الجمهور، أو التجاوب معهم، أو السيطرة عليهم، أو مواجهتهم.

ويضطلع الباحث الميدانى عند وضعه للعناوين التصنيفية بعملية تحليلية؛ فهو يسعى للانتقال لما وراء ذلك الحدث الخاص أو الموقف المعين والمذكور فى المذكرات الميدانية ليظفر ببعد أو قضية نظرية أكثر عمومية. ومع أنه من المفيد للباحث الميدانى أن يبدأ وضع العناوين التصنيفية بالتركيز على أحد المصطلحات الواردة فى المذكرات - سواء أكان هذا المصطلح صادراً عن الباحث الميدانى أم عن أحد المبحوثين - إلا أنه يتوجب على الباحث أن يُدخل تغييراً على هذا المصطلح بحيث يكون المصطلح دالاً على فئة أو مفهوم أكثر عمومية. إلا أننا نجد - على الناحية الأخرى - أنه ليس من المفيد للباحث أن يستعمل مفاهيم شديدة العمومية كعناوين للتصنيف. مثال ذلك، أنه ليس من المفيد وضع عنوان تصنيفى يقول "الضبط الاجتماعى" للإشارة إلى ما يقوم به الموظفون فى مدرسة إصلاحية للفتيات من تفتيش حجرات الفتيات المقيمات بالمدرسة بحثًا عن "الهمسات" "Buzzes" (وهى الخطابات التى ترسلها الفتاة لصديقتها فى المدرسة) وعن المحظورات الأخرى. فهذا المفهوم (الضبط الاجتماعى) شديد العمومية وليس له ارتباط خاص بالأحداث الواردة فى المذكرات. ولكن، من شأن عنوان تصنيفى يقول مثلاً "رقابة العاملين: عمليات تفتيش الحجرات" أن تصنف هذه الأنشطة التى يقوم بها هؤلاء الموظفون باعتبارها نوعًا خاصًا من الرقابة، وربما ينبه الباحث الميدانى إلى التفكير فى أشكال أخرى "لرقابة العاملين" ومحاولة تعيينها ووضع يده عليها.

التصنيف العام

عندما يُخضع الباحث مذكراته الميدانية لمثل هذه القراءة المتأنية والمدققة، فإنه يبدأ فى تناول الأجزاء الصغيرة من سجل المذكرات الميدانية بالغربلة الشاملة والتصنيف، وذلك عن طريق كتابته للكلمات والعبارات (أى العناوين التصنيفية) التى تميز وتسمى بعض الأبعاد والمفاهيم التحليلية الخاصة، وذلك طبقًا لما توحى به الملاحظات المسجلة.

ويمكن كتابة هذه العناوين فى هامش المذكرة الميدانية المتعلقة بها، أو على ورقة مستقلة (مع إضافة علامات لتحديد موقع المذكرة الميدانيـة الذى يندرج تحت هذا العنـــوان)، أو على الخانة أو الحقل المعنون بكلمة "تعليق" فى أحد برامج معالجة الكلمات، أو فى أحد خانات أو حقول الكلمـات الأساسية (المفتاحية) فى إحدى قواعد بيانات النصوص. وبوضـعه عناوين التـصنيف التفـصيلية، يفكر البـاحث الميـدانى فى كـافـة الإمكانيـات التـحليليـة؛ وهو يحـاول أن يظفـر بكل مـا يتـيح له الوقت من الأفكار والموضـوعـات الأساسية، إلا أنه يبقى على الدوام قريبًا مما هو مكتوب فى المذكرة الميدانية. وهو يقوم بهذا العمل بصرف النظر عن الطريقة التى ستستخدم بها هذه الأفكار والمفاهيم فى نهاية الأمر، وبصرف النظر عما إذا كانت ستستخدم أصلاً أم لا، وبصرف النظر كذلك، ما إذا كان قد تم القيام بملاحظات أخرى لها صلة بالموضـوع، وعن الطريقة التى بها سيتم التوفيق بين بعضها البعض.

وتختلف كتابة عناوين التصنيف بهذه الطريقة اختلافًا جوهريًا عن كتابة عملية التصنيف فى البحث الكمى. فعند تصنيف البحث الكمى يسير الباحث فى بحثه بطريقة استدلالية عن طريق وضعه للاستبيانات التى تحتوى على فئات مستمدة من الإطار النظرى. فهو يكيف إجابات الناس على الاستبيان ليجعلها متطابقة مع الفئات المقررة فعلاً بقصد تحديد مرات تكرار وقوع الأحداث داخل كل فئة من تلك الفئات. أما البحث الكيفى فيسير الباحث فيه بطريقة استقرائية عن طريق كتابته للمذكرات الميدانية التى تكشف ما للأحداث والخبرات من دلالة لدى أفراد ذلك المجتمع[٢]. وتعد عملية تصنيف البحوث الكيفية وسيلة لفتح أبواب التساؤل: إذ يقوم الباحث بتمييز وتطوير المفاهيم والرؤى التحليلية من خلال فحصه العميق وتأمله الدقيق فى البيانات التى تضمها مذكراته الميدانية. ولا يقصد من عملية التصنيف هذه – أساسًا – وضع عناوين على نتف وجُذاذات البيانات ابتغاء ضم "ما يتلاءم منها" فى فئة واحدة؛ فالباحث الميدانى فى الواقع مهتم بالفئات، ولكنه يهتم بها بوصفها طريقة لتصنيف البيانات أقل من اهتمامه بها كطريقة لتسمية، وتمييز، وتعيين ما لبعض الملاحظات الخاصة من فحوى

ودلالة نظرية. وعلى ذلك، فإننا، وخلافًا لعملية التصنيف فى البحث الكمى، نقوم فى تصنيف البحث الكيفى بتمييز وتطوير وتنقيح الرؤى التحليلية انطلاقًا من تفسير البيانات وابتغاء لتفسيرها[٣].

وتعنى وجهة النظر هذه فى تصنيف البحوث الكيفية - ضمنًا - أن بالإمكان قيام باحثين ذوى انتماءات نظرية وفكرية مختلفة بتصنيفات مختلفة لنفس مجموعة المذكرات الميدانية. إذ أن الخلفية والاهتمامات العلمية للباحثين ستحدث تأثيراً عميقًا على عملية التصنيف التحليلى للمذكرات: فالأنثروبولوجيون المهتمون بمفهوم الثقافة، مثلاً، قد يستنبطون مفاهيم تحليلية مختلفة عما يتوصل إليه الفولكلوريون المعنيون بفنون الأداء وديناميات التفاعل بين المؤدى الجمهور. بل إن الاختلافات النظرية داخل نفس الفرع من فروع العلم يمكن أن تؤدى وحدها إلى خلافات بارزة فى عملية تصنيف المادة الكيفية. شاهد ذلك، أن باحثين ميدانيين فى علم الاجتماع يدرسان قضايا الأسرة يكون من المرجح إلى حد بعيد أن يدونا مذكراتهما الميدانية ويصنفانها على نحو مختلف تمام الاختلاف (وفى رأينا أنهما سيختلفا حتى لو كان من المقرر أن ينفذا دراستيهما فى نفس المجتمع)؛ فقد يركز أحدهما فى تصنيفه على ما تحدثه السياسة الاقتصادية من نتائج على العلاقات الأسرية وعلى تقسيم العمل، بينما يركز الآخر فى تصنيفه على ما تؤديه النساء من عمل منزلى غير منظور داخل البيت. وموجز القول، أنه لا توجد طريقة وحيدة وصحيحة لتصنيف المذكرات الميدانية نظراً لأن الباحثين الميدانيين هم الذين يختارون، فى نهاية الأمر، من بين عدد من الأنماط والأفكار الممكنة، أيتها التى يتخذونها كأساس للتصنيف.

ويتعين على الباحث الميدانى وهو بصدد عملية التصنيف العام ألا يستعمل الفئات الجاهزة أو المحددة سلفًا فى قراءة المذكرات الميدانية، بل الأولى به أن يقرأ بعين فاحصة بحثًا عن الأحداث الواردة فى هذه المذكرات والتى يمكنها أن تصبح فى ذاتها الأساس الذى يقيم عليه تصنيفه. كما ينبغى عدم اجتناب بعض فئات التصنيف لأنها لا تتناسب مع "بؤرة الاهتمام" الأولية للباحث الميدانى؛ ذلك أن هذه البؤرة سوف تتغير كلما تقدم الباحث فى قراءته لهذه المذكرات. فالأولى بالباحث أن يسعى لتوليد أكبر

عدد ممكن من فئات التصنيف – ولو بصفة مبدئية على أقل تقدير – وبدون الانشغال بكون هذه الفئات لها صلة ممكنة بالمفاهيم الجاهزة أو المقررة فى ميدان التخصص العلمى الذى ينتمى إليه، أو لها صلة ممكنة ببؤرة اهتمام نظرى أولى لتحليل وتنظيم هذا البحث الميداني. ذلك أن جميع الأفكار والمفاهيم التى يمكن ربطها بمذكرات ميدانية معينة أو توليدها منها ينبغى معالجتها باعتبارها ذات أهمية محتملة كما ينبغى صياغتها والتعبير عنها بأقصى ما فى الإمكان من الوضوح والتحديد. ومن ثم، فإن أى فئة تصنيفية لا تتطلب بالضرورة ربطها بالفئات الأخرى أو بالبيانات الميدانية الأخرى؛ ذلك أن بالإمكان أن يأتى دمج هذه الفئات فى كل متكامل فى وقت لاحق، كما أنه على المرء ألا يتجاهل أو يهمل عملية التصنيف لأنها لا توحى بوجود دلائل واضحة على إمكانية دمجها داخل بؤرة اهتمام كبرى أو ضمن فئات أخرى يمكن أن تستجد.

وعلى سبيل الإيضاح، تأمل عملية التصنيف العام التالية لواقعة مستمدة من إحدى جماعات الدعم التى تخدم هؤلاء الذين يتولون رعاية أفراد الأسرة المصابين بمرض الألزهايمر:

أعراض الاضطراب: فقدان الذاكرة	تقول لوسى إن زوجها بصحة جيدة، إلا أن أعراضه تتضمن
سوء قيادة السيارة	فقدان الذاكرة كما أن قيادته للسيارة قيادة رديئة وخطيرة
الطبيب يعجز عن أن "يساعد"	لا يفعل الطبيب شيئًا لمنعه من قيادة السيارة.
تطلب النصيحة	وهى تسأل: "ما الذى يمكن أن يفكر فيه أى إنسان آخر؟" يقول بعض أفراد المجتمع "غيروا الأطباء".
الأسرة تضغط على الطبيب	تفسر لوسى الموقف بأن الطبيب صديق للعائلة. وقد أكد ابنها للطبيب أن قيادة

أبيه للسيارة أمر خطير وأن من الممكن أن يعرضهم ذلك للمسئولية القانونية.

فحص طبى لا نتائج

وقد عمل الطبيب فحصًا بالأشعة التليفزيونية ولكن لم يتسن استخلاص توجيه معين من الأشعة.

لا تعتمدوا على الطبيب

توصى "بات" – قائدة المجموعة – قائلة: "تولوا الأمر بأنفسكم". وهى تقترح

اقتراح بالذهاب إلى DMV

أن تذهب لوسى به إلى DMV (أحد المراكز الطبية). وتقول "لو" Lou إنها تظن أن هناك قانونًا جديداً يقرر أن أى إنسان مصاب بقصور عقلى، بما فى ذلك مرض الألزهايمر، لا يسمح له بقيادة السيارة.

لا توجد معرفة بالمركز الطبى

تقول لوسى: "ولكنى لم أسمع عن هذا المركز الطبى DMV – وهذا هو ما يمنعنى من التصرف. أنا فى غاية الإحباط".

نصيحة: تحالف الزوجة مع الطبيب

تقول فاى Vie: "أليس مهمًا عند الطبيب أن يأمره بألا يقود السيارة؟" تقول لوسى: "ولماذا لا يفعل ذلك؟ ربما يكون شديد القرب منه ولذلك لا يريد أن يضايقه". تقول "لو": "وماذا عن نيكولسون؟ إنه طبيب نفسى يعالج المسنين". يقترح أفراد آخرون أن تُخفى لوسى مفاتيح العربة.

العلاج العملى: الكذب

تقول جوى Joey:

	"لابد أن تكذبى عليه". تقول لوسى: "يجب أن اعترف أننى كنت أفعل ذلك فعلاً.
العلاج المقترح لن يجدى	تقول جوى: "كلنا يفعل ذلك". ... تقول لوسى فيما يتصل بمفاتيح العربة، أنه يعرف بوجود مجموعة ثانية منها. تقول امرأة أخرى إنها تكلمت مع زوجها فى هذا الأمر وأنه الآن لم يعد
"التحادث مع"	يقود السيارة. تقول لوسى: "لقد فعلت مثل ما فعلتيه. ولكنه لم يُجْدِ شيئًا". تقول إحداهن: "إنك فى حاجة للحصول على تشخيص جيد من طبيب متخصص". تقول لوسى: "هذا ما أفكر فيه". توافق الأخريات على هذا الرأى.

يتضح من خلال عناوين التصنيف الجانبية المكتوبة على هوامش المذكرات الميدانية أن الباحث الميدانى استطاع بلورة مجموعة من القضايا التى ليست مرتبطة ببعضها ارتباطًا محكمًا (أو ربما لا رابطة بينها) وذلك على النحو التالى:

- قيادة المصابين بالألزهايمر للسيارات يمكن أن يكون عملاً خطيرًا؛ قد يتوجب على أفراد الأسرة القائمين على رعاية المريض أن يجتهدوا فى ترويض من يصرون من هؤلاء المرضى على قيادة السيارات.

- قد تقوم التشخيصات الطبية بدور حاسم فى دعم جهود رعاة الأسر فى السيطرة على أنشطة المريض.

- قد يشعر رعاة الأسر بإحباط بسبب الأطباء الذين يعجزون عن التنبه لما يشغل الأسرة من هموم وعن تقديم الدعم لها.
- قد يقترح أعضاء جماعة الدعم طرقًا لتفادى العقبات التى يتسبب فيها الأطباء.
- قد يوصى أعضاء جماعة الدعم بأساليب علاجية عملية مختلفة من شأنها الحيلولة بين المريض بالألزهايمر وبين قيادة السيارة.

وتعكس بعض هذه العناوين التصنيفية قضايا سبق للباحث الميدانى أن اهتم بها منذ البداية مثل: "الاضطرابات" العملية وكيف يتجاوب الناس مع أمثال هذه الاضطرابات أو كيف "يعالجونها" (See Emerson and Messinger 1977). إلا أن كثيراً من هذه العناوين توسع مدلول مفهوم سابق ذكره، أو فى تخصيصه، مستعملة فى ذلك طرقًا مبتكرة وغير متوقعة، ومنها على سبيل المثال العنوان الخاص "بإخفاء المفاتيح" كعلاج عملى للقيادة الخطيرة للسيارة. وتميز بعض العناوين الأخرى قضايا غير متوقعة تماماً، ومنها مثلاً ما يتصل بكون الأطباء يمثلون عقبات، كما قد يمثلون حلفاء مأمولين، فى التعامل مع السائقين غير الأكفاء.

وعندما ينتهى الباحث الميدانى من قراءة المجموعة الكاملة لمذكراته الميدانية، فإن مفاهيمه وموضوعاته الأساسية سوف تكون قد تغيرت تغيراً جوهرياً. كما أن كثيراً من تلك المفاهيم سيتم التخلى عنه فى مقابل ذلك، وذلك عندما يصبح الباحث أكثر تركيزاً وتنبهًا لقضايا أشد إثارة للاهتمام وأكثر تكراراً فى حدوثها. زد على ذلك، أن عملية توليد عناوين التصنيف قد تساعد على توضيح المعنى أو الدلالة الذى تحمله المذكرات السابقة والمذكرات اللاحقة، وذلك لأن التصنيف يشكل - كما قد يغير - إدراك الباحث الميدانى لما "كانت تحتوى عليه" فى بداية الأمر. وكما علق على هذا الأمر أحد الباحثين فقال: "إنك تشعر أنك تعرف مذكراتك لأنك كتبتها، ولكن الواقع أنك كتبتها منذ زمن بعيد لدرجة أنها لم تعد تسعفك".

ويقرر كثير من الباحثين أن ما تتسم به عملية التصنيف - أساسًا - من تطور، ومن كونها عملية لا تنتهي في ظاهر الأمر، يدل على أنها أمر محبط ومزعج. ويقول أحدهم في هذا المعنى:

> عملية التصنيف تحدث مرة ثم تتكرر مرة ثانية. وقد انتهيت إلى أنني أقوم بالتصنيف مرارًا وتكرارًا... وقد كان لزامًا عليَّ أن أتغلب على حقيقة أنني ربما قمت بهذا العمل بالطريقة الخطأ، أو أنني غير معتاد - في الواقع - أن أجد أي تصنيفات جيدة أو أربط بين أمور لا ترتبط ببعضها. لقد كان لزامًا عليَّ أن أتغلب على خوفي من الظن الذي يراودني بأنه ربما لا يوجد شيء في هذه المذكرات.

والواقع أن عملية التصنيف أمر غير يقيني، وذلك لأنها ليست مسألة مقصورة على مجرد "اكتشاف" ما هو موجود في هذه البيانات، ولكنها مسألة أكثر إبداعًا، إذ تهتم بربط الأحداث والملاحظات المعينة بمفاهيم وقضايا تحليلية أكثر عمومية. وبالرغم من أن من المحتم على الباحثين أن يستوحوا أفكارًا مستمدة من تخصصاتهم العلمية ليبلوروا منها الارتباطات المنشودة، فإن عملية التصنيف تجعلهم مُنكبِّين على بياناتهم ومشدودين لها. وكثيرًا ما يكون الباحث على دراية - في نفس الوقت - بالمفاهيم والاهتمامات الأساسية لتخصصه العلمي، كما يلحظ بسرعة كيف أن معلومة ما من بين هذه البيانات ذات صلة بتلك المفاهيم والاهتمامات؛ ولكن الباحث قد يتوجب عليه في أوقات أخرى أن يعود إلى كتابات معينة لم يقرأها قبل ذلك، حتى يعثر على مفاهيم مناسبة لتلك المفاهيم والاهتمامات المذكورة. ونظرًا لما يقضيه الباحث من وقت، وما يقوم به من عمل، وما يتعرض له من أفكار أثناء اشتغاله بتخصص علمي ما، فإنه يكتسب الثقة بقدرته على صياغة الارتباطات التحليلية، كما تصبح عملية التصنيف أقل إزعاجًا وغموضًا.

ويمكن لهذا الاتجاه الحر في التصنيف أن يؤدي إلى القلق على عدة مستويات مختلفة: إذ يخشى بعض الباحثين ألا يصلوا أبدًا إلى نقطة اهتمام محددة تصلح

محوراً لكتابة ورقة علمية. ويريد غيرهم من الباحثين، وبعد أن وجدوا أن عملية التصنيف سطراً بسطر تستهلك وقتًا كبيراً وتصيب المرء بالملل؛ يريدون حينئذ أن يركزوا على عدد أقل من الموضوعات الأساسية حتى يستطيعوا التقدم بسرعة، وبدون أن يبذلوا قدراً كبيراً من المجهود "الضائع". ولكنا نجد مع ذلك طائفة أخرى من الباحثين يعبرون عن اهتمامهم بإيجاد إجراء يستعمل فى البحث عن توليد عدد كبير للغاية من عناوين التصنيف، ويتعارض مع ما سبق لهم أن تعلموه عن التفكير "المنطقى" والكتابة المنطقية (وما يقتضيانه من التخطيط لهما تخطيطاً دقيقاً قبل الشروع فى العمل). تأمل هذه التعليقات التى كتبها اثنان من الباحثين:

> قال الأول: لم يكن لدى أى فئات تصنيفية قبل أن أبدأ العمل. فما كنت مشغولاً إلا باستعراض المذكرات مع تدوين حواش موجزة بجانبها، ولكن لم يبد علىّ أننى كنت أباشر العمل فيها بطريقة منطقية جداً.

> وقال الثانى: استوفيت دراسة مجموعتين أو ثلاث مجموعات من المذكرات فوجدت عدداً كبيراً للغاية من الموضوعات الأساسية العشوائية التى تواتر ورودها، ولم أجد أى شيء منظماً.

إلا أن ما يبدو على المذكرات الميدانية من أنها عصية فى معالجتها، وذلك لكون عملية التصنيف تفضى بالباحث إلى كثير من الاتجاهات المختلفة؛ يعد – فى الواقع – أمراً طيبًا فى هذه المرحلة، فإن من شأن هذه التصنيفات أن توحى بما لا يحصى من القضايا والاتجاهات الممكنة. ونحن نوصى، وبالذات فى أوائل القيام بعملية التصنيف العام؛ نوصى بأن يقاوم الباحث تلك النزعات التى تجعله يركز على موضوعات أساسية بعينها أثناء الاستمرار فى استعراض السجل الحافل للمذكرات الميدانية، وأثناء توليده لبعض عناوين التصنيف الإضافية.

ومع ذلك، فقد وجدنا كذلك أن بإمكان عملية التصنيف العام المستمرة أن تحدث قدراً كبيراً من الإحباط عندما تبدأ الأفكار فى التشكل والاندماج. فالتصنيف العام المستمر قد يثبط – فعلاً – من همة الباحث فيمنعه من إبراز نقطة معينة تصلح للتركيز

عليها عندما يكون من الممكن والنافع القيام بهذا العمل. لذلك قد يُنصح باستعمال استراتيجية انتقائية للتصنيف العام، حيث يستعمل فيها الباحث تلك الإجراءات فى أوقات مختلفة وفى معالجته لمجموعات منفصلة من المذكرات الميدانية. مثال ذلك، قد يبدأ المرء بنوع من التصنيف العام المنهجى (أو المنظم)، ولكنه حينئذ، وبعد استعراضه لقدر كبير من المذكرات، قد يقوم بتصنيف بقية المذكرات، ثم يعيد – بشكل انتقائى – تصنيف المذكرات التى سبق له أن صنفها، مركزًا فى ذلك على الوقـائع "الأساسية" أو "ذات الدلالات الوفيرة" أو "الكاشفة".

كتابة التعليقات الأولية

مستلهمًا لما قرأه من المذكرات الميدانية وتصنيفه لها، يبدأ الباحث الميدانى فى إمعان النظر فى طائفة كبيرة من الأفكار والرؤى المتعلقة بمضمون هذه البيانات. وبإمكانه أن يحافظ على هذه الأفكار وأن يطورها ويدققها عن طريق كتابته لتعليقات نظرية أولية عنها. ونحن نحث على كتابة كل ما يمكن كتابته من التعليقات على الأفكار والقضايا والإيحاءات. وبينما تعكس بعض هذه الأفكار اهتمامات ورؤى يستخلصها الباحث الميدانى من القراءة، فإن جانبًا آخر منها ينبعث من قيامه بإعادة تأمل المشاهد والأحداث التى تصفها هذه المذكرات الميدانية.

وبصور عامة تعتبر التعليقات المكتوبة أثناء قيام الباحث بتصنيف المذكرات الميدانية ذات طابع تحليلى أكبر من التعقيبات التى يكتبها أثناء معايشته للأحداث. ويكون من المفيد، أحيانًا، تناول مذكرة ميدانية معينة تتسم بالثراء واستكشاف دلالاتها النظرية. وقد قامت الباحثة الميدانية التى درست أعضاء الأسر الذين يقومون برعاية مرضى الألزهايمر، قامت بكتابة التعليق التالى باعتباره مجموعة من "الملاحظات" الخاصة بالتعليق على اقتباس من مذكرة ميدانية مفردة وموجزة، ولكنها "موحية"، فقالت:

مذكرة ميدانية: أثناء عمل جماعة الدعم تعلق فوميكو Fumiko على سلوك زوجها قائلة: "يحدث فى لحظة ما أن يكون كالقطة الوديعة" (ضحك)، "ولكنه كان ثوراً هائجًا عندما حضر المتطوع VNA ليغسل له جسمه". وتضيف قائلة إنه مؤخراً كان يقاومها وهى تحلق له ذقنه، إلا أنه "فى هذا الصباح تركنى أحلقها له".

تعليق لاحظ كيف أن هذا الوصف يوحى بأن أفراد الأسرة الذين يقومون بالرعاية يدركون أن "التعاون" يمكن أن يختلف فى صورته ودرجته بصرف النظر عن قدرة مريض الألزهايمر وعن ظروفه. ومن ثم فإن مسألة ما إذا كان مريض الألزهايمر قادراً - أو غير قادر - على إطعام نفسه أو غسل جسمه، أو حلاقة ذقنه... إلخ، تختلف عن المسألة الخاصة بموقفه أو اتجاهه النفسى من الأنشطة الخاصة بمساعدته أو تقديم الرعاية له.

لاحظ كذلك إلى أى مدى يمكن أن تعتبر هذه الأمور غير متوقعة فى نظر المتطوع بتقديم الرعاية؛ ذلك أن غسل جسم هذا المريض وحلاقة ذقنه أمور قد تتم بسلاسة فى بعض الظروف، إلا أنها قد تتسبب فى إحداث مشاحنات كبيرة فى ظروف أخرى، كما أن المتطوع بتقديم الرعاية لا يبدو قادراً على العثور على سبب أو تفسير للسؤال عن متى ولماذا تحدث إحدى النتائج ولا تحدث نتيجة أخرى.

زد على ذلك، أنه من الراجح إلى حد بعيد أن مسألة انعدام الروح التعاونية أو قل "المقاومة"، من بين المسائل التى تظهر فى مجال تقديم الرعاية، هى التى تحدث مشكلات حادة وتلقى بأعباء ثقيلة على مقدمى الرعاية لمرضى الألزهايمر، وليس مقدار أو نوع المساعدة المقدمة فى حد ذاتها. وفى هذا الصدد، فإن من المحتمل أن يكمن لب عملية تقديم خدمات الرعاية فى تلك الحيل والممارسات التى تمنع المقاومة، أو تسيطر عليها، أو تتحاشها. وفى حالة تعامل المتطوع بالرعاية مع مريض بالألزهايمر متعاون

(أو غير مقاوم) يمكن للمتطوع – فى أغلب الأمور – أن يقول: "لا أزال قادراً على توجيهه". وبالمثل، فإن مريضاً بالألزهايمر متعاوناً هو شخص يمكن "التفاهم معه" بمعنى أنه شخص يمكن إقناعه بأن يقوم بإحداث تغيير فى حياته اليومية طواعية على نحو أو آخر.

فى هذا التعليق تميز الباحثة الميدانية قضيتين أوليتين وغير مترابطتين إلى حد ما فى هذه المذكرة الميدانية: فبعض مقدمى الرعاية يذكر أن من الممكن أن يتغير تعاون المريض بصرف النظر عن حالته البدنية، كما يذكر أن التعاون قد يقوى أو يضعف على نحو لا يمكن التنبؤ به. وفى الفقرة الأخيرة، تُعمل الباحثة فكرها فى مدى أهمية هذين الأمرين – التعاون (ومقابله، وهو المقاومة) – فى تشكيل القدر الأكبر من نمط ومسار تقديم الرعاية الأسرية لمرضى الألزهايمر.

وفى أحيان أخرى، يمكن للباحث الميدانى أن يستعمل تعليقاً أولياً ليحاول تحديد وتخصيص قضية تحليلية معينة تتقاطع مع عدد من الوقائع الخاصة. وفى هذه الحالة، مثلاً، ينبغى على المرء محاولة تمييز واستكشاف نمط عام أو موضوع أساسى، اعتماداً على عدد من الوقائع أو الأحداث المتفرقة ومحاولته الربط بينها. وعلى هذا الأساس نتأمل التعليق التالى المأخوذ من دراسة مظاهر الدعم والتفاعل بين العاملين فى قاعة المحكمة (وهم الكتبة، والقائم بالتسجيل، والحاجب) وهى دراسة تستكشف أنماط "دعم التواصل والعلاقات الداخلية" خلال جلسات المحكمة.

> إن الأمثلة الشاهدة على "دعم التواصل والعلاقات الداخلية" تتجسد بوضوح أثناء الوقت الميت (أى أثناء توقف الجلسات)، وفى الأيام التى يكون العمل فيها قليلاً، وكذلك بعد انتهاء جلسات اليوم... مثال ذلك، أنه بعد انتهاء جلسات اليوم، كان جميع الفرقاء – ماعدا القاضى الذى يغادر دار المحكمة دائماً – يتطلعون بشدة للتعامل مع بعضهم البعض. وقد اشتملت طرقهم فى التفاعل على تبادل الإشارات بالعيون فيما بينهم، وذهاب بعضهم إلى بعض، وتبادل الفكاهات، وتدخل البعض فى حوارات البعض الآخر. وبهذه الطريقة يمكنهم المشاركة فى المعلومات وتبادل الآراء.

يمكن تمييز هذه الفئة من فئات التفاعل عن اللغو التافه أثناء فترة توقف الجلسات، على أساس مدى انخراط هؤلاء المشاركين فى الأحداث. فالاهتمام القوى يعادل التواصل والتداخل. بينما الاهتمام الضعيف والذى يستدل عليه بقصر مدة التفاعل وافتقاد العاطفة والتواصل بالعيون، يعادل اللغو التافه.

هنا تميز الباحثة الميدانية نمطًا معتاداً للأقوال والأفعال الحميمة والمفعمة بالحيوية بين العاملين فى قاعة المحكمة، وتقارنه بما يحدث فى ظروف أخرى أقل إغراءً بالمشاركة فى التفاعل (وهى حالة "اللغو التافه"). وفى كتابتها لهذا التعليق تطرح بعض الملاحظات الأولية عن "متى" يحدث نمط التواصل هذا (أثناء توقف الجلسات، وفى الأيام التى يكون العمل فيها فى المحكمة خفيفاً، إلى آخره)، وتطرح كذلك بعض الملاحظات الأولية عن "ماذا" (عمّا) يشتمل عليه نمط التواصل المذكور (كالاهتمام بمجئ بعضهم لبعض، وتبادل الفكاهات، إلى آخره).

وموجز القول، أن عملية التصنيف الأولى وكتابة التعليقات تتطلب من الباحث أن يعود أدراجه خارجًا من موقع عمله الميدانى ليقوم بتمييز، وبلورة وتعديل الموضوعات الأساسية والبراهين التحليلية ذات الطابع العام. ومنذ بداية الاشتغال بالتصنيف والكتابة ينبغى أن تظل هذه الجهود مرنة ومنفتحة، وذلك لأن الباحث "فى هذا الوقت" يكون معنيًا بقراءة المذكرات الميدانية، وتصنيفها وتحليلها، قاصداً من وراء ذلك أن يستبقى فى ذهنه طائفة كبيرة مما هو جديد من الأفكار، والارتباطات، والعلاقات السببية أو المنطقية. ومع ذلك فإن هذا الباحث سوف ينتقل – فى نهاية الأمر – إلى ما وراء هذه الإجراءات العامة والشاملة ليسعى سعيًا حثيثًا للوصول إلى بعض الموضوعات الأساسية والتحليلية الأشد تركيزاً. وتتضمن عملية التدقيق والتركيز هذه – ابتداء – انتقاء عدد قليل من الموضوعات الأساسية الجوهرية التى سيقوم الباحث فيما بعد بمتابعتها من خلال التصنيف المركز والكتابة المتكاملة للتعليقات.

انتقاء الموضوعات الأساسية

يستطيع الباحث الميدانى من خلال التصنيف الأولى وكتابة التعليقات أن يميز عدداً من الأفكار والموضوعات الأساسية أكثر مما سيكون قادراً على متابعته في بحث واحد أو دراسة واحدة. لذلك يتوجب عليه أن يقرر أى الأفكار التى يتوغل فى استكشافها، وأى الأفكار سوف "يضعها على الرف"، ولو فى هذه المرحلة على الأقل.

وللباحثين الميدانيين طرق مختلفة فى انتقاء الموضوعات الأساسية الجوهرية. ويتمثل أحد معايير الانتقاء فى إعطاء الأولوية للموضوعات التى جُمعت عنها كمية ضخمة من البيانات، والتى تعكس أنماطًا متكررة وأساسية للأنشطة الموجودة فى مجتمع الدراسة. كما قد يعطى الباحثون الميدانيون الأولوية لما يبدو هامًا وذا دلالة فى نظر أفراد ذلك المجتمع، سواء أكان يتمثل فيما يرونه رئيسيًا وأساسيًا، أو فيما يعتبرونه مهمًا من الناحية العملية، أو فيما يستغرق قدرًا كبيرًا من وقتهم وطاقتهم. مثال ذلك أن باحثة كتبت مذكراتها الميدانية كمتدربة مقيمة بمكتب المراقبة التابع للمقاطعة تصف فيها العملية التالية فقالت:

> كنت أتصفح [المذكرات] وكنت لا أزال أفكر فى أمور منها: أن لدينا كل هذا العمل الورقى الذى يتعين إنجازه، ومنها أن بعضهم لابد أن يوقع على هذا وذاك، كما بدأت أشعر بهذه القضية الكبيرة – ألا وهى كيف تتعامل هذه الإدارة مع كل هذا العمل الورقى الكثير؟ وفى أثناء تصفحى لها، وجدت إجابة لهذا السؤال متمثلة فى جملة قالها أحد العاملين: "أوه، حسنًا، يحدث فى كثير من الأحيان أن يساعد بعضنا بعضًا إلى أبعد مدى". سوف يقول لى أحد ضباط المراقبة: لقد رأيت عميلك بالأمس فى قاعة الاستراحة؛ وسوف يعد ذلك اتصالاً مباشرًا مكملاً [وهو نوع من الاتصال الذى لابد من تسجيله فى ورقة البحث] بالنسبة لك لأننى رأيته. وهكذا توجد وسائل لتوفير الوقت والجهد بمثل هذه الطريقة. وتوجد تقارير مختصرة تسمى "التقارير الفصلية" (أى: الربع السنوية) التى توجز – بصفة أساسية –

عمل ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر فى صفحة واحدة. وهكذا تعتبر ثلاث ورقات أو أربع ورقات من هذا النوع بمثابة موضوعات فرعية لهذه القضية الكبيرة.

لقد بدأت هذه الباحثة – وفى أثناء تصفحها لمذكراتها – فى التنبه إلى المهام المختلفة التى لابد لضباط المراقبة أن ينجزوها، مع مراعاة دقيقة من جانبهم للظروف والقيود المصاحبة لهذا العمل. وقد أدى نظرها الفاحص لما يقوم ضباط المراقبة به فعلاً وسط هذه القيود العملية والمساعدات التى تقدمها هيئات أخرى – كالشرطة، والعيادات الطبية...إلخ – أدى إلى تزويدها بإطار تجمع فيه المهام التى كانت تبدو فى أول الأمر كما لو كانت مهاماً متفرقة. كما زودها اكتشافها للمزيد من الموضوعات الأساسية من هذا النوع بدليل لقراءة ما تبقى من مذكراتها وتصنيفها.

كما يتوجب على الباحث الميدانى أن يمعن النظر فى مدى إمكانية ارتباط أحد الموضوعات الأساسية المنتقاة بغيره من الموضوعات الأساسية الظاهرة. ذلك أن الموضوع الأساسى الذى يتيح للباحث تكوين صلات مع القضايا الأخرى التى لاحظها فى تلك البيانات يعتبر موضوعاً واعداً بصفة خاصة. كما أن اكتشاف طرق جديدة لربط الموضوعات الأساسية ببعضها يأخذ بعين الاعتبار احتمال أن تكون بعض الموضوعات الأساسية – التى ربما بدت قبل ذلك غير مترابطة ومن الجائز صرف النظر عنها – قابلة فى الواقع لإعادة دمجها باعتبارها "موضوعات فرعية".

وفى أثناء القيام بعملية بلورة الموضوعات الأساسية الواعدة ومحاولة استنباط الارتباطات الممكنة، قد يفقد الباحث الميدانى فى هذه اللحظة الإحساس بالتركيز ويضطر إلى معاودة تأمل الأفكار حتى يستطيع استعادة النظرة الواضحة إلى الأمور. شاهد ذلك أن باحثة كانت تدرس أوضاع الفرقة الموسيقية فى إحدى المدارس الثانوية الحكومية، بدأت عملية التصنيف وهى واعية تماماً بالموضوع الذى ستدير عليه بحثها العلمى، ثم تبينت فجأة أن اتجاهها قد تغير. وقد أمعنت التفكير فى هذه العمليات أثناء إجراء إحدى المقابلات، حيث تقول:

ظننت فى بادئ الأمر أننى سوف أشرح كيف يمكن - فى ظل التخفيضات فى الميزانية - مواصلة تنفيذ برنامج نشاط خارج عن المقررات الدراسية كالبرنامج الذى يتم تنفيذه حاليًا. ثم حدث أثناء وضعى لقائمة بالطرق التى يتبعها المدرس فى تنفيذ هذا البرنامج، أن خطرت ببالى فكرة مفادها أن عليه أن يقوم بكل ما يؤدى أولاً إلى نشر روح الصداقة بين كل هؤلاء الفتيان. وحينئذ ظننت - انتبه - إن بالإمكان أن تكون هذه الفكرة وحدها موضوعًا قائمًا برأسه. ثمة أمور كثيرة للغاية يضطرد حدوثها باستمرار. كيف لى أن أشرح فى بحثى هذه الزمر الاجتماعية المختلفة لمائة وعشرة من الفتيان. ثمة عدد كبير للغاية من الزمر الاجتماعية، أليس كذلك؟ وفى هذه اللحظة فقط بدأت النظر فى العلاقات التى تربط هؤلاء الطلاب بعضهم ببعض داخل "الشلة" وخارجها. لقد كان هذا أغرب ما حدث لى - فقد فقدت بحثى! وكلما توغلت فى عملية التصنيف، كلما ازددت فقدانًا لبحثى.

وانتهى الأمر بأن غيرت هذه الباحثة نقطة اهتمامها الأساسية من موضوع الفروق الكبير بين الزمر الاجتماعية إلى موضوع كيف استطاع هذا المدرس مواصلة تنفيذ هذا البرنامج فى مواجهة كل من التخفيضات فى الميزانية من جهة والنزعات المسببة للشقاق والموجودة داخل هذه الزمر المختلفة وفيما بينها وبين بعضها. أما ما نظرت إليه الباحثة نظرة سلبية باعتباره "فقدانًا لموضوع بحثها"، فإنه يدل فى الواقع على انفتاح على معان جديدة وطرق جديدة للربط بين أمور شتى.

وكثيرًا ما يتحدث الباحثون المشغولون بهذه العملية عن موضوع أساسى معين "يطرأ على بالهم بغتة" أو يشيرون - بدلاً من ذلك - إلى "اختفاء الفكرة المحورية لبحثهم الميدانى". وتبلغ هذه التجربة درجة من القوة والانتشار تجعل من المهم أن نتذكر قضيتين وثيقتى الصلة بما سبق لنا أن تناولناه فيما سبق:

الأولى: أنه بينما تكون خبرة الباحث الميدانى فى كثير من الأحيان خبرة "بشىء موجود على صفحات المذكرات"، إلا أنه لا المذكرات الميدانية ولا معانيها تعد شيئًا

"له وجوده الذاتي المستقل" الذى يجب الارتباط به بعد كتابة هذه المذكرات. وإنما الأصح أن الباحث، باعتباره مبدع هذه المذكرات أساسًا، يكون دائمًا هو الذى ابتدع معنى هذه الملاحظات واكتشف ما فيها من معنى. فاهتمامات الباحث وحساسياته الخاصة هى التى قادته للكتابة عن بعض الموضوعات دون غيرها. وقد يستمد الباحث هذه الاهتمامات من التزاماته ومشاعره الشخصية، كما قد يستمدها من الرؤى التى اكتسبها المرء من تخصصه العلمى وتراثه المنشور و/ أو الرؤى التى اكتسبها من الأستاذ الذى تلقى عليه العلم.

والثانية: أنه عندما يتصور الباحث الميدانى أن لديه "كمية ضخمة من البيانات" عن موضوع معين، فإنها لا تكون كذلك بسبب وجود شىء متأصل فيها، وإنما هى كذلك لأن هذا الباحث قد فسر هذه البيانات، ونظمها، وقدمها على نحو جعلها ذات صلة بهذا الموضوع.

وبمجرد أن يبلور الباحث مجموعة معينة من الموضوعات الأساسية الجوهرية ليخضعها لمزيد من التحليل، فإنه قد يجد من المفيد فرز المذكرات الميدانية على أساس هذه الموضوعات الأساسية المذكورة. وفى هذه الحالة يقوم الباحث الميدانى بتفتيت هذه المجموعة الكاملة من المذكرات الميدانية إلى مجموعات أصغر وأيسر تناولاً، جامعًا فى مكان واحد كل تلك الأجزاء المتصلة بكل قضية جوهرية على حدة. ويتضمن هذا الإجراء الخاص بالفرز أو الاسترجاع القيام بالتجميع المادى لنتف البيانات المتعلقة بموضوع أساسى معين بقصد تسهيل استكشاف معانيها. ذلك أن فرز البيانات فى مكان واحد أو فى كومة واحدة يسهل تحليلها عن طريق تركيز المذكرات الميدانية المتصلة بإحدى القضايا التى تبزغ أمام عينى الباحث(٤).

ويُنصح عند فرز المذكرات الميدانية، باستعمال الموضوعات الأساسية التى تتسم بكونها شاملة، بحيث تسمح بالجمع بين المذكرات التى سبق تصنيفها تحت عناوين مختلفة ولكنها مترابطة فى مجموعة واحدة. مثال ذلك، أنه فى الدراسة الخاصة بتقديم الرعاية الأسرية لمرضى الألزهايمر، قررت الباحثة – بعد قيامها بعملية التصنيف العام –

أن تختار "ممارسات التحكم (أو التعامل الفعال) مع المرضى كموضوع أساسى جوهرى. وقد تقرر أن تشمل ممارسات التحكم هذه أى تصرفات يقوم بها مقدمو الرعاية ليتحكموا بها ويسيطروا على ظروف المريض وسلوكه. وكانت هذه الفئة تتسم بالشمول - وعن قصد لهذا الشمول - كما أنها سمحت للباحثة بأن تدمج فى كيان واحد مذكرات ميدانية سبق تصنيفها تحت عناوين مختلفة كل الاختلاف؛ ومن ثم فإنها جمعت تحت عنوان "ممارسات التحكم" الوقائع التى تشمل: المراقبة المستمرة للمريض، وتحذير المريض أو "التفاهم معه"، وتعمد التحايل على المريض بقصد التحكم فى سلوكه المزعج. ويظل التحليل الذى يتم فى هذه المرحلة تحليلاً تمهيديًا، ويظل معنى ودلالة أى مذكرة ميدانية قابلين لمزيد من التخصيص والتحديد، بل وقابلين لإعادة تفسيرهما من الأساس. لهذا السبب، ينبغى على الباحث الميدانى أن يدرك أنه حر فى تضمين أى نص مقتبس من مذكرة ميدانية فى عديد من فئات التصنيف.

وتقتضى عملية الفرز التحريك المادى للبيانات باستخدام أساليب من شأنها أن تغير التتابع السردى الوارد فى المذكرات الميدانية. وقد اعتاد الباحثون الميدانيون فيما مضى أن يتناولوا نسخة مصورة من مذكراتهم الميدانية فيقطعونها تقطيعًا إلى أجزاء صغيرة، ويفرزوا هذه الأجزاء بتوزيعها فى أكوام يمكن - حينئذ - إعادة ترتيبها بصورة متكررة أثناء المضى قدمًا فى عملية التحليل. وفى وقتنا هذا يمكن لتشكيلة منوعة من برامج الكومبيوتر أن تقوم بمهمة الفرز هذه بسرعة فائقة وبكفاءة عالية، وذلك بالرغم من أن بعض الباحثين الميدانيين لا يزالون يفضلون تلك المرونة التى توفرها لهم المراجعة العامة للمذكرات الميدانية وهى مفروشة أمامهم على مائدة أو على الأرض(٥). وقد أكدنا قبل ذلك التوصية بأن يحتفظ الباحثون الذين يستعملون هذه الطريقة الأخيرة، بأن يحتفظوا إما بنسخة من المذكرات الأصلية مخزنة فى الكومبيوتر (ومعها نسخة احتياطية) وإما بنسخة مصورة سليمة ومغلفة بالورق المقوى من هذه المذكرات الأصلية للرجوع إليها فيما بعد.

التصنيف المركز

بعد الاستقرار على الموضوعات الأساسية الجوهرية وربما بعد فرز المذكرات الميدانية وفقًا لتلك الموضوعات، يعود الباحث مرة ثانية لإجراء نوع من التحليل الدقيق والمفصل لهذه المذكرات والذى يتمثل فى التصنيف المركز للمادة. ويتضمن هذا التصنيف صياغة متدرجة وتدقيقًا للموضوعات الأساسية ذات الأهمية التحليلية، وذلك عن طريق ربط البيانات التى ربما كانت – فى أول الأمر – غير مترابطة فى الظاهر، وكذلك عن طريق الوصف الدقيق للموضوعات الفرعية والقضايا الفرعية التى تُظهر الفروق والاختلافات الموجودة داخل الموضوع الكبير.

ومثالاً على ذلك، أصبحت الباحثة الميدانية التى ركزت بحثها على المتطوعين بتقديم الرعاية لأفراد الأسرة المرضى بالألزهايمر، واعية بالوصمة(*) التى جرت العادة بربطها بظروف هؤلاء المرضى وسلوكهم. لذلك فإنها بعد فرزها لكل المذكرات الميدانية المتعلقة بالوصمة (منظوراً إليها بصورة عامة) داخل سجل طويل واحد حافل بالمعلومات، قامت حينئذ بإعادة قراءة كل هذه المواد وإعادة تصنيفها، مطورة أثناء تلك العملية لمجموعة من الموضوعات الفرعية المتعلقة بالوصمة. شاهد ذلك، أنها انتهت إلى تمييز "التحايل" "Passing" وهو عنوان تصنيفى يشير إلى الجهود المبذولة لحجب هذه الوصمة عن مرأى الجميع – عن "التغطية"، وهو عنوان تصنيفى يشير إلى الجهود المبذولة للتغطية أو الإخفاء التام للسلوك المنظور الذى يؤدى لوصم المريض، أو جعله يبدو سلوكاً طبيعياً أو تشتيت الانتباه بعيداً عنه. كما أنها تنبهت إلى المواقف التى تعاون فيها مقدم الرعاية مع مريض الألزهايمر للتحكم فى الوصمة وصنفتها، كما صنفت المواقف التى دخل فيها المتطوع فى نوع من "التواطؤ" مع الآخرين للاعتذار عن – أو للتحكم فى –

(*) الوصمة Stigma مفهوم فى نظرية الانحراف طوره عالم الاجتماع الأمريكى إرفنج جوفمان (١٩٦٧)، ويعدها عنصراً مهمًا فى عملية وصف المنحرفين والدلالة عليهم. وهى تعريف لفرد معين بأنه ناقص، أو هامشى، أو مستبعد على نحو ما من المشاركة الطبيعية والكاملة فى الحياة الاجتماعية. ثم اتسع استخدام المفهوم فيما بعد. انظر المزيد فى موسوعة علم الإنسان، مرجع سابق، ص٥٥٧. (المراج)

الواقعة الواصمة وفى نتائجها الاجتماعية(٦). وفى عملية التصنيف المركز، يقوم الباحث دائمًا بعقد مقارنات بين الحوادث، مميزًا الحالات التى يمكن المقارنة بينها وفقًا لبعد معين وتلك التى تكون مختلفة وفقًا لبعد آخر، وبذلك يصوغ حالات متباينة من الأحداث أو تنويعات مختلفة لها. وعندما يميز الباحث الميدانى مثل هذا التنوع، يتساءل كيف تختلف هذه الحالة ويحاول أن يميز الظروف التى فى ظلها تحدث هذه التنويعات.

وبتفتيت المذكرات الميدانية إلى وحدات أصغر وأصغر حتى الوصول إلى مرحلة "عناوين التصنيف الفرعية"، يكتشف الباحث محاور وموضوعات أساسية جديدة كما يكتشف علاقات جديدة قائمة بينها. ويصدق هنا مجدداً ما أوصينا به من قبل من الانفتاح على الطرق الجديدة لفهم جزئيات البيانات وتجميعها بحيث تتناسب مع بعضها؛ وأعنى أن نفس هذه التوصية تنطبق على كتابة عناوين التصنيف سواء بسواء. وفى بعض الحالات تولِّد هذه العملية قضايا جديدة أو تكشف عن موضوعات جديدة تحول التحليل إلى اتجاه مختلف تمامًا، بل ربما تصل إلى أن تقتضى من الباحث أن يعيد التفكير فى هذه المذكرات الميدانية ويعيد تقسيمها إلى مجموعات أو وحدات. وفى هذا كتب باحث إثنوجرافى يقول:

> إنك تجمع بين اكتشاف النمط وخلقه أثناء إبداعك لهذه الجزئيات – أى وحدات التصنيف الأولية – كما تبدأ هذه الوحدات فى بناء وتأطير الشكل الذى ستؤول إليه الجزئيات الأخرى والطريقة التى بها سوف تتناسب مع بعضها. إن لديك مذكرة واحدة، وأنت تقول لنفسك: "أوه، تبدو هذه المذكرة مناسبة ومشابهة للمذكرة الأولى، بيد أنها مختلفة عنها اختلافًا طفيفًا، وهذا ما أعنيه "بالتنوع". ولكنهما يبدوان – إلى حد ما – وكأن إحداهما تتبع الأخرى". ثم تستمر حينئذ فى القراءة وربما وجدت بعد قراءة ١٥ صفحة تالية شيئًا ما يبدو شبيهًا بها يتبعها أو يتناسب معها. وتبدأ فى العثور على قطع من المذكرات تتناسب مع بعضها بطريقة ما. لا تنزعج بخصوص كيفية جعل كل هذه الجزئيات تتناسب مع بعضها بطريقة ما.

لا تنزعج بخصوص كيفية جعل كل هذه الجزئيات تتناسب مع بعضها في التقرير النهائي للبحث، واكتف بضمها معًا حتى لو لم يتوفر لك الروابط المنطقية التي تربط بينها. ذلك أن الهدف هنا هو التعرف على ما يجرى من الأمور بصرف النظر عما إذا كنت ستستفيد بذلك فيما بعد أم لا.

وقالت باحثة أخرى، وقد هالها في أول الأمر كثرة عدد عناوين التصنيف الأولية: "شعرت بوجود عدد كبير للغاية من عنـــاوين التصنيف التي لم تكن منطقيـــة جـــدًا". إلا أنها ثابرت حتى استطاعت البدء في إدراك أنه يوجد الكثير مما يمكن اكتشافه في هذه المذكرات فقالت: "أدركت فعلاً أنني أستطيع أن أرى داخل العناوين ذات الطابع العام كيف أنه بمجرد اختصاري لها اختصاراً شديداً أستطيع أن أعزلها عن بعضها في مجموعات فرعية أصغر. فالأمر الذي أحتاج للقيام به حينئذ هو أن أرتبها مرة ثانية". ويبدأ الباحث الميداني، من خلال قيامه بعملية التصنيف المركز، في التنبه إلى وجود نمط ما داخل ما كان يبدو في أول الأمر أنه حشد هائل من البيانات. كما أن الباحث باستعماله للتصنيف المركز قد يبدأ في تخيل الطرق الممكنة لصياغة وجهة نظر معينة أو لرواية قصة ما.

كثيراً ما يظهر القلق على الباحثين حينما ألا يكون لديهم سوى شاهد واحد أو مثال واحد من نوع معين للحدث أو القضية. وهم يقلقون من أن الكتابة عن حالة واحدة فقط قد يشوه تحليلهم إن كانت هذه الحالة تعكس الاستجابة التي صدرت من عدد قليل فقط من الأفراد الموجودين في مجتمع البحث. والحقيقة أن العثور على مثال واحد فقط يمكن أن يعتبر مشكلة إذا كان غـــرض الباحث هو ادعاء انتشار تلك الظـــاهرة أو تمثيلها للمجتمع كله. إلا أن الانتشار يعد بعداً واحداً فقط من أبعاد التحليل. ومع أن الباحث يبتهج بوجود أمثلة متعددة لنفس الموضوع الأساسي أو العنصر الثقافي، إلا أن هدف التحليل الإثنوجرافي ليس التمثيل: فالواقع، أن الباحث الميداني يسعى لتمييز الأنماط وتنويعاتها المختلفة الموجودة في العلاقات وفي الطرق التي يتبعها أفراد المجتمع في فهمهم واستجابتهم للظروف والطوارئ التي تحدث في مجتمع البحـــث.

لذلك فإن "وجود حالة واحدة فقط" ليس أمراً مثيراً للقلق فى كثير من الأحيان(٧). وعندما يُسعد الحظ الباحث فيعثر على أكثر من حالة واحدة، فإن من المهم أن يلاحظ كيف تتماثل هذه الحالات وكيف تختلف. ومن الأسئلة المفيدة التى ينبغى على الباحث الاحتفاظ بها فى ذهنه عندئذ: التساؤل عما إذا كان هذا المثال مشابهًا لغيره أو مختلفًا، وعن كيفية هذا التشابه أو هذا الاختلاف؟ وكذلك التساؤل عن الظروف التى فى ظلها حدثت هذه الفروق والأشكال المختلفة؟

التعليقات التكاملية

نظراً لأن الباحث الميدانى ينتقل – باضطراد – من جمع البيانات إلى تحليل المذكرات الميدانية، فإن كتابة التعليقات المتكاملة التى تنقح الأفكار وتبدأ فى وصل أو ربط عناوين التصنيف بمجموعات البيانات معًا تصبح مسألة فى غاية الأهمية. ذلك أن هذا الباحث، عند كتابته للتعليقات المتكاملة، إنما يسعى لاستكشاف العلاقات القائمة بين المذكرات الميدانية التى سبق له أن صنفها، كما يسعى لتقديم تحليل أكثر رسوخًا وقوة لموضوع أساسى معين أو لقضية ما عن طريق ربطه لمجموعة متنوعة من الملاحظات التى لا صلة بينها. وعند هذه اللحظة يستمر كثير من الباحثين الميدانيين فى الكتابة لأنفسهم أساسًا، فيركزون على تدوين أفكارهم المتدفقة على الورق محافظين على ذلك الأسلوب المتحرر فى الكتابة والذى يكتبون فيه لأنفسهم – مثلاً – عبارة: "تنبه لهذا" أو عبارة "لاحظ ذاك" والذى هو سمة لعدد من التعليقات التى عرضنا لها حتى الآن. ومع ذلك، فإن باحثين آخرين يجدون أنه من المفيد أن يبدأو الكتابة وفى أذهانهم صورة واضحة لنوعية الجمهور الذى سيقرأ لهم فى المستقبل. وبالنسبة لهؤلاء الباحثين، توفر لهم التعليقات المتكاملة فرصة أولى للبدء فى الشرح المطول للسياق الذى تم فيه جمع المعلومات المتصلة بمجتمع البحث، وهى المعلومات التى من شأن القارئ غير المطلع على هذا المجتمع أن يحتاج لمعرفتها لكى يتابع ما فى البحث من أفكار وأحكام أساسية. ويؤدى تخيل الباحث لهؤلاء القراء المستقبلين إلى حثه على

الكتابة بصيغة أكثر عمومية، أى أن يعبر عن الأفكار باستعمال المفاهيم واللغة التى تقترب من الكتابة التحليلية التى سترد فى النص النهائى للبحث. وهو الأمر الذى يعد محاولة أولى لصياغة فكرة متماسكة باستعمال طرق من شأنها أن تنظم قطاعًا من التقرير النهائى للبحث (انظر المناقشة الواردة فى الفصل السابع من هذا الكتاب). ولذلك تبدو أمثال تلك التعليقات أكثر دقة وإحكامًا.

ومن الناحية الفعلية، قد تغطى التعليقات المتكاملة مجموعة من الوقائع المذكورة فى المذكرات الميدانية، فتصل هذه الوقائع ببعضها عن طريق استعمال جمل رابطة. وسنحاول أن نتأمل التعليق المطول التالى والذى يتناول "الدور العلاجى" الذى يقوم به أفراد العائلة القائمون برعاية مرضى الألزهايمر، وذلك بقصد توضيح هذه العملية. يقول التعليق:

> يشتمل الدور العلاجى على محاولات تعديل السلوك المزعج للمريض بمجرد حدوثه. ويأخذ القائمون بالرعاية على عاتقهم القيام بمراقبة عضو الأسرة ومحاولة "تهدئة الأمور" فى مختلف الأماكن العامة. مثال ذلك ما تقدمه "لورا" من شرح لما تقوم به من عمل فى حضرة الأصدقاء فتقول:
>
> إن المريض قد يبعد الفنجان عن طبقه ويكتفى بوضعه فى مكان آخر على المائدة. فأقول له: "أرى أن من الممكن أن تعيد هذا الفنجان إلى مكانه هنا لأنه سوف ينقلب على الأرض، كما أن الأسهل لك أن تحتفظ به قريبًا منك هكذا"... فأنا بذلك أحاول تهدئة مثل هذه الأمور.
>
> وفى حالة مماثلة، تروى "كارول" كيف أن "نِدْ" Ned يسبب لها الارتباك عندما يخلع طاقم أسنانه الصناعية فى أحد المطاعم وكيف تعالج هذا الأمر فتقول:
>
> نهضت مسرعة ووقفت أمامه وقلت له: "ضع أسنانك فى فمك". ثم تشرح لى الموقف فتقول: "لقد شعرت بأن من اللازم على أن أحافظ عليه. فماذا كان سيحدث لو أن الفتاة القائمة على خدمة الزبائن حضرت فى هذا الوقت؟

فى هذا الجزء الأول، تربط الباحثة الميدانية واقعتين منفصلتين تحدثان فى المطاعم من خلال الموضوعين الأساسيين المتعلقين "بالمراقبة" و"بتهدئة الأمور". وبقيامها بهذا الربط، فإن الفروق القائمة بين هاتين الواقعتين يتم إدراجها تحت هاتين الفكرتين المحوريتين العامتين، مثلما ورد فى الحالة الأولى، أن أمرًا مخالفًا للمطلوب يتم منعه من الحدوث، بينما فى الحالة الثانية يحدث الفعل المخالف للمطلوب ولكن يتم "تغطيته" حرفيًا ثم تعديله.

وعندئذ تشرع الباحثة فى تناول بُعد آخر من أبعاد الدور العلاجى، فتُظهر المقارنة بين الدور العلاجى الذى يعتمد على تعاون المريض بالألزهايمر والدور العلاجى الذى يقوم به القائم بالرعاية مباشرة فتقول:

> يشتمل الدور العلاجى على ضرورة التوصل إلى دفع المريض إلى التعاون عندما يكون قادرًا على ذلك. مثال ذلك، أن "لورا" تصف حال زوجها فى أحد مطاعم الحى، وكيف توجه إليه تعليماتها وكيف تُحركه حسيًا أثناء أدائه للمهام المختلفة التى يقتضيها تناوله للطعام (انظر مفهوم "تحريك الدمى" Puppeteering، بولنر وماكدونالد- ويكلر ١٩٨٥) وكيف يستجيب هو لذلك. ويعطينا وصفها التفصيلى لتعاملهما مع بعضهما مذاقًا واقعيًا لدقائق الأمور التى يتوجب على القائم بالرعاية التنبه لها:
>
> أقول له: "والآن استمر فى الدوران حتى تصير رجلاك تحت المائدة ثم تحرك حتى تصبح أمام مفرش المائدة"... ثم يضع قدح البيرة بالقرب من حافة المائدة حتى ليكاد يسقط على ملابسه، أقوم بإعادة القدح إلى مكانه... ثم اضطر إلى ترتيب الأشياء... يلتقط كعكة التورتيَّة (الأسبانية) بعد أن سقطت على الأرض، وهذا أمر غير لائق. ولو أن أى إنسان كان يرقبنا لانزعج من ذلك كل الانزعاج".
>
> بينما تعطى "لورا" انطباعات عن دورها العلاجى مع "ويليام" فى المثال السابق، فإن "تِس" Tess فى موقفها (الذى سيرد لاحقًا) تتولى المسئولية

وتحاول معالجة الموقف بطريقتها الخاصة. وهى تصف ذهابها إلى أحد المطاعم مع بعض زملائها في العمل، حيث تحاول تغطية أخطاء والدها حتى يقل احتمال ملاحظة زملائها لهذه الأخطاء فتقول:

> أذهب مع والدى إلى المطاعم فى سائر الأوقات... وأنا أراقبه. أجعله يسير أمامى حتى أتمكن من إصلاح أى خطأ أو قصور قد يسببه. وهو يحب أن يتناول الملعقة، ويضع شيئًا من الجبن على السلطة، ثم يترك الملعقة فى صحنه... وأنا أمسك بالملعقة وأعيدها إلى مكانها... وجميع زملائى فى العمل موجودون وراء ظهرى...

هنا تعقد هذه الباحثة مقارنة بين نوعين مختلفين من الاستجابات أو ردود الأفعال على التصرفات المسببة للمشاكل من جانب مريض الألزهايمر. فهى، أولاً، تلاحظ معاملة "لورا" لزوجها عن طريق إصدار الأوامر إليه، وترى الباحثة فى ذلك نوعًا من التشابه مع فكرة "تحريك الدمى" التى ظهرت فى مقالة كانت قد اطلعت عليها. ثانيًا، تمعن الباحثة النظر فى الطرق التى تتبعها "تِس" فى السيطرة على والدها عن طريق "مراقبته" مباشرة. ثم تستمر فى التفكير فى الظروف التى فى ظلها يكون أحد أشكال الدور العلاجى ملائمًا فتقول:

> نظرًا لأن مريض الألزهايمر تقل قدرته باستمرار على التعاون مع القائم برعايته فى الممارسات المتصلة بالدور العلاجى، فإن القائم بالرعاية يكون مضطرًا إلى ممارسة المزيد من السيطرة على الموقف. من ذلك ما تقوله "كارول": "أنا أكثر استعدادًا لأن أكون السلطة الأعلى... فهذه هى الطريقة التى تسير بها الأمور. وبتعبير آخر، أنا أمارس السيطرة التامة".

فالكاتبة بتسجيلها لهذا التعليق ترسم – إذن – الخطوط الرئيسية لنوع من الانتقال من الأشكال اللطيفة للدور العلاجى إلى الأشكال الأشد فاعلية وتقييدًا لحركة المريض، وهو الأمر الذى يترجح وقوعه مع تفاقم المرض. وهى تختتم تعليقها بالرأى الذى تقول فيه إن تفاقم المرض يقتضى أساسًا زيادة السيطرة على سلوك مريض الألزهايمر؛

وهى تقتبس تعبيراً لإحدى المتطوعات وهى تتحدث بصراحة عن حاجتها فى هذه اللحظة إلى أن "تمارس السيطرة الكاملة".

وعند كتابة التعليقات التحليلية التكاملية التى من هذا النوع، تتمثل المهمة الرئيسية فى إظهار الارتباطات النظرية بين النصوص المستخلصة من المذكرات الميدانية. وعندما يقوم الباحث بذلك، فإنه يواجه خيارات تحليلية عسيرة. ومن القضايا الكبرى فى هذا الصدد تقرير ما هو الموضوع الأساسى الذى سيجعله بؤرة تركيزه الرئيسية، وما هى الموضوعات التى يجعلها فرعية، وما هى الموضوعات التى يستبعدها تماماً. وبالعودة إلى المأزق الذى وقعت فيه الباحثة التى "فقدت بحثها" أثناء تركيزها على ملاحظاتها وقيامها بفرزها: فإن إحدى الاستراتيجيات التى يمكنها اتباعها تتمثل فى تقسيمها تقرير الدراسة إلى أقسام مختلفة، وذلك بحيث يتم تحليل قضية الخطط التى يتبعها المدرس فى إدارة الفرقة الموسيقية بوصفها موضوعاً مستقلاً عن تحليل قضية تقسيم الطلبة إلى زمر أو مجموعات فرعية. وثمة احتمال آخر، وهو أن تنظر الباحثة إلى هذه الخطط باعتبارها جوانب مختلفة للموضوع الأساسى الأكثر عمومية. وفى هذه الحالة، يكون من شأن تقرير البحث أن يركز على الطريقة التى اتبعها المدرس ليتمكن من الحفاظ على برنامج النشاط المدرسى غير المقرر، بحيث يظل مستمراً فى مواجهة صعاب طاغية، من قبيل: تراجع موارد التمويل، ووجود مجموعة من الطلبة كبيرة العدد وغير متجانسة. وقد تشمل بعض الموضوعات الفرعية الأخرى الطريقة التى حاول بها المدرس أن يحث الطلبة على قضاء مزيد من الوقت فى ممارسة نشاط الفرقة فى أيام العطلات الأسبوعية أو فى أثناء الأسبوع، وعلى الطريقة التى عالج بها التوترات والاهتمامات المختلفة بين الزمر المتعددة للطلبة.

وكثيراً ما يتطلب البت فى كيفية اختيار إطار التحليل التوقف للحظة بعيداً عن التفاصيل الدقيقة، من أجل الإجابة على هذا السؤال: ما هو السؤال، أو الأسئلة، الأكبر والأوسع نطاقًا التى أود أن أجيب عليها؟ مثال ذلك، أن باحثة درست أحوال مدرسة ثانوية بديلة (أى ذات برامج غير تقليدية – المترجم) استطاعت – بمجرد إدراكها الواضح للقصة التى تريد حكايتها – أن تدمج الموضوعات الأساسية المستفادة من

الواقعة التالية والمتضمنة لمناقشات جرت – فى هذه المدرسة – حول طريقة استخدام أحد الكراسى فى اجتماع عام لكل أسرة المدرسة منْ الطلاب والمعلمين والعاملين. تقول الباحثة:

> كان الكرسى مستقراً فى مكانه هناك، وكنت جالسة خلف مجموعة من الشبان الذين كانوا يحجزون بعض الكراسى خالية لزملائهم عندما يحضرون، أخذت هذه الفتاة منها ذلك الكرسى وبدأت تضع قدمها عليه، فقال لها الشبان: "يا هذه، يوجد امرؤ يجلس على هذا الكرسى". قالت: "حسنًا، هل أستطيع استعماله – فحسب – حتى يعود صاحبه؟" ثم يأتى مدرس باحث مسرعًا، وبإمكانك أن تراه وهو يرمق الكرسى بعينه، ويقول للفتاة: "هل أستطيع الجلوس على هذا الكرسى الذى تضعين عليه قدميك؟" قالت: "ثمة شخص يجلس على هذا الكرسى". قال: "حسنًا، سوف أجلس عليه فقط إلى أن يعود"، ثم جلس على الكرسى فعلاً. إلا أن الشاب الأول يقول: "عفواً، ثمة شخص يجلس على هذا الكرسى". يقول المدرس: "حسنًا: سوف أعيده عندما يحضر صاحبه". يعود الطالب [الذى هو صاحب هذا الكرسى] وينهض المدرس وينصرف.

رأت الباحثة فى هذه المذكرة الميدانية الطرق التى يتبعها الطلبة فى هذه المدرسة فى التعامل فيما بين بعضهم، وفيما بينهم وبين مدرس باحث بخصوص الجلوس على أحد الكراسى. ومع أنها عثرت على الواقعة، وعلى الوقائع الأخرى العديدة المشابهة والتى لها أهميتها فى موضوع العلاقات القائمة بين الطلبة وبعضهم البعض، وبين الطلبة والمدرسين، إلا أنها ناضلت لكى تعرف كيف تربط أمثال تلك الوقائع بمجموعة منوعة من الموضوعات الأساسية الأخرى. وهنا قررت أن تعود وتحاول ربط هذه الواقعة على نحو أكثر توسعًا بأمر كان قد نما إلى علمها من قبل، ووجدته هامًا بالنسبة لهذه المدرسة. فقد فكرت، مثلاً، فى ذلك الشعور بالفخر الذى يحس به كل من طلاب ومدرسى هذه المدرسة البديلة والذى يستمدونه من أخلاقيات "اتخاذ القرار ديموقراطيًا" و"الاشتراك فى امتلاك القوة". وقد قارنت هذا الأمر بما يقع فى الكثير جداً من المدارس

التقليدية التى يمارس المدرسون فيها السلطة بيسر وسهولة. وباستحضارها فى ذهنها لتلك القضية الأعم والمتعلقة بهذه المقارنة، رأت هذه الباحثة أنه، فى بعض الأحيان، قد لا يؤمن المدرسون العاملون فى هذه المدرسة البديلة أو لا يؤْثرون ممارسة السلطة، ويفضلون عليها الإقرار بما للطلبة من حق فى أن يكون لهم "مساحة" للمشاركة فى الإدارة. وقد أدى هذا التصور بالباحثة إلى أن ترى أن بإمكانها أن تربط "التفاوض على مجال المشاركة" (كموضوع أساسى) بطائفة من الوقائع التى تم اتخاذ القرارات فيها بطرق غير تسلطية (أى ديموقراطية). كما أنها بدأت تبحث عن أوجه المقارنة – من زاوية هذا الموضوع الأساسى – وخاصة تلك الشواهد والنماذج للقضايا والمسائل التى كان التفاوض بشأنها محظوراً من قبل. وباتباعها لهذا المنحى الفكرى فى التحليل، رأت الباحثة أن إحدى الوقائع التى كان من المحتمل – فى بادئ الأمر – أن تبدو واقعة منفصلة وعابرة، رأت أنها مرتبطة بالقضايا الأكبر والمتصلة بالقوة والسلطة. وبنظرة أعمق إلى جوهر القضية، نتبين أن عثور الباحثة على إطار لهذه الحادثة (يضمها مع غيرها من الوقائع المشابهة) ساعدها على ألا تعتبر دعاوى المدرسين والطلبة فى أحقيتهم فى "الديموقراطية" وفى "اقتسام القوة" قيمًا ظاهرية أو مسلمات، بل ساعدها على أن تعتبرها إنجازات يحظى أصحابها بألوان متنوعة من التقدير والإجلال فى هذا المجتمع.

وللمرة الثانية نقول: لا توجد طريقة وحيدة وصحيحة لتنظيم الموضوعات الأساسية والموضوعات الفرعية. ويتوقف جزء من القرار الخاص باختيار أى السبل – لتنظيم الموضوعات – على نوع البيانات التى تم تسجيلها. ففى الدراسة التى أجريت على الفرقة الموسيقية بالمدرسة الثانوية، كان من شأن الملاحظات البالغة الثراء والتفصيل والتى تتحدث عن أنماط الطلبة فى هذه المدرسة أن تسمح بالتركيز على زمر الطلبة كموضوع أساسى. ولكن عندما لا تتوفر أمثال تلك الملاحظات، فلابد أن تُنحى فكرة الزمر الطلابية عن مركز الصورة وتصبح جزءاً من السياق أو الخلفية مع وجود شئ آخر فى مقدمة الصورة. ومن المعتاد عند الباحثين الميدانيين أن يقوموا بتجربة عدة احتمالات وتعديلها، وطرحها، وإعادة النظر فيها قبل تقرير ما الذى منها يروى القصة

بأفضل صورة. وكما هو الحال من قبل عند كتابة المذكرات الميدانية أولاً، فإن القرارات التنظيمية سوف تتأثر بعدد من العوامل التى تتراوح بين تحديد مدى شمولية الخطة التنظيمية من جهة، وتحديد مدى كفاءة هذه الخطة فى تسليط الضوء على عدد معين من الاهتمامات والتفضيلات النظرية والموضوعية.

أفكار للتأمل: خلق النظرية من المذكرات الميدانية

يبدأ تحليل البيانات الميدانية بمفاهيم تستند إلى معرفة دقيقة بمجتمع البحث أو الأحداث محل الدراسة وتعكسها. فالباحث، ومن واقع ما يقوم به من عناية دقيقة ومنتظمة بالمذكرات الميدانية بوصفها بيانات، يسعى لتوليد ما يمكنه توليده من الأفكار، والقضايا، والعناصر، والموضوعات الأساسية. وهذه عملية استقرائية فى حقيقتها.

ويختلف الباحثون الميدانيون عن غيرهم من العلماء الاجتماعيين الذين يباشرون بحثهم بطريقة استدلالية، حيث يستخدمون نظرية معينة لتفسير الظواهر، وذلك بأن يحاولوا العثور على ما فى البيانات من شواهد تدلل على هذه النظرية أو تدحضها. ومع أنه من المحتمل أن تضفى المذكرات الميدانية امتيازاً على أنواع معينة من الأحداث – وهى الأحداث التى لها أهمية فى نظر المبحوثين أو التى توضح العمليات الاجتماعية مثلاً – إلا أن الباحث الميدانى يباشر بحثه بطريقة مفتوحة النهاية إلى حد بعيد، ساعياً إلى تمييز القضايا والأفكار عن طريق قيامه بالغربلة الشاملة للمذكرات الميدانية وضم أجزائها إلى بعضها. ويظل مثل هذا الباحث متفتح الذهن للإمكانيات والاحتمالات الأخرى، كما أنه يبذل اهتماماً جاداً بالعمليات والقضايا التى تتضح له وهو يراجع هذه البيانات.

ولا ينبغى فهم هذا الكلام على أنه يعنى أن الباحث الميدانى يتجاهل تماماً النظرية المعاصرة، وأنه ليس لديه التزام فكرى سابق على قراءته الشاملة لهذه المذكرات. ولكنه يعطى الانطباع بأن مثل هذا الباحث يرى أن النظرية لا تقف هكذا ساكنة تنتظر

بأن يقوم المحللون باختبار المفاهيم، واحداً واحداً، بمقارنتها بالأحداث الجارية فى العالم الاجتماعى. كما يؤكد كلامنا هذا أن البيانات لا تقف منعزلة باعتبارها مقاييس مستقلة لقياس الكفاءة النظرية. بل الأصح أن ما لدى الباحث الميدانى من فروض، واهتمامات، واتجاهات نظرية يلتزم بها تدخل ضمن كل مرحلة من مراحل كتابة البحث الميدانى، كما أنها تؤثر على قرارات الباحث بدءاً بما كان منها متصلاً باختيار أى الأحداث للكتابة عنه، وانتهاء بما كان منها يستلزم التأكيد على أهمية رؤية أحد أفراد المجتمع لحدث معين، والتى تفوق أهمية رؤى غيره من الأفراد للحدث نفسه. ومن ثم فإن هذه العملية عملية تفاعل انعكاسى (تأملى نقدى) أو جدلى بين النظرية والبيانات، عن طريقها تتدخل النظرية فى كل لحظة، غير مقتصرة على تشكيلها للتحليل فقط، بل تشكل كذلك الطريقة التى تفهم بها الأحداث، والتى بها تسجل الأحداث باعتبارها بيانات فى المقام الأول.

فالهدف - إذن - من العمل الميدانى، هو توليد النظرية التى تستخلص من الأنشطة الجارية فى مجتمع الدراسة، أو تكون متصلة بها اتصالاً مباشراً. وهذا الهدف لا يتعارض فحسب مع أولئك الذين يمارسون الاستدلال المستمد من النظرية التى يؤمنون بها، بل يتعارض كذلك مع أنصار النظرية الموثقة (جلاسر وستراوس ١٩٦٧). وكما نوهنا من قبل، فإن القائلين بالنظرية الموثقة يركزون على "اكتشاف" وتعديل النظرية من خلال الفحص الدقيق للبيانات الكيفية. إلا أن مثل هذا المنحى الفكرى يقسم البيانات والنظرية بصفتهما كيانين منفصلين ومتميزين، فهو يتحاشى رؤية النظرية باعتبارها جزء متأصلاً فى صلب مفهوم البيانات أساساً. ولكن البيانات، وكما سبق أن أكدنا، لا تكون خالصة أبداً، فهى حافلة بالمعانى، كما أنها تتسبب فى اتخاذ الباحث لقرارات تفسيرية قائمة على اختياراته المسبقة وعلى ما يؤمن به من المفاهيم العامة والمجردة. وتهون النظرية الموثقة من شأن العمليات التى عن طريقها يتم تجميع البيانات، والعمليات التى تصوغ المفاهيم الموجودة فى البيانات منذ البداية والمتمثلة تحديداً فى عملية كتابة المذكرات الميدانية.

وفى هذا الصدد، يكون من قبيل تشويه الحقائق أن نتكلم عن "اكتشاف النظرية"، وهو الأمر الذى نتعرض كثيراً للوقوع فى إغراء القيام به. وذلك لأننا كثيراً ما نشعر، وفى أثناء قراءتنا الدقيقة والمتعمقة لما كتبناه من مذكرات ميدانية، أننا "نكتشف النظرية" الموجودة فى البيانات التى تحتويها هذه المذكرات. إلا أن غاية ما فى الأمر أن النظرية تبدو وكأنها تقفز خارجة من داخل البيانات وتصيب الباحث فى وجهه؛ ولا تحدث هذه الومضة الفكرية إلا بسبب ما هو مطمور داخل هذه المذكرات من الالتزامات الفكرية التحليلية السابقة، ومن الاهتمامات والالتزامات النظرية التى يطرحها الباحث على قرائه، ومن الروابط التى كونها مع ما لاحظه وكتب عنه من "الأحداث المشابهة". لذلك، يكون من الأدق أن نقول إن الباحث الميدانى يخلق النظرية ولا يكتشفها. وهو لا يقوم بهذا الخلق فقط فى المرحلة التى يصل فيها لذروة القراءة والتأمل فيما شاهده وكتب عنه من قبل، ولكنه يقوم به كذلك أثناء ما كان يقوم به قبل ذلك من عملية الملاحظة أثناء كتابته للمذكرات الميدانية.

ففى العمل الميدانى - إذن - تكتسى الأحداث والتصرفات معناها ودلالتها فى ضوء تبلور كيان كلى ظاهر ذى مغزى. فتحليل المذكرات الميدانية ليس مجرد مسألة اكتشاف ما تحتوى عليه هذه البيانات. بل الأصح أن الباحث الميدانى ينتقى بعض الوقائع والأحداث، ويجعل لها الأولوية، ويؤول به الأمر إلى أن يفهمها فى علاقتها بغيرها. وكثيراً ما يؤدى إدراكنا لما يتسم به العمل الميدانى من طبيعة تحليلية مستمرة إلى تغيير طرقنا التى اعتدنا التفكير بها فيما يتصل بعلاقة الباحث بكل من المذكرات الميدانية والتحليل الذى يجريه عليها. وتصف إحدى الباحثات عملية اكتشافها "لصوتها الإثنوجرافى" (أى رؤيتها المميزة - المترجم) فتقول:

> فى بداية الأمر، كنت أرغب فى أن ينبثق هذا البحث من خلال هذه المذكرات، بمعنى أن تكون قصة خاصة به يحكيها، وكان من المفروض أن أقوم أنا برواية هذه القصة. ولكنى اضطررت إلى الانتقال من مجرد الرغبة

فى التحدث عما فى هذه المذكرات، إلى استخراج شىء صلب منها: ألا وهو أفكارى، وذلك بدلاً من أن أتصور أن هذا الأمر مخفى فى مكان ما داخل هذه الملاحظات.

وبدلاً من أن يَقتصر الباحث الميدانى على تتبع ما ترويه البيانات، يُفضل أن يستخلص هو منها البيانات ذات المعنى والدلالة. فالتحليل ليس مسألة متعلقة بأمر ما ينبثق من بين البيانات، ولا بمجرد العثور على ما هو موجود فيها، بل هو فى جوهره، عملية خلق ما هو موجود فيها عن طريق التفكير المستمر فى مضمون الأحداث والمعانى التى سبق تسجيلها.

الفصل السابع

كتابة تقرير البحث الميدانى

عندما يطرح الباحث الميدانى مذكراته الميدانية جانبًا ويشرع فى كتابة تقرير بحثه، فإنه يبتعد كذلك عن المشاهد المحلية والمشاركين فيها، وعن العلاقات التى كونها فى مجتمع البحث والالتزامات الشخصية التى جلبها على نفسه هناك. ها هو الباحث يجلس الآن إلى مكتبه، فيبدأ بمراجعة ما سجله عن الخبرات اليومية لأفراد مجتمع البحث، ويعيد النظر فى مذكراتها الميدانية يتأملها كنصوص يتعين تحليلها، وتفسيرها وانتقاء أجزاء منها لإدماجها فى التقرير الذى ينوى كتابته ليطرحه على جمهور عريض من القراء. وهكذا نجد أن الوعى المزدوج بكل من أفراد المجتمع من ناحية والجمهور الخارجى من ناحية أخرى، وهو وعى كان كامنًا طول الوقت ولكنه مقموع داخل دور الملاحظ المشارك الذى كان يمارسه الباحث فى الميدان. هذا الوعى المقموع الصامت يفصح عن نفسه الآن ويبرز بقوة عند كتابة تقرير البحث الميدانى فى صورته النهائية المنقحة.

ومع أن الباحثين الميدانيين قد يتخيلون - وهم يكتبون - أنواعًا مختلفة من جماهير القراء، إلا أن أغلبهم يكتبون لزملائهم الباحثين[1]. ولأن الباحث قد درس دراسة علمية منظمة وتخصص فى فرع معين (مثل: علم الاجتماع، أو الأنثروبولوجيا، أو الفولكلور، أو التربية...إلخ) فإنه ينطلق عند الكتابة من بعض الأفكار التى يبلورها والتى تستمد معناها من لغة المفاهيم فى العلم الذى تخصص فيه. ومع أن الاهتمامات العلمية المتخصصة تشكل مداخل كثير من المذكرات الميدانية، إلا أننا نجد فى الواقع

أن الباحث وهو يؤلف تقرير دراسته الميدانية يحرص واعيًا على جعل ملاحظاته ومشاهداته لبعض الأحداث المحلية تتحاور مع مفاهيم تخصصه العلمي ومع تقاليده. إذ أن على الباحث كمؤلف أن يستعرض العالم الخاص الذى درسه (أو على الأقل شريحة منه أو سمة أساسية من سماته) لقارئ دراسته الذى ليست له معرفة مباشرة بهذا العالم. وعليه لكى يفعل هذا أن يتحرك جيئة وذهابًا بين الأحداث التى وصفها فى مذكراته الميدانية من ناحية والمفاهيم الأساسية لتخصصه العلمى من ناحية أخرى. أما الاهتمام المفرط بالإطار الأكاديمى والمفاهيم العلمية فمن شأنه أن يؤدى إلى تشويه – أو التعتيم – على السمات الدقيقة للحياة اليومية فى مجتمع الدراسة. كما أن الاقتصار على عرض مفاهيم وتصورات أفراد المجتمع من وجهة نظرهم وحسب لن يؤدى إلا إلى إنتاج نص عديم الدلالة ولا أهمية له من وجهة نظر الدارسين المتخصصين.

ونقدم فى هذا الفصل أسلوبًا فى كتابة التقرير النهائى للدراسة الميدانية يحرص على أن يوازن وأن يحل هذا التوتر القائم بين القضايا التحليلية (النظرية) والمعانى والمفاهيم المحلية. ونتصور أن الأسلوب الملائم هو كتابة تقرير البحث "كحكايات" يسردها الباحث، لا أن يكتب دراسة تحليلية محكمة التنظيم، تقود فيها كل فكرة منطقيًا وبشكل محدد إلى الفكرة التى تليها (Van Maanen 1988; Richardson 1990). فتقارير الدراسات الميدانية ليست سوى حكايات أو قصص، ولكن ليس بمعنى أنها سرد خيالى مختلق، وإنما بمعنى أن الكاتب يستخدم فى عرضه الأساليب والقواعد الأدبية المتعارف عليها (Atkinson 1990) لكى يخلق من المذكرات الميدانية نوعًا من السرد الذى يمكن أن يستأثر باهتمام القراء الخارجيين. فتعمل تلك الروايات على نسج تحليلات محددة للشذرات المتفرقة التى تحويها بيانات المذكرات الميدانية مكونة قصة متكاملة. وهذه القصة تنقسم – من الوجهة التحليلية – إلى موضوعات، ولكنها مرتبطة بمرونة نسبية. ذلك أنها ترتكز بالأساس على المذكرات الميدانية وتتمحور حولها، بمعنى أنه مركبة من سلسلة متتابعة من الوحدات المنتظمة موضوعيًا من مقتطفات تلك المذكرات ومن التعليقات التحليلية.

ونبدأ الفصل باستعراض نوع السرد الإثنوجرافى أو القصة التى نحاول كتابتها، وهو النوع الذى نسميه "السرد الموضوعى"(*). والسرديات الموضوعية تحتوى على عدد من الموضوعات الأساسية Themes(**) أو المفاهيم التحليلية التى يربط بينها موضوع مشترك(٢). ثم ننتقل بعد ذلك إلى مناقشة بعض الخطوات التى من شأنها أن تقودنا إلى كتابة سرد موضوعى يتخذ من المذكرات الميدانية ركيزة له. وتشمل هذه الخطوات البدء بكتابة بعض التوصيفات الأولية لموضوعات التحليل الأساسية، ثم الاتجاه بعد ذلك إلى انتقاء، وتوضيح، وترتيب، ومراجعة بعض المقتطفات المتعلقة بكل موضوع من المذكرات الميدانية، وصولاً إلى تكوين مجموعة من الوحدات المنتظمة موضوعيًا لتلك المقتطفات وللتعليقات التحليلية عليها. وننتهى بمناقشة عملية كتابة المقدمات والخلاصات اللازمة لإخراج نص علمى ميدانى مكتمل(٣).

(*) السرد Narrative هو تنظيم اللغة بإفراغها فى بناء يمكن من خلاله نقل وصف للأحداث بأسلوب مترابط ومنظم. وعلى ذلك، فإن أشكال السرد تثير فكرة التعاقب: "فقد حدث هذا... ثم حدث هذا..." إلى آخره. وثمة مجموعة متنوعة من النظريات التى تفسر السرد، منها مثلاً نظرية جيرار جينيت Gérard Genette، التى تُفيض فى شرح السرد وفقًا للنموذج النظرى للبنيوية، ومن ثم تزودنا بتفسير علمى للشكل السردى (وهو المبحث العلمى المسمى علم السرد: "الناراتولوجيا" Narratology). وبناءً على هذا المفهوم يتكون السرد من العلاقات المنتظمة (بنائيًا) بين بعض الأمور كالأحداث المروية، ومن التعاقب التاريخى لوقوع تلك الأحداث، والتعاقب الزمنى المقدم فى طوايا هذا السرد، وما للقاص من منظور فكرى ومزاج نفسى، والعلاقة بين كتاب الأعمال السردية وجمهورهم، والنشاط المتمثل فى السرد نفسه.
والسرد الموضوعى المقصود هنا، والذى سيرد الحديث فيه تفصيلاً يحكى عن موضوعات متتابعة، ولكن ضمن إطار يقسمها إلى موضوعات، وليس إلى مراحل، أو غير ذلك. فالموضوع هنا هو وحدة السرد. (المراجع)

(**) طور أوبلر Opler (١٩٧٦) مفهوم الموضوعات الثقافية، الذى يرتبط بالاتجاه التشكيلى فى دراسة الثقافة، وتختلف عنه من حيث أن أصحاب اتجاه التشكيل يبحثون عن نمط ثقافى مسيطر على الثقافة بأكملها، يفترض أوبلر أنه يمكن دراسة الثقافات باعتبارها مجموعات من الموضوعات المسيطرة. وهذه الموضوعات، التى يمكن أن تكون متعارضة أو متناقضة مع بعضها البعض، تساعدنا على فهم الطريقة التى يصيغ بها الأفراد سلوكهم، واتجاهاتهم، وقيمهم، ونظمهم الاعتقادية. وهكذا يسلم هذا الاتجاه بأن الأنساق الثقافية قد لا تكون تامة الاتساق أو التماسك، كما تقدم لنا نموذجًا للتعامل مع التناقضات الداخلية فى أى ثقافة. انظر المزيد فى موسوعة علم الإنسان، مرجع سابق. (المراجع)

تطوير السرد الموضوعى

عندما يبدأ الباحث الميدانى فى تصنيف مذكراته وكتابة أفكاره الأولية فإنه يهتم بتعيين عدد من الموضوعات الأساسية التحليلية وتدقيقها. وعند البدء فى كتابة تقرير الدراسة الميدانية يقوم الكاتب بتنظيم بعض هذه الموضوعات الأساسية مكونًا منها "قصة" متماسكة تحكى عن الحياة فى مجتمع الدراسة وما يدور فيه من أحداث. ويتطلب مثل هذا السرد اختيار جانب محدود فقط من مجمل المذكرات الميدانية، ثم يؤلف بينها فى نص متماسك يصور جانبًا محددًا أو شريحة محدودة من مجتمع الدراسة.

ويلاحظ أن كتابة سرد موضوعى يختلف اختلافًا جوهريًا عن كتابة أطروحة علمية تحليلية، سواء من حيث عملية التأليف بين مكونات هذا النص، أو من حيث بنية هذا النص النهائية. فمن الناحية البنائية نلاحظ أن مؤلف النص الذى يتناول أطروحة منطقية يصدِّر عمله بقضية صورية يشرحها فى المقدمة كموقف تنطلق منه المناقشة، ثم يعالج كل نقطة تحليلية بالشواهد التى تنبع منطقيًا من تلك القضية الأساسية، والتى تنتهى كذلك إلى تأييد ذات القضية عينها(٤). على النقيض من هذا تنمو القصة الميدانية وتتقدم عن طريق الفحص الفكرى للشواهد المتاحة حتى تبلغ منتهاها بدعم الفكرة المحورية فى الدراسة. وعلى حين يبدأ السرد الموضوعى بطرح فكرة أو قضية رئيسية، إلا أن السرد يتقدم بالتوصل إلى التدقيق والتمحيص الكامل لتلك الفكرة على امتداد التقرير. على أن الصياغة الأكثر دقة واكتمالاً لتلك القضية تبلغ ذروة وضوحها فى نهاية القصة، يكون مكانها فى العادة خاتمة التقرير.

ويمكن القول – فضلاً عن ذلك – أن بناء السرد الإثنوجرافى (الميدانى) إنما هو محصلة تسلسل منظم لمقتطفات المذكرات الميدانية. وتمثل تفاصيل تلك المذكرات أحجار البناء الضرورية لهذه القصة. ويعنى هذا أن السرد الموضوعى يستخدم المذكرات الميدانية لا كمجرد إيضاحات أو أمثلة لنقاط محددة سلفًا، وإنما هى بالفعل أحجار البناء لتشييد هذه القصة وعرضها. وهكذا يجرى الأمر: تنمو الفكرة الأساسية من

خلال عملية تصنيف مقتطفات المذكرات الميدانية والانتقاء من بينها، وليس عن طريق تحديد مسبق لعناصر المذكرات التى يتعين اختيارها. فمقتطفات المذكرات ليست مجرد شواهد لتأييد وجهة النظر التحليلية، وإنما هى لب القصة وفحواها.

ومن زاوية عمليات الكتابة يتطلب تطوير سرد موضوعى التحرك باستمرار جيئة وذهاباً بين وقائع معينة مما تحتويه المذكرات الميدانية من ناحية، والتحليل الدقيق الذى يزداد تحديداً مع تقدم العمل من ناحية أخرى. ولتسهيل هذه العملية نوصى ألا يبدأ الباحث بقضية نظرية مبدئية أو بفرض إجرائى. ونحث الكاتب - بدلاً من هذا - أن يمسك عن صياغة أية قضية صريحة محددة قبل انتهاء ورقة البحث، ذلك أنه سوف يتوصل - مع اضطراد عملية الكتابة - إلى اكتشاف جوانب جديدة للمادة الميدانية، ولذلك يحرص على تحقيق التوازن بين آرائه التحليلية ومتطلبات الالتصاق الأمين بآراء أفراد مجتمع البحث. ونرى أن يبدأ الباحث الميدانى تطوير السرد الموضوعى بصياغة موضوع أو تساؤل عام، ومن شأن هذا الموضوع أن يربط اهتماماً تحليلياً شاملاً وقدرة على الإحساس بالأحداث التى جرت فى مجتمع البحث. ومن تلك الموضوعات - مثلاً - "الانتماء السلالى كتصور اجتماعى فى إحدى المدارس الثانوية"، وموضوع: "دور الآباء فى جلسات محاكم الأحداث"(٥). وفى هذه المرحلة المبكرة من الكتابة تشير صياغة الموضوع إلى اهتمام أو إلى ظاهرة، ولكنها لا تبلور مشكلة محددة أو تساؤلاً محدداً، ولا حتى تؤشر على قضية صورية أو تفسير بعينه. ولكن الأرجح أن يدل الموضوع أو التساؤل على بؤرة اهتمام عامة إلى حد ما، وأن يعين المؤلف على أن يشرع فى ربط مكونات المذكرات الميدانية ليصنع منها كياناً كلياً متماسكاً.

وعلى العموم يستوعب موضوع السرد الإثنوجرافى (الميدانى) عدداً من الموضوعات التحليلية الأساسية الأكثر تحديداً، أى يبلور فروضاً بشأن عدد من الأنماط، أو العمليات، أو الانتظامات الرئيسية فى مجتمع البحث. من هنا فإن أحد سبل بلورة موضوع معين يتمثل فى استعراض التصنيفات والملاحظات المتوفرة من قبل، بحيث تبرز - أثناء ذلك - فى مادة المذكرات الميدانية بعض الموضوعات الأكثر

أهمية أو دلالة. عند هذه المرحلة ننصح الكاتب أن يصيغ بعض العبارات التى تشرح بعض الموضوعات الأساسية على نحو صريح وواضح. وفى البداية لا يكون الباحث مضطراً إلى أن يحدد - هكذا مبكراً - علاقة تلك الموضوعات الأساسية ببعضها، أو حتى كيف يمكن ربطها ببعضها البعض. ذلك أن الكتابة لا تستهدف سوى توضيح بعض الموضوعات التى يحتمل تبنيها وزيادة درجة تحديدها . ولكن بعد أن يتوصل الباحث إلى وضع يده على بعض الموضوعات وبلورتها، يشرع فى البحث عن سبل لربط بعضها بأحد الموضوعات الرئيسية التى اختارها للتقرير. بعدها يمكنه أن يقرر إسقاط بعض الموضوعات الأخرى التى يتعذر ربطها بالموضوع الرئيسى للتقرير.

وثمة بديل آخر لهذا الوضع، وهو أن يخرج الباحث من استعراض التصنيفات والملاحظات مستقراً بشكل واضح على موضوع رئيسى له أهميته، كما أن له القدرة على ربط كافة عناصر البيانات ببعضها. هنا يتعين عليه أن يصيغ هذا الموضوع بأقصى ما يستطيعه من وضوح، ثم ينتقل بعد ذلك إلى محاولة بلورة عدد من رؤوس الموضوعات الأكثر تحديداً وتفصيلاً لكى تخدم هذا الموضوع الرئيسى وتدعمه. وهو يستطيع أن يحقق ذلك بمراجعة تصنيفاته، وملاحظاته، ولو اقتضى الأمر يعاود قراءة مذكراته الميدانية الأصلية. ونسوق مثالاً على ذلك: أن الدارس المتدرب على البحث الميدانى فى محاكم الأحداث بعد أن فرغ من كتابة العبارة التالية: "سوف أثبت أن الآباء يشاركون فى القرارات التى تصدرها المحكمة"، سأل نفسه عن الأساليب المختلفة التى يشارك بها الآباء فى صنع قرارات المحكمة. وأثناء استعراضه لتصنيف مادة مذكراته الميدانية استطاع أن يضع يده على نمطين متميزين لهذه المشاركة:

فى النمط الأول يستخدم القاضى الوالدين كمصدر للمعلومات عن الفتى (أو الفتاة).

وفى النمط الثانى يسعى القاضى إلى مساعدة الوالدين على ضبط سلوك أولادهم.

عند ذلك صاغ موضوعين أكثر تحديداً:

- الأول: "فى بعض الأحيان يستخدم القاضى المعلومات التى يحصل عليها من الوالدين ضد الحدث(*) (الفتى أو الفتاة) لكى يصدر بناء عليها حكمه".
- والثانى: "كما أن القاضى يمكن أن يعاون الوالدين فى ضبط سلوك الحدث ومراقبته، ومن ثم يهدده بالعقوبة".

وفى كلا الاحتمالين المطروحين يتعين على الباحث الميدانى أن ينتقل جيئة وذهاباً بين الموضوع الرئيسى والموضوعات الفرعية، ثم يصوغ عبارة عامة شاملة تربط الموضوعيات الفرعية ببعضها البعض فى إطار الموضوع الرئيسى، و/ أو يصيغ عبارات واضحة أكثر تفصيلاً تغطى كل منها وصفاً لكل موضوع رئيسى (إذا تعددت). على أنه ليس من اللازم أن تكون العلاقات بين الموضوعات الفرعية شديدة الحبكة ومبررة تبريراً منطقيًا قويًا، ذلك أن الموضوعات الفرعية المكونة "للسرد الموضوعى" يمكن أن تكون درجة التكامل والترابط بينها على قدر من المرونة. وفى العادة تتطلب عملية ربط الموضوعات الفرعية ببعضها البعض وترتيبها فى سياق واحد بعض التغيير فى الصياغات اللفظية والتصور النظرى. ولا شك أنه سيتضح أن بعض تلك الموضوعات الفرعية قد لا "تتناسب" مع موضوعات فرعية أخرى – حتى بعد التعديلات وإعادة النظر – ولذلك قد يتم إسقاطها من التقرير. والحقيقة أنه حتى بعد الانتهاء من وضع خطة شامة لتحرير المسودة الأولى لتقرير البحث، يكون من المعتاد مراجعة الصياغات

(*) الحدث هو الشخص صغير السن – من الذكور أو الإناث. فهو لم يبلغ بعد السن الذى يُعامل على أساسه كشخص بالغ. وسن البلوغ يختلف من دولة إلى أخرى، ولكن فى معظم دول العالم يتحدد سن البلوغ ما بين ١٨–٢١ سنة. ولفظ الحدث تعبير لغوى فصيح، ولكنه يستخدم فى مجالى علم الاجتماع والقانون بالمعنى العمرى المحدد الذى عرضناه. وسبب ذلك أن المساءلة القانونية للأحداث المنحرفين تتم بمعرفة نيابة متخصصة (نيابة الأحداث)، وأمام محاكم متخصصة للأحداث. كما يقضون العقوبة التى يحكم عليهم بها فى مؤسسات عقابية خاصة. (المراجع)

الدقيقة للموضوعات الفرعية وطبيعة علاقات الترابط والتداخل بينها. وتتعدد مثل هذه المراجعات مع تقدم العمل وعندما تبدأ تتضح ملامح الدراسة الميدانية.

ونتأمل فيما يلي حالة أحد الدارسين الذي بدأ بلورة سرد موضوعي عن قضية رئيسية مؤداها: "الانتماء السلالي كتصور اجتماعي" في أحد المدارس الثانوية. قام في البداية بصياغة تحديد أدق لموضوعه هذا، قال فيه: "في سياق التفاعلات بين الناس يخضع "الانتماء السلالي" باستمرار لعمليات تأكيد وتعديل في كل موقف". ثم اتجه بعد ذلك إلى صياغة عدد من الموضوعات أو القضايا الفرعية التي أراد معالجتها في تقريره. وفي الخطوة الثالثة والأخيرة رأى أنه لكي يعرض لهذه الموضوعات الفرعية قام بوضع الترتيب التالي لأقسام التقرير الخمسة، التي يختص كل قسم منها بأحد الموضوعات الفرعية الخمسة، وذلك على النحو التالي:

١- سوف أستعرض بوجه عام بعض أساليب استخدام الانتماء السلالي في المدارس.

٢- سأوضح أن التلاميذ يشيرون، ويعرفون ما هي الجماعات الاجتماعية والإثنية المختلفة، ولكن مكونات كل جماعة تختلف عن الأخرى.

٣- سأدرس استخدام الانتماء السلالي الأسود وكيفية حفاظ الجماعات الاجتماعية السوداء على الحدود السلالية في تعاملها مع الجماعات الأخرى.

٤- سأعالج موضوع استخدام بعض الناس جماليات بعض الجماعات السلالية الأخرى (مثل استخدام البيض لأساليب السود في الزي أو المظهر..إلخ)، من وجهة نظر الحدود السلالية.

٥- هنا سأتناول الصراع السلالي (الإثني) بالتحليل، بوصفه عملية توليد الفروق الثقافية وتأكيدها.

وعندما يتصدى الباحث لتناول تلك الموضوعات الفرعية، فإن عليه أن يفعل أكثر من مجرد ذكر المواقف المختلفة التي عاين فيها هذا الموضوع أو ذاك. إذ الأمر الأكثر

أهمية وإلحاحًا هنا هو أن يضع أيدينا على أوجه التميز والاختلاف بين الظواهر المرتبطة ببعضها من ناحية، وعن أوجه التشابك والترابط بينها من ناحية أخرى. من هذا مثلاً أنه عند تناول موضوع كيف يتحدث التلاميذ عن "الجماعات الاجتماعية والسلالية" وكيف يعرفونها، لا يكفى الاقتصار فقط على ذكر الجماعات السلالية (والاجتماعية)، وإنما يجب أن يتناول الهويات السلالية التى تنسبها كل جماعة للجماعات الأخرى. فى مقابل ذلك عند تناول موضوع كيفية "حفاظ الجماعات الاجتماعية السوداء على حدودها السلالية"، لابد أن يأتى على معالجة كيف يؤسس أفراد الجماعة هويتهم السلالية الخاصة أصلاً. ولكن عليه مع ذلك أن يلقى الضوء على الروابط المهمة القائمة بين تلك الظواهر، من ذلك مثلاً أن تناول ظاهرة استخدام "البيض" أساليب السود فى المظهر وفى الزينة يشير إلى الاهتمام بضياع معالم الحدود الإثنية وتداخلها، الذى يمكن أن يفصِّل ويوسع اهتمامه بكيفية الحفاظ بكيفية الحفاظ على الحدود السلالية السوداء.

ويتعين على الباحث الميدانى عندما يتصدى لتحديد موضوع عام وموضوعات فرعية أن يمارس نوعًا من الاختيار. فالقاعدة العامة أن الباحثين الميدانيين يكتشفون أن لديهم عدداً من الموضوعات الفرعية يفوق كثيراً ما يستطيعون تضمينه فى تقرير الدراسة النهائى. ثم أن عملية تطوير سرد إنما هى فى جوهرها انتقاء لبعض الموضوعات الفرعية التى تعكس الاهتمام الشخصى للباحث أو اهتمامات التخصص العلمى الذى ينتمى إليه والتى تتكرر فى عدد من مذكراته الميدانية. وحين يقرر الباحث اختيار تلك الموضوعات الفرعية والمادة العلمية التى تدلل عليها فسوف يجد نفسه مضطراً حتمًا إلى تجاهل موضوعات ومواد ميدانية أخرى، على الأقل بالنسبة لهذا التقرير.

وعلى الباحث وهو يسترسل فى عرض موضوعه الرئيسى وتجميع موضوعاته الفرعية وربطها ببعضها البعض فى قالب سردى، عليه أن يبذل أقصى ما يستطيع من جهد لكى يدرج شتى الأصوات ووجهات النظر المختلفة. ولكى يفعل هذا فإن عليه – فى العادة – أن يبدى اهتمامًا خاصًا بانتقاء وتعيين حدود كل من الموضوع الرئيسى

والموضوعات المتفرعة عنه والمرتبطة به. ذلك أن أسلوبنا فى تسمية أى موضوع رئيسى أو فرعى ومعالجته يمكن أن يعنى – ضمنًا – الانحياز لبعض الأصوات ووجهات النظر واستبعاد بعضها الآخر.

من ذلك مثلاً أن الباحث/ المتدرب – الذى يدرس العلاقات بين العمال المحليين وأصحاب الأعمال الذين يوظفونهم – قد بدأ بتعريف موضوع دراسته الميدانية بأنه "تعيين" (أو استخدام أو توظيف Hiring). ولكن الحقيقة أن مصطلح "التعيين" يعنى تصوير الأحداث من وجهة نظر صاحب العمل (وليس من وجهة نظر العامل)، ولذلك سيهتم بإلقاء الضوء والانحياز إلى اهتمام صاحب العمل بالبحث عن عامل "يمكن الاعتماد عليه والوثوق به". فمفهوم "التعيين" يعنى ضمنًا إهمال العامل المحلى وعدم الاهتمام كثيراً بالأساليب التى يتبعها "لكى يُعين" Getting Hired أو "للحصول على عمل" Finding Work. إن تحديداً للموضوع أكثر اهتمامًا بالعلاقات المتداخلة بين أطراف الموضوع – مثل: "موقف التعيين" The Hiring Situation – من شأنه أن يستوعب وجهات نظر كل من صاحب العمل والعامل معًا.

وسوف نعرض فى الفقرات التالية من هذا الفصل لبعض أساليب تحويل المذكرات الميدانية إلى نص علمى إثنوجرافى. وعلى حين ندرك أن الالتزام المبدئى بموضوع عام وبعض الموضوعات الفرعية الأولية سوف يؤثر على مسار هذه العملية ويحددها، إلا أننا نريد أن نبرز – بشكل خاص – كيف يعمل الباحث على تدقيق، وتصنيف المذكرات الميدانية واستخراج الشواهد (المقتطفات) منها التى تكون مرتبطة – بشكل مرن غير صارم – بأحد الموضوعات المشتركة، لكى ينجح فى إعداد سرد إثنوجرافى نهائى.

تحويل المذكرات الميدانية إلى نص إثنوجرافى

يرى أتكنسون (Atkinson 1990: 103) أن "قوة إقناع" أى نص إثنوجرافى إنما تُستمد من ذلك "*التضافر بين الشواهد العيانية والتعليقات المنطقية عليها*". ونحن نبدى هنا أشد الحرص على إخراج مثل هذه النصوص الإثنوجرافية التى تتخذ المذكرات

الميدانية ركيزة لها، أى ذلك السرد الذى يحرص على النقل الأمين من تلك المذكرات ويحتشد بنتف ومقاطع منها. ولكى يؤلف الباحث الميدانى نصًا كهذا يتوجب عليه أن يفهم حق الفهم دلالات الأحداث والوقائع المحلية بحيث تبدو واضحة صلتها بالقضايا التحليلية. ولكن يتعين عليه – فى نفس الوقت – أن يظل حساسًا لمسألة كيف أن هذه التصنيفات يمكن أن تشوه معنى مفاهيم وتصورات أبناء ذلك المجتمع.

ولكى يشرع الباحث الميدانى فى مباشرة هذه العملية عليه أن يرجع إلى المذكرات الميدانية التى ألهمته فكرة هذا السرد بحثًا عن مزيد من المقتطفات التى يمكن أن تدعم أحد خطوط هذه القصة. فيبدأ باختيار فقرات من بيانات المذكرات الميدانية ثم يكتب تعليقات تفسيرية شارحة لتلك المقتطفات. كما يقوم بمراجعة كل مقتطف وتعليق عليه بحيث يسهم التحليل فى توضيح وإضاءة المذكرات الميدانية التى تمثل أحجار بناء هذه القصة. وفى النهاية لابد أن يقوم الباحث بتنظيم هذه الوحدات – التى تضم كل واحدة منها مقتطفًا وتعليقًا – لكى تكوِّن أقسامًا متماسكة لتقرير الدراسة. أى أنه يقوم بترتيبها بشكل متسلسل مترابط يخلق واحداً من خطوط القصة، ويسهم فى نهاية المطاف فى أن يقود القارئ إلى فهم أكثر اكتمالاً لأبناء مجتمع البحث والقضايا المطروحة بشأنهم.

اختيار المقتطفات من المذكرات الميدانية

بعد أن فرغ الباحث من تحديد الموضوع الرئيسى الذى يتضمن عدداً من الموضوعات الفرعية يمكنه أن يعود إلى المذكرات الميدانية الموثقة والمصنفة ليختار من مادتها بعض المقتطفات الأقرب إلى المسائل الرئيسية فى بحثه. وهذه المقتطفات هى أحجار البناء فى هذا السرد الإثنوجرافى (الميدانى) الجديد. ونعرض فيما يلى لعدد من الإرشادات التى تساعد على اختيار أجزاء المذكرات التى يحسن اقتطافها.

فاختيار المقتطفات من المذكرات ليس مسألة بسيطة تتمثل فى "مجرد اختيار أطراف الأمثلة أو أهمها". بل إنه يكون لدى الباحث الميدانى عدد من الأسباب التى تحدد اختيار

أجزاء المذكرات الميدانية التى يتعين تضمينها فى النص النهائى للدراسة. من هذا مثلاً أنه عند التعريف بمجتمع البحث قد يعمد الباحث الميدانى إلى اختيار بعض أجزاء المذكرات الميدانية لأنها توضح على أفضل نحو أنماط السلوك أو المواقف المعتادة الأكثر تعبيراً عن ذلك المجتمع. كذلك قد يختار الباحث بعض مقتطفات المذكرات التى تتحدث عن الأحداث أو الاهتمامات المعتادة. وقد تساعد مثل هذه المقتطفات على طرح موضوعات تحليلية أكثر تحديداً، أو تؤشر إلى وجود بعض التنويعات المهمة المتمايزة عن النمط المعتاد.

فضلاً عن هذا يلجأ الباحث إلى اختيار بعض أجزاء المذكرات الميدانية لما تتميز به من قدرة على الإقناع أو على إثارة الذاكرة. وقد يجذب المقتطف الباحث لأنه يصور لحظة نادرة أو مؤثرة، كأن يصور مثلاً شخصًا يعانى ألمًا نفسيًا عميقًا، أو شخصين يدخلان فى جدال حاد. أو أن الوصف الذى يحويه نص المقتطف (من المذكرات) قد يحفز القراء أو يقنعهم بحيث يصبح بإمكانهم أن يتخيلوا مشاهد الأحداث، وسماع الأصوات، والتماهى - مؤقتًا - مع منظور الباحث إلى ذلك الفعل. ولذلك يمكن القول عمومًا أن المقتطفات تحتوى على أوصاف حية مفصلة ومقربة تصوب للقراء بعض الأفعال والأوصاف بحيث تضعهم فى قلب المشهد. أى أن مثل هذه المقتطفات ستمكن القراء عادة من أن يتصوروا ويعايشوا خبرات الآخرين الذين درسهم الباحث. على العكس من ذلك نجد أن المقتطف "الهزيل" - الذى يفتقر إلى التفاصيل الحية - يعجز عن إقناع القارئ، لأنه يكون أكثر اعتماداً على تفسير المؤلف وليس على المناظر والأصوات التى يستطيع القارئ أن يتصورها أو يسمعها. كما أن المقتطفات التى تقدم حوارات طبيعية حقيقية يستطيع أن يكشف بشكل مقنع عن اهتمامات أفراد ذلك المجتمع. ومن خلال الاستماع إلى الأفراد يتفاعلون مع بعضهم البعض عبر الحوارات، يستطيع القراء أن يتوصلوا إلى فهم لدلالات كلمات كل فرد آخر. فمثل هذا المقتطف الذى يحوى هذه الحوارات يقدم الباحث الصورة الحقيقية للتفاعلات الجارية، على أساس أنها تلقى الضوء على مجرى عملية التفاعل لا على النتيجة وحدها. من هنا يبحث المؤلف ذو البصيرة عن المقتطفات - خاصة التى تحتوى على كلام وأفعال - التى تدل أكثر من غيرها على رؤى أفراد المجتمع واهتماماتهم.

وعند قيام الباحث باختيار المقتطفات المثيرة للذاكرة، لا يشترط أن تكون فى ذهنه فكرة تحليلية محددة. ولكنه سوف يحرص على أن يفتش - فى أغلب الحالات - عن الدلالة التحليلية التى تحتوى عليها تلك المقتطفات. ويثق الباحث الميدانى فى حدسه عند الحكم على الوصف المدون بأنه وصف كاشف ودال فى تلك اللحظة، حتى ولو لم يستطع أن يحدد ساعتها حيثيات ذلك. ويقود التأمل المستمر فى: كيف ولماذا يكون المقتطف مثيرًا للذاكرة، أو مؤثرًا فى قارئه، أو كاشفًا ودالاً؛ يقود هذا الباحث فى نهاية الأمر إلى إحساس جديد وإلى قصة أكثر عمقًا وأصدق رؤية.

كما يحرص الباحث عند الشروع فى تأسيس سرده الموضوعى على أن يهتم بالبحث عن مقتطفات يمكن أن تفسر المفاهيم وتوحى بأساليب تدقيق هذه المفاهيم وتحديدها. ووضع يده على مثل هذه المقتطفات وانتقائها من شأنه أن يؤدى إلى إكساب القصة الجديدة وضوحًا وإثرائها بمضمون متماسك. وبعد أن يضع الباحث يده على مقتطفات جديدة ويتأملها، فسوف يتبين أنها أوضحت وبلورت له مزيداً من الأفكار، فيعاود النظر بعد ذلك فى مقتطفات كان سبق له أن نحّاها جانبًا. والعادة أن تتبلور تلك الأفكار بشكل تلقائى: فبعد أن ينجلى أمام الباحث موضوع فرعى أو مفهوم معين، ترد على ذهن الباحث واقعة متعلقة بذلك كان قد سجلها فى أحد مواضع مذكراته الميدانية، ثم يقول لنفسه عندئذ "إننى أذكر الآن واقعة أخرى تتعلق بذلك"، لأنها ترتبط تحليليًا أوثق الارتباط بالواقعة الأولى... وهكذا. وبعد أن يعثر الباحث على هذه الجزئية من المادة ويراجعها قد يجد نفسه ميالاً إلى تعديل فكرته الأساسية أو تنقيحها. وبعدها يعاود النظر والتأمل فى مذكراته الميدانية وملاحظاته السريعة الأولى بحثًا عن مقتطفات أخرى قد يجدها مهمة فى ضوء هذا التعديل الجديد[٦].

من هنا يكون المنطلق الحاسم هو مراجعة تلك المقتطفات التى تصور بدقة فائقة بعض التصنيفات والملاحظات عن الموضوعات الفرعية التى يركز عليها الباحث فى تلك المرحلة. فمن المهم العودة إلى تلك المذكرات الميدانية - وما يرتبط بها من وثائق وتسجيلات - التى سبق تصنيف مادتها إلى موضوعات، ومراجعتها بدقة، واختيار المقتطفات المرتبطة بموضوعات البحث الرئيسية والفرعية. نسوق مثلاً على ذلك مشروعًا

بحثياً عن النساء اللائى يطلبن إصدار قرارات ضبط على من يمارس معهن العنف داخل الأسرة، ويركز بشكل خاص على دور الصديق أو شخص داعم فى تيسير هذا الإجراء على المرأة. وقد لعبت المذكرة الميدانية التالية دوراً بالغ الأهمية فى مساعدة الباحث الميدانى على فهم الأبعاد الأساسية لهذه العملية:

كانت "جولى بيترز" هى عميلى الخامس. كانت سيدة بيضاء فى الرابعة والعشرين من العمر، ومتزوجة من رجل شرطة أبيض، ولم يسبق لزوجها أن ضربها أبداً، ولكنه رفع المسدس فى وجهها، وحاول خنقها ذات مرة، كما أنه دائم الإساءة إليها باللسان، وأحضرت "جولى" لدى حضورها صديقتها "تينا"، التى كانت تدير الجانب الأكبر من الحوار نيابة عنها. كان ينبغى على أن أشير إلى أن "جولى" كانت شديدة الهدوء، كما كانت مشغولة البال. وقالت "تينا" إن "جولى" مضطربة أشد الاضطراب بالفعل، وأن شعرها يتساقط.. حقيقة لا مجازاً.

جولى: كل ما أريده ألا يفقد زوجى وظيفته. فهو رجل شرطة كما تعلم.

الباحث: أعلم أنك قلقة عليه، ولكن دعينا نفكر فى أمره فيما بعد. مهمتنا الآن أن نهتم بمشكلتك أنت.

جول: فعلاً، معك حق.

تينا: لقد استغرق الأمر طويلاً لكى تقتنع بالمجئ إلى هنا. لقد شددتها شداً. حيث هاتفتنى صباح اليوم، وهى تبكى. فقلت لها: "هذه هى النهاية، لابد أن نلجأ للمحكمة".

هذا الوصف الذى قدمته الصديقة لكى تحفز الزوجة على المطالبة بقرار ضبط ضد زوجها، إنما يجسد لنا عملية: كيف يحفز الصديق المشجع "الضحية" على التماس العلاج القانونى لمشكلته. ولو اطلعنا على مذكرات ميدانية تتناول مشاركة الأصدقاء الإيجابية فى المطالبة باستصدار أوامر ضبط، لوجدنا أن هذه المذكرة – التى قرأنا

مقتطفاتها منها – تبلور بكل الوضوح دور "مساعدة الطرف الثالث" فى المواجهات القانونية والبيروقراطية عمومًا.

فالاقتباس عمومًا يمكن أن يثير الذاكرة، فيعيد إليها مواقف أو أحداث "مشابهة"، ومن ثم تمثل منطلقًا لتجميع جملة من الاقتباسات التى تدور حول موضوع مشترك. أو يلجأ الباحث الميدانى إلى المراجعة المنظمة للتصنيفات والمذكرات الميدانية، باحثًا عن الاقتباسات التى تتحدث عن "نفس الشىء". عندئذ قد يلاحظ أن ثمة نمط مشترك أو نوع من الانتظام الذى يسم بيانات المذكرات الميدانية. ففى دراسة لجلسات استماع لمعرفة مدى التقدم فى نظام المراقبة الاجتماعية(*) بإحدى محاكم الأحداث – نقدمها كمثال – لاحظ الباحث الميدانى أن القضاة لا يكفون عن سؤال الوالدين عن آرائهم فى سلوك أبنائهم، كما يبدو فى الاقتباس التالى:

> أجاب القاضى سميث الفتى الصغير عن سؤاله بنبرة هادئة ولكن قاطعة: "قلت لك لابد أن تحصل على تقديرات جيدة (فى المدرسة)... ولكنك لم تحصل على تقديرات جيدة... كما طلبت منك أن تكون مطيعًا لأمك". ثم توجه بالسؤال إلى أم الفتى: "هل كان مطيعًا أم غير مطيع؟". فردت وهى تشخص ببصرها إلى ابنها "غير مطيع" فلم يذهب إلى المدرسة عندما كنت أطلب منه الذهاب".

(*) يحكم القاضى أحيانًا بوضع مذنب تحت "المراقبة الاجتماعية" لمدة يحددها يثبت خلالها الفرد قدرته على ضبط النفس وقدرات وأهليه معينة. وفى مجال إصلاح المنحرفين والأحداث، فإن المراقبة هى وضع مسجون مفرج عنه أو حدث متهم فى بيئته الطبيعية مستمتعًا بحريته الاجتماعية إلى حد كبير. ولكنه يكون خلال فترة المراقبة تحت ملاحظة وإشراف ضابط المراقبة الذى تعينه المحكمة، والذى قد يكون أخصائيًا اجتماعيًا أو ضابطًا فى قسم شرطة الحى الذى يعيش فيه الشخص موضع المراقبة. فإذا أحسن سلوكه رفعت عنه العقوبة، وإذا ارتكب جرمًا آخر أو أخل بشروط المراقبة عاد إلى السجن واستكمل مدة عقوبته. أما إذا كان حدثًا تحت المراقبة وأخل بالتدابير التى أمر بها القاضى فى المراقبة (حيث قد يأمر مثلاً بالتحاقه بمركز تدريب أو بدروس معينة) فإن لمحكمة الأحداث بناء على تقرير المراقب الاجتماعى أن تتخذ تدبيرًا آخر بالعقوبة مثل وضعه فى مؤسسة لرعاية الأحداث. (المراجع)

وعن طريق تجميع عدد من مثل هذه المواقف، يستطيع الباحث أن يكتشف صور التفاوت داخل الموضوع الواحد، بحيث يصبح قادراً على تجويد تفسيراته لبعض الاقتباسات بعينها.

ولكى يفعل الباحث ذلك يمكنه أن يبدأ بتحديد بعض قضايا الفروق بين المواقف التى لاحظها وكتب عنها. وعليه أن يفتش أولاً عن التنويعات الموجودة داخل الموضوع أو النمط فى مختلف مذكراته الميدانية. من ذلك مثلاً أنه فى دراسة دور الأصدقاء والمعاونين فى الجلسات التى تعقد لطالبى استصدار أمر قضائى لوقف العنف الأسرى؛ فى هذه الحالة يمكن البحث – أولاً – عن الحالات التى يشارك فيها الصديق الداعم بإيجابية فى وقائع المقابلة. ثم يجرى البحث – ثانيًا – عن الحالات التى يلعب فيها هذا الشخص الداعم دوراً ثانوياً، ولا يشترك كثيراً فى الحديث. كذلك يمكن البحث – فى الدراسة الأخرى – عن الاقتباسات التى توضح الفروق فى كيفية استجابة الوالدين لأسئلة القاضى عن مخالفات أولادهم السلوكية. وهكذا – مثلاً – يستطيع الباحث الميدانى أن يضع النص الذى أوضحت فيه أم الفتى أن ابنها كان "غير مطيع" إلى جوار النص التالى الذى حرصت فيه الأم على دعم ابنتها – ولو جزئيًا على الأقل – بالتقليل إلى أدنى حد من حديثها عن سوء سلوكها:

> جلست الفتاة إلى يسار محاميها. واتخذت الأم مجلسها فى مؤخرة الغرفة على كرسى قريب قربًا شديداً من المدخل. وسأل القاضى سميث الأم سؤالاً مباشراً عن أحوال الفتاة. فردت بأنها لم تسبب أى مشكلات "معها" فى البيت، ولكنها "تسببت فى مشكلات فى المدرسة".

فالانتباه إلى أوجه التباين فى سياق التشابه يعين الباحث على أن يبحث عن المزيد من المقارنات، ومن ثم يمكنه أن يفيد من مزيد من الاقتباسات.

وفى مرحلة تالية يستطيع الباحث أن يختار مزيداً من الاقتباسات التى تنطوى على فروق أكثر عمقًا. فنجده يبحث عن الحالات التى تناقض النمط الذى سبق له أن اكتشفه. ففى جلسات محكمة الأحداث لتقييم نظام المراقبة الاجتماعية – على سبيل المثال –

قد يعمد الباحث الميدانى إلى اختيار أحد النصوص الذى لا يسأل فيه القاضى الأم عن رأيها فى سلوك ابنها أو ابنتها. فمثل هذه النماذج تبدأ فى الكشف عن الظروف التى تشكل أو تحد من نمط التفاعل أساسًا. وقد يتحقق ذلك فى دراسة محكمة الأحداث بالنسبة للحالات التى يكون فيها الوالدان أو أحدهما من فاقدى الأهلية أو سيئ السلوك، أو الحالات التى تكون المحكمة قد اتخذت سلفًا قرارًا بحبس الشاب أو الشابة.

وفى هذه العملية يتعين على الباحث الميدانى أن يدون بدقة كافة الأبعاد، أو الأنماط، أو الفروق الأساسية. ومع أن العبارة المقتضبة أو الكلمة التى تمثل فئة تصنيف أى نص من النصوص تنطوى دائمًا على فكرة معينة؛ إلا أن تفكير المؤلف يظل مع ذلك مشوشًا أو غير واضح فى العادة إلى أن يدون ذلك النص بالفعل فى جملة مفيدة. وفى خلال الكتابة المفصلة عن تلك الأفكار يواصل الباحث تدقيق وتنقيح التفسيرات التى كان قد سبق له أن توصل إليها. وفى النهاية يتوصل فى مقالته النهائية إلى صقل أفكاره المبدئية وصياغتها فى قضايا محددة تحديدًا أكثر وضوحًا. ولكن الباحث مازال - فى هذه المرحلة - يبحث عن ثراء النص وتدفق الكتابة، وليس عن الصرامة والدقة، ولذلك يرجئ الصياغات الدقيقة والعبارات المحكمة إلى مرحلة لاحقة. ويحاول أن يضع يده على كافة التنويعات التى تتسق مع - والتى تجافى - الموضوع الذى يدرسه.

وطوال هذه العملية يحرص الباحث الميدانى - على الدوام - على تدقيق إحساسه العام بالمقالة العلمية الإثنوجرافية التى يعمل فى إعدادها. والعادة أن تراود المؤلف فى مرحلة مبكرة صورة واضحة عن الفكرة الأساسية للمقالة الإثنوجرافية، وذلك أثناء اشتغاله بتحديد الموضوع الرئيسى أو حصر الموضوعات الفرعية خلال عملية التصنيف. وهناك باحثون آخرون يقومون بتدقيق وتوضيح أفكارهم الرئيسية أثناء قيامهم باختيار النصوص والاقتباسات من مذكراتهم الميدانية. ولكن هذه العملية لا تبدأ بالنسبة لبعض المؤلفين إلا مع شروعهم فى كتابة التعليقات على الاقتباسات التى تم اختيارها، حيث تتبلور أمام ناظرى الباحث الفكرة المحورية للمقالة. ولو أن الكثير من الباحثين لا يستقرون بشكل نهائى على البؤرة الدقيقة للبحث إلا عند كتابة المقدمة، حيث يستطيعون صياغة

قضية البحث. وبعد أن يتوصل الباحث إلى صياغة أولية للفكرة المحورية، يشرع فى تحديد المحور الرئيسى للمقالة العلمية، ويحس بما تنوى هذه المقالة الحديث عنه. ولكن هذه الفكرة المحورية الأولية – التى لم تتحول بعد إلى صياغة محكمة لقضية بحثية – تتغير عادة أثناء عملية التعليق على محتويات المذكرات الميدانية ومراجعة أجزاء المقالة العلمية.

خيارات للتعليق على المذكرات الميدانية

بعد أن يبلور الباحث فى ذهنه قصة البحث، وتتجمع أمامه مجموعة من النصوص والاقتباسات المستخرجة من مذكراته الميدانية، وبعد أن تتراكم لديه مجموعة من الملاحظات الأولية؛ بعد ذلك يشرع الباحث فى تأليف تعليقات تحليلية أكثر دقة يفسر ويشرح بها كل نص من تلك النصوص ويربطه بالنصوص الأخرى. وعندما يستمر العمل بهذه الطريقة – وأعنى كتابة فقرات تربط التفسيرات التحليلية بالاقتباسات المستخرجة من المذكرات الميدانية – عندها تتجمع تدريجياً وبشكل تراكمى خيوط قصة متماسكة مبنية على المذكرات الميدانية.

ويتبع الباحثون الميدانيون استراتيجيتين مختلفتين للتحرير وكتابة واستعراض وحدات الاقتباسات المستخرجة من المذكرات والشروح التفسيرية. ويمكن القول أن هناك استراتيجية تكاملية تتولى تضفير التفسيرات والاقتباسات فى نص واحد.. وهو نص يتسم باستخدام الحد الأدنى من العلامات فى حيز الكتابة – من قبيل ترك فراغ فى أول الفقرة أو تمييز كلمات أو جمل معينة – للإشارة إلى نهاية الاقتباس المنقول من المذكرة الميدانية وإلى بداية التفسير الذى يقدمه المؤلف. وكمثال على ذلك نود أن نتأمل الوصف التالى لإحدى الطرق التى يحصل بها هواة الألعاب النارية (وهم الأفراد الذين يقومون بصفة غير قانونية بتصنيع وإطلاق ألعاب نارية مصنعة منزليًا فضلاً عن الأدوات المكملة لها) على المواد التى يصنعون بها تلك المعدات:

هناك نوعية – من مستوى أدنى – من المتفجرات الشديدة الفعالية تتاح إمكانية الحصول عليها أساساً لأخصائيى الألعاب النارية المتخصصين، وهى تتكون من عدة أصناف كالديناميات وأنواع مختلفة من المتفجرات السائلة والبلاستيك، وتستخدم فى كل من الأغراض العسكرية والصناعية. ويقال إن هناك بعض المناطق التى يمكن فيها الحصول على الديناميت بمنتهى البساطة. وأخبرنى بعضهم أنه فى إحدى الولايات المجاورة يستطيع أى فرد تجاوز عمره الثمانية عشر عاماً، ويمكنه أن "يبدى أسباباً مقنعة"؛ يستطيع أن يشترى الديناميت من البائع مباشرة. وفى أثناء فترة دراستى فى المنطقة قام "أرنولد"، و"راسل" و"هانك" برحلة إلى تلك الولاية ليشتروا عدة أشياء، من ضمنها ثمانية أصابع متفجرات. وقال "أرنولد": "لم نقل (للبائع) سوى أننا نملك منجماً فى جنوب (قرية كذا) نقوم بالتعدين فيه. ولكن غرضنا الحقيقى الذى كنا ننتويه هو أن نقوم بتفجيرها (أصابع الديناميت)، تماماً كما يفعل أى شخص بالألعاب النارية، لمجرد الاستمتاع بذلك". وذكر بعد ذلك أنه هو وزملاؤه قاموا بتفجير الديناميت فى منطقة نائية بتلك الولاية، لكى يتجنبوا نقله عبر حدود الولايتين وهم عائدين إلى بيوتهم.

نلاحظ فى المثال السابق أن الباحث الميدانى استخدام المذكرات الميدانية "كنماذج توضيحية" (Atkinson 1990) لنمط يدعى وجوده، ويتم الانتقاء من بين مادتها وتعاد كتابتها بحيث توضح وتوثق تلك الادعاءات. وكنتيجة لذلك نجد أن المذكرات الميدانية والأفكار امتزجت جميعها فى كيان واحد، عبارة عن نص متدفق مكتوب بصوت واحد. ولذلك لم يلجأ الكاتب إلى وضع أية فروق بين المذكرات التى جمعت مادتها فى الماضى، والتفسيرات الراهنة باللجوء إلى الحيل والأدوات التحريرية، ولكنه اعتمد فى إحداث هذه النقلات على العبارات الانتقالية مثل: "على سبيل المثال" أو "واقعة كاشفة".

على خلاف النهج السابق تعمد استراتيجية الاقتباس إلى الفصل بصرياً بين اقتباسات المذكرات الميدانية من ناحية، والتعليقات والتفسيرات المتعلقة بها من ناحية أخرى. ويتم ذلك عن طريق بدء فقرات جديدة، أو كتابة بعض الكلمات أو العبارات

بالحروف المائلة. ولنتأمل الفقرة التالية المأخوذ من دراسة علمية ميدانية ضمن معالجة موضوع "الصعوبات التي يواجهها المصابون بمرض التوحد(*) عند محاولتهم الاندماج في المجتمع المحلي المحيط بهم". ويبدأ المؤلف الفقرة بملاحظة تحليلية مؤداها أن الجيران كثيراً ما يعاملون أولئك المرضى "بطريقة معاملة الموصومين"(**). ثم يعرض الباحث الاقتباس التالي من مذكراته:

مقدمة المؤلف التي تحدد الموضوع الرئيسي(***)	في بعض الأحيان يبدى أفراد من المجتمع المحلى استجابة متعاطفة مع مرضى التوحد، وإن بطريقة أقرب إلى معاملة الموصومين. فقد حدث في أحد ملاعب البولينج المحلية أن حاول عامل البار أن يقدم شيئًا لجون (مريض توحد)، ولكنه فعل ذلك كما لو كان يتفضل عليه:

(*) التوحد هو الاسم الذى شاع مؤخراً لمصطلح Autism. ويسميه المتخصصون فى علم النفس الاجترارية، ويعنى انسحاب الفرد من الواقع إلى عالم خاص من الخيالات والأفكار وفى الحالات المتطرفة توهمات وهلوسات. وقد اعتقد ذات مرة أن الاجترارية هى الخاصية الأولى للفصام، ولكنها تلاحظ الآن فى اضطرابات أخرى مثل ذهان الشيخوخة، وفى زملة كانر Kanner (اجترارية طفلية مبكرة) وفى بعض حالات الاكتئاب. والشخص الاجترارى ذو شخصية مغلقة، وهو ملتفت إلى داخله، ومنشغل انشغالاً كاملاً بحاجاته ورغباته، التى يتم إشباعها كلية أو إلى حد كبير فى الخيال. والطفل المتوحد أو الاجترارى Autistic Child هو الطفل الذى فقد الاتصال بالآخرين أو لم يحقق هذا الاتصال قط، وهو منسحب تمامًا ومنشغل انشغالاً كاملاً بخيالاته وأفكاره وبالأنماط السلوكية المقولبة كبرم الأشياء أو لفها والهزهزة. ومن خصائصه الأخرى لامبالاته إزاء الوالدين والآخرين، وعجزه عن تحمل التغير، وعيوب النطق أو الخرس. وتفسر هذه الحالة لدى البعض بأن لها أساسًا عضويًا، ويفسرها آخرون باعتبارها شكلاً من أشكال الفصام. انظر المزيد فى معجم علم النفس والطب النفسى، إعداد جابر عبدالحميد وعلاء الدين كفافى، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٨، ص٣١٥ . (المراجع)

(**) الوصمة Stigma مفهوم فى نظرية الانحراف طوره عالم الاجتماع الأمريكى إرفنج جوفمان (١٩٦٧)، ويعدها عنصراً مهمًا فى عملية وصف المنحرفين والدلالة عليهم. وهى تعريف لفرد معين بأنه ناقص، أو هامشى، أو مستبعد على نحو ما من المشاركة الطبيعية والكاملة فى الحياة الاجتماعية. ثم اتسع استخدام المفهوم فيما بعد. انظر المزيد فى موسوعة علم الإنسان، مرجع سابق، ص٥٥٧. (المراجع)

(***) هذه الإيضاحات من المُراجع وليست واردة فى النص الأصلى.

وصـــــف مـقـتبس من المذكـــــرة الميدانيـة(*)	ذهبت مع "جون" إلى ملعب البولينج ليتناول القهوة التى يريدها. وسأل "جون" عامل البار إذا كان يمكن أن يقدم له "كوباً ضخماً جداً من القهوة". وقدم له العامل كوب القهوة، وبعدها ذهب "جون" ليدفع ثمن فنجانه. ولكن الرجل أعاد إليه الدولار قائلاً له: "لقد نسيت عيد ميلادك العام الماضى، فعيداً سعيداً (معتبراً الدولار هدية عيد ميلاده المؤجلة – المترجم). أعاد "جون" الدولار إلى حافظة نقوده قائلاً للرجل "شكراً". وبعد أن عدنا إلى السيارة وجلسنا فيها، قال "جون": "إنه عيد ميلادى تماماً. لابد من أن أشترى بضعة أشياء للإعلان عن ذلك". وأخذ "جون" يكرر تلك العبارة باستمرار ودون انقطاع، إلى أن حدث موقف آخر شد انتباهه.
تـعـلـــيـق المؤلف على المشهد(*)	وعلى الرغم من أن عامل البار قدم لجون دعماً اجتماعياً إيجابياً، إلا أنه فى نفس الوقت عامله معاملة فيها بعض التحيز والتقليل من شأنه. وخلال محاولة "جون" أن "يتلاءم" مع المجتمع المحلى الذى يعيش فيه تلقى معاملة تدل على أنه مازال معزولاً فعلاً عن ذلك المجتمع. فتلك "المعاملة الخاصة" التى أبداها عامل البار تجاه "جون" تكشف لنا أنه يعتبره "حالة خاصة" مختلفة تستحق فترة ترويح. فمحاولة عامل البار فعل شىء خير، ساهم فى إلحاق مزيد من الوصم إلى شخص يحاول جاهداً أن يحقق ولو الحد الأدنى من القبول لدى مجتمعه.

هنا نتبين أن هذا الموقف المحدد يلقى الضوء على القضية التحليلية التى اعتبرها المؤلف عنوان الموضوع الرئيسى. ثم يأتى الوصف المستمد من المذكرة الميدانية ليجعل القارئ مقتنعاً كل الاقتناع بتحليل المؤلف. بعد ذلك ومن خلال التعليق التحليلى الذى

(*) هذه الإيضاحات من المُراجع وليست واردة فى النص الأصلى.

يعقب الاقتباس يتوسع الباحث فى عرض قضيته الرئيسية من خلال تناول بعض سمات التفاعل الذى تم: حيث يحاول "جون" أن يتلاءم مع المجتمع، ثم يأتى الدعم الإيجابى من جانب عامل البار، وأخيراً المعاملة الخاصة التى تدل - من طرف خفى - على نظرة قائمة على وصم ذلك المريض.

والحقيقة أن المذكرة الميدانية يسهل التعرف عليها فى صورة الاقتباس الوارد، طالما أنه تم إبرازه على هذا النحو. وهذا الإخراج البصرى من شأنه أن يزيد التناقض فى الخطاب بين الكتابة الوصفية والكتابة التحليلية. كما أنه يقدم لنا نصاً حوارياً متميزاً، حيث يتكلم الباحث الميدانى بصوتين مختلفين: كباحث ميدانى يصف التجربة التى وردت فى الاقتباس، وكمؤلف يتولى الآن شرح هذه الأحداث للقراء.

كذلك نلاحظ أن هذا الفصل البصرى بين الاقتباسات والتعليق يجعل هذه الطريقة فى العرض تؤكد على اقتباسات المذكرات الميدانية بوصفها تقارير مكتوبة فى الماضى، وفى فترة قريبة من وقوع الأحداث فى الميدان. ومعنى هذا أن عملية الاقتباس تبرز مقتطفات المذكرة الميدانية "كدليل أو شاهد" على "ما تم تسجيله فعلاً"، وذلك فى مواجهة ما سيرد لاحقًا من تفسير. والحقيقة أن هذا الفصل الواضح والتحديد الظاهر للاقتباسات إنما يدل على أن الباحث يتبنى موقفًا من القارئ مؤداه: "إليك ما سمعت وشاهدت، وهذا هو إحساسى وتقديرى له الآن".

ونلمس لدى الكثيرين من الباحثين الميدانيين ميلاً إلى هذا الخيار أو ذاك، ونجدهم يستخدمونه باستمرار واتساق طوال تقرير الدراسة الذى يكتبونه[٧]. إلا أنه من الممكن أيضًا استخدام الاستراتيجيتين التكاملية والاقتباسية فى مواقع مختلفة من التقرير ولأغراض تحريرية مختلفة. فمن ناحية نجد أن الأسلوب التكاملى يتيح عرض المادة الميدانية بشكل أكثر نعومة وأكثر تركيزاً على الموضوع. فهو يمكّن المؤلف من أن يوصِّل كثيراً من الأفكار بطريقة تتسم بالتركيز والاختصار، حيث أن الكاتب ينقح بشدة أجزاء كبيرة من المذكرات الميدانية الأصلية التى لا تكون وثيقة الصلة بالقضية أو وجهة النظر المعروضة. إلى جانب هذا يلاحظ أن الأسلوب التكاملى يصلح للاستخدام بشكل

خاص لعرض المذكرات الميدانية الطويلة والمتصلة: فالأحداث الطويلة ذات الخلفيات والمتغيرات المعقدة يمكن روايتها كقصة واحدة متكاملة[٨]. ولهذا السبب يقال إن هذه الاستراتيجية تيسر الاستخدام المتسق لصيغة المتكلم، وبذلك تحفز إلى كتابة المزيد من التقارير السردية التى تتصف بالمرونة والعمق فى نفس الوقت. وأخيراً: فالاستراتيجية التكاملية تكون مفيدة أيضًا فى تجميع الملاحظات والأحداث المتناثرة فى أماكن مختلفة من المذكرات الميدانية بحيث يصنع منها الكاتب صورة متماسكة لقضية أو نمط معين.

على خلاف ذلك نجد أن استراتيجية الاقتباس تحافظ على الأوصاف والتفاصيل التى سبق أن كتبها الباحث دون كثير من التنقيح أو التعديل، بل إنها تتيح للقراء أن يروا بأنفسهم – بمعنى ما – "أسباب ومبررات" المزاعم التحليلية والتفسيرية التى يطرحها الكاتب. وعن طريق التمييز – داخل النص – بين مادة المذكرة الميدانية والتحليل، يتيح أسلوب الاقتباس للقارئ فرصة أن يقدر بنفسه المحاور الأساسية للتفسيرات المطروحة وبنيتها ودرجة صدقها. ومن الواضح أن هذه الاستراتيجية تعتمد أكبر الاعتماد على التأثير البلاغى لعرض اقتباسات المذكرة الميدانية بوصفها "شواهد" جُمعت فى وقت سابق على التفسير المعروض، وربما مستقلة عنه أيضًا. وأخيراً: تسمح استراتيجية الاقتباس للكاتب بعرض تفاصيل الأحداث التى لوحظت فى الميدان وملامحها دون حاجة إلى أى شرح. ذلك أن الباحثين الإثنوجرافيين ليسوا بحاجة – وهم كذلك لا يفعلون – إلى شرح كل عنصر من عناصر اقتباسات المذكرة الميدانية التى يضمنونها النص النهائى. وإنما هم عادة يتركون المشاهد الحية تتحدث عن نفسها. ومن شأن الاستعانة بمثل هذه الاقتباسات أن تضفى على النص المكتوب عمقًا وتماسكًا، فوق أنها تحوى أموراً وتفاصيل أكثر مما اختاره الباحث للمناقشة والتحليل. بل إن هذه التفاصيل والسمات غير المشروحة تدعم فهم القارئ الضمنى للمشاهد والأحداث التى يجرى وصفها وتحليلها. ففى حالة استخدام هذه الاستراتيجية تعمل الاقتباسات على إكساب الصور حيوية وعلى إقناع القارئ، فهى تمثل نمطًا مثيراً ومحورياً وأساسياً فى كتابة القصة الإثنوجرافية (الميدانية).

ورغم الفروق الأسلوبية وغيرها من الفروق بين الاستراتيجية التكاملية واستراتيجية الاقتباس، فهما يعملان معًا لخدمة هدف واحد مشترك هو تضفير أجزاء من المذكرات الميدانية بالتعليق التحليلي المفسر. وبهذا المعنى تشتمل كل منهما على وحدات تحريرية متماسكة تجمع بين التحليل والبيانات الميدانية المأخوذة من المذكرات. وسننتقل فيما يلى إلى تناول العمليات التحريرية الخاصة المستخدمة فى تأليف هذه الوحدات التى تجمع بين الاقتباس والتحليل.

تأليف وحدات تحريرية تجمع بين الاقتباس والتحليل

لكى نعظم التضافر بين الفكرة التحليلية والاقتباس يتعين على الشرح (أو التعليق) المعتمد على المذكرة الميدانية أن يقوم بعدة أشياء.

- أولها أن يركز الانتباه على الرأى التحليلى.
- أن يتولى الشرح والإقناع من خلال اقتباس وصفى، يُقدَّم له بمعلومات موجهة تتعلق به.
- وأخيرًا: يناقش ويبلور بعض الأفكار من خلال شرح معتمد على تفاصيل الاقتباس نفسه.
- ونحن نستخدم مصطلح وحدة تجمع بين الاقتباس والتحليل لوصف هذا المكون الأساسى للكتابة الإثنوجرافية. وعلى حين يمكن فى بعض الأحوال تجميع كل تلك المكونات فى فقرة واحدة من الدراسة تدور كلها حول جزئية من المادة الميدانية، إلا أن هناك حالات أخرى يتطلب فيها الشرح الكامل للاقتباس المستخدم عدة فقرات وليس فقرة واحدة. وسنحاول أن نوضح كيف يكتب الإثنوجرافيون مثل هذه الوحدات باستخدام استراتيجية الاقتباس، ولكننا سنبين – فى الوقت نفسه مع ذلك – كيف أن الاستراتيجية التكاملية لا تقتضى عادة سوى إدخال تعديلات طفيفة على هذا الإجراء المتبع.

ونتأمل فيما يلى هذه الوحدة المكتملة التى تجمع بين الاقتباس والتحليل من تقرير دراسة ميدانية عن مدرسة ليلية للتلاميذ والتلميذات ذوى الميول الجنسية المثلية(*). ويأتى الاقتباس بعد فقرة يستعرض فيها الكاتب الموضوع الأساسى لهذا الجزء (وهو أن التلاميذ يعمدون من طرف خفى إلى تقويض قوة المدرس ودوره "بإضفاء مدلول جنسى" على الحوارات التى تتم داخل الفصل)، حيث يستعرض المؤلف ويشرح واقعة نموذجية تتجلى فيها عملية "إضفاء الدلالات الجنسية" على الكلام العادى. ثم يبدأ فى عرض تلك الوحدة من التقرير:

الرأى التحليلى	نلاحظ فضلاً عن ذلك أن التلاميذ يعمدون أحيانًا إلى وضع أنفسهم فى موقع أقوى من المدرسين، وذلك بإضفاء دلالات جنسية على تعليمات أو ملاحظات هيئة التدريس.
معلومات موجهة	وفيما يلى مقتطف لحوار دار بين مايكل (المدرس) ومارك (أحد التلاميذ):
الاقتباس	بعد أن غادر المدرس مارك قاعة الفصل مباشرة، بعد حوار مع كريس (تلميذة)، عاد إلى الفصل ونظر إلى التلميذ مارك قائلاً له: "تعال معى يا مارك". وكان مارك ساعتها مشغولاً بوضع بعض

(*) نويت فى البداية أن أدخل بعض التعديلات على هذا الاقتباس، دفعًا لأى حرج. إلا أننى رأيت ترك النص على حاله، حقيقة أنه ليست لدينا مدارس تضم هذه النوعية من التلاميذ، ولكن المؤكد أن لغة الحياة اليومية المتداولة فى مجتمعنا قادرة بإمكانياتها الهائلة على صك استخدامات جديدة وخاصة لمفردات عادية جداً؛ وهو موقف لا يختلف كثيراً عن الموقف الذى يعرضه الاقتباس. وأقرب مثال أن تعبير "ياللا نروح" سواء وجهه رجل لامرأة أو لرجل آخر...إلخ. يمكن أن يحمل نفس الدلالة الجنسية التى يقوم عليها الاقتباس. ويقول الناس فى لغتهم اليومية "المرأة دى بتروح" بمعنى أنها "تمارس أو يمكن أن تمارس الجنس بدون تمييز". وهذه الاستخدامات، أو البراعة فى لى عنق اللغة، بصورها المعروفة فى لغتنا اليومية تفوق أى ثقافة أخرى، خاصة وأننا ننتمى إلى ثقافة شفاهية بالأساس زادها ومتعتها وتسليتها الرئيسية هى الكلمات والعبارات المنطوقة. راجع المزيد فى: محمد الجوهرى وزملاؤه، معجم لغة الحياة اليومية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ٢٠٠٧. (المراجع)

الاقتباس	حاجياته فى حقيبته المدرسية، ثم استدار معطيًا ظهره للمدرس، وقال "لا أريد أن أذهب معك". وفى أثناء قوله ذلك نظر إلى كريس وابتسم. عندها ضج جميع التلاميذ بالضحك.
الشرح التحليلى	هناك بعض عناصر هذا الاقتباس التى تستأهل اهتمامًا خاصًا. أولها التتابع الذى قيلت فيه التعليقات. فالأمر الذى أصدره المدرس: "تعال معى" هو ممارسة لسلطته كمدرس، ثم إضفاء مارك بعد ذلك تلك الدلالة الجنسية على كلام المدرس هو تحد لسلطته. ثانيًا: لم يكتف مارك برفض الأمر الصادر من المدرس، وإنما عظم من سلطته هو نفسه فى مواجهة المدرس، وذلك من خلال إضفاء تلك الدلالة الجنسية على كلامه، ثم بعد ذلك رفضه الانصياع له. فمارك – فى الحقيقة – نجح فى أن يضع نفسه فى موقع الأكثر قوة من المدرس: "كطرفين لعلاقة (جنسية) فرضية"، وذلك برفضه "عرض" المدرس. ونلاحظ – أخيرًا – أن كون هذا الأمر كله دار أمام باقى التلاميذ قد كانت له عواقب مهمة على علاقة التفاعل بين المدرس وسائر التلاميذ. فضحك التلاميذ الآخرين على تعليق مارك ينطوى على إقرار منهم بالمضمون الجنسى لعبارة المدرس، بحيث لم يكن بوسع المدرس مايكل أن يتجاهل هذا العنصر الجنسى، وهو ما كان يستطيعه لو كان هو والتلميذ وحدهما. بعبارة أخرى إن ضحك سائر التلاميذ فى الفصل جعل المعنى الجنسى لملاحظة مارك شيئًا حقيقيًا فى نظرهم، كما كانت له عواقبه على دور مايكل كمدرس.

يبدأ المؤلف هذا الجزء بتقديم الرأى التحليلى، وهو أن التلاميذ قد يضفون دلالات جنسية على أوامر المدرسين الموجهة إليهم كطريقة للتأثير على صورة أولئك المدرسين ومقاومتهم. ويلاحظ على هذه النقطة (أو الرأى) أنها تربط هذا الجزء بالأفكار التى وردت فى الفقرات السابقة، وبذلك تسهم فى خدمة الموضوع الرئيسى للفصل، وكذلك

مجمل القصة التى ترويها الدراسة الميدانية. ولكنها لا تفعل ذلك فحسب، وإنما "تعرّف القارئ كيف يريد له الكاتب أن يقرأ هذا الاقتباس ويفهمه بلفت انتباهه إلى بعض عناصره الأساسية.

بعد تقديم ذلك الرأى التحليلى يكتب المؤلف معلومة موجهة يصيغها فى جملة قصيرة تمثل جسراً ننتقل به إلى الاقتباس. وتتولى هذه المعلومة تعريفنا بالشخصيات الرئيسية فى المشهد عن طريق تحديد اسم كل منها ودوره. وطالما أن المؤلف قد وصف الإطار المكانى والروتين اليومى لهذه المدرسة الصغيرة، فإن بوسعه أن يفترض أن القارئ سيفهم أن هذا الحدث يتم داخل فصل مدرسى. كما أنه يفترض كذلك أن القارئ يمكنه أن يفهم دلالة الأحداث التى على وشك أن تقع دون حاجة إلى أن يعرف تحديداً فى أى ساعة من ساعات اليوم وقع هذا الأمر فعلاً، أو ما هى الأمور وراء هذه العلاقة غير المحددة الغرض بين المدرس وتلميذة أخرى هى كريس. ولو أن المؤلف قد يحتاج فى أحوال كثيرة إلى أن يوجه القارئ بوضوح إلى طبيعة سياق الحدث والأمور السابقة على ذلك الحدث الذى سيرويه. بعد هذه الجملة التوجيهية يبدأ المؤلف تقديم اقتباسه فى صورة فقرة مستقلة مكتملة.

وفى النهاية يناقش الباحث الميدانى علاقة التفاعل التى طالعناها فى الاقتباس فى صورة شرح تحليلى أكثر إسهاباً. وفيه يثير ثلاثة أمور متصلة بموضوعه الأساسى: الأول: أن ملاحظة مارك مثلت تحدياً لسلطة المدرس مايكل. ثانيًا: أن مارك تغلب على أمر المدرس بإعادة صياغة مدلول الأمر الذى وجهه له، بأن جعله يبدو كعرض لعلاقة جنسية من جانب المدرس. فتبادل الطرفان موقعيهما فى هذا التفاعل (تغلب التلميذ وهُزم المدرس). وثالثًا وأخيراً: أن التلاميذ الآخرين كانوا شهوداً على هذا الحوار، وأدى ضحكهم إلى تأكيد وتجسيد المعنى الجنسى الذى طرحه مارك، وجعل من هذه الواقعة تحدياً ستكون له عواقبه على سلطة مايكل كمدرس.

ويلاحظ أن الباحثين الميدانيين يحرصون – فى الشروح التحليلية – فضلاً عن ذلك على اطلاع القراء على ما يريدونهم أن يقرأوه فى المذكرة الميدانية. ويمكن القول

على وجه العموم أنه من المفيد عند كتابة الشروح التحليلية أخذ التساؤلات التالية فى الاعتبار: ما هى دلالات الوقائع أو الحوارات التى يحكى عنها الاقتباس؟ ما هى الجوانب الدقيقة التى يمكن تشريحها وتفسيرها؟ ما هى أهمية هذا المشهد للقضايا التحليلية التى تدور حولها الورقة العلمية؟

والحقيقة أن الباحثين يطورون مثل هذه الشروح باستعراض ذلك التوتر القائم بين الفكرة المحورية من ناحية، والمذكرة الميدانية الأكثر تماسكًا وأقل وضوحًا من ناحية أخرى. وبدلاً من الاقتصار على عرض العواقب أو النتائج - مثلاً - نجدهم يستعرضون الطبيعة الدينامية للتفاعلات التى تتم (من ذلك مثلاً: تحويل أمر إلى عرض جنسى، توضيح دور التلاميذ الآخرين كشهود على ما وقع...إلخ).

وفى العادة يكتب الباحثون الاقتباس - كما رأينا فى الجزء الذى عرضناه - فى صيغة الماضى، ولكنهم يعرضون آراءهم التحليلية فى صيغة "الحاضر الإثنوجرافى (الميدانى)". فهذه الطريقة تصور الواقعة التى يحكى عنها الاقتباس فى قالب زمنى متسلسل تاريخيًا، على حين تقدم الشرح التحليلى فى إطار لاتاريخى ذى طابع قابل للتعميم[٩]. والحقيقة أن التحليل من شأنه أن يؤدى حتمًا إلى تعميم أفراد بعينهم، وعلاقات متفردة، وأحداث محلية؛ ولو بمقدار على أية حال. ولكن مثل هذه التجريدات لا تنحرف أبدًا بعيدًا عن هذا الاتجاه، طالما ظل التعليق مرتكزًا على مقتطفات المذكرة الميدانية.

ويتعين على الباحث عند كتابة الوحدة التى تجمع بين الاقتباس والتحليل أن يختبر بدقة استراتيجياته فى الكتابة، ليتأكد من أن الفكرة (التحليلية) والوصف (الوارد فى الاقتباس) يعززان ويدعمان بعضهما البعض. وفى التقرير الميدانى المرتكز على المذكرة الميدانية نلمس - عادة - نوعًا من التوتر الخلاق بين الآراء التحليلية والاقتباسات الشارحة. وبما أن الباحث يروى القصة بالاستعانة بكل من الاقتباس والتحليل، فإنه يتحتم أن تدعم الأفكار التفاصيل الوصفية والعكس بالعكس. على أن دور الاقتباس لا يقتصر على مجرد دعم الموضوع الأساسى أو المفهوم، وإنما يتحتم - كذلك -

أن يقنع القارئ أن هناك ما يبرر التفسير الذى يقدمه الباحث والقصة الأكثر عمومية التى يرويها الاقتباس. وبالمقابل يجب أن يتأكد الباحث أن الرأى التحليلى الذى يقدمه يلقى الضوء على التفاصيل الواردة فى الاقتباس. وكثيراً ما يعمد الباحث – عند محاولته التأكد من ملاءمة المذكرة الميدانية أو الشرح – أن يراجع شرحه ليجعله وثيق الصلة بالاقتباس. وفى بعض الأحيان قد تؤدى هذه المراجعة إلى تغيير الشرح التحليلى بحيث يصبح غير ذى صلة بالموضوع الرئيسى لذلك الجزء. فى مثل هذه الحالة يتوجب استبعاد وحدة الاقتباس والتحليل كلها من التقرير- ولو مؤقتًا على الأقل – إلى أن تتضح دلالتها وعلاقتها بجزء آخر من التقرير.

كما أن هناك نوعًا آخر من التضارب بين الفكرة والتفاصيل الوصفية يمكن أن ينشأ بسبب التوترات القائمة بين وجهة النظر الضمنية الواردة فى الاقتباس، ووجهة النظر المتضمنة فى الرأى التحليلى المطروح. ولكى يكون الكاتب مقنعًا لابد أن يكون هناك توافق بين الرأى التحليلى والوصف. من ذلك مثلاً محاولة دارس متدرب على البحث الميدانى إجراء بحث على مركز للتحفظ على الأحداث (لمراقبتهم تمهيداً للبت فى حالة كل منهم – المترجم)، وأراد أن يركز تقريره الميدانى على استجابات أولئك الأحداث لسلطة الأخصائيين العاملين فى ذلك المكان. ولكن لنتأمل الاقتباس التالى ووجهة النظر التى يقدمها:

> الأولاد جالسون فى الاستراحة ولا تعبير على وجوههم. كان أحد الأولاد من أصل لاتينى يسند قدميه على أحد المقاعد البلاستيك أمامه. وطلبت منه ل. L (الأخصائية) إنزال قدمه من على المقعد. فأنزل قدميه عن المقعد، وأكملت ل. L طريقها فى ممر المركز. ولما عادت إلى غرفة المراقبة بعد عدة دقائق، لاحظت أن الولد عاد يضع قدميه على المقعد، فاستدعته عندها فى غرفة المراقبة. فمشى إليها وعلى وجهه ابتسامة عريضة(*).

(*) يشير المعنى الدقيق للكلمة Grin إلى أن تلك الابتسامة قد تنطوى ضمنًا على معنى الاستهزاء بمن أمامه. (المراجع)

فسألته لماذا عاد يضع قدميه على المقعد، فهز كتفيه وأومأ بنظره إلى الأرض.
عندها قالت له إنها عندما تأمره بعمل شيء، فالأفضل له أن ينصاع.
وأمرته أن يعود ليتخذ مكانه في قاعة الاستقبال.

وعلى الرغم من التركيز الوارد في بداية الاقتباس على: "الأولاد جالسون في قاعة الاستقبال"، إلا أنه سرعان ما ينتقل إلى الكلام من وجهة نظر ملاحظ مجهول لأفعال الأولاد، ثم بعدها الكلام من وجهة نظر الأخصائي

"ضابط المراقبة" المسئول عن مراقبة المكان والموجودين فيه. ووجهة نظر الأخصائي تتصارع مع التركيز في التحليل على تصرفات الأولاد واستجاباتهم لسلطة الكبار(١٠).

ويتعين علينا أن ننظر إلى المواءمة بين اقتباس المذكرة الميدانية والرأي التحليلي كجزء من عملية تقدم القصة الإثنوجرافية في مجموعها. فلا يكفي المؤلف أن يقتصر على التفكير في كتابة الرأي التحليلي الذي يبلور الموضوع الأساسي لهذا الجزء، وإنما عليه أن يفكر أيضًا كيف يمكن أن يكون هذا الاقتباس والشرح المصاحب له مقنعًا للقارئ من خلال التداخل بين تفاصيل المذكرة الميدانية والأفكار المطروحة، وبذلك يمكن أن يدفع ذلك بالقصة إلى الأمام. ونلاحظ في كتابة وحدة الاقتباس والتحليل أن الرأي التحليلي لا يصح أن يحكم الاقتباس بقدر ما يلقي الضوء على مختلف جوانبه. فالاقتباس نفسه - بالصورة المكتوب بها فعلاً - يفرض حدوداً على الآراء التحليلية التي يمكن للمؤلف أن يطرحها وكيف يتناولها. ومن هنا يمكن القول - بمعنى ما - أن السرد الموضوعي يتقدم من خلال التكرار المتنامي(*) Incremental Repetition فكل وحدة تكرر الموضوع الأساسي ولكنها في كل إعادة تثريه - من خلال إضافات بسيطة - بمزيد من الأفكار ومزيد من اللمحات عن حياة المبحوثين. فالنظرة المتكررة إلى الموضوع الأساسي للجزء المكتوب من زوايا مختلفة من شأنها أن تعمق فهم القارئ.

(*) تكرار يكتسب في كل إعادة مزيداً من التفصيل أو الإضافة. (المترجم)

وأخيراً لابد أن يفكر الباحث الميدانى فى دلالات وحدات التحليل والتفسير التى يحتوى عليها التقرير الإثنوجرافى (الميدانى)، ومدى تقبلها لوحدات إضافية يمكن تطويرها فى مرحلة لاحقة من الكتابة. ويذهب كاتز (Katz 1988: 142) إلى أن التقارير الإثنوجرافية الملتزمة بالأصول العلمية تتصف "بطابع يشبه الشبكة"، بمعنى أنها تسمح للقارئ أن يستخدم البيانات الواردة لتعضيد فكرة معينة؛ يستخدمها فى تأكيد أو دحض أفكار أخرى. وعلى مؤلف الدراسة الميدانية – الواعى باحتمالات التأكيد والدحض هذه – أن ينتبه إلى أهمية الأجزاء التى لم تستخدم من الاقتباسات الأخرى التى تحتوى عليها المذكرة الميدانية وشروحها التحليلية بالنسبة للآراء النظرية المعروضة.

ونظراً لأن الاختيار والكتابة يتحرك – على نحو جدلى – بين الاقتباسات وكتابة الآراء التحليلية (وليس كتابة الآراء التحليلية ثم اصطياد الشواهد المؤيدة لها من المذكرة الميدانية)، لذلك يتعين على المؤلف أن يكون أشد حفاظًا على الالتزام بوجهات نظر أفراد مجتمع البحث. فالنظرية القائمة مسبقًا لا ينبغى لها أن تتجاوز فى تحديدها لما تكشف عنه الاقتباسات. وإنما الأصح أن يتردد الباحث الميدانى – جيئة وذهاباً – بين عمليات التصنيف، واختيار الاقتباسات التى يمكن استخدامها، وكتابة الآراء التحليلية، بحيث يقود مجمل هذا الجهد إلى دفع القصة إلى الأمام. ومن شأن هذه العملية أن تزرع نوعاً من التوتر الخلاق بين كل من الاقتباسات والتحليل، سوف يعمل على إثراء القصة ودعمها، ويعمق من فهم القارئ للعالم الذى يتحدث عنه.

تحرير الاقتباسات

عندما يشرع الباحث الميدانى فى تأليف وحدة اقتباس وتحليل فإنه يقوم بعملية إعادة بناء الاقتباس المستخدم. ويبدأ الباحث بمراجعة المذكرة الميدانية الأصلية ليحدد الأجزاء التى سيقع عليها اختياره، ثم يبدأ فى إعداد الاقتباس بصفة مبدئية. ويتضمن هذا القرار تحديداً مبدئياً لبداية الاقتباس ونهايته تحديداً. ومن الحكمة – عموماً –

أن يجنح المؤلف فى اختياره للاقتباس فى هذه المرحلة إلى التوسع بدلاً من التضييق، إذ أنه يستطيع لاحقًا أن يستبعد الأجزاء التى يثبت له أنها غير مرتبطة بالموضوع.

بعد ذلك يقوم الباحث بمتابعة مراجعة هذه الاقتباسات التى اختارها بصفة مبدئية، ويقوم بتحريرها وهو بصدد إعداد الشرح التفسيرى. والحقيقة أننا نوصى بتحرير الاقتباس بمنتهى الدقة كجزء من عملية كتابة وحدة الاقتباس والتحليل. ولأن المؤلف ينغمس فى هذه المرحلة فى تفاصيل الاقتباس واحتمالات تحليله المختلفة، فإن هذا الوقت يكون ملائمًا لتحديد أجزاء المذكرة الميدانية الوثيقة الصلة بهذه القضايا، وتلك العديمة الصلة بها.

ومن شأن هذا التأمل المدقق للاقتباس أن يفتح أمام الباحث رؤى جديدة وإمكانيات لتجويد تحليله لهذا النص. وفى خضم عملية تأليف وحدة اقتباس وتحليل مكتملة يتجه المؤلف عادة إلى تعديل قراره بشأن نقطة بداية الاقتباس ونقطة نهايته. وقد يرى الباحث أن يجعل الرأى التحليلى الذى يقدمه أكثر إيجازًا، وذلك باختصار الاقتباس والعناية بتقديم تفاصيل خلفية الموضوع فى صورة معلومة موجهة فى مقدمة النص.

وتتوقف هذه القرارات التحريرية على كل من الغرض من وراء تضمين الاقتباس ضمن التقرير (من ذلك مثلاً: جعل التفاصيل مفعمة بالحياة) وكذلك على القضايا المطروحة فى الشرح التحليلى. وإن كان الباحثون الميدانيون يأخذون فى اعتبارهم – عند تحرير الاقتباسات – عدداً من المعايير الأعم، نذكر منها: الطول، الارتباط بالموضوع، سهولة القراءة، سهولة الفهم، ومجهولية الإخبارى (تجهيل اسمه).

ولابد أن يكون الاقتباس ذا طول ملائم. فلا يتمدد بلا نهاية لمجرد أن الوصف أو الحوار طريف أو مهم. إذ يصعب على القارئ أن يتواصل انتباهه واهتمامه عبر مساحات طويلة من الكتابة – أى صفحات – من نصوص مذكرات ميدانية بدون انقطاع. وإذا بدا للباحث أنه من الصعب حذف جزء من المادة، فإنه يستطيع أن يقسم الاقتباس – الذى اختاره مبدئيًا – إلى وحدات مستقلة أصغر حجمًا، ثم يقوم بكتابة شرح تفسيرى لكل واحدة منها.

ويمثل الارتباط بالموضوع الشاغل الرئيسي لمن يعمل في تحرير اقتباسات المذكرة الميدانية. ولكي يزن مسألة الاتصال بالموضوع عليه أن يحدد أي الملامح يمثل أهمية حيوية للوصف المقدم، وأي الملامح يخدم الموضوع الأساسي للفقرة أو للرأي التحليلي المعروض. وهكذا يبدأ الباحث الميداني بتحديد العناصر التي تمثل لب عملية التفاعل وأكثرها قدرة على إضاءة الرأي التحليلي. بعد ذلك يتجه الباحث إلى مراجعة المادة الميدانية المتداخلة (بين اقتباسين) ليقرر بعد التأمل أي المقاطع يمكن حذفه، وأيها يجب الاحتفاظ به، إما لكي يخدم تدفق السرد، أو لكي يخلق لدى القارئ إحساساً حياً بالمشهد وبالسياق الذي يحيط به. وقد جرى العرف في العمل التحريري على وضع علامات معينة (نقاط متصلة مثلاً...) مكان العبارات المحذوفة من الاقتباس. وعلى الباحثين أن ينتبهوا أشد الانتباه عند تحرير حوارات المقابلة إلى ألا يحذفوا الأسئلة التي طرحوها هم على الشخص الذي تجرى مقابلته. ذلك أن هذه الأسئلة هي التي تشكل الإجابات التي حصل عليها الباحث، والاحتفاظ بها حفاظ على السياق الذي حصلنا فيه على إجابات المبحوث على الأسئلة.

ونستعرض فيما يلي القرارات التحريرية التي اتخذتها راشيل فريتز بخصوص اختيار الاقتباسات من المذكرات الميدانية وتحريرها، لكي تضمنها مقالاً علمياً عن رواية الأحداث التاريخية عند الشوكوي في الإقليم الشمالي الغربي من زامبيا. وكان اهتمامها منصباً على الطرق والأعراف الشائعة في رواية القصص التاريخية التقليدية(*) والتي تستخدم كذلك في الرواية الشفاهية للأحداث التاريخية التي وقعت في الماضي القريب(١١)(**).

(*) والصحيح أيضاً: الشعبية. (المراجع)

(**) شهدت العقود القليلة الماضية ازدهار ميدان بحثي جديد في حقل العلوم الاجتماعية، يقوم على الاعتماد على الخبرات الشخصية وإعادة النظر أو مراجعة الأحداث والوقائع التاريخية من وجهة نظر عدد من الأفراد (ذوي المواصفات الخاصة طبعاً) أو الجماعات المختارة. وقد عرف هذا الميدان الجديد باسم التاريخ الشفاهي Oral History، ويعترض البعض على هذه التسمية التي تنطوي على نوع من الاختزال لطبيعة المادة المدروسة فيه. فالتاريخ الشفاهي لا يستند إلى المادة الشفاهية – المأخوذة من أفواه الناس فقط – وإنما يعتمد في نفس الوقت بذات القدر، وربما بدرجة أكبر، على أنواع أخرى عديدة من المواد. =

وقد اختارت من بين الروايات التاريخية عند الشوكوى حكاية شخصية سياسية طموحه اسمها "موشالا"، الذى أخفق فى أن يصل إلى حيازة القوة الشرعية، فتحول إلى خارج على القانون يقود عصابة من الجنود أخذت تروّع المجتمع المحلى. وفى النهاية يصل الجنود الحكوميون إلى المنطقة بحثاً عن موشالا ليقبضوا عليه ويخلصوا المجتمع المحلى من غاراته عليهم(*). وكان عدد ممن استمعوا إلى الرواية قد عايشوا تلك الأحداث فعلاً، والبعض الآخر سمعوا الكثير عنها. وقد شاركوا جميعًا فى إبداء بعض الملاحظات والآراء أثناء السرد الشفاهى. وقد سجلت الباحثة الفولكلورية كل ما

= ولهذا اتجه بعض الباحثين الأوروبيين المعاصرين إلى اقتراح تسميات جديدة لهذا الفرع، نذكر من بينها: "التاريخ الذى تعيه الذاكرة" أو "تاريخ الخبرات (الخاصة)"...إلخ. كما أكد المشتغلون بهذا الفرع الجديد - فى أكثر من مناسبة - أن هذا اللون من الدراسة لتاريخ الحياة اليومية وكذلك مشروعات التاريخ الشفاهى التى جرى تنفيذها طوال ثمانينات وتسعينيات القرن العشرين تجمع - إلى جانب المقابلات - عدداً من المصادر المكتوبة. وأنه لم يشذ مشروع واحد عن ذلك إلا فى القليل النادر. ومن تلك المصادر المكتوبة نذكر - على سبيل المثال - الخطابات الشخصية، واليوميات أو المذكرات الشخصية أيضًا، والسير الذاتية... إلخ. ليس هذا فحسب بل إن كتب التاريخ الشفاهى أفاضت فى تناول أساليب استخدام هذه المصادر، وكيفية إخضاعها لنقد المصادر التاريخية.

ولكن العنصر الأساسى المشترك بين المصادر التاريخية الشخصية التى يستخرجها الباحث من صدور الناس، أو يجدها مدونة بالفعل فى تلك الوثائق الشخصية أنها قد خضعت جميعًا لعملية التذكر والنسيان، أى أن الذاكرة فعلت فعلها فيها. وتلك مشكلة منهجية وموضوعية كبرى استأثرت باهتمام الباحثين. ولم يقتصر الأمر على دراسة عملية التذكر والنسيان فى حقل التاريخ الشفاهى وحده، وإنما فى شتى عمليات جمع التراث الشعبى، خاصة بالطرق الشفاهية.

وأهم ما يأخذه نقاد هذا الميدان البحثى على مادته تواضع درجة مصداقيتها، وذاتية النتائج التى تنتهى إليها. ولكن المهم أن ما يعده المؤرخ - الكلاسيكى - ضعفًا وقصوراً فى التاريخ الشفاهى، هو نفسه ما يمثل موطن قوته فى نظر عالم الفولكلور والإثنولوجيا. وأعنى بذلك: إتاحة فرصة الوقوف على عالم الحياة اليومية، ومعرفة الخبرات الذاتية، والرغبات والاحتياجات الخاصة لآحاد الناس.. "معرفة قدرتهم على المقاومة والصمود، وطاقاتهم الإبداعية، وعذاباتهم". (المراجع)

(*) الموتيفة الأساسية الشائعة فى الأدب الشعبى لكثير من الشعوب عن البطل، الذى هو فى الأصل واحد من العامة، ولكن طموحاته لا تتحقق (سواء كانت محلية أو قومية)، فيلجأ إلى العنف، فيحيط نفسه بنفر من قطاع الطرق (أو الفدائيين أو الجنود السابقين...إلخ) ويتصدى إما لمحاربة الأهالى أو الحكومة المركزية. وهناك آلاف التنويعات على كل موتيفة فرعية (كأن يكون سبب الإخفاق فشلاً فى الحب، أو ظلماً من إقطاعى أو حاكم ظالم، أو ثأراً، أو نزعة تحريرية...إلخ) وهكذا بالنسبة لسائر الموتيفات. (المراجع)

قبل على شريط تسجيل صوتي، بما فى ذلك رواية الراوى وتعليقات الجمهور. وقد اهتمت فى مذكراتها الميدانية بالتركيز على الظروف المحيطة بجلسة رواية القصة، وذكرت أفراد الأسرة الحاضرين، ودونت ردود أفعالهم على ما سمعوه بعد انتهاء الجلسة وطوال اليوم التالى. وشرعت تعمل فى تحليلها بالاستماع إلى شريط التسجيل، ثم إعادة قراءة المذكرة الميدانية المطولة التالية:

سألنا العم جون عما إذا كان يعرف شيئًا عن الأحداث الخاصة بموشالا. فأطرق برهة ثم أجاب: "نعم أعرف حكايته تمام المعرفة". وشرع يتكلم ببطء، بصوت جاد كل الجدية. فحكى كيف كان موشالا يتصيد أبناء قبيلتى الشوكوى واللوندا Lunda ويطاردهم فى أنحاء المنطقة: كيف كان يحرق القرى، ويذبح الحيوانات الزراعية، وكيف كان القرويون يهربون منه إلى الأحراش يعيشون فيها بعيداً عن عيونه. وظل يحكى لمدة ساعة ونصف الساعة تقريباً. وطوال تلك الفترة جلس أفراد الأسرة جميعًا فى صمت مطبق. وانضم إلى الجلسة العم "دون" Don، ولكنه جلس فى ركن منعزل وأمامه "موقد (منقد) الفحم". وتحرك ابن أخيه "جيرالد" Jerald وجلس إلى جواره. ولم يعلق أحد إلا البعض وبشكل عرضى. [استمع إلى التسجيل]. وقد لاحظت أنه كان مشهداً شديد التقليدية إلى جوار النار: الجد، والخالان، وأبناء الإخوة. وكان جميع الحضور من الرجال، فيما عداى، وكيانزى زوجة "جو" Joe، وهى شابة صغيرة كانت تشاركنى رحلاتى. [كانت غالبية النساء يجلسن بالقرب من نار فى كوخ المطبخ بالقرب منا، وكن ينصتن إلى الراوى بانتباه تام].

وقبل أن تنتهى الأمسية عبرت المرأتان "نيالونا" و"كالومبو" الطريق فى طريقهما إلى البيت. أما الجدة "نيا كالومبو" فدخلت إلى البيت لتنام. وكان الجد "مواتا فومبى" قد غلبه النعاس، فلما أيقظوه دخل البيت هو الآخر لينام. وبينما العم جون يروى قصصه: لاحظت وأنا جالسة أنه كان يستخدم

مؤثرات درامية، ويستعين بالحوارات التى يرويها داخل القصة، ويبنى حبكته وصولاً إلى الذروة، حيث أنهى القصة بمصرع موشالا.

وبعد أن فرغ من القص، خيم الصمت على الجميع لبرهة. فقلت: "شكرًا لك"، وبعدها بدأ بعض الحضور يتكلمون (وهم: فرانك، وتشيستر، والعم دون)، وكل منهم يقدم إضافته إلى الأحداث من واقع معلوماته الشخصية. وطرح العم "دون" على أخيه العم "جون" سؤالاً، فأخذ يحكى المزيد، وأوضح فيما قاله أن والده كان يعرف موشالا. كما حكى عن جارهم "شيلومبو" الذى كان طرفًا فى تلك الأحداث. (وشيلومبو هو ذلك الرجل الأنيق الملبس - يرتدى بذلة وربطة عنق - الذى جاء ذات يوم إلى "كى شوكوى" ليتحدث معى فى "شيزامبو" [وهو المقهى الذى يجلس عليه الرجال وزوار القرية]. وسألنى إن كنت أقبل الذهاب إلى قريته لأن لديه بعض القصص التى يريد أن يرويها. فقلت له سأحاول الذهاب يومًا ما. واليوم قال "جيرالد" إنه قابله فى المدينة، وأنه سأله عن سبب عدم ذهابى إلى القرية كما وعدت. وقال "جيرالد" إن شيلومبو ظل ينتظرنى، كى أزوره فى أحد الأيام).

وبعد نهاية تسجيل الرواية، سأل "مواتوشى" كلاً من الحاضرين أن يذكر اسمه، أو اسمها. وحتى بعد قفل جهاز التسجيل، ظل الناس جالسين فى أماكنهم، وانخرطوا فى أحاديث مع بعضهم البعض، وهم مازالوا مأخوذين بما سمعوه من أحداث مثيرة. وبينما كنا نقطع الطريق عائدين إلى القرية: مواتوشى والعم جون، وتشستر، وجيرالد، وكيانزى وأنا، ظللنا جميعًا نتحدث عما سمعناه. وأخبرونى (ومثلوا أمامى) كيف كان القرويون يقطعون الطريق بظهورهم - سائرين للخلف - ، حتى تبدو آثار أقدامهم وكأنهم كانوا يسيرون فى الاتجاه المعاكس، وبذلك يضللون الجنود.

وبقيت ساهرة لفترة قبل أن استغرق فى النوم، وظلت تتردد فى رأسى أصوات أغنية "لا تبكى يا صُغيرتى، لا تبكى، سيحضرون لإطلاق

الرصاص عليك"(*). [وقد ألف تلك الأغنية أبناء الشوكوى المعاصرون، وذلك أثناء عبورهم النهر هربًا من الحرب التى كانت دائرة فى أنجولا، وكانت موضوع حديثنا فى الليلة السابقة]. وشعرت كما لو كان أولئك الناس مختبئين فى الأحراش خوفًا من الجنود. وطال نومنا جميعًا تلك الليلة إلى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى.

واليوم على الغداء حكى مواتوشى أن زوجة موشالا هى التى خانته ووشت بمكانه للجنود، لأنها أدركت أنه فى النهاية سوف يقتل أسرتها كلها، بل والقرية بأكملها(**). وعندما اقترب موعد ولادتها، طلبت من القابلة أن ترافقها وتقيم معها فى الأحراش. وبعد أن تم الوضع، وفى أحد الأيام التى خرج فيها موشالا (فى إحدى غزواته) قررت أن تترك المكان مع القابلة. وفى الطريق التقت مصادفة بأربعة من الجنود [هم فى هذه الحالة جنود الحكومة – المترجم]. فعرفتهم بنفسها – أنها زوجة موشالا – وأنها ستطلعهم على المكان الذى يختبئ فيه. كما ستعرفهم بالتعاويذ(***) التى تحميه. وأنها سوف تحميهم من التأثير الضار لتلك التعاويذ، إذا تجردوا من ملابسهم. ولكنهم خجلوا أن يفعلوا ذلك، فخلعت هى كل ملابسها، وفعلوا هم مثلها، وساروا جميعًا عرايا فى الطريق. بعد ذلك وصلوا إلى بركة ماء، وهنا طلبت منهم أن يغتسلوا فى

(*) أوردت المؤلفة داخل المتن مطلع هذه الأغنية باللغة المحلية ثم باللغة الإنجليزية. ولم نشأ إرهاق النص العربى بالنص المحلى، ولكننا ننبه إلى ذلك لأهميته المنهجية فى البحوث الفولكلورية الميدانية. (المراجع)

(**) موتيفة شائعة أن تتم الوشاية من جانب أحد المقربين قربًا شديدًا (مثل يهوذا فى قصة المسيح عليه السلام، وصديق أدهم الشرقاوى وزميله..إلخ. ولكن الزوجة قد تكون هى الأخرى – لدوافع مختلفة – هى الواشى بزوجها.. نتأمل حكايتنا هنا، وفى الستينيات حكاية سفاح حلوان، الذى ألف عنه نجيب محفوظ اللص والكلاب). (المراجع)

(***) التعويذة Charm أو الطلسم Talisman عمل سحرى كتابى أو نص يُقرأ أو حيوان أو جماد بمواصفات خاصة يتولى حماية كنز، أو ثروة، أو شخص مهم..إلخ. وكل تعويذة لها الترياق Antidote المناسب بلغة الطب الحديث، أو تعويذة فك التعويذة. فالتراث الشعبى عمومًا، وفى مجال المعتقدات خصوصًا، لا يعرف العجز أمام أية مشكلة. فزوجة موشالا هنا تعرف بأمر تعويذة الحماية، وبأمر إجراءات فكها. (المراجع)

ماء البركة، بحيث لا يستطيع موشالا أن يراهم وهم قادمين عليه. هنا سمعت موشالا قادمًا نحوهم، فسارعوا إلى الاختباء وسط الأحراش. وجاء نحوهم حاملاً بندقيته على كتفه. فمر بأول الجنود دون أن يراه، بينما كان الجندى يرتعد خوفًا وشعر بالعجز عن الحركة. ثم مر بالجندى الثانى الذى كانت فرائصه هو الآخر ترتعد من فرط الخوف ولم يتحرك من مكانه. بعد ذلك قام الجندى الثالث بإطلاق النار عليه فأصابه فى عينه، ثم فى صدره. بعدها حاول موشالا أن يمشى، ولكنه لم يستطع. وسقط على الأرض. عندها تجمعوا كلهم حوله وأخذوا يضربونه بالحراب ليجهزوا عليه. وأخيراً مات. وهكذا فرغ مواتوشى من رواية تلك الأحداث.

إذا انتقلنا إلى تأمل تلك المذكرة الميدانية المسهبة، فسنلاحظ أن المؤلف أورد قضيتين تحليليتين فى الفقرتين اللتين أبرزناهما باللون الأسود. وتوضح الفقرة الأولى احتمال أن الناس قد يقدمون - كجزء من استجابتهم لعملية

القص - على إعادة تمثيل بعض الأفعال أو الأحداث. ويزداد احتمال حدوث ذلك عندما تتوفر فى المكان جزئية معينة تذكرهم بالأحداث الرهيبة التى وقعت فى ذلك المكان نفسه فى الماضى(١٢). وقد أثارت حكاية موشالا لدى المستمعين ذكرى القرى التى هجرها سكانها، والأحراش المحيطة بالقرية التى كانوا يختبئون فيها، والطريق الذى كان الناس يقطعونه وهم متسللين عائدين إلى قريتهم من وقت لآخر لإحضار بعض المؤن.

ولكى تعد المؤلفة وحدة الاقتباس والتحليل، قامت من وسط ذلك النص المسهب باختيار الوصف الموجز التالى للسير بالظهر لخداع جنود موشالا:

> وبينما كنا نقطع الطريق عائدين إلى القرية... ظللنا جميعًا نتحدث عما سمعناه. وأخبرونى (ومثلوا أمامى) كيف كان القرويون يقطعون الطريق بظهورهم - سائرين للخلف - ، حتى تبدو آثار أقدامهم وكأنهم كانوا يسيرون فى الاتجاه المعاكس، وبذلك يضللون جنود [موشالا].

وقد قدمت المؤلفة للاقتباس بالقول إن الناس كانوا فى طريقهم إلى بيوتهم مساء بعد أن استمعوا للرواية: وبذلك لم تكن محتاجة إلى تضمين تلك المعلومة فى الاقتباس. كما حذفت الأسماء الشخصية للمتحدثين فى الجلسة، ولكنها احتفظت بالاسم الحقيقى لموشالا، لأنه كان شخصية عامة، وهذا أسلوب معتاد عند الاقتباس عن المذكرات الميدانية. كما نوهت بين قوسين إلى أن الجنود الذين كانوا يضطهدون الناس والذين كان الناس يختبئون منهم فى دخولهم وخروجهم من القرية؛ كانوا جنود موشالا، ولم يكونوا جنوداً حكوميين.

أما الفقرة الثانية من الاقتباس فتبين أن الناس كانوا يعيدون قص الحكاية ويعيدون - أثناء ذلك - تشكيلها بحيث تتلاءم وأعراف القص التقليدية فى مجتمعهم. وفى أثناء الحديث العابر الذى تم فى اليوم التالى لجلسة القص، اعتمد مواتوشى على أساليب القصص المألوفة تقليدياً ليحكى كيف مات موشالا: استخدام الشخص التعاويذ لكى يخفى نفسه عن الأنظار (ويحمى نفسه من الإيذاء أيضاً)، وأن يقص واقعة تكرار ثلاث محاولات لقتل الشرير، حيث لم تفلح إلا المحاولة الأخيرة منها.

> فعرفتهم (جنود الحكومة) بنفسها - أنها زوجة موشالا - كما عرفتهم بالتعاويذ (التى عملها موشالا) وأنها سوف تحميهم من تأثيرها الضار، إذا تجردوا من ملابسهم. ولكنهم خجلوا أن يفعلوا ذلك، فخلعت هى كل ملابسها، وفعلوا هم مثلها، وساروا جميعاً عرايا فى الطريق. بعد ذلك وصلوا إلى بركة ماء، وهناك قالت لهم عليكم أن تغتسلوا فى ماء البركة، بحيث لا يستطيع موشالا أن يراكم وأنتم قادمين إليه. هنا سمعوا موشالا قادماً نحوهم، فسارعوا إلى الاختباء وسط الأحراش. وجاء نحوهم حاملاً بندقيته على كتفه. فمر بأول الجنود دون أن يراه، بينما كان الجندى يرتعد خوفاً وشعر بالعجز عن الحركة. ثم مر بالجندى الثانى الذى كانت فرائصه هو الآخر ترتعد من فرط الخوف ولم يتحرك من مكانه. بعد ذلك قام الجندى الثالث بإطلاق النار عليه، فأصابه فى عينه، ثم فى صدره. بعدها حاول موشالا أن يمشى، ولكنه لم يستطع. وسقط على الأرض. عندها تجمعوا كلهم حوله وأخذوا يضربونه بالحراب ليجهزوا عليه. وأخيراً مات.

عند تحرير هذه الفقرة حذفت المؤلفة الأسباب التى دعت زوجة موشالا إلى خيانته، على أساس أنها ليست وثيقة الصلة بمناقشة تقاليد السرد التى تتناولها. كما أنها تحاشت إجراء أى تعديلات تحريرية فى صياغة الرواية، لأنها أرادت أن تحتفظ بأكبر قدر من تسلسل الأحداث وتفاصيلها كما رواها مواتوشى، ولو أنها لم تورد نص الحوار. ولكنها أضافت بعض الإيضاحات بين أقواس واختارت المعلومات الخاصة بالسياق التى يمكن أن تكون دالة - إلى أقصى حد - فى الجمل التى مهدت بها للاقتباس.

وقد جرت عادة الباحثين الميدانيين - عندما يعدون المذكرة الميدانية لتضمينها فى النص النهائى - أن يفعلوا ما هو أكثر من مجرد حذف مقاطع من المذكرة المسهبة، لأنهم يجب أن يركزوا مجدداً على التفاصيل ويزيدوها إيضاحاً خلال عملية التحرير. وسوف نتأمل فى النموذج التالى القرارات التى اتخذتها ليندا شو (Linda Shaw 1988) وهى بصدد وصف أنماط الإقراض والاستدانة لدى نزلاء دور إيواء ورعاية المرضى العقليين. ويلاحظ أن مذكرتها الميدانية الأصلية حول الموضوع لم تكن مسهبة فحسب، ولكنها كانت أكثر تفصيلاً من المذكرة بعد تحريرها، على نحو ما نرى فيما يلى:

المذكرة الميدانية الأصلية

دخلت إلى حجرة الطعام لأتفقد الأطعمة الخفيفة المتاحة، فوجدتنى فجأة أمام "مارى" وهى تتحدث بغضب إلى "ميشيل" عن واقعة أن "ميشيل" كانت قد أخبرت "ريد" ألا يُقرض "مارى" مالاً، بل إن عليه ألا يقرض أحداً مالاً، وأن يحافظ على ما معه من أموال لنفسه. لقد أرادت "مارى" أن تعرف من تظن "ميشيل" نفسها لكى تطلب من الناس ألا يقرضوها مالاً، وأن مارى لا تُكره الناس على إقراضها، وإنما هى تسدد دائمًا ديونها لأصدقائها. واستمر الجدل على هذا النحو برهة قصيرة، ولكنه بدأ يتصاعد عندما اتهمت "مارى" "ميشيل" بأنها تسبب لها المتاعب، ومن ناحية أخرى انبرت "ميشيل" تدافع عن نفسها قائلة إنها لم تسبب لمارى أى ضرر. هنا تدخل "ميك" -

وهو العضو الآخر الوحيد الجالس إلى مائدة الطعام – وقال شيئًا لا أذكره على وجه الدقة، وبدا أن القصد من تدخله هو تلطيف حدة الحوار، ولكنه كان يستهدف في الحقيقة أن تكف "ماري" عن الكلام عن "باتسي" بوصفها صديقة لميك، وكيف يمكن أن تكون له صديقة سمينة هكذا.

ووسط هذه المناقشة الجانبية التي غيرت الموضوع، انتصبت "ميشيل" واقفة وغادرت حجرة الطعام. بعدها اتجهت "ماري" نحوي تسألني: هل هناك أحد في "بيت فيستا"(*) لا يقترض المال. فوافقتها أن الكثيرين يفعلون ذلك. كما قالت إن "ميشيل" نزيلة جديدة هنا، لم يمض على إقامتها معنا أكثر من شهر، وما هو وجه الصواب في مرورها على الناس تطلب منهم ألا يقرضوها مالاً، مع أن الجميع هنا يفعلون ذلك. ثم كررت رأيها قائلة: " "ميشيل" نزيلة جديدة. انتظر فقط مرور فترة معقولة على إقامتها. وستجدها تقترض هي الأخرى، شأنها شأن الجميع". واستطردت ماري قائلة إنها تساعد أصدقاءها حينما يحتاجون إلى المال. وذكرت أنها أقرضت كلاً من "إيرل" و"كارا" كامل قيمة شيك الخصم(**) الذي تسلمته الشهر الماضي لأنهما كانا مفلسين وأنها تألمت لحالتهما".

نفس المذكرة الميدانية بعد تحريرها وتنقيحها

في حجرة الطعام بعد العشاء وجدت "ماري" تتهم "ميشيل" وهي نزيلة جديدة بغضب بأنها أخبرت "ريد" – وهو نزيل آخر – ألا يقرضها مالاً.

(*) المقصود نُزُل ضخم يتكون من عشرات أو مئات الغرف، في مدينة جامعية، أو في أحد أحياء المدينة، سكانه عادة من الشباب الذين يبدأون حياتهم ويعيشون حياة غير ميسورة. (المراجع)

(**) تشجع متاجر السوبر ماركت الضخمة عملاءها على الشراء بإغرائهم بعمل حسومات تتزايد بازدياد مشترواتهم من المتجر، بعضهم يدفعها بكوبونات عن كل مبلغ، وبعضهم يلجأ إلى أسلوب أكثر إغراء بدفع قيمة هذه الحسومات نقداً للعميل كل شهر مثلاً، لإشعاره بأنه يتلقى مالاً من المتجر. (المراجع)

وأصرت "ميشيل" أنها إنما حثت "ريد" على أن يحافظ على ما معه من أموال لنفسه، وألا يقرض أحداً مالاً، وأنها لم تذكر "مارى" إطلاقًا. وأرادت "مارى" أن تعرف من تظن "ميشيل" نفسها لكى تطلب من الناس ألا يقرضوها مالاً، وأن مارى لا تُكره الناس على إقراضها، وإنما هى تسدد دائمًا ديونها لأصدقائها. وأخيراً انتصبت "ميشيل" واقفة وغادرت حجرة الطعام. بعدها اتجهت "مارى" نحوى تسألنى: هل هناك أحد فى "بيت فيستا" لا يقترض المال. فوافقتها. وأبدت ملاحظة أن "ميشيل" نزيلة جديدة هنا: لم يمض على إقامتها فى "فيستا" أكثر من شهر"، فما هو وجه الصواب فى مرورها على الناس تطلب منهم ألا يقرضوها مالاً، مع أن الجميع هنا يفعلون ذلك؟ واستطردت: "ميشيل نزيلة جديدة. انتظر فقط مرور فترة معقولة على إقامتها. وستجدها تقترض هى الأخرى". وأضافت أنها تساعد أصدقاءها دائمًا حينما يحتاجون إلى المال. فقد أقرضت كلاً من "إيرل" و"كارا" كامل قيمة شيك الخصم عن الشهر الماضى لأنهما كانا مفلسين وأنها تألمت لحالتهما".

لقد ضمنت المؤلفة هذه المذكرة الميدانية فى أحد أقسام تقرير الدراسة الميدانية التى أجرتها عن موضوع أوسع يتعلق بمظاهر الاعتماد المتبادل والتعاون بين نزلاء هذا البيت. وقد اختيرت هذه المذكرة الميدانية بالذات لتدلل على النقطة التى تقول إنه لأن نزلاء البيت دخولهم منخفضة ومواردهم محدودة، فإنهم يعتمدون على أن بوسعهم أن يطلبوا من نزلاء البيت الآخرين مبالغ صغيرة وغيره من الأمور التى تنقصهم، وذلك عند الحاجة. وفى الاقتباس التالى نلمس مدى التوتر الذى يمكن أن يشعر به نزلاء هذه الدار عندما يشعرون أن مصادر المساعدة هذه يمكن أن يتهددها خطر.

وقد عمدت المؤلفة عند تحريرها وتنقيحها لهذا الاقتباس إلى الاحتفاظ بالحديث غير المباشر كما ورد فى الصورة الأصلية، وبنفس الترتيب الذى ورد به. كما احتفظت بأجزاء المذكرة الميدانية التى تلقى الضوء على أسس المشاركة فى نظام تبادل المساعدة،

وحذفت الجمل والعبارات التى تصف أفعالاً عديمة الصلة بهذه الأمور (موضوع "ميك وصديقته). وأبقت على تلك العناصر من حديث "مارى" التى تصف مظاهر مشاركتها التى تدل فى رأيها على أنها أصبحت طرفًا فى نظام المساعدة المتبادلة، (فهى بذلك تساعد الآخرين) بحيث يصبح من حقها أن تطلب منهم المساعدة فى المقابل. وأخيراً نجدها ضمنت تفسير "مارى" الذى يقول إنه لا يمكن أن يعترض على الاشتراك فى نظام المساعدة المتبادلة إلا غريب – من خارج الجماعة – لم يعرف تمام المعرفة شدة الحاجة إلى طلب العون من الآخرين.

وهكذا قام المؤلف – فى تحريره وتنقيحه لنص المذكرة الميدانية – بإسقاط جزء من الوصف، ولكنه احتفظ بتلك الجمل والعبارات التى تتصل أوثق اتصال بالنقطة المطروحة فى النص. ويمكن القول – أخيراً – أن عملية التحرير والتنقيح تتطلب تحقيق موازنة دقيقة بين الحرص على الحفاظ على جوهر ما يقوله أفراد مجتمع البحث وما يفعلونه، وتركيز انتباه القارئ على تلك الأجزاء من الحديث التى تدعم القصة التى يحاول الباحث أن يحكيها بأقصى قدر من الوضوح ومن الإيجاز فى نفس الوقت.

على أن هناك دائمًا ثمة مخاطرة فى أى عملية تكثيف (اختصار) أو انتقاء أجزاء من الاقتباس. وتتمثل هذه المخاطرة فى أن المؤلف قد يحذف بعض التفاصيل التى يمكن أن تقدم المبحوثين وأفعالهم بشكل أكثر إقناعًا. لذلك يقال إن عملية التحرير والتنقيح ليست بالمهمة البسيطة أو الصارمة التى تتخذ نمطًا واحداً. إذ نجد – من ناحية – أن الاختصار والتحرير سعيًا وراء الوضوح من شأنه أن يحقق التدفق الناعم للقصة الميدانية فى مجموعها: ذلك لأن الاقتباسات الطويلة أكثر من اللازم من شأنها أن تغرق القارئ فى التفاصيل الدخيلة أو العارضة. ولكن الاختصار والتنقيح يؤدى – من ناحية أخرى – دائمًا إلى خسارة قدر من الوضوح والتعقيد الذى كان يميز المذكرات الميدانية الأصلية.

وقد يواجه الباحثون الميدانيون – أحيانًا – بعض المشكلات بسبب أن الاقتباس يتسم "بالثراء" بشكل خاص، حيث أنه قد يتضمن بعض المعلومات التى تتصل بعدد من

موضوعات البحث. وهنا لا يصح تكرار المذكرة الميدانية بنفس نصها فى أكثر من قسم من أقسام النص النهائى للتقرير. ولأن القراء سرعان ما يشعرون بالتعب والملل من كثرة التكرارات التى لا لزوم لها، فإن الباحثين يتجنبون استخدام نفس الاقتباس من المذكرة الميدانية أكثر من مرة. والحل فى هذه الحالة هو التحديد الواضح للموضوعات التحليلية المختلفة التى يحتويها الاقتباس، وبعدها يستفيد من هذا التقسيم لمختلف الموضوعات إما فى تقسيم الاقتباس نفسه إلى وحدتين منفصلتين، أو يعمد - إذا استحال ذلك - إلى مناقشة مختلفة عناصر الاقتباس بالتتابع، العنصر بعد الآخر.

ونتأمل فيما يلى مثالاً من دراسة عن أحوال العمال المحليين ومستخدميهم، استخدم فيه الاقتباس التالى - فى بادئ الأمر - لإلقاء الضوء على تقييمات العمال الأخلاقية لممارسات مستخدميهم فى العناية بنظافة أماكنهم:

> "إنها لا تنظف دورة مياهها على الإطلاق، ولم أستطع أن أتخلص من القاذورات التى على ـــــ هل حمامها من ذلك النوع المغطى برقائق المطاط؟ نحن نستخدم فى التنظيف مواداً جيدة، ولذلك قلت لها: "أنت تتركين الأوساخ مكانها طوال الليل". ولأن المكان كان شديد القذارة... ولذلك قلت لنفسى عندما تركت خدمة تلك السيدة (هاهاها)(*): سوف أترك ذلك كله على حاله [تركت كتلة من المخلفات المتجمعة فوق بالوعة الحمام]، ولذلك سوف تضطر هى إلى تنظيفها بنفسها فى اليوم التالى".

وعندما أعاد الباحث قراءة ذلك الاقتباس قرر أن يحذف المقطع الأخير من العبارة التى قالها عامل النظافة، والتى تحتوى على محاولته حمل مخدومته على استكمال عملية تنظيف القاذورات بنفسها، ورأى أن يستخدمها فى القسم التالى الذى يتناول أساليب عمال تنظيف المنازل فى مقاومة مخدوميهم وقلب المائدة عليهم.

(*) ضحكة السخرية هذه لأنه وصف مخدومته بأنها ليدى: سيدة. (المراجع)

ويعمد الباحثون الميدانيون - عمومًا - إلى حذف التعليقات النظرية (التأملية) التي كانوا ضمنوها فى المذكرة الميدانية الأصلية. ويحرصون فى مقابل ذلك على الإبقاء على الأفكار الأولية - التى وردت فى النص الأصلى - فى التقرير النهائى للدراسة الإثنوجرافية. ويتمسك الباحث الميدانى بأن يدرج أية أفكار مفيدة فى المناقشة التحليلية، التى تأتى بعد الاقتباس. غير أن السائد فى أغلب الأحيان أن الباحث يكون قد توصل إلى تحديد عدد من القضايا التحليلية وتدقيقها بإحكام إلى درجة أن تعليقاته الأولية السابقة تبدو إلى جانبها مغرقة فى التبسيط أو الفجاجة، ومن ثم تنخفض جدواها إلى أدنى حد. ونتبين فضلاً عن ذلك أن المؤلف يكون دائمًا صاحب صوت مميز، لأنه هو الذى يكتب، وينتقى، وينقح، وينظم المقتطفات التى يأخذها من المذكرات الميدانية. ولكن المؤكد أن الاقتباسات التى تهيمن عليها تفسيرات الباحث الميدانى تبدو للقارئ مصطنعة ومتكلفة، ولذلك يصبح لا لزوم لها فعلاً فى التقرير الميدانى النهائى(١٣).

ويقوم المؤلف الإثنوجرافى بتنقيح الاقتباسات ليجعلها ميسورة القراءة، وذلك باستخدام الأساليب المعتمدة عادة فى وضع النقط والفواصل، وهجاء الكلمات، والالتزام بقواعد النحو. والتماساً للوضوح يتعين عليه أن يهتم اهتماماً خاصاً بمراجعة الجمل غير الواضحة وتصويب التغيرات فى صيغ الأفعال التى يمكن أن تربك القارئ، والتى ترد فى تلك الأجزاء من الاقتباس التى لا تتضمن اقتباسات مباشرة لأقوال المبحوثين. على أنه يتعين على المؤلف أن يلتزم الأسلوب المحافظ أشد المحافظة فى تحرير نصوص الأقوال المباشرة، بحيث يراعى التوازن بين حاجة القارئ إلى الوضوح، فى مقابل الالتزام بتقديم صورة دقيقة لأسلوب أولئك الناس فى استخدام الكلمات فعلاً. من هنا يبدى الباحث عناية خاصة بالحفاظ على اللهجات التى يتحدث بها أولئك المبحوثين، والتعابير (العبارات الاصطلاحية) التى يستخدمونها، وإيقاع كلامهم، والحرص على توصيل كل ذلك للقارئ. وتشمل أمانة النقل كذلك مشكلة مظاهر تعثر الكلام لدى بعض الأفراد، من قبيل: أخطاء بداية الكلام، الوقفات أثناء الكلام، تكرار العبارات، التى يجب عليه أن يعالجها بكل دقة. وهناك كثير من المبررات التى تفرض تنقيح الكثير من هذه العثرات الكلامية لجعل الحوار ميسور القراءة (خاصة فى حالة تدوين تلك الحوارات من شريط مسجل)(١٤).

ولكن المؤلف قد يحرص – فى بعض الحالات – حرصًا خاصًا على الإبقاء على مثل هذه العيوب الكلامية لكى يوضح من خلالها الحالة العاطفية أو المزاجية للمتكلم. من ذلك الإبقاء على حروف: "و- و- و-" فى الاقتباس التالى، وذلك لإلقاء الضوء على تردد المتكلم واضطرابه عندما يتحدث عن "مرضه العقلى" إلى الباحث:

"أنا أملك موهبة التخاطر(*)، وأستطيع فعلاً أن أسمع الأفكار التى تدور فى رؤوس الناس الآخرين". وقال إنه يتمنى لو يستطيع إخبار الناس بذلك..." ولكنهم (أى الأطباء) سوف يزيدون لى جرعة الدواء... ولكن أيًا كانت كمية الأدوية التى يعطونها لى، فلا شىء يمكن أن يفقدنى قدرتى على التخاطر. و- و- و- وذلك أمر لا يرجع إلىَّ أنا، وإنما السيد المسيح هو الذى أراد لى ذلك".

كذلك يتعين أن تؤدى عملية التحرير والتنقيح إلى جعل المقتطفات المنقولة من المذكرات ميسورة الفهم للقارئ. لذلك يتوجب على المؤلف أن يوضح – دون لبس – أى تلميحات (إشارات ضمنية أو غير مباشرة): كالأسماء، والأماكن، والإجراءات – التى تمثل إشارات لأمور خارج المذكرة الميدانية. وبوسع المؤلف أن يفعل ذلك بأن يحيل القارئ إلى الاقتباس الذى يوضح ذلك، أو يقتصر بالنسبة للأمور السريعة والأقل أهمية على وضع تفسير مختصر بين قوسين داخل النص نفسه. من ذلك أن يقوم المؤلف بتحديد الوضع المحلى للأفراد الذين وردت أسماؤهم فى الاقتباس (من ذلك مثلاً: "الآخرون [جميع التلاميذ]")، أو يقوم بتوضيح معنى حديث مباشر قد لا يكون تام الوضوح

(*) التخاطر Telepathy هو اتصال العقول والوجدانات عن بُعد عن غير طريق الحواس الخمس، كأن تضطرب أم فجأة أو تصرخ فى نفس اللحظة التى أصيب فيها ابنها الموجود فى بلد بعيد فى حادث. والواقع أن التخاطر ضرب من قراءة الأفكار، وشكل من أشكال الإدراك وراء الحسى Extrasensory Perception. ومن العلماء من يُنكر أن يكون ثمة شئ اسمه التخاطر. ومنهم فريق يقول إن التخاطر ربما كان ممكنًا غير أن أحدًا لم يُثبت ذلك حتى الآن. وفريق يذهب إلى الاعتقاد بأن بعض الأفراد يملكون القدرة على التخاطر فعلاً. وإنما يتفق هذان الفريقان الأخيران على أمر واحد، وهو أنه فى حال وجود القدرة على التخاطر فليس فى مستطاع صاحب هذه القدرة استخدامها أو الاعتماد عليها فى جميع الظروف والأوقات. (المراجع)

داخل النص (مثلاً: "ولكن الهدف الوحيد الذى كان فى ذهننا هو تفجيره [الدينا ميت]"). وعلى الباحث الميدانى – فى هذه المرحلة من العمل – أن يتحقق مرة أخرى من دقة كافة التفاصيل الواردة؛ فمن شأن العرض السئ للمعلومات الخاصة بواقعة معينة، أو لبعض المصطلحات المحلية سرعان ما تقنع القارئ أن هذا الباحث ليس أهلاً للثقة. ومن المؤكد أن بضعة أخطاء قليلة يمكن أن تهدم مصداقية القصة برمتها.

وأخيراً لابد أن يحرص الاقتباس على حماية الناس، والمؤسسات، والمجتمعات المحلية المدروسة بالاهتمام بتجهيل تلك العناصر. ولذلك يقوم الباحث فى أثناء عملية التحرير والتنقيح بتغيير كل الأسماء، والعلامات الدالة على الهوية، كالتفاصيل المميزة الواردة فى التقرير والتى تشير إلى صاحبها الحقيقى. ويتجه المؤلفون إلى استخدام الأسماء المستعارة، التى قد تثير فى الذاكرة بعض السمات (مثل: الهوية الإثنية)، وذلك بدلاً من الاسم الأصلى (الحقيقى)[١٥].

ولا ننصح باستخدام الحرف الأول من الاسم للإشارة إلى مختلف الأشخاص، ذلك لأن هذا المستوى الأدنى من التعريف يحجب عن القارئ معرفة نوع الشخص (ذكر/ أنثى)، كما يخفى السمات المثيرة للذكريات والعواطف، ويجعل من الصعب على القارئ أن يتعرف على هذا الشخص مرة أخرى عند ورود ذكره فى بقية الاقتباسات.

ترتيب وحدات الاقتباس والتحليل داخل القسم الواحد

مع الاسترشاد بالإطار العام للموضوع يقوم الباحثون الميدانيون عادة بتنظيم تقارير دراساتهم إلى أقسام، لكل قسم منها عنوان مستقل. وعلى العموم يتناول كل قسم موضوعاً رئيسيًا واحداً، قد ينقسم بدوره إلى أقسام فرعية، كل منها يتناول أحد الموضوعات الفرعية. ويتكون كل قسم من مجموعة من وحدات الاقتباس والتحليل. من ذلك مثلاً أن القسم من الدراسة الإثنوجرافية عن المدرسة الثانوية للمثليين الجنسيين (من الإناث والذكور) والمعنون بالعنوان التالى: "إضفاء الطابع الجنسى على الحوارات"، يتكون من الوحدات التالية:

الوحـدة ١

النقطة التحليلية: تمثل "التلميحات (الإسقاطات) الجنسية" وسيلة شائعة يتخذها التلاميذ لإضفاء الطابع الجنسى على الكلام عند الحديث إلى المدرسين والحديث عنهم.

الاقتباس: عندما تبين التلميذ أن أحد المدرسين يبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، قال معلقًا: "لقد أقمت علاقة مع شخص عمره ثمانية وعشرين، لقد كان ضخمًا".

الوحـدة ٢

النقطة التحليلية: يضفى التلاميذ الطابع الجنسى على ردودهم، خاصة على التعليمات التى يوجهها إليهم المدرسون.

الاقتباس: أجاب التلميذ على أوامر المدرس الذى قال له: "تعال هنا"، باعتباره طلبًا لإقامة علاقة.

الوحـدة ٣

النقطة التحليلية: فى بعض المواقف يحرص المدرسون على ألا يدعوا التحدى المتضمن فى التعليقات الجنسية للتلاميذ يمر مرور الكرام، وإنما يردون بأسلوب يؤكدون فيه موقفهم.

الاقتباس: رد المدرس على التلميذ الذى أطلق عبارة ساخرة قال فيها: "فتش لسانى"، عندما طلب منه أن يتفل قطعة اللبان من فمه، رد قائلاً: "ليست لى رغبة فى ذلك، أنا متأكد أن كثيرين قد فعلوا ذلك من قبل".

النقطة التحليلية: فى بعض الأحيان يعمد بعض المدرسين أنفسهم إلى استخدام لغة الحديث الجنسى بطريقة تؤكد ضمنًا سلطتهم على التلاميذ.

الاقتباس: عندما رفض أحد التلاميذ عرض الباحث له أن يساعده في مذاكرة الرياضيات، قال المدرس معلقًا: "اقبل العرض، فلقد سبق لك أن سألت عنه".

وفى داخل القسم الواحد يقوم الباحث الميدانى بتنظيم الوحدات بحيث تتتابع الأفكار متصاعدة على نحو يتصاعد فى الكشف عن تعقيدات بيانات المذكرة الميدانية وتحليلاتها، وذلك لكى تتطور القصة وصولاً إلى فهم أعمق لموضوع القسم. ونلاحظ فى المثال السابق أن الوحدتين الأوليين تركزان على الحديث الجنسى للتلاميذ. أما الوحدة الثالثة فتضيف نقطة معقدة أخرى تتعلق برد المدرسين على مثل هذه الأحاديث. وتركز الوحدة الرابعة على المسائل الأكثر دقة وحساسية عندما يبادر المدرسون أنفسهم باستخدام هذه اللغة فى الحديث.

ولمساعدة القارئ على متابعة هذا التصاعد فى الأفكار – من وحدة إلى التى تليها – يتعين على المؤلف أن يقوم بعملية انتقال واضحة تربط الفكرة الرئيسية للفقرة بالأفكار الرئيسية التى وردت فى الفقرات السابقة. وفى بعض الحالات تكون عملية الانتقال تلك يسيرة نسبياً تتمثل فى كتابة جملة تمهيدية للفقرة التى تبدأ الوحدة الجديدة. من ذلك مثلاً ما كتبه مؤلف القسم الخاص "بإضفاء الطابع الجنسى على الحوارات" فى الجملة التى مهد بها للوحدة الثالثة، وقال فيها:

> على الرغم من أن المدرسين لا يستجيبون أحيانًا للتلميحات الجنسية التى يقولها التلاميذ – على نحو ما رأينا فى الاقتباس السابق – إلا أن الأمر ليس كذلك فى كل الأحوال...

فهذه الجملة التمهيدية تشير إلى الاقتباس السابق ملاحظة إحدى السمات التى لم يسبق للباحث أن تناولها فى ذلك الحين وهى: أن المدرسين لا يردون بوضوح على

الحديث الجنسي للتلاميذ. وهنا تستخدم هذه السمة التي تمت ملاحظتها بأثر رجعي في التقديم - عن طريق المقابلة - لمحور الوحدة الحالية وهو: كيف رد المدرس على مثل هذا الحديث الجنسي.

وفي حالات أخرى عندما تثير النقطة التحليلية في وحدة تالية قضية مختلفة تمام الاختلاف عن نقطة الوحدة السابقة؛ عندئذ لا يصح أن يقنع المؤلف بالاعتماد على جملة تمهيدية يحقق بها هذا الانتقال. وإنما يتعين عليه أن يراجع الوحدة السابقة على نحو يثير فيه بوضوح فكرة الوحدة التالية. من ذلك مثلاً الجملة الانتقالية التالية التي وردت في مقدمة الوحدة الثانية من القسم الخاص "بإضفاء الطابع الجنسي على الحوارات"، والتي جاء فيها:

> فضلاً عن ذلك يلجأ التلاميذ في بعض الأحيان إلى وضع أنفسهم في موقف أقوى من موقف المدرسين، وذلك عن طريق إضفاء طابع جنسي على الأوامر التي يوجهها المدرسون إليهم...

فهذه الجملة تركز على التلميحات الجنسية للتلاميذ كاستجابة "للأوامر والنواهي" التي يصدرها إليهم المدرسون. غير أن المؤلف لم يتناول في الوحدة الأولى الأشكال الخاصة لتفاعل المدرسين والتلاميذ التي يتم فيها استخدام التعليقات ذات التلميحات الجنسية. فالقول الآن أن تلك التعليقات (الجنسية) قد قيلت رداً على تعليمات المدرس قد يثير شيئًا من الارتباك في عقل القارئ: هل يرد التلاميذ بالتلميحات الجنسية على أنواع الكلام الأخرى (عدا التعليمات والأوامر)، من قبيل الطلبات المهذبة أو الأسئلة العامة؟ لذلك يتوجب على المؤلف أن يراجع المناقشة التي قدمها في الوحدة الأولى لكي يلقي الضوء على التمييز التالي.

وإلى جانب قرار ترتيب وحدات القسم، يكون على المؤلف أيضًا أن يكتب مقدمة وخاتمة لكل قسم. ولابد أن تربط المقدمة موضوع القسم بالموضوع العام للدراسة الإثنوجرافية (الميدانية)، كما أن عليها أن تتناول بالمناقشة أي ملامح عامة للموضوع العام تكون لازمة لفهم وتقدير الأفكار الواردة في مختلف الوحدات التالية. من ذلك مثلاً

قدم المؤلف للقسم الخاص "بإضفاء الطابع الجنسى على الحوارات" بفقرة لاحظ فيها أن التلاميذ عمومًا يضفون طابعًا جنسيًا على الحوارات التى تتم فى هذا المجتمع الصغير، وأن هذا "التلميح الجنسى ناجم عن علاقات القوة بين المدرسين والتلاميذ". وبذلك ربط هذا القسم بالموضوع العام للورقة العلمية التى يكتبها. ويذهب فى الفقرة التالية إلى أن "التلميحات (الإسقاطات) الجنسية" تمثل أحد أشكال الإضفاء للطابع الجنسى على الكلام، وهو شكل "مفيد للتلاميذ فائدة كبرى، لأن مثل هذه الإسقاطات تتسم بأنها مبهمة (لغير المنتمى إلى الجماعة - المترجم) وغير مباشرة"، بما يسمح عند اللزوم بإنكار أى نية جنسية من ورائها.

وأخيراً يحاول المؤلف فى خاتمة القسم أن يجمل دلالات الاقتباسات والتحليلات المستخدمة ويربطها بلب الموضوع الرئيسى لذلك القسم. وقد يوضح كذلك كيف أن هذه القضايا ترتبط بالقسم التالى.

إنتاج وثيقة إثنوجرافية (ميدانية) متكاملة

فى حدود ما يسمح الوقت المتاح للباحث، يقوم بمعاودة العمل فى الوحدات والأقسام عدة مرات، حيث قد يقوم بتبديل الاقتباسات التى سبق له اختيارها باقتباسات غيرها، وينقح التحليلات التى كتبها، وكذلك الجمل الانتقالية من قسم لآخر، ويعيد ترتيب الوحدات فى داخل كل قسم و/ أو يعيد ترتيب الأقسام داخل الدراسة الإثنوجرافية (الميدانية) العامة. ومع أنه قد يرى أن هناك حاجة إلى إجراء بعض التغييرات والتدقيقات الممكنة، إلا أنه يتوجب عليه - عند لحظة معينة - أن يكف عن المراجعة والتدقيق ويشرع فى مهام الكتابة النهائية اللازمة لتحويل النص الراهن شبه المكتمل إلى وثيقة علمية ميدانية نهائية. ومن تلك المهام الأخيرة: صياغة عنوان التقرير، وكتابة مقدمة له تربط موضوعها وقضاياها الرئيسية بالبحوث الإثنوجرافية الأخرى، ووصف مجتمع البحث والمناهج المستخدمة، وإعداد خاتمة عامة للتقرير العلمى النهائى.

تقديم تقرير الدراسة الإثنوجرافية

يتولى عنوان التقرير ومقدمته تزويد القارئ بالوسيلة الأولى للتعامل مع النص العلمي. فالعنوان والمقدمة لا يطلعان القارئ فقط على مضمون الدراسة الإثنوجرافية عمومًا، ولكنهما يمثلان بالنسبة للمؤلف نفسه مفاتيح لاهتماماته التحليلية والموضوعية.

وهناك بعض عناوين الدراسات الإثنوجرافية (الميدانية) التى تدل القارئ مباشرة على الموضوع العام، وكذلك على التحديد الدقيق للناس، أو المجتمع، أو نوع النشاط، أو العملية التي تناولها البحث الميداني بالدراسة فعلاً. مثال ذلك العناوين التالية:

- "الأسلوب الشعائرى فى الشرب (شرب الخمور - المترجم) فى جماعات الأخـوة"(*).
- "ديناميات التفاعل الإثنى فى مدرسة ثانوية حضرية".
- "فى انتظار الموت: دراسة ميدانية لأحد بيوت النقاهة".

وبدلاً من الاقتصار على تحديد الموضوع العام، قد يعمد المؤلف إلى توصيل الموضوع التحليلى - الأكثر اتصافًا بالطابع النظرى للدراسة الإثنوجرافية - من خلال العنوان الذى يتخذه لها. وقد سبق أن لاحظ أتكنسون (Atkinson 1990: 76) أن الباحثين الميدانيين غالبًا ما يفعلون ذلك بإضافة عبارة تحتوى على القضية المجردة المرتبطة بلب الموضوع وذلك باستخدام علامة ترقيم للعبارة التى تحدد الموضوع العام ونوع المجتمع "المحلى" أو النشاط الذى تنوى الدراسة بحث هذا الموضوع فيه. من ذلك مثلاً:

- "نظم القوة: السلطة والنظام فى أحد نزل الشباب".

(*) جماعات الأخوّة Fraternity Groups: جماعات من الأصدقاء (من جنس واحد، أو من الجنسين) من أى فئة عمرية، تتعاهد (غالبًا وفق قَسَم خاص) على الإخلاص والدعم المتبادل... إلخ. وتحرص عادة على الالتقاء فى مناسبات دورية أو شبه دورية. (المراجع)

وأخيراً قد يتجه الباحث إلى تضمين المصطلحات أو التعابير المحلية التى يستخدمها أفراد مجتمع البحث كمكونات أساسية للعنوان. من ذلك مثلاً:

- "ديناميات الانقباض (الاكتئاب): الهدوء والسكينة مع الموقف المتوتر"(*).
- "هؤلاء الأطفال الصغار يعيشون فى عوالمهم الخاصة الصغيرة: الإطار التفسيرى فى بيت أسرة متوسطة"(*).

يلجأ كثير من المؤلفين إلى بدء الفقرة الأولى من مقدمة التقرير الميدانى باستهلال يلفت انتباه القارئ. من ذلك أن يستخدموا واقعة معينة مما ورد فى مذكراتهم الميدانية يكون التركيز فيها على الموضوع الرئيسى للدراسة أو لأنها تصف فى إيجاز الاتجاهات المعروفة فى تناول الموضوع. بعد ذلك يعرض المؤلف - فى إيجاز شديد - موضوع دراسته والمجتمع أو المحيط الذى أجرى فيه بحثه، وذلك كجسر يعبر منه إلى عرض قضيته. وفى السرد الموضوعى يكتب المؤلف "قضية موضوعية" تشرح المحور الرئيسى للمقال العلمى وتعدد الموضوعات الأساسية التى سيتم تناولها فيه. وبهذا المعنى فإن القضية لا توضح بشكل كامل كل تطور فى القصة الإثنوجرافية (الميدانية)، كما أنها لا تستبق النتائج التى ستأتى فى نهاية المقال. وإنما الأصح أن القضية تؤذن بانطلاق القصة. وأخيراً يقدم المؤلف - عادة - عرضاً عاماً لمحتويات المقال العلمى من خلال استعراض موضوع كل قسم من أقسامه.

من ذلك مثلاً أن الباحث الميدانى الذى ألف دراسة عن "ديناميات التفاعل الإثنى فى مدرسة ثانوية حضرية" بدأ بتعريف القارئ بموضوعه، وذلك على النحو التالى:

(*) أغلب الكلمات الواردة فى هذين العنوانين هى مصطلحات وتعابير دارجة مما يستخدم فى لغة الحياة اليومية. (المراجع)

نحن فى حياتنا اليومية نميل عموماً إلى اعتبار الانتماء الإثنى مقولة تصنيفية مسلماً بها. فالناس ينتمون إلى جماعات متميزة عن بعضها، لكل منها ممارساتها الثقافية الخاصة بها والدالة عليها. فنقول مثلاً إن رئيس الولايات المتحدة رجل أبيض(*)، وأن السحر عند الشعوب الأفريقية هو سحر الأزاندى، وأن "الراب" من التراث الموسيقى للسود، وأن الخامس من مايو هو العيد القومى للمكسيك ...إلخ. ونحن نتصور أن هذا الذى نتحدث عنه ونصفه في حديثنا هو الحقيقة الموضوعية القائمة فعلاً. فنحن نعتقد أننا لا نغفل أكثر من بيان "الحقائق الطبيعية" فى هذا العالم. وعندما نصبح أكثر وعياً بالإثنية كمقولة تصنيفية، فإن ذلك يرجع عادة إلى وجود صراعات. وتقول الصحيفة إن صاحب متجر "كورى" أطلق الناس على فتاة "سوداء"، وأن جماعة "القوة البيضاء"(**) قد هجم أفرادها على حى "يهودى". ونحن نتساءل: كيف حدث كل هذا؟ وكيف يستطيع أناس مختلفون أن يتعايشوا معاً؟ ولكننا نسلم دائماً بوجود تجمعات معينة من الناس، وأن كل تجمع منها له ثقافته الخاصة.

يوضح المؤلف فى هذه الفقرة التمهيدية أن الناس عندما يتحدثون عن الإثنية يفترضون عادة أن المصطلحات التى تحدد الكيانات الإثنية تشير بشكل لا لبس فيه إلى "تجمعات من الناس" موجودة طبيعياً ومتميزة عن بعضها البعض. وفى الفقرة التمهيدية التالية عليها يتابع المؤلف إلقاء الضوء على التوجه أو الموقف التحليلى الذى سوف يتبناه فى تناوله للإثنية:

(*) هذا بالطبع باعتبار ما كان طوال قرنين ونصف من الزمان، ولم يكن يدور بخلد المؤلف أن هذه "المقولة التصنيفية المسلم بها" سوف تتغير، ويدخل البيت الأبيض رئيس من أصول سوداء. (المراجع)

(**) جماعة "القوة البيضاء" هى القطب المعاكس لجماعة "القوة السوداء" التى نشأت فى ستينيات القرن الماضى من الزنوج الأمريكيين بهدف تحقيق المساواة الاجتماعية بين السود والبيض. فهذه الجماعة تتكون من البيض المتطرفين (يمكن أن نقول النازيين الفاشست) الذين يناؤون وجود الملونين واليهود ويناؤون أى قوة لهم أو حقوق يمكن أن يتمتعوا بها. (المراجع)

إن ما نتجاهله فى خطاب الحياة اليومية هو أن الإثنية فى الحقيقة "سلوك اجتماعى"(*): فالناس يحددون هوية شخص ما، أو مكان، أو شئ من الأشياء بوصفه ذا "طابع" معين يتخلق من خلال ديناميات التفاعل الضمنى التى تتمحور حول الإدماج والاستبعاد. وهذه العملية هى التى تخلق ما أسماه بارت(**) (Barth 1969) "الحدود" فى ثنايا عملية التفاعل. وهذه الحدود ذاتية وليست موضوعية فى حقيقتها، وتتواصل دائمًا ودون انقطاع عمليات خلقها وتدعيمها، وتأكيدها وتعديلها، وربما حتى التخلص من بعضها. وهكذا نتبين أن الإثنية فى الحياة اليومية إنما تمثل ظاهرة محلية متجذرة فى مواقف محددة ونابعة منها.

فالمؤلف يقترح أن ننظر إلى الإثنية ليس بوصفها "حقيقة واقعة" ذات وجود موضوعى، وإنما باعتبارها نتاجًا "لسلوكيات اجتماعية"، أى عمليات التفاوض التفاعلى المرتبطة بالإدماج والاستبعاد. وعندما أتى على ذكر "بارت"، فقد أراد من ذلك أن يبين لنا أن هناك باحثون آخرون يهتمون بنفس هذا الموضوع، ويشير من طرف خفى إلى أن هذه "الزاوية الجديدة" من شأنها أن تثرى النقاش الأكاديمى حول الموضوع.

(*) التعبير الوارد فى الأصل هو Social Work وهو اصطلاحيًا وعلميًا يعنى لدى الكافة - بما فى ذلك الولايات المتحدة - "الخدمة الاجتماعية". ولذلك أعتقد أن المؤلف لم يقصد هذا المعنى الاصطلاحى المعروف ولكنه أراد المعنى اللغوى الحرفى أى: العمل أو السلوك الاجتماعى، وهو ما يتفق تمامًا مع السياق، وما أثبتناه فى متن هذه الترجمة. (المراجع)

(**) بارت رولان، جيرار Barthes, Roland (١٩١٥-١٩٨٠) كاتب وناقد فرنسى. بعد أن أكمل دراسته فى السوربون، شغل بارت عددًا من الوظائف فى المجر قبل أن يعود إلى فرنسا ليشغل وظيفة أستاذ علم اجتماع العلامات والرموز والتصورات الجمعية ومديرًا للبحوث فى المدرسة العليا للدراسات العلمية بباريس (١٩٦٢-١٩٧٦)، ثم انتقل إلى الكوليج دى فرانس بعد ذلك حيث عُين أستاذًا لعلم اجتماع الأدب. ويرجع إلى بارت الفضل فى تأسيس مجلة "المسرح الشعبى" Theatre Populaire فى عام ١٩٥٣ وهو نفس العام الذى صدر له فيه كتاب "الكتابة فى درجة الصفر"، ثم نشر له بعد ذلك كتاب "الأساطير" (١٩٥٧)، فترسخت مكانته كأكبر مفكر نظرى بعد دى سوسير، ومن أعماله الأخرى: "متعة النص" (١٩٧٣)، وسيرته الذاتية "رولان بارت بقلم رولان بارت" (١٩٧٥). للمزيد انظر: A.Elliott et al., Key Contem, Social Thinker, 2003. (المراجع)

بعد ذلك يعمد المؤلف إلى تأكيد موضوعه وتفصيله أولاً بالتعريف بالناس الذين سيبحثهم وبمجتمع البحث، وأخيراً بتحديد نوع البيـــانات التى سوف يعتمــد عليها فى بحثـه:

> تتناول هذه الورقة العلمية موضوع الإثنية والجماعات الإثنية فى إحدى المدارس الثانوية الحضرية فى منطقة جنوب كاليفورنيا. وتصف المقتطفات المأخوذة عن المذكرة الميدانية العمليات التى يستخدم بها الناس الإثنية فى حياتهم اليومية.

بعد ذلك يستعرض القضية العامة التى يتبناها عن الإثنية، وهى تعبير تفسيرى عن الإثنية بوصفها مقولة "يتواصل خلقها وتعديلها" فى مواقف الحياة اليومية، فيقول:

> أعتقد أن الناس – فى تفاعلاتهم اليومية مع بعضهم البعض – يعملون على تثبيت "الإثنية" من خلال العمل المستمر على تجديدها وتعديلها فى مواقف تفاعلهم مع بعضهم البعض. فهذا "السلوك الاجتماعى" فى مواقف الحياة وفى عمليات التفاعل يخلق الوحدات المتميزة، التى تمثل كل وحدة منها جماعة معينة، يعترف الجميع بأن لها ثقافتها، ورموزها، وأساليبها، وموضوعاتها الخاصة المميزة لها. وهكذا تمثل هذه الورقة العلمية دراسة لكيف "يسند الناس إلى بعضهم البعض السمات المسندة إليهم سلفاً" (Garfinkel 1967).

وفى النهاية يختتم المؤلف هذا القسم من المقدمة بتقديم رؤية عامة مجملة لوجهة نظره، فيطرح وصفًا موجزاً للفكرة الأساسية لكل قسم من الأقسام التالية للورقة (راجع فيما سبق موضوع: "تطوير سرد موضوعى").

وفى مقابل كتابة مقدمة تبدأ بطرح الفكرة التحليلية ثم الانتقال بعدها إلى تحديد موضوعات الدراسة؛ فى مقابل ذلك يبدأ باحثون ميدانيون آخرون بتقديم وصف أو رصد إجمالى حقيقى مستمد من المذكرة الميدانية. وبعد أن يفرغوا من استعراض التفاصيل الخاصة بكل جزئية، يحددون بمزيد من الدقة قضية أو مشكلة تحليلية عامة تمثل تلك الواقعة تعبيراً عنها وتجسيداً لها.

من ذلك مثلاً الباحث الميدانى الذى يدرس الإثنية كان سيعمد فى هذه الحالة (لو كان ينتمى إلى هذا الفريق) إلى البدء بوصف موقف أو نموذج حى شديد الوضوح لذلك "السلوك الاجتماعى" الذى يعمل على تجديد وتأكيد هوية إثنية معينة: مثل موقف درامى أو متطرف لفتى أبيض يلبس، أو يتحدث، أو يتصرف كشخص أسود. وربما ينتقل ذلك المؤلف بعد هذا إلى بلورة المشكلة أو القضية التحليلية العامة التى يرى أن هذه الواقعة تعكسها أو تعبر عنها بوضوح(١٦).

ربط الدراسة الراهنة بالبحوث الأخرى

يحرص الباحثون الميدانيون فى كتابتهم للمقدمة (أو فى القسم التالى عليها مباشرة) إلى ربط تفسيرهم - على نحو عام - ببعض القضايا الأعم التى تكون محل اهتمام فى مجال تخصص كل منهم. وهم بذلك يدعون قراءهم إلى أن يأخذوا موضوعات الدراسة مأخذ الجد. وفى هذه المرحلة أيضًا يعاود المؤلف التفكير فى جمهور القراء الذين يستهدفهم ببحثه هذا، ومن ثم ينتقى الكلمات والأفكار التى تكون مألوفة لهم.

من ذلك مثلاً الباحث صاحب مقالة الإثنية، فهو يكتب للمتخصصين فى علم الاجتماع، ولذلك يناقش مفهوم "الإثنية" بنفس الفهم الذى يستخدمه علماء الاجتماع. ونجده فى كل فقرة من فقرات مقاله يطرح واحدة من سمات مشكلة بحثه عن مختلف القضايا الإثنية. ومع أنه يعرِّج على ما قدمه الباحثون الآخرون من دراسات عن الموضوع، إلا أنه لا يثير من المسائل المتعلقة بالإثنية إلا تلك التى سوف يتناولها لاحقًا فى صلب ورقته العلمية. كما يحرص عند عرض نتائج بحثه على تقديم الأفكار التحليلية والاقتباسات المعتمدة على المذكرة الميدانية التى تتصل بالمشكلات التى أثارها فقط:

> لاحظ مارجر (Marger 1991) أن علماء الاجتماع يصنفون الجماعات الإثنية فى ضوء ثلاثة مؤشرات هى: السمات الثقافية المميزة، معنى الجماعة

المحلية (أو الرابطة الاجتماعية)، والعزو (أى اكتساب السمة الإثنية بالميراث)(*). فنلاحظ أولاً أن الجماعات الإثنية تتسم ببعض الخصائص السلوكية الخاصة بها والتى تميزها عن بقية الناس. ثانيًا: تظهر الجماعات الإثنية إحساسًا بوجود رابطة اجتماعية بين أفرادها. هذا الشعور "بالنحن" يخلق بالضرورة شعوراً بالآخرين أو "هم"، وبذلك تتخلق الحدود حول الجماعة الإثنية من شأنها أن تعمل على فصل من هم بداخل الجماعة عمن هم خارجها. ثالثًا: المكانة الإثنية تكتسب دائمًا بالميراث، أى بمجرد المولد عادة. ويؤكد مارجر فى استعراضه لتلك الخصائص على ما يفترض أنه معايير موضوعية للإثنية. فالكيانات الإثنية تعد - وفق هذا المنظور - كيانات اجتماعية منفصلة يمكن دراستها فى ضوء علاقتها ببعضها البعض. ويسود هذا الأسلوب فى التناول فى كثير من دراسات العرق (السلالة) والعلاقات الإثنية فى الولايات المتحدة. وسوف تعمل الدراسة الراهنة على تحليل البيانات الديموجرافية من هذا المنظور.

ومن سوء الحظ أنه مع أن هذا الأسلوب فى المعالجة يمدنا بمعلومات وفيرة تصلح للدراسات الاجتماعية الماكرو (الواسعة النطاق)، إلا أنه يقودنا ولاشك إلى إهمال التصورات الذاتية والسمات الديناميية للإثنية فى حياتنا اليومية. فهو يتجاهل كيف أن "الهوية الإثنية ليست سوى سمة مكتسبة وأنها

(*) العزو أو النسبة أو الاكتساب بالميراث Ascription يشير إلى العملية التى تحدث عند توزيع الأدوار والمكانات أو عند تفسير سلوك يفترض أنه طبيعى، والتى يتجلى فيها تفاوت الثقافات فى استخدامها لبعض الخصائص مثل: القرابة، والعمر، والنوع، والانتماء الإثنى...إلخ. فمثل هذه الخصائص المكتسبة بالميراث لا يمكن أن تتغير من خلال المجهود الفردى. هذا على الرغم من أن الحركات الاجتماعية والدول تحاول بين الفينة والأخرى أن تتصدى لصور الاضطهاد الناجمة عن هذه الفروق، وللصور النمطية التى تنشأ عن محاباة الأقارب، والتعصب ضد كبار السن، والانحياز للرجل، والانتماء الإثنى...إلخ. للمزيد انظر، موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، المجلد الأول. (المراجع)

كذلك سمة شائعة لتحديد الهوية الإنسانية، التى يمكن استخدامها من جانب كل طرف فى أى علاقة. وأنها عرضة للاستعراض أمام الآخرين، وللإخفاء، وللتلاعب، وللاستغلال أيضاً" (Lyman and Douglas 1973). فالإثنية من هذا المنظور عبارة عن أحد المعطيات التى توظف فى خلق تصور استراتيجى عن الذات، والحفاظ عليه...

وتتبنى الدراسة الراهنة تعريفًا للجماعة الإثنية يقول: "هى جماعة مرجعية يستحضرها ويتمثلها أولئك الناس الذين يريدون التعريف بأنفسهم أو يستخدمها الآخرون فى تحديد هويتهم باعتبارهم يشتركون فى إرث تاريخى مشترك" (Royce 1982). فالجماعة الإثنية - إذن - هى عبارة عن ثقافة فرعية لها رموزها، وأسلوبها، وأشكالها الخاصة بها. وتتسم عضوية الجماعة الإثنية بأنها عضوية موروثة (تكتسب بالميلاد) على خلاف كثير من الثقافات الفرعية الأخرى.

تطرح تلك الفقرات القليلة - بإيجاز - بعض القضايا الإشكالية فى الدراسات الإثنية. أما فى القسم التمهيدى التالى لبحث آخر، فلم يحاول المؤلف أن يقدم عرضاً عامًا لكافة الاتجاهات النظرية التى يمكن استخدامها فى دراسة الإثنية. وإنما اقتصر على استعراض أعمال بعض الباحثين وأفكارهم التى يمكن أن تكون بمثابة إطار أو خلفية عامة لدراسته. معنى هذا أن ذلك المؤلف يوضح ضمنًا أهمية بحثه لعلماء الاجتماع الآخرين الذين يمثلون جمهور قرائه المتوقع(*).

(*) للأسف أن الإسراف فى استعراض الدراسات السابقة، أو التراث المنشور حول الموضوع، يمثل الآن فصلاً معتبرًا فى الغالبية العظمى من رسائل الماجستير والدكتوراه فى مختلف تخصصات العلوم الاجتماعية. ولسوء الحظ أن مثل هذا العرض بات يعتمد على الملخصات المنشورة ورقيًا أو الكترونيًا، والمتاحة بالآلاف، وبسبب سوء الحظ أن صاحب الرسالة لا يتبنى نوعًا معينًا أو توجهًا بالذات من تلك الدراسات، تتفق مع موضوعه أو تختلف أو تمهد له بصورة من الصور. ولذلك نجد مثل هذه الملاحظات عظيمة القيمة لكل دارس مقدم على إعداد بحث، خاصة طلاب الدراسات العليا. (المراجع)

باختصار يمكن القول أن الباحث الميدانى لا يستعرض "التراث المنشور" حول موضوعه، ولا يكتفى بالإشارة إلى بعض البحوث المختلفة التى أنجزها دارسون آخرون. والأصح أن ينتقى بعناية بعض البحوث الأخرى التى تمثل سياقًا أسع وخلفية مناسبة للنتائج التى سوف يتوصل إليها البحث، وألا يناقش سوى تلك الأفكار التى تضئ تحليله هو وتزيده وضوحاً.

تقديم مجتمع البحث ومناهج الدراسة

قبل أن يبدأ تقرير الدراسة الميدانية فعلاً يقدم المؤلف تعريفًا بمجتمع الدراسة ومناهج الدراسة التى استخدمت. ومن الممكن مناقشة مجتمع البحث ومناهج الدراسة إما فى قسمين منفصلين أو فى قسم واحد يعالج الموضوعين معًا.

ويحرص الباحث فى توصيفه لمجتمع البحث على أن يعرف القارئ بالمكان، والناس، والمواقف التى ستتم دراستها بالتفصيل فيما بعد فى صلب التقرير الميدانى. ومن الضرورى أن يعين هذا الوصف القارئ على تصور الملامح المادية والاجتماعية لمجتمع البحث. كما يجب كذلك أن يتضمن عرضًا عامًا للشخصيات الرئيسية والإجراءات أو العمليات التى تمثل أهمية محورية لمادة الدراسة الإثنوجرافية. فبالنسبة للشخصيات – مثلاً – يمكن استعراض الفروق بين العاملين الأساسيين والعاملين المتطوعين فى أحد مراكز الصحة العقلية المحلية، أو الفروق بين مديرى حملات الدعاية الانتخابية والعاملين فى تلك الحملات التابعة لإحدى لجان النشاط السياسى. أما بالنسبة للعمليات والإجراءات فينبغى أن يوضح كيف يلتحق العملاء بالبرنامج ويمرون بمراحله المختلفة، وما هى المسئوليات الوظيفية لكل فئة من العاملين، وربما طبيعة التنظيم العام لحملات الدعاية التى تمر ببيوت الحى بيتًا بيتًا.

وعند تقديم هذا العرض العام لمجتمع البحث، والعاملين المؤثرين فيه، والنظم المتبعة فى عملهم؛ عندئذ يجب أن يتطرق العرض إلى إلقاء الضوء على الملامح والعناصر المميزة لمجتمع البحث والتى ستكون لها أهمية محورية فى التحليلات الإثنوجرافية التى

سترد فى ثنايا الدراسة. من ذلك مثلاً حرص الكاتب الذى يتناول طبيعة الممارسات التى يتبعها العاملون فى تصنيف أو وصم النزلاء المقيمين فى أحد بيوت إيواء المشردين؛ حرص على التعريف بمجتمع البحث فى فقرة من شعبتين. الأولى: قدم فيها تعريفًا بأنماط النزلاء الذين يبحث عنهم البيت لإيوائهم، فكتب يقول:

> أجريت دراستى الميدانية فى أحد البيوت التى تأوى المشردين فى وسط مدينة لوس أنجلوس. وتبلغ سعة البيت ٥٤ نزيلاً، ولكن عدد الذين كانوا فيه وقت إجرائى الدراسة كان يتراوح حول ٣٥ أو نحو ذلك. والخدمة الأساسية التى تقدمها الدار هى توفير الطعام والمأوى للأشخاص المفلسين تمامًا. وأثناء فترة إقامة "العملاء" - كما يسميهم العاملون فى الدار - تقدم لهم كذلك بعض المساعدات للبحث عن مسكن دائم والاستفادة من خدمات الرعاية الاجتماعية. وتسمى هذه الفئة من الناس الذين تستهدف الدار خدمتهم وتقديم الغذاء والمأوى لهم: "المشردون الجدد"، أى أولئك الناس الذين فقدوا المأوى مؤخرًا فقط وألقى بهم فى الشارع. وذلك فى مقابل من يسميهم العاملون "المشردين المزمنين" أو "الباحثين الدائمين عن المأوى"، الذين مر عليهم وقت طويل نسبيًا فى الشوارع، وقد يتنقلون من دار إيواء لأخرى، دون نية من جانبهم للعثور على مسكن أكثر استقرارًا ودوامًا... والمعيار العام الآخر الذى تلتزم به الدار لقبول العملاء هو أنهم يمكن أن يقبلوا أى عميل فيما عدا الرجال غير المصحوبين بزوجة أو طفل. فهذه الدار من الدور القليلة التى تأوى الأسر المشردة المصحوبة بأطفال، وهو أمر يعدونه مبعث فخر لهم. ومن الناحية الواقعية نجد أن الفئة الغالبة من العملاء (نزلاء الدار) تتمثل فى المرأة المصحوبة بأولادها الصغار.

بعد ذلك يعرفنا المؤلف بموظفى الاستقبال شارحًا ممارساتهم الروتينية فى العمل على النحو التالى:

> العاملون الأكثر اتصالاً بطبيعة العمل فى الدار عددهم ستة مساعدين تنفيذيين. ومن هؤلاء الستة أربع سيدات سود تتراوح أعمارهن بين الثلاثين

والخمسين تقريبًا، وشابة بيضاء أصغر سنًا منهن متخرجة من الجامعة، وشاب أبيض في الحادية والعشرين من العمر يدرس في أحد معاهد اللاهوت (التي تخرج رجال الدين - المترجم). وليس من بين هؤلاء الستة أحد مؤهل في ميدان الخدمة الاجتماعية. ويرجع السبب في ذلك - ربما - إلى التدني الشديد في أجر المساعد التنفيذي. ويمضي المساعدون التنفيذيون معظم ساعات عملهم في الدار جالسين في المكتب الذي يشرف على قاعة الاستقبال في الدور الثاني من الدار. (يشغل الدور الأول من الدار المكاتب المختصة بشئون الدار، على حين توجد جميع حجرات العملاء في الدور الثالث). ويجري نظام العمل على أن يتولى الإشراف مساعد واحد، وقبل أن تنتهي نوبة عملة بساعة تبدأ مهمة المساعد الذي يتسلم العمل بعده.

ثم يستطرد في وصف الأعباء الروتينية للمساعدين التنفيذيين، التي تتمثل في: الرد على الهاتف، واستقبال العملاء الجدد وفرزهم لتقدير إمكانية قبولهم بالدار، والاحتفاظ بسجلات الدار المختلفة...إلخ.

بعد أن يفرغ الباحث الميداني من استعراض الملامح الرئيسية ينتقل مباشرة إلى الكشف عن طريقة دخوله إلى مجتمع البحث، وطبيعة مشاركته في شئون هذا المجتمع[١٧]. هنا يعرض الباحث بإيجاز ماذا فعل في الحقيقة لكي يقترب من الأحداث والقضايا التي ستكون موضع اهتمامه طوال الدراسة، ويتمكن من فهمها وجمع معلومات عنها. ومن المهم في عرضه هذا أن يشرح لنا كيف دخل هذا المجتمع لأول مرة وبأي صفة، وكيف فهم أفراد ذلك المجتمع مهمته بينهم ومبررات اهتمامه ببعض الأمور، وردود أفعالهم تجاهه أو كيف تعاملوا معه.

ومن المفيد عمومًا إيضاح مختلف المراحل التي مر بها البحث، حيث يميز - على سبيل المثال - بين عمليات دخول المجتمع للمرة الأولى، ثم تعوده على بيئة البحث والأشخاص الموجودين فيه، وأخيرًا مرحلة مشاركته المستقرة لأمد طويل. فنجد مثلاً أن

الباحث الميدانى الذى يعمل فى أحد مراكز الصحة العقلية المحلية يستعرض تطور عملية التنشئة التى مر بها خلال فترة عمله فى المركز بدءًا من التسلح بالشجاعة فى بادئ عهده مرورًا بالمشاركة فى بعض المهام الروتينية القليلة تحت إشراف العاملين المختصين، ومرورًا - بعد ذلك - بملاحظته وبالتأكد من كفاءته فى التعامل مع بعض المرضى أصحاب الحالات الشديدة الاضطراب، وصولاً - فى النهاية - إلى تحمل المسئولية عن إدارة الاجتماعات العامة مع العملاء.

ويسعى الباحثون الميدانيون فى عرضهم للمناهج المستخدمة فى الدراسة؛ يسعون إلى وصف طبيعة مشاركتهم فى المهام المختلفة ووعيهم بالتسهيلات والعوائق التى ارتبطت بأدائهم لأدوارهم فى ذلك المجتمع. وفى النص التالى يحلل الباحث الذى درس مركز الصحة العقلية المحلى ملامح الدور الذى كان يؤديه داخل المركز على النحو التالى:

> كان موقعى داخل الدار هو "متدرب مقيم متطوع". وعند وصولى إلى الدار لأول مرة لم أكن على بينة تمامًا من مدلول هذا اللقب ومكانته بين العاملين. ولكن بعد أن تعاملت مع العاملين، وشاركتهم العمل فى دورى هذا، تبينت أن دورى هو فى أدنى مستويات العاملين. واتضح أنه لم تكن لى سلطة الموظف الأساسى الدائم ولا أحظى بامتيازاته. من ذلك مثلاً أنه رغم تشجيعهم لى على المشاركة فى اجتماعات متابعة الحالات. إلا أن الأخصائيين لم يكونوا يأخذوا آرائى فى الاعتبار عند إصدار قرارهم بشأن الحالة المعروضة.

ويتطلب مثل هذا التحليل أن يتأمل الباحث الميدانى مليًا فى بعض أنواع التفاعلات والأحداث التى لم يُسمح له بالاشتراك فيها أو مُنع من ذلك. من ذلك مثلاً وصف إحدى الدارسات المتدربات على البحث الميدانى كيف أن مشاركتها بدور محدد فى لجنة نسائية للعمل السياسى قد شكل وحدّد فرصها فى المشاركة فى التفاعلات

الأساسية المتضمنة فى حملات الدعاية السياسية، أو حتى فى ملاحظتها. وتقول فى ذلك:

لقد لعبت دوراً أكثر من سلبى. فقد كنت عضواً فى حملة الدعاية، وبصفتى تلك كنت أخرج من باقى طاقم الحملة مرة كل أسبوع على الأقل. ولكنى كنت كذلك جزءاً من الإدارة، حيث كانوا يعدّونى لوظيفة مدير ميدانى للحملة خلال الصيف. وقد سمح لى ذلك أن أكون فى وضع مثالى أستطيع منه أن أقف على ما يشعر به أفراد الحملة الدعائية وما يفكرون فيه. كما أنه أتاح لى – فى الوقت نفسه – فرصة الحصول على معلومات لم يكن متاحًا لأفراد الحملة الوصول إليها. غير أن هذا الوضع قد ألحق بى بعض الضرر حيث كان أفراد الحملة يصمونى (من الوصم) أحياناً بأننى من الإدارة، ومن ثم تقل احتمالات أن يثقوا بى ويأتمنونى على أسرارهم. وأصبح هذا الأمر يمثل مشكلة بارزة عندما كان يتعين على أن أنوب عن الإدارة (مثلاً فى عمليات إعادة تدريب أفراد الحملة)، أو عندما يحتدم الموقف ويتخذ شكلاً استقطابياً، ويكون على كل فرد أن يتبنى وجهة نظر الإدارة أو وجهة نظر أفراد الحملة... وثمة مشكلة أخرى تتمثل فى صعوبة نزولى إلى الميدان للقيام بالملاحظة بوصفى باحثًا. ذلك أن الملاحظة يعنى أننى موجود فى الموقع بوصفى جزءاً من الإدارة، وأننى أمثل السلطة، ولست زميلاً لهم.

كما أنه من المفيد – أخيراً – عند استعراض مناهج البحث وتحليل دلالاتها أن يورد الباحث مقتطفات من المذكرة الميدانية لكى توضح النقاط الأساسية وتدعمها. وقد قدمت – مثلاً – الباحثة التى درست مركز الصحة العقلية المحلى المقتطفين التاليين من مذكراتها الميدانية: الأول يوضح طبيعة "عملية الاختبار" التى كانت تتعرض لها من العاملين المتخصصين فى المركز من حين لآخر خلال الأسبوع الأول لعملها فى المركز. والثانى كيف كان دورها فى المركز يختلف عن دور "العاملين العاديين". تقول فيهما:

كنت ألعب تنس الطاولة (البنج بونج) مع أحد العملاء (المرضى) عندما رأيت "كاتى" – وهى موظفة متخصصة فى خدمة الفرد(*) تشير لدافيد إلىّ. سار "دافيد" نحوى، ثم قال: "أهلاً. أنا رئيس المركز، وأنا آمرك أن تذهب إلى خط أنابيب بترول ألاسكا لكى تنقذ العالم وتنقذ أختى المقيمة فى كانساس. عليك أن تفعل ذلك، فهذا واجبك تجاه وطنك. لابد أن تنقذ العالم". وفى زاوية بعيدة رمقت "كاتى" وبعض العاملين فى المركز يقفون يقهقهون. فرددت على "دافيد": حسنًا يا دافيد، أنا آسف، فهذه مسئولية أكبر من قدراتى". فقال "دافيد": "لابد أن تنقذ العالم". وتركنى وسار فى طريقه. اقتربت "كاتى" منى قائلة: "إنه مجنون فعلاً، أليس كذلك؟" وضحكت. ثم استرسلت: "لا تنزعج، إنه تقريبًا أشد النزلاء الذين أقاموا عندنا جنونًا على الإطلاق".

اليوم كان لدينا ترشيحات العملاء (النزلاء) للمناصب الحكومية (للأفراد من بين أسرة المركز – المترجم). فالنزلاء يرشحون زملاءهم النزلاء الآخرين لمختلف المناصب: الرئيس، ونائب الرئيس. وقد رشحنى "نورمان" (وهو نزيل) لمنصب نائب الرئيس. هنا تدخلت "آرلين" (وهى تتولى علاج المرض العقلى بالفنون) وقالت لنورمان: "لا يجوز ترشيح "كارينا". فهى إحدى العاملين المتخصصين فى المركز، ولذلك لا يمكن ترشيحها".

وإلى جانب أن الحديث عن مجتمع البحث وصعوبات إجراء العمل الميدانى يسهم فى إلقاء الضوء على العناصر والعمليات التى ستلعب دورًا مهمًا فى التحليلات الإثنوجرافية

(*) خدمة الفرد هى التوجهات ونسق القيم ونمط الممارسة الذى يستخدمه مهنيو الخدمة الاجتماعية، حيث تترجم المفاهيم النفسية الاجتماعية والسلوكية والأنساق إلى مهارات مهمة لمساعدة الأفراد والأسر على حل المشاكل النفسية الداخلية أو الشخصية، أو الاجتماعية الاقتصادية والبيئية من خلال علاقة الوجه للوجه. ويعتبر العديد من الأخصائيين الاجتماعيين "خدمة الفرد" هى مرادف "للخدمة الاجتماعية العلاجية Clinical Social Work". (المراجع)

الواردة في ثنايا الدراسة؛ إلى جانب ذلك فإنها تضفي نوعًا من المصداقية على الوثيقة النهائية. فمثل هذه الإشارات والتوصيفات تسمح للقارئ أن يقدر ما إذا كان الباحث الميداني قد نجح - أو فشل - في إجراء عمليات الملاحظة والرصد - اللازمة للتحليلات التالية - بالتنوع والجودة المنشودتين. ولذلك عندما يستند القارئ إلى تلك المعلومات الإطارية، فإنه يصبح أكثر ميلاً إلى أن يفترض في الباحث المصداقية وسعة الاطلاع. والحقيقة أن الباحثين الميدانيين ينتقون المقتطفات من مذكراتهم التي توضح شدة انغماسهم في المجتمع، وذلك لكي يقنعوا القارئ - بشكل ضمني غير مباشر - وكأنهم يقولون له: "نعم، لقد عشت في ذلك المجتمع وعايشت كل ذلك بنفسي".

كتابة خاتمة الدراسة

ينتهي نص الدراسة الإثنوجرافية المكتمل - عادة - بقسم يتأمل فيه المؤلف القضية التي طرحها في مقدمة مقالته ويبلورها. ولذلك نلاحظ أنه على الرغم من أن الخاتمة هي بطبيعة الحال آخر الأقسام التي تكتب، إلا أنها تكون مرتبطة على نحو معقد بالمقدمة[١٨]. والعادة أن تستعرض الخاتمة دلالات القضايا النظرية و/ أو الموضوعية التي أثيرت في مقدمة التقرير. ويراعى في المقالة الإثنوجرافية أن تعمل صياغة القضية الواردة في المقدمة على تركيز انتباه القارئ على الفكرة المحورية في البحث، ولكن تلك الفكرة لا تكون محددة بنفس الوضوح والدقة الذي تحدد به الخاتمة قضية البحث. فعلى حين تسعى المقدمة إلى إعداد القارئ لفهم التحليلات والمقتطفات التالية في الورقة العلمية، إلا أن الخاتمة هي التي تربط الأفكار ببعضها البعض على نحو أكثر دقة وإحكامًا. وذلك لأن القارئ بعد أن يفرغ من قراءة المقال يكون قد اطلع على القصة الميدانية بأكملها واستوعب التفاصيل الواردة في مقتطفات المذكرات الميدانية. بعبارة أخرى إن تقرير الدراسة الإثنوجرافية يروي قصة لا يمكن فهمها حق الفهم إلا بقراءة العرض المضطرد للأفكار التحليلية ومقتطفات المذكرات الميدانية. فكل قسم - بما يحويه من فكرة رئيسية، ووحدات تحريرية، ومناقشة للاقتباسات - يدفع القارئ قدمًا لكي يبلغ الخاتمة بما تحويه من قضية باتت محددة تحديداً دقيقًا.

وقبل أن يبدأ الباحث كتابة الخاتمة عليه أن يراجع – فى تلك المرحلة – القصة بعد اكتمالها، مبديًا اهتمامًا خاصًا بالإطار العام للقصة الذى بسطه فى المقدمة. ويكون من المفيد فى أغلب الحالات كتابة ملخص بالنتائج والموضوعات الرئيسية للورقة. والمفروض عمومًا أن يعيد مثل هذا الملخص بيان قضية الدراسة، ويتبع ذلك جمل مركزة توضح تسلسل أقسام الورقة العلمية باضطراد أو دورها فى خدمة هذه القضية العلمية.

وفى بعض الأحيان قد يختار الباحث أن يستخدم الملخص كنقطة انطلاق لكتابة الملخص. وفى أحيان أخرى قد يشرع الباحث مباشرة فى الانتقال إلى مسائل أخرى دون عمل ملخص. ولكن حتى لو لم يكن الباحث يخطط لجعل الملخص جزءًا من الخاتمة، فإن كتابة الملخص يمكن أن تفيد الباحث بالتأكيد. ذلك أنها تلزم المؤلف بأن يتجاوز المشكلات الدقيقة لكتابة الأفكار والفقرات المحددة إلى مراجعة بناء الورقة فى عمومه وتدفق العرض وانسيابه. وستكون ثمرة ذلك رؤية جشطالتية (كلية) للوعود التى قطعها الباحث الميدانى على نفسه فى المقدمة، مقارنة بما انتهى إليه العرض فعلاً: ومن شأن مثل هذه النظرة أن تجعل الكاتب يتأمل بعض دلالاته العامة.

وسواء قام المؤلف بعمل ملخص أم لم يعمل، فإن الخاتمة تكون مكرسة أساسًا لقضية البحث الأساسية. وبوسع الباحث الميدانى أن يحقق ذلك بثلاث طرق على الأقل:

١- أن يعمد إلى توسيع أو تعديل هذه القضية الأساسية فى ضوء المعلومات والبيانات التى قدمها.

٢- أو يربط تلك القضية بإحدى النظريات العامة أو إحدى المسائل التى تكون مطروحة آنذاك فى التراث العلمى المنشور حول الموضوع.

٣- و/ أو يقدم تعليقًا عامًا عن قضية البحث أو مناهج الدراسة أو الفروض المرتبطة بها.

وقد يلجأ المؤلف إلى استخدام طريقة واحدة فقط من تلك الطرق، كما أنه قد يقوم بتضفير اثنين من هذه الاختيارات أو الجمع بينها جميعًا في إطار خاتمة واحدة طويلة ومحكمة.

أولاً: وكمثال للاختيار الأول (طريقة رقم ١) نتأمل بضعة فقرات من خاتمة الدراسة الإثنوجرافية التي أجريت على الأسر التي ترعى أحد أفرادها المصاب بمرض ألزهايمر، وكيف يعملون على تجنب الوصمة المرتبطة بوجود هذا المريض في الأسرة. وكانت مقدمة تلك الدراسة قد ألقت الضوء على المفهوم الذي بلوره جوفمان (Goffman 1971) والمعروف باسم: "مبدأ معلومات الأسرة(*)، أي تفضيل أفراد الأسرة حجب المعلومات عن وجود وصمة (أي معلومات تقلل من شأنها أو كرامتها) عن كل من هم خارج الأسرة لكي لا يعلموا شيئًا عن المشكلة. فقد عاد المؤلف في الخاتمة إلى هذه المسألة موضحًا أنه عندما تتفاقم حالة المرض، يحدث تغير جذري في قدرة تلك الأسرة على احترام قاعدة المعلومات هذه. ويقول في ذلك:

> يحرص الشخص القائم على رعاية مريض الألزهايمر بالاتفاق مع أفراد الأسرة على الالتزام بقاعدة معلومات الأسرة أطول مدة ممكنة وبقدر ما يسعه الاحتمال. وهم في هذه المرحلة يقصرون عمليات الإفصاح المبدئية على الأصدقاء المقربين والفريق الطبي المسئول. غير أنه يأتي وقت يدرك فيه راعي هذا المريض أن مريضه لم يعد يدرك ما هو الأمر المشين أو المعيب، هذا فضلاً عن مدى رغبته أو استطاعته الاستمرار في اتفاقه مع الأسرة على تغطية تكتمهم هذا، أو تقليل ما قد يلحق بهم من حرج. وهكذا يتحول تحكم الأسرة في معلومة المرض إلى ترك المجال للقائم على رعاية المريض كي يتعامل مع الموضوع ويتفاعل مع الناس مباشرة.

(*) Family Information Rule، ويعني تحديدًا المبدأ الذي يحكم الإفصاح للغير عن المعلومات التي تخص الأسرة. (المراجع)

ويعتمد راعى المريض – بشكل متزايد – على مجموعة من أساليب التعامل مع المريض والتحكم فى تصرفاته، سواء فى إطار الأسرة أو فى خارجها. وأخيراً عندما يصبح مريض الألزهايمر غير قادر على الحفاظ على السر الذى تتكتمه الأسرة، يبدأ المرض الذى يرعاه فى التعاون مع أفراد من خارج الأسرة، فيفشى بذلك المعلومات التى فيها وصم للأسرة.

هنا يذهب المؤلف إلى أن الممرض فى هذه الأسرة يحرص فى بادئ الأمر على احترام مبدأ الحفاظ على المعلومات الخاصة بالأسرة، وأنه لكى ينجح فى ذلك لابد أن يلقى تعاوناً من مريض الألزهايمر نفسه. ولكن عندما يصبح هذا التعاون واهيًا لا يعتمد عليه، يكثر الممرض من كسر قاعدة السرية بإطلاع الأغراب على المعلومات التى تنطوى على وصم للأسرة، وذلك لكى يفيد من مساعداتهم له فى التعامل مع المريض.

وبهذه الطريقة يوضح المؤلف فى الخاتمة بجلاء كيف أن النتائج التى توصل إليها هو قد عدلت من مفهوم جوفمان عن قاعدة الحفاظ على معلومات الأسرة. وقد فعل ذلك من خلال إلقاء الضوء على بعض الشروط والأوضاع – التى لم يسبق لأحد أن انتبه إليها – التى تتحكم فى التعامل مع قاعدة الحفاظ على معلومات الأسرة، وحدد بعض الظروف التى يمكن أن تؤدى إلى خرق أفراد الأسرة لتلك القاعدة.

ومن الطرق الأخرى التى قد يلجأ إليها المؤلف لدعم قضية بحثه أن يطور بعض الارتباطات النظرية بين مختلف عناصر القضية المطروحة. من ذلك مثلاً ما ورد فى مقدمة دراسة نزلاء دار لرعاية الأفراد الذين تم شفاؤهم من المرض العقلى. فقد أوضحت قضية الدراسة التى طرحتها فى المقدمة وجود اتجاهين متضاربين داخل الدار: يتمثل الاتجاه الأول فى اعتماد النزلاء على موظفى الدار، ويظهر الاتجاه الثانى فى مقدرة أولئك النزلاء على التأثير إيجابيًا على آراء هيئة العاملين فى الدار فيهم. وفى الخاتمة عمد المؤلف إلى استخدام تحليلاته المتميزة لتلك العلاقات لكى يؤلف بين هذين الاتجاهين المتعارضين على نحو يحول تلك العلاقة إلى ما يشبه الحلقة المفرغة. فالنزلاء يشعرون أنهم خاضعين لسلطة العاملين فى الدار، وأنهم قد يستجيبون لهذا الشعور

بمحاولة كسب ثقة أولئك العاملين ورضاهم. ولكى ينجحوا فى مسعاهم هذا، تراهم يحرصون على المشاركة فى جلسات العلاج وغيرها من الأنشطة التى يرعاها العاملون فى الدار. وهكذا يفلحون فى كسب ثقة العاملين وحمايتهم لهم، ولكنهم يصبحون حينئذ معتمدين بدرجة أكبر على العاملين الذين يقومون برعايتهم والإشراف عليهم.

وهكذا يربط هذا التحليل نوعين من الاتجاهين اللذان بدا لنا فى بادئ الأمر منفصلين، بل متضاربين فعلاً. كما يبرز نتيجة - تبدو ساخرة - مؤداها أن تصرفات النزلاء التى كانوا يستهدفون من ورائها تقليل خضوعهم لهيئة العاملين واعتمادهم عليها؛ هذه التصرفات قد أفضت بهم فى النهاية إلى زيادة هذا الاعتماد قوة ورسوخًا.

ففى هذه الطريقة يحكى المؤلف قصة إثنوجرافية تنطلق من قضية مبدئية توضح لنا الاتجاهات المتضاربة فى العلاقة بين النزلاء والعاملين، وتتطور القضية قدمًا إلى الأمام من خلال المناقشة المتعمقة للنقاط التحليلية مع تدعيمها بالاقتباسات المناسبة، إلى أن تخلص فى النهاية إلى خاتمة تربط الخيوط المتشابكة ببعضها.

ثانيًا: أن تحاول الخاتمة ربط قضية الدراسة الإثنوجرافية بالقضايا المثارة فى التراث العلمى المنشور فى ذلك التخصص. ففى دراسة رعاية الأسرة لمريض الألزهايمر قام المؤلف - بعد الفقرات التى أوردناها آنفًا - بربط التناقض بين التواطوء (أو التعاون) مع مريض الألزهايمر، والتواطوء مع الغرباء عن الأسرة؛ ربطه بقضية أشمل فى ميدان علم اجتماع الانحراف. ومؤداها: متى يتقبل أفراد الأسرة، ويتسامحون، ويتابعون البحث عن فرد آخر من الأسرة يكون موصومًا بوصمة سلوكية معينة، ومتى يقفون ضد عضو الأسرة هذا، ويستبعدوه من حياتهم، بل يرفضوه ضمنًا؟ وقد طرحت هذه القضية مؤخرًا فى مقال منشور فى أحد المجلات العلمية عنوانه: "نحو دراسة سوسيولوجية للقبول: الجانب الآخر لدراسة الانحراف" (Bogdan and Taylor 1987). وقد أشار المؤلف إلى هذا المقال فى ثنايا عرضه لوجهة نظره، حيث يقول:

إن الاعتراف بهاتين المرحلتين فى تعامل المرض مع وصمة المرض: مرحلة التعاون (أو التواطوء) مع المريض، ومرحلة التماس العون والمساعدة

من الأغراب؛ هذا الاعتراف من شأنه أن يبرر وجود نوع من التكامل بين الدراسة السوسيولوجية للقبول والدراسة السوسيولوجية للرفض.
(Bogdan and Taylor 1987)

وهكذا يشير المؤلف إلى إمكانية توحيد النظريات السوسيولوجية عن أسباب وكيفية تسامح الناس مع المنحرفين مع نظريات أسباب وكيفية رفض الناس للمنحرفين واستبعادهم لهم من حياتهم. فمثل هذه التصرفات قد لا تتعارض أو تتضارب، وإنما قد تمثل بدائل مختلفة للفعل. فهناك بعض أشكال الاستبعاد التى تنبع تحديداً من التزام عميق وقاطع برعاية الآخر، إلى أن تأتى ظروف يصبح من المتعذر فى ظلها "الاعتماد" على عضو الأسرة المصاب (بالألزهايمر) بالتعاون مع الممرض فى التعامل مع الموقف على نحو يكون فيه قبول للمريض. ويذهب المؤلف إلى أن هذا الائتلاف - أو التوحد - بين القبول والرفض يتجلى لنا بوضوح فى المشاعر البالغة التضارب فى نفس الممرض، والتى تدفعه إلى إتيان أفعال تنم عن رفض صريح لشخص ذلك المريض بالألزهايمر:

> يشعر كثير من الممرضين أو القائمين على رعاية المريض بالانزعاج بسبب اضطرارهم إلى التحكم فى سلوك وتصرفات عضو الأسرة المريض بالألزهايمر. فتجدهم ملتزمين بمراقبة الشخص على الدوام، ويضطرون فى الوقت نفسه إلى استخدام القهر البدنى مع المريض، فتسمعهم يعلقون على موقفهم ذلك بالقول: "أنا أكره هذا التذمر الذى أنا فيه". أو تعليق رجل يرعى زوجته المريضة بالألزهايمر يقول فيه: "ليس لى أى حق أن أفعل لها ذلك".

وهكذا يتسع مفهوم القبول بحيث يشمل كذلك بعض التصرفات الرافضة التى يمارسها الناس على مضض، وقد تقترن ممارستهم لها بأسف عميق.

ثالثاً: الاختيار الثالث الممكن عند كتابة الخاتمة أن يتوقف الكاتب ويتأنى، ثم يتأمل تقرير الدراسة الذى كتبه لكى يكتب تعليقاً عاماً حول مناهجها، أو فروضها، أو نبرتها، أو نتائجها. ففى الدراسة التى تناولت حياة نزلاء إحدى دور الناقهين من المرض العقلى،

لم يكتف القارئ بأن يتناول موضوع العلاقة بين النزلاء والعاملين، ولكنه تطرق كذلك إلى موضوع كيف اتجه النزلاء إلى تطوير صلات اجتماعية داعمة مهمة ببعضهم البعض، والعمل على تطويرها. واهتم أحد أقسام الدراسة بالطرق التى يتبعها النزلاء بانتظام فى تبادل بعض الأشياء فيما بينهم: كالسجائر، والطعام، والمبالغ المالية القليلة. وأوضح المؤلف أن عمليات التبادل هذه وكذلك العلاقات المستمرة بين النزلاء قد ساعدتهم على مواجهة الحرمان المزمن الذى يعانون منه.

غير أن مؤلفة الدراسة تأملت فى جزء من خاتمة دراستها كيف أن هذا الاهتمام "باستراتيجيات" التبادل بين النزلاء يمكن أن تمثل منظور المباراة "المفرطة فى الرشد" إلى هذه المبادلات. وذهبت إلى أنه يتعين استكمال هذا المنظور بوزن الطابع العاطفى وطابع الرعاية المميز لعمليات التبادل هذه، وبدور هذه العمليات التبادلية فى زرع الإحساس بالمشاركة وبالرابطة الاجتماعية فى نفوس عدد من نزلاء الدار. ويلاحظ أن التحليل الذى قُدم من قبل للاستراتيجيات والتكتيكات ربما يكون قد حجب هذه العمليات أو حتى شوهها.

ولكن المؤلف حرص عند استخدام أى من هذه الأساليب فى كتابة الخاتمة على أن يتطرق مرة أخرى إلى مشكلة التحديد الدقيق والكتابة الواضحة المنضبطة عن أهمية بعض ما حصله من خبرات، وملاحظات، وتأملات لأسلوب حياة هؤلاء الآخرين (المبحوثين) بالنسبة لجمهور القراء الغريب عنهم. ولكن مع الاهتمام بالعمل بأسلوب يضع المذكرات الميدانية دائماً فى مكان القلب من عملية التحليل، يستطيع الباحث الميدانى أن يتوصل – فى العادة – إلى بلورة بعض المفاهيم وعلاقات الارتباط التى قد لا تتلاءم تماماً مع التفسيرات والنظريات السائدة فى مجال التخصص الذى ينتمى إليه البحث. ولاشك أن العرض الدقيق المحدد لقضية البحث فى الخاتمة من شأنه أن يرجح رؤى أفراد مجتمع البحث، وأن يوضح جوانب الطرافة (وأبعاد الأهمية النظرية) فى هذه الحياة المحلية بطريقة تقنع القراء الأكاديميين. وهكذا فإن القضية الواضحة المعروضة فى الخاتمة لا تصور فقط ما شاهده الباحث الميدانى وسمعه من خبرات أفراد مجتمع البحث، وإنما سوف تلقى المزيد من الضوء على المسائل والقضايا المعروفة للمتخصصين أو تقترح منظوراً أصيلاً تماماً.

أفكار للتأمل: بين المبحوثين والقراء

عندما يقوم الباحثون الميدانيون بإعداد تقرير الدراسة الإثنوجرافية لجمهور عريض من القراء، فإنهم يجدون أنفسهم دومًا نهبًا للصراع بين الحرص على تصوير هذا العالم المحلى المحدود (مجتمع البحث) وما يزخر به من معان وبين جعل خبراتهم التى عايشوها وسط هذا العالم قادرة على مخاطبة القراء الأكاديميين باهتماماتهم المختلفة أشد الاختلاف. ولذلك يتجه الباحث واعيًا عند إعداده للنص النهائى للدراسة إلى الجمهور الأكاديمى واهتماماته، ولكنه فى مراجعته المنتظمة لمذكراته الميدانية واستعادته للذكريات المرتبطة بها التى تحييها فى عقله تلك المذكرات يُذكر نفسه دومًا بمجتمع البحث وأهله.

وعلى حين نجد أن علاقات الأخذ والعطاء فى الميدان هى التى تشكل دائمًا فهم الباحث، فإننا نجد أن الدراسة الإثنوجرافية المكتملة تمثل رواية الباحث ورؤيته لتلك الوقائع والأحداث. وتسمح أغلب الأعراف الإثنوجرافية للمؤلف أن يصور الآخرين (وكذلك خبراته معهم) - كما رآهم - على أفضل وجه ممكن. وبهذا المعنى يحظى الباحث الميدانى صراحة بوضع متميز يكون فيه صاحب القرار. وحتى حينما يطلب الباحثون من أفراد المجتمع قراءة مقاطع معينة (من تقريره) أو التعليق على بعض التحليلات التى كتبها، فإن المؤلف يظل صاحب الرأى الأخير والقول الفصل فيما يتعلق بالنص نفسه وفى مدى تقييم أفراد المجتمع له (see Bloor 1988; Emerson and Pollner 1988; Rochford 1992). ورغم كل الجهود التى يبذلها المؤلف فى المشاركة المكثفة، ومحاولاته الوقوف على "معانى" أفراد المجتمع، والحرص على نقد الذات عند استعراض حياة الآخرين؛ رغم كل ذلك تتحول الوثيقة النهائية إلى سرد أقرب إلى الشكل الخطى (المضطرد)، حيث المؤلف هو وحده الذى يفسره ويتحكم فيه[١٩].

وبمرور الوقت - بدءًا من العمل الميدانى وصولاً إلى كتابة تقرير البحث وبعده - يكوِّن الباحث الإثنوجرافى رؤية معقدة لما يعايشه من خبرات ميدانية. ومع ذلك فإن النص الإثنوجرافى يقدم منظورًا واحدًا مهيمنًا، هو منظور الباحث وقت كتابة هذا النص.

وعندما يختلف تفسير القارئ عن تفسير الباحث - عندئذ فقط - تتضح وتنفتح عدة سبل لتفسير مجموعة من الملاحظات. ولكن أخذ كل تلك الاحتمالات فى الاعتبار أثناء الكتابة يمكن أن يشل الكاتب، ويجهض إمكانية وصوله إلى أى قصة ناجحة. لهذا تظل الدراسة الإثنوجرافية رؤية باحث واحد للخبرات الميدانية التى عايشها. ومن هنا يصبح المؤلف صاحب الصوت المهيمن على الكتابة، على أساس أنه هو الذى يتحكم فى النص.

ومع ذلك يستطيع الباحث الميدانى أحيانًا أن يلقى ومضات ضوء غير مقصودة على الحياة اليومية للآخرين. بل إن القراء قد يستطيعون فهم أشياء لم يقصد الباحث أن يكشف عنها صراحة. إذ الواقع أن مشاركة القارئ فى صنع النص يمكن أن تكون سلاحًا ذا حدين فى ذلك النوع من التقارير الإثنوجرافية المبنية على مقتطفات من المذكرات الميدانية. فمن ناحية يشارك القراء بشكل مباشر فى المشاهد الاجتماعية المعروضة، ولذلك يستطيعون أن يحكموا بسهولة على التحليل الذى تقدمه الدراسة، على الأقل فى القالب الذى يعرضه المؤلف، ومن ثم يمكنهم استخلاص رؤى مختلفة من المذكرات الميدانية التى يقرأون مقتطفات منها.

فالقراء يستطيعون أن يكونوا فى نهاية الأمر إحساسهم الخاص من واقع تلك المقتطفات، مع أن الباحث صاحب المذكرات الميدانية هو الذى أبدعها، وانتقاها، ونسقها داخل النص. ويحاول الباحث الإثنوجرافى - من خلال اختيار المذكرات الميدانية بسبب تأثيرها البلاغى أو على أساس وظائفها الدلالية والنظرية - يحاول من خلال ذلك أن يتصور مسبقًا مدى التفسيرات التى قد يتوصل إليها القارئ. ومع ذلك تظل المذكرات الميدانية الأصلية قابعة داخل التحليل، تتيح لأى قارئ أن يستمع بوضوح إلى أصوات أفراد المجتمع، وأن يعايش - بالنيابة عنهم - تصرفاتهم ويتخيل معهم تفسيراتهم لها. إنه يتأكد لنا فى النهاية أن القارئ - كما يبدو - له رأى حاسم فى الأمر.

الفصل الثامن

الخاتمة

قمنا فى الفصول السابقة فى البداية بدراسة العمليات التى يتبعها الباحثون الميدانيون لتحويل الخبرات والملاحظات المباشرة إلى مذكرات ميدانية. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى استعراض طرق استخدام تلك المذكرات الميدانية فى تكوين قصة إثنوجرافية والتعريف بها، موضحين مجموعة من الإجراءات التى يمكن أن تسهل كتابة نص إثنوجرافى يعتمد على المذكرات الميدانية. ونسعى فى هذا الفصل الختامى إلى تقديم المزيد من الأفكار عن تعلم كتابة واستخدام المذكرات الميدانية، ثم استعراض بعض الدلالات العامة لعمليات الكتابة هذه بالنسبة للبحث الميدانى.

وقد رأينا أنه عند قيام الباحث الميدانى بكتابة المذكرات الميدانية يكون أمام عدد من اختيارات الكتابة المحددة. وباستخدام تلك الخيارات يحول الخبرات والملاحظات إلى نص علمى وبيانات علمية. ومن الواضح أن أغلب هذه الاختيارات ينطوى على قرارات بشأن:

- ما الذى يكتب عنه: مثل أن يأخذ ملاحظات ويصف الجهود العملية للأسرة التى ترعى مريضها بالألزهايمر، أو يصف أنماط التوزيع العرقى والإثنى فى ملعب إحدى المدارس الثانوية، أو مشاركة الجمهور فى حكى القصص فى إحدى القرى فى زائير.
- ولكن تلك الاختيارات تنطوى كذلك على قرارات صعبة ومعقدة عن كيف يكتب عما لاحظه وعايشه.

ونكرر ما قلناه من قبل من أن كتابة المذكرات الميدانية ليست مجرد وضع التفاصيل التى تمت ملاحظتها على الورق. بل يتعين على الباحث الميدانى أن يستخدم مجموعة من أعراف الكتابة لكى ينجح فى رسم الشخصيات والمشاهد على الورق، ولكى يستطيع أن يقدم وصفًا دراميًا للتصرفات والأحاديث، وأن يتمكن من توصيل معانى الأحداث من منظور المشاركين فيها.

وطبيعى أن الباحثين لا يقومون دائمًا باختيار أسلوبهم بشكل واع، لأن المهمة العاجلة أمامه هى تدوين الملاحظات والتقارير على الورق. ومن هنا فإن الكتاب المتمرسين يستخدمون بعض المهارات ويقررون بعض الاختيارات دون تفكير واع. ومع ذلك فإننا نؤمن أن ازدياد الوعى عند الاختيار من شأنه أن يجوِّد نوعية البحث الميدانى فى شتى عناصره. فنلاحظ - أولاً - أن الوعى اليقظ بعملية الكتابة لابد وأن يساعد الباحث على إنتاج مذكرات ميدانية، أكثر ثراء وتنوعًا وفائدة. فالوعى والمهارة فى استخدام الأعراف المفيدة والفعالة فى الكتابة سوف يمكن الباحث من أن يلم بالتفاصيل المهمة، وأن يقدم صوراً مفعمة بالحياة والحيوية، وأن ينقل بكل دقة الأحاديث والوقائع التى عايشها.

ويتمتع الباحث الميدانى بمرونة أكبر فى اختيار أساليب وإجراءات الكتابة. وسوف يعرف ويستفيد من مختلف مؤثرات الكتابة بصيغة الغائب بالمقارنة باستخدام صيغة المتكلم، ويعرف ويستفيد من وصف المشهد أو الحدث من وجهة نظر واحدة أو من وجهات نظر متباينة، ومن كتابة أحاديث الآخرين ككلام مباشر أو غير مباشر.

يضاف إلى ذلك كله أن الوعى المتزايد عند القيام باختيارات الكتابة يجعل الباحث الميدانى أكثر انتباهًا إلى تفاصيل ما يجرى أمامه وهو فى الميدان. فتخيل المشاهد مكتوبة يمكن أن يجعل الباحث ملاحظًا أفضل. ومن شأن معرفته بالاختيارات المختلفة للكتابة أن تمكنه من اختيار أفضلها ملاءمة لتدوين عناصر التصرفات والأحاديث. كما نلاحظ فضلاً عن ذلك أن الباحث الذى يختار الكتابة عن وجهات النظر المختلفة إلى ما يجرى يقل كثيراً احتمال أن يخلط - عند الكتابة - بين منظوره الخاص ووجهات نظر الآخرين. ولذلك سوف يتمكن من أن يتعرف على أصوات أفراد مجتمع البحث ويوصلها فى أكمل صورة.

كما تبينا أن الحساسية فى اختيارات الكتابة لإعداد نص إثنوجرافى نهائى مبنى على المذكرات الميدانية، سوف يتيح للباحث الميدانى أن يكتب قصصًا إثنوجرافية أكثر إقناعًا وأغنى تفصيلاً. إذ يصبح الكاتب - مثلاً - قادرًا على الاستجابة بشكل أوضح للأصوات التى سمعها فى الميدان وكذلك للأصوات التى يمكن أن تصدر عن الجمهور الأكاديمى المتوقع. ومن هنا يدرك الباحث أن عليه أن يترجم ويفسر أصوات أفراد المجتمع إلى اللغة التحليلية لجمهور القراء المستهدف، بحيث يطرح القضايا والنظريات والاهتمامات التى تشغلهم.

وهكذا عندما يعد الباحث نصًا إثنوجرافيًا نهائيًا مبنيًا على المذكرات الميدانية، فإنه يحرص على أن يضمنه مقتطفات من تلك المذكرات توصل أصوات أفراد المجتمع وتعبر عنها، ولكن وهو واع ومنتبه إلى ضبط وجودها والتنسيق بينها. ويقتضى ذلك أن يعيد تأطير وترتيب كلمات المبحوثين وتصرفاتهم فى سياق القصة الإثنوجرافية التى يحكيها. ولأن الباحث أصبح حساسًا لاهتمامات أفراد المجتمع ومعانيهم، فيمكنه أن يواجه بشكل مباشر ودون مواربة مهمة إعادة تقديم أو إعادة رسم تلك المعانى. من ذلك مثلاً: جعلها "طريقة" أو "مهمة" من زاوية اهتمامات جمهور القراء المتوقع. ونتيجة لهذا يستطيع القارئ - وهو يطالع دراسة ميدانية جيدة - أن يسمع هاتين المجموعتين من الأصوات تتحدث جميعًا فى تناغم، أو لا تخلق لدى القارئ إحساسًا بالتنافر. ويتعين أن تمدنا الدراسة الميدانية بالأداة التى يمكن أن تتكلم من خلالها أصوات الميدان بطريقتها الخاصة المميزة لها. كما يتعين على هذه الدراسة فى نفس الوقت أن تتكلم بلغة القراء، تطرح قضاياهم، ونظرياتهم واهتماماتهم[(١)].

وأيًا كانت الطريقة التى نتبعها فإن ازدياد الوعى عند تحديد اختيارات الكتابة يحقق للمؤلف تقديرًا أعمق لمدى قوة الكتابة ودلالاتها. فلا يسع الباحث الميدانى إلا أن يدرك أنه لا يقوم بمجرد تسجيل الأحداث التى عايشها، ولكنه يشارك بإيجابية - من خلال كتابته - فى خلق وقائع ومعان. فهو عند كتابته للمذكرات الميدانية لا يقوم بمجرد

الحفاظ على تلك المناسبات فى صورة مكتوبة وحسب، وإنما هو يصيغ المناسبات التى قام بملاحظتها ورصدها فى صورة: مشاهد، وشخصيات، وحوارات، وتصرفات رآها أو سمع عنها. وعليه فإنه عند قيامه بمعالجة المذكرات الميدانية وتحويلها إلى قصة إثنوجرافية نهائية، فإنه لا يعيد رواية حكاية أو حدث وقع، وإنما هو – على الأصح – يعيد تشكيل أو صياغة "ما حدث فعلاً"، بحيث يوضح من خلاله نمطًا معينًا أو يدلل على وجهة نظر معينة. ولا مناص من أن يقوم من خلال ترجمة مذكراته الميدانية لقرائه – الأغراب عن هذا العالم الذى درسه – يقوم بخلق تصور معين للوقائع.

وهكذا يزداد وعى الباحث الميدانى كمؤلف – من خلال كتابة المذكرات الميدانية وتحليلها – بدوره وبمسئوليته عن رواية حكاية الناس الذين درسهم، لأنه فى الكتابة يعيد تصوير عالم حياتهم اليومية[٢]. وهو فى أدائه لهذه المهمة يجب أن يتذكر باستمرار كيف أن عملية الكتابة هى تشييد للمعنى وللمعرفة.

وبهذا المعنى فإن الوعى عند تحديد اختيارات الكتابة يولد تقديراً واهتماماً كبيرين بالانعكاسية (التوجه النقدى) فى البحث الميدانى. وتتضمن الانعكاسية إدراك أن وصف الواقع ليس مجرد مرآة لهذا الواقع، وإنما هو يصور ما يصفه على أنه واقعى أساسًا. معنى ذلك "أن مفهوم الانعكاسية يقر أن النصوص لا تمثل رواية بسيطة وواضحة لتنظيم للواقع مستقل عن أى شئ. بل إن النصوص نفسها داخلة تمامًا فى عملية "خلق الواقع" "Reality - Construction" (Atkinson 1990: 7).

وتحرص الأعداد المتزايدة من التحليلات النقدية للدراسات الميدانية التى تركز على موضوع الانعكاسية (نذكر منها على سبيل المثال: Clifford and Marcus 1986; Atkinson 1990; Van Maanen 1988)؛ تحرص على تناول البناء البلاغى أو الفروض المسبقة السياسية والثقافية غير المعلنة للدراسات الإثنوجرافية المكتملة، لكى توضح كيف يصور الباحث الميدانى ثقافة أخرى، ويطور خطًا تحليليًا متميزًا، أو يصوغ وجهة نظر مقنعة أو حكاية جذابة فى التقرير العلمى المنشور.

وإن كانت تلك التحليلات تكشف عن بعض نواحي القصور المهمة فيها، لأنها تعمد ضمنًا إلى وصف الدراسات الإثنوجرافية المكتملة بأنها أعمال أصلية لم تخضع لأى قيود، وأنها ثمرة من ثمرات نضال الباحث ليكون أمينًا على الخبرات التى عايشها فى الميدان. مع أن الحقيقة أن هذه الدراسات النهائية المنقحة هى فى جانب منها منتخبة من بين ذكريات وتأملات الباحث عن خبراته الميدانية. كما أنها تعتمد اعتماداً أساسيًا على التسجيل الذى تم فعلاً فى المذكرات الميدانية لذلك الواقع الذى عايشه.

فالدراسات الإثنوجرافية النهائية نادراً ما تكون صروحًا ضخمة جديدة تمامًا مشيدة كلية من الكتابات الأصلية (المذكرات الميدانية)، ولكنها أقرب إلى المشروعات الرخيصة القليلة المتانة المبنية من واقع المذكرات الميدانية المكتوبة فعلاً والخاضعة لكل قيود وضوابط تلك المذكرات. فالعمليات الفكرية التى من خلالها يتم اختيار مقاطع من المذكرات الميدانية، (أو تجاهلها)، وربطها ببعضها البعض، وصياغتها بحيث تتحدث بصوت متسق مع بعضه، ويتم التأليف المتكامل بينها بحيث تنشئ أسلوبًا بلاغيًا معترفًا به اعترافًا واضحًا: هذه العمليات جميعًا إما سقطت من الاهتمام الأكاديمى أو حظيت بالقليل منه فقط. وهكذا تغفل معظم التحليلات الانعكاسية - أو تهمش - دور المذكرات الميدانية فى إعداد التقارير الإثنوجرافية المكتملة، ومن ثم تتجاهل ذلك الدور فى العمل الجارى فى إنشاء التقرير الميدانى المنقح.

على أن هذه التحليلات النقدية (الانعكاسية) لم تتجاهل فقط استخدام المذكرات الميدانية فى كتابة التقارير الإثنوجرافية النهائية، وإنما أغفلت كذلك العمليات المسبقة التى بها ينشئ الباحثون التسجيل الذى يودعونه المذكرات الميدانية أصلاً. غير أن هذا التحويل المبدئى للخبرات والملاحظات الميدانية إلى نصوص مكتوبة تكون له عواقبه العميقة المؤثرة على تصوير الوقائع الاجتماعية، تمامًا بنفس مقدار تأثير الأسلوب المتبع فى إعداد الدراسات الإثنوجرافية المنقحة والمكتملة. من هنا فإن الوعى المتزايد بالخصائص الانعكاسية (النقدية) للنصوص الإثنوجرافية قد تطور دون الانتباه

– عمومًا – إلى ممارسات الكتابة اليومية تمهيداً لإعداد ما سيعتبر فيما بعد البيانات الميدانية.

ولسد هذه الثغرة بين التحليل الانعكاسى (النقدى) والممارسة اليومية، يتعين على الباحث أن يتأمل عن كثب كيف يعمل الباحثون الميدانيون تحديداً فى كتابة المذكرات الميدانية: كيف أولاً يكتبون المذكرات الميدانية، ثم يعالجونها، وأخيراً يؤلفون بينها فى صورة نصوص موجهة لجمهور عريض من القراء. ذلك أنه يتبين – من نواح مهمة – أن وصف الناس، والأحداث، والمشاهد فى المذكرات الميدانية يؤثر بشكل قاطع على شكل ومادة هذه الأمور عند الكاتب. فالكاتب – أولاً وأخيراً – لا يقنع بالجلوس ليكتب على الورق أموراً سبق له أن عالجها فى عقله، وإنما الأصح أنه ينشئ تقريراً وصفيًا: فعليه أن يقرر من أين يبدأ، وماذا يتناول أولاً، ثم ماذا يأتى لاحقًا، وما الذى يجب عليه أن يأخذه، وماذا يمكن أن يتجاهله. فهو يقرر أثناء الكتابة أى وجهات نظر سيعرض لها، وما هى الأمور الحاسمة والدالة بالنسبة لشخص أو لحدث معين، وما هى الأمور العارضة التى يمكنه أن يسقطها. ومثل هذا القرارات تكون ذات وزن أعظم لمن سيطالع ذلك من القراء، الذين لهم سبيل إلى معرفة ذلك الواقع بأنفسهم، وأعنى الواقع الذى تتحدث عنه الدراسة والمسئول عن أن يتخذ التقرير العلمى هذا الشكل الذى ظهر به. ولذلك نقول إن النص الذى يتحدث عن أسلوب حياة جماعة من الناس إنما يخلق – من وجهة نظر القارئ – ذلك العالم كظاهرة حية متجسدة.

وقد أكدنا فى الفصول السابقة على بعض الاختيارات المحددة للكتابة التى يمكن أن تبرز الوعى بالسمة الانعكاسية (النقدية) للبحث الميدانى. وذلك على النحو التالى:

أولاً: دعونا إلى كتابة المذكرات الميدانية على نحو يتيح لنا أن نرى الباحث الميدانى ونسمع صوته، على اعتبار أن تفاعلات ذلك الباحث فى الميدان هى التى تشكل كتابته. وبهذه الطريقة يمكن الحفاظ على العمليات التى تم من خلالها إنتاج النص الإثنوجرافى، وإطلاع القارئ عليها: "فاتخاذ الموقف الانعكاسى (النقدى) يعنى إنتاج مادة قابلة للتواصل

بحيث يمكن لجمهور القراء أن يقتنع ويسلم بأن منتج النص، وعملية إنتاجه، وكذلك المنتج النهائي تمثل جميعًا كيانًا كليًا واحدًا متماسكًا" (Mayerhoff and Ruby 1982: 6). ولكن إلى جانب ذلك يذكِّر الكاتب نفسه أثناء الكتابة أن ما عرفه وما يكتب عنه قد حدث فعلاً في مناسبة بعينها، وأنه قد تشكل بسبب ما اتبعه من طرق في البحث وكذلك من خلال طريقة مشاركته في الموقف.

ثانيًا: لقد دعونا بقوة إلى كتابة المذكرات الميدانية بطرق من شأنها أن تحيط بشكل فعال بمعاني أفراد مجتمع البحث وتصورها: وجهات نظرهم، فهمهم لما يجرى، اهتماماتهم، وأصواتهم. ولكي ينجز الكاتب ذلك بكفاءة يجب عليه أن يفهم بوضوح أنه في الحقيقة إنما يعيد عرض وتصوير معاني المبحوثين، بمعنى أنه - بنص عبارة جيرتز (Geertz 1973) - إنما ينقل "معاني المعاني"(*)، أو "تفسيرات التفسيرات".

ولكن ثمة مشكلة واضحة تطفو على السطح عندما نتبين أن معاني المبحوثين ليست أشياء في ذاتها، وإنما هي تصورات أو مفاهيم لشئ ما: لماذا يتعين أن يكون لمعاني المبحوثين أولوية على أي تفسير آخر يمكن أن يقدمه الباحث الميداني؟ وهنا نجدد إيماننا وتمسكنا بأن المذكرات الميدانية والدراسات الإثنوجرافية المكتملة لابد حتمًا وبالضرورة أن تصلنا عن طريق شخص الباحث ومن خلاله، وكذلك من خلال خبراته، ووجهة نظره وأولوياته النظرية. ولكن وجهة نظر الباحث وأولوياته النظرية ليست معطيات مسبقة، أو مسلمات جاهزة، ولكنها تتشكل وتتأثر بفعل العلاقات التي كونها مع الناس الذين يحاول أن يفهم عوالمهم الاجتماعية.

(*) هناك ثمة لبس قد ينشأ نتيجة استخدام نفس اللفظ للإشارة إلى معنيين مختلفين اصطلاحيًا. فالمعنى كقضية في البحث الأنثروبولوجي يمثل إشكالية على نحو ما عرضنا في تقديمنا لهذا الكتاب، أي المعنى لدى الفاعل في مجتمع البحث وإمكانية نقله دون تحيز من الباحث أو تدخل يسقط عليه مفاهيمه هو. وهذا المعنى الاصطلاحي المحدد هو معنى الكلمة الثانية. أما كلمة "المعاني" الأولى فتأتي بالمعنى اللغوي العادي السائر على ألسنة الناس. وقريبًا من هذا حكاية تفسيرات التفسيرات التي تأتي بعدها، فالأولى تفسير بالمطلق، والثانية تفسير المبحوثين لما يجرى من تصرفات أو يتردد من أقوال. للمزيد راجع: موسوعة علم الإنسان، مرجع سابق، ص٦٤٢ وما بعدها. (المراجع)

والباحث كمشارك له مكانه فى المجتمع المحلى، وله قدر من الانغماس مع الناس الذين يعيشون فى هذا المجتمع؛ هذا الباحث يكون - بذلك - جزءاً من العالم موضوع هذا البحث وليس ملاحظًا محايداً منفصلاً عنه. ذلك أن عملية تكوين علاقات مع أناس بعينهم تعرض الباحث الميدانى لأن يتبنى أنساق المعنى الخاصة بهم، وهى أنساق يجب تعلمها وفهمها - إذا أمكن - لكى ينجح الأمر. وكلما ازداد انغماس الباحث فى العوالم الاجتماعية للآخرين، كلما أخضع مسلماته هو، وطرقه فى السلوك وإضفاء المعنى على الأحداث والتصرفات لتحديات الحياة اليومية للمبحوثين.

وهكذا تتكون المذكرات الميدانية للباحث الميدانى من التقارير الوصفية وتأملات المعانى التى اكتسبها وشارك فى صنعها على مدار ارتباطه بعلاقات مع المبحوثين. ومن ثم تعكس تلك المذكرات الفهم المتحصل من خلال إخضاع الباحث نفسه لمنطق العوالم الاجتماعية للآخرين، وهو المنطق الذى يتحول - جزئيًا - إلى العدسة التى يرى الباحث من خلالها ويفهم تلك العوالم التى يقوم بدراستها.

ولكن ما يكتبه فى النهاية ليس بالقطع إلا رؤيته وروايته هو (المتأثرة طبعًا ببعض الاهتمامات والأولويات النظرية وغير النظرية) لرؤية الآخرين ورواياتهم. ولكن الرؤى التى يكونها الباحث يتم بلورتها وتوصيلها من خلال وجهة نظر ومنطق وتصورات العالم لدى كل من أفراد مجتمع البحث والباحث نفسه كذلك. ولذلك فإن العلاقات مع الآخرين هى التى تتيح إمكانية وجود تقدير وفهم التفاعلات التى عايشها الباحث من وجهة نظر الأطراف الأخرى، وليس وجهة نظره وحده.

وتعد الانعكاسية (النقد المتأمل) محوريًا بالنسبة لأمرين: الأول هو كيف نفهم عوالم الآخرين، والآخر هو كيف نفهم مشروع الباحث. فعندما نستخدم الانعكاسية فى فهم عوالم الآخرين تساعدنا على أن نتبين أن تلك العوالم لا تتشكل بفعل متغيرات أو بنى (جمع بنية) موجودة فوق - أو خارج - هؤلاء الناس، وأنها ليست سوى أنساقًا للمعنى تم بلورتها وصياغتها خلال العلاقات وبواسطتها. ومن هنا فإننا حين نستخدم

الانعكاسية - واعين - على أنفسنا كباحثين، سوف نجد أن العدسات النقدية (الانعكاسية) هى التى تساعدنا على أن نتبين وأن نقدر أن تصويرنا لعوالم الآخرين ليس - ولا يمكن أن يكون - وصفًا من خارج تلك العوالم. وإنما هى تبلورت وتأسست وتطورت من خلال علاقاتنا مع أولئك الذين قمنا بدراستهم. ومن هنا فعندما نستخدم العدسة النقدية (الانعكاسية) لكى ننظر بها إلى أنفسنا، سوف نفهم مشروعنا العلمى الذى أنجزناه على نفس الأسس التى فهمنا بها أولئك الذين درسناهم.

فصل ملحق

الهوامـــش

المقـدمة

(١) تأمل ما قام به شاتزمان Schatzman وستراوس Straussمن معالجة لموضوع "استراتيجية التسجيل" فى كتابهما بعنوان: "البحث الميدانى: استراتيجيات لعلم الاجتماع الطبيعى" (Schatzman and Strauss, Field Research Strategies for a Natural Sociology, 1973: 94-101). ويتوافر فى الكتاب نصائح جيدة تتعلق بموضوعات عن متى تكتب المذكرات السريعة فى الميدان ومتى لا تكتب، وعن المزايا النسبية لكتابة المذكرات الكاملة على الآلة الكاتبة مقارنة بتسجيلها على شريط تسجيل صوتى، وعن فائدة التمييز بين المذكرات التى تدون عن الملاحظة وعن الجوانب المنهجية والملاحظات التأملية. وحتى الآن لم يتطرق أحد إلى تناول ما الذى يكتبه المرء فعلاً، وكيف يكتبه، والأمور التى تتصل بتعلم مهارات الكتابة، أو بما للأساليب الكتابية المختلفة من نتائج وآثار.

(٢) تم تمويل هذا البحث من المنحة المقدمة من "المؤسسة القومية للعلوم" National Science Foundation، برقم SES-8713255، وعنوانه "المؤيدون فى مواجهة المعارضين: تمثيل المرء لنفسه فى القضايا المدنية الهامة" والمشاركان الرئيسيان فى إعداد هذا البحث هما: روبـــرت إم. إيمرسون وسوزان ماكـــوين، عامى ١٩٨٨ و١٩٨٩.

(٣) تم تمويل البحـــث الذى قامت به راشيل فريتز عن القـــص (الشعبى) عند شعـب التشوكوى Chokwe فى زائير سنة ١٩٨٢ من منحة مقدمة من مؤسسة فولبرايت – هايز Fulbright-Hayes، وتم تمويل البحث الثانى لها والذى أجرته سنة ١٩٩٢ من منحة مقدمة من مؤسسة فولبرايت للبحث المتقدم.

(٤) انظر، على سبيل المثال، بيرجس Burgess ١٩٨٢، ١٩٨٤، ودنزين Denzin ولينكولن Lincoln ١٩٩٤؛ وإلين Ellen ١٩٨٤؛ وإيمرسون ١٩٨٨، وهامرسلى Hammersley ١٩٨٨، وهامرسلى وأتكينسون ١٩٨٣؛ ولوفلاند Loffland ولوفلاند ١٩٩٥؛ وشاتزمان وستراوس Strauss ١٩٧٣؛ وشوارتز Schwartz وجاكوبس Jacobs ١٩٧٩؛ وسبرادلى Spradley ١٩٨٠؛ وتايلور Taylor وبوجدان Bogdan ١٩٨٤.

* * *

الفصل الأول: المذكرات الميدانية فى البحث الإثنوجرافى

(١) مصطلح "العضو" "Member" مستمد من اتجاه الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة)، وهو الاتجاه الذى يهتم بالأفراد العاديين فى "تمكنهم من اللغة الطبيعية" ويهتم أساسًا "بالمعرفة البدهية بأنشطة الحياة اليومية والتى تتجلى فى استعمال هذه اللغة (Garfinkel and Sacks 1970: 339).

(٢) هنا نفترض أن الباحث الميداني يقوم بدور بحثى معلن وصريح فى مجتمع البحث أو فى المشهد الذى يهتم بدراسته، متخذًا شخصية بحثية بشكل واضح صريح. وبخصوص مناقشة مزايا البحث الميدانى السرى (غير المعلن)، انظر دوجلاس Douglas (١٩٧٦) وشوارتز وجاكوبس (١٩٧٩). وبخصوص الاعتبارات النقدية للبحث الميدانى السرى، انظر إريكسون Erikson (١٩٧٦) وكاسل Cassell (١٩٨٠).

(٣) وذلك كما أشار إليه ميشلر (Mishler 1979: 10) حيث يقول. "تحتوى أى ظاهرة على حقائق متعددة، يمكن الكشف عن كل واحدة منها عن طريق تغيير فى المنظور الفكرى، أو المنهج، أو الهدف... فليست مهمة الباحث أن يستنفد المعنى المفرد لحدث ما وإنما أن يكشف عن التعددية فى معانيه، و... إن هذه المعانى لا تنشأ إلا من مواجهة الملاحظ/ الباحث لهذا الحدث".

(٤) قد يشعر الإثنوجرافى أحيانًا كما لو كان له "حضور غير مؤثر"، بمعنى أنه "مجرد باحث" وبصورة طبيعية لا إشكال فيها. إلا أن هذا الشعور يكون – فى الواقع – شعورًا عارضًا ويمثل إنجازًا مجهدًا للباحث بسبب ما يقوم به المبحوثون من اشتراك فى التآمر عليه (Pollner and Emerson 1988). ويعتمد الباحثون الميدانيون على طائفة من الممارسات التفاعلية للحفاظ على دورهم "كملاحظين"، ويحافظون على هذا الدور فى مواجهة الإغراءات والغوايات التى تزين لهم أن يغالوا فى إظهار الحوادث، ومن ثم يقومون، بشكل ما، بإلغاء الفارق بين "الباحث" و"المبحوث" (أى القائم بالملاحظة والناس الذين يلاحظهم) تمامًا.

(٥) يقدم جورج وجونز (Georges and Jones 1980) وصفًا لأمثلة كثيرة لباحثين ميدانيين انبثق بحثهم بصورة مباشرة من نوع العلاقات التى كونوها مع من التقوا بهم فى الميدان.

(٦) مثال ذلك، أن هذا المتدرب المقيم مقيد بمتطلبات وظيفته، وهو فى أغلب الأحوال يفقد قدرته على التجول بدون أن يكون عليه واجب يتعين عليه أداؤه. ومن ناحية أخرى، يعتبر كل من المتدرب المقيم والباحث عضوين مؤقتين فى هذا المجتمع، كما أنهما لا يحظيان فى كثير من الأحيان إلا بمكانة هامشية متدنية.

(٧) تناول جيرتز Geertz (١٩٧٦) وبيتنر Bittner (١٩٨٨) عددًا من الدلالات المترتبة على الإقرار بأن الإثنوجرافى يتوجب عليه أن يظل غريبًا (عن المبحوثين) ولو بصورة جزئية على الأقل. أولاً: إن "كونى موجودًا فى مكان بعيد" وأنه "لا يرانى أحد غيرى" لا يتسبب فى فرض قوة قاهرة على الباحث تلزمه بكتابة تقارير عن عالم مختلف، وذلك بشرط أن تكون خبرة الإثنوجرافى بهذا العالم المختلف قريبة من خبرة أعضائه وليست مطابقة لها. وانظر كذلك المناقشة التى تدور حول موضوع "الواقعية الإثنوجرافية" فى ماركوس وكوشمان (Marcus and Cushman 1982). ثانيًا: إن تخفف الإثنوجرافى من قيود الالتزام وكبح العواطف يعزز من فهمه للعوالم المختلفة وفقًا لتصوره وتفسيره الشخصى لها، ومن ثم فإنه سيفهمها خلوًا من "صفات العمق، والثبات، والحتمية التى يرى الناس أنها صفات متأصلة فى الظروف التى تحيط بحياتهم" (Bittner 1988: 155).

(٨) وبالمثل يتصور لاتور (Latour 1987: 68) أن العلم القائم على التجربة المعملية يمثل شكلاً متميزاً من أشكال الكتابة، مركزاً على الطريقة التى يتبعها العلماء فى تحويل سلسلة من الإجراءات أو الخطوات المعملية إلى نصوص، وناظراً إلى الأدوات المختلفة المستخدمة فى هذا العمل باعتبارها "آلات للكتابة". وانظر كذلك لاتور ووجلار Wooglar (١٩٧٩).

(٩) يتعين تناول هذه المسائل بأسرها من خلال تطوير مجموعة من أعراف أو تقاليد الكتابة. انظر بساثاس Psathas وأندرسون (١٩٩٠) لإلقاء نظرة عامة على "الرموز الكتابية" الأساسية المستخدمة فى صناعة النسخ المعدة لغرض تحليل الحوار.

(١٠) فى مجال المقارنة بين المذكرات الميدانية والنسخ المستخرجة من التسجيلات السمعية والبصرية باعتبارها طرقًا مختلفة لتخفيض الحياة الاجتماعية الجارية إلى نصوص مكتوبة، لا نقصد أن نوصى بنموذج للبحث الإثنوجرافى يقتصر على استخدام النوع الأول (أى المذكرات الميدانية). بل نقصد أن نقول إن أغلب الباحثين الإثنوجرافيين المعاصرين يعتمدون بشدة على كلا الطريقتين معًا: الملاحظات الميدانية والتسجيلات. وفى وقتنا هذا تقوم الأدلة الخاصة بالعمل الميدانى بالمناقشة الدائمة للمناهج المختلفة لتوثيق البحث وتؤكد – بصفة خاصة – على أهمية التجهيزات والمعدات اللازمة للتسجيل (مثال ذلك: جولدشتاين ١٩٦٤؛ إلين ١٩٨٤؛ جاكسون ١٩٨٧؛ ويلسون ١٩٨٦). ويصف ستون Stone وستون (١٩٨١) بصفة خاصة الأشكال المختلفة "للتسجيل" التى يستعملها الباحثون الإعلاميون (المشتغلون بدراسة وسائل الاتصال)، ويناقشان أنواع الترميز أو التكويد التى تتضمنها هذه الأشكال؛ بادئين بكتابة المذكرات الميدانية وصولاً إلى عمليات التسجيل.

ومع ذلك، فإن الأهمية النسبية التى يوليها الباحثون لكتابة المذكرات بأيديهم – مقارنة بتسجيلها بأجهزة التسجيل الصوتية أو المرئية – تختلف باختلاف التخصص العلمى الذى يعمل فيه الباحث، وتبعاً لمشروعه البحثى. مثال ذلك، أنه كثيراً ما يقوم عدد كبير من الإثنوجرافيين بتسجيل المقابلات غير الرسمية بأجهزة التسجيل كما أنهم يكتبون مذكرات وافية. وهو إجراء لابد منه عند العمل بلغة أجنبية، كما أنه إجراء له قيمته الكبيرة فى أحيان كثيرة عند كتابة الباحث بلغته الأم وعمله داخل ثقافته. وبالمثل، يقوم باحثون ميدانيون آخرون باستكمال تسجيلاتهم لمذكراتهم الميدانية عن طريق انتظامهم فى التسجيل (الصوتى والمرئى) للمناسبات الهامة أو الأحداث المتكررة التى تعد محورية بالنسبة لاهتماماتهم النظرية. فى مقابل ذلك نجد أن الباحثين الذين يدرسون اللغة المنطوقة وأشكال التعبير والمأثورات الشفاهية، كعلماء اللغويات الاجتماعية، وعلماء الفولكلور، والمشتغلين بالتاريخ الشفاهى، كثيراً ما يعطون الأولية للتسجيل بالأشرطة الصوتية، لكنهم مع ذلك يكتبون المذكرات الميدانية المفصلة ليكملوا الروايات الشفاهية بتفاصيل تتصل بالسياق الذى تمت فيه هذه الروايات.

(١١) قام عدد من الباحثين الميدانيين بالدراسة المتعمقة للطرق الكثيرة التى تقوم بها العلاقات الإنسانية الموجودة فى الميدان "بين الباحث والمبحوثين" فى التأثير على النتائج النهائية للبحث: وانظر بصفة خاصة كلارك Clarke (١٩٧٥)، وإليس Elis (١٩٩١)، وإيمرسون (١٩٨٨: ١٧٥–٢٥٢)، وجورج وجونز (١٩٨٠)، وكلاينمان Kleinman (١٩٩١)، ورانيهارز (١٩٧٩).

(١٢) وقد أثبت عديد من الباحثين (كليفورد Cliford ١٩٨٣؛ وستودارد Stodard ١٩٨٦) أن ما يبدو على البيانات الإثنوجرافية من موضوعية و"مرجعية" ظاهرية (وما يبدو على "البيانات العلمية" بصورة أعم) إنما يرجع فى جانب منه - إذا تحرينا الدقة - إلى أننا نخفى أو نتغافل عن أن هذه البيانات تعتمد على شخص الباحث وعلى مناهجه فى البحث والكتابة.

(١٣) كان الاهتمام بمعانى الكلمات التى يستعملها السكان المحليون، من حيث أنها تزودنا "بتقارير لتفسيرات العوالم المختلفة نابعة من داخلها" (Marcus and Fischer 1986: 26)؛ كان هذا الاهتمام بمعانى هذه الكلمات علامة على ظهور "الاتجاه التأويلى فى الأنثروبولوجيا" خلال ستينيات وسبعينيات القرن العشرين.

* * *

الفصل الثانى: الباحث فى الميدان: مشاركًا وملاحظًا ومدونًا للمذكرات الميدانية

(١) يستشهد جاكسون (Jackson 1990b 23)، مثلاً، بأقوال العديد من علماء الأنثروبولوجيا الذين أكدوا على أهمية "الأداء" الحقيقى للإثنوجرافيا على النحو التالى: "إن المذكرات الميدانية تعترض الطريق على البحث والباحث. فهى تتدخل فى كل ما يهتم به العمل الميدانى؛ فهى الأداء الحقيقى". و:"هذا هو ما أود أن أسميه العمل الميدانى. فليس هو تسجيل الملاحظات فى الميدان بل هو التفاعل بين الباحث وما يسمى بموضوعات البحث (أى المبحوثين - المترجم)".

(٢) يقدم جاكسون (Jackson 1990b: 25) مثالاً عن الحالة الأولى، مستشهداً بقول أحد علماء الأنثروبولوجيا الذى اكتسب "بصيرة نافذة لما لدى السكان الأصليين فى استراليا من رموز تتصل بالأرض أثناء وجودهم على ظهرها": "إنك لتلاحظ أثناء أى نوع من أنواع الحوار الممتد، أن الناس يجلسون القرفصاء على الأرض، أو يستلقون عليها. وقد آل أمرى إلى أن استهوانى هذا الوضع تمامًا، وهو استهواء فرض على أن، أن أتعرض... لما لانهاية له من التراب". ويقدم بولنر وإيمرسون (Pollner and Emerson 1988: 244) مثالاً للحالة الثانية، وذلك عندما يحظى - فجأة - باحث كان قبل ذلك مهمشًا معزولاً، بالصدارة فى مجال العلاج النفسى المنزلى.

(٣) قد يرجئ بعض الإثنوجرافيين الملتزمين بالمرور فى تجربة الانغماس فى مجتمع البحث؛ قد يرجئون الكتابة المنتظمة (للمذكرات الميدانية) إلى أجل يكاد يكون غير مسمى، وكثيرًا ما يرجئون الكتابة إلى أن يغادروا الميدان بصفة دائمة. ونظرًا لالتزامنا بكتابة المذكرات فى وقت معاصر للأحداث بدرجة أو بأخرى، فإننا لا نتناول الإجراءات الخاصة بكتابة المذكرات الميدانية بعد مرور مدة طويلة على وقوع الأحداث ذات الأهمية.

(٤) هذا المصطلح مأخوذ من جاكسون (Jackson 1990b: 5)، والذى يعزوه إلى سيمون أوتنبرج Simon Ottenberg.

(٥) فى الواقع، يؤكد إيفريت هيوز (Everett Hughes 1971: 505) أن التقرير المنشور يتسبب فى إغضاب الناس من الباحث الميدانى بدرجة أقل مما يسببه اتخاذ هذا الباحث لنظرة حيادية غير متعاطفة مع مشاعر وأحاسيس هؤلاء الناس. "إن الكراهية التى تحيق من حين لآخر بالمؤرخ الذى يفضح الأكاذيب إنما تصيب – بصورة تكاد تكون يومية – ذلك الشخص الذى يكتب التقارير التى يكشف بها سلوك الناس الذين عاش بينهم؛ كما أن هذه الكراهية لا تنصب بنفس الدرجة على كتابة التقارير، إذ أن مجرد قيام الباحث بالتفكير وفقًا لتلك المصطلحات الموضوعية – التى لا تبالى بمشاعر الناس – هو الذى يزعج الأفراد المبحوثين".

(٦) قد يكون ذلك النقص فى معرفة ما يقوم به الباحث الميدانى من عمل ناجمًا عن أن أهدافه التحليلية واهتماماته دائمة التطور، وهى الأهداف والاهتمامات التى ليست محددة تحديداً صارمًا من قبل، وإنما تتغير مع استغراق الباحث فى الموقع (Wax 1977). وكما يؤكد ثورن (Thorne 1980: 287) قائلاً: "عادة ما يدخل الباحثون الميدانيون الميدان وفى أذهانهم صورة غير محددة للأهداف؛ فهم يميلون للعمل على نحو استقرائى وقد يغيرون موضوعات اهتمامهم ووجهات نظرهم كلما مضى البحث فى خطواته؛ وقد تفرض عليهم الضرورات العملية إجراء تغيير شامل لخطط البحث.

(٧) وبالمثل، عادة ما يستعمل هؤلاء المبحوثون الفكاهة للتعليق على الوظيفة التى يؤديها الإثنوجرافى الذى يقوم بتدوين المذكرات. وبالعودة ثانية للاستشهاد بما جاء فى موضوع إدارة الإسكان نجد ما يلى: "يتحدث العمال ويضحكون لأن سام عازم على اختيار المكان الذى يضع فيه مكتبه فى هذا المقر الجديد. أسمع أحد العمال يقول: "آمل ألا يكتب بوب Bob هذا الموضوع فى مذكراته". اقتربت منهما قائلاً: "ماذا؟". فأجاب العامل: "أوه، لقد أخبرت سام للتو أنه أحسن صنعًا بحصوله على مكان يضع فيه منجله الكبير وراء مكتبه". وضحك العاملان.

(٨) هنا تنشأ تعقيدات إضافية فيما يتصل بما إذا كان على الباحث الإثنوجرافى أن يكتب مذكرات ميدانية مستوفاة عن أمور سبق له أن تحاشى كتابة مذكرات سريعة عنها فى الميدان أو طُلب منه ألا يكتب عنها مذكرات سريعة. فمن ناحية، قد يشعر الباحث الميدانى أن مذكراته الميدانية هى سجله الشخصى (كما هى سجله العلمى) وأن بإمكانه أن يكتب أى شئ وكل شئ فى تلك المذكرات مما يرغب فى كتابته، وإن مثل هذا التصرف يؤدى إلى تأجيل أى قرار بشأن استعمال أو عدم استعمال هذه الكتابات الخاصة والمتعلقة بالملاحظات الميدانية فى مقال علمى منشور يمكن أن يطلع عليه أى جمهور قراء خارجى عن المجال الأكاديمى. ومن ناحية أخرى، قد يشعر الباحث الإثنوجرافى بأنه مقيد باتفاق ضمنى على ألا يسجل مذكرات سريعة عن حدث معين حتى يجتنب – كذلك – كتابة مذكرات ميدانية مستوفاة عن ذلك الحدث، وذلك من غير أن يكون شعوره هذا متوقفًا على ما إذا كان سيتاح لأى إنسان آخر أن يقرأ هذه المادة أم لا. وفى هذه الحالة يرفع الباحث الميدانى من قدر الالتزام الشخصى والخلقى مع الشخص المبحوث فوق مستوى أى التزام تجاه مذكراته الميدانية كسجل بحثى.

(٩) ومن ثم، قد تؤدى كتابة المذكرات السريعة فى وقت بعيد عن وقت المشاهدة، وهو الأمر الذى يوصى به جوفمان (Goffman 1989: 130) كوسيلة لتقليل نتائج ردود الأفعال السلبية (بمعنى: "لا تكتب عن العمل الذى تقوم بملاحظته، لأن الناس حينئذ سيعرفون ما الذى تسجله")؛ قد تؤدى كتابة المذكرات السريعة بهذه الطريقة إلى التعرض لخطر الإساءة إلى مشاعر الآخرين عندما يظهر لهم أن هذه المذكرات تركز على النشاط أو الموضوع الجارى.

(١٠) مثال ذلك، أن كتابة المذكرات السريعة أثناء الاحتفال بطقوس التكريس عند شعب التشوكوى Chokwe (والمسماة موادى Mwadi) عندما كانت النساء المسنات يقمن بتعليم إحدى الفتيات كيف "تراقص زوجها" عن طريق تقليد حركات الفعل الجنسي؛ إن كتابة المذكرات السريعة أثناء ذلك تعد أمراً غير لائق، وقد تجلب على الباحث نقداً مباشراً من قبل المشاركين فى الاحتفال.

(١١) تتضمن مقالة جير Geer (١٩٦٤) عن أيامها الأولى فى الميدان مذكرات ميدانية مفصلة عن تلك اللحظة العصيبة المتعلقة بالعثور على مدخل بحثى للمجتمع الجديد. وتقدم لنا هذه المذكرات أمثلة مفعمة بالحياة لأحداث وقضايا شدت انتباه باحث ميدانى خبير؛ كما أن هذه المذكرات توضح لنا نطاق المسائل التى قد تفضى إلى كتابة مذكرات سريعة أولية فى الميدان.

(١٢) يصف جوتليب Gottlieb وجراهام Graham (١٩٩٣) هذه العمليات الخاصة بتسجيل المذكرات فى سردهم لتتابع الأحداث أثناء قيامهما ببحثهما الإثنوجرافى فى أفريقيا.

(١٣) لاريب أنه من الممكن إجراء "مقابلة" مع هؤلاء الأفراد الذين يضمهم العالم الاجتماعى موضوع الدراسة وسؤالهم مباشرة عن دخائل نفوسهم ودوافعهم، وسؤالهم أيضًا عن أحكامهم على دخائل الآخرين ودوافعهم. ومع ذلك، فإن أمثال تلك المقابلات لا تزودنا بأجوبة حاسمة على هذه المسائل، وإنما تزودنا – فحسب – بمجموعة أخرى من الملاحظات التى يتعين على الباحث الإثنوجرافى مواصلة الحكم عليها وتقييمها. انظر اهتمام إيمرسون وبولنر (١٩٨٨) بالتفسيرات المحتملة والعويصة، واللازمة لتقييم الجمل والعبارات الواردة فى مقابلة أجريت مع أحد العاملين فى عيادة للصحة العقلية وطُلب منه فيها أن يحكم على الكتابات الإثنوجرافية التى تصف الظروف التى تحيط بعمله وكيف تتخذ فيه القرارات.

(١٤) يعتمد هذا الاقتباس – وكذلك النصوص الأخرى الواردة فى هذا الفصل وفى الفصول التالية – على المقابلات التى أجرتها ليندا شو Linda Shaw، والتى كان يتم فيها حث الباحثين الميدانيين المبتدئين على "التحدث بصوت عال" عند جلوسهم إلى كومبيوتراتهم لكتابة مذكراتهم الميدانية مستخرجين إياها من المذكرات السريعة التى دونوها فى الميدان، والملاحظات الرئيسية.

(١٥) قدمت هذه الباحثة الإثنوجرافية هذه التأملات التى تعلق بها على تلك العملية قائلة: "لم أستطع من قبل الكتابة عنها إطلاقًا. فلم أكن أستطيع أن أتذكرها [وهى أحداث محددة]. وقد بدا لى هذا الحدث فى غاية الضآلة وقلة الأهمية. وذلك لأن كل شئ يجرى مع هؤلاء الأطفال يتم على مراحل صغيرة جداً، ولا يحدث هنا أبدا أى أمر بارز يلفت النظر فعلاً، إلا أن هذه الحادثة تظهر واضحة فى ذهنى وقد احتجت لتذكرها. وعند هذا الوقت قلت لنفسى: "تذكرى هذا".

وتعكس هذه المذكرات كذلك ما لهذه المتدربة المقيمة/ الباحثة من "التزامات" محددة فى هذا المجتمع، كما هو واضح فى وجهة النظر الضمنية الواردة فى كتابتها. فهى لا تقتصر على تمييز تلك الحادثة التى وقعت حالاً بوصفها "الامتثال لما يقوله المدرس"، وبوصفها تمثل تغيراً للنمط السلوكى السابق لنيكول. ولكنها أثناء تأملها فى مسئولياتها التدريسية الفعلية فى هذا المجتمع، تقوم – كذلك – بتقييم هذا التغير تقييماً إيجابياً بوصفه "إنجازاً"، وبوصفه أمراً ينبغى على نيكول أن تتعلمه. وقد تقوم إثنوجرافية أخرى ليس عليها مسئوليات وظيفية فى هذا الموقع بتصوير هذه الحادثة بصورة مختلفة إلى حد بعيد (كأن تصورها باعتبارها نوعًا من ممارسة السلطة تقوم بها موظفة راشدة)، وقد تمتنع عن إعطاء تقييم مباشر عما إذا كان ما فعلته نيكول "جيداً" أم "سيئًا".

(١٦) لاريب أنه قد ينتهى الأمر ببعض الإثنوجرافيين إلى أن يقرروا التخلى التام عن التزامهم نحو بحثهم، وهو أمر ممكن الحدوث تسبب منذ زمن طويل فى إزعاج علماء الأنثروبولوجيا المشغولين بمخاطر ظاهرة "تحول الباحث إلى واحد من أبناء البلد المبحوث". ومن الأمور التى لا يدركها ولا يناقشها إلا القليلون مسألة التخلى المحدود والمؤقت عن الالتزام بالبحث، والذى يحدث عندما يقرر الباحث الميدانى ألا يكتب ملاحظات ميدانية عن وقائع خاصة أو أشخاص معينين على أساس أن من شأن القيام بمثل هذه الكتابة أن يتضمن مستويات من الخيانة أو هتك الأسرار، وهو الأمر الذى يرى الباحث أنه أمر لا يطاق على المستوى الشخصى و/ أو على المستوى الخلقى.

(١٧) يستعمل الباحثون الميدانيون - بصورة روتينية - عدداً من الأساليب التفاعلية (أى: وسائل التعامل مع أعضاء مجتمع البحث) للحفاظ على الحياد فى البحث فى مواجهة ما يبديه الأفراد المبحوثين من دعوات صريحة للباحث ليزدادوا اندماجاً معه (بولنر وإيمرسون ١٩٨٨). وتتضمن هذه الممارسات "التعبيرات الصريحة" التى تحد بصورة مباشرة من حدوث مزيد من الاندماج، و"التصرفات الوقائية التى تبادر إلى منع حدوث هذه الدعوات للاندماج العميق"، و"عدداً من ردود الأفعال التى تقوم - بطريقة غير مباشرة - بتحويل هذه الدعوات عن طريقها، أو محاصرتها وتقييدها، أو تفاديها". (Pollner and Emerson 1988: 243).

(١٨) استخدم جاكسون (١٩٩٠/أ) طريقة المقابلات الشاملة مع علماء الأنثروبولوجيا لتحديد ما للمذكرات الميدانية من صفات تقع تحت عتبة الشعور (أى يتعذر الوعى بها) أو صفات بيْن - بيْن (أى جامعة بين الوضوح والخفاء)، ولبيان الخبرة الخاصة بكتابتها. وقد ذكر كثير من الباحثين الميدانيين فى تقاريرهم أنهم أحسوا بمشاعر شبيهة بما ورد فى التقرير الذى تحدث عن إطلاق الباحث العنان للملاحظات الميدانية عندما يبدأ فى الانسجام مع إيقاعات الحياة المحلية: "أخذت فى التباطؤ. فأنا مشغول بما يحدث ساعة بعد ساعة. إنك لتنسى تسجيل الملاحظات لأنك تشعر أن هذه هى حياتك". (Jackson 1990a: 18).

(١٩) يخلق كثير من الإثنوجرافيين - كذلك - شعوراً بنفس هذا الاتجاه الفكرى المستقل من خلال تسجيل الأحداث فى صور فوتوغرافية أو فى فيلم. انظر جاكسون (١٩٨٧).

* * *

الفصل الثالث: تدوين الملاحظات الميدانية (القسم الأول)

من الميدان إلى المكتب

(١) لعل من الراجح أن مجرد انقضاء الوقت - بعد مشاهدة الأحداث - يتداخل مع استرجاعها بدرجة أقل مما تفعله مشاركة الباحث فى غير ذلك من الأنشطة والأوضاع الاجتماعية الأخرى. وتماشياً مع هذه الاتجاهات يحذر جوفمان (Goffman 1989: 127) من إحضار الباحث زوجه معه إلى الميدان، وذلك لأن "هذا التصرف سيخرجك فعلاً من الميدان. إذ سيصبح بإمكانك أن تتحدث مع ذلك الشخص (الزوج أو الزوجة)، وما أشبه ذلك من عمل، ولكن لا سبيل لك لتصنع من هذا المجتمع عالماً لك".

(٢) مثال ذلك، أن سانجك Sanjek (١٩٩٠/ب) يروى أنه مرت سنة بأكملها قبل أن ينتقل من دفتر الملاحظات السريعة على كتابة المذكرات الميدانية المستوفاة. ومن الواضح أنه بذل قدراً كبيراً من الوقت والجهد فى الكتابة التفصيلية للتوصيفات والأحداث الواردة فى دفاتر الملاحظات السريعة المكتوبة بخط اليد.

(٣) بالإضافة إلى ذلك، قد لا يرغب الباحث الميدانى الذى له قُرَّاء فعليون فى الكشف عن الوقائع الشخصية جداً لهؤلاء الآخرين، سواء أكان منهم من هو معلم أو باحث مشارك. ونحن نوصى بالكتابة التفصيلية لتلك المذكرات فى وثيقة أو سجل مستقل. ويؤدى هذا الإجراء إلى تقديم وصف مكتوب لا يطلع عليه إلا الباحث الميدانى. وفى وقت لاحق قد يشعر الباحث بأن هذا الوصف له أهميته بحيث أنه ينبغى إدراجه فى أحد التحليلات النهائية؛ أو ربما يقرر أنه يمثل أمراً شخصياً بالغًا ويحتفظ به لنفسه فلا يُطلع عليه أحداً.

(٤) وذلك كما أوضح أونج Ong (١٩٧٥)، أن الكُتّاب يتخيلون جماهيرهم عن طريق تصورهم لأنواع من القراء الذين قرأوا كتابات مشابهة لكتابتهم. ولهذا السبب، تعد الاختيارات الأسلوبية للكاتب وسيلة لمخاطبة ذلك الجمهور المتخيل.

(٥) وكما علق أحد الإثنوجرافيين فقال: "لعل ذلك أقرب إلى أن يكون تعريفًا للمذكرة الميدانية، وهى أنها: شئ لا يمكن أن يفهمه شخص آخر بسهولة". (Jackson 1990b: 20).

(٦) وذلك ما يؤكده فلاور Flower (١٩٨٨)، فهدف الكاتب لا يكون هدفًا واحداً ومقصوداً، بل هو مجموعة من الأغراض المتداخلة المترابطة. وفى أثناء القيام بعملية الكتابة، يراجع الكُتّاب تلك الأغراض ويرتبونها حسب أهميتها بصفة منتظمة.

(٧) يحث بيرل Perl (١٩٨٠) الكُتّاب على أن يقوموا بين الحين والآخر بإعادة قراءة ما كتبوه، والعودة إلى الكلمة أو العبارة الرئيسية التى تعيد الإمساك "بشعورهم الذى يحسون به" إزاء ما كانوا يريدون قوله عن أحد الموضوعات. ذلك أن الإحساس بهذا الشعور يعيد تجديد طاقة الكاتب. فمن خلال عملية من عمليات "التركيب الاسترجاعى" يقوم الكُتّاب بتنقيح ما يريدون أن يقولوه.

(٨) كُتبت هذه المذكرات الموجزة أصلاً فى صورة من الكتابة الخاطفة التى لا يمكن أن يفهمها أغلب القراء، وقد حولناها إلى صورة من السهل قراءتها.

(٩) فى هذا المشروع أجرت راشل فريتز Rachel Fretz كثيراً من ملاحظاتها بالاشتراك مع باحثين يعملان فى نفس القرية، وهما مؤرخا الفن: إليزابث كامرون ومانويل جوردان. فالباحثون الذين يعملون معًا فى نفس الموقع يمكنهم أن يدعموا بالوثائق ويعبروا عن أصوات ووجهات نظر مختلف أفراد مجتمع البحث.

(١٠) نحن هنا نتبنى رأى أبرامز Abrams (١٩٨٨)، فنشير إلى مصطلح "الصوت" "Voice" بوصفه معبراً عن كل من "الأسلوب المتفرد فى الكلام" و"المنظور الفكرى المتميز" أو "الروح" "Ethos" الخاص بفرد ما. كما نقر بأن الباحث يغير من طريقة كتابته أو كلامه لتكون متوافقة مع مختلف الجماهير ومختلف الأغراض. وقد يؤدى التزام الباحث الميدانى باستيعاب وجهات نظر متعددة فيما يكتبه من مذكرات ميدانية إلى أن يشارك فى مجتمع البحث بأساليب تتسبب فى تغيير منظورها الفكرى، إلى أن تقدر وتشجع التعبير عن الأصوات المتعددة. وهو إيضاح آخر يبين كيف أن من المحتمل أن تقوم كتابة المذكرات الميدانية بالانتفاع بما حدث فى الميدان وبالتأثير عليه!.

(١١) إن الكثير من هذه الاعتراضات الموجهة لوجهة نظر ذات طابع عام قد تضعف أو حتى تتلاشى تمامًا عندما نتحول من كتابة المذكرات الميدانية إلى كتابة التقارير النهائية للأبحاث الإثنوجرافية. فالواقع أن كل المناقشات الحالية لموضوع العمومية أو الشمولية فى الكتابة الإثنوجرافية إنما تنصب على التقارير النهائية للأبحاث الإثنوجرافية وليس على المذكرات الميدانية. مثال ذلك، أن "الحكايات الواقعية" "Realist Tales" التى كتبها فان مانن (Van Maanen 1988 45-72) تعتبر تقارير إثنوجرافية كاملة بها كثير من الصفات العامة، كغياب ذكر المؤلف عن النص، والتوصيفات والمناظر المفصلة تفصيلاً دقيقًا، و"القدرة الكلية على التفسير" Interpretive Omnipotence. وبالمثل، يرى براون Brown (١٩٧٧) وجهة النظر الكلية أو العامة باعتبارها سمة تميز كثيرًا من الدراسات الإثنوجرافية الكلاسيكية؛ فالإثنوجرافى يتبنى وجهة نظر عامة كلية المعرفة، مثلاً، عندما يتخير أى أصوات أفراد مجتمع البحث هى التى يقدمها، وعندما ينتقل من وجهة نظر امرئ ما إلى وجهة نظر أحد غيره.

(١٢) يؤكد بيكر Becker (١٩٨٦) تأكيداً خاصًا على أهمية هذه العمليات، والتى من خلالها تمكن الكتابة أى كاتب من أن يوضح أفكاره ويطورها. وهو يصر على أن الأفكار التى لا تكتب على الورق تكون مفككة ومائعة: "يبدأ الأمر بأن يرد على بالك شيء واحد، ثم يرد شئ آخر. وفى الوقت الذى تفكر فيه فى الشئ الرابع يكون الشئ الأول قد اختفى (Becker 1986: 55). وخلافًا لذلك، "فإن الفكرة التى تكتب على الورق... تكون فكرة صلبة، ولا تغير شكلها، ومن الممكن مقارنتها بالأفكار الأخرى التى تأتى بعدها" (١٩٨٦: ٥٦).

(١٣) بالرغم من عدم تركيزه بشكل خاص على التوصيفات الواردة فى المذكرات الميدانية، قدمت ولف Wolf (١٩٩٢) إيضاحًا مثيرًا عن الاختلاف الكامن فى الطريقة التى يستطيع بها البحث الإثنوجرافى أن يصور شرائح مختلفة من الحياة؛ وهى تقدم "نفس" مجموعة الأحداث فى ثلاثة أشكال قصصية، وهى: المذكرات الميدانية الأصلية، ثم فى شكل وصف به المزيد من التحليل المنهجى، ثم فى شكل قصة قصيرة خيالية.

* * *

الفصل الرابع: تدوين الملاحظات الميدانية (القسم الثانى)

خلق المشاهد على الورق

(١) كثيرًا ما يشار إلى الوصف (أو: التوصيف) باعتباره واحداً من الأنماط الأربعة الرئيسية لموضوعات الإنشاء، بجانب إقامة الحجة Argumentation، والشرح Exposition، والسرد Narration. إلا أننا هنا ننظر إلى الوصف كاستراتيجية أساسية لتصوير مجتمع الباحث، والبشر، والأشياء، والأفعال (أى التصرفات والسلوك) كجزء من القصة التى يرويها الإثنوجرافى على امتداد مذكراته الميدانية، مبتدئًا باليوم الأول الذى يدخل فيه مجتمع البحث ومنتهيًا بالوقت الذى يغادر فيه هذا المكان ويكتب ملاحظاته الأخيرة أو النهائية.

(٢) يطلق لوفلاند (Lofland 1985. 15) على هذه المعرفة مصطلح "المعرفة التصنيفية" والتى بها "يعرف المرء من يكون الشخص الآخر، بمعنى أن المرء يعلم أن بالإمكان إدراج هذا الآخر فى فئة ما" وخصوصًا فئة النوع الاجتماعى، وفئة العمر، وفئة السلالة، حيث أن هذه الفئات من السهل إدراكها من المظهر فقط. وخلافًا لذلك تتضمن "المعرفة الشخصية" الإحاطة ببعض جوانب السيرة الشخصية الفعلية لحياة هذا الآخر على أقل تقدير.

(٣) بهذا المعنى، قد يكون الوصف ثمرة لما عند الإثنوجرافى من اهتمام فكرى بالهوية الإثنية، كما قد يعمل هذا الوصف على دعم هذا الاتجاه. معنى ذلك أن هذا الباحث الملاحظ قد يكون التقى فجأة بهذا المشهد وعنده اهتمام سابق بمسألة كيف يختلط الطلبة البيض بالأمريكيين ذوى الأصول الأفريقية، مما جعل هذه الحساسية تفضى به إلى إعلاء قدر هذه المنظومة الرمزية الساخرة وإلى الكتابة بحيوية بالغة عن هذه السترة. وفى مقابل ذلك، فإن كتابة الباحث لشئ ترك فى نفسه انطباعًا مباشرًا قد تكون جعلته يبدأ فى التفكير فى القضايا المتصلة بالامتزاج بين الثقافات. وفى كلتا الحالتين، استمر هذا الباحث الإثنوجرافى - عند كتابته للمذكرات الميدانية التالية - فى التركيز على هذه المرأة وعلى غيرها من الطلبة البيض الذين يصاحبون السود فى نزهاتهم، واصفًا حالات أخرى للملابس المتميزة إثنيًا، ولاستعمال البيض للأساليب التى يتبعها السود فى حواراتهم، وما أشبه ذلك.

(٤) يشكل الجمع بين الملاحظات الميدانية المكتوبة وتسجيل التفاعلات الخاصة على الأشرطة؛ يشكل الجمع بين هاتين الطريقتين معلمًا يميز كثيرًا من الدراسات الإثنوجرافية الحديثة عن الهيئات المشتغلة بالخدمات الإنسانية، ومن ضمنها المدارس (نذكر منها دراسات: ميهان Mehan، وهرتوك Hertweck، وميلز Meihls ١٩٨٦)، والجهات الإدارية المعنية بحماية الأطفال (مثل دراسات: دينجوول Dingwall، وإيكلار Eekelaar، ومارى Murry ١٩٨٣)، والمحاكم الجنائية (ماينارد Maynard ١٩٨٤). انظر مؤلف ماينارد (١٩٨٩) فيما يتصل بمناقشته لتوجه واحد يدمج هذه الطرق المتبعة فى تقديم تسجيلات نصية (أى: مكتوبة) للمواقف الأساسية التى تتم فى هذه المؤسسات.

(٥) كثيرًا ما كُتِبت مذكراتها الميدانية باللغة الإنجليزية، وذلك رغم أنها كانت تسجل ما سمعته بلغة أخرى؛ ولذلك أدخلت فى ملاحظاتها كثيرًا من المصطلحات غير الإنجليزية لتحافظ على معانيها المحلية.

(٦) فيما يتصل بمناقشة كيف يقوم الباحثون الذين يعملون باستخدام لغة ثانية (غير لغتهم الأصلية) أو يركزون بوضوح على التعبير الشفاهى؛ كيف يقومون بجمع ودمج هذه المناهج انظر ستون وستون (١٩٨١). ويؤيد بعض الباحثين الميدانيين السوسيولوجيين استعمال إجراءات مشابهة تستخدم ثلاث أدوات بحثية. ومن أمثلتها القيام بإجراء مقابلات لاحقة مع الأفراد المشاركين لسؤالهم عما كانوا يفكرون فيه وما كانوا يفعلونه أثناء قيامهم بعملية تفاعل سبق تسجيلها. انظر سيكورل .(Cicourel 1974: 124ff)

(٧) يستكشف شو (١٩٩١) عددًا من التعبيرات الأخرى المتعلقة بهذا الشعور بالعجز عن تحقيق حياة "طبيعية"، وما ينجم عنه من شعور متغلغل بالوصمة، والذى يصيب المرضى العقليين السابقين فى تعاملاتهم مع الأفراد ذوى التفكير التقليدى.

(٨) لا يقتصر تجميع التفاصيل فى مجموعات على تسهيل الكتابة التفصيلية للمذكرات الميدانية، إذ أن تعود الباحث على تمييز الفواصل الواقعة بين الفقرات يساعد أيضاً على سرعة قراءة المذكرات الميدانية وسرعة فهمها فيما بعد.

(٩) يرى ستولر (١٩٨٩) أن كثيراً من الإثنوجرافيين، حال كونهم يعكسون ثقافتهم الغربية، يتسمون بنوع من التحيز للتفاصيل البصرية، هذا على الرغم من أن أفراد مجتمع البحث قد يكونون أكثر اهتماماً بالانطباعات الحسية الأخرى، كتلك الخاصة بالرائحة أو الصوت أو الحركة. وفى هذا الصدد، فإن أنواع التفاصيل الحسية التى تكون سائدة تختلف من ثقافة لأخرى.

(١٠) تؤكد لدرمارن (Lerderman 1990: 84) على أن وحدات الملاحظة – كالأحداث مثلاً – تتسم بنوع من "الكمال الظاهرى" يجعلها "أنماطاً مناسبة لتضمينها المذكرات الميدانية" ووحدات تحليلية نافعة فى بحثها الإثنوجرافى. فبإمكان المرء أن يكتب عن حدث ما فى المذكرات الميدانية فى صورة واقعة أو حلقة موجزة أو يتوسع فى وصفها فيكتبها فى صورة حكاية.

(١١) يعرف جونستون (Johnstone 1990: 18) القصة Story بأنها "سرد Narrative (أى أنها تحكى تتابعاً للأحداث) له هدف (أى أن هناك سبباً لحكايتها يتجاوز أى حاجة لتسجيل الأحداث ولا يقتصر عليها". بجانب ذلك، تختلف طريقة رواة القصص فى تركيب حكاياتهم لتوصيل الأفكار من تراث للحكى إلى تراث آخر. وترى ريسمان (Riesman 1987 179-88) أن اضطراد رواية أحداث القصة يتسم بسمة ثقافية تختلف باختلاف الثقافات. شاهد ذلك، أنها وجدت أن امرأة من بورتوريكو حكت لها قصة شخصية عن المشكلات الزوجية عن طريق إخبارها بالمواقف المتكررة الحدوث داخل العائلة وليس عن طريق رواية التطور المتتابع للضغوط الشخصية التى تعانيها مع زوجها. ويشير جونستون (١٩٩٠) وستال Stahl (١٩٨٩) إلى أن الأفراد الذين يروون خبراتهم الشخصية يعتمدون على تقاليد السرد المألوفة للسامعين فى مجتمعهم. فمسألة: ما الذى يصنع قصة جيدة، وكيف تروى، وكيف تفسر، تختلف من مجتمع لآخر. لذلك يتعين على الباحث الإثنوجرافى أن يحذر القيام بتشكيل الأحداث لتتفق مع فهمه الشخصى للقصة الجيدة.

(١٢) ومع ذلك، تختلف تقاليد السرد وأنماطه من ثقافة لأخرى، كما يتوجب على الباحث الإثنوجرافى أن يكون واعياً بهذه التقاليد كى يتجنب المغالاة فى فرض فهمه الشخصى لبنية السرد وحركته على ما يصدر من الآخر من أقوال وأفعال. فلا ينبغى له أن يتخيل روابط حيث لا وجود لأى رابطة، أو يلمح إلى وجود تطور متعاقب للأحداث يسير فى اتجاه الوصول إلى نتيجة ما حين لا يكون مثل هذا التحرك مقصوداً. مثال ذلك، أن البطل – فى حكايات البطولة الغربية – يشرع فى القيام برحلة، ويكابد اختراق الصعاب، ويقهر "الغول"(*) ويعثر على الكأس المقدسة. فهذه القصة قصة نجاح وانتصار شخصى. وخلافاً لذلك، يكون التركيز، فى كثير من الثقافات، تركيزاً يسيراً على النجاح الفردى والتطور الشخصى، ويكون التركيز شديداً على الطريقة التى بها تتكشف العلاقات بين الناس وتصل إلى نتائجها المؤثرة على مجتمعهم أو

(*) فى الأصل الوحش Monster وما أثبتناه أكثر تعبيراً عن مقصد النص الأصلى. (المترجم)

أسرتهم الممتدة. ففى أمثال تلك التقاليد السردية يزداد اهتمام السامعين بالطريقة التى تمارس بها شخصيات الرواية علاقاتها مع بعضهم البعض وبما إذا كانوا يتعاملون مع أقاربهم وأصدقائهم بأسلوب لائق أم لا. لذلك ينبغى على من يروى قصة عن شخص ذى سلطة وفتى يافع فى موقف تربوى أن يهتم بما تحدثه تصرفات هذا الطالب من نتائج تؤثر على عائلته، وباحترام الطالب للسلطة، وبرأى هذا المربى فى أقارب الطالب. فإن فكر الإثنوجرافى فى حبكة روائية تقوم على مفهوم الانتصار الشخصى عند كتابته لمذكرات ميدانية خاصة بأحد الثقافات غير الغربية، فربما أساء تفسير السرد وشوه صورة ما كان الناس يقصدونه تشويهًا بالغًا. لذلك ينبغى على الإثنوجرافى، عند قيامه بالكتابة التفصيلية للقصص التى يحكيها أحد أعضاء المجتمع عن الأحداث المحلية، ينبغى عليه أن يلتزم التزامًا دقيقًا بالتتابع الوارد فى كلام هذا الراوى وأن يعتنى بتسجيل الروابط التى يقيمها الراوى بين الأحداث. وكثيرًا ما يسجل الإثنوجرافيون، على أشرطة التسجيل الصوتى، الروايات التاريخية، والأساطير، والحكايات الشعبية، والحكايات الخرافية ليدعموها بالوثائق على نحو واضح.

(١٣) لاريب أنه، حتى فى حالة شروع الباحث الإثنوجرافى فى كتابة إحدى الحكايات، فإن تصوره لبنية الحكاية يميل للتغير: فالذى يبدو له فيما كتبه فى الميدان من مذكرات سريعة وكأنه مجموعة من الأحداث التى لا رابط بينها، قد يؤول أمره إلى أن يراه أحداثًا مترابطة عند الكتابة عنها. أو قد يحدث أثناء انهماكه فى كتابة حكايته أن يجد فى ذهنه - فجأة - ومضة من رؤية ثاقبة فيرى طريقة أخرى لرؤية الأحداث، وقد تغير الطريقة التى يتبعها فى صياغة حكايته وفقًا لهذه الرؤية.

(١٤) إن النهاية الحالية لهذه الحكاية الشرطية إنما هى نتيجة لقراراتنا فيما يتعلق بتحرير الكتاب، كما أنها تعكس بحثنا عن حكاية ذات بنية مفككة، وتكون أيضًا قصيرة إلى حد ما. ولو أننا كنا قد وضعنا هذا القطع أو هذه النهاية عند لحظة سابقة أو توقفنا عند لحظة لاحقة، لكان من المحتمل أن يتغير فهم القراء لخط القصة. أو لو أننا كنا قد زدنا فى اختصارها، بأن بدأنا بعملية الوقوف عند محل "من ٧-١١" وانتهينا بعملية التوقف الثانية، لبدت القصة أكثر تماسكًا، ولبدت قصة العمل اليومى للشرطة والذى تتخلله لحظات الإثارة، أكثر وضوحًا.

(١٥) انظر الفصل السادس للوقوف على مناقشة المذكرات ذات الصلة بالترميز أو التكويد والتحليل عندما تحول الانتباه من العمل الميدانى إلى كتابة نص إثنوجرافى مكتمل.

(١٦) أوصى شاتزمان وستراوس (Schatzman and Strauss 1973: 99-101) بوضع علامات على كل قطعة من قطع المذكرات الميدانية باستعمال عنوان مبدئى يكتب فى أول كل قطعة، فإما أن يكتب عليها "مذكرات عن الملاحظات" أو "مذكرات تأملية" أو "مذكرات منهجية". ويرى كثير من الباحثين الميدانيين أن هذا الإجراء مفيد فى تمييز كل نقلة أو تحول فى بؤرة الكتابة وفى غايتها. ونحن نتحاشى - بصفة عامة - استعمال هذه العلامات أو العناوين، لأننا نرى أن هذه التمييزات لا تنطوى فقط على مشكلات نظرية، بل تزيد على ذلك أنه يصعب تطبيقها - عمليًا - على كثير من الحالات.

(١٧) يؤول أمر بعض الإثنوجرافيين إلى أن يحكموا على ما كتبوه من مذكرات ميدانية بأنها بديل ردئ لخبراتهم وملاحظاتهم الفعلية فى الميدان. فجاكسون (Jackson 1990a: 19) مثلاً يورد تعليقًا قاله له أحد الإثنوجرافيين، وهو: "لقد أصابنى الإحباط لأن المذكرات الميدانية لم تكن ذات جمال ساحر كما

كانت صورتها فى ذاكرتى... إذ تختزن ذاكرتى قدراً كبيراً من الملامح البصرية، بينما كانت المذكرات الميدانية أقرب إلى أن تكون نوعًا من النقل المحض". ورغم أن المذكرات الميدانية قد لا تستطيع الإمساك الكامل أبداً بالخبرة التى عاشها الباحث فى الميدان، إلا أن تحسين الباحث لمهارات الكتابة سوف يمزج المذكرات بشئ من هذا "الجمال الساحر" على أقل تقدير. ونحن نرى أن الفجوات الواسعة بين الذاكرة والمذكرة الميدانية تمثل دليلاً على قصور فى الاهتمام بالكتابة.

* * *

الفصل الخامس: تتبع المعانى التى يقصدها المبحوثون

(١) لا تذهب كثير من الدراسات إلى الادعاء مباشرة بأن معتقدات وأفكار جماعة ما باطلة، بل تقلل بطريقة غير مباشرة من شأن هذه المعتقدات والأفكار بوصفها بأنها ذات منفعة ذاتية. ويقدم برجر Berger (١٩٨١) مفهوم "العمل الإيديولوجى" كأسلوب بديل لمعالجة هذه القضايا. فهو يرى أن كثيراً من التحليلات السوسيولوجية "تأخذ على عاتقها مهمة "كشف" المصالح "الحقيقة" التى تخدمها هذه الأفكار، أو "إماطة اللثام" عن أو فضح الأفكار عن طريق إظهار التناقضات بين ما تصرح به فى الظاهر والسلوك اليومى لمن يؤمنون بها" (Berger 1981· 19-20). أما الباحث الإثنوجرافى فله مهمة مختلفة: "وهى ألا يكشف الاختلافات أو التناقضات بين السلوك والموعظة" (١٩٨١: ١١٤) بل يدقق النظر فى، ويدعم بالوثائق، تلك الطرق التى يحل بها الأفراد أيًا من هذه الاختلافات ويوفقون بينها. مثال ذلك، أن برجر، وبدلاً من أن "يميط اللثام" عن استعمال الهيبيز الريفيين للمناشير الكهربية باعتباره تناقضاً مع ما يصرحون به من احتقار "للتكنولوجيا" الحديثة؛ بدلاً من ذلك، يقوم بدراسة دقيقة وبعيدة عن التهكم للكيفية التى وصل بها هؤلاء الهيبيز إلى اعتبار المنشار الكهربائى "أداة" منفصلة عن "التكنولوجيا" (برجر، ص١١٦). فهذه الأنواع التى تظهر فيها الأفعال القائمة على التأويل، "والتى تهدف إلى سد الثغرات، وتلطيف حدة صور التنافر، ورأب الصدع (التى قد تكون مؤقتة فحسب) من أجل تحقيق قدر من التناغم والتماسك المنطقى بين الممارسة والاعتقاد؛ إن هذه الأفعال إنما تمثل "العمل الإيديولوجى النافع"(Berger 1981: 114).

(٢) إن مناقشة جوردان (Jordan 1993: 41-61) لتقاليد لبس الأقنعة أثناء إجراء طقوس الختان (موكاندا Mukanda) فى إقليم شمال غرب زامبيا لتبين لنا أن الاختلاف سمة تميز هذه الطقوس، كما وجد أن الابتكار فى النقوش المرسومة على الأقنعة يمكن أن يكون وسيلة يتعامل الناس بها مع الحقائق أو الوقائع السياسية بالإقليم.

(٣) إن تحليل هنت Hunt (١٩٨٥) لاستعمال الشرطة للقوة ليوضح لنا مدخلاً بديلاً ذا نزعة واقعية فائقة يسعى لتحديد: ما هى أنواع القوة التى يعترف رجال الشرطة أنفسهم بأنها مفرطة أو "وحشية" وما هى الأنواع المشروعة أو "العادية". وتحجم هنت عن إصدار أحكامها الشخصية لكى تكتشف كيف وأين يطبق ضباط شرطة معينون هذه الفروق أو التمييزات على الحالات الخاصة لاستعمال القوة.

(٤) ذهب بن عاموس Ben-Amos (١٩٨٢) بالذات إلى أن الدراسة المتعمقة للتصنيفات الموجود فى لغة أبناء البلاد الأصليين تعرضت للتعويق بسبب "التعارض" بين الأنظمة الإثنية والأنظمة التحليلية، كما يؤيد الرأى القائل بأن الباحثين يوثقون ويشرحون المصطلحات والمقولات التى يستعملها الأفراد المبحوثون. ومع ذلك، فإن العلماء المشتغلين بدراسة المأثورات الشفاهية لا يزالون مصرين على ما للمقولات التحليلية من قيمة عند عقد المقارنات. فيلح أوكبيهو Okpewho (١٩٩٢) على الاستمرار فى استعمال المقولات التحليلية لتعزيز البحث المقارن، حتى بالرغم من أنه يوصى باستخدام المصطلحات الشائعة لدى السكان المحليين فى المقولات السردية. وفى مقدمة كتبها أورنج Oring (١٩٨٦) لموضوع عن "أساليب السرد الشعبى" يبين السمات التحليلية التى يشيع الربط بينها وبين "الخرافة" و"الأسطورة" و"الحكاية الشعبية".

(٥) قد يُصدم الإثنوجرافيون كذلك بعدم تلقى أى إجابة، عندما يبدون جاهلين جهلاً يرثى له بالأمور التى يسألون عنها. وهذا دياموند Diamond (١٩٨٩) يروى القصة التى ذكرها أحد مشاهير علماء الإثنوبيولوجيا (أى "البيولوجيا الإثنية أو علم الأحياء الإثنى – المترجم) الذى أمضى سنوات مع شعب الكالام Kalam People الذى يعيش بمرتفعات غينيا الجديدة، حيث كان يعمل بمساعدة إخباريين محليين لتمييز الأسماء الشعبية التى يطلقها الناس على ١٤٠٠ نوع من الحيوانات والنباتات. إلى أن حدث فى وقت ما أن سأل عن الصخور، فأصر إخباريوه من شعب الكالام على أن لديهم كلمة واحدة فقط تغطى مسميات كل الصخور. وبعد ذلك بسنة عاد بصحبة صديق له من علماء الجيولوجيا فسأله نفس السؤال، فرجع فى غضون ساعة واحدة ومعه قائمة طويلة بأسماء الصخور فى لغة شعب الكالام. واجه عالم الإثنوبيولوجيا إخبارييه المحليين بهذه الواقعة غاضبًا، وطالب بأن يعرف لماذا كذبوا عليه إذ لم يذكروا له أسماء مختلف أصناف الصخور. فأجابوا قائلين: "عندما سألتنا عن الطيور والنباتات، أدركنا أنك تعرف قدراً كبيراً من المعلومات عنها، وأن بإمكانك أن تفهم ما نخبرك به. ولكن عندما بدأت تسألنا عن الصخور، كان من الواضح أنك لا تعرف أى شئ عنها. فلماذا يتعين علينا أن نضيع وقتنا لنخبرك بشئ من المحتمل أنك لا تستطيع فهمه؟ أما صديقك فقد أظهرت أسئلته أنه لديه فعلاً معلومات عن الصخور" (Diamond 1989: 30). ويستنتج دياموند من ذلك أن على عالم الإثنولوجيا "أن يعرف معظم" ما يعرفه المبحوثون لكى يستخرج ما لديهم من مصطلحات محلية ومبادئ تصنيفية.

(٦) سعى علماء الأنثروبولوجيا المعرفية بالذات (ومنهم مثلاً: فريك Frake ١٩٦٤، وسبرادلى Spradley ١٩٧٩؛ وآجار Agar ١٩٨٢) سعى هؤلاء العلماء بالذات لتوفير تقنيات لاجتناب فرض المقولات أو التصنيفات الخارجية، وذلك عن طريق "اكتشاف" أسئلة مناسبة وهادفة تستخرج من داخل نفس الثقافة الأخرى.

(٧) تحتوى الدراسة الإثنوجرافية الكلاسيكية التى أعدها فريك بعنوان: "كيف تدخل منزلاً فى ياكان" (Frake: How to Enter a Yakan House 1975) على تحليل مفصل عن الأساليب المحلية للمرور بالآخرين وبإلقاء التحية عليهم فى مجتمع ياكان.

(٨) لاريب أن بذل الانتباه الشديد للأسئلة العادية والأجوبة المناسبة لها تساعد الباحث الميدانى – كذلك – على أن يتعلم كيف يشارك فى الحوارات بطريقة طبيعية، ومن ثم تمثل جزءًا أساسيًا من عملية إعادة التنشئة الاجتماعية التى ينطوى عليها العمل الميدانى.

(٩) فى نفس هذا الاتجاه انظر ما قدمه سدناو (Sudnow 1967: 36-42) من ملاحظات دقيقة للفروق النمطية فى طريقة الأطباء المعينين حديثًا عندما يتكلمون عن حالات الوفاة باعتبارها وقائع "واردة".

(١٠) يروى كثير من الباحثين الميدانيين الآخرين حكايات عن التنشئة الاجتماعية التى تتم من خلال المزاح والضحك (قارن: يوكوم Yocom ١٩٩٠).

(١١) فى ظل هذه الظروف يتم تلخيص "ما حدث" بالضرورة، أو يعلق عليه. زد على ذلك أن "ما حدث" سيقدم بوصفه ذا أهمية خاصة أو ذا دلالة خاصة عند هؤلاء الأشخاص الذين يُروى لهم وحدهم هذا الحدث. وفى هذه المجالات تتضمن رواية هذا العضو "صياغة" متميزة لهذا الحدث (Garfinkel and Sacks 1970). كما أن بالإمكان أن يصاغ أى حدث بعدد من الأساليب المختلفة، وذلك وفقًا لطبيعة اهتمامات ومصالح هذا الفرد.

(١٢) فى هذه الدراسة الميدانية الكلاسيكية يتعمق سيكوريل Cicourel (١٩٦٨) فى إيضاح كيف يقوم رجال الشرطة وضباط المراقبة (وهم الذين يراقبون سلوك المذنبين الذين علقت عقوبتهم وأطلق سراحهم على سبيل التجربة – المترجم) كيف يقومون بقراءة وتفسير التسجيلات المكتوبة المختلفة، والناجمة عن قضايا جناح الأحداث بما فيها تقارير إلقاء القبض على الجانحين، والتحقيقات التى أجراها ضباط المراقبة، والتقارير المدرسية. كما يؤكد على أهمية الاعتبارات العملية والاستراتيجية الجلية التى تشكل طريقة رجال الشرطة وضباط المراقبة فى تحويل حواراتهم مع الشباب الجانحين إلى تقارير مكتوبة فى المقام الأول (انظر بصفة خاصة قضية أودرى Audry، ص ص ١٣٠-١٦٦).

(١٣) إن أنواع الأجوبة التى يقدمها الأفراد ردًا على تساؤلات الباحث تتشكل تبعًا لأنواع الأسئلة الموجهة إليهم، كما تتشكل تبعًا للظروف المحيطة بالمقابلة. ويشرح سبرادلى (Spradley 1979. 85-91) كيفية طرح "أسئلة وصفية" تؤدى إلى أجوبة لها معناها. ويناقش بريجز Briggs (١٩٨٦) الطرق التى بها يتسبب الوضع الاجتماعى واللغة التى يستعملها الباحث فى تقرير أنواع الاستجابات التى يبديها الشخص الذى تتم مقابلته (أى المبحوث).

(١٤) يناقش جونستون Johnstone (١٩٩٠) الطريقة التى بها يشكل الناس صورة خبرتهم ويعطون لها معنى من خلال روايتهم للحكايات، وذلك بالاعتماد – فى كلا هذين الأمرين – على تقاليد الجماعة فى السرد وفى التعبير عن نفسها بأسلوبها المتفرد الخاص بها. ويشير ستال Stahl (١٩٨٩) إلى أنه كثيراً ما يقوم رواة القصص بتكييف خبراتهم حتى تتناسب مع قيم المجتمع وأفكاره المتعلقة بالقصة. لذلك يتوجب على الباحث، عند تفسيره للحكايات، أن يخمن القيم الضمنية لمن يرويها.

(١٥) لاريب أن هذه القصة قد حُكيت كذلك لهذا الباحث، كما أنه من المفترض أنه تم تكييفها لتلائم اهتماماته ومصالحه، ولتلائم علاقته براويها. ويترتب على ذلك أن الإثنوجرافى لا يصح له أن يقتصر على حكاية "هذه القصة" فى مذكراته الميدانية، بل عليه كذلك أن يقدم وصفًا تفصيليًا للسياق الذى تم فيه سرد القصة: ما هى الأسئلة أو التعليقات التى جرت أثناء الحوار وتسببت فى رواية القصة، وأين جرى سرد القصة (فى جو خاص أم جرى سردها كجزء من أنشطة أخرى)، ومن كان يستمع إلى سردها غير الباحث.

(١٦) يلاحظ ميلز Mills (١٩٩٠) أن المتخصصين فى دراسة الفولكلور، ومع تأكيدهم على أهمية التعاملات المباشرة وجهًا لوجه أثناء التعبير الشفهى، فإنهم قاموا فى وقت ما بدراسة الأصوات المتعددة والرؤى الفكرية المختلفة التى عبر عنها الرواة فى أثناء الأداء، وسجلوها فى مدوناتهم المفصلة. ولأن كثيراً من المتخصصين فى السرد الشفهى (For Example, Bauman 1992a, 1992b: Briggs 1988. Georges 1981) ينظرون إلى أشكال الأداء الشفهى للحكايات باعتبارها أمراً يتولد بشكل متجدد وفذ، فإنهم يقومون بإجراء تحليل مفصل لديناميات كل شكل من أشكال الأداء هذه. فنجدهم يتفحصون الطريقة التى بها يصوغ الرواة أساليبهم وأفكارهم الرئيسية التى يتكرر ذكرها فى الحكاية ليحدثوا توافقًا بين جمهور المستمعين، والوضع القائم، والظروف الخاصة. وعن طريق توثيق عدد من الروايات المختلفة "لنفس" الحكاية الشفهية، يبين هؤلاء الدارسون أنه كثيراً ما يبتدع رواة الحكايات رواياتهم لتعبر عن أرائهم فيما يتعلق بموضوع ما. يشهد لذلك، أن كوزنتينو Cosentino (١٩٨٢) فى دراسته عن قص الحكايات المسمى مندى Mende فى سيراليون، يقدم الوثائق الصوتية التى تسجل جدال نساء ثلاثة مع بعضهن من خلال ما يقدمنه من صور متباينة لإحدى الحكايات الشعبية: إذ أن فى كل قصة تفاصيل مختلفة بصورة متميزة، كما أن لكل قصة نهاياتها المتباينة.

(١٧) تعتمد هذه المناقشة على البحث الذى أجرته راشيل فريتز بين شعب الشوكوى Chokwe فى إقليم باندوندو Bandundu بزائير سنة ١٩٨٢ و١٩٨٣، وفى الإقليم الشمالى الغربى بزامبيا، فى سنتى ١٩٩٢ و١٩٩٣. وهى هنا تطور المناقشة السابقة لهذا المنشور فى فريتز (١٩٨٧).

(١٨) يرى بن عاموس Ben-Amos (١٩٨٢) أنه ينبغى على الباحث، عند دراسته لفئات التعبير المحلية، أن يبين المستويات المعرفية والتعبيرية والسلوكية لهذه الفئات. فهو يشير إلى أنه يحدث أحيانًا أن يحتوى نظام التعبير عند شعب ما على تنويعات تتمثل فى سلوكياته، ولكنها لا يكون لها مصطلحات خاصة تطلق عليها، ولذلك يجب تبيُّنها بوضوح من خلال مشاهدة التصرفات فى أوضاع اجتماعية مختلفة.

(١٩) نستمد كلامنا هنا مباشرة من فكرة مورمان (Moerman 1969: 464) عن "المقابلة أو المقارنة الثقافية الداخلية" "Intracultural Contrast". إذ يلاحظ مورمان أن الحكم الوصفى الذى يبدو فى ظاهره حكمًا بريئًا لا غبار عليه، والقائل بأن "التايلانديين يحدثون ضجة وهم فى معبدهم" يحتوى ضمنًا على مقارنة بين الثقافات Intercultural قائمة على أساس أن "التايلانديين الذين رأيتهم فى المعبد كانوا أكثر ضجيجًا مما يفترض أن يكون عليه الميثوديون وهم فى الكنيسة". أما المقارنة الثقافية الداخلية لسلوك التايلانديين الدينى فإن من شأنها أن تلزم الباحث بمقارنة السلوكيات فى المواقع المختلفة داخل هذا المجتمع، حيث يقابل بين أنماط التنظيم والتعامل الموجودة داخل هذه السلوكيات. وبهذا الشكل، ينبغى على المرء أن يقارن الضجيج (وغيره من جوانب السلوك الاجتماعى) الموجود فى المعابد بالضجيج الموجود فى المواقف أو الأوضاع الأخرى القابلة للمقارنة ببعضها محليًا (كما يحدث فى جلسات فض المنازعات، وفى الاجتماعات القروية عندهم، وفى الحوارات العفوية بينهم).

(٢٠) فى هذا المثل، فإن ما يعد تفسيراً "رسميًا" مقنعًا يتغير بتغيير المتحدثين بتلك اللغة، إلا أن كلاً من التفسيرين لا يقدم وصفًا كاملاً لما يفعله الناس إزاء حالات الإصابة بالأمراض الراجعة إلى مرض الإيدز أو إلى تأثير السحر. ويحتاج الإثنوجرافى لإدراك أنه كثيراً ما تكون التفسيرات مجرد مؤشرات تدل على

الطريقة التى يرى الناس بها الأحداث فى أى لحظة أو طريقتهم فى تمنيهم لما يحبون أن تكون عليه هذه الأحداث. وبذلك فإن التفسيرات لا تكوّن الخبرة أو الواقع. ويرى جاكسون (١٩٨٢: ٣٠-٣١) فى دراسته لشعب الكورانكو بغرب أفريقيا أن الناس فى أوقات الأزمات يقدمون تفسيرات لفظية ورسمية ليعززوا بها صحة إحدى الدعاوى، إلا أنه من النادر أن تتوافق الخبرة اليومية لهؤلاء الناس مع أمثال تلك التفسيرات. فالتفسيرات والتصرفات تشكلان نمطين مختلفين من أنماط الخبرة.

(٢١) إذن، ينبغى أن لا ينظر إلى التصنيفات على أن الذى يحددها هو الصفات الخاصة بالأشياء المصنفة (أى بوصفها "محكومة بهذه الصفات")، ولكن باعتبار أن الذى يحكمها هو "الأغراض العملية المتاحة" للفاعلين (Schutz 1964). وهذا المثل يوجه الانتباه فينقله من النظر إلى التصنيفات المعرفية الموجودة فى داخل أذهان الفاعلين إلى التعاملات الفعلية و"الأغراض العملية المتاحة" التى يسعى الفاعلون إلى تحقيقها؛ فالصفات تأخذ مظهر السمة البارزة أو الأمر المهم اجتماعيًا فى مواجهة هذه الأغراض المتبدلة والطارئة. وإن من شأن هذه الأغراض المتاحة أن تختلف اختلافًا بالغًا من لحظة للحظة، ومن موقف لموقف، كلما طرأت، وتطورت وتغيرت أغراض الفاعلين.

(٢٢) إن الباحثين فى حقل "إثنوجرافيا الكلام" The Ethnography of Speaking، والقائم على تضافر عدد من التخصصات، يستهدفون الوصول إلى تسجيل وتوصيف تفصيليين لمختلف أنواع التعبير داخل مجتمع ما. ويلاحظ شرزر Scherzer (١٩٨٣ و١٩٩٢) أن مثل هذه الدراسات لا تقتصر على التعمق فى فحص نطاق التعبيرات، بل تفحص كذلك الوظائف التى تقوم بها تلك التعبيرات داخل المجتمع.

(٢٣) إن الوصف الوارد فى هذه المذكرة الميدانية يجعل رؤية إلين Ellen لهذه الأحداث رؤية مبهمة، حيث تقتصر على مجرد القول أنها "استمعت إليها حتى انتهت من كلامها"، وبدون أن تذكر ما قالته خصوصًا فى دفاعها عن نفسها. وإن من شأن ما هو مذكور فى هذه الملحوظة من زعم إلين بأنها لم تكن تدرك أن المؤلفة كانت تساعد هذه الزوجة؛ من شأن ذلك أن يوحى بأنها تعترف بأنها قامت بعملية البيع المذكورة لهذا الزوج على سبيل الخطأ، وهو شاهد قد يوحى بأن هذا البيع لم يكن نوعًا من "المراوغة"، لأنها لم تقم بعملية البيع هذه "عمدًا". ومن الممكن كذلك أنها كانت تصر على أنها مارست هذا البيع بصورة مشروعة، وأن هذا الزبون كان فى الواقع يستحق الصفقة، لأنه كان يقوم بعملية الشراء مستقلاً عن زوجته أو بسبب ما يحيط عملية شراء هدية غير متوقعة من طوارئ محتملة.

(٢٤) فى هذه الحالة، من الراجح أن وجود باحثة إثنوجرافية أنثى فى سرادق الزعيم أساسًا شجع إحدى النساء على الحكى؛ ولعل من المؤكد أنها تلقت تأنيبًا على عملها ذلك فى وقت لاحق؛ وعلى أية حال، فإنه لم تحك امرأة حكاية فى هذا المكان مرة ثانية. وكثيرًا ما يكون وجود الباحث أو الباحثة منظورًا إليه من زاوية نوعه الاجتماعى (أى بوصفه رجلاً أو امرأة) فى مجتمع البحث، كثيرًا ما يكون أمرًا هامًا، وذلك بالرغم من أن هذه الأهمية تكون - فى أحيان كثيرة - خفية على الإدراك لدرجة أنه لا يمكن تبينها إلا بعد دراسة دقيقة وتستغرق مدة طويلة. بالنسبة لتأثير النوع الاجتماعى للباحث أو الباحثة على البحث الميدانى، انظر: كاميتا Camitta (١٩٩٠) ودى فولت Devault (١٩٩٠)، وجولد Golde (١٩٧٠)، ولولس Lawless (١٩٩٣)، وميلز (١٩٩٠)، ورواينهارز (١٩٩٢)، وثورن Thorne (1993)، ووارن Warren (١٩٨٨).

(٢٥) إن دراسة وايزمان Wiseman (١٩٧٠) لطريقة مدمنى الخمر فى بدأ السير فى طريق إعادة التأهيل فى الشارع الذى يأوى إليه العاطلون والسكارى والمشردون فى ستينيات القرن العشرين؛ هذه الدراسة تستعمل هذا الأسلوب فحسب للتعمق فى دراسة الطريقة التى بها تقوم "بعض المنظمات الخيرية الداعمة" المختلفة بإجراء الاتصال المباشر مع فئة من الناس شبيهة بالمشردين وتدفعهم إلى الأمام لتحسين أوضاعهم.

(٢٦) ومع ذلك، فإنه ينبغى الإكثار من نصح الباحثين الميدانيين بإجراء المقابلات مع الأفراد وخصوصًا فيما يتصل بالتعاملات والمناسبات التى لاحظوها: فإن مثل هذه المقابلات لا تقتصر فائدتها على تزويد الباحث أحيانًا بخلفية نقدية، بل تزوده كذلك بمجموعة من الرؤى والأفكار الشخصية عن هذه الأحداث.

* * *

الفصل السادس: معالجة المذكرات الميدانية: التصنيف والتعليقات

(١) قدم جلاسر Glaser وستراوس Straus (١٩٦٧) العرض الأول للمدخل القائم على النظرية الموثّقة. وبعد ذلك قام شاتزمان وستراوس (١٩٧٣)، وجلاسر (١٩٧٨)، وتشارماز Charmaz (١٩٨٨)، وستراوس (١٩٨٧) بتطوير هذا المدخل، سالكين مسالك مختلفة إلى حد ما فى استخدام لب مفهوم النظرية (الموثّقة) فى الترميز وكتابة المذكرات، قاصدين من وراء ذلك تطوير مقولات تحليلية تكون مستمدة من البيانات الكيفية. ومن الناحية الواقعية، فإن القدر الأكبر من البحث الميدانى الذى استخدم مناهج النظرية الموثّقة قد انصب على دراسة موضوع العلاج وخبرة المرض. انظر بصفة خاصة جلاسر وستراوس (١٩٦٥)، وبيرناكى Biernaci (١٩٨٦)، وكوربن Corbin وستراوس (١٩٨٨)، وشارماز (١٩٩١).

(٢) لاريب أن البحث الكمى يحتوى على أنواع مشابهة من عمليات بلورة المقولات وتنقيحها، وكما هو معهود فى المرحلة السابقة على الاختبار، إلا أنه لم يطلق عليها مصطلح "الترميز" "أو التكويد".

(٣) إن برمجيات الحاسوب (أو السوفت وير) المصممة خصيصًا لمعالجة البيانات الوصفية توفر للباحثين الميدانيين تشكيلة منوعة من أساليب ومداخل الترميز والتحليل (فافنبرجر Pfaffenberger (١٩٨٨)، تيش Tesch (١٩٩٠) ؛ ريتشاردز وريتشاردز (١٩٩٤)) ومازالت هذه البرامج تعتبر اليوم أكثر كفاءة فى معالجة الكميات الضخمة من البيانات الميدانية من خلال "عملية قائمة على الترميز والاسترجاع". وفى هذه الحالة يقوم الباحث الميدانى بوضع عناوين "لفقرات البيانات تبعًا للموضوع الذى تتعلق به أو تبعًا لأى مضمون أو محتوى آخر له أهميته فيها (أى: الترميز أو الفهرسة)". وحينئذ يعتمد الباحث على هذا البرنامج ليجمع له الفقرات المعنونة بنفس الطريقة المذكورة (أى يقوم بالاسترجاع) (Richards and Richards 1994: 446) ويذهب ريتشاردز وريتشاردز (١٩٩٤: ٤٤٧-٤٤٩) إلى أن بإمكان البرمجيات الموجودة حاليًا أن تحسن من صياغة بنية النظرية، ولكن هذا لا يتم - فى وقتنا الحالى - إلا من خلال العديد من "العمليات القائمة على مستوى النص". ومازالت هذه البرامج تفتقر حاليًا "العمليات على المستوى النظرى"، وهى اللازمة لتطوير النظريات وتوسيع نطاقها واختبارها. وسواء أقر الباحث الإثنوجرافى، أم لم يقرر،

استعمال برنامج حاسوب (كومبيوترى) لترميز وتصنيف بياناته، فإنه مع ذلك الوحيد الذى يتمثل فى ذهنه هذه المذكرات الميدانية، ويفسرها، ويعيد تشكيلها. ويتوقف مستوى جودة وفائدة ما ينجم عن هذه العملية من تصنيفات رمزية؛ يتوقف دائماً على تفكير الباحث الإثنوجرافى. وفى أية حال، يتعين عليه أن ينهمك فى عمليات القراءة، والتفسير والترميز المتصلة بالملاحظات الميدانية، وفقًا لما شرحناه.

(٤) يقوم التحليل الكيفى للبيانات بعكس اتجاه تسلسل الخطوات أو الإجراءات المستخدمة فى التحليل الكمى: فبدلاً من أن يستعمل الباحث الفئات المعتمدة والمستقرة فى عملية تصنيف ثم تحليل البيانات، نجده يبدأ بتحليل البيانات باستعمال الترميز المبدئى ثم يقوم بتصنيفها بعد ذلك. وعلى ذلك يكون التصنيف Sorting، فى حالة القيام بالتحليل الكيفى للبيانات، تابعًا لتطوير وتنقيح ما تم من تحليلات. فالتصنيف أقرب إلى أن يكون منتجًا ثانويًا لعملية الترميز منه إلى أن يكون غاية لتلك العملية.

(٥) يقدم ريتشاردز وريتشاردز (١٩٩٤) موجزًا ممتازًا لعدد من البرمجيات الحالية القائمة على أساس: "رمِّز واسترجع" "Code-and-Retrieve". ومع ذلك، فإن الدارسين الذين يتعاملون مع مقادير أقل من البيانات قد يجدون أنه من الأسهل عليهم الاقتصار على إنشاء ملفات جديدة مستخدمين فى ذلك البرنامج العادى، ثم يقومون بنسخ الأوامر أو الوظائف الخاصة بالبرنامج الذى يستعملونه فى معالجة الكلمات.

(٦) انظر بلوم Blum (١٩٩١) فيما يتصل بالتحليلات الكاملة لهذه القضايا ولغيرها من القضايا الأخرى.

(٧) معنى هذا أن لديك مثلاً واحداً أو حالة واحدة فقط فى بياناتك لا توجد فى كثير من الدعاوى التحليلية التى يمكنك استخراجها من هذا المثل أو الحالة. فالأمر المهم هو ما لهذا المثل أو الحالة من صلة بموضوع الدعاوى أو أهمية فى ذاته. فقد تكشف واقعة نادرة وحيدة – غير مألوفة – عمليات حاسمة تجرى داخل مجتمع معين ولكنها من النادر رصدها (هاربر Harper ١٩٩٢)، أو تعكس قضايا من النادر أن تصعد على سطح الحياة اليومية إلا أن لها شأنًا كبيرًا عند أفراد المجتمع. وبالمثل، فإن المؤيدين للنهج السوسيولوجى المعروف باسم "الاستقراء التحليلى" يصرون على أن العثور على حالة سلبية وحيدة تتعارض مع التفسير النظرى الذى طوره الباحث يتطلب منه إما أن يعدل هذا التفسير أو يغير الظاهرة المراد تفسيرها (كاتز ١٩٨٨). وبهذه الطريقة تزداد النظرية إحكامًا ودقة عندما يتطلع الباحث للعثور على مثل هذه الحالة السلبية وعندما يدمجها فى تحليله.

* * *

الفصل السابع : كتابة تقرير البحث الميدانى

(١) ومع هذا، فإن ريتشاردسون (١٩٩٠) يناقش فعلاً موضوع الكتابة الإثنوجرافية للجمهور العام فى صورة كتب تجارية واسعة الانتشار، أو المجلات ذات الرواج الجماهيرى.

(٢) يعتمد مفهومنا للسرد الموضوعى فى علم الإثنوجرافيا اعتماداً كبيراً على ما قدمه أتكنسون (Atkinson 1990: 126-28) من مناقشة "للسرد المتجزئ (أو المتناثر)" "Fragmented Narrations" بوصفه أكثر أشكال "الإثنوجرافيا التقليدية" شيوعًا. وتتصف القصص المتجزئة بأنها غير خطية.

(أى ليست ذات خط تتصاعد وفقه الأحداث نحو ذروة ما يعقبها وصول الأحداث إلى نهايتها - المترجم)، وأنها تعيد ترتيب الأحداث اليومية وتعيد عرضها فى "علاقات نموذجية ليست محدودة بزمن معين" (١٩٩٠: ١٢٦). ويعقد أتكنسون مقارنة بين أمثال تلك القصص المتجزئة والقصص الأقدم منها "المبنية على التعاقب الزمنى للأحداث" التى تقدم عرضاً تاريخياً مسهباً للأحداث (١٩٩٠:١٢٦).

(٣) تتجاوب أكثر توصياتنا المتعلقة بكتابة التقارير الإثنوجرافية النهائية مع، وتعتمد على، الأفكار والنصائح التى طورها بيكر Becker (١٩٨٦) فيما يتعلق بكتابة التقارير العلمية فى العلم الاجتماعى بصفة عامة. والواقع، أننا نشدد فى توصية جميع الباحثين الميدانيين الذين يبلغون مرحلة كتابة التقارير البحثية الإثنوجرافية النهائية أن يراجعوا كتاب "بيكر" بأنفسهم منذ شروعهم القيام بمشروعهم.

(٤) وهكذا، فإنه فى مجال الدليل المنطقى، يتم تقرير "الفرضية" بصورة واضحة فى البداية، ثم تقوم النقاط التالية ببسط تلك الفرضية تدريجياً، وبعد ذلك يقوم البرهان بإيضاح وتعزيز هذه النقاط. ويشير ريتشاردسون (Richardson 1990 13) إلى الطريقة التى بها تعتمد أمثال تلك الأدلة على "الرموز المنطقية العلمية" للتحليل والتفسير التى تتناقض تناقضاً حاداً مع الأشكال السردية المستخدمة فى معظم الأبحاث الإثنوجرافية. ومن الناحية العملية، فإن الالتزامات المحلية والواقعية للبحث الإثنوجرافى إنما تحول بينه وبين الوصول إلى الصيغ الأسلوبية الراقية للبرهنة التحليلية التى قد توجد فى مجالات أخرى من مجالات العلم الاجتماعى. انظر كذلك مناقشة ريتشاردسون (١٩٩٤: ٥٢٠) لطائفة من "تصميمات الكتابة" المناسبة للأبحاث الإثنوجرافية.

(٥) يوحى كل موضوع من هذه الموضوعات بوجود اهتمام فكرى له صلة بتراث مجال علمى متخصص. والواقع أن كل موضوع من هذه الموضوعات ربما تمت صياغته بسبب اطلاع كاتبه على مثل هذا التراث العلمى الراقى. مثال ذلك، أن الموضوع المعنون: "الإثنية كتصور اجتماعى فى المدرسة الثانوية" يعبر عن اهتمام بالتعمق فى دراسة أوجه الاختلاف الإثنية التى يعترف بها طلبة المدرسة الثانوية ويتصرفون وفقاً لها. وبالمثل، يقوم الموضوع المعنون "تدخل الوالدين فى جلسات الاستماع الخاصة بالأحداث" يقوم بمعالجة وإثارة القضايا المتصلة بالعوامل التى تؤثر على النتائج النهائية للدعاوى القضائية التى تنظرها محكمة الأحداث. إلا أنه لا يوجد داع للمعالجة النظرية لهذه المسألة فى التراث العلمى لهذا المجال.

(٦) هذا هو بالضبط ما تتضمنه عملية الاستقراء التحليلى، حيث يكون بإمكان المرء أن يعدل إما تصوره النظرى أو يعدل الظاهرة التى يفسرها، أو يعدلهما معاً، وذلك من أجل أن "يصوغ علاقة كاملة بين البيانات والتفسير" (Katz 1988: 130). ومع ذلك، لاحظ أن تعديل الموضوعات الأساسية أو التصورات النظرية حتى تناسب البيانات الواردة فى المذكرة الميدانية قد يجعل الترميز السابق غير مناسب. والواقع أنه كثيراً ما لا تستمر المفاهيم الرمزية المبدئية على حالها طوال مدة الكتابة.

(٧) بالنسبة للأمثلة المعاصرة لتقارير البحوث الإثنوجرافية التى تعتمد على الاستراتيجيات التكاملية، انظر برجر (١٩٨١)، ودياموند (١٩٩٢)، وثورن (١٩٩٣). ويستعمل أندرسون (١٩٩٠)، ودى فولت (١٩٩١)، وإيمرسون (١٩٨٩) الاستراتيجيات القائمة على استخدام المقتبسات بكثرة.

(٨) من الصعب معالجة الوقائع أو الحلقات الطويلة باستعمالها كأجزاء من أسلوب الاقتباسات، حيث أن هذا التصرف يترتب عليه إما أن نستعمل اقتباسات طويلة بشكل مخيف وإما أن نقسمها تقسيماً تعسفياً فنحولها إلى سلسلة مقطّعة من الوحدات الشديدة القصر.

(٩) يذهب بعض النقاد على أن كتابة الأفكار التحليلية باستعمال صيغة "المضارع الإثنوجرافى" يخلق إحساساً زائفًا لدى القارئ بالأحداث المستمرة التى لا تهتم بالتتابع التاريخى. ويستكشف فابيان Fabian (١٩٨٣) هذه القضايا فى دراسته المتعمقة لمفاهيم الزمن والتاريخ التى يقوم عليها البحث الأنثروبولوجى. ونحن نؤكد أن ما تتضمنه الكتابات الإثنوجرافية من اقتباسات وتعليقات ترد فى المذكرات الميدانية تشكل – بصورة واضحة – أساساً لأى مناقشة تجرى فى أوقات أو فى أماكن معينة، أو فى ظروف اجتماعية بالـذات.

(١٠) ومع ذلك، فإن هذا النص المقتبس، من الممكن استعماله على نحو فعال لتصوير الممارسات والمشاغل الروتينية لضابط المراقبة، ويمثل هذا النص تركيزاً مناسباً على ما أبداه هذا الإثنوجرافى من توحد قوى مع الموظفين العاملين فى هذا المكان.

(١١) تم طرح هذه الفكرة فى التحليل الذى أجراه أوكبوهو (Okpewho 1992: 183-203) عن "الأساطير التاريخية". إذ يذهب أوكبوهو إلى أنه عندما يحكى الراوى أحداثًا وقعت فى الماضى القريب، فإنه يقدم رواية بإمكان المستمعين لها – والذين قد يكون بينهم بعض من شهدوا هذه الأحداث – أن يقبلوها على أنها أحداث حقيقية. وبالرغم من ذلك فإن الراوى يستعمل الصور البلاغية المشهورة وتقاليد السرد المتبعة ليحكى هذه الأحداث، ونتيجة لذلك تبدو "الأساطير التاريخية" شبيهة جداً "بالأساطير الخرافية" التى لم يشهد أحد أحداثها.

(١٢) هذه الفكرة كانت قد طرحت – جزئيًا – فى المناقشة التى أجرتها يونج (Young 1988 121-158) عن الروابط بين المشاهد الطبيعية وعملية السرد. حيث تشير إلى أن بعض اللوحات التى عليها رسوم صخور معينة، والموجودة عند شعب الزونى Zuni، لها قصص مرتبطة بها، حيث يقوم الناس بسرد هذه القصص عند مرورهم بهذه الصخور. وفى نوع مماثل من الارتباط، تقوم هذه القصة التاريخية لدى شعب التشوكوى بحث المستمعين على أن ينظروا إلى المشهد الطبيعى بوصفه مرتبطًا بهذه القصة. وفى مرحلة الأحداث الموصوفة هنا، تسبب المستمعون فى هدم ماضى القصة وهدم هذه المرحلة الحاضرة، كما أعادوا تمثيل الدور الخاص بالاقتفاء العكسى لآثار الأقدام (أى فى الاتجاه المعاكس لمسيرها).

(١٣) مع ذلك يستطيع الباحث – فى ظل بعض الظروف – أن يدخل فى النص النهائى للمذكرات الميدانية، وبصورة فعالة، تعليقًا تحليليًا أو غير تحليلى كان سبق له أن كتبه فى المذكرات الميدانية الأصلية. وينبغى على المرء أن يدرج فى مذكراته النهائية مثل هذا التعليق باعتباره اقتباساً مستقلاً، وذلك لكى يعبر بصورة مؤثرة عن الطريقة التى بها تفسح إحدى الرؤى الفكرية الأولية الطريق للوصول إلى فهم أشمل فيما بعد. أو يمكن للباحث الميدانى أن يستعمل تعليقًا ورد فى المذكرة الميدانية الأولية فى إنشاء أو تقديم الموضوع الأساسى لأحد أقسام التقرير النهائى للبحث الإثنوجرافى. مثال ذلك، أن باحثًا من الطلبة يدرس كيف ينتفع العامة بإحدى المكتبات العمومية، بدأ قسماً من بحثه عنوانه "محتويات المكتبة كأقنعة" بهذا الشكل فقال: هذه ملحوظة سجلتها قديماً/ أو فى وقت مبكر وأنا فى مجتمع بحثى: "يوجد أمر يثير دهشتى دائماً، وهو يتصل "بالعوام" الذين يجلسون طول اليوم فى المكتبة العامة بمنطقتنا. وإنى لأتساءل، وأنا أراهم يحدقون فى صفحات الكتب وعلى وجوههم ذلك التعبير الخالى من أى معنى كما هو معهود منهم، عما إذا كانوا يقرأون فعلاً، أم أنهم ينظرون فقط بينما تحلق أفكارهم فى مكان مختلف تماماً وفى زمان مختلف كلية".

(١٤) لاحظ الاقتباس الأصلى الموجز الذى تم تدوينه، والذى قال عنه رئيس تحرير المجلة العلمية أنه "لا يمكن فهمه"، وقارنه بصورته الأخيرة بعد مراجعته والتى آل أمرها إلى الظهور فى المجلة عند طباعتها (Emerson and Pollner 1988. 193) يلاحظ أن المادة المكتوبة بين الأقواس إما أنه تعذر سماعها تماماً أو جزئياً):

النص الأصلى للاقتباس: "إلى أى مدى يتناسب هذا مع مشاعرك هنا عما يبدو ( ) أنها صيغ أخرى. هل وجدت أى أجزاء تظن أنها كانت م.م ( ) قل فقط الطريقة، الطريقة، الطريقة التى تعرف (كنا) نبسطها، بعيداً عن ـــ بعيداً عن الموضوع المطروح للبحث؟ أه".

الاقتباس بعد مراجعته. "إلى أى مدى يتناسب هذا مع مشاعرك؟... هل كانت توجد أى أجزاء تظن أنها كانت: قل مثلاً بنفس الطريقة، الطريقة، الطريقة التى تعرفها، أننا قمنا ببسطها، حتى خرجت عن نطاق موضوع البحث؟"

(١٥) كثيراً ما يورد علماء الفولكلور أسماء رواة القصص الأصليين، راغبين بذلك فى نسبة هذا الإبداع إليهم. وفى البحث القائم على اشتراك عدد من الباحثين، يقوم الباحثون الميدانيون كذلك بكتابة قائمة بأسماء مساعديهم وبأسماء المشاركين فى التأليف. ومع ذلك فإن الناس عندما تصف بعض القضايا الحساسة - كالقضايا الواردة فى حكاية بعض الروايات الدينية، أو السياسية، أو التاريخية - فإن معظم الإثنوجرافيين يغيرون أسماء الرواة، وذلك كما فعلت راشيل فريتز فى مذكرتها الميدانية عن منطقة موشالا Mushala.

(١٦) من الممكن تبنى هذه الاستراتيجية أيضاً فى تقديم الموضوع الرئيسى لأحد الأقسام الواردة فى البحث الإثنوجرافى.

(١٧) والواقع أن ألثايد وجونسون (Altheide and Johnson 1994: 485) يؤكدان أن "تقدير أهمية العملية التفاعلية وممارستها بالتواصل مع أطرافها، وهى العملية التى من خلالها اكتسب هذا الباحث تلك الخبرة والمعلومات البحثية" يشكلان المكونات الجوهرية "لمنطق" البحث الإثنوجرافى أو "أخلاقياته".

(١٨) فى الواقع، يقتبس بيكر (Becker (1986 50 النصيحة التالية من إيفريت هيوز والتى توصى بكتابة المقدمة بعد الانتهاء من كل شىء، فيقول: "من المفروض أن تقوم المقدمات بمهمة التقديم فعلاً، ولكن كيف تقدم شيئاً لم تكتبه بعد؟ إنك لا تعرف ماذا يكون. إذن انته أولاً من كتابته، وبعد ذلك يمكنك أن تقدمه". ويوصى بيكر نفسه بالممارسة الخاصة التالية فى هذا الصدد فيقول: "إنك فى العادة، وعندما تصل إلى نهاية المسودة التى تكتبها، تكتشف ما يدو فى ذهنك. إذ تكشف لك فقرتك الأخيرة ما الذى ينبغى أن تحتوى عليه المقدمة، كما يمكنك حينئذ أن تعود لكتابتها، وبعد ذلك قم بعمل التغييرات الثانوية فى الفقرات الأخرى وفقاً لما تتطلبه رؤيتك التى توصلت إليها أخيراً".

(١٩) هناك ثمة عدد من المشكلات وأوجه القصور التى تواجه الجهود المبذولة لتطوير بدائل لهذه الأشكال التقليدية للبحوث الإثنوجرافية، والتى منها الجهود التى عرضها كريجر Krieger (١٩٧٩/أ، ١٩٧٩/ب، ١٩٨٣) وكرابانزانو Crapanzano (١٩٨٠)، وكذلك البدائل التى اقترحها دعاة الحركة النسوية، والتى منها تلك التى طرحها رينهارز Reinharz (١٩٩٢). مثال ذلك، أن البحث البديع الأسلوب الذى قدمه كريجر (١٩٧٩/أ) تحت عنوان "رأسمالية الهيبز" Hip Capitalism قد وُصف بأنه يفتقر إلى كل من "الإحساس بالشكل والهدف" وبأنه قصة ذات وقائع منتظمة الترتيب؛ وهذه الصفات "تجعل القارئ يبحث عن إطار تفسيرى لهذا البحث"(Antkinson 1990: 125-126).

* * *

(١) من مـشكلات الإثنوجـرافـيا التـقليدية أن هذا الترتيب أو الإجراء يتصف بالأحادية: فبـمـا أن البـحـوث الإثنوجرافية تكتب من أجل جماهير المثقفين ويكاد ينحصر تداولها بينهم، فإن من النادر أن يظفر هؤلاء الذين صـورت حيواتهـم وأصواتهم فى هذه البحوث بفرصـة لقراءتها وإعلان ردود أفـعالهم على الطريقة التى تم تصـويرهـم بهـا. لهذا يلح عدد من الباحثين الميدانيين (مثل تدلوك Tedlock ١٩٧٩)؛ وهاندلر Handler (١٩٨٥)؛ وبلوت Bloot ١٩٨٨، وإيمرسون وبولنر ١٩٨٨، ١٩٩٢) على العودة بتقارير البحوث الإثنوجرافية إلى هؤلاء الذين تصور هذه التقارير حيواتهم، ليس بهدف الحصـول على "تصديق رسمى" على تلك التقـارير، وإنما بهدف فـتح باب الحوار الإيجابى على مصـراعيه بين أفراد مـجتـمع البحث والباحثين فيما يتصل بمقصد هذه التقارير وفحواها. ولا يستهدف مثل هــذا "الحوار" مجرد الوصول إلى اتفاق أو إجمـاع على هــذه التقارير، وإنما يهــدف إلى إلقاء الضــوء على الاختلافــات التى لابد من وجــودها بين اهتمـامـات الإثنوجرافيين واهتمـامات هــؤلاء الذين قــام الإثنوجرافيون بتصـويرهـم (cf. Emerson and Pollner 1992. 95-96).

(٢) يلخص جونسون وألثايد (١٩٩٣: ١٠٥) هذه المطالب الكثيرة المتعارضة عن طريق التأكيد على أن الباحث الإثنوجرافى/ الكاتب يتعين عليه أن يسعى "لوضع نفسه فى مـواجـهة هؤلاء المبحوثين، وأن يتقبل هذه السلطة بما فيها من مسئولية، وتعرض للخطأ، وأوجه للقصور، وأن تروى حكايتك "أنت" (أى رؤيتك) عن موضـوع البحث، موضـحًا أنك ربما تحيزت فى كتابة هذا التقرير من خلال تبنيك لرؤية معينة، وانتقاء معين، ووصف معين وتفسير بذاته لهذه البيانات التى تم الحصول عليها.

المراجـــع

Abrams, M. H. 1988. *A Glossary of Literary Terms*. 5th ed. New York: Holt, Rinehart and Winston.

Adler, Patricia A., Peter Adler, and E. Burke Rochford, Jr. 1986. "The Politics of Participation in Field Research." *Urban Life* 14:363–76.

Agar, Michael H. 1982. "Whatever Happened to Cognitive Anthropology: A Partial Review." *Human Organization* 41:82–86.

Altheide, David L., and John M. Johnson. 1994. "Criteria for Assessing Interpretive Validity in Qualitative Research." In Norman K. Denzin and Yvonna S. Lincoln, eds., *Handbook of Qualitative Research*, 485–99. Thousand Oaks, Calif.: Sage Publications.

Anderson, Elijah. 1990. *Streetwise: Race, Class, and Change in an Urban Community*. Chicago: University of Chicago Press.

Atkinson, Paul. 1990. *The Ethnographic Imagination: Textual Constructions of Reality*. New York: Routledge.

Barth, Fredrik, ed. 1969. *Ethnic Groups and Boundaries*. Boston: Little, Brown.

Batchelder, D., and E. Warner. 1977. *Beyond Experience*. Brattleboro, Vt.: The Experiment Press.

Bauman, Richard. 1992a. *Story, Performance, and Event: Contextual Studies of Oral Narrative*. Cambridge: Cambridge University Press.

———, ed. 1992b. *Folklore, Cultural Performances, and Popular Entertainments: A Communications Centered Handbook*. Oxford: Oxford University Press.

Becker, Howard S. 1986. *Writing for Social Scientists: How to Start and Finish Your Thesis, Book, or Article*. Chicago: University of Chicago Press.

Ben-Amos, Dan. 1982. "Analytical Categories and Ethnic Genres." In Dan Ben-Amos, *Folklore in Context: Essays*, 38–64. New Dehli: South Asian Publishers.

Berger, Bennett M. 1981. *The Survival of a Counterculture: Ideological Work and Everyday Life among Rural Communards*. Berkeley: University of California Press.

Clarke, Michael. 1975. "Survival in the Field: Implications of Personal Experience in Field Work." *Theory and Society* 2:95–123.

Clifford, James. 1983. "On Ethnographic Authority." *Representations* 1:118–46.

———. 1986. "On Ethnographic Allegory." In James Clifford and George E. Marcus, eds., *Writing Culture. The Poetics and Politics of Ethnography*, 98–121. Berkeley: University of California Press.

———. 1990. "Notes on (Field)notes." In Roger Sanjek, ed., *Fieldnotes. The Making of Anthropology*, 47–70. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.

Clifford, James, and George E. Marcus, eds.. 1986. *Writing Culture. The Poetics and Politics of Ethnography.* Berkeley: University of California Press.

Corbin, Juliet M., and Anselm Strauss. 1988. *Unending Work and Care: Managing Chronic Illness at Home.* San Francisco: Jossey-Bass.

Cosentino, Donald. 1982. *Defiant Maids and Stubborn Farmers: Tradition and Invention in Mende Story Performances.* Cambridge: Cambridge University Press.

Crapanzano, Vincent. 1980. *Tuhami: Portrait of a Moroccan.* Chicago: University of Chicago Press.

Denzin, Norman K., and Yvonna C. Lincoln, eds. 1994. *Handbook of Qualitative Research.* Thousand Oaks, Calif.: Sage Publications.

DeVault, Marjorie L. 1990. "Talking and Listening from Women's Standpoint: Feminist Strategies for Interviewing and Analysis." *Social Problems* 37:96–116.

———. 1991. *Feeding the Family: The Social Organization of Caring as Gendered Work.* Chicago: University of Chicago Press.

Diamond, Jared. 1989. "The Ethnobiologist's Dilemma." *Natural History*, no. 6 (June): 26–30.

Diamond, Timothy. 1993. *Making Gray Gold: Narratives of Nursing Home Care.* Chicago: University of Chicago Press.

Dingwall, Robert, J. Eekelaar, and T. Murray. 1983. *The Protection of Children: State Intervention and Family Life.* Oxford: Basil Blackwell.

Douglas, Jack D. 1976. *Investigative Social Research: Individual and Team Field Research.* Beverly Hills, Calif.: Sage Publications.

Ellis, Carolyn. 1991. "Sociological Introspection and Emotional Experience." *Symbolic Interaction* 14:23–50.

Ellen, R. F., ed. 1984. *Ethnographic Research: A Guide to General Conduct.* London: Academic Press.

Emerson, Robert M. 1987. "Four Ways to Improve the Craft of Fieldwork." *Journal of Contemporary Ethnography* 16:69–89.

———. 1989. "Tenability and Troubles: The Construction of Accommodative Relations by Psychiatric Emergency Teams." In Gale Miller and James A. Holstein, eds., *Perspectives on Social Problems: A Research Annual*, vol. 1. pp. 215–37. Greenwich, Conn.: JAI Press.

———, ed. 1988. *Contemporary Field Research: A Collection of Readings.* Prospect Heights, Ill.: Waveland.

Emerson, Robert M., and Sheldon L. Messinger. 1977. "The Micro-Politics of Trouble." *Social Problems* 25:121–34.

Emerson, Robert M., and Melvin Pollner. 1976. "Dirty Work Designations:

Biernacki, Patrick. 1986. *Pathways from Heroin Addiction: Recovery with Treatment.* Philadelphia: Temple University Press.

Bittner, Egon. 1988. "Realism in Field Research." In Robert M. Emerson, ed., *Contemporary Field Research: A Collection of Readings,* 149–55. Prospect Heights, Ill.: Waveland.

Bleich, David. 1993. "Ethnography and the Study of Literacy: Prospects for Socially Generous Research." In Anne Ruggles Gere, ed., *Into the Field: Sites of Composition Studies,* 176–92. New York: The Modern Language Association of America.

Bloor, Michael J. 1988. "Notes on Member Validation." In Robert M. Emerson, ed., *Contemporary Field Research: A Collection of Readings,* 156–72. Prospect Heights, Ill.: Waveland.

Blum, Nancy S. 1991. "The Management of Stigma by Alzheimer Family Caregivers." *Journal of Contemporary Ethnography* 20:263–84.

Blumer, Herbert. 1969. *Symbolic Interactionism: Perspective and Method.* Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall.

Bogdan, Robert, and Steven J. Taylor. 1987. "Toward a Sociology of Acceptance: The Other Side of the Study of Deviance." *Social Policy* 18:34–39.

Briggs, Charles L. 1986. *Learning How to Ask: A Sociolinguistic Appraisal of the Role of the Interview in Social Science Research.* Cambridge: Cambridge University Press.

———. 1988. *Competence in Performance: The Creativity of Tradition in Mexicano Verbal Art.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Brown, Richard H. 1977. *A Poetic for Sociology: Toward a Logic of Discovery in the Human Sciences.* Cambridge: Cambridge University Press.

Burgess, Robert G. 1982. *Field Research: A Sourcebook and Field Manual.* London: George Allen & Unwin.

———. 1984. *In the Field: An Introduction to Field Research.* London: George Allen & Unwin.

Cahill, Spencer E. 1985. "Meanwhile Backstage: Public Bathrooms and the Interaction Order." *Urban Life* 14:33–58.

Camitta, Miriam. 1990. "Gender and Method in Folklore Fieldwork." *Southern Folklore* 47:21–31.

Cassell, Joan. 1980. "Ethical Principles for Conducting Fieldwork." *American Anthropologist* 82:28–41.

Charmaz, Kathy. 1988. "The Grounded Theory Method: An Explication and Interpretation." In Robert M. Emerson, ed., *Contemporary Field Research: A Collection of Readings,* 109–26. Prospect Heights, Ill.: Waveland.

———. 1991. *Good Days, Bad Days: The Self in Chronic Illness and Time.* New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press.

Cicourel, Aaron V. 1968. *The Social Organization of Juvenile Justice.* New York: John Wiley.

———. 1974. *Cognitive Sociology: Language and Meaning in Social Interaction.* New York: Free Press.

Cicourel, Aaron V., and John I. Kitsuse. 1963. *The Educational Decision-Makers.* Indianapolis: Bobbs Merrill.

———. 1983. *Local Knowledge: Further Essays in Interpretive Anthropology*. New York: Basic Books.

Georges, Robert A. 1981. "Do Narrators Really Digress? A Reconsideration of 'Audience Asides' in Narrating." *Western Folklore* 40:245–52.

Georges, Robert A., and Michael O. Jones. 1980. *People Studying People: The Human Element in Fieldwork*. Berkeley: University of California Press.

Glaser, Barney G. 1978. *Theoretical Sensitivity*. Mill Valley, Calif.: Sociology Press.

Glaser, Barney G., and Anselm L. Strauss. 1965. *Awareness of Dying*. Chicago: Aldine.

———. 1967. *The Discovery of Grounded Theory: Strategies for Qualitative Research*. Chicago: Aldine.

Goffman, Erving. 1961. *Asylums*. Garden City, N.J.: Doubleday.

———. 1971. *Stigma: Notes on the Management of Spoiled Identity*. Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall.

———. 1989. "On Fieldwork." *Journal of Contemporary Ethnography* 18:123–32.

Golde, Peggy, ed. 1970. *Women in the Field: Anthropological Experiences*. Chicago: Aldine.

Goldstein, Kenneth S. 1964. *A Guide for Field Workers in Folklore* Hatboro, Penn.: Folklore Associates.

Gottlieb, Alma, and Philip Graham. 1993. *Parallel Worlds: An Anthropologist and a Writer Encounter Africa*. New York: Crown Publishers.

Gusfield, Joseph. 1976. "The Literary Rhetoric of Science: Comedy and Pathos in Drinking Driver Research." *American Sociological Review* 41:16–34.

Hammersley, Martyn. 1992. *What's Wrong with Ethnography?* London: Routledge.

Hammersley, Martyn, and Paul Atkinson. 1983. *Ethnography: Principles in Practice*. London: Tavistock.

Handler, Richard. 1985. "On Dialogue and Destructive Analysis: Problems in Narrating Nationalism and Ethnicity." *Journal of Anthropological Research* 41:171–82.

Harper, Douglas. 1992. "Small N's and Community Case Studies." In Charles C. Ragain and Howard S. Becker. eds., *What Is a Case? Exploring the Foundations of Social Inquiry*, 139–58. Cambridge: Cambridge University Press.

Heritage, John. 1984. *Garfinkel and Ethnomethodology*. Cambridge: Polity Press.

Hughes, Everett C. 1960. "The Place of Field Work in Social Science." In Buford H. Junker, *Field Work: An Introduction to the Social Sciences*. v–xv. Chicago: University of Chicago Press.

———. 1971. *The Sociological Eye: Selected Papers*. Chicago: Aldine.

Hunt, Jennifer. 1985. "Police Accounts of Normal Force." *Urban Life* 13:315–41.

Hymes, Dell. 1991. *"In Vain I Tried to Tell You." Essays in Native American Ethnopoetics*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Jackson, Bruce. 1987. *Fieldwork*. Chicago: University of Illinois Press.

Jackson, Jean E. 1990a. "'Deja Entendu': The Liminal Qualities of Anthropological Fieldnotes." *Journal of Contemporary Ethnography* 19:8–43.

———. 1990b. "'I Am a Fieldnote': Fieldnotes as a Symbol of Professional Identity." In Roger Sanjek, ed., *Fieldnotes: The Making of Anthropology*, 3–33. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.

Jackson, Michael. 1982. *Allegories of the Wilderness: Ethics and Ambiguity in Kuranko Narratives*. Bloomington: Indiana University Press.
Johnson, John M., and David L. Altheide. 1993. "The Ethnographic Ethic." In Norman K. Denzin, ed., *Studies in Symbolic Interaction*, vol. 14, pp. 95–107. Greenwich, Conn.: JAI Press.
Johnstone, Barbara. 1990. *Stories, Community, and Place: Narratives from Middle America*. Bloomington: Indiana University Press.
Jordan, Manuel. 1993 "Le Masque comme processus ironiques: Les *Makishi* du Nord-Ouest de la Zambie." *Anthropologie et Société* 17:41–61.
Jules-Rosette, Bennetta. 1975. *Vision and Realities: Aspects of Ritual and Conversion in an African Church*. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.
Junker, Buford H. 1960. *Field Work: An Introduction to the Social Sciences*. Chicago: University of Chicago Press.
Karp, Ivan, and Martha B. Kendall. 1982. "Reflexivity in Field Work." In Paul F. Secord, ed., *Explaining Human Behavior: Consciousness, Human Action, and Social Structure*, 249–73. Beverly Hills, Calif.: Sage.
Katz, Jack. 1988. "A Theory of Qualitative Methodology: The System of Analytic Fieldwork." In Robert M. Emerson, ed., *Contemporary Field Research: A Collection of Readings*, 127–48. Prospect Heights, Ill.: Waveland.
Kleinman, Sherryl. 1991. "Field-Workers' Feelings: What We Feel, Who We Are, How We Analyze." In William B. Shaffir and Robert A. Stebbins, eds., *Experiencing Fieldwork: An Inside View of Qualitative Research*, 184–95. Newbury Park, Calif.: Sage Publications.
Krieger, Susan. 1979a. *Hip Capitalism*. Beverly Hills: Sage Publications.
———. 1979b. "Research and the Construction of a Text." In Norman K. Denzin, ed., *Studies in Symbolic Interaction*, vol. 2, pp. 167–87. Greenwich, Conn.: JAI Press.
———. 1983. *The Mirror Dance: Identity in a Women's Community*. Philadelphia: Temple University Press.
Latour, Bruno. 1987. *Science in Action: How to Follow Scientists and Engineers through Society*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
Latour, Bruno, and Steve Woolgar. 1979. *Laboratory Life: The Social Construction of Scientific Facts*. Beverly Hills: Sage Publications.
Lawless, Elaine. 1993. *Holy Women, Wholly Women: Sharing Ministries through Life Stories and Reciprocal Ethnography*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.
Lederman, Rena. 1990. "Pretexts for Ethnography: On Reading Fieldnotes." In Roger E. Sanjek, ed., *Fieldnotes: The Making of Anthropology*, 71–91. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.
Lofland, John, and Lyn H. Lofland. 1995. *Analyzing Social Settings: A Guide to Qualitative Observation and Analysis*. 3rd ed. Belmont, Calif.: Wadsworth.
Lofland, Lyn H. 1985. *A World of Strangers: Order and Action in Urban Public Space*. Prospect Heights, Ill.: Waveland Press.
Lutkehaus, Nancy. 1990. "Refractions of Reality: On the Use of Other Ethnographers' Fieldnotes." In Roger E. Sanjek, ed., *Fieldnotes: The Making of Anthropology*, 303–23. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.

Lyman, Stanford M., and William A. Douglass. 1973. "Ethnicity: Strategies of Collective and Individual Impression Management." *Social Research* 40:344–65.

Lynch, Michael. 1985. *Art and Artifact in Laboratory Science: A Study of Shop Work and Shop Talk in a Research Laboratory*. London: Routledge and Kegan Paul.

Marcus, George E. 1986. "Afterword: Ethnographic Writing and Anthropological Careers." In James Clifford and George E. Marcus, eds., *Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography*, 262–66. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Marcus, George E., and Richard Cushman. 1982. "Ethnographies as Texts." *Annual Review of Anthropology* 11:25–69.

Marcus, George E., and Michael M. Fisher. 1986. *Anthropology as Cultural Critique*. Chicago: University of Chicago Press.

Marger, Martin. 1991. *Race and Ethnic Relations*. Belmont, Calif.: Wadsworth.

Matza, David. 1969. *Becoming Deviant*. Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall.

Maynard, Douglas W. 1984. *Inside Plea Bargaining: The Language of Negotiation* New York: Plenum.

———. 1989. "On the Ethnography and Analysis of Discourse in Institutional Settings." In James A. Holstein and Gale Miller, eds., *Perspectives on Social Problems*, 1:127–46. Greenwich, Conn.: JAI Press.

Mehan, Hugh, Alma Hertweck, and J. Lee Meihls. 1986. *Handicapping the Handicapped: Decision Making in Students' Educational Careers*. Stanford: Stanford University Press.

Mills, Margaret A. 1990. "Critical Theory and the Folklorists: Performance, Interpretive Authority, and Gender." *Southern Folklore* 47:5–15.

Mishler, Elliot G. 1979. "Meaning in Context: Is There Any Other Kind?" *Harvard Education Review* 49:1–19.

Moerman, Michael. 1969. "A Little Knowledge." In Stephen A. Tyler, ed., *Cognitive Anthropology*, 449–69. New York: Holt, Rinehart and Winston.

Myerhoff, Barbara, and Jay Ruby. 1982. "Introduction." In Jay Ruby, ed., *A Crack in the Mirror: Reflexive Perspectives in Anthropology*, 1–35. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Okpewho, Isidore. 1992. *African Oral Literature: Backgrounds, Character, and Community*. Bloomington: Indiana University Press.

Ong, Walter J. 1975. "The Writer's Audience is Always a Fiction." *PMLA* 90:9–21.

Oring, Elliott. 1986. "Folk Narratives." In Elliott Oring, ed., *Folk Groups and Folklore Genres: An Introduction*, 121–45. Logan: Utah State University Press.

Ottenberg, Simon. 1990. "Thirty Years of Fieldnotes: Changing Relationships to the Text." In Roger E. Sanjek, ed., *Fieldnotes: The Making of Anthropology*, 139–60. Ithaca: Cornell University Press.

Perl, Sondra. 1980. "Understanding Composing." *College Composition and Communication* 31:363–69.

Pfaffenberger, Bryan. 1988. *Microcomputer Applications in Qualitative Research*. Newbury Park, Calif.: Sage.

Pollner, Melvin, and Robert M. Emerson. 1988. "The Dynamics of Inclusion

and Distance in Fieldwork Relations." In Robert M. Emerson, ed., *Contemporary Field Research: A Collection of Readings*, 235–52. Prospect Heights, Ill.: Waveland.

Pollner, Melvin, and Lynn McDonald-Wikler. 1985. "The Social Construction of Unreality: A Case Study of a Family's Attribution of Competence to a Severely Retarded Child." *Family Process* 24:241–54.

Psathas, George, and Timothy Anderson. 1990. "The 'Practices' of Transcription in Conversation Analysis." *Semiotica* 78:75–99.

Reinharz, Shulamit. 1979. *On Becoming a Social Scientist: From Survey Research and Participant Observation to Experiential Analysis*. San Francisco: Jossey-Bass.

———. 1992. *Feminist Methods in Social Research*. New York: Oxford University Press.

Richards, T. J., and Lyn Richards. 1994. "Using Computers in Qualitative Research." In Norman K. Denzin and Yvonna S. Lincoln, eds., *The Handbook of Qualitative Research*, 445–62. Thousand Oaks, Calif.: Sage.

Richardson, Laurel. 1990. *Writing Strategies: Reaching Diverse Audiences*. Newberry Park, Calif.: Sage Publications.

———. 1994. "Writing: A Method of Inquiry." In Norman K. Denzin and Yvonna S. Lincoln, eds., *Handbook of Qualitative Research*, 516–29. Thousand Oaks, Calif.: Sage.

Riessman, Catherine Kohler. 1987. "When Gender is Not Enough: Women Interviewing Women." *Gender and Society* 1:172–207.

Rochford, E. Burke, Jr. 1985. *Hare Krishna in America*. New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press.

———. 1992. "On the Politics of Member Validation: Taking Findings Back to Hare Krishna." In Gale Miller and James A. Holstein, eds., *Perspectives on Social Problems: A Research Annual*, vol. 3, pp. 99–116. Greenwich, Conn.: JAI Press.

Royce, Anya P. 1982. *Ethnic Identity: Strategies of Diversity*. Bloomington: Indiana University Press.

Sanjek, Roger, ed. 1990a. *Fieldnotes: The Making of Anthropology*. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.

———. 1990b. "Preface." In Roger Sanjek, ed., *Fieldnotes: The Making of Anthropology*, xi–viii. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.

———. 1990c. "A Vocabulary for Fieldnotes." In Roger Sanjek, ed., *Fieldnotes: The Making of Anthropology*, 92–121. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.

———. 1990d. "The Secret Life of Fieldnotes." In Roger Sanjek, ed., *Fieldnotes: The Making of Anthropology*, 187–270. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.

Schatzman, Leonard, and Anselm Strauss. 1973. *Field Research: Strategies for a Natural Sociology*. Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall.

Schutz, Alfred. 1964. *Collected Papers*, vol. 2: *Studies in Social Theory*. The Hague: Martinus Nijhoff.

Schwartz, Barry. 1975. *Queuing and Waiting: Studies in the Social Organization of Access and Delay*. Chicago: University of Chicago Press.

Schwartz, Howard, and Jerry Jacobs. 1979. *Qualitative Sociology: A Method to the Madness*. New York: The Free Press.

Shaw, Linda L. 1988. Board and Care: The Everyday Lives of Ex-Mental Patients in the Community. Ph.D. diss., University of California, Los Angeles.

———. 1991. "Stigma and the Moral Careers of Ex-Mental Patients Living in Board and Care." *Journal of Contemporary Ethnography* 20:285–305.

Sherzer, Joel. 1983. *Kuna Ways of Speaking: An Ethnographic Perspective*. Austin: University of Texas Press.

———. 1992. "Ethnography of Speaking." In Richard Bauman, ed., *Folklore, Cultural Performances, and Popular Entertainments: A Communications Centered Handbook*, 76–80. Oxford: Oxford University Press.

Snow, David A., and Leon Anderson. 1993. *Down on Their Luck: A Study of Homeless Street People*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Spradley, James P. 1979. *The Ethnographic Interview*. New York: Holt, Rinehart and Winston.

———. 1980. *Participant Observation*. New York: Holt, Rinehart and Winston.

Stacey, Judith. 1991. "Can There Be a Feminist Ethnography?" In Sherna B. Gluck and Daphne Patai, eds., *Women's Words*, 111–19. New York: Routledge.

Stahl, Sandra Dolby. 1989. *Literary Folkloristics and the Personal Narrative*. Bloomington: Indiana University Press.

Stoddard, Kenneth. 1986. "The Presentation of Everyday Life: Some Textual Strategies for 'Adequate Ethnography'." *Urban Life* 15:103–21.

Stoller, Paul. 1989. *The Taste of Ethnographic Things: The Senses in Anthropology*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Stone, Ruth M., and Verlon L. Stone. 1981. "Event, Feedback, and Analysis: Research Media in the Study of Music Events." *Ethnomusicology* 25:215–25.

Strauss, Anselm L. 1987. *Qualitative Analysis for Social Scientists*. Cambridge: Cambridge University Press.

Strauss, Anselm L., and Juliet Corbin. 1990. *Basics of Qualitative Research: Grounded Theory Procedures and Techniques*. Newbury Park, Calif.: Sage Publications.

Sudnow, David. 1967. *Passing On: The Social Organization of Dying*. Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall.

Taylor, Steven J., and Robert Bogdan. 1984. *Introduction to Qualitative Research Methods: The Search for Meanings*. 2d ed. New York: John Wiley.

Tedlock, Dennis. 1979. "The Analogical Tradition and the Emergence of Dialogical Anthropology." *Journal of Anthropological Research* 35:387–400.

———. 1983. *The Spoken Word and the Work of Interpretation*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Tesch, Renata. 1990. *Qualitative Research: Analysis Types and Software Tools*. London: Falmer Press.

Thorne, Barrie. 1980. "'You Still Takin' Notes?' Fieldwork and Problems of Informed Consent." *Social Problems* 27:284–97.

———. 1993. *Gender Play: Girls and Boys in School*. New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press.

Van Maanen, John. 1978. "The Asshole." In Peter K. Manning and John Van Maanen, eds., *Policing: A View From the Street*, 221–38. Santa Monica, Calif.: Goodyear.

———. 1988. *Tales of the Field: On Writing Ethnography.* Chicago: University of Chicago Press.

Walker, Anne Graffam. 1986. "The Verbatim Record: The Myth and the Reality." In Sue Fisher and Alexandra Dundas Todd, eds., *Discourse and Institutional Authority: Medicine, Education, and Law,* 205–22. Norwood, N.J.: Ablex Publishing.

Warren, Carol A. B. 1980. "Data Presentation and the Audience: Responses, Ethics, and Effects." *Urban Life* 9:282–308.

———. 1988. *Gender Issues in Field Research.* Newbury Park, Calif.: Sage Publications.

Wax, Murray L. 1977. "On Fieldworkers and Those Exposed to Fieldwork: Federal Regulations and Moral Issues." *Human Organization* 36:321–28.

———. 1980. "Paradoxes of 'Consent' to the Practice of Fieldwork," *Social Problems* 27:272–83.

Willis, Paul. 1977. *Learning to Labor: How Working Class Kids Get Working Class Jobs.* New York: Columbia Unversity Press.

Wilson, William A. 1986. "Documenting Folklore." In Elliott Oring, ed., *Folk Groups and Folklore Genres: An Introduction,* 225–54. Logan: Utah State University Press.

Wiseman, Jacqueline P. 1970. *Stations of the Lost: The Treatment of Skid Row Alcoholics.* Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall.

Wolcott, Harry F. 1990. *Writing Up Qualitative Research.* Newbury Park, Calif.: Sage Publications.

Wolf, Margery. 1992. *A Thrice-Told Tale: Feminism, Postmodernism, and Ethnographic Responsibility.* Stanford: Stanford University Press.

Yocom, Margaret R. 1990. "Fieldwork, Gender, and Transformation: The Second Way of Knowing." *Southern Folklore* 47:33–44.

Yoder, P. Stanley, ed. 1982. *African Health and Healing Systems: Proceedings of a Symposium.* Los Angeles: Crossroads Press.

Young, Jane M. 1988. *Signs from the Ancestors: Zuni Cultural Symbolism and Perceptions of Rock Art.* Albuquerque: University of New Mexico Press.

المترجمة فى سطور

أ.د. هناء الجوهرى

أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة القاهرة والخبيرة الدولية فى التنمية الاجتماعية.

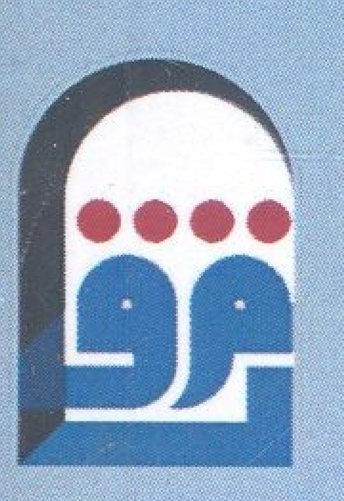
اهتمت منذ بداية عملها الأكاديمى بدراسة أشكال الحياة والعمل الجديدة، فدرست "ظاهرة الأعمال الإضافية غير الرسمية بين موظفى الحكومة والقطاع العام" (١٩٨٩) و"أثر المتغيرات الاجتماعية والثقافية فى تشكيل نوعية الحياة فى المجتمع المصرى" (١٩٩٤). كما اهتمت بحياة ومشكلات سكان العشوائيات فى مدينة القاهرة، وحياة فقراء المدينة، وظواهر الحرمان الاجتماعى...إلخ. ورافق ذلك كله اهتمام متصل بدراسة الأبعاد الاجتماعية والثقافية للمشكلات البيئية، وأخرجت كتابًا عن "التنمية الحضرية" (٢٠٠٦) وكتابًا عن "ثقافة التحايل. دراسة ميدانية لنماذج من التجمعات العشوائية بالقاهرة الكبرى" (٢٠٠٤)، ويحوى تقرير البحث الذى أجرته فى إطار مشروع "التراث والتغير" الكبير الذى نفذه مركز البحوث والدراسات الاجتماعية بجامعة القاهرة. هذا فضلاً عن دراسات "الشباب والإنترنت" (٢٠٠٠)، و"مجتمع الماكدونالدز" (٢٠٠٥) وغيرها كثير مما لا يتسع المجال لحصره هنا.

المراجع فى سطور

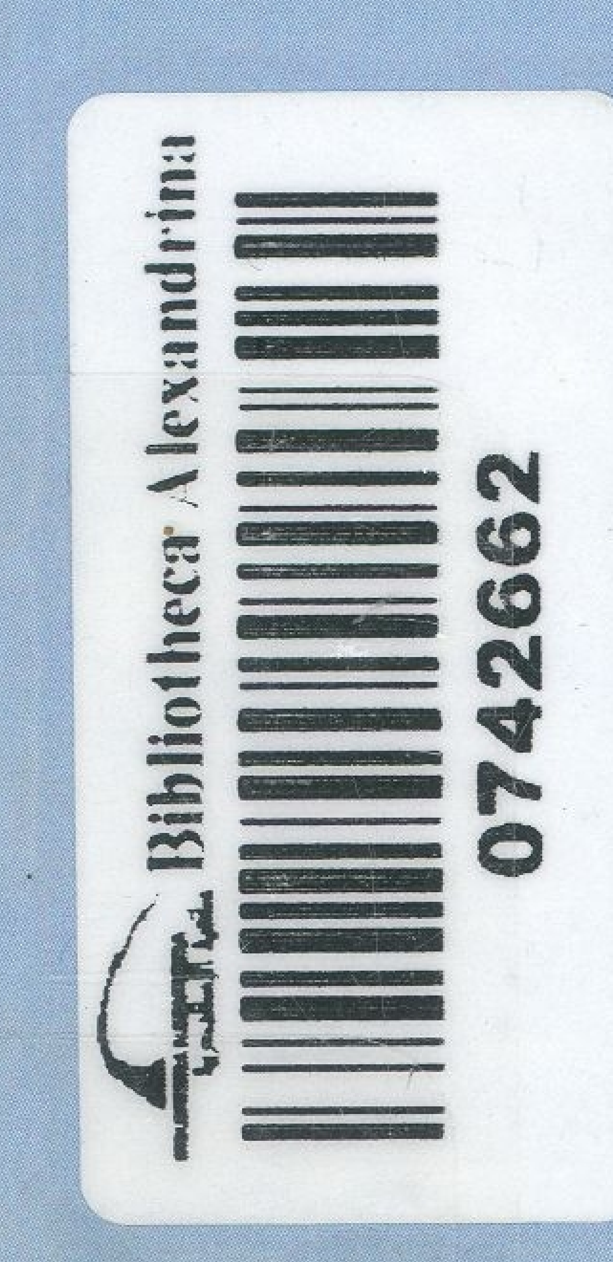
أ.د. محمد الجوهرى

- أستاذ علم الاجتماع بجامعة القاهرة.
- عميد كلية الآداب، جامعة القاهرة ورئيس جامعة حلوان الأسبق.
- أشرف وشارك فى عدد كبير من البحوث والندوات العلمية والمؤتمرات الدولية والعربية فى ميادين: علم الاجتماع، دراسات التراث الشعبى، التنمية الاجتماعية، الدراسات الثقافية.
- مثَّل مصر، على امتداد أربعة عشر عامًا، فى المؤتمر العام لليونسكو بباريس.
- رأس "المجلس الدولى لدراسة التحولات الاجتماعية" التابع لليونسكو (١٩٩٥-١٩٩٧).
- ألف ونشر ١١٨ بحثًا ودراسة.
- ترجم وشارك فى ترجمة ٣٥ عملاً.
- أشرف على ٥٤ رسالة دكتوراه، و٥١ رسالة ماجستير.

الإشراف اللغـوى : حسام عبد العزيز
الإشـراف الفنـى : حســـن كــامـل



يعد هذا الكتاب عملاً رائداً ومهماً فى سد ثغرة كبيرة فى تعليم العلوم الاجتماعية عموماً، والسوسيولوجية والأنثروبولوجية خصوصاً. ويتناول القضايا المتعلقة بإجراءات تسجيل الملاحظات الميدانية وكتابة تقرير البحث الميدانى، ويتوجه إلى فئتين من الجمهور العام؛ تشمل الأولى المعنيين بالبحث الميدانى لأغراض البحث الأكاديمى أساساً، وذلك من خلال تطوير دليل إرشادى عملى لخطوات البحث الميدانى يمكن أن يفيد طلاب البكالوريوس والدراسات العليا فى عدد من فروع الدراسة الأكاديمية، وتشمل هذه الفروع: علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم الفولكلور، والتاريخ الشفاهى، والتربية، وعلم الموسيقى السلالى (المقارن)، التى يحتل فيها البحث الميدانى والمناهج الإثنوجرافية مكانة بارزة. كما تشمل فروعاً أخرى كالعلوم السياسية، وإدارة الأعمال، ودراسات الاتصال، والتأليف الموسيقى، والرعاية الاجتماعية، والصحة العامة، وغيرها من التخصصات التى تحتاج إلى إجراء بحوث ميدانية.



تصميم الغلاف: نسرين كشك